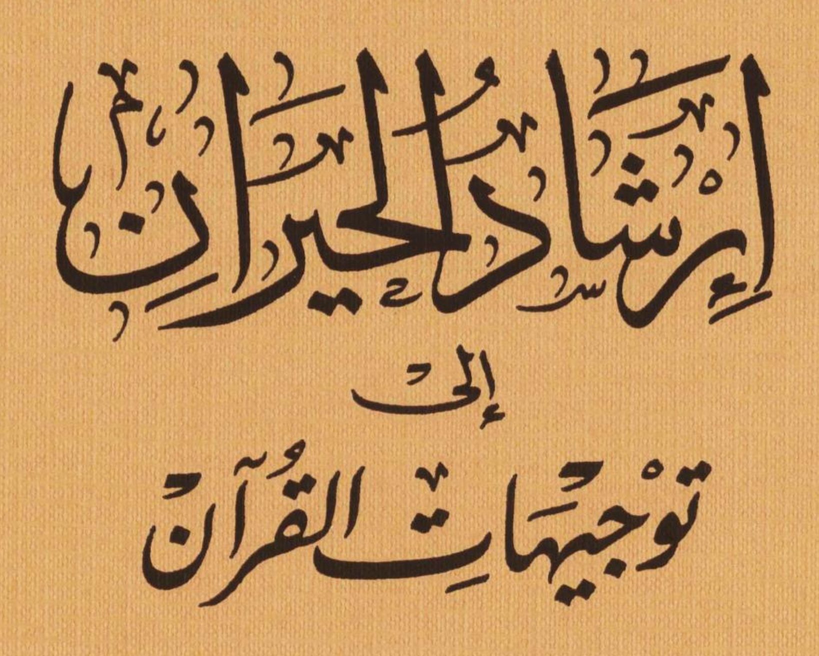
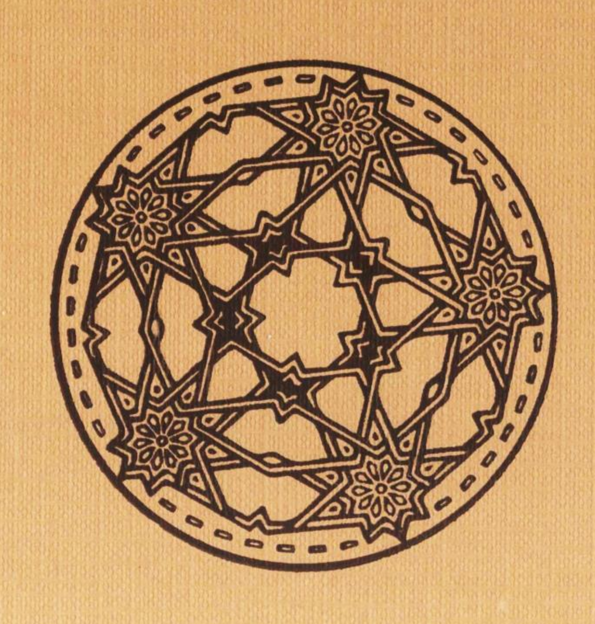


بقلم

فضيلة الشيخ

أحمد عبد السلام أبو مزيريق



دار المدار الاسلامي


إرشاد الحيران
إلى
توجيهات القرآن

إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن

6

بقلم
فضيلة الشيخ
أحمد عبد السلام أبو مزيريق

دار المدار الإسلامي

إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن 12/1
الشيخ أحمد عبد السلام أبو مزيريق

الطبعة الأولى
كانون الثاني/يناير/أي النار 2011 إفرنجي

موضوع الكتاب تفسير قرآني
تصميم الغلاف دار المدار الإسلامي
الحجم 17 × 24 سم
التجليد فنّي

ردمك ISBN 9959-29-182-0
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)

رقم الإيداع المحلي 2003/5680

دار المدار الإسلامي
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + **خليوي** 89 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 14/6703 بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى
هاتف وفاكس: 013 07 34 21 218 + **نقّال** 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني: oeabooks@yahoo.com

1 ـ غفلةُ الإنسان الحيران باعَدَتْه عن فهم مقاصد القرآن

النص

* وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿6﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ
مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
مُّبِينٌ ﴿7﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ
لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ
وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿8﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا
ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿9﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ
ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿10﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿11﴾
فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ
أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ
إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿12﴾

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (14) * مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (16) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (17) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا

أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿21﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿22﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿23﴾ * مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿24﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها﴾: الدابة: كل ما يدب، والمراد به هنا الحيوان، على حد قوله تعالى: «والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع». والرزق: ما ينتفع به الحيوان من مأكل ومشرب ومأوى... **﴿ويعلم مستقرّها ومستودعها﴾**: المستقر: المكان الذي يقر فيه الشيء. والمستودع: محل الإيداع، وهو ما يحفظ فيه الشيء ويُدّخر... **﴿كل في كتاب مبين﴾**: كل ما ذكر مكتوب واضح مقداراً وأجلاً لا يتبدل ولا يتغير... **﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾**: تقدم معنى هذا الكلام في سورة الأعراف... **﴿وكان عرشه على الماء﴾**: العرش في المعنى اللغوي: الارتفاع والعلو والسمو، فعرش الله ملكه العالي السامي. والماء في العرف اللغوي: المادة السائلة المتكونة من ماء المطر النازل والمخزون، وحقيقته الذاتية غيب استأثر الله به كما استأثر بحقيقة العرش وكل غيب من غيوبه، فلا قيمة للبحث في أمر غيبيّ يعجز الإنسان عن تحقيقه... **﴿ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً﴾**: البلو والابتلاء: اختبار شيء لتحصيل علم بأحواله، وهو المعنى اللغوي الأصلي، وهو مستعمل هنا لإظهار نتيجة العمل

الذي كلف به الإنسان من خير أو شر. وأيكم: اسم استفهام عن أفضلية العمل وضده. . . **﴿ولئن قلت إنّكم مبعوثون من بعد الموت ليقولنَّ الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾**: المفردات في هذه الجمل معناها واضح مما تقدم من معاني مثلها. . . **﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولنَّ ما يحبسه﴾** ؟: أصل الأمة: الجماعة الكثيرة من الناس يؤمّ بعضُهم إلى بعض. وأطلقت الأمة هنا على المدّة من الزمن لِتَعَلُّقِ الزمن بأجيال الناس. ومعدودة: مقدرة بأجل محدد بالعدّ.

والحبس: إلزام الشيء مكاناً لا يتجاوزه بحيث يمتنع من الظهور أو الخروج. . . **﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون﴾**: الصرف: الدفع والإقصاءُ. والْحَوْقُ: الإحاطة، ومعناه هنا أنّه حالٌّ بهم حلولاً لا مخلص منه بحال. . . **﴿ولئن أذقنا الإنسان منّا رحمة ثم نزعناها منه إنّه ليؤوس كفور﴾**: الإذاقة: الإحساس بطعم الشيء بحاسة الذوق، وهو اللسان، ثم استعمل في إدراك المُحسّ الملائم للذوق أو المنافر له. والرحمة هنا: مراد بها العافية والأمن والصحة والسلامة. والنزع في الأصل: خلع الثوب عن الجسد، ثم استعملت في سلب النعمة المعبر عنها هنا بالرحمة. واليؤوس والكفور: مثالان للمبالغة في الآيس وجاحد النعمة، والمراد بالكفور منكر نعمة الله. . . **﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولنَّ ذهب السيئات عني إنّه لفرح فخور﴾**: والنَّعماء: النعمة، ويقابلها ضراء، وهي النقمة.

والمس: مستعمل في مطلق الإصابة. وفرح فخور صيغتان للمبالغة، والفرِحُ: شديدُ الفرحَ، وهو تجاوزه الحد في البطر والشر. وشدة الفخر: تجاوز الحد بتباهي المرء على غيره بما له من الأشياء المحبوبة للناس. . . **﴿إلاّ الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾**: من معاني الصبر انتظار الفرج في حالة الضيق وهو المراد هنا. وبقية الكلمات واضحة. . . **﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنّما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾**: ضائق اسم فاعل، وضيق الصدر: غمُّه وحُزْنه بسبب ما يسمع ويرى صاحبه من سوء. ولولا حرف تحضيض. والإنزال: الإتيان من مكان عال. ومعنى الكنز هنا: الذهب، وأصل الكنز: المال المدخر لنوائب الدهر، وأكثر ما يكون من الذهب لعدم صدئه وفساده.

والملك: أحد الملائكة... **﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾**: مفردات هذه الآية مثل مفردات آية يونس... **﴿فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾**: إن لم يلبوا طلبكم وعجزوا مثل ما عجزتم فتيقنوا صحة القرآن بأنّه منزل من لدن حكيم خبير، الذي دعاكم إلى توحيده وترك عبادة غيره، فهل أنتم بعد هذا التحدي خاضعون مستجيبون لدعوة الحق ؟!.. **﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾**: إرادة الحياة الدنيا هنا: إيثارها على الآخرة، لا تركها المفهوم من ذم إرادتها. وزينة الدنيا: متاعها الزائل، ومعناه الشرعي في قوله تعالى: «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا».

والتوفية: إعطاء الشيء كاملاً غير منقوص. والإبخاس: جعل الشيء ناقصاً في وضعه الطبيعي، والاسم منه البخس، وهو الحطُّ من الشيء والنقص منه على ما ينبغي أن يكون عليه ظلماً... **﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾**: المشار إليهم بأولئك الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها، ليس لهم شيء مما يعطاه المؤمنون في الآخرة إلاّ نار جهنم، وحبط كل ما عملوا في الدنيا وبطل. والحبْط: فساد الشيء، وأصله فساد بطن الحيوان عند أكل الحشيش الوخم... **﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾**: البينة: الحجة القاطعة. ويتلوه: يعقبه. وشاهد منه: الدلائل التي في القرآن.

وكتاب موسى: التوراة. والإمام: المتَّبَعُ. والرحمة: النعمة... **﴿أولئك يؤمنون به﴾**: من كان على بينة من ربهم يؤمنون بالقرآن المؤيد بالعقل والنقل... **﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾**: الأحزاب: الفرق من الملل والنحل... **﴿فلا تَكُ في مرية منه إنّه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾**: المرية: الشك، وهي مرادفة الامتراء؛ فالشك في القرآن لا يمكن أن يكون؛ لأنّه منزل من عند الله... **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾**: تقدم معنى مثلها في سورة الأنعام... **﴿أولئك يعرضون على ربهم﴾**: اسم الإشارة

عائد على الذين يفترون على الله كذباً، والعرْضُ إذا عدي بحرف على أفاد معنى الإحضار المشاهد برؤية العين... ﴿**ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم**﴾: الأشهاد جمع شاهد، وهو الحاضر، وجمع شهيد وهو الخبر بما رأى وعلم. والحاضر والمخبر: الملائكة... ﴿**ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون**﴾: تقدم نظير هذه الكلمات في سورة الأعراف... ﴿**أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء**﴾: المعجز هنا: الذي أفلت ممن يريد إضراره. والمراد بالأرض هنا: الدنيا. ونفي الولي هنا: نفي المغيث والمنقذ من عذاب الله... ﴿**يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون**﴾: مضاعفة العذاب: زيادته كمّاً وكيْفاً مع عجزهم الكامل... ﴿**أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون**﴾: الخسارة في أصل اللغة: ضياع رأس مال التاجر. وخسران النفس هنا: بالكفر والضلال، حيث توهموا أنّ ما يفترونه ينفعهم... ﴿**لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون**﴾: لا جرم: كلمة جزم ويقين جرت مجرى المثل، ومعناها لا محالة، أو لابد من كذا... ﴿**إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون**﴾: الإخبات: الخضوع والتواضع، مأخوذ من قولهم: خبت النار إذا همدت وخمدت... ﴿**مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون**﴾: المثل: الحال والصفة. والفريقان: فريق المؤمنين وفريق الكافرين. والأعمى والأصم: حال الكافر. والبصير والسميع حال المؤمن، وعدم الاستواء في هذين واضح، ولهذا جاء الاستفهام هنا أفلا تذكرون؟!.

مبحث الإعراب

﴿**وما**﴾ الواو للعطف، وما للنفي. ﴿**من دابة**﴾ جرت لفظاً بمن الزائدة، ورفعت محلاً بالابتداء. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بمحذوف نعت لدابة. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**على الله**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. و﴿**رزقها**﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر المبتدإ الأول. ﴿**ويعلم**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة الاستثناء. ﴿**مستقرها**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ومستودعها**﴾ معطوف عليه. ﴿**كل**﴾

مبتدأ مرفوع بالضمة، والتنوين عوض عن المضاف إليه. ﴿**في كتاب**﴾ متعلق بمحذوف خبر. ﴿**مبين**﴾ نعت إلى كتاب. ﴿**وهو**﴾ في محل رفع مبتدأ، والواو للعطف. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع خبر.

﴿**خلق**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على الذي، والجملة صلة الذي. ﴿**السماوات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات منصوب بالفتحة. ﴿**في ستة**﴾ متعلق بخلق. ﴿**أيام**﴾ مضاف إلى ستة. ﴿**وكان عرشه**﴾ كان واسمها. ﴿**على الماء**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان. ﴿**ليبلوكم**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والضمير المتصل بالفعل مفعول، والفاعل ضمير يعود على الذي خلق، أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور باللام متعلق بخلق. ﴿**أيّكم**﴾ اسم استفهام مبتدأ. ﴿**أحسن**﴾ أفعل تفضيل خبر المبتدإ. ﴿**عملاً**﴾ منصوب على التمييز. ﴿**ولئن**﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، وإنْ شرط جازم. ﴿**قلت**﴾ فعل وفاعل في محل جزم فعل الشرط. ﴿**إنّكم**﴾ إنّ واسمها. ﴿**مبعوثون**﴾ خبر إنّ. ﴿**من بعد**﴾ متعلق بالخبر. ﴿**الموت**﴾ مضاف إلى بعد. ﴿**ليقولن**﴾ اللام واقعة في جواب القسم، والفعل مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع فاعل يقولن.

﴿**كفروا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين، وجواب الشرط حذف لسد جواب القسم مسدَّه، وجملة إنّكم مبعوثون من بعد الموت في محل نصب مقول القول. ﴿**إنْ**﴾ نافية. ﴿**هذا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**إلا**﴾ أداة استثناء. ﴿**سحر**﴾ خبر المبتدإ، أو بدل منه. ﴿**مبين**﴾ نعت لسحر، وجملة إن هذا إلا سحر مبين في محل نصب مقول القول. ﴿**ولئن أخرنا**﴾ معطوف على ولئن قلت. ﴿**عنهم**﴾ متعلق بأخرنا. ﴿**العذاب**﴾ مفعول به. ﴿**إلى أمة**﴾ متعلق بأخرنا. ﴿**معدودة**﴾ نعت لأمة. ﴿**ليقولُنّ**﴾ مثل ليقولَنّ. ﴿**ما**﴾ اسم استفهام في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**يحبسه**﴾ فعل مضارع، والضمير المتصل به مفعول، والفاعل ضمير يعود على ما، وجملة يحبسه في محل رفع خبر المبتدإ، وجملة ما يحبسه في محل نصب مقول القول. ﴿**ليس**﴾ فعل ماضٍ يعمل عمل كان، واسمه ضمير يعود على العذاب. ﴿**مصروفاً**﴾ خبر ليس. ﴿**عنهم**﴾ متعلق بالخبر. ﴿**وحاق**﴾ فعل ماضٍ، والواو للعطف. ﴿**بهم**﴾ متعلق بحاق. و﴿**ما**﴾ في محل رفع فاعل حاق. ﴿**كانوا**﴾ كان

واسمها. ﴿به﴾ متعلق بما بعده. ﴿يستهزءون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا به يستهزءون صلة ما.

﴿ولئن أذقنا﴾ عطف على ولئن قلت. ﴿الإنسان﴾ مفعول أول. ﴿منا﴾ متعلق بأذقنا. ﴿رحمة﴾ مفعول ثان. ﴿ثم نزعناها﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه ثم العاطفة. ﴿منه﴾ متعلق بنزعنا .﴿إنّه﴾ إنّ واسمها. ﴿ليؤوس كفور﴾ خبران لإنَّ، وجملة إنّه ليؤوس كفور جواب القسم، وهي سدّت مسدّ جواب الشرط. ﴿ولئن أذقناه نعماء﴾ معطوف على ولئن أذقنا، وهو مثله في الإعراب. ﴿بعد﴾ متعلق بأذقنا. ﴿ضراء﴾ مضاف إلى بعد مجرور بالفتحة لوجود ألف التأنيث الممدودة. ﴿مسته﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على ضراء، والضمير المتصل بالفعل مفعول، وجملة مسته في محل جر نعت لضراء. ﴿ليقولن﴾ جواب القسم مثل ليقولن السابقة، والفاعل ضمير يعود على الإنسان. ﴿ذهب السيآتُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿عني﴾ متعلق بذهب.

﴿إنّه لفرح فخور﴾ مثل إنّه ليؤوس كفور. ﴿إلاّ الذين﴾ في محل نصب بالاستثناء. ﴿صبروا﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿وعملوا﴾ معطوف على آمنوا. ﴿الصالحات﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿أولئك﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿لهم مغفرة﴾ جملة من مبتدإ وخبر خبر أولئك. ﴿وأجر﴾ معطوف على مغفرة. ﴿كبير﴾ نعت لأجر. ﴿فلعلك﴾ لعل واسمها دخل عليها حرف التفريع. ﴿تارك﴾ خبر لعل مرفوع بالضمة. ﴿بعض﴾ مفعول باسم الفاعل. ﴿ما﴾ في محل جر مضاف إلى بعض. ﴿يوحى﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما، وجملة يوحى صلة ما. ﴿إليك﴾ متعلق بيوحى. ﴿وضائق﴾ معطوف على تارك. ﴿به﴾ متعلق بضائق. ﴿صدرُك﴾ فاعل ضائق. ﴿أن يقولوا﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بدل من الضمير المجرور بالباء. ﴿لولا﴾ حرف تحضيض.

﴿أنزل﴾ فعل ماضٍ مبني للمجهول. ﴿عليه﴾ متعلق بأنزل. ﴿كنز﴾ نائب فاعل أنزل. ﴿أو جاء﴾ معطوف على أنزل. ﴿معه﴾ متعلق بجاء. ﴿ملك﴾ فاعل جاء، وجملة لولا أنزل عليه كنز في محل نصب مقول القول. ﴿إنّما﴾ كافة ومكفوفة. ﴿أنت﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿نذير﴾ خبره. ﴿والله﴾ مبتدأ دخل عليه

حرف العطف. ﴿**على كل**﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿**شيء**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**وكيل**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**أم يقولون**﴾ فعل وفاعل، وأم منقطعة بمعنى بل التي هي للإضراب، ويقدر بعدها حرف الاستفهام، والتقدير: بل أيقولون... ﴿**افتراه**﴾ فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الرسول، والضمير المتصل بالفعل مفعول يعود على القرآن المفهوم من السياق، وجملة افتراه في محل نصب مقول القول. ﴿**قل**﴾ فعل أمر.

﴿**فأتوا**﴾ فعل أمر دخلت عليه فاء الفصيحة. ﴿**بعشر**﴾ متعلق بفعل الأمر. ﴿**سور**﴾ مضاف إلى عشر. ﴿**مثله**﴾ نعت لسور. ﴿**مفتريات**﴾ نعت ثان. ﴿**وادعوا**﴾ معطوف على فأتوا. ﴿**من**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**استطعتم**﴾ فعل وفاعل صلة من. ﴿**من دون**﴾ متعلق بادعوا. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى دون. ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ جملة شرطية من كان واسمها وخبرها، وجواب الشرط محذوف يدل عليه قوله: فأتوا بعشر سور. ﴿**فإن**﴾ الفاء للتفريع، وإن شرطية. ﴿**لم يستجيبوا**﴾ الفعل مجزوم بلم، وإنْ جزمت محل إن لم يستجيبوا. ﴿**لكم**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**فاعلموا**﴾ جواب الشرط دخلت عليه فاء الربط لأنّه طلبي. ﴿**أنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**أنزل**﴾ فعل ماضٍ مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على القرآن. ﴿**بعلم**﴾ متعلق بأنزل. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى علم. ﴿**وأن**﴾ الواو للعطف، وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن. ﴿**لا إله**﴾ لا واسمها. ﴿**إلاّ هو**﴾ مستثنى من خبر لا المقدر، والتقدير: لا إله موجود إلا اللهُ. ﴿**فهل**﴾ حرف استفهام دخل عليه حرف التفريع. ﴿**أنتم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**مسلمون**﴾ خبره. ﴿**مَنْ**﴾ اسم شرط جازم.

﴿**كان**﴾ اسمها ضمير يعود على مَنْ. ﴿**يريد**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على مَنْ، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كان يريد في محل جزم فعل الشرط. ﴿**الحياة**﴾ مفعول يريد. ﴿**الدنيا**﴾ نعت للحياة منصوب بفتحة مقدرة على الألف. ﴿**وزينتها**﴾ معطوف على الحياة منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**نوف**﴾ فعل مضارع مجزوم في جواب الشرط، وعلامة جزمه حذف الياء، وفاعله نحن. ﴿**إليهم**﴾ متعلق بنوف. ﴿**أعمالهم**﴾ مفعول نوف منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فيها**﴾ متعلق بنوف. ﴿**وهم**﴾ في محل رفع

مبتدأ دخل عليه حرف العطف. ﴿**فيها**﴾ متعلق بالفعل بعده، ﴿**لا يبخسون**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، ولا نافية، وجملة لا يبخسون في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع خبر. ﴿**ليس**﴾ فعل ماض ناقص يعمل عمل كان، واسم ليس محذوف. ﴿**لهم في الآخرة**﴾ متعلقان بمحذوف خبر ليس. ﴿**إلاّ النارُ**﴾ بدل من اسم ليس المقدر، والتقدير: ليس شيءٌ كائناً لهم في الآخرة إلاّ النارُ، وجملة ليس لهم في الآخرة إلاّ النار صلة الذين.

﴿**وحبط**﴾ معطوف على ليس لهم. ﴿**ما**﴾ في محل رفع فاعل حبط. ﴿**صنعوا**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**فيها**﴾ متعلق بصنعوا. ﴿**وباطل**﴾ اسم فاعل يعمل عمل الفعل. ﴿**ما**﴾ في محل رفع فاعل باسم الفاعل. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يعملون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا يعملون صلة ما، وجملة وباطل ما كانوا يعملون معطوفة على حبط ما صنعوا فيها. ﴿**أفمن**﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء للتفريع، ومن اسم موصول في محل رفع مبتدأ. ﴿**كان**﴾ اسمها ضمير يعود على من. ﴿**على بينة**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان، وجملة كان على بينة صلة من. ﴿**من ربه**﴾ متعلق بمحذوف نعت لبينة. ﴿**ويتلوه**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف العطف، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**شاهد**﴾ فاعل يتلو. ﴿**منه**﴾ متعلق بمحذوف نعت لشاهد. ﴿**ومن قبله**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**كتابُ**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**موسى**﴾ مضاف إلى كتاب. ﴿**إماماً**﴾ منصوب على حال من كتاب موسى.

﴿**ورحمةً**﴾ معطوف على الحال، وجملة من قبله كتاب موسى معطوف على قوله: ويتلوه شاهد منه، والتقدير: وكتاب موسى شاهد من قبله. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**يؤمنون**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر أولئك، وجملة أولئك يؤمنون به خبر أفمَنْ كان على بينة من ربه، وهناك وجه آخر أوضح في الإعراب من هذا الإعراب: الهمزة للاستفهام، والفاء للتفريع على قوله: من كان يريد الحياة ... الخ الآية من كان على بينة مبتدأ والخبر محذوف يدل عليه السياق، وهو أفمن كان على بينة من ربه، مثل من كان يريد الحياة الدنيا، ثم أتى ببيان الفارق بينهما بقوله: أولئك يؤمنون به، فهذه الحياة بيان للخبر وليست الخبر نفسه.

﴿**ومن يكفر**﴾ جملة شرطية عطفت على ما قبلها. ﴿**به من الأحزاب**﴾ متعلقان بيفكر. ﴿**فالنارُ**﴾ مبتدأ دخل عليه فاء الربط. ﴿**موعده**﴾ خبره مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة فالنار موعده في محل جزم جواب الشرط. ﴿**فلا**﴾ الفاء للتفريع، ولا للنهي. ﴿**تَكُ**﴾ فعل مضارع ناقص مجزوم بلا الناهية، وحذفت نون الفعل المجزومة تخفيفاً. ﴿**في مرية**﴾ متعلق بمحذوف خبر تكن، واسمها ضمير المخاطب (أنت). ﴿**منه**﴾ متعلق بمحذوف نعت لمرية. ﴿**إنّه الحق**﴾ جملة إنّ واسمها وخبرها تعليل. ﴿**من ربك**﴾ متعلق بمحذوف حال من الحق. ﴿**ولكنّ أكثر**﴾ لكنّ واسمها دخلت عليها حرف العطف. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى أكثر.

﴿**لا يؤمنون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي، وجملة لا يؤمنون في محل رفع خبر لكنّ. ﴿**ومَنْ**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، والواو للعطف. ﴿**أظلمُ**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**ممّن**﴾ متعلق بأظلم. ﴿**افترى**﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على مَنْ، وجملة افترى صلة مَنْ. ﴿**على الله**﴾ متعلق بافترى. ﴿**كذباً**﴾ مفعول به. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**يعرضون**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، وجملة يعرضون في محل رفع خبر أولئك. ﴿**على ربهم**﴾ متعلق بيعرضون. ﴿**ويقول الأشهادُ**﴾ فعل وفاعل، والواو للعطف. ﴿**هؤلاء**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع خبره. ﴿**كذبوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**على ربهم**﴾ متعلق بكذبوا، وجملة هؤلاء الذين كذبوا على ربهم في محل نصب مقول القول. ﴿**ألا**﴾ أداة استفتاح. لعنة مبتدأ. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى لعنة. ﴿**على الظالمين**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ.

﴿**الذين**﴾ في محل جر نعت للظالمين. ﴿**يصدون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**عن سبيل**﴾ متعلق بيصدون. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى سبيل. ﴿**ويبغونها**﴾ معطوف على يصدون، والضمير المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿**عوجاً**﴾ مفعول ثان. ﴿**وهم**﴾ في محل رفع مبتدأ، والواو للعطف. ﴿**بالآخرة**﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿**هم**﴾ ضمير فصل. ﴿**كافرون**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بالواو. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**لم يكونوا**﴾ مجزوم بلم، وواو الجماعة اسم يكون. ﴿**معجزين**﴾ خبرها منصوب بالياء. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بمعجزين، وجملة لم يكونوا معجزين في الأرض في محل رفع خبر أولئك.

﴿وما﴾ الواو عاطفة، وما نافية. ﴿كان لهم من دون الله﴾ متعلقان بمحذوف خبر كان مقدم. ﴿من أولياء﴾ اسم كان مؤخر جر لفظاً ورُفع محلا. ﴿يُضاعف﴾ فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿لهم﴾ متعلق بيضاعف. ﴿العذابُ﴾ نائب فاعل يضاعف. ﴿ما كانوا﴾ كان واسمها دخلت عليها ما النافية. ﴿يستطيعون السمع﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل نصب خبر كان. ﴿وما كانوا يبصرون﴾ عطف على قوله: ما كانوا يستطيعون السمع. ﴿أولئك﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿الذين﴾ في محل رفع خبره. ﴿خسروا أنفسهم﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿وضل﴾ معطوف على خسروا. ﴿عنهم﴾ متعلق بضل. ﴿ما﴾ في محل رفع فاعل ضل. ﴿كانوا﴾ كان واسمها. ﴿يفترون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا يفترون صلة ما. ﴿لا﴾ نافية للجنس. ﴿جرم﴾ اسمها مبني على الفتح في محل نصب. ﴿أنّهم﴾ أنّ واسمها. ﴿في الآخرة﴾ متعلق بالخبر بعدها. ﴿هم﴾ ضمير فصل. ﴿الأخسرون﴾ خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدّر متعلق بمحذوف خبر لا، والتقدير: لا شكّ كائنون في شدة خسرانهم في الآخرة.

﴿إنّ الذين﴾ إنّ واسمها. ﴿آمنوا﴾ صلة الذين. ﴿وعملوا﴾ معطوف على الصلة. ﴿الصالحات﴾ مفعول به. ﴿وأخبتوا﴾ معطوف على آمنوا. ﴿إلى ربهم﴾ متعلق بأخبتوا. ﴿أولئك﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿أصحاب﴾ خبر. ﴿الجنة﴾ مضاف إلى أصحاب. ﴿هم﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿فيها خالدون﴾ خبر، وفيها متعلق بالخبر، وجملة أصحاب الجنة خبر إنّ. ﴿مثل﴾ مبتدأ. ﴿الفريقين﴾ مضاف إلى مثل. ﴿كالأعمى﴾ الكاف بمعنى مثل خبر المبتدإ، الأعمى مجرور بها. ﴿والأصم﴾ معطوف على الأعمى. ﴿والبصير﴾ معطوف على الأعمى والأصم معاً. ﴿والسميع﴾ معطوف على البصير. ﴿هل يستويان﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف الاستفهام، والألف فاعل. ﴿مثلاً﴾ منصوب على التمييز. ﴿أفلا تذّكّرون﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي وفاء العطف وهمزة الاستفهام.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها﴾: وجه ربط الكلام بما قبله: وصل الكلام بما قبله بالعطف لمناسبة علم الله الشامل بالإنسان والحيوان؛ فأتى

بالرزق للجميع بهذا الأسلوب. وقد ذكر المتاع الحسن للإنسان في مقابل الرزق العام الشامل للحيوان؛ فجملة ﴿**يعلم مستقرها ومستودعها**﴾ عطف على جملة الاستثناء لا على المستثنى. وقوله... ﴿**كل في كتاب مبين**﴾: ليفيد تنوين كل عموم المضاف إليه من الرّزق والاستقرار والمستودع؛ فتنوين كتاب مبين لشمول ما فيه من كل مخلوق... ﴿**وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام**﴾: ﴿**وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾: تقدم ذكر خلق السماوات والأرض في ستة أيام في سورة الأعراف وفى سورة يونس.

وكلها تدور حول الخلق والبعث والجزاء؛ فمن ثَم يبدو التكذيب بالبعث والحساب والجزاء عجيباً غريباً في هذا الجو بعد ما يذكر أنّ الابتلاء مرتبط بتكوين السماوات والأرض، أصيل في نظام الكون وسنن الوجود... ﴿**ولئن قلت إنّكم مبعوثون من بعد الموت ليقولنّ الذين كفروا إن هذا إلاّ سحر مبين**﴾: ووجه جعل الأسلوب هنا جملة شرطية إفادة تجدد التكذيب عند كل إخبار بالبعث، واللام موطئة للقسم، وجواب القسم ليقولنّ، وجواب إنّ محذوف أغنى عنه جواب القسم، كما هو الشأن عند اجتماع شرط وقسم أن يحذف جواب المتأخر منهما. وتأكيد الجملة باللام الموطئة للقسم وما يتبعه من نون التوكيد لتنزيل السامع منزلة المتردد في صدور هذا القول منهم لغرابة صدوره من العاقل؛ فيكون التوكيد القوي.

والتنزيل مستعملاً في لازم معناه، وهو التعجيب من حال الذين كفروا أنْ يُحيلُوا إعادة الخلق وقد شاهدوا آثار بدء الخلق وهو أعظم وأبدع!. ووجه جعلهم هذا القول سحراً أنّ في معتقداتهم وخرافاتهم أنّ من وسائل السحر الأقوال المستحيلة والتكاذيب البهتانية... ﴿**ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولنّ ما يحبسه**﴾: مناسبته لما قبله أنّ في كليهما وصف فنّ من أفانين عناد المشركين وتهكُّمِهم بالدعوة الإسلامية؛ فإذا أخبرهم الرسول بالبعث وأنّ شركهم سبب لتعذيبهم جعلوا كلامه سحراً، وإذا أنذرهم بعقوبة العذاب على الإشراك استعجلوه؛ فإذا تأخر عنهم إلى أجل اقتضته الحكمة الربانية استفهموا عن سبب حبسه عنهم استفهام تهكم ظناً أنَّ تأخُّره عجْزٌ... ﴿**ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون**﴾: هذه الجملة واقعة موقع الجواب عن كلامهم، فلذلك فصلت كما تفصل المحاورة.

وافتتح الكلام بحرف التنبيه للاهتمام بالخبر لتحقيقه وإدخال الروع في ضمائرهم. وتقديم الظرف للإيماء بأنّ إتيان العذاب واقع لا محالة... **﴿ولئن أذقنا الإنسان منّا رحمة ثم نزعناها منه إنّه ليؤوس كفور﴾**: وصل الكلام بما قبله بالعطف على قوله: ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة؛ فإنّه لما ذكر أنّ ماهم فيه متاع إلى أجل معلوم عند الله، وأنّهم بطروا نعمة التمتيع فسخروا بتأخير العذاب، بيّنت هذه الآية أنّ أهل الضلالة راسخون في ذلك؛ لأنّهم لا يفكرون في غير اللذات الدنيوية، فتجري انفعالاتهم على حسب ذلك دون رجاء لتغير الحال؛ فشأن أهل الضلالة أنّهم إن حلت بهم الضراء بعد النعمة ملكهم اليأس من الخير.

وهذه الجملة في قوة التذييل لما قبلها... **﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولنّ ذهب السيآت عني إنّه لفرح فخور﴾**: هذه الآية تتميم لما قبلها؛ لأنّها حكت حالة ضد الحالة في التي قبلها، والأسلوب فيها مثل سابقه. وقوله في الأولى: إنّه ليؤوس كفور، وفي هذه: إنّه لفرح فخور، مبالغة في كليهما... **﴿إلاّ الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾**: هذه الآية استثنت من لفظ الإنسان المتقدم، وهو احتراس بإخراج المؤمن الصابر من جنس اليائس الكافر والفرح المتفاخر؛ فدل الاستثناء على أنّ المؤمن الصابر متصف بضد صفات المستثنى منه، وهو الكافر الخاسر... **﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾**: هذا مفرع على ما سبق من الكلام، وهو يشير إلى أنّ مضمون الكلام المفرع عليه سبب لتوجيه هذا التوقع؛ فالتوقع المستفاد من لعلّ مستعمل في تحذير مَنْ شأنُه التبليغ، والمعنى تحذير الرسول من التأثر بعنادهم وتكذيبهم واستهزائهم؛ فالخطاب مستعمل في حقيقته، ومراد منه مع ذلك علمُ السامعين بمضمونه.

والضيق مستعمل مجازاً في الغم والأسف، وضائق عطف على تارك، وهما خبران للعلك داخلان في حكم التفريع، وسبب هذا هو قولهم: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك. وجملة... **﴿إنّما أنت نذير﴾**: في موقع العلة للتحذير من تركه بعض ما يوحى إليه وضيق صدره من مقالتهم، فكأنه قيل: لا تترك إبلاغهم بعض ما يوحى إليك، ولا يضق صدرك من مقالهم؛ لأنّك نَذِيرٌ لاَ وَكيلٌ على تحصيل إيمانهم حتى يترتب على يأسك من إيمانهم ترك دعوتهم، والقصر

المستفاد من إنّما قصر إضافي. وجملة... ﴿**والله على كل شئ وكيل**﴾: تذييل لقوله: ﴿**فلعلك تارك**﴾... إلى هنا؛ وإنّما جاء الكلام بصيغة العموم ليكون تذييلاً وإتياناً للغرض بما هو كالدليل؛ ولينتقل من ذلك العموم إلى تسلية النبيء بأنّ الله مطلع على مكر أولئك، وأنّه وكيل على جزائهم. وَقَوْلَةٌ أخرى يقولونها. وقد قالوها مرارا: إنّ هذا القرآن مُفْتَرىً فتحداهم إذن أن يفتروا عشر سور كسوره، وليستعينوا بمن يشاءون في هذا الافتراء! ..﴿**أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾: هذا إضراب انتقالي، وهو في قوة الاستئناف الإبتدائي، وأم المنقطعة فيها معنى الاستفهام، وهو هنا استفهام انكاري.

وجملة ﴿**قل فأتوا**﴾ جواب لكلامهم؛ فتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، فإن لم تستطيعوا بأنفسكم فاطلبوا من يساعدكم إن كنتم صادقين في هذا القول؛ فوجه الملازمة بين الشرط وجزائه أنّه إذا الافتراء يأتي بهذا القرآن فما لكم لا تفترون أنتم مثله فتنهض حجتكم... ﴿**فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أنزل بعلم الله**﴾: هذا تفريع على ما قبله؛ فإن لم يستجب لكم من تدعونهم فأنتم أعجز منهم؛ لأنّكم ما تدعونهم إلاّ حين تشعرون بعجزكم، فالكلام موجه للمشركين القائلين: إنّ القرآن افتراه محمد. وقوله... ﴿**وأن لاإله إلاّ هو**﴾: عطف على أنّما أنزل بعلم الله. فإذا كان القرآن أنزله الله فاعلموا كذلك أنّ آلهتكم التي استنصرتم بها لم تكن تستحق العبادة، لأنّها لم تُعِنكم ولم تدر ما تريدون... ﴿**فهل أنتم مسلمون**﴾؟: والفاء للتفريع على فاعلموا.

والاستفهام مستعمل في الحث على الفعل وعدم تأخيره، أي: فهل تسلمون بعد تحققكم أنّ هذا القرآن من عند الله. وجيء بالجملة الاسمية الدالة على دوام الفعل وثباته، ولم يقل فهل تسلمون؛ لأنّ حالة عدم الاستجابة تكسب اليقين بصحة الإسلام... ﴿**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون**﴾: بعد أن قامت الحجة القطعية على إعجاز القرآن، وحقية دعوة الإسلام بما يقطع ألسنة المفترين ويبطل معاذيرهم، بيّن لهم في هاتين الآيتين الصارف النفسي لهم عنه، وكونه شراً لهم لا خيراً، وهو أنّه لا حظ لهم

من حياتهم إلاّ شهوات الدنيا وزينتها، والإسلام يدعوهم إلى إيثار الآخرة على الأولى؛ فالمقصود هنا من فعل الشرط وجوابه، وما تبع ذلك مما ترتب عليه من نتائجه وأسبابه، فسببه إيثار الدنيا وزينتها، ونتيجته خسران الآخرة وجنتها: أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النار... **﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه﴾**: هذا صنف آخر مقابل للصنف الأول الذي لا يتطلع إلى أكثر من الحياة الدنيا وزينتها؛ هذا الصنف الذي كان على بينة من ربه، فهذا الصنف غير الصنف الأول، وفرق بينهما بعيد!. أفمن كان على بيّنة من ربه كمن كان على شهوة من نفسه مغروراً بالدنيا وزينتها ؟!.

والبيّنة هنا: القرآن، وشاهده: ما فيه من إعجاز... **﴿ومن قبله كتاب موسى﴾**: شاهد آخر من خارج القرآن، وهو إمام مسموع الكلمة، ورحمة صحيح الدلالة... **﴿أولئك يؤمنون به﴾**: أولئك الموصوفون بما ذكر من كونهم على بيّنة صحيحة نقيّة يؤمنون بهذه الحجة القطعية، وهو القرآن المنزل من عند الرحمان... **﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾**: كل من يفكر بالقرآن من كل صنف فالنار مصيره وموعده... **﴿فلا تك في مرية منه إنّه الحق من ربّك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾**: الكلام مفرع على ما قبله، والنهي مستعمل كناية تعريضية بالكافرين بالقرآن. وجملة إنّه الحق من ربك تأكيد لما دلّت عليه جملة النهي. وتفريع الحق لإفادة قصر جنس الحق على القرآن.

والاستدراك بقوله: **﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾** ناشئ على حكم الحصر. وحذف متعلق يؤمنون؛ لأنّ المراد انتفاء حقيقة الإيمان عنهم في كل ما طلب الإيمان به من الحق... **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم﴾**: وصل الكلام بما قبله بالعطف على قوله: ومن يكفر به من الأحزاب **﴿فالنار موعده﴾**، لبيان استحقاقهم النار على كفرهم بالقرآن؛ لأنّهم كفروا به افتراءً على الله إذ نسبوا القرآن إلى غير من أنزله؛ فكانوا بالغين غاية الظلم، حتى لقد يسأل عن وجود فريق أظلم منهم سؤال إنكار يؤول إلى معنى النفي. وجملة... أولئك يعرضون على ربهم: استئناف. وتصديرها باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة من الخبر بسبب ما قبل اسم الإشارة من الوصف، ولما يؤذن به اسم الإشارة من معنى تعليل ما قبله فيما بعده عُلِمَ أن

عرضهم على ربهم عرض زجر وانتقام. . . **﴿ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربّهم ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون﴾**: هذه الجملة عطف على **﴿يعرضون﴾**، والمعنى: أولئك يعرضون على الله للعقاب، ويعلن الأشهاد بأنّهم كذبوا على ربهم فَضْحاً لهم. والإتيان بالموصول في الخبر عنهم إيماء إلى سببية ذلك الوصف الذي في الصلة فيما يرد عليهم من الحكم، وهو ألا لعنة الله على الظالمين؛ فجملة ألا لعنة الله على الظالمين من بقية قول الأشهاد، وافتتاحها بحرف التنبيه يناسب مقام التشهير، فالخبر مستعمل في الدعاء خزياً وتحقيراً لهم، وقد تقدم نظير هذا في سورة الأعراف.

واختصت هذه الآية على نظيرها في الأعراف بزيادة هم، فهو توكيد يفيد تقوي الحكم؛ لأنّ المقام هنا مقام تسجيل إنكارهم البعث وتقريره إشعاراً بما يترقبهم من العقاب المناسب فحكى به من كلام الأشهاد ما يناسب هذا، وما في سورة الأعراف حكاية لما قيل في شأن قوم أدخلوا النار وظهر عقابهم فلا غرض لحكاية ما فيه تأكيد من كلام الأشهاد، وكلا المقالتين واقع، وإنّما يحكي البليغ فيما يحكيه ما له مناسبة لمقام الحكاية. . . **﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾**: استئناف بياني ناشئ عن الاقتصار في تهديدهم على وصف بعض عقابهم في الآخرة فإنّ ذلك يثير في نفس السامع أن يسأل: هل هم سالمون من عذاب الدنيا ؟. فأجيب بأنّهم لم يكونوا معجزين في الدنيا.

وإعادة الإشارة إليهم لتقرير فائدة اسم الإشارة السابق. وقوله وما كان لهم من دون الله من أولياء عطف على قوله: أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض. وقوله: يضاعف لهم العذاب استئناف يتضمّن حكمة تأخير المؤاخذة. ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون: استئناف وقع تعليلاً لمضاعفة العذاب. والإتيان بأفعال الكون في هذه الجمل أربع مرات؛ لإفادة ما يدل عليه فعل الكون من تمكّن الحدث المخبَرِ به، فقوله: لم يكونوا معجزين آكِدٌ من لايعجزون. . . **﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون لا جرم أنّهم في الآخرة هم الأخسرون﴾**: استئناف بيّن نهاية هؤلاء؛ فجملة لا جرم أنّهم في الآخرة هم

الأخسرون فَذْلكة ونتيجة للجُمَلِ المتقدمة؛ لأنّ ما جمع لهم من الزج للعقوبة ومن افتضاح أمرهم ومن إعراضهم عن استماع النذُر وعن النظر في دلائل الوحدانية يوجب اليقين بأنّهم الأخسرون في الآخرة. وهذه الآيات الكريمة كما ترى مقرِّرَة لما سبق من إنكار المماثلة بين من كان على بينة من ربه وبين من كان يريد الحياة الدنيا أبلغ تقرير؛ فإنّهم حيث كانوا أظلم من كل ظالم وأخسر من كل خاسر لم يتصور مماثلة بينهم وبين الظلمة الخاسرين فما ظنك بالمماثلة بينهم وبين من هو في أعلى مدارج الكمال.

ولما ذكر فريق الكفار وأعمالهم وبيّن مصيرهم ومآلُهم شرع في بيان حال أضدادهم ـ وهم فريق المؤمنين ـ وما يؤول إليه أمرهم من العواقب الحميدة تكملة لما سلف من محاسنهم المذكورة في قوله تعالى: أفمن كان على بينة من ربّه ... الآية؛ ليتبيّن ما بينهما من التباين البيّن حالاً ومآلاً، فقيل... **﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربّهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾**: والآية تصور حالة المؤمن مع ربه، وركونه إليه واطمئنانه لكل ما يأتي به، وهدوء نفسه وسكون قلبه وأمنه واستقراره ورضاه. وبعد بيان تباين حاليهما عقلاً أريد بيان تباينهما حساً، فقيل... **﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾**: فهذه صورة حسية تتجسم فيها حالة الفريقين؛ فالفريق الأول كالأعمى لا يرى، وكالأصم لا يسمع ـ والذي يعطل حواسه وجوارحه عن الغاية الكبرى منها، وهي أن تكون أدواة موصلة للقلب والعقل ليدرك ويتدبر فكأنّما هو محروم من تلك الجوارح والحواس ـ، والفريق الثاني كالبصير يرى وكالسميع يسمع؛ فهديه بصرُه وسمعُه... **﴿هل يستويان مثلاً﴾**: سؤال بعدَ الصورة المجسمة لا يحتاج إلى إجابة؛ لأنّها إجابة مقررة... **﴿أفلا تذّكّرون﴾**: فالقضية في وضعها هذا لا تحتاج إلى أكثر من التذكر، فهى بديهية لا تقتضي التفكير، وتلك وظيفة التصوير، الذي يختاره القرآن كثيراً في التعبير؛ أن ينقل القضايا التي تحتاج لجدل فكري إلى بديهيات مقررة لا تحتاج إلى أكثر من توجيه النظر والتذكير.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾: في هذا التوجيه بيان العلم الشامل بكل شيء،

والتدبير الكامل لكل حي؛ فهذه الدواب ـ وكل ما تحرك على الأرض فهو دابة ـ من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة وحشرة وطير، ما من دابة من هذه الدواب التي تملأ وجه البسيطة وتكمن في باطنها، وتخفى في دروبها ومساربها، ما من دابة من هذه الدواب التي لا يحيط بها حصر، ولا يكاد يلم بها الخيال، إلاّ وعند الله علمها، وعليه رزقها، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن، من أين تجئ وأين تذهب، وكل منها، كل من أفرادها مقيد في هذا العلم الدقيق (كتاب مبين).

إنّها صورة مفصلة للعلم الإلهي في حالة تعلقه بالمخلوقات، يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول تصورها بخياله الإنساني فلا يطيق، ويزيد على مجرد العلم تقدير الرزق لكل فرد من أفراد هذا الحشد الذي يعجز عن تصوره الخيال. وهذه درجة أخرى، الخيال البشري عنها أعجز إلاّ بإلهام من الله. وقد أوجب الله سبحانه على نفسه مختاراً أن يرزق هذا الحشد الهائل الذي يدب على هذه الأرض؛ فأودع في هذه الأرض القدرة على تلبية حاجات هذه المخلوقات جميعاً، وأودع هذه المخلوقات القدرة على الحصول على رزقها من هذا المودع في الأرض في صورة من صوره؛ ساذجاً خامة، أو منتجاً بالزرع، أو مصنوعاً أو مركباً، إلى آخر الصورة المتجددة لإنتاج الرزق وإعداده، حتى إنّ بعضها ليتناول رزقه دماً حيا مهضُوماً ممثلاً كالبعوضة والبرغوت!.

وهذه هي الصورة اللائقة بحكمة الله في خلق الكون على الصورة التي خلقه بها، وخلق هذه المخلوقات بالاستعدادات والمقدرات التي أوتينها؛ وبخاصة الإنسان، الذي استخلف في الأرض، وأوتي القدرة على التركيب والتحليل، وعلى الإنتاج والإنماء، وعلى تعديل وجه الأرض، وعلى تطوير أوضاع الحياة؛ بينما هو يسعى لتحصيل الرزق، الذي لا يخلقه هو خلقاً، وإنّما ينشئه مما هو مذخور في هذا الكون من قوى وطاقات أودعها الله؛ فليس المقصود أنّ هناك رزقاً فردياً مقدراً لا يأتي بالسعي، ولا يتأخر بالقعود، ولا يضيع بالسلبية والكسل، كما يعتقد بعض الناس!. وإلا فأين الأسباب ؟. وأين حكمة الله في إعطاء المخلوقات هذه المقدرات والطاقات ؟. وكيف تترقى الحياة في مدارج الكمال المقدر لها في علم الله، وقد استخلف عليها الإنسان ليؤدي دوره في هذا المجال ؟. إنّ لكل مخلوق رزقاً، هذا حق؛ وهذا الرزق مذخور في هذا الكون، مقدر من الله في سننه التي

ترتب النتاج على الجهد، فلا يقعدن أحد عن السعي ـ وقد علم أنّ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ـ، ولكن السماء والأرض تذخر بالأرزاق الكافية لجميع المخلوقات، حين تطلبها هذه المخلوقات حسب سنة الله التي لا تحابي أحداً، ولا تتخلف أو تحيد. إنّما هو كسب طيب وكسب خبيث، وكلاهما يحصل من عمل وجهد، إلاّ أنّه يختلف النوع والوصف، وتختلف عاقبة المتاع بهذا وذلك.

ولا ننسى المناسبة بين ذكر الدواب ورزقها هنا، وبين المتاع الحسن الذي ذكر في التبليغ الأول. ومن الإحكام والتقدير خلق السماوات والأرض بنظام خاص في أطوار أو آماد محكمة محددة ومعدودة لحكمة كذلك خاصة؛ فالخلق دليل على القصد والإرادة المعينة لكل مخلوق ما يحتاجه وما يليق به. . . ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين: ويبرز منها السياقُ هنا ما يناسب البعث والحساب والعمل والجزاء. . . ﴿**وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً ولئن قلت إنّكم مبعوثون من بعد الموت ليقولنّ الذين كفروا إن هذا إلاّ سحر مبين**﴾: تكرر نظير هذا الكلام في سور أخرى متناسباً مع السياق، وهو يساق هنا لأمرين: الأول الحكمة والتقرير في الخلق. والثاني ينص عليه نصاً: ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً.

والجديد هنا في خلق السماوات والأرض هو الجملة المعترضة: وكان عرشه على الماء، وما تفيده من أنّه قبل خلق السماوات والأرض، وهو إبرازهما إلى وجود في شكلهما الذي انتهيا إليه، كان الماء. وكان هذا الماء محكوماً بالقدرة والسيطرة والإرادة الإلهية، فهو يزيل هنا ما تعلق بأذهان الملحدين من أنّ هذا الكون جاء صدفة وأنّ الماء وجد بعد وجود الأرض، وأنّه تكون بعدما بردت حرارتها وتهيأت طبيعتها حسب كلام طويل جاءت به آراء بعض علماء الكون في هذا العصر المملوء بالجهل والتضليل. فلنقف عند هذا النص في هذا الغيب الذي ليس لنا من مصدر لعلمه إلاّ هذا النص وفي حدوده، وليس لنا أن نلمس للنصوص القرآنية مصداقاً من النظريات العلمية ـ حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق ـ؛ فالنظريات العلمية قابلة دائماً للانقلاب رأساً على عقب، كلما اهتدى العلماء إلى فرض جديد وامتحنوه فوجدوه أقرب إلى تفسير الظواهر الكونية من الفرض القديم الذي قامت عليه النظرية الأولى، والنص القرآني صادق بذاته، اهتدى العلم إلى الحقيقة التي يقررها أو لم يهتد.

وفرق بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية؛ فالحقيقة العلمية قابلة للتجربة وثابتة في جميع الأحوال، أما النظرية العلمية فهي قائمة على فرض يفسر ظاهرة كونية أو عدة ظواهر، وهي قابلة للتغيير والتبديل والانقلاب، فمن ثَمَّ لا يحمل القرآن عليها ولا تحمل هي على القرآن، فلها طريق غير طريق القرآن، ومجال غير مجال القرآن. فتلمُّسُ موافقات من النظريات العلمية للنصوص القرآنية هو هزيمة لجدية الإيمان بهذا القرآن واليقين بصحة ما فيه، وأنّه من لدن حكيم خبير؛ هزيمة ناشئة من الفتنة بالعلم، وإعطائه أكثر من مجاله الطبيعي الذي لا يصدق ولا يؤثق به إلاّ في دائرته. فلينتبه إلى دبيب الهزيمة في نفسه من يحسب أنّه بتطبيق القرآن على العلم يخدم القرآن ويخدم العقيدة ويثبت الإيمان!. فإنّ الإيمان الذي ينتظر كلمة العلم المتقلبة ليَثْبُت لهو إيمان يحتاج إلى إعادة النظر فيه!. إنّ القرآن هو الأصل، والنظريات العلمية توافقه أو تخالفه سواء.

أما الحقائق العلمية التجريبية الثابتة فمجالها غير مجال القرآن، وقد تركها القرآن للعقل البشري يعمل فيها بكل حريته، ويصل إلى النتائج التي يصل إليها بتجاربه، ووكل نفسه بتربية هذا العقل على الصحة والاستقامة والسلامة، وتحريره من الوهم والخرافة، كما عمل على إقامة نظام للحياة يكفل لهذا العقل أن يستقيم وأن يتحرر وأن يعيش في سلام ونشاط، ثم تركه بعد ذلك يعمل في دائرته الخاصة، ويصل إلى الحقائق الجزئية الواقعية بتجاربه، ولم يتعرض لذكر شيء من الحقائق العلمية إلاّ نادراً، وما أثبته القرآن أثبته العلم التجريبي من هذه الحقائق، مثل أنّ الماء أصل الحياة والعنصر المشترك في جميع الأحياء، ومثل أنّ جميع الأحياء أزواج حتى النبات الذي يلقح من نفسه فهو يحتوي على خلايا التذكير والتأنيث، مع أنّ القرآن لم يحصر الزوجية في النبات والحيوان، بل قال: "ومن كل شيء خلقنا زوجين" ، وأبلغ من هذا في العموم قوله تعالى: "سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون"!. وكما جهز الخالق هذه الأرض وهذه السماوات بما يصلح لحياة هذا الجنس، جهز هذا الجنس كذلك باستعدادات وطاقات، وبنى فطرته على ذات القانون الذي يحكم الكون، وترك الناس يعملون ليبلوهم أيّهم أحسن عملاً؛ يبلوهم لا للعلم فهو يعلم، ولكن يبلوهم ليظهر المكنون من أعمالهم فيتلقوا جزاءهم عليها كما اقتضت إرادة الله وعدله وحكمته.

فمن ثَمَّ يبدو التكذيب بالبعث والحساب والجزاء عجيباً غريباً في هذا الجو، بعدما يذكر أنّ الابتلاء مرتبط بتكوين السماوات والأرض، أصيل في نظام الكون وسنن الوجود؛ ويبدو المكذبون به غير معقولين وغير مدركين للحقائق الكبيرة في تكوين هذا الوجود، وهم يعجبون لهذه الحقائق وبها يفاجأون!. ولئن قلت إنّكم مبعوثون من بعد الموت ليقولنّ الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين. فما أعجبها قولة! وما أغربها! وما أكذبها في ظل هذا البيان الذي تقدمها!. شأنهم في التكذيب بالبعث، وجهلهم سنن الخلق فيه، هو شأنهم في مسألة العذاب الدنيوي، فهم يستعجلونه ويتساءلون عن سبب تأخيره إذا اقتضت الحكمة الأزلية أن يتأخر عنهم فترة من الوقت. . . ﴿**ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولنّ ما يحبسه ؟. ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن**﴾: لقد كانت القرون الأولى تهلك بعذاب من عند الله يستأصلها؛ بعد أن يأتيهم رسولهم بالخوارق التي يطلبونها، ثم يمضون هم في التكذيب، ذلك أنّها كانت رسالات مؤقتة لأمة من الناس، ولجيل واحد من هذه الأمة.

والمعجزة كذلك لا يشهدها إلاّ هذا الجيل، ولا تبقى لتشاهدها أجيال أخرى لعلها تؤمن بها أكثر مما آمن بها الجيل الذي شاهدها أول مرة؛ فأما الرسالة المحمدية فقد كانت خاتمة الرسالات، ولجميع الأقوام وجميع الأجيال، وكانت المعجزة التي صاحبتها معجزة غير مادية، فهي قابلة للبقاء، قابلة لأن تدبرها أجيال وأجيال، وتؤمن بها أجيال وأجيال، ومن ثم اقتضت الحكمة ألاّ تأخذ هذه الأمة بعذاب الاستئصال، وأن يقع العذاب على أفراد منها في وقت معلوم. وكذلك كان الحال في الأمم الكتابية الأخرى، ولكن المشركين في جهلهم بسنن الوجود الخاصة بخلق الإنسان، وخلق السماوات والأرض على نحو يسمح له بالعمل والنشاط، والبلاء، ينكرون البعث. وفي جهلهم بسنن الله في الرسالات والمعجزات والعذاب يتساءلون إذا ما أخر عنهم إلى أمة من السنوات أو الأيام، ما يحبسه ؟. وما يؤخره ؟. فلا يدركون حكمة الله ولا رحمته، وهو يوم يأتيهم لا يصرف عنهم، بل يحيط بهم جزاء لاستهزائهم الذي يدل عليه سؤالهم واستهتارهم؛ فإنّ عذاب الله لا تستعجله نفس مؤمنة ولا نفس جادة، فإذا أبطأ فهي حكمة ورحمة؛ ليؤمن من يتهيأ للإيمان. وفي فترة التأجيل التي صرف الله العذاب فيها عن مشركي قريش، كم آمن منهم من رجال حسن إسلامهم وأبلوا

أحسن البلاء، وكم ولد لكفارهم من ذرية نشأت فيما بعدُ في الإسلام؛ فهذه وتلك بعض الحكم الظاهرة والله يعلم ما بطن، ولكنّ البشر القاصرين العجلين لا يعلمون.

وبمناسبة استعجال العذاب يجول السياق جولة في نفس هذا المخلوق الإنساني العجيب الذي لا يثبت ولا يستقيم بالإيمان... ﴿**ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنّه ليؤوس كفور. ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولنّ ذهب السيآت عني إنّه لفرح فخور. إلاّ الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير**﴾: إنّها صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر، الذي يعيش في لحظته الحاضرة، ويطغى عليه ما يلابسه؛ فلا يتذكر ما مضى ولا يفكر فيما يلي، فهو يؤوس من الخير كفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه، مع أنّه كانت هِبَةً من الله له، وهو فرح بطر بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء؛ لا يحتمل في الشدة ويصبر ويؤمل في رحمة الله ويرجو فرجه، ولا يقتصد في فرحه وفخره بالنعمة أو يحسب لزوالها أي حساب!. إلاّ الذين صبروا: صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة؛ فإنّ كثيراً من الناس يصبرون على الشدة تجلداً وإباءً أن يظهر عليهم الضعف والخور، ولكن القلة هي التي تصبر على النعمة، فلا تفتر ولا تبطر، وعملوا الصالحات في الحالين؛ في الشدة بالاحتمال والرجاء، وفي النعمة بالشكر والبر، أولئك لهم مغفرة بما صبروا على الضراء وبما شكروا في البأساء وأجر كبير في القدَرِ والمقدارِ.

التوجيه الثاني: ﴿**فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنّما أنت نذير والله على كل شيء وكيل**﴾: في هذا التوجيه يتجه الخطاب إلى الرسول ﷺ بتوقع ما يترتب على قولهم وما فيه من مطالب وسوء تقدير بالعواقب من تنازل الرسول عن بعض ما يرغب عنه المشاغب، كلا، لن تترك بعض ما يوحى إليك ولن يضيق به صدرك من قولهم هذا. إنّما أنت نذير؛ فواجبك كله أن تنذرهم، فأدِّ واجبك. والله على كل شيء وكيل، فهو الموكل بهم، يصرفهم كيف يشاء وفق سنته، ويحاسبهم بعد ذلك على ما يكسبون، فلست أنت موكلاً لكفرهم أو إيمانهم، إنّما أنت نذير. وقولة أخرى يقولونها وقد قالوها مراراً: إنّ هذا القرآن مفترى... ﴿**أم يقولون**

افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾: فهذا التحدي قد وقع نظيره متكرراً في عدة سور؛ فتارة يتحداهم بإتيان مثل القرآن كله، وتارة يتحداهم بعشر سور مثله مفتريات، وتارة يتحداهم بسورة من سور القرآن، وتارة يتحداهم بسورة من مثل الرسول.

فالغرض من هذا كله هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن؛ كله أو بعضه أو سورة منه على السواء، فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره، والعجز كان عن النوع لا عن المقدار، وعندئذ يستوي الكل والبعض والسورة... **﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾**: ولم يطاوعوكم على افتراء عشر سور؛ لأنّهم عاجزون عن أن يقدموا لكم عوناً في هذه المهمة المتعذرة!، وعجزتم أنتم بطبيعة الحال؛ لأنّكم لم تدعوهم لتستعينوا بهم إلاّ بعد عجزكم... **﴿فاعلموا أنّما أنزل بعلم الله﴾**: فهو وحده القادر على أن ينزله، وعلم الله وحده هو الكفيل بأن ينزله على هذا النحو، ومتضمنا ما تضمنه من دلائل العلم الشامل بسنن الكون وأحوال البشر وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، وما يصلح لهم في نفسهم وفي معاشهم... **﴿وأن لا إله إلا هو﴾**: هذا مستفاد كذلك من عجز آلهتكم عن تلبيتكم في تأليف عشر سور كالتي أنزلها الله، فلابد أن يكون هناك إله واحد هو القادر وحده على إنزال هذا القرآن. ثم يعقب على هذا التقرير الذي لا مفر منه الإقرار به بسؤال لا يحتمل إلا جواباً واحداً عند غير المكابرين المتعنّتين؛ سؤال: **﴿فهل أنتم مسلمون﴾**؟.

بعد هذا التحدي والعجز ودلالته التي لا سبيل إلى مواجهتها بغير التسليم!، ولكنهم ظلوا بعدها يكابرون!. فقد كان الحق واضحاً ولكنهم كانوا يخافون على ما يتمتعون في هذه الحياة الدنيا من منافع وسلطان، فلهذا يعقب السياق بما يناسب حالهم، ويصور لهم عاقبة أمرهم... **﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾**: فخلاصة هذا المعنى: إنّ للجهد في هذه الأرض ثمرته؛ سواء تطلع صاحبه إلى أفق أعلى أو توجه به إلى منافعه القريبة وذاته المحدودة، فمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها فإنّه يلقى نتيجة عمله في هذه الدنيا، ويتمتع بها في أجل محدود، ولكنه ليس له

في الآخرة إلاّ النار؛ لأنّه لم يقدم للآخرة شيئاً، ولم يحسب لها حساباً، فكل عمل الدنيا يلقاه في الدنيا، ولكنه باطل في الآخرة لا يقام له فيها وزن، ونحن نشهد في هذه الأرض أفراداً اليوم وشعوباً وأمماً تعمل لهذه الدنيا، وتنال جزاءها فيها، ولدنياها زينتها، ولدنياها انتفاخ، فلا يجوز أن نعجب ولا أن نسأل: لماذا؟؛ لأنّ هذه هي سنة الله في هذه الأرض، ولكن التسليم بهذه السنة ونتائجها لا يجوز أن ينسينا أنّ هؤلاء كان يمكن أن يعملوا نفس ما عملوه ـ ونفوسهم تتطلع للآخرة وتراقب الله في الكسب والمتاع ـ فينالوا زينة الحياة الدنيا لا يبخسون منها شيئاً، وينالون كذلك نعيم الحياة الأخرى.

إنّ العمل للحياة الأخرى لا يقف في سبيل العمل في الحياة الدنيا، بل إنّه هو مع الاتجاه إلى الله فيه. ومراقبة الله في العمل لا تقلل من مقداره ولا تنقص من آثاره، بل تزيد وتبارك الجهد والثمر، وتجعل الكسب طيباً والمتاع به طيباً. ثم تضيف إلى متاع الدنيا نعيم الآخرة، إلاّ أن يكون الغرض من متاع الدنيا هو الشهوات الحرام. وهذه مردية لا في الأخرى فحسب، بل كذلك في الدنيا ولو بعد حين، وهي ظاهرة في حياة الأمم وفي حياة الأفراد، وعبر التاريخ شاهدة على مصير كل أمة اتبعت الشهوات!.

التوجيه الثالث: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تَكُ في مرية منه إنّه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾: هذا التوجيه كذلك موجه للرسول ﷺ مقصود به تنبيه قومه فلا يكونوا منه في شك، وهو أسلوب من أساليب التوجيه المؤثرة في كثير من الأحايين؛ فهو هنا يقارن ويقابل ذلك الصنف من الناس الذي لا يتطلع إلى أكثر من الحياة الدنيا وزينتها، فلا يتصل بأبعد من هذه الأسباب القريبة، بصنف آخر واصل بالله يجد في نفسه هذا الاتصال ويتبيّنه ويثق به، ثم يجد من الله شاهداً هو هذا الكتاب المبين، ويجد في كتاب موسى من قبله. فهذا الصنف غير الصنف الأول وفرق بينهما بعيد؛ فهؤلاء الذين يؤمنون بهذا الكتاب، غير أولئك الذين يكفرون به من الأحزاب.

ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده، فلا يتطرق إليك شك فيه إذا رأيت أكثر قومك لا يؤمنون به؛ ففي الإيمان بالقرآن مخالفة الهوى والشهوات، وطباع

أكثر الناس تغليب الهوى على الحق، فإذا جاء ما يخالف هواهم لم يؤمنوا به، بل أنكروه وقالوا فيه: إنّه سحر مفترى... **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾**: إنّ افتراء الكذب في ذاته جريمة نكراء، وظلم للحق، ولمن يفترى عليه الكذب، فما بال حين يكون هذا الافتراء على الله ؟! ..**﴿أولئك يعرضون على ربهم: ويقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم﴾**، فهو التشهير والتشنيع بالإشارة: هؤلاء «هؤلاء الذين كذبوا». وعلى مَنْ ؟. على ربهم لا على أحد آخر!.

إنّ جو الفضيحة هو الذي يرتسم في هذا المشهد، تعقبها اللعنة المناسبة لشناعة الجريمة... **﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾**: يقولها الأشهاد في ساحة العرض الحاشدة... **﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾**: يفترون الكذب على ربهم ليصدوا عن سبيل الله... **﴿ويبغونها عوجاً﴾**: فلا يريدون الاستقامة ولا الخطة المستقيمة، إنّما يريدونها عوجاً والتواءً وانحرافاً، يريدون الطريق أو يريدون الحياة أو يريدون الأمور، كلها معنًى... **﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾**: ويكرر ـ هم ـ مرتين للتوكيد وتثبيت الجريمة وإبرازها في مقام التشهير... **﴿أولئك﴾**: البعداء المبعدون الملعونون... **﴿م يكونوا معجزين في الأرض﴾**: فلم يكن أمرهم معجزاً لله، ولو شاء لأخذهم بالعذاب في الدنيا... **﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾**: ينصرونهم أو يمنعونهم من الله، إنّما تركهم لعذاب الآخرة؛ ليستوفوا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة... **﴿يضاعف لهم العذاب﴾**: فقد عاشوا معطلي المدارك مغلقي البصائر؛ كأن لم يكن لهم سمع ولا بصر... **﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون. أولئك الذين خسروا أنفسهم﴾**: وهي أفدح الخسارة؛ فالذي يخسر نفسه لا يفيد شيئاً مما كسب غيرها، وأولئك خسروا أنفسهم فأضاعوها في الدنيا، ولم يحسوا بكرامتهم الآدمية التي تتمثل في الارتفاع عن الحياة الدنيا والتطلع ـ مع المتاع بها ـ إلى ما هو أرقى وأسمى؛ وذلك حين كفروا بالآخرة، وحين كذبوا على ربهم غير متوقعين لقاءه، وخسروا أنفسهم في الآخرة بهذا الخزي الذي ينالهم، وبهذا العذاب الذي ينتظرهم... **﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾**: غاب عنهم فلم يهتد إليهم ولم يجتمع عليهم ما كانوا يفترونه من الكذب على الله، فقد تبدد وذهب وضاع... **﴿لا جرم أنّهم في الآخرة هم الأخسرون﴾**: الذين لا تعدل خسارتهم خسارة، فقد أضاعوا أنفسهم دنيا وأخرى.

وفي الجانب الآخر أهل الإيمان والعمل الصالح، المطمئنون إلى ربهم

الواثقون به الساكنون إليه لا يشكون ولا يقلقون... ﴿**إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون**﴾: فالإخبات الطمأنينة والاستقرار والثقة والتسليم، فهي تصور حالة المؤمن مع ربه وركونه إليه واطمئنانه لكل ما يأتي به وهدوء نفسه وسكون قلبه وأمنه واستقراره ورضاه... ﴿**مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا**﴾؟: فهي صورة حسية تجسم فيها حالة الفريقين؛ فالفريق الأول كالأعمى لا يرى وكالأصم لا يسمع ـ والذى يعطل حواسه وجوارحه عن الغاية الكبرى منها، وهي أن تكون أدوات موصلة للقلب والعقل؛ ليدرك ويتدبر فكأنما هو محروم من تلك الجوارح والحواس ـ. والفريق الثاني كالبصير يرى وكالسميع يسمع، فيهديه بصره وسمعه. هل يستويان مثلا ؟. هل يستوي الفريقان صفةً وحالاً ومبدأ ومآلاً ؟. كلا!. إنّهما لا يستويان... ﴿**أفلا تذّكّرون**﴾؟!.

2 ـ ذكر قصة نوح مفصلة بعد ما ذكرت في يونس مجملة

النص

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا

إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ (25) أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ
إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ (26) فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ
إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا
مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ (27) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ
إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ
فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ (28)
وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠
بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا
تَجۡهَلُونَ (29) وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ (30) وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ
ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ
أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ
إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (31) * قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ

جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿32﴾
قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿33﴾
وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ
أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿34﴾ أَمْ يَقُولُونَ
ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿35﴾
وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿36﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿37﴾
وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ
قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿38﴾
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿39﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا
مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ
وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿40﴾ * وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا
بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿41﴾
وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ
فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿42﴾
قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ

أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿43﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿44﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿45﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿46﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿47﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿48﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿49﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنّي لكم نذير مبين﴾: نذير مبين: نذير بيّن الإنذار، وهو الإعلام بالشيء مع بيان عاقبة من خالفه فلم يذعن لما فيه من الأمر والنهي... **﴿أن لا تعبدوا إلا الله إنّي أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾**: أخاف عليكم: هذه الجملة تستعمل للتوقع في الأمر المظنون أو المقطوع به باعتبار إمكان

الانفلات من المقطوع به؛ فيعدى الفعل بنفسه إلى الخوف منه. ويتعدى إلى المخوف عليه بحرف على كما في الآية... ﴿**فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلاّ بشراً مثلنا**﴾: الملأ: سادة القوم كما علم مما تقدم. ما نراك إلاّ بشراً مثلنا: نراك هنا رؤية العين. والبشر: الإنسان، ذكر أو أنثى، واحداً كان أو جمعاً، سمي بشراً لظهور بشرته بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف والشعر والوبر والريش... ﴿**وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي**﴾: الأراذل: جمع أرذل، وهو المحتقر المستضعف.

وبادي الرأي: الذي يأخذ الأمر حسبما يبدو دون تعمق وتدقيق، والرأي: نظر العقل... ﴿**وما نرى لكم علينا من فضل**﴾: الفضل هنا: الزيادة في الشرف والكمال... ﴿**بل نظنكم كاذبين**﴾: بل للاضراب الانتقالي هنا. والظن: الاعتقاد على حسب ما يُرَى ظاهراً. والكذب هنا: الادعاء بما ليس حقا... ﴿**قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي**﴾: معنى أرأيتم: أخبروني. والبينة: الحجة البيّنُ صدقُها بالدليل القاطع... ﴿**وآتاني رحمة من عنده**﴾: هي النبوءة وتعاليم الوحي التي هي سبب رحمة الله الخاصة لمن يهتدي بها... ﴿**فعميت عليكم**﴾: خفيت عليكم فلم تروها... ﴿**أنلزمكموها وأنتم لها كارهون**﴾: الإلزام: فرض الشيء بالقهر.

والكاره: المبغض للشيء النافر منه... ﴿**وياقوم لا أسألكم عليه مالاً**﴾: سؤال المال: طلبه للانتفاع به؛ فنوح لا يسأل قومه مالاً مقابل دعوته إيّاهم... ﴿**إن أجري إلاّ على الله**﴾: الأجر: ما يعطى في مقابل العمل سواء كان مالاً أو غيره؛ فالأجر أعم من المال... ﴿**وما أنا بطارد الذين آمنوا**﴾: الطرد: الأمر بالبعد عن مكان الحضور تحقيراً أو زجراً... ﴿**إنّهم ملاقوا ربّهم**﴾: يوم القيامة فيجازيهم على أعمالهم... ﴿**ولكني أراكم قوماً تجهلون**﴾: الجهل: يطلق على عدم العلم بالشيء، ويطلق على الخفة وسفاهة العقل؛ فتجهلون هنا يعطى الإطلاقين معا... ﴿**وياقوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون**﴾: النصر: إعانة المقاوم لضد أو عدو، وضمن معنى هنا الإنجاء فعدي بمن.

والتذكر هنا: التأمل في الدلائل ومدلولاتها والأسباب ومسبباتها... ﴿**ولا أقول لكم عندي خزائن الله**﴾: الخزائن: جمع خزانة، وهي ما يخزن فيها المال

لحفظه وصيانته، وخزائن الله أنواع رزقه. . . ﴿**ولا أعلم الغيب**﴾: وهو ما لا يصل إليه علم البشر الكسبي. . . ﴿**ولا أقول إني ملك**﴾: ملك من الملائكة بل أنا بشر رسول من عند الله. . . ﴿**ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً**﴾: لا أدّعي هذه الأشياء لأنّها ليست من خصائص الرسالة. وازدراء العين: نظر الاستصغار والاحتقار. والمراد بالخير ما وعد على الإيمان والهدى من سعادة الدنيا والآخرة. . . ﴿**الله أعلم بما في أنفسهم**﴾: بما آتاهم الله من الإيمان على بصيرة. . . ﴿**إني إذن لمن الظالمين**﴾: إذا قلت شيئاً مما نفيته عني من الأقوال المتقدمة. . . ﴿**قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**﴾: الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله.

والإتيان بالشيء: إحضاره، وأرادوا به تعجيله وعدم إنظاره. وما تعدنا مصداقه عذاب يوم أليم. . . ﴿**قال إنّما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين**﴾: ما أنتم بناجين وفالتين من الوعيد، يريد أنّ العذاب واقع لا محالة. . . ﴿**ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم**﴾: المراد بالنصح هنا: هو ما سماه قومه بالجدال. . . ﴿**إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربّكم وإليه ترجعون**﴾: الإغواء: جعل الشخص ذا غواية، وهي الضلال عن الحق والرشد. . . ﴿**أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون**﴾: الإجرام: اكتساب الجرم وهو الذنب، فهو يقتضي المؤاخذة لا محالة؛ إذ الإجرام الفعل القبيح الضار الذي يستحق فاعله العقاب، وأصله من الجرم الذي هو قطع الثمر قبل بدو صلاحه. . . ﴿**وأوحي إلى نوح أنّه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون**﴾: الابتئاس: افتعال من البؤس، وهو الهم والحزن.

وما كانوا يفعلون: هو إصرارهم على الكفر، وإعراضهم عن النظر. . . ﴿**واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنّهم مغرقون**﴾: الصنع: تركيب الشيء على هيئة خاصة بإمعان وتقدير. والفلك: السفينة. والمراد بالأعين: المراقبة والملاحظة، وهو الحفظ من الخلل والخطإ في الصنع. . . ﴿**ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ويحل عليه عذاب**

مقيم﴾: السخرية: الاستهزاء، وهو تعجب باحتقار واستحماق، وسخريتهم منه حمل فعله على العبث. وسخرية نوح وقومه المؤمنين من الكافرين: من سفه عقولهم وجهلهم. والخزي: الإهانة.

والعذاب المقيم: عذاب الآخرة... **﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾**: حتى غاية ليصنع الفلك، وإذا ظرف متضمن معنى الشرط. ومجيء الأمر: حصوله. والفوران: غليان القدر من شدة الحر، ويطلق على نبع الماء بشدة. والتنور: هو الموقد الذي ينضج فيه الخبز... قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين: الزوج: شيء يكون ثانياً لآخر في حالة، وأصله اسم لما ينضم إلى فرد فيصير زوجاً له، والمراد بالزوجين هنا الذكر والأنثى من النوع... وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن: أهل الرجل: قرابته وأهل بيته، وهو اسم جمع لا واحد له، إلاّ من كان من أهلك كافراً.

والمراد بمن آمن: بقية المؤمنين من غير أهله... وما آمن معه إلاّ قليل: لم يؤمن من قوم نوح إلاّ القليل... **﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها﴾**: ركب في السفينة: دخل فيها، وركب على الدابة علا عليها. مجرى: مصدر ميمى من أجرى السفينة إذا سيّرها بسرعة. والمرسى كذلك: من أرسى السفينة إذا جعلها واقفة، والرسو: الثبوت في المكان... **﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾**: الموج: ما يرتفع من الماء على سطحه عند اضطرابه، وتشبيهه بالجبال لضخامته. **﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل يابني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾**: المعزل: اسم مكان، وهو ما ينفرد الإنسان فيه وحده منعزلاً عن الناس... **﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾**: ألجأ إلى جبل عالٍ يحفظني من الغرق والهلاك... **﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم﴾**: لا شيء في هذا اليوم العصيب يحفظ أحداً من أمر الله الذي قضاه، إلا من رحمه الله فآمن ودخل السفينة... **﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾**: الحيلولة: الفصل بين الشيئين بشيء آخر، فالموج هنا هو الفاصل بين نوح وبين ابنه، فنجا نوح وغرق ابنه مع الغارقين. والمغرق: من أغرقه غيره، والغارق: من غرق بنفسه... **﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾**: البلع حقيقته: اجتياز الطعام والشراب إلى الحلق بدون استقرار في الفم، ومعنى بلع الأرض ماءها دخوله في باطنها بسرعة كسرعة

ازدراد البالع... **﴿ويا سماء أقلعي﴾**: الإقلاع: الترك والتحول والكف عن الفعل، والكلمة هنا تعني كل هذه المعاني... **﴿وغيض الماء﴾**: ذهب ونضب في الأرض فلم يبق له أثر... **﴿وقضي الأمر﴾**: تمم الله ما أراده من إهلاك الكافرين... **﴿واستوت﴾**: استقرت السفينة... **﴿على الجودي﴾**: المكان الذي استقرت عليه.

﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾: هلاكاً وسحقاً لهم، وبعداً من رحمة الله تعالى بما كان من رسوخهم في الظلم... **﴿ونادى نوح ربّه فقال رب إنّ ابني من أهلي﴾**: معنى المفردات ظاهر... **﴿وإنّ وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾**: ظاهر المعنى كذلك... **﴿قال يانوح إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح﴾**: لا يعتد به فلا يكون صاحبه ناجياً من الغرق... **﴿فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾**: السؤال هنا بمعنى الدعاء. والوعظ هنا: النصح بالتثبت وعدم الإسراع بالدعاء قبل العلم بنتيجته. والجهل هنا: ضد العلم... **﴿قال رب إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم﴾**: أعتصم وأحتمي بك من أن أسألك بعد الآن ما ليس لي علم صحيح بأنّه جائز لائق... **﴿وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾**: المغفرة: عدم المؤاخذة على ما مضى.

والرحمة: طلب الخير فيما يأتي... **﴿قيل يانوح اهبط بسلام منا﴾**: الهبوط: النزول. والسلام: التحية... **﴿وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾**: البركات: الخيرات النامية، واحدتها بركة، وهي من كلمات التحية مستعملة في الدعاء. والأمم: جمع أمة، والأمة: الجماعة من الناس... **﴿وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منّا عذاب أليم﴾**: أمم أخرى ستأتي بعد نوح يكون فيها الخير والشر... **﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك﴾**: الإشارة إلى قصة نوح. وأنباء الغيب: الأخبار العجيبة المغيبة عن الناس يأتي بها الوحي المنزل على الرسول ﷺ... **﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾**: هذه الأنباء ما كان الرسول يعلمها هو ولا قومه ولا أحد من الناس على وجه الدقة والتفصيل قبل نزول هذا القرآن!.. **﴿فاصبر إنّ العاقبة للمتقين﴾**.

مبحث الإعراب

﴿ولقد﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، وقد للتحقيق. **﴿أرسلنا نوحاً﴾** فعل

وفاعل ومفعول. ﴿**إلى قومه**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لكم**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**نذير**﴾ خبر إنّ. ﴿**مبين**﴾ نعت لنذير، وجملة إنّي لكم نذير مبين في محل نصب مقول لقول مقدر. ﴿**أنْ**﴾ حرف تفسير. ﴿**لا تعبدوا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النهي الجازم، وجملة لا تعبدوا مفسَّرة لا محل لها من الإعراب. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**الله**﴾ بدل من مفعول مقدر، والتقدير: أن لا تعبدوا أحداً إلاّ الله. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أخاف**﴾ فاعله أنا، والجملة في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّي أخاف تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بأخاف. ﴿**عذاب**﴾ مفعول به. ﴿**يوم**﴾ مضاف إلى عذاب. ﴿**عظيم**﴾ نعت ليوم. ﴿**فقال الملأ**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التعقيب. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع نعت للملأ.

﴿**كفروا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**من قومه**﴾ متعلق بكفروا. ﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**نراك**﴾ فعل مضارع وفاعله نحن، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**إلاّ بشراً**﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿**مثلنا**﴾ نعت للمستثنى منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وما نراك**﴾ مثل ما نراك قبلها. ﴿**اتّبعك**﴾ فعل ماضٍ، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**إلاّ الذين**﴾ في محل رفع بدل من فاعل اتّبعك المقدر، والتقدير: ما نراك اتّبعك أحد إلاّ الذين. ﴿**هم أراذلنا**﴾ مبتدأ وخبر صلة الذين. ﴿**بادي**﴾ منصوب. ﴿**الرأي**﴾ مضاف إلى بادي. ﴿**وما نرى**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**لكم**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**علينا**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**من فضل**﴾ مجرور بمن الزائدة في محل نصب مفعول نرى. ﴿**بل**﴾ حرف إضراب. ﴿**نظنّكم**﴾ فعل مضارع ينصب مفعولين؛ الأول الضمير المتصل بالفعل. ﴿**كاذبين**﴾ المفعول الثاني.

﴿**قال يا قوم**﴾ منادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف. ﴿**أرأيتم**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف الاستفهام. ﴿**إن كنت**﴾ كان واسمها دخل عليها حرف الشرط. ﴿**على بينة**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان. ﴿**من ربي**﴾ متعلق ببينة. ﴿**وآتاني**﴾ فعل ماضٍ ينصب مفعولين؛ الأول ضمير المتكلم المتصل بالفعل. ﴿**رحمة**﴾ المفعول الثاني، والجملة معطوفة على إن كنت. ﴿**من عنده**﴾ متعلق بآتاني. ﴿**فعميت**﴾ فعل ماضٍ دخل عليه حرف

التعقيب، والفاعل ضمير يعود على البينة. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بعميت. ﴿**أنُلزمكموها**﴾ فعل مضارع ينصب مفعولين؛ ضمير المخاطبين المتصل بالفعل، وضمير الغيبة المؤنث المتصل بآخر الفعل، والهمزة الداخلة على الفعل للاستفهام، وفاعل الفعل ضمير المتكلمين نحن. ﴿**وأنتم**﴾ في محل رفع مبتدأ، والواو للحال. ﴿**لها**﴾ متعلق بالخبر بعده.

﴿**كارهون**﴾ خبر المبتدإ، والجملة في محل نصب حال من ضمير المخاطب، وجواب الشرط في قوله: إن كنت دلّ عليه فعل أرأيتم وما سدّ مسدَّ مفعوليه، وتقدير الكلام: قال يا قوم إن كنت على بينة من ربي ..الخ؛ فأجيبوا عن هذا السؤال: أنُلزمكموها وأنتم لها كارهون؟. ﴿**ويا قوم**﴾ تقدم إعراب مثلها قريباً. ﴿**لا أسألكم**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفي، والفاعل ضمير المتكلم أنا، والضمير المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿**عليه**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**مالاً**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**إنْ**﴾ حرف نفي. ﴿**أجري**﴾ مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وياء المتكلم في محل جر بالإضافة، وحركت بالفتحة للتخفيف. ﴿**إلاّ على الله**﴾ المستثنى بدل من مستثنى مقدر متعلق بمحذوف خبر المبتدإ.

والتقدير: ما أجري كائن على أحد إلاّ على الله. ﴿**وما أنا**﴾ ما هنا عاملة عمل ليس، وأنا اسمها، والواو للعطف. ﴿**بطاردِ**﴾ خبر ما دخل عليه حرف الجر الزائد فَجُرَّ لفظُه وهو في محل نصب خبرُ ما. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول باسم الفاعل. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**إنّهم**﴾ إنّ واسمها. ﴿**ملاقوا**﴾ خبر إنّ مرفوع بالواو. ﴿**ربّهم**﴾ مضاف إلى ملاقوا مجرور بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة إنّهم ملاقوا ربّهم تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**ولكنّي**﴾ لكن واسمها دخل عليها حرف العطف. ﴿**أراكم**﴾ فعل مضارع ينصب مفعولين؛ المفعول الأول الضمير المتصل بالفعل. ﴿**قوماً**﴾ المفعول الثاني. ﴿**تجهلون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب نعت لقوله: قوماً. ﴿**ويا قوم**﴾ تقدم إعراب مثله. ﴿**من**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**ينصرني**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على من، وضمير المتكلم المتصل بالفعل مفعول، وجملة ينصرني في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**من الله**﴾ متعلق بينصرني.

﴿**إن طردتهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف الشرط، وجواب الشرط

محذوف يدل عليه قوله: من ينصرني من الله. ﴿**أفلا تذكرون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي وفاء التعقيب وحرف الاستفهام. ﴿**ولا أقول**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفي وواو العطف، والفاعل ضمير المتكلم أنا. ﴿**لكم**﴾ متعلق بأقول. ﴿**عندي**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**خزائن**﴾ مبتدأ مؤخر، وجملة عندي خزائن في محل نصب مقول القول. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى خزائن. ﴿**ولا أعلم**﴾ فعل مضارع منفي بلا معطوف على عندي خزائن الله. ﴿**الغيب**﴾ مفعول به. ﴿**ولا أقول**﴾ معطوف على ولا أقول لكم عندي خزائن الله. ﴿**إنّي ملك**﴾ إنّ واسمها وخبرها، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**ولا أقول**﴾ معطوف كذلك. ﴿**للذين**﴾ متعلق بأقول.

﴿**تزدري**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء. ﴿**أعيُنكم**﴾ فاعل تزدري. ﴿**لن يؤتيهم**﴾ فعل مضارع منصوب بلن، والضمير المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿**اللهُ فاعل**﴾. ﴿**خيراً**﴾ مفعول ثانٍ، وجملة لن يؤتيهم الله خيراً في محل نصب مقول القول. ﴿**الله**﴾ مبتدأ. ﴿**أعلم**﴾ خبره. ﴿**بما**﴾ متعلق بأعلم. ﴿**في أنفسهم**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما، وجملة الله أعلم بما في أنفسهم تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**إذن**﴾ حرف جواب وجزاء. ﴿**لمن الظالمين**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ، واللام لتوكيد الخبر، وجملة إنّي إذن لمن الظالمين تعليل ثانٍ. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**يانوح**﴾ منادى مبني على الضم في محل نصب. ﴿**قد جادلتنا**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف التحقيق. ﴿**فأكثرت جدالنا**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف التعقيب. ﴿**فأتنا**﴾ الفاء للتفريع، والضمير المتصل بفعل الأمر مفعول. ﴿**بما**﴾ متعلق بفعل الأمر.

﴿**تعدنا**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير المخاطب أنت، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، وجملة تعدنا صلة ما. ﴿**إن كنت**﴾ كان واسمها دخل عليها حرف الشرط الجازم. ﴿**من الصادقين**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان، وجواب الشرط محذوف يدل عليه قوله: فأتنا بما تعدنا. ﴿**قال**﴾ فاعله ضمير يعود على نوح. ﴿**إنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**يأتيكم**﴾ فعل مضارع، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**به**﴾ متعلق بيأتيكم. ﴿**اللهُ**﴾ فاعل يأتيكم. ﴿**إن شاء**﴾ فاعله ضمير يعود على الله، والجملة شرطية، وجوابها محذوف دل عليه قوله: إنّما يأتيكم به الله. ﴿**وما**

أنتم﴾ الواو للعطف، وما تعمل عمل ليس، وأنتم اسمها. **﴿بمعجزين﴾** خبر ليس دخل عليه حرف الجر الزائد فجُرّ لفظاً ونُصب محلاً. **﴿ولا ينفعكم﴾** فعل مضارع دخل عليه حرف النفي وواو العطف.

﴿نصحي﴾ فاعل ينفعكم مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، وياء المتكلم في محل جر بالإضافة، وحركت بالفتحة للتخفيف. **﴿إن أردت﴾** فعل وفاعل دخل عليه حرف الشرط الجازم. **﴿أن أنصح﴾** فعل مضارع منصوب بأن، وفاعله ضمير المتكلم. **﴿لكم﴾** متعلق بأنصح، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول أردت. إن كان **﴿الله﴾** كان واسمها دخل عليها حرف الشرط. **﴿يريد﴾** فاعله ضمير يعود على الله. **﴿أن يغويكم﴾** أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول يريد، وجواب الشرطين يدل عليه قوله: ولا ينفعكم نصحي. **﴿هو﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿ربّكم﴾** خبره. **﴿وإليه﴾** متعلق بالفعل بعده.

﴿ترجعون﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل. **﴿أم يقولون افتراه﴾** تقدم إعراب مثله. **﴿قل﴾** فعل أمر. **﴿إن افتريته﴾** فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف الشرط. **﴿فعلي﴾** متعلق بمحذوف خبر مقدم. **﴿إجرامي﴾** مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، والجملة في محل جزم جواب الشرط، والفاء رابطة للجواب، وجملة الشرط وجوابه في محل نصب مقول القول. **﴿وأنا﴾** في محل رفع مبتدأ دخل عليه واو العطف. **﴿بريء﴾** خبر المبتدإ. **﴿مما﴾** متعلق ببريء. **﴿تجرمون﴾** فعل وفاعل، والجملة صلة ما. **﴿وأوحي﴾** فعل ماض مبني للمجهول دخل عليه حرف العطف. **﴿إلى نوح﴾** متعلق بأوحي. **﴿أنّه﴾** أنّ واسمها. **﴿لن يؤمن﴾** فعل مضارع منصوب بلن. **﴿من قومك﴾** متعلق بلن يؤمن. **﴿إلاّ من﴾** في محل رفع بدل من الفاعل المقدر، والتقدير: لن يؤمن أحدٌ من قومك إلاّ من.

﴿قد آمن﴾ صلة من، وجملة قد آمن صلة من، ولن يؤمن في محل رفع خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع نائب فاعل أوحي، والتقدير: وأوحي إلى نوح تحقُّقُ عدم إيمان قومك إلاّ من قد آمن. **﴿فلا تبتئس﴾** فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، والفاء للتعقيب، والفاعل ضمير المخاطب أنت يعود

على نوح. ﴿**بما**﴾ متهلق بتبتئس. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يفعلون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا يفعلون صلة ما. ﴿**واصنع**﴾ فعل أمر فاعله أنت. ﴿**الفلك**﴾ مفعول. ﴿**بأعيننا**﴾ متعلق بمحذوف حال من الفاعل. ﴿**ووحينا**﴾ معطوف على أعيننا. ﴿**ولا تخاطبني**﴾ الواو للعطف، ولا ناهية جازمة للفعل، والضمير المتصل بالفعل مفعول، والفاعل ضمير المخاطب. ﴿**في الذين**﴾ متعلق بالفعل قبله.

﴿**ظلموا**﴾ صلة الذين. ﴿**إنّهم مغرقون**﴾ إنّ واسمها وخبرها، والجملة بيانية. ﴿**ويصنع الفلك**﴾ معطوف على قوله واصنع الفلك. ﴿**وكلّما**﴾ الواو واو الحال، وكلما كلمة مركبة من كل وما الظرفية تضمنت معنى الشرط. ﴿**مرَّ**﴾ فعل الشرط. ﴿**عليه**﴾ متعلق به. ﴿**ملأٌ**﴾ فاعل مرّ. ﴿**من قومه**﴾ متعلق بمحذوف نعت لملأ. ﴿**سخروا**﴾ فعل وفاعل جواب الشرط، وهو متعلق كلما. ﴿**منه**﴾ متعلق بسخروا. ﴿**قال**﴾ فعل ماضٍ. ﴿**إن تسخروا**﴾ فعل الشرط. ﴿**منّا**﴾ متعلق به. ﴿**فإنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**نسخرْ**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير المتكلمين نحن، والجملة في محل رفع خبر إنّ، وجملة فإنّا نسخر في محل جزم جواب الشرط، والفاء رابطة للجواب. ﴿**منكم**﴾ متعلق بنسخر. ﴿**كما**﴾ الكاف في محل نصب نعت لمفعول مطلق مُقدّر، وما في محل جر بالكاف.

﴿**تسخرون**﴾ فعل وفاعل صلة ما، والتقدير: إن تسخروا منا فإنّا نسخر منكم سخرية مثل التي تسخرونها منا. ﴿**فسوف تعلمون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التسويف وحرف التفريع. ﴿**مَنْ**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**يأتيه**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المتصل به مفعول. ﴿**عذاب**﴾ فاعل، وجملة يأتيه عذاب في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**يخزيه**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على العذاب، وجملة يخزيه في محل رفع نعت لعذاب. ﴿**ويحل عليه عذاب مقيم**﴾ معطوف على قوله: يأتيه عذاب يخزيه. ﴿**حتى**﴾ يؤتى بها لابتداء الكلام، وتدخل على الجملة الشرطية، وهي غاية لقوله ويصنع الفلك.

﴿**إذا جاء**﴾ أمرنا جملة شرطية. ﴿**وفار التنور**﴾ عطف على وجاء أمرنا، والجملتان فعل وفاعل. ﴿**قلنا**﴾ فعل وفاعل جواب الشرط. ﴿**احمل**﴾ فعل أمر. ﴿**فيها من كل**﴾ متعلقان باحمل. ﴿**زوجين**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**اثنين**﴾ مفعول

احمل. ﴿**وأهلك**﴾ معطوف على المفعول به. ﴿**إلاّ من**﴾ في محل نصب على الاستثناء بإلاّ. ﴿**سبق**﴾ فعل ماضٍ. ﴿**عليه**﴾ متعلق به. ﴿**القول**﴾ فاعل، والجملة صلة من. ﴿**ومن**﴾ معطوف على المفعول. ﴿**آمن**﴾ صلة مَن. ﴿**وما آمن**﴾ فعل ماضٍ دخل عليه حرف النفي وواو العطف. ﴿**معه**﴾ متعلق بآمن. ﴿**إلاّ قليل**﴾ بدل من فاعل آمن المقدر، والتقدير: وما آمن معه أحد إلا قليل. ﴿**وقال**﴾ معطوف على قلنا احمل فيها. ﴿**اركبوا**﴾ فعل أمر. ﴿**فيها**﴾ متعلق به. ﴿**بسم**﴾ كذلك. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى اسم. ﴿**مجراها**﴾ مصدر ميمي مفعول مطلق منصوب بفتحة مقدرة على الألف، والضمير فيه مضاف إليه.

﴿**ومرساها**﴾ معطوف عليه. ﴿**إنّ ربّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لغفور رحيم**﴾ خَبَرَان لإنّ، واللام لتوكيد الخبر، والجملة تعليل. ﴿**وهي**﴾ في محل رفع مبتدأ دخل عليه واو العطف. ﴿**تجري**﴾ فعل مضارع، والفاعل هي ضمير يعود على الفلك. ﴿**بهم**﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل تجري. ﴿**في موج**﴾ متعلق بتجري. ﴿**كالجبال**﴾ نعت لموج. ﴿**ونادى نوح ابنه**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والواو للعطف. ﴿**وكان**﴾ اسمها ضمير يعود على ابنه. ﴿**في معزل**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان. ﴿**يابني**﴾ منادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وبُنَيِّ تصغير ابن مضاف إلى ياء المتكلم؛ فأصله بُنَيْوٌ، لأنّ أصل ابْن بنْوٌ، فلما حذفوا منها الواو لثقلها في آخر كلمة ثلاثية نقص عن ثلاثة أحرف فعوضوه همزة وصل في أوله، ولما عادت له الواو المحذوفة لزوال داعي الحذف طرحت همزة الوصل، ثم لما أريد إضافة المصغر إلى ياء المتكلم لزم كسر الواو ليصير بُنيوِيّ، فلما وقعت الواو بين عدوتيها الياءين قلبت ياء وأدغمت في ياء التصغير، فصار بُنيي بياءين في آخره أُولاهما مشددة، ولما كان المنادى المضاف إلى ياء المتكلم يجوز حذف ياء المتكلم منه وإبقاء الكسرة صار بُني بكسر الياء مشدّدة.

﴿**اركب**﴾ فعل أمر. ﴿**معنا**﴾ متعلق باركب. ﴿**ولا تكن**﴾ فعل مضارع ناقص مجزوم بلا الناهية، واسمه ضمير يعود على ابن نوح. ﴿**مع الكافرين**﴾ متعلق بمحذوف خبر تكون، والجملة معطوفة على اركب. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**سآوي**﴾ فعل مضارع لحقته سين الاستقبال، وفاعله ضمير المتكلم أنا. ﴿**إلى جبل**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**يعصمني**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على

الجبل، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به، والنون للوقاية، وجملة يعصمني في محل جر نعت لجبل. ﴿**من الماء**﴾ متعلق بيعصمني. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**لا عاصم**﴾ اسم لا مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**اليوم من أمر الله**﴾ متعلق بمحذوف خبر لا. ﴿**إلاّ من**﴾ بدل من مفعول اسم الفاعل عاصم، والتقدير: لا عاصم كائن من أمر الله أحداً إلا من رحمه الله. ﴿**رحم**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على الله، والمفعول ضمير محذوف يعود على المفعول الأول، والجملة صلة مَن. ﴿**وحال**﴾ فعل ماضٍ. ﴿**بينهما**﴾ متعلق بحال.

﴿**الموجُ**﴾ فاعل حال، والواو للعطف. ﴿**فكان**﴾ الفاء للتعقيب، واسم كان ضمير يعود على ابن نوح. ﴿**من المغرقين**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان. ﴿**وقيل**﴾ فعل ماضٍ مبني للمجهول، والواو للعطف. ﴿**يا أرض**﴾ منادى مبني على الضم في محل نصب. ﴿**ابلعي**﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، وفاعله ضمير يعود على الأرض المخاطبة ـ أنتِ ـ. ﴿**ماءك**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ويا سماءُ أقلعي**﴾ مثل يا أرض ابلعي. ﴿**وغيض**﴾ فعل ماضٍ مبني للمجهول. ﴿**الماءُ**﴾ نائب الفاعل. ﴿**وقضي الأمر**﴾ مثل وغيض الماء. ﴿**واستوت**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على السفينة. ﴿**على الجوديّ**﴾ متعلق باستوت. ﴿**وقيل**﴾ مثل وغيض. ﴿**بعداً**﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة. ﴿**للقوم**﴾ متعلق به.

﴿**الظالمين**﴾ نعت للقوم. ﴿**ونادى نوح ربه**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والواو للعطف. ﴿**فقال**﴾ مرتب على نادى. ﴿**ربّ**﴾ منادى حذف منه حرف النداء، وحذفت ياء المتكلم للتخفيف، والمنادى هنا منصوب بفتحة مقدرة؛ فهو معلوم في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم. ﴿**إنّ ابني**﴾ إنّ واسمها. ﴿**من أهلي**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**وإنّ وعدك الحق**﴾ الجملة من إنّ واسمها وخبرها معطوفة على قوله: إنّ ابنِي من أهلي، وهما في محل نصب مقول القول. ﴿**وأنت**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أحكم**﴾ خبره. ﴿**الحاكمين**﴾ مضاف إلى أحكم، والجملة مثل الجملتين قبلها. ﴿**قال**﴾ اللهُ فعل وفاعل. ﴿**يانوح**﴾ منادى مبني على الضم. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**ليس**﴾ فعل ماضٍ ناقص. ﴿**من أهلك**﴾ متعلق بمحذوف خبر ليس، واسمه ضمير يعود على ابن نوح، وجملة ليس من أهلك في محل رفع

خبر إنّ. ﴿إنّه عمل﴾ إنّ واسمها وخبرها جملة تعليلية. ﴿غيرُ﴾ نعت لعمل. ﴿صالح﴾ مضاف إلى غير.

﴿فلا تسألنّي﴾ فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد في محل جزم بلا الناهية، والفاء للتفريع، والفاعل ضمير المخاطب (أنت)، ونون الوقاية أدغمت في نون التوكيد، وياء المتكلم في محل نصب مفعول أول. ﴿ما﴾ في محل نصب مفعول ثان. ﴿ليس لك﴾ متعلق بمحذوف خبر ليس مقدم. ﴿به﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿علم﴾ اسم ليس مؤخر، وجملة ليس لك به علم صلة ما. ﴿إنّي﴾ إنّ واسمها. ﴿أعظك﴾ فاعله ضمير المتكلم (أنا)، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، وجملة أعظك في محل رفع خبر إنّ. ﴿أن تكون﴾ منصوب بأن، واسم تكون ضمير المخاطب. ﴿من الجاهلين﴾ متعلق بمحذوف خبر تكون، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بالباء متعلق بأعظك.

﴿قال﴾ فعل ماض. ﴿ربّ﴾ سبق إعراب مثلها قريبا. ﴿إنّي أعوذ﴾ مثل إنّي أعظك. ﴿بك﴾ متعلق بأعوذ. ﴿أن أسألك﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بمن متعلق بأعوذ. ﴿ما ليس لي به علم﴾ مثل ما ليس لك به علم في الإعراب. ﴿وإن لا تغفر﴾ جملة شرطية معطوفة على قوله: إنّي أعوذ بك. ﴿لي﴾ متعلق بتغفر. ﴿وترحمني﴾ معطوفة على تغفر لي. ﴿أكن﴾ مجزوم في جواب الشرط، واسم أكن ضمير المتكلم. ﴿من الخاسرين﴾ متعلق بمحذوف خبر أكن. ﴿قيل يا نوح﴾ سبق إعراب مثله. ﴿اهبط بسلام﴾ متعلق بفعل الأمر. ﴿منّا﴾ متعلق بمحذوف نعت لسلام. ﴿وبركات﴾ معطوف على سلام. ﴿عليك﴾ متعلق بسلام وبركات. ﴿وعلى أمم﴾ معطوف على قوله: عليك. ﴿ممّن﴾ متعلق بمحذوف نعت لأمم. ﴿معك﴾ متعلق بمحذوف صلة مَن. ﴿وأمم﴾ مبتدأ.

﴿سنمتعهم﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المتكلمين (نحن)، والضمير المتصل بالفعل مفعول، وجملة سنمتعهم في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿ثم يمسهم﴾ معطوف على سنمتعهم. ﴿منّا﴾ متعلق بيمسهم. ﴿عذاب﴾ فاعل يمس. ﴿أليم﴾ نعت لعذاب. ﴿تلك﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿من أنباء الغيب﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿نوحيها﴾ فعل مضارع، والضمير المتصل بالفعل مفعول يعود على الأنباء. ﴿إليك﴾ متعلق بنوحيها. ﴿ما كنت﴾ كان واسمها دخل عليها

حرف النفي. ﴿**تعلمها**﴾ فاعله ضمير المخاطب، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**أنت**﴾ في محل رفع توكيد للفاعل. ﴿**ولا قومك**﴾ معطوف على الضمير. ﴿**من قبل**﴾ متعلق بتعلمها. ﴿**هذا**﴾ في محل جر مضاف إلى قبل. ﴿**فاصبر**﴾ مفرع على ما قبله. ﴿**إنّ العاقبة**﴾ إنّ واسمها. ﴿**للمتقين**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنّي لكم نذير مبين**﴾: ربط الكلام بما قبله بالعطف ليتصل الكلام من إنذار المشركين ووصف أحوالهم وما ناسب ذلك إلى موعظتهم بما أصاب المكذبين قبلهم من المصائب، وفي ذلك تسلية للنبيء محمد ﷺ بما لاقاه الرسل ـ عليهم السلام ـ قبله من أقوامهم. وأكدت الجملة بلام القسم وقد؛ لأنّ المخاطبين لما غفلوا عن الحذر مما حاق بقوم نوح مع مماثلة حالهم نزلوا منزلة المنكر لوقوع رسالته، ووجه الربط مشابهة دعوة محمد بدعوة نوح؛ فتكاد تكون الألفاظ ذاتها التي أرسل محمد بها، والتي تضمنها الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير. وهذه المقاربة في ألفاظ التعبير عن المعنى الرئيسي الواحد مقصودة في السياق لتقرير وحدة الرسالة ووحدة العقيدة؛ حتى لتتوحد ألفاظ التعبير في معانيها. وجملة... ﴿**ألاّ تعبدوا إلاّ الله**﴾: مفسرة لما قبلها. وجملة... ﴿**إنّي أخاف عليكم عذاب يوم أليم**﴾: تعليل لنذير؛ لأنّ شأن النذارة أن تثقل على النفوس وتَخزِهُم فكانت جديرة بالتعليل لدفع حرج ما يلاقونه. ووصف اليوم بالأليم مجاز عقلي، وهو أبلغ من أن يوصف العذاب بالأليم؛ لأنّ شدة العذاب لما بلغت الغاية جعل زمانه أليماً.

والعذاب هنا نكرة في المعنى؛ لأنّه أضيف إلى نكرة، فكان محتملاً لعذاب الدنيا وعذاب الآخرة... ﴿**فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلاّ بشراً مثلنا**﴾: جاء الرد هنا مقروناً بالفاء مبادرة منهم بالتكذيب والمجادلة الباطلة، وهو قولهم: ما نراك إلاّ بشراً مثلنا، فليس لك ما يميزك ويسودك علينا... ﴿**وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي**﴾: زيادة في تكذيب نوح والرد عليه بما رأوا في أتباعه من ضعف الفقر وقلة الجاه وسلامة القلب، فعدُّوهم أراذل، وإعراب بادي الرأي حال تجعل كل فرد منهم موصوف بهذا الوصف الذي اعتبروه نقصاً. ومادام نوح بشراً مثلهم ومادام الذين اتبعوه من هؤلاء الناس فلم يكونوا

صادقين بل كاذبين فيما يدعونه، فواجهوهم بالرد بقولهم. . . ﴿**وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين. قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنُلزمكموها وأنتم لها كارهون**﴾: فصلت هذه الآية عن التي قبلها فلم تعطف عليها؛ لأنّها جاءت على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات.

وافتتاح مراجعته بالنداء لطلب إقبال أذهانهم لوعي كلامه. واختيار استحضارهم بعنوان قومه لاستنزال طائر نفورهم تذكيراً لهم بأنّه منهم فلا يريدُ لهم الاّ خيراً. وإذ قد كان طعنُهم في رسالته مُدلَّلا بأنّهم ما رأوا له مزية وفضلاً، وما رأوا أتباعه إلا ضعفاء قومهم، وأنّ ذلك علامة كذبه وضلال أتباعه، سلك نوح في مجادلتهم مسلك إجمال لإبطال شبهتهم ثم مسلك تفصيل لرد أقوالهم؛ فأما مسلك الإجمال فسلك فيه مسلك القلب بأنّهم إن لم يروا فيه وفي أتباعه ما يحمل على التصديق برسالته، فكذلك هو لا يستطيع أن يحملهم على رؤية المعاني الدالة على صدقه، ولا يستطيع منع الذين آمنوا به من متابعته والاهتداء بالهدي الذي جاء به؛ فقوله: أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ..الخ، معناه إن كنت ذا برهان واضح، ومتصفاً برحمة الله بالرسالة بالهدى فلم تظهر لكم الحجة ولا دلائل الهدى، فهل ألزمكم أنا وأتباعي بها وأنتم لها كارهون؟!. . ﴿**ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلاّ على الله**﴾: لما أظهر لهم نوح أنّه لا يجبرهم على إيمان يكرهونه انتقل إلى تقريبهم من النظر في نزاهة ما جاءهم به، وأنّه لا يريد نفعاً دنيوياً.

وجملة إن أجري إلاّ على الله احتراس؛ لأنّه لما نفى أن يسألهم مالاً، والمال أجر نشأ توهَّمٌ أنّه لا يسأل جزاء على الدعوة فجاء بجملة إن أجري إلاّ على الله احتراسا. وعطف جملة ﴿**وما أنا بطارد الذين آمنوا**﴾ على جملة لا أسألكم عليه مالاً؛ لأنّ مضمونها كالنتيجة لمضمون المعطوف عليها؛ لأنّ نفي طمعه في المخاطبين يقتضي أنّه لا يُؤْذِي أتْبَاعَه لأجل إرضاء هؤلاء؛ ولذلك عبر عن أتباعه بطريق الموصولية بقوله: الذين آمنوا؛ لما يؤذن به الموصول من تغليطِ قومه في تعريضهم له بأن يطردهم بما أنّهم لا يجالسون أمثالهم إيذاناً بأنّ إيمانهم يوجب تفضيلَهم على غيرهم الذين لم يؤمنوا به والرغبة فيهم، فكيف يطردهم؟!. وهذا إبطال لما اقتضاه قولهم: وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا، من التعريض بأنّهم لا يماثلونهم في متابعته.

وجملة ﴿**إنّهم ملاقوا ربهم**﴾ في موضع التعليل لنفي أن يطردهم. وتأكيد الخبر بإنّ لرد إنكار قومه البعث، وقد زيد هذا التأكيدُ تأكيداً بجملة ﴿**ولكنّي أراكم قوماً تجهلون**﴾. إنّ الجهل فيهم راسخ أصيل ودائم مستمر بلا تغيير ولا تبديل... ﴿**ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون**﴾؟!: إنّه ينادي قومه مرة أخرى ليتحققوا من موقفه معهم ومع المؤمنين به، فيفرع على الجهل الغفلة المستمرة ليبقى الجهل ملازماً لهم... ﴿**ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب**﴾: هذا تفصيل لما رد به مقالة قومه إجمالاً، فهم استدلوا على نفي نبوءته بأنّهم لم يروا فضلاً له عليهم، فجاء هو في جوابهم بالقول بالموجَب أنّه لم يدّع فضلاً غير الوحي إليه، فاقتصر على بعض ما يتوهمونه من لوازم النبوءة؛ وهو أن يكون أغنى منهم، أو أن يعلم الأمور الغائبة، وإنّما نفى ذلك بصيغة المضارع للدلالة على أنّه منتف عنه ذلك في الحال.

وذكر الخزائن هنا استعارة مكنية؛ شبهت النعم والأشياء النافعة بالأموال النفيسة التي تدخر في الخزائن، ورمز إلى ذلك بذكر ما هو من روادف المشبه به وهو الخزائن. وإضافة خزائن إلى الله لاختصاص الله بها... ﴿**ولا أقول إنّي ملك**﴾: نفي لشبهة قولهم: ما نراك إلاّ بشراً مثلنا؛ ولذلك أعاد معه فعل القول؛ لأنّه إبطال دعوى أخرى ألصقوها به... ﴿**ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً**﴾: نفي لشبهة قولهم: ﴿**وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا**﴾، فأبطله بطريقة التغليظ؛ لأنّهم جعلوا ضعفهم وفقرهم سبباً لانتفاء فضلهم. وإسناد الازدراء إلى الأعين، وإنّما هو من أفعال النفس مجاز عقلي؛ لأنّ الأعين سبب الازدراء غالباً.

وجيء في النفي بحرف لن الدالة على تأكيد نفي الفعل في المستقبل تعريضاً بقومه؛ لأنّهم جعلوا ضعف أتباعه وفقرهم دليلاً على انتفاء الخير عنهم فاقتضى دوام ذلك ماداموا ضعفاء فقراء، فلسان حالهم يقول: لن ينالوا خيراً، فكان رده عليهم بأنّه لا نقول: لن يؤتيهم الله خيراً. وجملة ﴿**الله أعلم بما في أنفسهم**﴾، تعليل لنفي أن يقول: لن يؤتيهم الله خيراً؛ ولذلك فُصلت الجملة ولم تعطف. وجملة ﴿**إنّي إذاً لمن الظالمين**﴾ تعليل ثان لقوله السابق، وأكد هذا التعليل بثلاث مؤكدات: إنّ ولام الابتداء وحرف الجزاء، تحقيقاً لظلم الذين رموا المؤمنين

بالرذالة وسلبوا الفضل عنهم؛ لأنّه أراد التعريض بقومه في ذلك. . . **﴿قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**.

﴿قال إنّما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين﴾: فصلت هذه الجملة فصلاً على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات، وهذا القول وقع عقب مجادلته المحكية في الآية قبل هذه. وقولهم: فأكثرت جدالنا، خبر مستعمل في التذمر والتضجير والتأييس من الاقتناع، فأجابهم بالمبادرة لبيان العذاب وقال: إنّما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين. . . **﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون﴾**: وصلت هذه الآية بما قبلها بالعطف لأنّها تكملة لبيان حقيقة المجادلة التي استهزءوا بها وامتعضوا منها بأنّها نصح لهم، فهذا الكلام متعلق بقولهم: قد جادلتنا فأكثرت جدالنا صدر عن نوح ـ عليه السلام ـ إظهاراً للعجز عن إلزامهم بالحجج والبيانات لتماديهم في العناد، وإيذاناً بأن ما سبق منه ليس بطريق الجدال والخصام؛ بل بطريق النصح لهم والشفقة عليهم، ولكن لا ينفعهم ذلك عند إرادة الله تعالى لإغوائهم. . . **﴿أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون﴾**: هذه الآية جاءت هنا معترضة بين جملة أجزاء القصة، وليست من القصة، وهي تأكيد لنظيرها السابق في أول السورة.

ومناسبة هذا الاعتراض أنّ تفاصيل القصة التي لا يعلمها المخاطبون تفاصيل عجيبة تدعو المنكرين إلى أن يتذكروا إنكارهم ويعيدوا ذكره؛ فالاستفهام الذي يؤذن به حرف أم المختص بعطف الاستفهام استفهام إنكاري، وموقع الإنكار بديع لتضمنه الحجة عليهم. وهذا الاعتراض لا يخالف سياق القصة في القرآن؛ لأنّها إنّما جاءت لتأدية غرض من هذا في السياق. وهذا الأسلوب من الجدال بالتي هي أحسن يستخفه السمع ويقبله الطبع. . . **﴿وأوحي إلى نوح أنّه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾**: هذه الآية موصولة بالعطف على آية قالوا يانوح قد جادلتنا. وضمير أنّه ضمير الشأن، وهو دال على أنّ الجملة بعده لها شأن خطير؛ فهؤلاء أمرهم خطير للحكم عليهم أنّهم لن يؤمنوا، فلا تحزن على هؤلاء، وعلى ما يحصل لهم بسبب فعلهم. . . **﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنّهم مغرقون﴾**: لما كان نهيه عن الابتئاس لفعلهم

مع شدة جرمهم مؤذناً بأنّ الله ينتصر له، أعقبه بالأمر بصنع الفلك لتهيئة نجاته ونجاة من قد آمن معه من العذاب الذي قدره الله لقومه، وجملة واصنع الفلك عطف على جملة فلا تبتئس، فهي بذلك داخلة في الموحى به، فتدل على أنّ الله أوحى إليه كيفية صنع الفلك؛ فنوح أول من صنع الفلك ولم يكن ذلك معروفاً للبشر. والأعين استعارة للمراقبة والملاحظة.

ودلّ النهي في قوله: ولا تخاطبني في الذين ظلموا على أنّ كفار قومه سينزل بهم عذاب عظيم؛ فجملة إنّهم مغرقون إخبار بما سيقع وبيان لسبب الأمر بصنع الفلك. وتأكيد الخبر بحرف التوكيد في هذه الآية مثال لتخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر... **﴿ويصنع الفلك وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون﴾**: وصلت الآية بما قبلها بالعطف، وعبر عن صنعه بصيغة المضارع لاستحضار الحالة، وجملة وكلما مرّ عليه ملأ من قومه في موضع الحال، وجملة سخروا منه جواب كلّما، وجملة قال إن تسخروا منا حكاية لما يجيب به سخريتهم، فهم سخروا من نوح والمؤمنين معه، ونوح ومن معه يسخرون من هؤلاء الساخرين الجاهلين بالعواقب... **﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾**!.

﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور﴾: فوران التنور خروج الدخان منه قبل اشتداد التهابه فيتراكم دخانه ويتصاعد إلى أعلى، وهو تشبيه بليغ في اشتداد أمر الطوفان **﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾**؛ فلم يكن الماء خارجاً من تنور واحد، وإنما الماء اندفع بغزارة وقوة من عيون الأرض حتى صارت تفور كما يفور دخان التنور المعلوم عند العرب، فنحن نعرف التنور سواء كان حفرة في الأرض أو بارزاً عليها، ونحن نعرف غزارة دخانه واندفاعه إلى عنان السماء؛ فلم تكن صورة عند العرب تمثل صورة الطوفان الخارج من الأرض إلاّ صورة التنور عند تراكم دخانه واندفاعه إلى أعلى بقوة وسرعة، فهي صورة مثيرة ومؤثرة في النفوس وفي العقول للذين يدركون معنى التصوير والتمثيل، في مثل هذا السياق الذي لا يدركه إلاّ القليل! ..**﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾**: هذا جواب إذا، وهي الغاية التي من أجلها أمر نوح بصنع الفلك لتحمل

الناجين من هول الغرق، فحمل نوح في السفينة مَنْ أمره الله بحمله من كل زوجين اثنين فقط، وأهْلَكَ المؤمنين فقط، ومن آمن من بقية الناس.

وجملة وما آمن معه إلاّ قليل اعتراض لتكميل الفائدة من القصة في قلة الصالحين... **﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إنّ ربّي لغفور رحيم﴾**: وصلت الآية بما قبلها بالعطف على جملة قلنا احمل فيها، وعدي فعل اركبوا بفي جَرْياً على الفصيح؛ فإنّه يقال: ركب على الدابة إذا علاها، وأما ركوب الفلك فيُعدى بفي؛ لأنّ إطلاق الركوب عليه مجاز. وإنّما هو جلوس واستقرار، فلا يقال: ركب على السفينة، فأرادوا التفرقة بين الركوب الحقيقي والركوب المشابه له، وهي تفرقة حسنة. ومجراها مصدر أجرى السفينة إذا جعلها جارية. ومرساها مصدر أرساها إذا جعلها راسية؛ فالجري السير بسرعة، والإرساء الإثبات في المكان.

وجملة إنّ ربّي لغفور رحيم تعليل للأمر بالركوب المقيد بالملابسة لذكر اسم الله تعالى، ففي التعليل بالمغفرة بالرحمة رمز إلى أنّ الله وعده بنجاتهم، وذلك من غفرانه ورحمته. وأكد بإنّ ولام الابتداء تحقيقاً لأتباعه بأنّ الله رحمهم بالإنجاء من الغرق... **﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾**: جملة معترضة دعا إلى اعتراضها هنا ذكر مجراها إتماماً للفائدة، ووصفاً لعظم اليوم وعجيب صنع الله تعالى في تيسير نجاتهم. وقدم المسند إليه على الخبر الفعلي لتقوي الحكم وتحقيقه. وعدل عن الفعل الماضي إلى المضارع لاستحضار الحالة، وتشبيه الموج بالجبال لتهويل تلك الحالة! ..**﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾**: عطفت جملة ونادى على أعلق الجمل بها اتصالاً، وهي وقال اركبوا فيها؛ لأنّ نداءه ابنه كان قبل جريان السفينة في موج كالجبال.

وجملة وكان في معزل حال من ابنه. وجملة يا بني اركب معنا بيان لجملة نادى، وهي إرشاد له ورفق به. وتصغير بُنيّ تصغير شفقة ورحمة، وقوله: اركب معنا كناية عن دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتحذير... **﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم﴾**: فصلت جملة قال سآوي، وجملة قال لاعاصم لوقوعهما في سياق المحاورة... **﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾**: حيلولة الموج بينهما في آخر المحاورة يشير

إلى سرعة فيضان الماء في حين المحاولة. وأفاد قوله: فكان من المغرقين أنّه غرق وغرق معه من توعده بالغرق، فهو إيجاز بديع... ﴿**وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين**﴾: لما أفاد قوله: فكان من المغرقين وقوع الغرق الموعود به على وجه الإيجاز انتقل الكلام إلى انتهاء الطوفان.

وبناء فعل قيل للمفعول هنا اختصار؛ لظهور فاعل القول؛ لأنّ مثله لا يصدر إلاّ من الله، والقول هنا أمر التكوين. وخطاب الأرض والسماء بطريقة النداء وبالأمر استعارة لتعلق أمر التكوين بكيفيات أفعال في ذاتيهما وانفعالهما بذلك كما يخاطب العاقل بعمل يعمله فيقبله امتثالاً وخشية؛ فالاستعارة هنا في حرف النداء وهي تبعية. والبلع هنا استعارة لإدخال الشيء في باطن شيء بسرعة. ومعنى بلْعِ الأرض ماءَها دخولُه في باطنها بسرعة كسرعة ازدراد البالع، بحيث لم يكن جفاف الأرض بحرارة شمس أو رياح، وإقلاع السماء مستعار لكف نزول المطر منها؛ لأنّه إذا كف نزول المطر لم يخلف الماء الذي غار في الأرض؛ ولذلك قدم الأمر بالبلع لأنّه السبب الأعظم لغيض الماء. وفي قران الأرض محسّن الطباق، وفي مقابلة ابلعي بأقلعي محسّن الجناس.

وغيض الماء ابتلعته الأرض في جوفها وغار من سطحها. واستوت على الجودي رست رسو استقرار على مكان مرتفع أمين. وقيل: بُعْداً للقوم الظالمين؛ فالبعد كناية عن التحقير بلازم كراهية الشيء. والآن وقد هدأت العاصفة وسكن الهول واستوت على الجودي، الآن تستيقظ في نفس نوح لهفة الوالد المفجوع... ﴿**ونادى نوح ربه فقال رب إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين**﴾: والنداء هنا نداء دعاء؛ لأنّ الدعاء يصدر بالنداء غالباً. والتعبير برب بدلاً من الله تشريف لنوح وإيماء إلى رحمة الله به، وأنّ نهيه الوارد بعده نهي عتاب. وجملة فقال رب إنّ ابني من أهلي بيان للنداء.

وجملة وإنّ وعدك الحق خبر مستعمل في لازم الفائدة. وجملة وأنت أحكم الحاكمين تأكيد لقوله: وعدك الحق. واسم التفضيل يتعلق بماهية الفعل، فيفيد أنّ حكمه لا يجور، وأنّه لا يبطله أحد... ﴿**قال يا نوح إنّه ليس من أهلك**﴾: نفي أن يكون من أهل دينه واعتقاده فليس ذلك إبطالاً لقول نوح: إنّ ابني من أهلي،

ولكنه إعلام بأنّ قرابة الدين بالنسبة لأهل الإيمان هي القرابة، وهذا المعنى شائع في الاستعمال. وتأكيد الخبر لتحقيقه لغرابته. وجملة... ﴿**إنّه عمل غير صالح**﴾: تعليل لمضمون جملة إنّه ليس من أهلك، فإنّ فيه لمجرد الاهتمام... ﴿**فلا تسألني ما ليس لك به علم**﴾: تفريع على قوله: إنّه ليس من أهلك، وهذا النهي نهي عتاب حيث لم يتبين من ربه جواز ذلك، فقوله... ﴿**إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين**﴾: موعظة على ترك التثبت قبل الإقدام... ﴿**قال رب إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم**﴾: أجاب نوح كلام ربه بما يدل على التنصل مما سأل، فاستعاذ أن يسأل ما ليس له به علم... ﴿**وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين**﴾: ختم نوح عليه السلام كلامه بهذه الجملة، فطلب المغفرة ابتداءً؛ لأنّ التخلية مقدمة على التحلية، ثم أعقبها بطلب الرحمة؛ لأنّه إذا كان بمحل الرضى من الله كان أهلاً للرحمة.

وأدركت رحمة الله نوحاً، تطمئن قلبه، وتباركه والصالح من نسله، فأمّا الآخرون فيمسهم عذاب أليم... ﴿**قيل يا نوح اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمم ممّن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منّا عذاب أليم**﴾: فصلت هذه الجملة ولم تعطف لوقوعها في سياق المحاورة بين نوح وربه؛ فإنّ نوحاً لما أجاب بقوله: رب إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ..الخ خاطبه ربه إتماماً للمحاورة بما يسكّن جأشه. وكان مقتضى الظاهر أن يقول: قال: يا نوح اهبط، ولكنه عدل عنه إلى بناء الفعل للنائب ليجيء على وتيرة حكاية أجزاء القصة المتقدمة من قوله: وقيل يا أرض ابلعي ـ وقيل بعداً للقوم الظالمين، فحصل بذلك البناء قضاء حق الإشارة إلى جزء القصة كما حصل بالفصل قضاء حق الإشارة إلى أنّ ذلك القول جزء المحاورة.

ونداء نوح للتنويه به بين الملإ. وخطابه بالسلام حينئذ إيماء إلى أنّه كان في ضيافة الله تعالى. ومِنّا: تأكيد لتوجيه السلام إليه... ﴿**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إنّ العاقبة للمتقين**﴾: استئناف أريد منه الامتنان على النبيء ﷺ والموعظة والتسلية؛ فالامتنان من قوله: ما كنت تعلمها، والموعظة من قوله: فاصبر، والتسلية من قوله: إنّ العاقبة للمتقين. والإشارة بتلك إلى ما تقدم من القصة المفصّلة، ووجه تفريع أمر

الرسول بالصبر على هذه القصة أنّ فيها قياسَ حالِه مع قومه على حال نوح مع قومه، فجملة إنّ العاقبة للمتقين علة للصبر المأمور به.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنّي لكم نذير مبين ألاّ تعبدوا إلاّ الله إنّي أخاف عليكم عذاب يوم أليم**﴾: في هذا التوجيه عرض لقصة نوح مفصلة أكثر مما سبق في سورة يونس، والحكمة في ذكرها مفصلة هنا؛ لأنّها ترتبط بأول هذه السورة من ذكر بعثة محمد بمثل بعثة من قبله وفي مقدمتهم نوح؛ ليعلم قومه أنّه ليس بدعاً من الرسل، فالبعثتان هدفهما واوحد، والألفاظ فيها تكاد تكون ذاتها فهذه المقاربة في ألفاظ التعبير عن المعنى الرئيسي الواحد مقصودة في السياق؛ لتقرير وحدة الرسالة، ووحدة العقيدة. ومن هذا الاتجاه الواحد في رسالة الله نرى ونسمع المعارضين لها ـ وكأنّهم متواعدون على كلمة واحدة ـ يقولونها بهتاف واحد. . . ﴿**فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلاّ بشراً مثلنا**﴾: فذلك رد العلية المتكبرين من قوم نوح، وهو يكاد يكون رد الملإ من قريش؛ فالشبهاتُ ذاتُها، والاتّهامات ذاتها، والكبرياء ذاتها، والاستقبال الغبي الجاهل.

إنّها الشبهة التي وقرت في نفوس جهال البشر: أنّ الجنس البشري أصغر من حمل رسالة الله؛ فإن تكن رسالة فليحملها ملَك أو مخلوق آخر، وهي شبهة جاهلة مصدرها عدم الثقة بهذا المخلوق الذي استخلفه الله في أرضه، وهي وظيفة خطيرة ضخمة، فلابد أن يكون الخالق قد أودع في هذا الإنسان ما يكافئها من الاستعداد والطاقة، وأودع في جنسه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهيؤُون لحمل الرسالة باختيار الله لهم، وهو أعلم بما أودع في كيانهم الخاص من خصائص هذا الجنس في عمومه. ومن شبهة أخرى جاهلة كذلك: هي أنّه إذا كان بشر يُختار رسول فلم لا يكون من بين هؤلاء الملإ الكبراء في قومهم المتسلطين العالين. وهو جهل بالقيم الحقيقية لهذا المخلوق الإنساني، والتي من أجلها استحق الخلافة في الأرض بعمومه، واستحق حمل رسالة الله بخصوصيته في المختارين منه المهيئين.

وهذه القيم لا علاقة لها بمال أو جاه أو استطالة في الأرض، إنّما هي في

صميم النفس، واستعدادها للاتصال بالملإ الأعلى، بما فيه من صفاء وتفتح وقدرة على التلقي، واحتمال للأمانة وصبر على أدائها ومقدرة على إبلاغها، إلى آخر صفات النبوءة الكريمة، وهي صفات لا علاقة لها بمال أو جاه أو استعلاء. ولكن الملأ من قوم نوح كالملإ من قوم كل نبيء تعميهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية هذه الخصائص العلوية فلا يدركون مبرراً لاختصاص الرسل بالرسالة، وهي في زعمهم لا تكون لبشر، فإن كانت فهي لأمثالهم من الوجهاء العالين في الأرض!. ما نراك إلاّ بشراً مثلنا. هذه واحدة، أما الأخرى فأدهى. . . ﴿**وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي**﴾! : فهم يسمون جماهير الشعب أراذل، كما ينظر الكبراء دائماً إلى الجماهير، فهذه الطبقات من العمال والصناع والزراع وصغار التجار أراذل في عرف الملإ الأكابر.

وأولئك هم أتباع الرسل السابقون غالباً؛ لأنّهم بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة للدعوات الكريمة، التي تحرر النفوس من رق الكبراء، وتصل القلوب بإلهٍ قاهِرٍ عالٍ على الأعلياء، ولأنّ فطرتهم لم يفسدها البطر والترف، ولم تعوقها المصالح والمظاهر عن الاستجابة؛ ولأنّهم لا يخافون من العقيدة في الله أن تضيع عليهم مكانة مسروقة لغفلة الجماهير واستعبادها للخرافات الوثنية في شتى صورها!. ومن الوثنية التعليق بالأشخاص الزائلة بدلاً من الاتجاه لله وحده دون شريك. فديانات التوحيد حركة تحريرية للبشر في كل طور وفي كل أرض، ومن ثَمَّ كان يقاومها الطغاة دائماً ويصدون عنها الجماهير؛ ويحاولون تشويهها واتهام الدعاة إليها بشرِّ التهم للتشويش والتنفير؛ فقوم نوح لما وصفوا كل فريق من التابع والمتبوع بما ينفي سيادة المتبوع وتزكية التابع جمعوا الوصف الشامل لهما وهو المقصود من الوصفين المفرقين، وذلك قولهم. . . ﴿**وما نرى لكم علينا من فضل**﴾: فنفوا أن يكون لنوح وأتباعِه فضل على الذين لم يؤمنوا به حتى يكون نوح سيداً لهم ويكون أتباعه مفضلين بسيادة متبوعهم، فهم يدمجون الداعي بمن تبعوه من الأراذل؛ فلو كان ما معكم خير وصواب لاهتدينا إليه، ولم تسبقونا أنتم إليه!. وهم يقيسون الأمور ذلك القياس الخاطئ؛ قياس الفضل بالمال، والفهم بالحياة، والمعرفة بالسلطان، فذو المال أفضل، وذو الجاه أفهم، وذو السلطان أعرف.

هذه المفاهيم وتلك القيم التي تسود دائماً حين تغيب عقيدة التوحيد عن المجتمع، أو تضعف آثارها فترتد البشرية إلى عهود الجاهلية، وإلى تقاليد الوثنية

في صورة من صورها الكثيرة. ثم بعد هذه التهم تأتي التهمة الأخيرة التي تغطي على كل التهم السابقة. . . ﴿**بل نظنكم كاذبين**﴾: إنّه النموذج المتكرر من عهد نوح لهذه الطبقة المليئة الجيوب، الفارغة القلوب، المتعاظمة المدعية المنتفخة الأوداج والأمخاخ!!. ويتلقى نوح ـ عليه السلام ـ الاتهام والإعراض والاستكبار في سماحة النبيء وفي استعلائه وفي ثقته بالحق الذي جاء به، واطمئنانه إلى ربه الذي أرسله، وفي وضوح طريقه أمامه واستقامة منهجه في شعوره، فلا يشتم كما شتموا، ولا يتهم كما اتهموا ولا يدّعي كما ادّعَوْا، ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهراً غير حقيقته ولا على رسالته شيئاً غير طبيعتها. . . ﴿**قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنُلزمكموها وأنتم لها كارهون**﴾؟!: فهو يخاطبهم في سماحة ومودة بندائهم ونسبتهم إليه، ونسبة نفسه إليهم: فتقولون: ما نراك إلاّ بشراً مثلنا، فما يكون رأيكم إن كنت على اتصال بربى، بيّن في نفسي مستيقن في شعوري، وهي خاصية لم تُوهَبُوها، وإن كان الله آتاني رحمة من عنده باختياري للرسالة، أو آتاني من الخصائص ما أستحق به حمل الرسالة ـ وهذه رحمة لاشك عظيمة ـ ما رأيكم إن كانت هذه وتلك فخفيت عليكم خفاء عماية لأنّكم غير مهيئين لإدراكها، وغير مفتوحي البصائر لرؤيتها.

إنّه ما كان لي أن ألزمكم الإذعان لها والإيمان بها وأنتم لها كارهون!. وهكذا يتلطف نوح في توجيه أنظارهم ولمس وجدانهم وإثارة حساسيتهم لإدراك القيم الخفية عليهم والخصائص التي يغفلون عنها في أمر الرسالة والاختيار لها؛ ويبصرهم بأنّ الأمر ليس موكولاً إلى الظواهر السطحية التي يقيسون بها، وفى الوقت ذاته يقرر لهم المبدأ العظيم القويم؛ مبدأ الاختيار في العقيدة والاقتناع بالنظر والتدبر، لا بالقهر والسلطان والاستعلاء. ولما أظهر لهم نوح ـ عليه السلام ـ أنّه لا يجبرهم على إيمان يكرهونه انتقل إلى تقريبهم من النظر في نزاهة ما جاءهم به وأنّه لا يريد نفعاً دنيوياً بأنّه لا يسألهم على ما جاءهم به مالاً يعطونه إياّه، فماذا يتهمونه حتى يقطعوا بكذبه ؟!. فيقول. . . ﴿**وياقوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلاّ على الله**﴾: فإنّ الذين تدعونهم أراذل قد دعوتهم فآمنوا وليس لي عند الناس إلاّ أن يؤمنوا.

إنّني لا أطلب مالاً على الدعوة حتى أكون حفياً بالأثرياء غير حفي بالفقراء، فالناس كلهم عندي سواء، ومن يستغن عن مال الناس يتساوى عنده الفقراء

والأغنياء. إن أجري إلاّ على الله وحده دون سواه... ﴿**وما أنا بطارد الذين آمنوا إنّهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون. ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون**﴾: هذا رد على الشبهة الثانية في كلامهم لينفي لازمه وهو الطرد، وقد يكونون صرحوا بذكر هذا اللازم. وهذه سنة أكابر مجرمي الكفار من جميع أقوام المرسلين، فهم يستنكفون أن يلتقوا بالأراذل، أو أن يكونوا وإيّاهم على طريق واحد!. لست بطاردهم، لا يكون مني، لقد آمنوا وأمرهم بعد ذلك إلى الله لا لي، إنّهم ملاقوا ربهم، إنّي أراكم قوماً تجهلون؛ تجهلون القيم الحقيقية التي يقدر بها الناس في ميزان الله.

﴿**وياقوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون**﴾؟؛ فهناك الله، رب الفقراء والأغنياء، رب الضعفاء والأقوياء، هناك الله يقوّم الناس بقيم أخرى، ويزنهم بميزان واحد، هو الإيمان؛ فهؤلاء المؤمنون في حماية الله ورعايته، فياقوم من ينصرني من الله إن طردتهم؟!. من ينصرني من الله إن أنا أخللت بموازينه، وبغيت على المؤمنين من عباده ـ وهم أكرم عليه ـ واعتبرت القيم الأرضية الزائفة التي بعثني الله لأعدلها لا لأتبعها ؟!. أفلا تذكرون وقد أنساكم ما أنتم فيه ميزانَ الفطرة السليمة القويمة. ثم يقدم لهم شخصه ورسالته مجردين عن كل زخرف وكل طلاء وكل قيم من تلك القيم العرضية الزائفة، يقدمها لهم في معرض التذكير؛ ليقرر لهم القيم الحقيقية، ويزدري أمامهم القيم الظاهرية، بتخليه عنها، وتجرده منها؛ فمن شاء الرسالة كما هي بقيمها بدون زخرف، بدون ادعاء، فليتقدم إليها مجردة خالصة لله... ﴿**ولا أقول لكم عندي خزائن الله**﴾: فأدعي الثراء أو القدرة على الإثراء... ﴿**ولا أعلم الغيب**﴾: فأدعي قدرة ليست للبشر، أو صلة بالله غير صلة الرسالة... ﴿**ولا أقول إنّي ملك**﴾: فأدعي صفة أعلى من صفة الإنسانية في ظنكم لأرتفع في أعينكم، وأفضل نفسي بذاتي عليكم... ﴿**ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً**﴾: إرضاءً لكبريائكم، أو مسايرةً لتقديركم الأرضي وقيمكم العرضية... ﴿**الله أعلم بما في أنفسهم**﴾: فليس لي إلا ظاهرهم، وظاهرهم يدعو إلى التكريم، وإلى الرجاء في أن يؤتيهم الله خيراً... ﴿**إنّي إذاً لمن الظالمين**﴾: إن ادعيت أية دعوى من هذه الدعاوى؛ الظالمين للحق وقد جئت أبلغه، والظالمين لنفسي فأعرضها لغضب الله، والظالمين للناس فأنزلهم غير ما أنزلهم الله.

وهكذا ينفي نوح ـ عليه السلام ـ عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة وكل هالة مصطنعة يتطلبها الملأ من قومه في الرسل والرسالة، ويتقدم إليهم بها مجردة إلاّ من حقيقتها العظيمة التي لا تحتاج إلى مزيد من تلك الأعراض السطحية. ويردهم في نصاعة الحق وقوته مع سماحة القول ووده إلى الحقيقة المجردة ليواجهوها، ويتخذوا لأنفسهم خطة على هداها، بلا ملق ولا زيف ولا محاولة استرضاء على حساب الرسالة وحقيقتها البسيطة، فيعطي أصحاب الدعوة في أجيالها جميعاً نموذجاً للداعية، ودرساً في مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد، دون استرضاء لتصوراتهم، ودون ممالأة لهم، مع المودة التي لا تنحني معها الرؤوس!.

التوجيه الثاني: ﴿**قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**﴾: في هذا التوجيه لفت النظر إلى كيفية رد قوم نوح عليه بعدما بين لهم حقيقة رسالته ودعوته التي دعاهم إليها وحرضهم عليها مدة طويلة، فكان موقفهم معه آخر المطاف، فقالوا قولهم هذا، فكانت المجادلة الأخيرة هي التي استفزت امتعاضهم من قوارع جدله حتى سئموا من تزييف معارضتهم وآرائهم شأن المبطل إذا دمغته الحجة؛ ولذلك أرادوا طيّ بساط الجدال، وأرادوا إفحامه بأن طلبوا تعجيل ما توعدهم به، فإذا هم يتركون الجدل إلى التحدي، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، وأنزل بنا العذاب الأليم الذي أنذرتنا به فلسنا نصدقك، ولسنا نبالي وعيدك. أما نوح فلا يحرجه هذا التكذيب والتحدي عن سمة النبيء الكريم ولا يقعده عن بيان الحق لهم، وإرشادهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها وجهلوها في طلبهم منه هو أن يأتيهم بما أوعدهم، وردهم إلى هذه الحقيقة وهي أنّه ليس سوى رسول، وليس عليه إلاّ البلاغ.

أما العذاب فمن أمر الله، وهو الذي يدبر الأمر كله، ويقدر المصلحة في تعجيل العذاب أو تأجيله، وسنته هي التي تنفذ، وما يملك هو أن يردها أو يحولها. إنّه رسول، وعليه أن يكشف عن الحق حتى اللحظة الأخيرة، فلا يقعده عن إبلاغه وبيانه أن القوم يكذبونه ويتحدَّونه... ﴿**قال إنّما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربّكم وإليه ترجعون**﴾: فإذا كانت سنة الله تقتضي أن تهلكوا بغوايتكم فإنّ هذه السنة ستمضي فيكم مهما بذلت لكم من النصح، فليس لأنّ الله سيصدكم

عن الانتفاع بهذا النصح، ولكن لأنّ تصرفكم بأنفسكم يجعل سنة الله تقتضي أن تضلوا، هو ربّكم وإليه ترجعون؛ فهو المتصرف فيكم كما يريد.

وتمثلت فيما قصه الله من قصة نوح مع قومه صورة واضحة من تفكير أهل العقول السخيفة التي ران عليها الضلال فقلب أفكارها إلى اعوجاج فظيع، وهي الصورة التي تتمثل في الأمم، الأمم التي لم يثقف عقولها الإرشاد الديني فغلب عليها الانسياق وراء داعي الهوى، وامتلكها الغرور بظن الخطإ صواباً، ومصانعة من تُصأصئ عين بصيرته بلائح من النور من يدعوه إلى إغماضها، وعدمت الوازع النفساني فلم تعبأ إلاّ بالصورة المحسوسة، ولم تهتم إلاّ باللذات وحب الذات. فمن هنا ينطلق السياق إلى عرض ما وقع لمحمد ﷺ مع قومه كما حدث لنوح - عليه السلام - مع قومه، وهي لفتة عجيبة إلى استقبال مشركي قريش لمثل هذه القصة التي تشبه أن تكون قصتهم مع الرسول ودعواهم أنّه يفتري هذا القَصَص فيرد هذا القول قبل أن يستكمل قصة نوح... **﴿أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون﴾**: فالافتراء إجرام. قل لهم: إن كنت فعلته فعليّ تبعته، وأنا أعرف أنّه إجرام فمستبعد أن أرتكبه، وأنا بريء مما تجرمون من تهمة الافتراء إلى جوار غيرها من الشرك والتكذيب. وهذا الاعتراض لا يخالف سياق القصة في القرآن؛ لأنّها إنّما جاءت لتأدية غرض من هذا في السياق. وللجمل والآيات المعترضة في القرآن حكم وفوائد يقتضيها تلوين الخطاب لتنبيه الأذهان ومنع السآمة وتجديد النشاط في الانتقال، والتشويق إلى سماع بقية الكلام؛ فمن المتوقع هنا أن يخطر في بال المشركين عند سماع ما تقدم من هذه القصة أنّها مفتراة كما زعموا؛ لاستغرابهم هذا السبك في الجدال والقوة في الاحتجاج، وأن يصدهم هذا عن استماع بقيتها.

التوجيه الثالث: ﴿وأوحي إلى نوح أنّه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾: في هذا التوجيه الحكم الفصل في قوم نوح المشركين، فقد انتهى الإنذار، وانتهت الدعوة، وانتهى الجدل، فالقلوب المستعدّة للإيمان قد آمنت، أما البقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه. هكذا أَوْحَى اللهُ إلى نوح، وهو أعلم بعباده، وأعلم بالممكن والممتنع، فلم يبْقَ مجال للمضي في دعوةٍ لا تفيد، ولا عليك مما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحد واستهزاء، لا تُحسّ بالبؤس

والقلق، ولا تحفل ولا تهتم بهذا الذي كان منهم؛ لا على نفسك فما هم بضاريك بشيء، ولا عليهم فإنّهم لا خير فيهم!. دع أمرهم فقد انتهى... ﴿**واصنع الفلك بأعيننا ووحينا**﴾: برعايتنا، فلا تخش عليها من عبث العابثين، وتعليمنا، فنحن نرشدك إلى كيفية العمل، فما عليك إلاّ تنفيذ الأمر، فقد تقرر مصيرهم وتقرر الأمر فيهم، فلا تخاطبني فيهم.

لا دعاءَ بهدايتهم، ولا دعاء عليهم، فمتى انتهى القضاء امتنع الدعاء... ﴿**ويصنع الفلك وكلّما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه**﴾: هنا مشهد نوح يصنع الفلك وقد اعتزل القوم وترك دعوتهم وجدالهم، ولكن قومه يمرون عليه فيسخرون منه؛ فهم يسخرون من رجل كان يقول لهم: إنّه رسول ويدعوهم، ويجادلهم فيطيل جدالهم، ثم هو ينقلب نجاراً يصنع مركبا. إنّهم يسخرون؛ لأنّهم لا يرون إلاّ ظاهر الأمر، ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر. شأنهم دائما في إدراك الظواهر، والعجز عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير؛ فأما نوح فهو واثق عارف وهو يخبرهم أنّه يبادلهم سخرية بسخرية... ﴿**قال إن تسخروا منا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون**﴾: نسخر منكم لأنّكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظركم من مصير... ﴿**فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم**﴾: أنحن أم أنتم ؟. يوم يكشف المستور عن المحذور!.. ﴿**حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور**﴾: فوران التنور تشبيه لفوران عيون الأرض بالماء كما يفور التنور بالدخان المتراكم بعضه على بعض مرتفعاً إلى أعلى؛ فصورة اندفاع الماء من الأرض وانهماره من السماء بقوة لا مثيل لها في الواقع العادي. والقرآن يصوره بصورة تثير العجب والاستغراب عندما يقول في هذا الحدث العظيم: «ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر». ومن غرابة هذا التصوير والتمثيل خفى على كثير من المفسرين تصوره، فذهبوا فيه مذاهب خرجوا بها إلى الخيال كما هو مشهور في كتب التفسير... ﴿**قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلاّ قليل**﴾: النص هنا واضح وصريح وشامل لكل من نجا من هذا الطوفان الغامر القاتل، فلا حياة ولا بقاء إلاّ لما يحمله هذا الفلك مما سيبقى من أصل الإنسان والحيوان: من كل زوجين اثنين فقط. وأهل بيت نوح من المؤمنين فقط. ومن آمن مع نوح من غير أهله، وما آمن معه إلاّ قليل! ..﴿**وقال**

اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إنّ ربّي لغفور رحيم﴾: هاهي الفلك راسية جاهزة ونوح يأمر أهله والمؤمنين معه بالركوب في الفلك مسلمين أمرهم لله في جريانها ورسوها، فهي في رعاية الله وحِمَاهُ، وماذا يملك البشر من أمر الفلك في اللجة الطاغية بلْهَ الطوفان الجارف الغامر.

ثم يأتي المشهد الهائل المرهوب؛ مشهد الطوفان... **﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال. ونادى نوح ابنه وكان في معزل يابني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾**: نوح ينادي ابنه حالة كونه منعزلاً عن أبيه في العقيدة وفي المكان: تعال اركب معنا واترك مكانك البعيد عنا، ولا تكن مع الكفرين وكن معنا في العقيدة والدين، ولكن الابن العاق لأبيه والكافر بالله قال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، فيجيبه الأب الملهوف: قال: لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم؛ فينتهى الحوار دون نتيجة يريدها نوح لابنه، وتأتي النتيجة الحاسمة الفاصلة: وحال بينهما الموج فكان من المغرقين... **﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾**: انتهى أمر الطوفان بسرعة وأمد قصير كما جاءت العبارات هنا قصيرة مختصرة، فلم يبْقَ للتفصيل والتطويل موقع للتهويل والكثرة! ..**﴿ونادى نوح ربه فقال رب إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾**: هذا الكلام اعتذار من نوح إلى ربه تعالى، من قوله الذي حصل منه لابنه بباعث الشفقة في غريزة الأبوّة، فعندما علم يقيناً أنّ ابنه كافر حين غرق مع المغرقين جاء بهذا القول معتذراً بما حصل منه... **﴿قال يانوح إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين﴾**: قد التبس على نوح عامل العقيدة بعامل الغريزة فلم يستطع أن يفرق بينهما عند اشتداد الأمر، فجاءه من عند ربّه البيان الشرعي المفرق بين العقيدة والغريزة. ولما أدرك نوح هذا المعنى الشرعي الحاسم المفرق بين عامل العقيدة وعامل الغريزة... **﴿قال رب إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾**: فلا يذهب المطلع على حكمة توجيهات القرآن ويتعلق بالروايات والآراء التي طمّت وعمّت في كثير من كتب التفسير. فمن هذا المنطق ترتسم القاعدة الشرعية التي جاء بها كل رسول:

أن الإيمان والصلاح لا علاقة له بالوراثة النسبية العرقية، وأنّ الله تعالى يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم لا بأنسابهم ولا يحابي أحداً منهم لأجل آبائه وأجداده الصالحين وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين. . . ﴿**قيل يانوح اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمم ممّن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منّا عذاب أليم**﴾: بعدما يقدم نوح اعتذاره إلى ربه بما حصل منه من دعاء ابنه الكافر إليه بعدما سبق القول عليه؛ يأتي هذا النداء من الله إلى نوح يأمره بالهبوط مزوَّداً بسلام الله وبركاته عليه وعلى من معه من المؤمنين وأمم تأتي بعدهم قد تنحرف كما انحرف مَنْ غرق من قوم نوح، فيتمتعون في الدنيا ويغترون بها ثم يمسهم من الله العذاب الأليم الذي أوعد به المنحرفين المكذبين كما حصل لأمم كثيرة بعد نوح ـ عليه السلام ـ وهي سنة الله في العالمين!.

التوجيه الرابع: ﴿**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إنّ العاقبة للمتقين**﴾: في هذا التوجيه لفت نظر النبيء ﷺ بهذا التعقيب العجيب إلى أهداف هذه القصة في هذه السورة وفي غيرها من أهداف قصص القرآن؛ فقد جاءت هذه الآية بعد نهاية قصة نوح لتوجيهه إلى محاجة الجاحدين بدلالة هذا القصص ذاته على الوحي والرسالة؛ فهذا القصص غيب من الغيب، ما كان يعلمه النبيء، وما كان معلوماً لقومه،

ولا متداولاً في محيطه، إنّما هو الوحي من لدن حكيم خبير، وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبي البشر الثاني، فهي هي، والتعبير عنها يكون هو التعبير. وحقيقة تكرار الاعتراضات والاتهامات من المكذبين على الرغم من الآيات والعبر والبيانات التي لا تمنع جيلاً أن يرددها وقد بدت باطلة في جيل، وحقيقة وقوع البشرى والوعيد، كما يبشر النبيء وينذر، وهذا شاهد من التاريخ. وحقيقة السنن الجارية التي لا تتخلف ولا تحابي ولا تحيد. وحقيقة الرابطة التي تربط بين فرد وفرد وبين جيل وجيل. إنّها العقيدة الواحدة لا تتبدل من القديم إلى الجديد، فلم يكن عند العرب علم بهذه الحقائق التي جاءت إلى محمد ﷺ من عند ربه في هذا الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير؛ فإذا كان هذا الخبر قد تحقق فلا عليك أيّها الرسول إلاّ أن تصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل الذين سبقوك في بيان هذه الحقائق، فتوحدت بها كلمتُهم واستمرت مع الأجيال دعوتهم ليهلك من هلك عن بينة وليحيى من حيي عن بينة وإن الله لسميع بصير.

3 ـ ذكر قصة عاد مع هود، وقصة صالح مع ثمود

النص

* وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ
قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿50﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿51﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا
وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿52﴾
قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي
آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿53﴾
إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ
اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ ۖ
فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿54﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ
رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي
عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿55﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ
وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿56﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿57﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿58﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿59﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿60﴾

* قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَىٰنَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿61﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَآيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿62﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿63﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿64﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿65﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿66﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿67﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿**وإلى عاد أخاهم هوداً**﴾: عاد: أمة من الأمم البائدة كانت تسكن الأحقاف في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية. وأخاهم هود: رسولهم الذي أرسل إليهم... ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾: هذه أول دعوته إلى قومه. وعبادة الله: تأدية ما أوجب، وترك ما حرم، وفي مقدمة المحرم عبادة غير الله أيّاً كان... ﴿**إن أنتم إلاّ مفترون**﴾: ما أنتم إلاّ كاذبون في عبادتكم غير الله. والافتراء: اختراع الكذب واختلاقه... ﴿**يا قوم لا أسألكم عليه أجراً**﴾: لا أطلب منكم عوضاً مقابل ما أدعوكم إليه... ﴿**إن أجري إلاّ على الذي فطرني**﴾: ما أجري إلاّ على الله الذي خلقني على الفطرة السليمة التي لم تشوه بدنس الوثنية... ﴿**أفلا تعقلون**﴾: أجننتم فلا تعقلون ما أقول لكم بما فيه صلاحكم ونفعكم... ﴿**ويا قوم استغفروا ربّكم ثم توبوا إليه**﴾: الاستغفار: طلب المغفرة للذنب، والمغفرة مصدر غفر، بمعنى ستر وعفا، والغفر: الستر.

والتوبة: الإقلاع عن الذنب في الحال، والندم على ما سلف منه، والعزم على ألاّ يعود إليه في المستقبل... ﴿**يرسل السماء عليكم مدراراً**﴾: الإرسال: بعث من مكان بعيد. والسماء: من أسماء المطر، كما يطلق على السحاب. ومدراراً: كثير الدر، وأصله كثرة در اللبن... ﴿**ويزدكم قوة إلى قوتكم**﴾: زيادة القوة هنا: زيادة قوتهم بكثرة العدد، وصحة الأجسام ووفرتها وسعة الأرزاق؛ لأنّ كل ذلك قوة للأمة يجعلها في غنى عن غيرها، وغيرها في حاجة إليها... ﴿**ولا تتولوا مجرمين**﴾: التولي: الانصراف، ويطلق على الإعراض وعدم قبول الشيء. والإجرام: فعل الجريمة، ومعناها هنا الكفر والشرك، وهو أشده... ﴿**قالوا يا هود ما جئتنا ببينة**﴾: نفي البينة جحد الحجة القاطعة التي جاء بها هود عليه السلام... ﴿**وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك**﴾: وما نحن بالذين نترك عبادة آلهتنا تركاً صادراً عن قولك من تلقاء نفسك وأنت بشر مثلنا... ﴿**وما نحن لك بمؤمنين**﴾: وما نحن بمتبعين لك اتباع إيمان وتصديق برسالتك التي لا بينة لك عليها... ﴿**إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء**﴾: الاعتراء: النزول والإصابة.

والسوء: كل آفة تصيب الإنسان في جسمه أو في عقله... ﴿**قال إنّي أشهد الله**﴾: أجعل الله شهيداً عليكم بأنّي بلغتكم... ﴿**واشهدوا أنّي بريء مما تشركون من دونه**﴾: واشهدوا أنتم بأنّي بريء من أصنامكم... ﴿**فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون**﴾: افعلوا بي ما شئتم من كيد، والكيد: المكر والخبث والخديعة، مثل: «فإن كان لكم كيد فكيدون». والإنظار: التأني والتأخير، يقابله الإسراع والتعجيل... ﴿**إنّي توكلت على الله ربّي وربّكم ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها**﴾: الأخذ: الإمساك. والناصية: مقدم شعر الرأس المنسدل على الجبهة... ﴿**إنّ ربّي على صراط مستقيم**﴾: فعْلُه جارٍ على مقتضى العدل والحكمة... ﴿**فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم**﴾: التولي: الإعراض. والإبلاغ: إيصال الشيء إلى من يراد إبلاغه.

وما أرسلت به إليكم: الرسالة التي وصلت إليهم... ﴿**ويستخلف ربّي قوماً غيركم**﴾: يزيلكم ويخلفكم بقوم آخرين لا يتولون عن رسولهم... ﴿**ولا تضرونه شيئاً إنّ ربّي على كل شيء حفيظ**﴾: لا يلحقه ضرٌ مًّا من أعدائه؛ لأنّه شديد الحفظ لأوليائه... ﴿**ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منّا ونجيناهم من عذاب غليظ**﴾: الأمر: هو ما أمر الله به أمر تكوين، وهو العذاب بالريح الصرصر العقيم. والعذاب الغليظ: عذاب الآخرة، ومعنى الغليظ: الشديد الفظيع، أي: نجيناهم من عذاب الدنيا برحمة منّا ونجيناهم من عذاب غليظ في الآخرة... ﴿**وتلك عاد جحدوا بآيات ربّهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد**﴾: الجحد: الإنكار مع العلم، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم. ومعنى اتباع الأمر: طاعة ما يأمرهم به.

والجبار: القاهر الذي يجبر غيره على اتباعه بالقهر والإذلال، أو من يجبر نقص نفسه بالكبر ودعوى العظمة. والعنيد: الطاغي الذي يأبى الحق ولا يذعن له... ﴿**وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة**﴾: إتباع الشيء بالشيء: لحوقه به وادراكه إيّاه بحيث لا يفوته. واللعنة: الطرد بإهانة وتحقير... ﴿**ويوم القيامة**﴾: تلحقهم هذه اللعنة... ﴿**ألا إنّ عاداً كفروا ربّهم ألا بعداً لعاد قوم هود**﴾: يقال: كفرَه وكفر به، ومعنى مادة الكفر في الأصل: التغطية. وبُعْداً لِعَاد: نحّاهم عن الخير وأبعدهم بالهلاك ولعنهم على رؤوس الأشهاد في الدنيا والآخرة... ﴿**وإلى ثمود**

أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾: ثمود: أمّةٌ من العرب البائدة كانت تسكن في جنوب الشام وشمال الحجاز.

وديار ثمود: هي أطلال من بقايا مساكنهم وآثارهم... وصالح: أحد الرسل الخمسة والعشرين المذكورين في القرآن... **﴿هو أنشأكم من الأرض﴾**: الإنشاء: الإيجاد والإحداث، والإنشاء من الأرض: خلق آدم من الأرض. والاستعمار فيها: جعلكم عامرينها بالبناء والغرس والزرع... **﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه إنّ ربّي قريب مجيب﴾**: طلب المغفرة وإعلان التوبة تقدم معناهما قريباً، فالله هو القريب المجيب... **﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾**: كنت مرجوا لخصال السيادة وحماية العشيرة، فالآن خاب رجاؤنا فيك حيث دعوتنا إلى ترك ما كان عليه آباؤنا وأجدادنا... **﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإنّنا لفي شك ممّا تدعونا إليه مريب﴾**: الشك المريب: القول المحير الذي يتهم قائله باختلاقه لغرابته... **﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربّي وآتاني منه رحمة﴾**: هذا الكلام مثل ما سبق في نظيره من قول نوح... **﴿فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير﴾**: التخسير: مصدر خسّر إذا جعله خاسراً، والكلمة تعطي معنى التضليل والإبعاد والإهلاك... **﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾**: مفردات هذه الآية واضحة... **﴿فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾**: العقر: ضرب قوائم الدابة بالسيف، والمراد به هنا القتل.

والمكذوب: الذي يُخبِرُ به الكاذب، يقال: كذب الخبر إذا اختلقه... **﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا﴾**: تقدم مثله في قصة هود... **﴿ومن خزى يومئذ﴾**: الخزي: الذل والهوان في ذلك اليوم العصيب... **﴿إنّ ربّك هو القوي العزيز﴾**: قوي لا يغلب وعزيز لا يقهر... **﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾**: الأخذ في أصل اللغة: التناول باليد واستعمل هنا في الهلاك. والصيحة: المرة من الصوت الشديد، والمراد بها هنا صيحة الصاعقة التي نزلت بقوم صالح. والجثوم: الوقوع على الصدر والوجه وقوعاً لا حركة معه... **﴿كأن لم يغنوا فيها﴾**: كأن لم يقيموا في ديارهم... **﴿ألا إنّ ثموداً كفروا ربّهم ألا بعداً لثمود﴾**.

مبحث الإعراب

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ الواو للعطف، إلى عاد متعلق بمضمر معطوف على قوله: أرسلنا نوحاً. أخاهم مفعول به منصوب بالألف، لأنّه من الأسماء الخمسة، والضمير فيه مضاف إليه. هوداً بيان لأخاهم. ﴿قال﴾ فعل ماض. ﴿يا قوم﴾ تقدم إعراب مثله. ﴿اعبدوا الله﴾ فعل أمر وفاعل ومفعول. ﴿ما﴾ حرف نفي. ﴿لكم﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿من الله﴾ مجرور لفظاً بمن الزائدة، ومرفوع محلاً مبتدأ مؤخر. ﴿غيره﴾ نعت لإله باعتبار محله، والجملة بيانية لا محل لها من الإعراب. ﴿إنْ﴾ حرف نفي. ﴿أنتم﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿إلاّ﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿مفترون﴾ خبر المبتدإ مرفوع بالواو. ﴿يا قوم﴾ منادى وقد سبق إعرابه. ﴿لا﴾ نافية. ﴿أسألكم﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير المتكلم، والضمير المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿عليه﴾ متعلق بالفعل. ﴿أجراً﴾ مفعول ثان.

﴿إنْ﴾ مثل سابقتها. ﴿أجري﴾ مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وياء المتكلم مضافة إلى أجر في محل جر، وحركت بالفتحة تخفيفاً. ﴿إلاّ﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿على الذين﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿فطرني﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الذي، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به، وحركت بالفتحة تخفيفاً، وجملة فطرني صلة الذي. ﴿أفلا تعقلون﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي وفاء العطف وحرف الاستفهام. ﴿ويا قوم استغفروا﴾ ﴿ربّكم﴾ فعل أمر وفاعل ومفعول. ﴿ثم توبوا﴾ معطوف عليه. ﴿إليه﴾ متعلق بتوبوا. ﴿يرسل﴾ فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر، وحرك بالكسرة لالتقاء الساكنين، والفاعل ضمير يعود على ربكم. ﴿السماء﴾ مفعول به.

﴿عليكم﴾ متعلق بيرسل. ﴿مدراراً﴾ حال من السماء منصوب بالفتحة. ﴿ويزدْكم﴾ معطوف على يرسل. ﴿قوة﴾ مفعول ثان ليزد، والمفعول الأول الضمير المتصل بالفعل. ﴿إلى قوتكم﴾ متعلق بمحذوف نعت لقوة. ﴿ولا تتولوا﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، والواو عاطفة. ﴿مجرمين﴾ حال من واو الجماعة الفاعل. ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل. ﴿ياهود﴾ مثل قالوا يانوح. ﴿ما جئتنا﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف النفي. ﴿ببيّنة﴾ متعلق بجئتنا. ﴿وما نحن بتاركي﴾ جملة من ما واسمها وخبرها. ﴿آلهتنا﴾ مضاف إلى تاركي. ﴿عن قولك﴾ متعلق

بمحذوف نعت لمصدر مقدر. ﴿**وما نحن**﴾ في محل رفع اسم ما. ﴿**لك**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**بمؤمنين**﴾ خبر ما جر لفظها بحرف الجر الزائد، ونصب محلها. ﴿**إنْ**﴾ حرف نفي.

﴿**نقول**﴾ فعل مضارع، وفاعله نحن. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**اعتراك**﴾ فعل ماض، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**بعض**﴾ فاعل. ﴿**آلهتنا**﴾ مضاف إلى بعض مجرور بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بسوء**﴾ متعلق باعتراك. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أشهد**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير المتكلم، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**الله**﴾ مفعول أشهد. ﴿**واشهدوا**﴾ فعل أمر، وفاعله واو الجماعة. ﴿**أنّي**﴾ أنّ واسمها. ﴿**بريء**﴾ خبرها، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول به. ﴿**مما**﴾ متعلق ببريء. ﴿**تشركون**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**من دونه**﴾ متعلق بتشركون. ﴿**فكيدوني**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به. ﴿**جميعاً**﴾ حال من واو الجماعة.

﴿**ثم لا تنظرون**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية معطوف على قوله فكيدوني، وهو مجزوم بحذف النون، والنون الموجودة للوقاية، وحذفت ياء المتكلم للتخفيف، وهي في محل نصب مفعول. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**توكلت**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**على الله**﴾ متعلق بتوكلت. ﴿**ربّي**﴾ نعت لله. ﴿**وربّكم**﴾ معطوف على ربّي، وجملة إنّي توكلت تعليل. ﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**من دابة**﴾ جُرّتْ لفظاً ورفعت محلاً على الابتداء. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**هو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**آخذ**﴾ خبره، والجملة خبر المبتدإ الأول. ﴿**بناصيتها**﴾ متعلق بآخذ. ﴿**إنّ ربّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**على صراط**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**مستقيم**﴾ نعت لصراط، وجملة إنّ ربّي على صراط مستقيم تعليل.

﴿**فإن تولوا**﴾ جملة شرطية دخل عليها حرف التفريع. ﴿**فقد أبلغتكم**﴾ جواب الشرط. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول ثان لأبلغتكم. ﴿**أرسلت**﴾ جملة من الفعل ونائب الفاعل صلة ما. ﴿**به إليكم**﴾ متعلقان بأرسلت. ﴿**ويستخلف ربي قوماً**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**غيركم**﴾ نعت لقوماً ﴿**ولا تضرونه**﴾ فعل وفاعل ومفعول

دخل عليه حرف النفي وواو العطف. ﴿**شيئاً**﴾ مفعول مطلق. ﴿**إنّ ربّي على كل شيء حفيظ**﴾ الجملة من إنّ واسمها وخبرها تعليل. ﴿**ولمّا**﴾ ظرف متضمن معنى الشرط دخل عليه حرف العطف. ﴿**جاء أمرنا**﴾ فعل وفاعل؛ فعل الشرط. ﴿**نجينا هوداً**﴾ فعل وفاعل ومفعول؛ جواب الشرط. ﴿**والذين**﴾ في محل نصب معطوف على هوداً. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**معه**﴾ متعلق بآمنوا. ﴿**برحمة**﴾ متعلق بنجينا. ﴿**منّا**﴾ متعلق بمحذوف نعت لرحمة. ﴿**ونجيناهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على نجينا. ﴿**من عذاب**﴾ متعلق بنجيناهم. ﴿**غليظ**﴾ نعت لعذاب. ﴿**وتلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**عاد**﴾ خبر المبتدإ.

﴿**جحدوا**﴾ فعل وفاعل والجملة بيانية. ﴿**بآيات**﴾ متعلق بجحدوا. ﴿**ربّهم**﴾ مضاف إلى آيات. ﴿**وعصوا**﴾ رسله فعل وفاعل ومفعول معطوف على جحدوا. ﴿**واتبعوا**﴾ أمر كذلك. ﴿**كل**﴾ مضاف إلى أمر. ﴿**جبار**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**عنيد**﴾ نعت لجبار. ﴿**وأُتبعوا**﴾ فعل ماضٍ مبني للمجهول معطوف على ما قبله. ﴿**في هذه**﴾ متعلق بأتبعوا. ﴿**الدنيا**﴾ عطف بيان لهذه مجرور بكسرة مقدرة على الألف. ﴿**لعنة**﴾ مفعول أتبعوا. ﴿**ويوم**﴾ متعلق بأتبعوا. ﴿**القيامة**﴾ مضاف إلى يوم. ﴿**ألا إنّ عاداً**﴾ إنّ واسمها دخل عليها حرف الاستفتاح. ﴿**كفروا ربّهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**ألا بعداً**﴾ مفعول مطلق. ﴿**لعاد**﴾ متعلق به. ﴿**قوم**﴾ عطف بيان لعاد. ﴿**هود**﴾ مضاف إلى قوم. ﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحاً**﴾ مثل وإلى عاد أخاهم هوداً.

﴿**قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾ كذلك. ﴿**هو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أنشأكم**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على الله، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، وجملة أنشأكم في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**من الأرض**﴾ متعلق بأنشأكم. ﴿**واستعمركم**﴾ معطوف على أنشأكم. ﴿**فيها**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**فاستغفروه**﴾ مفرع على ما قبله. ﴿**ثم توبوا**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**إليه**﴾ متعلق بتوبوا. ﴿**إنّ ربّي**﴾ إن واسمها. ﴿**قريب مجيب**﴾ خبران لإنّ، والجملة بيان لما قبلها. ﴿**قالوا ياصالح**﴾ مثل قالوا يانوح. ﴿**قد**﴾ حرف تحقيق. ﴿**كنت**﴾ كان واسمها. ﴿**فينا**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**مرجوا**﴾ خبر كان منصوب بالفتحة. ﴿**قبل**﴾ متعلق به. ﴿**هذا**﴾ في محل جر مضاف إلى قبل. ﴿**أتنهانا**﴾ فعل مضارع دخل

عليه حرف الاستفهام، والضمير المتصل بالفعل مفعول، والفاعل ضمير المخاطب. ﴿**أن نعبد**﴾ فعل مضارع منصوب بأن، والفاعل ضمير المتكلمين نحن، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بمن متعلق بأتنهانا. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول نعبد.

﴿**يعبد آباؤنا**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**وإنّنا**﴾ إنّ واسمها، والواو للعطف. ﴿**لفي شك**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**مما**﴾ متعلق بشك. ﴿**تدعونا**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الواو، والفاعل ضمير المخاطب، والضمير المتصل بالفعل مفعول، وجملة تدعونا صلة ما. ﴿**إليه**﴾ متعلق بتدعونا. ﴿**مريب**﴾ نعت لشك مجرور بالكسرة. ﴿**قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربّي**﴾ تقدم إعراب مثلها في قصة نوح. ﴿**وآتاني**﴾ معطوف على إن كنت. ﴿**منه**﴾ متعلق بآتاني. ﴿**رحمة**﴾ مفعول ثان لآتاني. ﴿**فمن**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، من اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**ينصرني**﴾ فعل مضارع، وفاعله يعود على من، والنون للوقاية، والياء مفعول به. ﴿**من الله**﴾ متعلق بينصرني.

﴿**إن عصيته**﴾ جملة شرطية يدل على جوابها ما قبلها. ﴿**فما تزيدونني**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف النفي وفاء التفريع. ﴿**غير**﴾ مفعول ثانٍ لقوله: تزيدونني. ﴿**تخسير**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**ويا قوم**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**هذه**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**ناقة**﴾ خبر. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى ناقة. ﴿**لكم**﴾ متعلق بمحذوف حال من آية لتقدمها عليها. ﴿**آية**﴾ حال من ناقة. ﴿**فذروها**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف الترتيب. ﴿**تأكل**﴾ فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر، والفاعل ضمير يعود على الناقة. ﴿**في أرض**﴾ متعلق بتأكل. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى أرض. ﴿**ولا تمسوها**﴾ معطوف على فذروها. ﴿**بسوء**﴾ متعلق بالفعل. ﴿**فيأخذكم**﴾ الفعل منصوب بفاء السببية لتقدم النهي. ﴿**عذاب**﴾ فاعل. ﴿**قريب**﴾ نعت له. ﴿**فعقروها**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف التعقيب. ﴿**فقال**﴾ فعل ماض.

﴿**تمتعوا**﴾ فعل وفاعل في محل نصب مقول القول. ﴿**في داركم**﴾ متعلق بتمتعوا. ﴿**ثلاثة**﴾ منصوب على الظرفية. ﴿**أيام**﴾ مضاف إلى ثلاثة. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**وعد**﴾ خبر. ﴿**غير**﴾ نعت لوعد. ﴿**مكذوب**﴾ مضاف إلى

غير. ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ تقدم إعراب مثلها في قصة هود قريباً. ﴿ومن خزي﴾ معطوف على مقدر، والتقدير: نجيناهم من عذاب الاستئصال ومن خزي ذلك اليوم. ﴿يومئذ﴾ ظرف مبني على الفتح في محل جر مضاف إلى خزي، والتنوين في يومئذٍ عوض عن جملة مضافة إلى إذ، والتقدير: يوم إذ جاء أمرنا. ﴿إنّ ربّك﴾ إنّ واسمها. ﴿هو﴾ ضمير فصل. ﴿القوي العزيز﴾ خبران لإنّ، وجملة إنّ ربّك معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿وأخذ﴾ فعل ماضٍ. ﴿الذين﴾ في محل نصب مفعول. ﴿ظلموا﴾ صلة الذين. ﴿الصيحة﴾ فاعل أخذ. ﴿فأصبحوا﴾ أصبح واسمها دخل عليها فاء التعقيب. ﴿في ديارهم﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿جاثمين﴾ خبر أصبح منصوب بالياء. ﴿كأن﴾ الكاف بمعنى مماثلين في محل نصب حال: أصبحوا جاثمين مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم في مقام قط، وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن. ﴿لم يغنوا﴾ مجزوم بلم، والجملة في محل رفع خبر أن. ﴿فيها﴾ متعلق بيغنوا. ﴿ألا﴾ أداة استفتاح. ﴿إنّ ثموداً﴾ إنّ واسمها. ﴿كفروا﴾ ربّهم فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿ألا بعداً﴾ مفعول مطلق. ﴿لثمود﴾ متعلق ببعداً.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾: الكلام متصل بما قبله بالعطف على قصة نوح. وتقديم المجرور للتنبيه على أن العطف من عطف المفردات لا من عطف الجمل؛ لأنّ الجار لابد له من متعلق، وقضاء لحق الإيجاز ليحضر ذكر عاد مرتين بلفظه ثم بضميره. وجملة: ﴿قال ياقوم﴾ مبيّنة للجملة المقدرة، وهي أرسلنا. وافتتاح دعوته بنداء قومه لاسترعاء أسماعهم إشارة إلى أهمية ما سيلقى إليهم... ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾: هذا هو القول الذي جاء به هود ـ عليه السلام ـ. وقوله: ﴿ما لكم من إله غيره﴾ جار مجرى البيان للعبادة المأمور بها، والتعليل للأمر بها، كأنّه قيل: خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئاً. وقوله... ﴿إن أنتم إلاّ مفترون﴾: توبيخ وإنكار؛ فهي بيان لجملة ما لكم من إله غيره، أي: ما أنتم إلاّ كاذبون في ادعاء إلهية غير الله تعالى.

وجملة... ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلاّ على الذي فطرني أفلا

تعقلون﴾: مثل ما قاله نوح لقومه. والتعبير بالموصول في قوله: إن أجري إلاّ على الذي فطرني دون الاسم العلَم لزيادة تحقيق أنّه لا يسألهم على الإرشاد أجراً بأنّه يعلم أنّ الذي خلقه يسوق إليه رزقه؛ لأنّ إظهار المتكلم علمه بالأسباب يكسب كلامه على المسببات قوة وتحقيقاً؛ ولذلك عطف على ذلك قوله: أفلا تعقلون؟! بفاء التفريع عاطفة استفهاماً إنكارياً عن عدم تعقلهم... **﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾**: هذه الآية مثل نظيرها في العطف والنداء، فطلب منهم الاستغفار ثم التوبة؛ فجعل جزاء هذا: يرسل السماء عليكم مدراراً، فنكتة التعبير بالمدرار الإشارة إلى الكثرة النافعة.

ويزدكم قوة إلى قوتكم: فكانوا معجبين بقوتهم، وقالوا: من أشد منّا قوة؟!، فلذلك جعل الله لهم جزاءً على ترك الشرك زيادة قوتهم بكثرة العدد وصحة الأجسام وسعة الرزق. وعطف عليه **﴿ولا تتولوا مجرمين﴾** تحذيراً من الرجوع إلى الشرك. والتولي هنا: مجاز عن الإعراض... **﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة﴾**: محاورة منهم لهود ـ عليه السلام ـ بجواب عن دعوته؛ ولذلك جردت الجملة عن العاطف. وافتتاح كلامهم بالنداء يشير إلى الاهتمام بما سيقولونه، فنزلوه منزلة البعيد لغفلته، مع إرادة توبيخه ولومه. وقولهم: ما جئتنا ببينة بهتان وتكذيب له صراحةً؛ بدليل قولهم... **﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين﴾**: فهذا القول منهم تأكيد على تكذيبه.

وجملة... **﴿إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾**: استئناف بياني؛ لأنّ قولهم: وما نحن لك بمؤمنين من شأنه أن يثير للسامع ومن معه في أنفسهم أن يقولوا إن لم تؤمنوا بما جاء به أنّه من عند الله فماذا تعدون دعوته فيكم ؟. نقول: إنّك ممسوس من بعض آلهتنا؛ فجعلوه مجنوناً، وجعلوا سبب جنونه مَسّاً من آلهتهم، ولم يتفطنوا إلى دخل كلامهم وهو أنّ الآلهة كيف تكون سبباً في إثارة ثائر عليها ؟! ..**﴿قال إنّي أشهد الله﴾**: هذا رد على قولهم بأنّه يشهد الله عليهم أنّه أبلغهم وأنّهم كذبوا وجحدوا. ثم حملهم شهادة له بأنّه بريء من شركائهم مبادرة بإنكار المنكر.

ولما كانت البراءة من الشركاء تقتضي اعتقاد عجزها عن إلحاق إضرار به فرّع

على البراءة جملة ﴿**فكيدوني جميعاً**﴾، وجعل الخطاب لقومه لئلا يكون خطابه لما لا يعقل ولا يسمع، فأمر قومه بأن يكيدوه، وأدخل في ضمير الكائدين أصنامهم مجاراة لاعتقادهم، واستقصاء لتعجيزهم. والأمر بكيدوني مستعمل في الإباحة كناية عن التعجيز بالنسبة للأصنام وبالنسبة لقومه؛ فهذا إبطال لقولهم إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء. ثم ارتقى في رتبة التعجيز والاحتقار فنهاهم عن التأخير بكيدهم إيّاهم... ﴿**ثم لا تنظرون**﴾: وذلك نهاية الاستخفاف بأصنامهم وبهم!، وكناية عن كونهم لا يصلون إلى ذلك. وجملة... ﴿**إنّي توكلت على الله ربّي وربكم**﴾: تعليل لمضمون فكيدوني وهو التعجيز والاحتقار. وأجرى على اسم الله صفة الربوبية استدلالاً على صحة التوكل عليه في دفع ضرهم عنه؛ لأنّه مالكهم جميعاً يدفع ظلم بعضهم بعضاً.

وجملة... ﴿**ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها**﴾: صفة لاسم الله؛ فالغرض منها مثل الغرض من صفة الربوبية. والأخذ بالناصية هنا: تمثيل للتمكن؛ تشبيهاً بهيئة إمساك الإنسان من ناصيته، حيث يكون رأسه بيد آخذه فلا يستطيع انفلاتاً. وجملة... ﴿**إنّ ربّي على صراط مستقيم**﴾: تعليل لجملة إنّي توكلت على الله. وعلى للاستعلاء المجازي. والصراط المستقيم: مستعار للفعل الجاري على مقتضى العدل والحكمة... ﴿**فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم**﴾: الكلام هنا يحتمل توجيهين: توجيه من هود ـ عليه السلام ـ إلى قومه، وتوجيه من الله إلى محمد ﷺ مقصود به المشركين من قريش، وهذا الأسلوب من قبيل الكلام الموجه المحتمل معنيين غير متخالفين، وهو من بديع أساليب الإعجاز، ولأجله جاء فعل تولوا بتاء واحدة... ﴿**ويستخلف ربّي قوماً غيركم**﴾: جاء الفعل مرفوعاً لاعطائه حكم الكلام المستأنف؛ ليكون مقصوداً بذاته لا تبعاً للجواب. وكذلك جملة ﴿**ولا تضرونه شيئاً**﴾. وشيئاً مصدر مؤكد لفعل تضرونه المنفي، وتنكيره للتقليل.

وجملة... ﴿**إنّ ربّي على كل شيء حفيظ**﴾: تعليل لجملة ولا تضرونه شيئاً؛ فموقع إنّ فيها موقع فاء التفريع... ﴿**ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا**﴾: وصلت الجملة بما قبلها بالعطف على ما سبق من الحوار بين هود وقومه، وكان العطف بالواو دون الفاء حتى لا يكون العطف على

الترتيب، فيدل قوله: فإن تولوا صالحٌ لقول هود لقومه، أو لقول الله لرسوله. والتعبير عن نزول العذاب بالأمر مضاف إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه، وعن نزوله بالمجيء ما لا يخفى من التفخيم والتهويل. ومتعلق نجينا محذوف دل عليه قوله: ولما جاء أمرنا، والباء في برحمة منا للسببية. وجملة... ﴿**ونجيناهم من عذاب غليظ**﴾: معطوفة على جملة ولما جاء أمرنا، والتقدير: ونجيناهم أيضاً من عذاب شديد، وهو الإنجاء من عذاب الآخرة؛ ففي هذا منة ثانية على إنجاءٍ ثانٍ، وهذان الإنجاآن يقابلان جمع العذابين لعاد في قوله: ﴿**وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة**﴾. والغليظ مستعار للشديد. واستعمل الماضي في ونجيناهم في معنى المستقبل لتحقق الوعد بوقوعه.

وقد ذكر هنا متعلق الإنجاء وحذف السبب عكس ما في الجملة الأولى لظهور أن الإنجاء من عذاب الآخرة كان بسبب الإيمان وطاعة الله كما دل عليه مقابلته بقوله: ﴿**وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله**﴾؛ فالإشارة بتلك إلى حاضر في الذهن بسبب ما جرى عليه من الحديث حتى صار كأنّه حاضر في الحس والمشاهدة. وتأنيث اسم الإشارة بتأويل الأمة. وجمع الرسل في قوله: وعصوا رسله، وإنّما عصوا رسولاً واحدا؛ لأنّ المراد ذكر إجرامهم الذي يعتبر تكذيباً لجميع الرسل... ﴿**واتبعوا أمر كل جبار عنيد**﴾: معنى اتباع الآمر طاعة ما يأمرهم به؛ فالاتباع تمثيل للعمل بما يملى على المتبع... ﴿**وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة**﴾: إتباع اللعنة إيّاهم مستعار لإصابتها إيّاهم إصابة عاجلة دون تأخير؛ كمن يتبع الماشي بمن يلحقه، ومما يزيد هذه الاستعارة حُسْناً ما فيها من المشاكلة ومن مماثلة العقاب للجرم؛ لأنّهم اتبعوا الملعونين فأتبعوا باللعنة. وبني فعل أتبعوا للمجهول إذ لا غرض في بيان الفاعل.

ولم يسند الفعل إلى اللعنة مع استيفائه ذلك على وجه المجاز ليدل على أنَّ اتباعها لهم كان بأمْرِ فاعل؛ للإشعار بأنّها تبعتهم عقاباً من الله لا مجرد مصادفة. وقرن الدنيا باسم الإشارة لقصد تهوين أمرها بالنسبة إلى لعنة الآخرة. وجملة... ﴿**ألا إنّ عاداً كفروا ربّهم**﴾: مستأنفة ابتدائية افتتحت بحرف التنبيه لتهويل الخبر، ومؤكدة بحرف إنّ لإفادة التعليل بجملة وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة؛ تعريضاً بالمشركين ليعتبروا بما أصاب عادا. وجملة... ﴿**ألا بعداً لعاد**﴾: ابتدائية

لإنشاء ذم لهم. و﴿**قوم هود**﴾ بيان لعاد باعتبار ما في لفظ قوم من معنى الوصفية، وفائدة ذكره الإيماء إلى أنّ له أثراً في الذم بإعراضهم عن طاعة رسولهم، فيكون تعريضاً بالمشركين من العرب. ألا بعداً لعاد قوم هود: بهذا التثبيت والإيضاح والتوكيد: كأنّما هنالك خشية من أن تخطئهم اللعنة؛ فهي تزود بعنوانهم كاملاً ووصفهم دقيقاً حتى تقصدهم قوة لا تخطئ ولا تحيد! ..﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾: وصلت قصة صالح بقصة هود بالعطف.

وجملة... ﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾: في موضع التعليل للأمر بعبادة الله وحده لا شريك له. وجعل الخبرين عن الضمير فعلين دون هو منشئكم ومستعمركم لإفادة القصر. والإنشاء من الأرض: خلق آدم من الأرض، وإنما ذكر تعلق خلقهم بالأرض لأنّهم كانوا أهل غرس وزرع، ولأنّهم كانوا ينحتون من جبال الأرض بيوتاً ويبنون في الأرض قصوراً، فكانت لهم منافع في الأرض تناسب نعمة إنشائهم من الأرض؛ فلأجل منافعهم في الأرض قيدت نعمة الخلق بأنّها من الأرض التي أنشئوا منها؛ ولذلك عطف عليه واستعمركم فيها. والاستعمار: الإعمار، أي: جعلكم عامرينها، فالسين والتاء للمبالغة. وفرع على التذكير بهذه النعم أمرهم باستغفاره والتوبة إليه. ومن تفنن الأسلوب أن جعلت هذه النعم علة لأمرهم بعبادة الله وحده بطريق جملة التعليل، وجعلت علة أيضاً للأمر بالاستغفار والتوبة بطريق التفريع.

وجملة... ﴿**إنّ ربّي قريب مجيب**﴾: استئناف بياني، والقرب هنا مستعار للرأفة والإكرام... ﴿**قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا**﴾: هذا جوابهم على دعوته البليغة الوجيزة الملأى إرشاداً وهدياً، وهو جواب مليء بالضلال والمكابرة وضعف الحجة. وافتتاح الكلام بالنداء لقصد التوبيخ. وقد لتأكيد الخبر. وحذف متعلق مرجوا لدلالة فعل الرجاء على أنّه ترقب الخير؛ فالآن وقع اليأس من الخير المترقب. والإشارة في قبل هذا إلى الكلام الذي خاطبهم به حين بعثه الله إليهم. وجملة... ﴿**أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا**﴾: بيان لجملة قد كنت فينا مرجوا باعتبار دلالتها على التعنيف. والاستفهام إنكار وتوبيخ.

وعبروا عن أصنامهم بالموصول لما في الصلة من الدلالة على استحقاق تلك

الأصنام أن يعبدوها في زعمهم اقتداء بآبائهم. وجملة... **﴿وإنّنا لفي شك﴾**: معطوفة على جملة يا صالح قد كنت فينا مرجوا؛ فبعد أن ذكروا يأسهم من صلاح حاله ذكروا أنّهم يشكون في صدق أنّه مرسل إليهم، وزادوا ذلك تأكيداً بحرف التأكيد. والمريب: اسم فاعل من أراب إذا أوقع في الريب، ووصف الشك بذلك تأكيد؛ فالإسناد مجازي والتنوين فيه وفي شك للتفخيم... **﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربّي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير﴾**: جواب عن كلامهم فلذلك لم تعطف جملة قال، وهو الشأن في حكاية المحاورات... وابتداء الجواب بالنداء لقصد التنبيه إلى ما سيقوله اهتماماً بشأنه.

وتقدم ما في هذا الكلام في قصة نوح ـ عليه السلام ـ، وفرع على الاستفهام الإنكاري جملة فما تزيدونني غير تخسير. والتخسير: التوقيع في الخسارة التي ما بعدها خسارة، إن تركْتُ دعوة الله وأخذت طريقكم... **﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾**: موصول بما قبله بالعطف، وهو جواب عن قولهم: وإنّنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب، فأتاهم بمعجزة تزيل الشك. والإشارة بهذه إلى الناقة المشاهدة الحاضرة أمامهم. وإضافة الناقة إلى الله لأنّها جاءت من الله معجزة لصالح... **﴿فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعدٌ غيرُ مكذوب﴾**: ربط هذه الجمل بالفاء لغرض ترتيبها وتعقيب ما بعدها على ما قبلها بسرعة دون إمهال ولا إهمال... **﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ﴾**: جاء الكلام مقروناً بفاء التعقيب كذلك، فالعذاب لم يتأخر، فقد جاء موعد تحقيق الأمر، فنجا من كتب الله له النجاة وهلك من هلك من الظالمين العتاة.

وجملة... **﴿إنّ ربّك هو القوي العزيز﴾**: جاءت لتقرر الوعيد حسبما أمر بإنجاء المؤمنين وإهلاك الظالمين... **﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها. ألا إنّ ثموداً كفروا ربّهم ألا بعداً لثمود﴾**: وهذا الوعيد الذي حصل بالفعل لثمود قد يحصل لكل ظالم متكبر جبار لا يؤمن بيوم الحساب، فهو تعريض بأهل مكة الذين يكذبون رسول الله محمداً ﷺ.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلاّ مفترون**﴾: في هذا التوجيه عرض قصة عاد. وتأتي هذه القصة بعد قصة نوح حسبما وقع تاريخاً؛ مصداقاً لقول هود في سورة الأعراف لقومه: «واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح». وكان هود من عاد، فهو أخوهم، واحد منهم تجمعهم آصرة القربى بين أفراد القبيلة الواحدة فوق آصرة الأخوة الإنسانية العامة، وتبرز هذه الآصرة هنا في السياق؛ لأنّ من شأنها أن تقوم الثقة والتعاطف والتناصح بين الأخ وإخوته، وليبدو موقف القوم من أخيهم ونبيئهم شاذاً ومستقبحاً!. قال: ياقوم، بهذا التودد والتذكير بالأواصر التي تجمعهم، لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم إليه فيما يقول؛ فالرائد لا يكذب أهله، والناصح لا يغش قومه.

يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره: القولة الواحدة التي جاء بها كل رسول، فكان هؤلاء القوم قد انحرفوا عن عبادة الله الواحد التي هبط بها المؤمنون مع نوح من السفينة؛ فلعل أول خطوة في هذا الانحراف كانت هي تعظيم ذكرى الفئة المؤمنة القليلة التي حملت في السفينة مع نوح، ثم تطور هذا التعظيم جيلاً بعد جيل، فإذا أرواحهم المقدسة تتمتل في أشجار وأحجار نافعة، ثم تتطور هذه الأشياء، فإذا هي معبودات، ثم إذا هي آلهة مع الله!!!. ذلك أنّ الانحراف خطوة واحدة عن نهج التوحيد المطلق؛ الانحراف خطوة واحدة لابد أن تتبعه مع الزمن خطوات وانحرافات لا يعلم مداها إلاّ الله على آية حال. لقد كان قوم هود مشركين، فإذا هو يدعوهم تلك الدعوة التي جاء بها كل رسول: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

إن أنتم إلاّ مفترون: فيما تعبدونه من دون الله، وفيما تدعونه من شركة مع الله. ويبادر هود ليوضح لقومه أنّها دعوة خالصة ونصيحة مُمَحَّضة، فليس له من ورائها هدف، وما يطلب على النصيحة والهداية أجراً، إنّما أجره على الله الذي خلقه، فهو به كفيل... ﴿**ويا قوم لا أسألكم عليه أجراً إنْ أجري إلاّ على الذي فطرني**﴾: ويزيد على هذا الإيضاح، قوله... ﴿**أفلا تعقلون**﴾؟: مما يشعر أنّ قوله: لا أسألكم عليه أجراً كان بناء على اتهام له أو تلميح بأنّه يبتغي أجراً، أو

كسب مال من وراء الدعوة التي يدعوها، فكان هذا التفريع: أفلا تعقلون ؟. ثم يوجههم إلى الاستغفار والتوبة، ويذكر السياق التعبير ذاته الذي ورد في أول السورة على لسان خاتم الأنبئاء، ويعدهم هود ويحذرهم ما وعدهم محمد وحذرهم بعد ذلك بآلاف السنين. . . ﴿**ويا قوم استغفروا ربّكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين**﴾: استغفروا ربّكم مما أنتم فيه، وتوبوا إليه، فابْدَءُوا طريقاً جديداً يحقق النية ويترجمها إلى عمل محسوس.

يرسل السماء عليكم مدراراً: وكانوا في حاجة إلى المطر يسقون به زروعهم ودوابهم في الصحراء، ويحتفظون بالخصب الناشئ من هطول الأمطار في تلك البقاع. ويزدكم قوة إلى قوتكم: التي عرفتم بها، وهي في مثل تلك الأصقاع تكون قوة الصحة والمنعة والمال. ولا تتولوا عن الدعوة مجرمين مرتكبين لجريمة التولي والتكذيب. وننظر في هذا الوعد، وهو يتعلق بإدرار المطر ومضاعفة القوة، وهي أمور تجري فيها سنة الله وطبيعة الكون وفق قوانين ثابتة في نظام هذا الوجود؛ من صنع الله ومشيئته بطبيعة الحال. فما علاقة الاستغفار بها وما علاقة التوبة ؟.

فأما زيادة القوة فالأمر فيها قريب ميسور، بلا واقع مشهود، فإنّ نظافة القلب والعمل الصالح في الأرض يزيد التائبين العاملين قوة؛ يزيدهم قوة في الجسم بالاعتدال والاقتصار على الطيبات من الرزق وراحة الضمير وهدوء الأعصاب والاطمئنان إلى الله والثقة برحمته في كل آن، ويزيدهم صحة في المجتمع بسيادة شريعة الله الصالحة، وقيام المجتمع على الحب والتقوى مع القانون الصالح الذي يفسح المجال لنشاط القوى والطاقات الطيبة النظيفة، ولقد تتوافر القوة لمن لا يُحكّمون شريعة الله في قلوبهم ولا في مجتمعهم، ولكنها قوة إلى حين، حتى تنتهي الأمور إلى نهاياتها الطبيعية وفق سنة الله، وتتحطم هذه القوة التي لم تستند إلى أساس ركين، وإنّما استندت إلى جانب واحد من السنن الكونية: كالعمل والنظام ووفرة الانتاج، وهذه وحدها لا تدوم؛ لأنّ فساد الحياة الشعورية والاجتماعية يقضي عليها بعد حين، فأما إرسال المطر فهو مقيد هنا بقوله مدراراً تشبيهاً له بإدرار الضرع، مما يشعر بأنّه ليس مدمراً ولا مهلكاً، فتلك كانت دعوة

هود ـ عليه السلام ـ لقومه، ولكن كيف كان ردهم عليه ؟ ..**﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين﴾**.

﴿إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾: إلى هذا الحد بلغ الانحراف في نفوسهم، إلى حد أن يظنوا أن هوداً يهذي؛ لأنّ أحد آلهتهم قد مسه بسوء، فأصيب بالجنون. وهنا لم يبق لهود إلاّ التحدي، وإلاّ التوجه إلى الله وحده والاعتماد عليه، وإلاّ الوعيد والإنذار الأخير للمكذبين، ونفض يده من أمرهم إن أصروا على التكذيب. . . **﴿قال إنّي أشهد الله واشهدوا أنّي بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾**: وإنّ الإنسان ليندهش لرجل فرد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حمقى، بلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أنّ هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيهذي، وترى في الدعوة إلى الله الواحد هذياناً من أثر المس؛ يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة، فيسفه ويقرعهم عليها ويؤنبهم، ثم يهيج ضراوتهم بالتحدي، لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم، ولا يدعهم يتريثون فيفثأ غضبهم.

إنّ الإنسان ليندهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد، ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل والأسباب؛ إنّه الإيمان، والثقة والاطمئنان، والإيمان بالله، والثقة بوعده، والاطمئنان إلى نصره؛ الإيمان الذي يخالط القلب، فإذا وعدُ الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة؛ لأنّها ملء يديه، وملء قلبه الذي بين جنبيه؛ وليست وعداً للمستقبل في ضمير الغيب، إنّما هي حاضر واقع تتملاه العين والقلب. قال: إنّي أشهد الله واشهدوا أنّي بريء مما تشركون من دونه؛ إنّي أشهد الله على براءتي مما تشركون منه، واشهدوا أنتم شهادة للعلم؛ ولتكون حجة عليكم أنّي عالنتكم بالبراءة مما تشركون من دون الله، ثم تجمعوا أنتم وهذه الآلهة التي تزعمون أنّ أحدها مسني بسوء، تجمعوا أنتم وهي ـ جميعاً ـ، ثم كيدوني وآذوني بلا ريث ولا تمهل، فما أباليكم جميعاً ولا أخشاكم شيئاً. . . **﴿إنّي توكلت على الله ربّي وربّكم﴾**: ومهما أنكرتم وكذبتم فهذه الحقيقة قائمة؛ حقيقة الربوبية، فالله الواحد هو ربّي وربّكم؛ لأنّه ربّ الجميع بلا تعدد ولا مشاركة.

ثم يلفتهم لفتة قوية. . . **﴿ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها﴾**: وهي صورة

محسوسة للقوة، تصور القدرة أخذه بناصية كل دابة على هذه الأرض بما فيها الدواب من الناس، وفي هذا إظهار للقهر والغلبة والتصريف في صورة حسية تناسب الموقف، وتناسب غلظة القوم وشدتهم، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم، وإلى جانبها استقامة السنة الإلهية في اتجاهها الذي لا يحيد... إنّ ربّي على صراط مستقيم: فهي القوة والاستقامة والتصميم.

التوجيه الثاني: **﴿فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربّي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إنّ ربّي على كل شيء حفيظ﴾**: هذا الكلام يصلح أن يكون توجيهاً لقوم هود، ويصلح أن يكون توجيهاً لخاتم الأنبياء؛ إنذاراً لقومه بسبب موقفهم من رفض دعوته، مثل ما حصل من قوم هود، والكلام في هذا مثل الكلام في قوله: أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريء مما تجرمون في احتمال توجيهه إلى قوم نوح أو توجيهه إلى أهل مكة الذين عارضوا دعوة الرسول؛ فإنّ الغرض من قصة نوح وقصة هود وغيرهما هو لفت نظر المشركين إلى ما حصل للمشركين قبلهم من الدمار والهلاك.

وبعدما تمت هذه اللفتة المقصودة هنا يرجع السياق إلى قوم هود... **﴿ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾**: جاء الأمر بتنجية هود ومن معه من المؤمنين من عذاب مهول حل بالمكذبين الظالمين. ويعطف على هذا العذاب عذابا آخر أشد وأبقى: ونجيناهم من عذاب غليظ... **﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربّهم وعصوا رسله واتّبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إنّ عاداً كفروا ربّهم ألا بعداً لعاد قوم هود﴾**: تلك عاد التي أصبحت في خبر كان، وعفا عليها الدهر والزمان، ما كان إلاّ بسبب ما ارتكبوه من جحد الآيات وعصيان الرسل؛ فهم جحدوا آيات، وهم عصوا رسلاً، فما أضخم الذنب وما أشنع الجريمة!!.

وهذا الجحود وهذا العصيان حصل بسبب تبعية الضعيف للقوي والمحكوم للحاكم، فهم في الجريمة سواء. وهكذا يتبيّن أنّ دعوة التوحيد تُصرّ أول ما تصر على التحرر من سلطان الطغاة والمتسلطين، وتعد إلغاء الشخصية والتنازل عن الحرية، واتباع الجبارين المتكبرين جريمة يستحق عليها الخانعون الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة؛ فقد خلق الله الناس أحراراً يتحملون تبعة جريمتهم، ولا

ينزلون عنها لطاغية ولا رئيس ولا زعيم، فهذا مناط تكريمهم؛ فإن لم يصونوه فلا كرامة لهم عند الله ولا نجاة. وما كان لجماعة من البشر أن تدعي الكرامة وتدعي الإنسانية وهي محرومة من حرية التفكير والاعتقاد والاتجاه ـ اضطراراً أو اختيارا ـ؛ فالسمة الأولى التي تستحق من أجلها الكرامة هي استخدام الحق الذي وهبه الله للبشر، وهو محاسبهم عليه؛ أن يختاروا لأنفسهم، وأن يتحملوا تبعة الاختيار، وألاّ يقبلوا من طاغية متجبر أن يعاملهم كالقُصّر أو العبيد، وليسوا بمعذورين أن يكونوا على أمرهم مغلوبين، فهم كثرة والمتجبرون قلّة؛ فلو أرادوا التحرر لضحوا في سبيله ولنالوه. لقد هلكت عاد لأنّهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد، هلكوا مشيعين باللعنة في الدنيا وفي الآخرة. ثم لا يتركهم قبل أن يسجل عليهم حالهم وسبب ما أصابهم في إعلان عامٍّ وتنبيه عالٍ، وقبل أن يدعو عليهم بالطرد والبعد.

التوجيه الثالث: **﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إنّ ربّي قريب مجيب﴾**: في هذا التوجيه مثل ما في **التوجيه الأول** من قصة هود؛ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. الكلمة التي لا تتغير والدعوة التي لا تتبدل؛ فاستغفروه ثم توبوا إليه. وهي كذلك الخطة والمنهج والطريق، فذكرهم صالح بنشأة أصلهم من الأرض، ونشأة أفرادهم من غذاء الأرض أو من عناصرها التي تتألف منها عناصر تكوينهم الجسدي. ومع أنّهم من هذه الأرض، من عناصرها، فقد استخلفهم الله فيها ليعمروها؛ استخلفهم بجنسهم واستخلفهم بأشخاصهم بعد الذاهبين من قبلهم، ثم هم بعد ذلك يشركون معه آلهة أخرى.

ولكن هذا التذكير وهذا التوجيه لم يفد شيئاً لهذا الحشد السفيه، فقلوب القوم كانت قد بلغت من الفساد والاستغلاق والانطماس درجة لا تستشعر معها بشاشة هذا القول الرقيق، ولا بشاشة هذا الجو الطليق، وإذا بهم يفاجأون حتى ليظنون بأخيهم صالح الظنون! ..**﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإنّنا لفي شك ممّا تدعونا إليه مريب﴾**: إنّهم يقولون له صراحة دون هيبة واحترام: ياصالح!. لقد كان لنا رجاء فيك؛ كنت مرجوا فينا لعلمك، ولعقلك، ولصدقك، ولحسن تدبيرك، ولكن هذا الرجاء قد خاب. أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟. إنّها لقاصمة! فكل شيء يا صالح إلاّ هذا!. وما كنا نتوقع أن

تقولها!. فيا لخيبة الرجاء فيك!. ثم إنّنا لفي شك ممّا تدعونا إليه، بشك يجعلنا نرتاب فيك وفيما تقول.

وهكذا يعجب القوم مما لاعجب فيه، بل يستنكرون ما هو واجب وحق، ويدهشون لأن يدعوهم أخاهم صالح إلى عباة الله وحده. لماذا ؟. لا لحجة ولا لبرهان ولا لتفكير، ولكن لأنّ آباءهم يعبدون هذه الآلهة!. وهكذا يبلغ التحجر بالناس أن يعجبوا من الحق المبين، وأن يعللوا العقائد بفعل الآباء. وهكذا يتبيّن مرة وثانية وثالثة أنّ عقيدة التوحيد هي في صميمها دعوة للتحرر الفكري قبل كل شيء، دعوة إلى إطلاق العقل البشري من عقال التقليد، ومن أوهاق الوهم والخرافة التي لا تستند إلى دليل. وتذكّرنا قولة ثمود لصالح: قد كنت فينا مرجوا قبل هذا بما كان لقريش من ثقة بصدق محمد ﷺ وأمانته، فلما أن دعاهم دعوة الله الواحدة تنكروا له كما تنكر قوم صالح، وقالوا: ساحر، وقالوا: مفترٍ، ونسوا شهادتهم له وثقتهم فيه!. إنّها طبيعة واحدة، ورواية واحدة تتكرر على مدى العصور والدهور.

ويقول صالح كما قال جده نوح... ﴿**قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربّي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير**﴾: يا قوم! ماذا ترون إن كنت على يقين من ربّي بأنّ هذا هو الطريق، وآتاني منه رحمة فاختارني لرسالته وأمدني بالخصائص التي تُؤَهِلني لها، فمن ينصرني من الله إن أنا عصيته، فقصّرت في إبلاغكم دعوتَه احتفاظاً برجائكم فيّ ؟!. أفنافعي هذا الرجاء، وناصري من الله ؟. كلاّ!. فما تزيدونني غير تخسير، ما تزيدونني إلاّ خسارة على خسارة؛ غضب الله وحرماني شرف الرسالة وخزي الدنيا وعذاب الآخرة، وهي خسارة بعد خسارة، ولا شيء إلاّ الخسارة! ..﴿**ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب**﴾: لا يذكر السياق صفة لهذه الناقة التي أشار إليها صالح لتكون آية لهم وعلامة، ولكن في إضافتها إلى الله «هذه ناقة الله» وفي تخصيصها لهم «لكم آية» ما يشير إلى أنّها كانت ذات صفة خاصة مميزة يعلمون أنّها آية لهم من الله. ونكتفي بهذا دون الخوض في ذلك الخضم من الأساطير.

فالقوم لم يأخذوا بوصية صالح ولم يهتموا بوعيده... ﴿**فعقروها فقال تمتعوا**

في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾: ودلّ عقرهم للناقة، أي ضربهم لها بالسيف في قوائمها وقتلها على هذا النحو، دلّ على فساد قلوبهم واستهتارهم. والسياق هنا لا يطيل بين إعطائهم الناقة وعقرهم إيّاها؛ لأنّها لم تحدث في نفوسهم تجاه الدعوة تغييراً يُذكر، ثم يتابع السياق عجلة العذاب، فهو يعبر هنا بفاء التعقيب في كل الخطوات؛ فعقروها، فقال: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، فهي آخر ما بقي لكم من متاع هذه الدنيا ومن أيام هذه الحياة، ذلك وعد غير مكذوب؛ فهو وعد صادق لن يحيد، وبالفاء التعقيبية يعبر كذلك، فالعذاب لن يتأخر... **﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إنّ ربّك هو القوي العزيز وأخذ الذين ظلوا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾**: فلما جاء موعد تحقيق الأمر، نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا؛ خاصة ومباشرة، نجيناه من الموت ومن خزي ذلك اليوم، فقد كانت ميتة ثمود ميتة مخزية، وكان مشهدهم جاثمين في دورهم بعد الصاعقة المدوية التي تركتهم موتى على هيئتهم مشهداً مخزياً... إنّ ربّك هو القوي العزيز: يأخذ العتاة أخذاً ولا يعز عليه أمر، ولا يهون من يتولاه ويرعاه.

ثم يعرض السياق مشهدهم معجباً منهم ومن سرعة زوالهم... **﴿كأن لم يغنوا فيها﴾**: كأن لم يقيموا ويتمتعوا. وإنّه لمشهد مؤثر، وإنّها للمسة مثيرة. والمشهد معروض، وما بين الحياة والموت ـ بعد أن يكون ـ إلاّ لمحة كغمضة العين؛ وإذا الحياة كلها شريط سريع، كأن لم يغنوا فيها. ثم الخاتمة المعهودة في هذه السورة تسجل الذنب وتشييع اللعنة، وانطواء الصفحة من الواقع ومن الذكرى... **﴿ألا إنّ ثموداً كفروا ربّهم ألا بعداً لثمود﴾**: تدور هذه القصة حول محور عام، وهو دعوة الرسل إلى الله، وإعراض أقوامهم عنها وتحديهم لها، وتتجسم فيها سوءُ عاقبة الإعراض، فهي تمثل صراعاً بين الحق والباطل والإيمان والكفر. والغرض الذي سيقت من أجله، فهو تحذير المكذبين للرسول ﷺ والمتحدين لدعوته أن يصيبهم عذاب من السماء ـ إذا هم أصروا على الباطل ـ كما أصاب ثمود من قبلهم، فقد تحدوا نبيئهم بآية الناقة التي طلبوها كبرهان على صدقه، كما تحدى المشركون من العرب محمداً ﷺ بآيات حسية طلبوها منه لتصديق دعوته، فما أظلم من يعلم الحق واضحاً ثم هو يعرض عنه، ويدخل الشبهات على الناس ليوقعهم في الضلال والحيرة!. فهذا حكم عام لا يقتصر على

فترة الدعوة المحمدية، بل يمتد على مدى الأزمان، ويشمل كل فئة أو أمة عرفت الحق وأنكرته، أو هي لم تأخذ على أيدي المعتدين المكابرين كما فعلت ثمود. وموطن العبرة هنا: أنّ الذي عقر الناقة واحد منهم، ولكن القوم كانوا راضين عن عمله فنسب إليهم العقر، وعمهم الله بعذابه؛ ليرينا أنّ الناس إذا لم يأخذوا على يد الظالم كانت مسؤوليتهم جماعية، ذلك أنّ كل مجتمع لابد أن يقوم بين أفراده الواجبُ العامُّ والإحساس بالمسؤولية المشتركة.

4 ـ بشارة إبراهيم بالغلام العليم
ونذارة قوم لوط بالعذاب الأليم

النص

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿68﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿69﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿70﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿71﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿72﴾ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿73﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿74﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿75﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿76﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٨﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٧٩﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨١﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٢﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾: الرسل: الملائكة الذين أرسلهم الله لبشارة إبراهيم وإعلام لوط بهلاك قومه. والبشرى: اسم مصدر التبشير والبشارة... **﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾**: السلام: التحية... **﴿فما لبث﴾**: اللبث: المكث، وضده: السرعة، ومعناه هنا: أسرع فجاء بعجل حنيذ. والعجل: الصغير من ذكر البقر. والحنيذ: المشوي على الحجارة المحمية حمياً مقصوداً، فهو لحم شهي، ولا يعطى إلا لعزيز حفي! ..**﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾**: رآهم ممتنعين من تناول اللحم الشهي. نكرهم: شك في ولائهم وظنّهم يريدون سوءا، من قولهم: تناكر القوم إذا تعادوا... **﴿وأوجس منهم خيفة﴾**: أحسّ في نفسه خيفة منهم؛ خشى أن يكونوا مضمرين له شراً... **﴿قالوا لا تخف﴾**: لا

نريد بك سوءاً. . . ﴿**إنّا أرسلنا إلى قوم لوط**﴾: أرسلنا الله لإهلاك قوم لوط. . . ﴿**وامرأته قائمة فضحكت**﴾: امرأة ابراهيم واقفة تسمع ما يقال.

فضحكت: مما سمعت من بشارة إبراهيم بالأمن وبإهلاك قوم لوط. . . ﴿**فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب**﴾: تعقيب على بشارة إبراهيم بأن سيكون لها ابن يسمى إسحاق، واسحاق يكون له ابن يسمى يعقوب. . . ﴿**قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً**﴾: يا ويلتى: كلمة تقال للاستغراب والاستعجاب والاستفجاع من أمر مفزع، وهنا تعجبت من بشارتها بالابن وهي عجوز عقيم ورجلها شيخ كبير طاعن في السن. . . ﴿**إنّ هذا لشيء عجيب. قالوا أتعجبين من أمر الله**﴾: استفهام الملائكة هنا: استغراب لقول المرأة: أألد وأنا عجوز؛ فأمر الله لا يتعجب منه. . . ﴿**رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميد مجيد**﴾: رحمة الله: تعم كل خير، وأعظمها النبوءة. وبركاته: زيادة الرحمة وبقاؤها. وأهل البيت: آل إبراهيم الذي ورث النبوءة وأورثها بنيه من بعده.

والحميد: كثير الحمد لمن يطيعه. والمجيد: واسع الفضل والنعمة. . . ﴿**فلما ذهب عن إبراهيم الروع**﴾: الروع والارتياع: الفزع والخوف. . . وجاءته البشرى: بالولد واتصال النسل. . . ﴿**يجادلنا في قوم لوط**﴾: المجادلة: المحاورة والمراجعة. . . ﴿**إنّ إبراهيم لحليم**﴾: موصوف بكثرة الحلم، وهى صفة تقتضي الصفح واحتمال الأذى. . . ﴿**أوّاه**﴾: كثير التأوه، وهو التوجع على ما يحصل للناس من مصائب، فهو رقيق القلب رحيم بالناس. . . ﴿**منيب**﴾: اسم فاعل مأخوذ من أناب إذا رجع، وهو مشتق من النوب، وهو النزول، وحقيقة الإنابة: الرجوع إلى شيء بعد مفارقته وتركه. . . ﴿**يا إبراهيم أعرض عن هذا إنّه قد جاء أمر ربك**﴾: أعرض عن هذا الحوار في أمر هؤلاء القوم؛ لأنّ أمر الله قد نفذ فيهم. . . ﴿**وإنّهم آتيهم عذاب غير مردود. ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً**﴾: عندما جاءت الملائكة لوطاً وقع فيما ساءه وغمه بمجيئهم، واشتد به الحال حتى لم يجد مخلصاً مما يتوقعه من شرِّ قومه. . . ﴿**وقال هذا يوم عصيب**﴾: والعصيب: الشديد فيما لا يُرضى، يقال: يوم عصيب إذا حدث فيه أمر عظيم، وأصل هذه المادة يفيد الشد والضغط. . . ﴿**وجاءه قومه يهرعون**

إليه﴾: أصل الهرع مشي في اضطراب وسرعة... **﴿ومن قبل كانوا يعملون السيآت﴾**: السيآت التي أبدعوها شهوة من دون النساء... **﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم﴾**: بنات الرسل: بنات المؤمنين، وأراد لوط بهذا الكلام أن يبيّن لهم الزواج المباح بالنساء، فهذا هو الفعل الطاهر لكم... **﴿فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي﴾**: بفعل الفاشحة بهم... **﴿أليس منكم رجل رشيد﴾**؟!.

﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنّك لتعلم ما نريد﴾: ما لنا رغبة في نكاح النساء كما تقول، وإنّما لنا رغبة في إتيان الذكران كما تعلم... **﴿قال لو أنّ لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾**: رد عليهم بجملتين: لو أنّ لي بكم قوة أمنعكم بها، أو آوى إلى ركن شديد يمنعكم... **﴿قالوا يا لوط إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك﴾**: أظهر الرسل للوط ما جاءوا من أجله، وأعلموه أنّهم رسل من الله لا ضيوف من البشر، فلن يصلوا إليه بِشَرٍّ... **﴿فاسر بأهلك بقطع من الليل﴾**: اخرج من هذه القرى آخر الليل قبل الصبح: **﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾**: امضوا إلى الأمام ولا يلتفت أحد إلى الوراء، فيرجع إلى القرية التي ستهلك قريبا... **﴿إلاّ امرأتك إنّه مصيبها ما أصابهم﴾**: لكفرها وبقائها على دين قومها... **﴿إنّ موعدهم الصبح﴾**: هذه الليلة وينتهي أمر هؤلاء القوم... **﴿أليس الصبح بقريب ؟!. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها﴾**: انقلبت الأرض بهم حتى صار العالي أسفل... **﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾**: نزل عليها من فوق حجارة من نار... **﴿منضود﴾**: متوالي متتالي... **﴿مسومة عند ربّك﴾**: مهيأة معدة من عند ربّك على حسب المراد... **﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾**: إنّها قريبة من كل ظالم، فليست لقوم لوط فقط!.

مبحث الإعراب

﴿ولقد﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، وقد للتحقيق. **﴿جاءت رسلنا إبراهيم﴾** فعل وفاعل ومفعول. **﴿بالبشرى﴾** متعلق بجاءت. **﴿قالوا﴾** فعل وفاعل. **﴿سلاماً﴾** مفعول مطلق. **﴿قال﴾** فعل ماض، وفاعله هو يعود على إبراهيم. **﴿سلام﴾** خبر لمبتدإ محذوف. **﴿فما لبث﴾** فعل ماض دخل عليه حرف النفي وحرف التعقيب، والفاعل ضمير يعود على إبراهيم. **﴿أن جاء﴾** فعل ماض، وأن مصدرية، والفاعل ضمير يعود على إبراهيم، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر

مجرور بالباء. ﴿**بعجلٍ**﴾ متعلق بجاء. ﴿**حنيذٍ**﴾ نعت لعجل. ﴿**فلمّا**﴾ ظرفية متضمنة معنى الشرط، والفاء للتعقيب. ﴿**رأى**﴾ فعل الشرط. ﴿**أيديهم**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لا تصل**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفي. ﴿**إليه**﴾ متعلق بتصل، وجملة لا تصل في محل نصب حال من أيديهم. ﴿**نكرهم**﴾ جواب الشرط، والضمير المتصل بالفعل مفعول.

﴿**وأوجس**﴾ معطوف على نكرهم. ﴿**منهم**﴾ متعلق بأوجس. ﴿**خيفة**﴾ مفعول به. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**لا تخف**﴾ مجزوم بلا الناهية، والفاعل أنت، وجملة لا تخف في محل نصب مقول القول. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أرسلنا**﴾ فعل ماضٍ مبني للمجهول. ﴿**إلى قوم**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**لوط**﴾ مضاف إلى قوم، وجملة إنّا أرسلنا تعليل. ﴿**وامرأته**﴾ قائمة مبتدأ وخبر، والواو للحال، والجملة حالية. ﴿**فضحكت**﴾ فعل ماضٍ دخل عليه حرف التعقيب، والفاعل هي. ﴿**فبشرناها**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والفاء للتعقيب. ﴿**بإسحاق**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**ومن وراء**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**إسحاق**﴾ مضاف إلى وراء مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿**يعقوب**﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة، وهذه الجملة حالية مثل ما قبلها. ﴿**قالت**﴾ المرأة.

﴿**ياويلتى**﴾ منادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المنقلبة ألفاً، والأصل ياويلتِي. ﴿**أألد**﴾ فعل مضارع دخلت عليه همزة الاستفهام، والفاعل ضمير المتكلم. ﴿**وأنا عجوز**﴾ مبتدأ وخبر حال من الفاعل. ﴿**وهذا بعلي شيخاً**﴾ معطوف على الحال، ﴿**وشيخاً**﴾ حال من اسم الإشارة. ﴿**إنّ هذا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لشيء**﴾ خبر إنّ. ﴿**عجيب**﴾ نعت لشيء. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أتعجبين**﴾ فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، وياء المؤنث فاعل، والهمزة للاستفهام. ﴿**من أمر**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى أمر مجرور بالكسرة. ﴿**رحمة**﴾ مبتدأ. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى رحمة. ﴿**وبركاته**﴾ معطوف على رحمة الله. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**أهلَ**﴾ منادى بحذف حرف النداء منصوب بالفتحة. ﴿**البيت**﴾ مضاف إلى أهل. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**حميد مجيد**﴾ خبران لإنّ، وجملة إنّه حميد مجيد تعليل. ﴿**فلمّا ذهب**﴾ جملة شرطية. ﴿**عن إبراهيم**﴾ متعلق بذهب.

﴿**الروع**﴾ فاعل ذهب. ﴿**وجاءته**﴾ معطوف على ذهب. ﴿**البشرى**﴾ فاعل جاءت مرفوع بضمة مقدرة على الألف. ﴿**يجادلنا**﴾ فعل مضارع واقع في جواب لمّا، والفاعل ضمير يعود على إبراهيم، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**في قوم**﴾ متعلق بيجادلنا. ﴿**لوط**﴾ مضاف إلى قوم. ﴿**إنّ إبراهيم**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لحليم أوّاه منيب**﴾ أخبار لإنّ. ﴿**يا إبراهيم**﴾ منادى مبني على الضم في محل نصب. ﴿**أعرض**﴾ فعل أمر. ﴿**عن هذا**﴾ متعلق بأعرض. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**قد جاء أمرُ**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التحقيق. ﴿**ربّك**﴾ مضاف إلى أمر. ﴿**وإنّهم**﴾ معطوف على إنّه. ﴿**آتيهم**﴾ خبر إنّ مرفوع بضمة مقدرة على الياء، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**عذاب**﴾ فاعل باسم الفاعل. ﴿**غير**﴾ نعت لعذاب. ﴿**مردود**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**ولمّا جاءت رسلنا لوطاً**﴾ فعل وفاعل ومفعول؛ فعل شرط لمّا. ﴿**سيء بهم**﴾ فعل ماضٍ مبني للمجهول جواب لمّا.

﴿**وضاق**﴾ معطوف على سيء. ﴿**بهم**﴾ متعلق بضاق. ﴿**ذرعاً**﴾ مفعول به. ﴿**وقال**﴾ معطوف على سيء. ﴿**هذا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**يوم**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**عصيب**﴾ نعت ليوم. ﴿**وجاءه**﴾ معطوف على قوله: فلما جاءت رسلنا لوطاً. ﴿**قومه**﴾ فاعل جاء. ﴿**يهرعون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب حال من فاعل جاء. ﴿**إليه**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**ومن قبل**﴾ متعلق بيعملون الآتي. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يعملون السيآت**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل نصب خبر كان. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**يا قوم**﴾ منادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف. ﴿**هؤلاء**﴾ مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ. ﴿**بناتي**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم. ﴿**هنّ**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أطهرُ**﴾ خبرُه. ﴿**لكم**﴾ متعلق بأطهر، وجملة هؤلاء بناتي في محل نصب مقول القول، وجملة هنّ أطهر لكم بيان لجملة هؤلاء بناتي.

﴿**فاتقوا الله**﴾ فعل أمر مفرع على ما قبله. ﴿**ولا تخزوني**﴾ نهي معطوف على الأمر. ﴿**في ضيفي**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**أليس**﴾ فعل ماضٍ ناقص دخل عليه حرف الاستفهام. ﴿**منكم**﴾ **متعلق بمحذوف خبر ليس مقدم**. ﴿**رجل**﴾ اسمها. ﴿**رشيد**﴾ نعت لرجل. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**لقد علمت**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التحقيق ولام القسم. ﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**لنا في بناتك**﴾ متعلقان

بمحذوف خبر مقدم. ﴿**من حق**﴾ مبتدأ مؤخر جر لفظاً بمن الزائدة ورفع محلاً. ﴿**وإنّك**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لتعلم**﴾ فعل مضارع دخل عليه لام التوكيد، والفاعل ضمير المخاطب، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**نريد**﴾ صلة ما. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**لو**﴾ مستعملة في التمني. ﴿**أنّ لي**﴾ متعلق بمحذوف خبر أنّ. ﴿**بكم**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**قوّة**﴾ اسم أنّ. ﴿**أو آوي**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**إلى ركن**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**شديد**﴾ نعت لركن. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**يا لوط**﴾ منادى مبني على الضم في محل نصب.

﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**رسل**﴾ خبر إنّ. ﴿**ربّك**﴾ مضاف إلى رسل. ﴿**لن يصلوا**﴾ فعل مضارع منصوب بلن. ﴿**إليك**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**فاسر**﴾ فعل أمر دخل عليه حرف التعقيب. ﴿**بأهلك بقطع**﴾ متعلقان باسر. ﴿**من الليل**﴾ متعلق بمحذوف نعت لقطع. ﴿**ولا يلتفت**﴾ معطوف على الأمر، والفعل مجزوم بلا الناهية. ﴿**منكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت للفاعل. ﴿**أحد**﴾ فاعل. ﴿**إلاّ امرأتك**﴾ مستثنى منصوب بالفتحة. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**مصيبها**﴾ خبر إنّ مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ما**﴾ في محل رفع فاعل مصيب. ﴿**أصابهم**﴾ صلة ما. ﴿**إنّ موعدهم الصبح**﴾ الجملة من إنّ واسمها وخبرها تعليل. ﴿**أليس الصبح بقريب**﴾ الجملة من ليس واسمها وخبرها استفهام تقريري بيان لقوله: إنّ موعدهم الصبح. ﴿**فلمّا جاء أمرنا**﴾ فعل الشرط.

﴿**جعلنا**﴾ جوابه. ﴿**عاليها**﴾ مفعول أول. ﴿**سافلها**﴾ مفعول ثان. ﴿**وأمطرنا**﴾ معطوف على جعلنا. ﴿**عليها**﴾ متعلق بأمطرنا. ﴿**حجارة**﴾ مفعول به. ﴿**من سجيل**﴾ متعلق بمحذوف نعت لحجارة. ﴿**منضود**﴾ نعت لسجيل. ﴿**مسومة**﴾ منصوب على الحال من حجارة. ﴿**عند**﴾ متعلق بمسومة. ﴿**ربّك**﴾ مضاف إلى عند. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، وما تعمل عمل ليس. ﴿**هي**﴾ في محل رفع اسم ما. ﴿**من الظالمين**﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿**ببعيد**﴾ خبر ما، جرت بحرف الجر الزائد ونصبت محلاً.

مبحث الأسلوب البلاغي

وصلت قصة إبراهيم بالقصص التي قبلها بالعطف. وتأكيد الخبر بلام القسم

وحرف التحقيق للاهتمام به. والغرض من هذه القصة هو الموعظة بمصير قوم لوط؛ إذ عصوا رسول ربّهم فحلّ بهم العذاب ولم تغن عنهم مجادلة إبراهيم. وقدمت قصة إبراهيم لذلك، وللتنويه بمقامه عند ربه على وجه الإدماج، ولذلك غُيّر أسلوبُ الحكاية في القصص التي قبلها والتي بعدها، فقال: ﴿**ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام**﴾. وجملة قالوا سلاماً في موضع البيان للبشرى؛ لأنّ قولهم ذلك مبدأ البشرى. وجملة قال: سلام رد على سلام الملائكة بسلام أبلغ من سلامهم؛ لأنّه أدل على الدوام والثبات؛ فإبراهيم رد السلام بعبارة أحسن من عبارة الرسل زيادة في الإكرام. والفاء في قوله: ﴿**فما لبث أن جاء بعجل حنيذ**﴾، للدلالة على التعقيب إسراعاً في إكرام الضيف، وتعجيل القِرى سنة عربية موروثة عن سنة إبراهيم؛ فإسراعه وتقديمه العجل السمين الحنيذ دليل على غاية الكرم التي ما بعدها غاية، فأشهى ما يقدم للضيف اللحم، وأشهى اللحم لحم العجول السمان، وأشهاه ما كان مصلياً!.

ومن كرم الكرماء أنّهم لا يسألون الضيف من هو؟. ومن أين أتى؟!. فلهذا كان استغراب إبراهيم من امتناع الضيوف من الأكل من هذا اللحم الشهيّ. . . ﴿**فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة**﴾: وإنّما نكرهم لأنّه حسب أنّ إمساكهم عن الأكل لأجل التبرُّءِ من طعامه، فخشي أن يكونوا مضمرين شراً له. وجملة. . . ﴿**قالوا لا تخف**﴾: مفصولة عما قبلها لأنّها أشبهت الجواب؛ فهو جواب كلام مقدر دلّ عليه قوله: فأوجس منهم خفية. وقولهم. . . ﴿**إنّا أرسلنا إلى قوم لوط**﴾: مكاشفة منهم إيّاه بأنّهم ملائكة، والجملة استئناف مبينة لسبب مجيئهم، والحكمة من ذلك كرامة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وصدورهم عن علم منه. وحذف متعلق أرسلنا إيجاز لظهوره من هذه القصة وغيرها. وجملة. . . ﴿**وامرأته قائمة فضحكت**﴾: في موضع الحال من ضمير أوجس العائد على ابراهيم، وإنّما ضحكت من تبشير الملائكة إبراهيم بغلام فكان ضحكها ضحك تعجب واستبعاد.

وتفريع ﴿**فبشرناها بإسحاق**﴾ على جملة ضحكت باعتبار المعطوف، وهو: ﴿**ومن وراء إسحاق يعقوب**﴾؛ لأنّها ما ضحكت إلاّ بعد أن بشرها الملائكة بابن، فلما تعجبت من ذلك بشروها بابن الابن زيادة في البشرى، والتعجب بأن يولد لها

ابن ويعيش وتعيش هي حتى يولد لابنها ابن. ولما بشروها بذلك صرحت بتعجبها الذي كتمته بالضحك... ﴿**فقالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لشيء عجيب**﴾؟!: فجملة قالت جواب للبشارة، والنداء في ياويلتا استعارة تبعية بتنزيل الويلة منزلة من يعقل حتى تُنَادَى. والاستفهام في أألد وأنا عجوز مستعمل في التعجب. وجملة وأنا عجوز في موضع الحال، وهي مناط التعجب. وهذا بعلي شيخاً زيادة في هذا التعجب!. وزادت تقرير التعجب بجملة إنّ هذا لشيء عجيب!، وهي جملة مؤكدة لصيغة التعجب فلذلك فصلت عن التي قبلها لكمال الاتصال... ﴿**قالوا أتعجبين من أمر الله**﴾؟!: وهذا إنكار لتعجبها؛ لأنّه تعجب مراد منه الاستبعاد؛ فجملة... ﴿**رحمة الله وبركاته عليكم**﴾: تعليل لإنكار تعجبها؛ لأنّ الإنكار في قوة النفي، فصار المعنى: لا عجب من أمر الله لأنّ إعطاء الولد رحمة من الله وبركة، فلا عجب في تعلق قدرة الله بها وأنتم أهل تلك الرحمة والبركة، فلا عجب في وقوعها عندكم. وتعريف البيت تعريف الحضور، والمقصود من النداء التنويه بهم.

وجملة... ﴿**إنّه حميد مجيد**﴾: تعليل لتوجيه رحمته وبركاته إليهم بأنّ الله يحمد من يطيعه، وبأنّه مجيد لا حدَّ لنعمه، فهذا كناية عن رضى الله تعالى عن إبراهيم وأهله... ﴿**فلمّا ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط**﴾: الفاء لربط الكلام بعضه ببعض وتأخر الفاعل عن الظرف؛ لأنّه مصب الفائدة. وجاءته البشرى موصولة بما قبلها بالعطف. والتعريف في الروع وفي البشرى تعريف العهد الذكرى. وقوله: يجادلنا هو جواب لما صيغ بصيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة، ومجادلة إبراهيم هنا: مراجعة إبراهيم ربّه في أمر العذاب الذي سيحل بقوم لوط خوفاً على المؤمنين منهم وفي مقدمتهم لوط... ﴿**إنّ إبراهيم لحليم أواه منيب**﴾: تعليل لموقف إبراهيم من المجادلة والمحاورة والمراجعة.

وجملة... ﴿**يا إبراهيم أعرض عن هذا إنّه قد جاء أمر ربّك وإنّهم آتيهم عذاب غير مردود**﴾: مقول لقول محذوف دل عليه المقام، وهو من بديع الإيجاز... ﴿**ولمّا جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب**﴾: لما تمت المحاورة بين إبراهيم وبين الملائكة جاءوا لوطاً فساءه

مجيئهم، فقد جاءوا لوطاً كما جاءوا إبراهيم في صورة البشر، فظنهم لوط ناساً وخشي أن يعتدي عليهم قومه بعادتهم الشنيعة، فلذلك سيء بهم. ومعنى ضاق بهم ذرعاً: ضاق ذرعُه بسببهم، فحول الإسناد إلى المضاف إليه وجعل المسند إليه تمييزاً؛ لأنّ إسناد الضيق إلى صاحب الذرع أنسب بالمعنى المجازي، وهو استعارة تمثيلية لحال من لم يجد حيلة في أمر يريد عمله بحال الذي لم يستطيع مد ذراعه كما يشاء. وقوله: هذا يوم عصيب قاله في نفسه كما يناجي المرء نفسه إذا اشتد به أمرٌ. ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنّها جاءت على ترتيب حصولها في الوجود؛ فإنّ أول ما يسبق إلى نفس الكَارِه للأمر أن يُساء به، ويتطلب المخلص منه، فإذا علم أنّه لا مخلص منه ضاق به ذرعاً.

ثم يُصدِر تعبيراً عن المعاني وترتيباً عنه كلاماً يريح به نفسه... ﴿**وجاءه قومه يُهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيآتِ**﴾: من المعلوم أنّ القوم لم يجيئوا كلهم ولكن لما كانت هذه العادة القبيحة سارية في الجميع أسند المجيء إلى الجميع. يُهرعون إليه: يهرولون مسرعين مدفوعين بسبب أمر غريب في نفوسهم دون وعي منهم بما هم فيه وما يترتب عليه. وقد طوى القرآن ذكر الغرض الذي جاءوا لأجله مع الإشارة إليه بقوله: ومن قبل كانوا يعملون السيآت؛ فقد صارت لهم دأباً لا يسعون إلاّ لأجله. وجملة... ﴿**قال ياقوم هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم**﴾: مستأنفة استئنافا بيانياً ناشئاً عن جملة وجاءه قومه؛ إذ قد علم السامع غرضهم من مجيئهم، فهو يسأل عما تلقاهم به، وبادرهم لوط بقوله: ياقوم هؤلاء. وافتتاح الكلام بالنداء وبأنّهم قومه ترقيق لنفوسهم عليه؛ لأنّه يعلم تصلبهم في عادتهم الفظيعة، والإشارة مستعملة في العرض.

وجملة هنّ أطهر لكم تعليل للعرض، ومعنى هن أطهر: أنّهن حلال لكم يحلْن بينكم وبين الفاحشة، فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة قصد به قوة الطهارة. وفرع على قوله هنّ أطهر لكم أن أمرهم بتقوى الله... ﴿**فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي**﴾: ففي للظرفية المجازية. والاستفهام في... أليس منكم رجل رشيد: إنكار وتوبيخ... ﴿**قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنّك لتعلم ما نريد**﴾: فصلت هذه الآية عما قبلها فلم تعطف لوقوعها موقع المحاورة. ولقد علمت تأكيد لكونه يعلم، فأكد بتنزيله منزلة من ينكر أنّه يعلم، وكذلك التوكيد في

وإنّك لتعلم ما نريد. وكلا الخبرين مستعمل في لازم فائدة الخبر، وجوابه بـ**﴿لو أنّ لي بكم قوة﴾** جواب يائس من ارعوائهم. ومعنى **﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾** أعتصم بما فيه منعة... **﴿قالوا يالوط إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك﴾**: جاء قول الملائكة مفصولاً بدون عطف على نحو ما جاء قول لوط وقول قومه.

وابتدأ الملائكة خطابهم لوطاً ـ عليه السلام ـ بالتعريف بأنفسهم لتعجيل الطمأنينة إلى نفسه؛ لأنّه إذا علم أنّهم ملائكة علم أنّهم ما نزلوا إلاّ لإظهار الحق، ثم ألحقوا هذا التعريف بالبشارة بقولهم: لن يصلوا إليك. وجيء بحرف تأكيد النفي للدلالة على أنّهم خاطبوه بما يزيل الشك من نفسه؛ فجملة لن يصلوا إليك مبينة لإجمال جملة إنّا رسل ربك، فلذلك فصلت فلم تعطف؛ لأنّها بمنزلة عطف البيان... **﴿فاسر بأهلك بقطع من الليل﴾**: هذا تفريع على جملة لن يصلوا إليك، لما في حرف لن من ضمان سلامته في المستقبل كله. وجملة... **﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾** معترضة بين المستثنى والمستثنى منه. والالتفات المنهي عنه هو الالتفات إلى المكان المأمور بمغادرته كما دلت عليه القرينة... **﴿إلاّ امرأتك﴾**: استثناء من أهلك. وجملة... **﴿إنّه مصيبها ما أصابهم﴾**: استئناف بياني.

وجملة ..**﴿إنّ موعدهم الصبح﴾**: مستأنفة ابتدائية قُطعت عن التي قبلها اهتماماً وتهويلاً. وجملة... **﴿أليس الصبح بقريب﴾**: استئناف بياني صدر من الملائكة جواباً عن سؤال يجيش في نفسه من استبطاء نزول العذاب، والاستفهام تقريري... **﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربّك﴾**: الضمائر المؤنثة الثلاث تعود على القرية التي أمطرت مطر السوء، وهي مفهومة من السياق. وقوله... **﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾**: يحتمل أن يعود ضمير هي على القرية التي يمر بها العرب في سفرهم إلى الشام، ويحتمل أن يعود على الحجارة تهديدا لقريش الظالمين، والاحتمالان مقصودان في السياق.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: **﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾**: في هذا التوجيه يلمُّ السياق في مروره التاريخي

بالمستخلفين من عهد نوح، وبالأمم التي بوركت والأمم التي كتب عليها العذاب؛ يلمّ بطرف من قصة إبراهيم تتحقق فيه البركات في الطريق إلى قصة لوط الذين مسهم العذاب الأليم. وفي قصة إبراهيم ولوط هنا يتحقق وعد الله بطرفيه لنوح: «قلنا يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم»، وقد كانت البركات في إبراهيم وعقبه من ولديه: إسحاق وأبناؤه أنبئاء بني إسرائيل، وإسماعيل ومن نسله خاتم الأنبئاء والمرسلين.

وكان إبراهيم قد هاجر من أرض الكلدانيين مسقط رأسه في العراق وسكن في بادية الشام، وعلى عادة العرب في إكرام الأضياف راح إبراهيم يحضر لضيوفه القِرى، وقد ظنهم ضيوفاً: فما لبث أن جاء بعجل حنيذ، ولكن الملائكة لا يأكلون... ﴿**فلمّا رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة**﴾: فالذي لا يأكل طعام مضيفه يريبه ويشعر أنّه ينوي خيانة أو غدراً بحسب تقاليد أهل الكرم والشرف، وعند هذا كشفوا له عن حقيقتهم... قالوا ﴿**إنّا أرسلنا إلى قوم لوط**﴾: وابراهيم يدرك ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط، ولكن حدث في هذه اللحظة ما غير مجرى الحديث... ﴿**وامرأته قائمة فضحكت**﴾: وربما كان ضحكها ابتهاجاً بهلاك القوم الملوثين، أو سمعت الملائكة تبشر إبراهيم بغلام عليم، كما عبر عنه في سورة الذاريات... ﴿**فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب**﴾: وكانت عقيماً لا تلد، والآن أصبحت عجوزاً، ففاجأتها البشرى بإسحاق، وهي بشرى مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده هو يعقوب.

والمرأة ـ وبخاصة العقيم ـ يهتز كيانها كله لمثل هذه البشرى، والمفاجأة بها تهزها وتربكها... ﴿**قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً؟. إنّ هذا لشيء عجيب**﴾: وهو عجيب حقاً، ولكن لا شيء بالقياس إلى قدرة الله عجيب... ﴿**قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميد مجيد**﴾: ولا عجب من أمر الله؛ العادة حين تجري بأمر لا يكون معنى هذا أنّها سنة لا تتبدل، وعندما يشاء الله لحكمة يريدها ـ وهي هنا رحمته بأهل هذا البيت وبركاته الموعودة للمؤمنين فيه ـ يقع ما يخالف العادة، مع وقوعه وفق السنة الإلهية التي لا نعلم حدودها، ولا نحكم عليها بما تجري به العادة في أمد هو على كل حال محدود، ولا نستقرئ جميع الحوادث في الوجود. وإلى هنا كان

إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد اطمأن إلى رسل ربه، وسكن قلبه بالبشرى التي حملوها إليه، ولكن هذا لم يُنسه لوطاً وقومه وما ينتظرهم من إرسال الملائكة، وطبيعة إبراهيم الرحيمة الودود لا تجعله يطيق هلاك القوم في تسليم... ﴿**فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إنّ إبراهيم لحليم أواه منيب**﴾: والحليم الذي يحتمل أسباب الغضب فيصبر ويتأنى ولا يثور، والأواه الذي يتضرع في الدعاء من التقوى. والمنيب الذي يعود سريعاً إلى ربه.

وهذه الصفاتُ كلها قد دعت إبراهيم أن يسأل ربّه العفو والرحمة لقوم لوط. وسمي هذا جدلاً لأنّ الأمر كان قد انتهى وقضي، فكل كلام فيه بعد ذلك جدل لا يجوز... ﴿**ياإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنّهم آتيهم عذاب غير مردود**﴾: وسكت السياق، وقد سكت ـ ولا شك ـ إبراهيم. ويسدل الستار على مشهد إبراهيم وزوجه ليرفع الستار على مشهد حافل بالحركة والانفعال مع لوط في **التوجيه الثاني**.

التوجيه الثاني: ﴿**ولمّا جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب**﴾: فقد كان يعرف قومه، ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشذوذ عجيبين؛ إذ يتركون النساء إلى الرجال، مخالفين الفطرة التي تهتدي إلى حكمة خلق الأحياء جميعاً أزواجاً، كي تمتد الحياة بالنسل ما شاء لها الله، والبشرية تعرف حالات مرضية فردية شاذة، ولكن ظاهرة قوم لوط عجيبة!.. ﴿**وجاءه قومه يهرعون إليه**﴾: يسرعون في حالة تشبه الحمى ترتعد أعصابهم من شدة التكالب على هذه الفاحشة الفظيعة! ..﴿**ومن قبل كانوا يعملون السيآت**﴾: فكان هذا ما ساء الرجل بضيوفه وما ضيق بهم ذرعه، وما دعاه إلى توقع يوم عصيب!. ورأى لوط ما يشبه الحمى في أجساد قومه المندفعين إلى داره يهددونه في ضيفه وكرامته، فحاول أن يوقظ فيهم الفطرة السليمة، ويوجههم إلى الجنس الآخر الذي خلقه الله للرجال، وهي الشريعة التي جاء من أجلها الرسل، ولما كان لوط ـ عليه السلام ـ رسولاً إلى قومه فالبنات بناته وبشرعه يتم الزواج بهن، فهو الغاية في الطهارة فلا طهارة بعد هذا... ﴿**قال ياقوم هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم فاتقوا الله**﴾: أطهر بكل معاني الطهر: النفسي والحسي، فهن يلبين الفطرة السليمة النظيفة؛ نظافة فطرية ونظافة أخلاقية ودينية.

فاتقوا الله: يلمس نفوسهم من هذا الجانب بعد أن لمسها من ناحية الفطرة... ﴿**ولا تخزوني في ضيفي**﴾: يلمس نخوتهم ومروءتهم في إكرام الضيف... ﴿**أليس منكم رجل رشيد**﴾؟!: فالقضية قضية رشد وسفه إلى جوار أنّها قضية فطرة ودين ومروءة، ولكن هذا كله لم يلمس الفطرة المنحرفة المريضة، ولا القلب الميت الأسن، ولا العقل المريض المأفون، وظلت الفورة المرضية الشاذة في اندفاعها المحموم... ﴿**قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنّك لتعلم ما نريد**﴾: وهي إشارة خبيثة إلى العمل الخبيث. وأسقط في يد لوط وأحس ضعفه وغربته بين القوم، فليس له من قوة في هذا اليوم العصيب!، وانفرجت شفتاه عن كلمة حزينة أليمة... ﴿**قال لو أنّ لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد**﴾: فعندما ضاقت الحال، واستحكمت حلقاتها وبلغ الكرب أشده، كشف الرسل للوط عن الركن الشديد الذي يأوي إليه... ﴿**قالوا يالوط إنّا رسل ربك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلاّ امرأتك إنّه مصيبها ما أصابهم إنّ موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب**﴾: والسري: سير الليل، والقطع من الليل بعضه. ﴿**ولا يلتفت منكم أحد**﴾: لا يتخلف ولا يعوق، فالصبح موعدهم مع الهلاك، فكل من بقي فهو هالك مع الهالكين. ﴿**أليس الصبح بقريب**﴾؟: سؤال لإنعاش نفس لوط بعدما ذاق، فهو قريب مع مطلع الصباح، ثم يفعل الله بالقوم بقوته ما لم تكن قوة لوط التي تمناها فاعلة.

التوجيه الثالث: ﴿**فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها**﴾: في هذا التوجيه لفت الأنظار إلى المشهد الأخير، وهو مشهد الدمار المروع اللائق بقوم لوط!، وفي المشهد صورة للتدمير الكامل حيث انقلبت القرية بما فيها ومن عليها؛ فهي صورة للتدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها. وهذا القلب وجعل عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان، بل أحط من الحيوان؛ فالحيوان عند حدود فطرة الحيوان... ﴿**وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك**﴾: إنّها صُورَةُ غَارَةٍ في العصر الحديث بالمفرقعات المدمرة واللهب الفتاك الذي لا يبقي ولا يذر؛ غارة معدة محددة لغرض مقصود مستهدف، فليست هذه الغارة ثوراناً طبيعياً من البراكين والزلازل، ولكنها غارة إلهية لم يكن لها في السابق ولا في اللاحق مثيل إلاّ ما حدث لأصحاب الفيل الذين غارت عليهم طيرٌ أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل.

فقوله هنا. . . ﴿**وما هي من الظالمين ببعيد**﴾: ماهذه العقوبة بعيدة ممن أشبههم في فعلهم، ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أنّ اللائط يرجم سواءً كان محصناً أو لا، فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله، واتبع هواه وعصى مولاه، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في إنجائه إيّاهم من المهلكات؛ فالعاقل اللبيب الفاهم الخائف من ربه، يمتثل ما أمره الله به، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال، فإيّاه وأن يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل في قوله تعالى: وما هي من الظالمين ببعيد.

5 ـ موقف أهل مدين من رسولهم شُعَيْبٌ،
مثل موقف أهل مكة من الرسول دون رَيْبِ

النص

۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ
يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿83﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ
وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿84﴾
بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ ﴿85﴾ وَمَا أَنَا
عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿86﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ
أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا
مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿87﴾ قَالَ يَا قَوْمِ
أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي
مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ
مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿88﴾
وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ
قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ

مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿89﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿90﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿91﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿92﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿93﴾ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿94﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿95﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿96﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿97﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿98﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿99﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾: تقدم نظير هذا الكلام في قوله وإلى عاد أخاهم هوداً... **﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان إنّي أراكم بخير وإنّي أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾**: المكيال: ما يقدر به الشيء المكيل. والميزان: ما يقدر به الشيء الموزون. ونقصانهما: تطفيفهما. والخير: سعة الحال وكثرة المال. وعذاب يوم محيط: عذاب الدنيا بالدمار والآخرة بدخول النار! ..**﴿وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾**: الإيفاء: إعطاء الشيء وافياً. والقسط: العدل. والبخس: النقص. والأشياء: جمع شيء. والعثو: الإفساد... **﴿بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾**: بقية: كلمة جامعة لمعان في كلام العرب، منها الدوام، ومعناه هنا: ما يبقى بعد إيفاء الكيل والميزان من الربح الحلال خير لكم ممّا تأخذونه بالتطفيف ونحوه من الحرام، ومنها الخير والبركة، ومنها الإبقاء عليهم، وهو النجاة من عذاب الاستئصال، وهذه المعاني كلها صالحة لهذه الكلمة هنا.

والحفيظ: المجير... **﴿قالوا ياشعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنّك لأنت الحليم الرشيد﴾**: الصلوات: جمع صلاة، وهي في اللغة: الدعاء والقراءة والدين، والعبادة المعروفة ذات الأقوال والأفعال. والأموال: جمع مال، وهو ما اجتمع من عروض التجارة، وما اقتني من المتاع، وما اجتمع من نقود. والحليم: العاقل الكامل في أناتِهِ وتروّيه. والرشيد: الراسخ في هدايته وهدْيه... **﴿قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾**: تقدم نظير هذا في قول نوح، وقول صالح... **﴿ورزقني منه رزقاً حسنا﴾**: الرزق الحسن هنا: هو معنى الرحمة في قولي نوح وصالح، ويطلق على المال الحلال... **﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾**: أصل المخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في قوله أو فعله أو حاله... **﴿إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾**: التوفيق: جعل الشيء وفقاً لآخر، وهو الفوز والفلاح في إصابة الإصلاح... **﴿وياقوم لا**

يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾: لا يحملنكم شقاقكم وتكذيبكم على إصابتكم بعذاب الاستئصال كما حصل لمن كان قبلكم... **﴿واستغفروا ربّكم ثم توبوا إليه إنّ ربّي رحيم ودود﴾**: الرحيم: العظيم الرحمة لمن يستغفره ثم يتوب إليه.

والودود: كثير المودة بإحسانه ونعمه... **﴿قالوا ياشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾**: الفقه: الفهم الدقيق، كما تقدم مراراً... **﴿وإنّا لنراك فينا ضعيفاً﴾**: غير ذي قوة ومنعة تمنعنا من الفتك بك... **﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾**: الرهط: قوم الرجل وقبيلته الأدنون، ويطلق الرهط على العدد ما بين الثلاثة والعشرة. والرجم: الرمي بالحجارة حتى الموت... **﴿وما أنت علينا بعزيز﴾**: العزة: القوة والشدة والغلبة. والعزيز: وصف منه... **﴿قال ياقوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إنّ ربّي بما تعملون محيط﴾**: كلمات هذه الآية ظاهرة.

واتخاذ الشيء ظهرياً: تركه ونسيانه... **﴿وياقوم اعملوا على مكانتكم﴾**: اعملوا ما استطعتم على منتهى تمكنكم في قوتكم وعصبيتكم... **﴿إنّي عامل﴾**: على مكانتي التي أعطانيها ربي... **﴿سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾**: تقدم معنى هذا فيما تقدم... **﴿ومن هو كاذب﴾**: أنا أم أنتم؟ ..**﴿وارتقبوا إنّي معكم رقيب﴾**: انتظروا مراقبين لما سيقع، وأنا كذلك رقيب معكم لهذا الأمر الخطير... **﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾**: تقدم معنى نظير هذا الكلام في قصة عاد وثمود... **﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾**: آيات موسى: العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وانفلاق البحر وانفجار الحجر، فهي آيات تسع.

والسلطان المبين: الحجة القاطعة... **﴿إلى فرعون وملإه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد. يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾**: يقدم مضارع قدم بفتح الدال، بمعنى تقدم غيره. والإيراد: جعل الشيء وارداً. والوارد: الماء المورود، في قوله: **﴿وبئس الورد المورود... وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾**: الإتباع: الإلحاق. واللعنة: هي لعنة العذاب في الدنيا والآخرة. والرفد: ما يعطى من مال أو غيره ينتفع به ويستفاد منه.

مبحث الإعراب

﴿**وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾: تقدم إعراب نظيره. ﴿**ولا تنقصوا المكيال**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف النهي فجزمه بحذف النون، والجملة معطوفة على قوله: اعبدوا. ﴿**والميزان**﴾ معطوف على المكيال. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أراكم**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الألف، والضمير المتصل به مفعول، والفاعل ضمير المتكلم. ﴿**بخير**﴾ متعلق به، وجملة أراكم في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّي أراكم بخير تعليل للنهي. ﴿**وإنّي أخاف**﴾ معطوف على قوله: إنّي أراكم، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بأخاف.

﴿**عذاب**﴾ مفعول أخاف. ﴿**يوم**﴾ مضاف إلى عذاب. ﴿**عظيم**﴾ نعت ليوم. ﴿**وياقوم**﴾ معطوف على قال ياقوم. ﴿**أوفوا المكيال**﴾ فعل أمر وفاعل ومفعول. ﴿**والميزان**﴾ معطوف على المكيال. ﴿**بالقسط**﴾ متعلق بمحذوف حال من المكيال والميزان. ﴿**ولا تبخسوا الناس**﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والفعل مجزوم بلا الناهية، والواو للعطف. ﴿**أشياءهم**﴾ مفعول ثان. ﴿**ولا تعثوا**﴾ معطوف على قوله: ولا تبخسوا. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بلا تعثوا. ﴿**مفسدين**﴾ حال مؤكدة لتعثوا. ﴿**بقية**﴾ مبتدأ. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى بقية. ﴿**خير**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**لكم**﴾ متعلق بخير. ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ جملة شرطية من كان واسمها وخبرها، والجواب محذوف يدل عليه ما قبله. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف. وما نافية تعمل عمل ليس. ﴿**أنا**﴾ في محل رفع اسم ما.

﴿**عليكم**﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿**بحفيظ**﴾ خبر ما جر لفظاً ونصب محلاً. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ياشعيب**﴾ منادى مبني على الضم في محل نصب. ﴿**أصلواتك**﴾ مبتدأ دخل عليه حرف الاستفهام. ﴿**تأمرك**﴾ فعل مضارع، والضمير المتصل به مفعول، والفاعل ضمير يعود على الصلاة. ﴿**أن نترك**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر متعلق بتأمرك، وجملة تأمرك في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول نترك. يعبد آباؤنا فعل وفاعل صلة ما. ﴿**أو أن نفعل**﴾ معطوف على أن نترك. ﴿**في أموالنا**﴾ متعلق بأن نفعل. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول نفعل. ﴿**نشاء**﴾ فعل مضارع والفاعل ضمير

المتكلمين نحن، والجملة صلة ما. ﴿**إنّك**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لأنت**﴾ ضمير فصل دخل عليه حرف التوكيد. ﴿**الحليم الرشيد**﴾ خبران لإنّ، والجملة تعليل، أو استئناف. ﴿**قال**﴾ فعل ماض.

﴿**ياقوم**﴾ منادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف. ﴿**أرأيتم**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف الاستفهام. ﴿**إن كنت**﴾ كان واسمها دخل عليها حرف الشرط. ﴿**على بينة**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان. ﴿**من ربي**﴾ متعلق ببينة، وجواب الشرط مقدر مأخوذ من السياق. ﴿**ورزقني**﴾ معطوف على إن كنت، وياء المتكلم مفعول أول. ﴿**منه**﴾ متعلق برزقني. ﴿**رزقاً**﴾ مفعول ثان. ﴿**حسناً**﴾ نعت لرزقاً. ﴿**وما أريد**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفي وواو العطف، والفاعل ضمير المتكلم. ﴿**أن أخالفكم**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول أريد. ﴿**إلى ما**﴾ متعلق بأن أخالفكم. ﴿**أنهاكم**﴾ فعل مضارع، والضمير المتصل مفعول، والفاعل ضمير المتكلم. ﴿**عنه**﴾ متعلق بأنهاكم، وجملة أنهاكم صلة ما.

﴿**إن أريد**﴾ فعل مضارع دخلت عليه إن النافية. ﴿**إلاّ الإصلاح**﴾ مفعول أريد. ﴿**ما**﴾ مصدرية ظرفية. ﴿**استطعت**﴾ فعل وفاعل، وما وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور مضاف إلى ظرف مقدر، والتقدير: مدة استطاعتي، والظرف متعلق بالإصلاح. ﴿**وما توفيقي**﴾ مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم دخل عليه حرف النفي وواو العطف. ﴿**إلاّ بالله**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**عليه توكلت**﴾ فعل وفاعل متعلق به الجار والمجرور قبله. ﴿**وإليه أنيب**﴾ معطوف على قوله: عليه توكلت. ﴿**وياقوم**﴾ منادى مثل سابقتها. ﴿**لا يجرمنكم**﴾ فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد في محل جزم بلا الناهية، والضمير المتصل مفعول به. ﴿**شقاقي**﴾ فاعل يجرمنكم مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم. ﴿**أن يصيبكم**﴾ منصوب بأن، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**مثل**﴾ فاعل يصيب. ﴿**ما**﴾ في محل جر مضاف إلى مثل.

﴿**أصاب**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على ما، والجملة صلة ما. ﴿**قوم**﴾ مفعول أصاب. ﴿**نوح**﴾ مضاف إلى قوم، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر، والتقدير: ولا يجرمنكم شقاقي على

إصابتكم. . . أو ﴿**قوم هود**﴾ معطوف على قوم نوح. ﴿**أو قوم صالح**﴾ معطوف على قوم هود. ﴿**وما قوم**﴾ ما واسمها دخل عليها حرف العطف. ﴿**لوط**﴾ مضاف إلى قوم. ﴿**منكم**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**ببعيد**﴾ خبر ما جُرّت لفظا ونصبت محلاً. ﴿**واستغفروا**﴾ فعل أمر، والواو للعطف. ﴿**ربّكم**﴾ مفعول به. ﴿**ثم توبوا**﴾ معطوف على استغفروا. ﴿**إليه**﴾ متعلق بتوبوا. ﴿**إنّ ربّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**رحيم ودود**﴾ خبران لإنّ، والجملة تعليل.

﴿**قالوا ياشعيب**﴾ تقدم نظيرها قريباً. ﴿**ما نفقه**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفي، والفاعل ضمير المتكلمين. ﴿**كثيراً**﴾ مفعول نفقه. ﴿**مما**﴾ متعلق بنفقه. ﴿**تقول**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير المخاطب، وجملة تقول صلة ما. ﴿**وإنّا**﴾ إنّ واسمها دخل عليها حرف العطف. ﴿**لنراك**﴾ فعل مضارع دخل عليه لام التوكيد، والضمير المتصل به مفعول أول، والفاعل ضمير المتكلمين، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**فينا**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**ضعيفاً**﴾ مفعول ثان. ﴿**ولولا**﴾ حرف امتناع لوجود متضمن معنى الشرط. ﴿**رهطك**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه، وخبر المبتدإ محذوف. ﴿**لرجمناك**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه لام التوكيد، والجملة جواب لولا. ﴿**وما أنت**﴾ ما واسمها دخل عليها حرف العطف.

﴿**علينا**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**بعزيز**﴾ خبر ما جرّ لفظاً ونصب محلاً. ﴿**قال ياقوم**﴾ تقدم مثلها. ﴿**أرهطي**﴾ مبتدأ دخل عليه حرف الاستفهام مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم. ﴿**أعزّ**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**عليكم من الله**﴾ متعلقان بأعزّ. ﴿**واتخذتموه**﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والواو للعطف. ﴿**وراءكم**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**ظهرياً**﴾ مفعول ثان. ﴿**إنّ ربّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**بما**﴾ متعلق بخبر إنّ بعده. ﴿**تعملون**﴾ صلة ما. ﴿**محيط**﴾ خبر إنّ، والجملة تعليل. ﴿**وياقوم اعملوا**﴾ مثل ويا قوم استغفروا. ﴿**على مكانتكم**﴾ متعلق باعملوا. ﴿**إنّي عامل**﴾ إنّ واسمها وخبرها. ﴿**سوف**﴾ حرف تسويف. ﴿**تعلمون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**من**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**يأتيه**﴾ فعل مضارع، والضمير فيه مفعول. ﴿**عذاب**﴾ فاعل يأتي. ﴿**يخزيه**﴾ فعل مضارع، والضمير فيه مفعول، والفاعل ضمير يعود على العذاب، وجملة يخزيه في محل رفع نعت لعذاب، وجملة يأتيه

في محل رفع خبر المبتدإ، وجملة الاستفهام في محل نصب مفعول تعلمون. ﴿**ومن هو كاذب**﴾ معطوف على من يأتيه.

﴿**وارتقبوا**﴾ فعل أمر دخل عليه حرف العطف. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**معكم**﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿**رقيب**﴾ خبر إنّ. ﴿**ولمّا جاء أمرنا**﴾ جملة شرطية. ﴿**نجينا شعيباً**﴾ جواب الشرط. ﴿**والذين**﴾ في محل نصب معطوف على شعيب. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**معه**﴾ متعلق بآمنوا. ﴿**برحمة**﴾ متعلق بنجينا. ﴿**منّا**﴾ متعلق برحمة. ﴿**وأخذت**﴾ معطوف على نجينا. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول أخذت. ﴿**ظلموا**﴾ صلة الذين. ﴿**الصيحة**﴾ فاعل أخذت. ﴿**فأصبحوا**﴾ أصبح واسمها، والفاء للتعقيب والترتيب. ﴿**في ديارهم جاثمين**﴾ خبر أصبح منصوب بالياء. ﴿**كأن لم يغنوا فيها**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**ألا بُعْداً لمدين**﴾ ﴿**كما بعدت ثمودُ**﴾ كذلك. ﴿**ولقد أرسلنا موسى**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف التحقيق ولام القسم وواو العطف. ﴿**بآياتنا**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**وسلطان**﴾ معطوف على آياتنا. ﴿**مبين**﴾ نعت لسلطان. ﴿**إلى فرعون**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**وملئه**﴾ معطوف على فرعون.

﴿**فاتبعوا أمر**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والفاء للتفريع. ﴿**فرعون**﴾ مضاف إلى أمر مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿**وما أمر**﴾ ما واسمها. ﴿**فرعون**﴾ مضاف إلى أمر. ﴿**برشيد**﴾ خبر ما جُر لفظاً ونُصِبَ محلاً، والجملة في محل نصب حال. ﴿**يقدم**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على فرعون. ﴿**قومه**﴾ مفعول به. ﴿**يوم**﴾ متعلق بيقدم. ﴿**القيامة**﴾ مضاف إلى يوم. ﴿**فأوردهم**﴾ مرتب على قوله: يقدم، والضمير المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿**النار**﴾ مفعول ثان. ﴿**وبئس الورد**﴾ فعل وفاعل، والواو للعطف. ﴿**المورود**﴾ مبتدأ مؤخر، وخبره بئس الورد. ﴿**وأتبعوا**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، والواو للعطف. ﴿**في هذه**﴾ متعلق بأتبعوا. ﴿**لعنة**﴾ مفعول ثانٍ لأتبعوا. ﴿**ويوم**﴾ معطوف على قوله في هذه. ﴿**القيامة**﴾ مضاف إلى يوم. ﴿**بئس الرفد المرفود**﴾ مثل بئس الورد المورود.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا**

تنقصوا المكيال والميزان إنّي أراكم بخير وإنّي أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾: مناسبة وصل قصة شعيب بما قبلها واضحة، وهي مرتبة ترتيباً حسب واقع التاريخ، فنوح ثم هود ثم صالح ثم إبراهيم ولوط ثم شعيب. ففي قوله شعيب هنا ثلاثة أمور: أحدها: إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاح العقول والفكر. وثانيها: النهي عن نقص الكيل والميزان، وعلله بقوله إنّي أراكم بخير وإنّي أخاف عليكم عذاب يوم محيط. وثالثها: **﴿ياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾**: فابتدأ بالأمر بالتوحيد؛ لأنّه أصل الصلاح، ثم أعقبه بالنهي عن مظلمة كانت متفشية فيهم، وهي خيانة المكيال والميزان، ثم أمرهم بإيفاء المكيال والميزان؛ فإعادة النداء في جملة وياقوم أوفوا المكيال والميزان للاهتمام والتنبيه، وهذا الأمر تأكيد للنهي عن نقصهما، والشيء يؤكد بنفي ضدّه. ثم نهاهم عن شيئين: الإبخاس والإفساد، وسلك في نهيهم عن الفساد مسلك التدرج، فابتدأ بنهيهم عن نوع من الفساد فاشٍ فيهم، وهو التطفيف، ثم ارتقى فنهاهم عن جنس ذلك النوع وهو أكل أموال الناس، ثم ارتقى فنهاهم عن الجنس الأعلى للفساد الشامل لجميع أنواع المفاسد، وهو الإفساد في الأرض كلِّه، وهذا من أساليب الحكمة في تهيئة النفوس لقبول الإرشاد والكمال... **﴿بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾**: كلمة بقية الله جامعة لكل خير في الدنيا والآخرة، وإضافتها إلى اسم الله إضافة تشريف وتيمن، وهي إضافة على معنى اللام، والجملة الشرطية شرط في البقية الخيرية... **﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾**: تذييل مقرر لمضمون ما تقدم من الأمر والنهي والحث على فعل الخير، وهذا استقصاء في الترغيب وحسن الجدال... **﴿قالوا ياشعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾**: رد القوم هنا فيه تهكم وسخرية وإنكار على شعيب وصلواته؛ حتى جعلوا هذه الصلاة هي التي تأمره بأن يتدخل في عبادة القوم ومعاملاتهم، وزاد هذا وضوحاً قولهم لشعيب... **﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾!**: وقد جاءت هذه الجملة مؤكدة بحرف إنّ، ولام القسم، وبصيغة القصر في جملة لأنت الحليم الرشيد؛ فاشتملت على أربعة مؤكدات... **﴿قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربّي ورزقني منه رزقاً حسناً﴾**: نفس القول الذي تكلم به نوح وصالح.

والمراد بالرزق الحسن هنا مثل المراد من الرحمة في كلام نوح وفي كلام

صالح، وهو نعمة النبوءة. وإنّما عبر شعيب عن النبوءة بالرزق على وجه التشبيه مشاكلة لقولهم: أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء. وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام... **﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾**: جملة إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت بيان لجملة ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه؛ لأنّ انتفاء إرادة المخالفة إلى ما نهاهم عنه مجمل فيما يريد إثباته من أضداد المنفي، فبيّنه بأنّ الضد المراد إثباته هو الإصلاح في جميع أوقات استطاعته بتحصيل الإصلاح؛ فالقصر قصر قلب، وأفادت صيغة القصر تأكيد ذلك. ولمّا بيّن لهم حقيقة عمله وكان في بيانه ما يجر الثناء على نفسه أعقبه بإرجاع الفضل في ذلك إلى الله فقال: وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

والتعبير بالماضي في التوكل لتحققه، وبالمضارع في الإنابة لاستمراره وتجدُّدِه... **﴿وياقوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾**: المقصود في هذا النداء نهيهم أن يجعلوا الشقاق سبباً للإعراض عن النظر في دعوته فيوقعوا أنفسهم في أن يحل عليهم عذاب مثل ما أصاب الأمم قبلهم فيحسبوا أنّهم يمكرون به بإعراضهم، وما يمكرون إلا بأنفسهم. ولقد كان فضْح سوء نواياهم الداعية لهم إلى الإعراض عن دعوته عقب إظهار حسن نيته ممّا دعاهم إليه لقوله: وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت مصادفاً مَحزَّ جودة الخطابة؛ إذ رماهم بأنّهم يعملون بضد ما يعاملهم به.

وجملة... **﴿واستغفروا ربكم﴾**: عطف على جملة لا يجرمنكم شقاقي. وجملة... **﴿إنّ ربّي رحيم ودود﴾**: تعليل للأمر باستغفاره والتوبة إليه، وتفنن في إضافة الرب إلى ضمير نفسه مرة وإلى ضمير قومه أخرى لتذكيرهم بأنّه ربّهم كي لا يستمروا على الإعراض... **﴿قالوا ياشعيب ما نفقه كثيراً ممّا تقول وإنّا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾**: في نهاية المحاورة يأتي الرد من القوم مصرحاً بالرفض والتهكّم والتهديد بالقوة التي يلتجئ إليها دائماً من يفتقد الحجة والدليل!. وموقف هؤلاء مع رسولهم مثل موقف أهل مكة مع رسول الله ﷺ عندما رفضوا دعوته وحاولوا الفتك به لولا موقف بعض قرابته حينما أعلنت قريش مقاطعته وعشيرته.

ويجيء الرد من شعيب مستغرباً مستنكراً هذا الرفض وهذا التهديد... ﴿**قال ياقوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إنّ ربّي بما تعملون محيط. وياقوم اعملوا على مكانتكم إنّي عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنّي معكم رقيب**﴾: رد شعيب هنا مقابل لرد قومه استهزاء باستهزاء وتهديد بتهديد. ثم تتضح النهاية الفاصلة الحاسمة... ﴿**ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود**﴾: نهاية واحدة بصاعقة قاصمة!. ثم يعرض السياق قبل نهاية المطاف قصة موسى وفرعون باختصار هادف مقصود... ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملإه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد**﴾. ﴿**يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود**﴾!!.

خلاصة المعنى العام وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنّي أراكم بخير وإنّي أخاف عليكم عذاب يوم محيط**﴾: في هذا التوجيه لفت النظر إلى ما دعا به شعيبٌ قومه من الأمر، وهو دوْرٌ من أدوار الرسالة الواحدة بالعقيدة الخالدة. ومع الدعوة إلى عقيدة التوحيد قضية أخرى، هي قضية الأمانة والعدالة في التعامل بين الناس... ﴿**وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾: والقضية هنا هي قضية الأمانة والعدالة، فقد كان أهل مدين ينقصون المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم، وهي رذيلة تمس نظافة القلب واليد، كما تمس المروءة والشرف.

ومن ثم تبدو عقيدة التوحيد دَفعة ضخمة في طريق الأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء، فهي بذلك دَفعة في سبيل حياة إنسانية أفضل، وفي سبيل العدل والسلام في الأرض بين الناس، وهذا ما دعا إليه شعيب قومه آمراً وناهياً. ثم يوقظ وجدانهم إلى خير أبقى من ذلك الكسب الدنس الذي يحصلون عليه بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم في التقدير... ﴿**بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين**﴾: فما عند الله أبقى وأفضل، وقد دعاهم في

أول حديثه إلى عبادة الله وحده، فهو يذكرهم بها هنا، مع ذكر الخير الباقي لهم عند الله إن آمنوا كما دعاهم، واتّبعوا نصيحته في المعاملات، وهي فرع عن ذلك الإيمان.

ثم يخلي بينهم وبين الله الذي دعاهم إليه، وبيّن لهم أنّه هو لا يملك لهم شيئاً، كما أنّه ليس موكلاً بحفظهم من الشر والعذاب، إنّما هو عليه البلاغ وقد أدّاه... ﴿**وما أنا عليكم بحفيظ**﴾: ومثل هذا الأسلوب يشعر المخاطبين بخطورة الأمر وبثقل التبعة، ويقفهم وجهاً لوجه أمام العاقبة بلا وسيط ولا حفيظ، ولكن القوم كانوا قد عتوا ومردوا على الانحراف والفساد وسوء الاستغلال... ﴿**قالوا ياشعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنّك لأنت الحليم الرشيد**﴾: وهو رد واضح التهكم بيّن السخرية في كل مقطع من مقاطعه، وإن كانت سخرية الجاهل المطموس والمعاند بلا معرفة ولا فقه؛ فكأنّ تلك الصلوات قعيدة هنالك تدفع شعيباً وتوسوس له وتأمره فيطيع دون تروٍّ ودُون تفكير، وأنّها هي التي تتصرف فيه وتُسيّره دون إرادة منه، وما هو إلاّ أداة!، وقد أفسدته وصيرته آلةً تؤمر فتطيع!.

فهم لا يدركون أو لا يريدون أن يدركوا أنّ الصلاة هي من مقتضيات العقيدة، وأنّ العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم، وهي كذلك تأمر بالأمانة والعدل والشرف في تداول الأموال. وقبل أن نمضي طويلاً في تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط العبادة بالعقيدة وارتباطهما معاً بالمعاملات؛ قبل أن نمضي طويلاً في تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل ألوف السنين يحسن أن نذكر أنّ الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب، وأنّ الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكى ولا أكثر إدراكاً من الجاهلية الأولى، فلا يذهبنّ بنا الترفع كثيراً على أهل مدين في تلك الجاهلية، ونحن اليوم في جاهلية أشدُّ جهْلاً، ولكنها تدعي العلم والمعرفة والحضارة والثورة على القديم؛ وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله، والسلوك الشخصي في الحياة والمعاملات المادّية؛ تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود!.

فما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب، ثم يترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض، فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في

قلب واحد، والشرك ألوان؛ منه هذا اللون الذي نعيش فيه الآن. ويسخر أهل مدين من شعيب ـ كما يتوقح بالسخرية اليوم ناسٌ على دُعاة التوحيد الحق ـ فيقولون: إنّك لأنت الحليم الرشيد، وهم يعنون عكس معناها؛ فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق!. وكذلك عند المثقفين المتحضرين الراشدين اليوم الذين يعيبون على المتعصبين الرجعيين!!. ويتلطف شعيب تلطف أصحاب الدعوات الواثقين من الحق الذي معهم؛ ويعرض عن تلك السخرية لا يباليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم؛ يتلطف في إشعارهم بأنّه على بينة ممّا يقول؛ لأنّه أوتي من العلم ما لم يؤتوا، وأنّه إذ يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها؛ لأنّه مثلهم ذو مال وذو معاملات؛ فهو لا يبغي كسباً شخصياً من وراء دعوته لهم، فلن ينهاهم عن شيء ثم يفعله هو لتخلو له السوق!.

إنّما هي دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس، وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون... ﴿**قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربّي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب**﴾!. ثم يأخذ بهم في واد آخر من التذكير، فيطلُّ بهم على مصارع قوم نوح، أو قوم هود، أو قوم صالح، وقوم لوط... ﴿**وياقوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد**﴾: أي: لا يحملنكم الخلاف معي والعناد في مواجهتي على أن تلجوا في التكذيب والمخالفة خشية أن يصيبكم ما أصاب الأقوام قبلكم؛ فهؤلاء قوم لوط قريب منكم في المكان، وقريب كذلك في الزمان؛ فمدين كانت بين الحجاز والشام. ثم يفتح لهم ـ وهم في مواجهة العذاب والهلاك ـ باب المغفرة والتوبة ويطمعهم في رحمة الله والقرب منه بأرق الألفاظ وأحناها... ﴿**وياقوم استغفروا ربّكم ثم توبوا إليه إنّ ربّي رحيم ودود**﴾: وهكذا يطوف بهم في مجالات العظة والتذكر والخوف والطمع، لعل قلوبهم تتفتح وتخشع وتلين.

التوجيه الثاني: ﴿**قالوا ياشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنّا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز**﴾: في هذا التوجيه إظهار موقف القوم

على حقيقته من بقائهم على تكذيب شعيب وإهانته، فقد بلغوا من فساد القلوب، ومن سوء تقدير القيم في الحياة وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك، ما كشف عنه تبجحهم من قبلُ بالسخرية والتكذيب؛ فهم ضيقوا الصدور بالحق الواضح لا يريدون أن يدركوه، فهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية، فلا وزن عندهم للفكرة القوية التي يحملها ويواجههم، ففي حسابهم عصبية العشيرة لا عصيبة الاعتقاد، وصلة الدم لا صلة القلب، ثم هم يغفلون عن غيرة الله على أوليائه فلا يضعونها في الحساب. وحين تفرغ النفوس من العقيدة القومية والقيم الرفيعة والمثل العالية؛ فإنّها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا، فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة، ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلاّ أن تكون له عصبة تحميه، وإلاّ أن تكون معه قوة مادية مرهوبة!.

أما حرمة العقيدة والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية. وحينئذ يجبههم شعيب بسوء التقدير لحقيقة القوى القائمة في هذا الوجود، وبسوء الأدب مع الله المحيط بما يعملون. ويلقي كلمته الفاصلة الأخيرة، ويخلي بينهم وبين الله، وينذرهم العذاب الذي ينتظر أمثالهم ويدعهم لمصيرهم الذي يختارونه. . . ﴿**قال ياقوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إنّ ربّي بما تعملون محيط. وياقوم اعملوا على مكانتكم إنّي عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنّي معكم رقيب**﴾: ومن هنا نلاحظ كلمات شعيب الأخيرة إلى قومه كما نلاحظ كلمات الله إلى رسوله محمد ﷺ يأمره فيها بأن يقول مثل هذه الكلمات إلى قومه من العرب: «قل ياقوم أعملوا على مكانتكم إنّي عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار»، «قل فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين»، «قل تمتعوا فإنّ مصيركم إلى النار»، «فارتقب إنّهم مرتقبون»، إلى غير ذلك من الآيات التي تجعل كلام الرسل في النهاية كلمةً واحدةً. ويسدل الستار هنا على هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة ليرفع هناك على مصرع القوم، وعلى مشهدهم جاثمين في ديارهم، أخذتهم الصاعقة التي أخذت قوم صالح، فكان مصيرهم كمصيرهم خلت منهم الدُّور، كأن لم يكن لهم فيها دَوْر، وكأن لم يعمروها حيناً من الدهور؛ مضوا مثلَهم مشيعين باللعنة والتبور، طُويت صفحتُهم في الوجود وصفحتهم في الصدور! ..﴿**ولمّا جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في**

ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾: عطف ولمّا جاء أمرنا هنا وفي قوله في قصة عاد «ولما جاء أمرنا نجينا هود» بالواو فيهما، وعطف نظيراهما في قصة ثمود «فلمّا جاء أمرنا نجينا صالحا»، وفي قصة قوم لوط «فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها»؛ لأنّ قصتي ثمود وقوم لوط كان فيها تعيين أجل العذاب الذي توعد به النبيئان قومهما؛ ففي قصة ثمود «فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب»، وفي قصة قوم لوط «إنّ موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب»، فكان المقام مقتضياً ترقب السامع لما حل بهم عند ذلك الموعد، فكان الموقع للفاء لتفريع ما حل بهم على الوعيد به. وليس في قصة عاد وقصة مدين تعيين لموعد العذاب، ولكن الوعيد فيهما مجمل من قوله: «ويستخلف ربّي قوماً غيركم»، وقوله: «وارتقبوا إنّي معكم رقيب». ووجه الشبه في قوله: ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود التماثل في سبب عقابهم بالاستئصال، وهو عذاب الصيحة. وهكذا طويت صفحة أخرى من الصفحات السود، حقّ فيها الوعيدُ على مدين كما حق على ثمود.

التوجيه الثالث: **﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملإه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد. يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود. وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾**: في هذا التوجيه لفت النظر إلى بيان ما في اتّباع الطغاة من الخطر؛ فحكمة هذه الآيات الأربع من قصة موسى مع فرعون وملئه هي الإعلام بأنّ عاقبة فرعون وأشراف قومه اللعنة والهلاك ككفار أولئك الأقوام الظالمين. فخاتمة ذلك القصص هذه الإشارة إلى قصة موسى مع فرعون لتسجيل نهاية فرعون وملئه، ونهاية قومه الذين ائتمروا بأمره. وتتضمن هذه الإشارة العابرة إيماآت كثيرة إلى وقائع القصة التي لم تذكر هنا، كما تضم مشهداً من مشاهد القيامة الحية المتحركة، وهذا وذلك إلى تقرير مبدإ رئيسي من مبادئ الإسلام مبدإ التبعة الفردية التي لا يسقطها اتّباع الرؤساء والكبراء. ويبدأ المشهد المعروض هنا بإرسال موسى بالآيات مزوداً بقوة من الله وسلطان إلى فرعون ذي السلطان وكبراء قومه ذوي الخطر والشأن!. ويجمل السياق خطوات القصة كلها ليصل إلى نهايتها فإذا هم يتبعون أمر فرعون ويعصون أمر الله على ما في أمر فرعون من حماقة وجهل وشطط؛ فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد. ولمّا كانوا تبعاً لفرعون في هذا الأمر يمشون

خلفه، ويتبعون خطواته الضالة بلا تدبُّر ولا تفكير، ودون أن يكون لهم رأى، مستهينين بأنفسهم متخلّين عن تكريم الله لهم بالإرادة والعقل وحرية الاتجاه واختيار الطريق، لمّا كانوا كذلك فإنّ السياق يقرر أنّ فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعاً: يقدم قومه يوم القيامة. وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضي ووعداً عن المستقبل إذا المشهد ينقلب، وإذا المستقبل ماضٍ قد وقع، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار وانتهى: فأوردهم النار!.

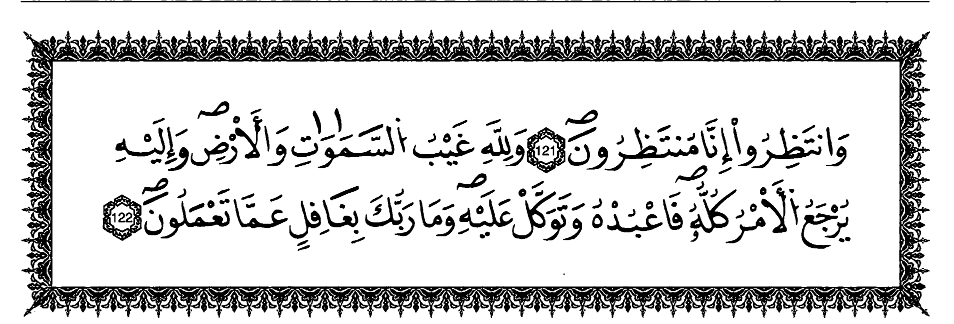
أوردهم كما يورد الراعي قطيع الغنم؛ ألم يكونوا قطيعاً يسير بدون تفكير؟. ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الإنسانية وهي الحرّيّة؛ فأوردهم النار!. ويا بئساه من ورد لا يروى غُلّة ولا يشفي صدى، إنّما هو يشوي البطون والقلوب: وبئس الورد المورود. وإذا ذلك كله: قيادة فرعون لهم، وإيرادهم موردهم؛ إذا ذلك حكاية تروى ويعلق عليها: وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة. ويسخر منها ويتهكم عليها: بئس الرفد المرفود، فهذه النار هي الرفد والعطاء والمنة التي وفد بها فرعون قومه، ألم يعد السحرة عطاء جزيلاً ورفداً مرفوداً، فهاهو ذا رِفْدُه لمن اتبعه: النار، وبئس الورد المورود وبئس الرفد المرفود!.

6 ـ توجيه الكلام إلى
الرسول عليه الصلاة والسلام

النص

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (103) وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (104) * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ (105) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (107) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108) فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (109)

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ
مُرِيبٍ (110) وَإِن كُلًّا لَّمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا
يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ
وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ
ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (113) وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ
إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ
لِلذَّٰكِرِينَ (114) وَاصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (115)
فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ
يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ
وَاتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ (116)
وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117)
وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ
إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (118) * وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ
مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ (119) وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ (120)



البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿**ذلك من أنباء القرى**﴾: اسم الإشارة يعود إلى المذكور كله من القصص المتقدم. والأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر المهم. والقرى: جمع قرية، وكل ما يقر فيه جماعة من الناس يسمى قرية... ﴿**نقصه عليك**﴾: أصل القص تتبع الأثر، ثم استعمل في تناقل الخبر من جيل إلى جيل... ﴿**منها قائم وحصيد**﴾: القائم: الماثل أمام الأعين. والحصيد: الدارس الذي لم يبق له أثر... ﴿**وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم**﴾: الظلم: التعدي على حق الغير، وظلم النفس: التسبب في خسرانها وهلاكها بعمل ما هو ضرٌّ لها... ﴿**فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربّك وما زادوهم غير تتبيب**﴾: فما نفعتهم أصنامهم التي كانوا يرجونها لتدفع عنهم الأهوال، فظهر عجزها عندما حل بعابديها الوبال. والتتبيب: مصدر تبّبه إذا أوقعه في التباب، يقال: التبّ والتّبب والتباب، ومعناه النقص والخسار، وتبب فلان فلانا أهلكه، وتبّت يداه خسرتا... ﴿**وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إنّ أخذه أليم شديد**﴾: ومثل هذا الأخذ الذي مر بيانه أخذ ربّك إذا أخذ القرى في حال تعديها. الألم: الوجع الأليم: الذي يبلغ إيجاعه غاية لا تُطاق. والشديد: البالغ غاية الشدة... ﴿**إنّ في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة**﴾: الإشارة هنا إلى ما حصل من عذاب الدنيا.

والآية: العلامة الدالة يستدل بها المؤمن فيخاف مما هو أشد من عذاب الدنيا، وهو عذاب الآخرة... ﴿**ذلك يوم مجموع له الناس**﴾: الإشارة إلى عذاب الآخرة، وهو يوم يجمع فيه جميع الناس للحساب والثواب والعقاب... ﴿**وذلك يوم مشهود**﴾: المشهود: الذي يشهده الشاهدون فيتحققون من وقوعه... ﴿**وما**

نؤخره إلاّ لأجل معدود﴾: الأجل المعدود: المحدد بمدّة معلومة لا يتأخر ولا يتقدم... **﴿يوم يأتي لا تكلم نفس إلاّ بإذنه﴾**: يوم هنا مستعمل في معنى حين أو وقت أو ساعة. والإتيان: الوقوع والحلول، وعندئذ لا كلام لأي نفس إلاّ من أذن له الرحمن ورضى له قولا... **﴿فمنهم شقي وسعيد﴾**: الشقي: من تلبس بالشقاوة، والشقاوة: سوء الحالة وشرها، وهو ما ينافِرُ طَبْع المتصف بها. والسعيد: ضد الشقي، وهو المتلبس بالسعادة التي هي الأحوال الحسنة الخيرة الملائمة للمتّصف بها، والمعنى: فمنهم يومئذ من هو في عذاب وشدة ومنهم من هو في نعمة ورخاء... **﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق﴾**: الزفير: إخراج الأنفاس بدفع وشدة بسبب ضغط التنفس.

والشهيق: عكسه، وهو اجتلاب الهواء إلى الصدر بشدة لقوة الاحتياج إلى التنفس... **﴿خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلاّ ما شاء ربّك إنّ ربّك فعال لما يريد. وأمّا الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلاّ ما شاء ربّك عطاء غير مجذوذ﴾**: عطاء دائماً لا ينقطع ولا ينفصل، وإنّما هو متجدد متزايد... **﴿فلا تك في مرية ممّا يعبد هؤلاء﴾**: المرية: الشك، ويطلق على المجادلة. وهؤلاء: المشركون المشاهدون للمخاطب... **﴿ما يعبدون إلاّ كما يعبد آباؤهم من قبل وإنّا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾**: التوفية: إعطاء الشيء كاملاً. والنصيب: الحظ... **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾**: كتاب موسى: التوراة، واختلاف أهل التوراة جاء من عدة وجوه: تقرير البعض وإبطال البعض، وإظهار البعض وإخفاء البعض، وفي تأويل البعض على هواهم، وفي إلحاق أشياء بالكتاب على أنّها منه... **﴿ولولا كلمة سبقت من ربّك لقضي بينهم﴾**: كلمة سبقت إرادة من الله تقدمت في كتبه المنزلة على الرسل بإمهال المكذبين إلى أجل مسمى... **﴿وإنّهم لفي شك منه مريب﴾**: إنّ أهل التوراة ـ الكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام ـ في شك موقع في الريب بشكهم في كتابهم وبتكذيبهم برسولهم... **﴿وإنّ كلاً لمَا ليوفينهم ربّك أعمالهم﴾**: إنّ كل المذكورين آنفاً من أهل القرى ومن المشركين المعرّض بهم ومن المختلفين في الكتاب من أتباع موسى للاقون جزاء أعمالهم وافياً... **﴿إنّه بما يعملون خبير. فاستقم كما أمرت ومن تاب معك﴾**: الاستقامة هنا: العمل بكمال الشريعة بحيث لا ينحرف عنها قيد شبر.

ومن تاب: هم المؤمنون؛ لأنّ الإيمان توبة من الشرك... **﴿ولا تطغوا إنّه بما تعملون بصير﴾**: الطغيان: التعاظم والجراءة وقلة الاكتراث بالأوامر، وهو مجاوزة الحد المقدّر والخروج به عن الأمر المتعارف... **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾**: الركون: الميل والموافقة، وأصله في اللغة الركون إلى الجانب القوي. والمراد بالذين ظلموا: الذين تعدوا أوامر الله بالكفر أو بالعصيان. والمس: مستعمل في الإصابة، أي: فتمسكم النار بسبب ركونكم إلى الظالمين... **﴿وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾**: ليس لكم ولي يشفع ولا نصير ينصر... **﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل﴾**: طرف الشيء: منتهاه من أوله أو من آخره، والمراد به هنا: أول النهار وآخره. والنهار لغة: ما بين طلوع الشمس وبين غروبها، واستعمل شرعاً من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

والإقامة: إيقاع العمل على ما يستحقه. والزلف: جمع الزلفة، وهي القربة لفظاً ومعنى، وتطلق على الطائفة من أول الليل. والليل: مقابل النهار لغة وشرعاً... **﴿إنّ الحسنات يذهبن السيئات﴾**: الأعمال الحسنة الموافقة للأمر والنهي تزيل أثر الأعمال السيئة التي خالفت الأمر والنهي الشرعيين: «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك»... **﴿ذلك ذكرى للذاكرين. واصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾**: الإشارة إلى المذكور سابقاً... **﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلاّ قليلا ممن أنجينا منهم﴾**: لولا: حرف تحضيض بمعنى هلا. والقرون: الأمم. والبقية: الفضل والخير. وبقية الناس: سادتهم وأهل الفضل منهم. والفساد: المعاصي واختلال الأحوال... **﴿واتبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾**: أُترفوا أُعطوا الترف، وهو السعة والنعيم فبطروا، يقال أترفته النعمة إذا أبطرته وأفسدته... **﴿وما كان ربّك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾**: وما كان من شأن ربّك وسنته في الاجتماع البشري أن يهلك الأمم بظلم منه لها في حال كون أهلها مصلحينَ في الأرض مجتنبين للفساد والظلم.

وإنّما أهلكهم ويهلكهم لظلمهم وإفسادهم فيها... **﴿ولو شاء ربّك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربّك ولذلك خلقهم وتمت كلمة**

ربّك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾: إنّ الله لم يجعل الناس جماعة واحدة تسير بالغريزة كما يسير الحيوان، ولكن جعلهم مختلفين بمقتضى الاختيار الذي وهبه الله للإنسان، فكان من طبيعة البشر الاختلاف ولذلك خلقهم؛ لتتم كلمة الله في المكلفين من الجن والإنس في ملء جهنم ممّن خالف شرع الله وخالف الرسل، وسعى في الأرض بالفساد والظلم... **﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾**: القص: سرد الخبر. والأنباء: جمع نبإ، وهو الخبر المهم، وتقدم عند قوله ذلك من أنباء القرى نقصه عليك. وتثبيت الفؤاد: تطمين القلب بما يرد من الوحي، وهو الحق الذي جاءه من عند الله، فيه الموعظة وفيه الذكرى للمؤمنين به... **﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنّا عاملون وانتظروا إنّا منتظرون﴾**: تقدم مثل هذا الكلام في قصة شعيب... **﴿ولله غيب السماوات والأرض﴾**: ما غاب عن الناس فيها... **﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾**: وكل شيء راجع إلى الله في نهاية الأمر... **﴿فاعبده وتوكل عليه وما ربّك بغافل عمّا تعملون﴾**: وما دام الأمر كذلك؛ فاعبده وتوكل عليه، فهو غير غافل عما تعملون.

مبحث الإعراب:

﴿ذلك﴾ في محل رفع مبتدأ. **﴿من أنباء﴾** متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. **﴿القرى﴾** مضاف إلى أنباء مجرور بكسرة مقدرة على الألف. **﴿نقصه﴾** فعل مضارع والفاعل نحن، والضمير المتصل بالفعل مفعول، والجملة في محل نصب حال من اسم الإشارة. **﴿عليك﴾** متعلق بنقص. **﴿منها﴾** متعلق بمحذوف خبر مقدم. **﴿قائم﴾** مبتدأ مؤخر[1] **﴿وحصيد﴾** معطوف على قائم، والجملة بيان لجملة نقصه. **﴿وما ظلمناهم﴾** فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف النفي وواو العطف. **﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾** فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف الاستدراك وواو العطف. **﴿فما أغنت﴾** فعل ماضٍ دخل عليه حرف النفي وفاء التفريع. **﴿عنهم﴾** متعلق بأغنت. **﴿آلهتهم﴾** فاعل أغنت. **﴿التي﴾** نعت لآلهتهم. **﴿يدعون﴾** فعل

(1) والأحسن في إعراب هذه الجملة أن يكون منها مبتدأ بمعنى بعضُها. وقائم خبر، أي: بعضُها قائم.

وفاعل صلة التي. ﴿من دون﴾ متعلق بيدعون. ﴿الله﴾ مضاف إلى دون. ﴿من شيء﴾ من صلة، وشيء في محل نصب بأغنت.

﴿لمّا جاء أمر﴾ فعل وفاعل دخلت عليه أداة الشرط. ﴿ربّك﴾ مضاف إلى أمر، وجواب الشرط مقدر مما قبله، أي: فما أغنت عنهم. ﴿وما زادوهم﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف النفي وواو العطف. ﴿غير﴾ منصوب على الاستثناء؛ فغير هنا بمعنى إلاّ. ﴿تتبيب﴾ مضاف إلى غير. ﴿وكذلك﴾ الواو للعطف، والكاف في محل رفع مبتدأ. ﴿أخذ﴾ خبره. ﴿ربّك﴾ مضاف إلى أخذ. ﴿إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ جملة وهي ظالمة في محل نصب حال من القرى، والقرى مفعول أخذ، وجملة أخذ في محل جر بإضافتها إلى إذا الظرفية، والظرف متعلق بأخذ ربك. ﴿إنّ أخذه أليم شديد﴾ الجملة من إنّ واسمها وخبرها بيانية. ﴿إنّ في ذلك﴾ الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر إنّ مقدم. ﴿لآية﴾ اسم إنّ، واللام لتوكيد الخبر. ﴿لمن﴾ متعلق بآية.

﴿خاف﴾ فعل ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة مَنْ. ﴿عذاب﴾ مفعول به. ﴿الآخرة﴾ مضاف إلى عذاب. ﴿ذلك﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿يوم﴾ خبره. ﴿مجموع﴾ نعت ليوم. ﴿له﴾ متعلق بمجموع. ﴿الناس﴾ نائب فاعل باسم المفعول. ﴿وذلك يوم مشهود﴾ مثل ذلك يوم مجموع. ﴿وما نؤخره﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفي وواو العطف، والفاعل نحن، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿إلاّ لأجل﴾ متعلق بنؤخره. ﴿معدود﴾ نعت لأجل. ﴿يوم﴾ منصوب على الظرفية. ﴿يأتي﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على يوم. ﴿لا تكلم نفس﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي، ويوم متعلق بقوله: لا تكلم.

﴿إلاّ بإذنه﴾ متعلق بقوله: لا تكلم. ﴿فمنهم﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم، والفاء للتفريع. ﴿شقي﴾ مبتدأ مؤخر[1]. ﴿وسعيد﴾ معطوف على شقي. ﴿فأمّا الذين﴾ في محل رفع مبتدأ دخلت عليه أمّا التفصيلية وفاء التفريع. ﴿شقوا﴾ فعل

---

(1) والأحسن في إعراب هذه الجملة: الفاء للتفريع. ومن للتبعيض مبتدأ. وشقي خبر. وسعيد معطوف عليه، أي: بعضُهم شقي وبعضهم سعيد.

وفاعل صلة الذين. ﴿**ففي النار**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**لهم فيها**﴾ متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿**زفير**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**وشهيق**﴾ معطوف على زفير. ﴿**خالدين**﴾ حال من الضمير المجرور. ﴿**فيها**﴾ متعلق بخالدين. ﴿**ما**﴾ مصدرية ظرفية. ﴿**دامت السماوات**﴾ فعل وفاعل، وما وما دخلت عليه في تأويل مصدر مقدر متعلق بخالدين، والتقدير: خالدين فيها مدة دوام السماوات. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات. ﴿**إلاّ ما شاء ربّك**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه ما الموصولة وحرف الاستثناء.

أي: إلاّ المدة التي شاءها ربّك. ﴿**إنّ ربّك فعّال**﴾ إنّ واسمها وخبرها. ﴿**وأمّا الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلاّ ما شاء ربّك**﴾ هذه الجمل مثل الجمل التي قبلها. ﴿**عطاء**﴾ مفعول مطلق. ﴿**غير**﴾ نعت لعطاء. ﴿**مجذوذ**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**فلا تك**﴾ فعل مضارع ناقص مجزوم بلا الناهية؛ حذف الحرف المجزوم تخفيفاً، واسم تكن ضمير المتكلم، والفاء للتفريع. ﴿**في مرية**﴾ متعلق بمحذوف خبر تكن. ﴿**ممّا**﴾ متعلق بمرية. ﴿**يعبد**﴾ فعل مضارع. ﴿**هؤلاء**﴾ فاعل يعبد مبني على الكسر في محل رفع، وجملة يعبد هؤلاء صلة ما. ﴿**ما يعبدون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ.

﴿**كما يعبد**﴾ الكاف في محل نصب مفعول يعبدون، وما في محل جر بالإضافة إلى الكاف. ﴿**آباؤهم**﴾ فاعل يعبد، وجملة يعبد آباؤهم صلة ما. ﴿**من قبل**﴾ متعلق بيعبد. ﴿**وإنّا**﴾ إنّ واسمها دخل عليها واو العطف. ﴿**لموفوهم**﴾ اللام لتأكيد الخبر، وواو الجماعة فاعل باسم الفاعل، وضمير الغائبين مفعول أول. ﴿**نصيبهم**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**غير**﴾ منصوب على الحال من نصيب. ﴿**منقوص**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**ولقد آتينا موسى**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف التحقيق ولام القسم وواو العطف. ﴿**الكتاب**﴾ مفعول ثان لآتينا. ﴿**فاختلف**﴾ فعل ماضٍ مبني للمجهول دخل عليه فاء التعقيب. ﴿**فيه**﴾ نائب فاعل اختلف. ﴿**ولولا كلمة**﴾ مبتدأ دخل عليه حرف الشرط، وخبره محذوف. ﴿**سبقت**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على كلمة، والجملة في محل رفع نعت لكلمة. ﴿**من ربّك**﴾ متعلق بسبقت.

﴿**لقضي بينهم**﴾ جواب الشرط. ﴿**وإنّهم**﴾ إنّ واسمها دخل عليها حرف العطف. ﴿**لفي شك**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**منه**﴾ متعلق بشك. ﴿**مريب**﴾ نعت له. ﴿**وإنْ**﴾ مخففة من الثقيلة. ﴿**كلاًّ**﴾ اسم إن. ﴿**لما**﴾ اللام لتأكيد الخبر، وما صلة. ﴿**ليوفينهم**﴾ اللام لام القسم، والفعل مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والضمير المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿**ربّك**﴾ فاعل. ﴿**أعمالهم**﴾ مفعول ثان، وجملة ليوفينهم في محل رفع خبر إنّ. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**بما**﴾ متعلق بالخبر بعدُ. ﴿**يعملون**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**خبير**﴾ خبرُ إنّ، وجملة إنّه بما يعملون خبير تعليل. ﴿**فاستقم**﴾ فعل أمر دخل عليه فاء التعقيب. ﴿**كما**﴾ الكاف في محل نصب نعت لمصدر مقدر، وما في محل جر بالكاف.

﴿**أمرت**﴾ فعل ماضٍ مبني للمجهول، وتاء المخاطب نائب الفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**ومن**﴾ معطوف على الضمير المرفوع. ﴿**تاب**﴾ فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة مَنْ. ﴿**معك**﴾ متعلق بمحذوف حال من الفاعل. ﴿**ولا تطغوا**﴾ مجزوم بلا الناهية، والواو للعطف. ﴿**إنّه بما تعملون بصير**﴾ مثل إنّه بما يعملون خبير. ﴿**ولا تركنوا**﴾ مثل ولا تطغوا. ﴿**إلى الذين**﴾ متعلق بقوله: ولا تركنوا. ﴿**ظلموا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**فتمسكم**﴾ الفاء للسببية، والفعل منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**النارُ**﴾ فاعل. ﴿**وما لكم**﴾ الواو للعطف، وما نافية، لكم متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**من دون**﴾ متعلق بالخبر. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى دون. ﴿**من أولياء**﴾ مجرور بمن الزائدة ومحله الرفع مبتدأ مؤخر. ﴿**ثم**﴾ حرف عطف.

﴿**لا تنصرون**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول دخل عليه حرف النفي، وواو الجماعة نائب الفاعل. ﴿**وأقم**﴾ فعل أمر دخل عليه واو العطف. ﴿**الصلاة**﴾ مفعول به. ﴿**طرفي**﴾ ظرف منصوب بالياء. ﴿**النهار**﴾ مضاف إلى طرفي. ﴿**وزلفاً**﴾ معطوف على طرفي. ﴿**من الليل**﴾ متعلق به. ﴿**إنّ الحسنات**﴾ إنّ واسمها. ﴿**يذهبن السيآت**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ الحسنات تعليل. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**ذكرى**﴾ خبر مرفوع بضمة مقدرة على الألف. ﴿**للذاكرين**﴾ متعلق بذكرى. ﴿**واصبر**﴾ معطوف على أقم. ﴿**فإنّ الله**﴾ إنّ واسمها، والفاء للتفريع. ﴿**لا يضيع**﴾ فعل مضارع، وفاعله

ضمير يعود على الله، ولا نافية، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**أجر**﴾ مفعول به. ﴿**المحسنين**﴾ مضاف إلى أجر، والجملة تعليل. ﴿**فلولا**﴾ الفاء للتفريع، ولولا حرف تحضيض بمعنى هلاّ. ﴿**كان**﴾ فعل ماضٍ ناقص. ﴿**من القرون**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان مقدم. ﴿**من قبلكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لقرون. ﴿**أولو**﴾ اسم كان مؤخر. ﴿**بقية**﴾ مضاف إلى أولو.

﴿**ينهون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عن الفساد**﴾ متعلق بينهون. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بمحذوف نعت للفساد، وجملة ينهون عن الفساد في محل نصب حال من أولو بقية. ﴿**إلاّ قليلاً**﴾ منصوب بإلاّ على الاستثناء؛ لأنّه استثناء منقطع. ﴿**ممّن**﴾ متعلق بقليلاً. ﴿**أنجينا**﴾ فعل وفاعل. والجملة صلة من. ﴿**منهم**﴾ متعلق بأنجينا. ﴿**واتّبع الذين**﴾ فعل وفاعل دخل عليه واو العطف. ﴿**ظلموا**﴾ صلة الذين. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول اتبع. ﴿**أترفوا**﴾ فعل ماضٍ مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل. ﴿**فيه**﴾ متعلق بأترفوا. ﴿**وكانوا مجرمين**﴾ الجملة من كان واسمها وخبرها معطوفة على واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه. ﴿**وما كان ربّك**﴾ كان واسمها دخل عليها حرف النفي وواو العطف. ﴿**ليهلك**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود، والفاعل ضمير يعود على ربّك. ﴿**القرى**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على الألف. ﴿**بظلم**﴾ متعلق بمحذوف حال من الضمير المرفوع.

﴿**وأهلها مصلحون**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر في محل نصب حال من القرى. ﴿**ولو شاء ربّك**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف الشرط وواو العطف. ﴿**لجعل**﴾ فعل ماضٍ دخل عليه لام الجواب، والفاعل ضمير يعود على ربّك. ﴿**الناس**﴾ مفعول أوّل. ﴿**أمة**﴾ مفعول ثان. ﴿**واحدة**﴾ نعت لأمة. ﴿**ولا يزالون مختلفين**﴾ الجملة من يزال واسمها وخبرها معطوفة على قوله: ولو شاء ربّك. ﴿**إلا من رحم ربّك**﴾ فعل وفاعل، ومَن في محل نصب مفعول رحم، وإلا: ملغاة وجملة رحم ربّك صلة مَنْ. ﴿**ولذلك**﴾ متعلق بما بعده، والواو للعطف. ﴿**خلقهم**﴾ فعل ماض، والضمير مفعول به، والفاعل ضمير تقديره هو يعود على الله. ﴿**وتمت كلمة**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف العطف. ﴿**ربّك**﴾ مضاف إلى كلمة. ﴿**لأملأن**﴾ فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، واللام للقسم، والفاعل ضمير المتكلم.

﴿**جهنم**﴾ مفعول به. ﴿**من الجنة**﴾ متعلق بقوله: لأملأن. ﴿**والناس**﴾ معطوف على الجنة. ﴿**أجمعين**﴾ توكيد مجرور بالياء. ﴿**وكلاً**﴾ مفعول مقدم، والواو للعطف. ﴿**نقص**﴾ فعل مضارع، والفاعل نحن. ﴿**عليك من أنباء**﴾ متعلقان بنقص. ﴿**الرسل**﴾ مضاف إلى أنباء. ﴿**ما**﴾ في محل نصب بدلاً من كُلاً. ﴿**نثبت**﴾ فعل مضارع، والفاعل نحن، والجملة صلة ما. ﴿**به**﴾ متعلق بنثبت. ﴿**فؤادك**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وجاءك**﴾ فعل ماضٍ، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**في هذه**﴾ متعلق بجاء. ﴿**الحقُّ**﴾ فاعل جاء. ﴿**وموعظة**﴾ معطوف على الحق. ﴿**وذكرى**﴾ كذلك. ﴿**للمؤمنين**﴾ متعلق بذكرى. ﴿**وقل**﴾ معطوف على جاءك. ﴿**للذين**﴾ متعلق بقل.

﴿**لا يؤمنون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي، والجملة صلة الذين. ﴿**اعملوا**﴾ في محل نصب مقول القول. ﴿**على مكانتكم**﴾ متعلق باعملوا. ﴿**إنّا عاملون**﴾ إنّ واسمها وخبرها. ﴿**وانتظروا إنّا منتظرون**﴾ معطوف على قوله: اعملوا على مكانتكم وهي مثلها في الإعراب. ﴿**ولله**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**غيب**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**السماوات**﴾ مضاف إلى غيب. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات. ﴿**وإليه**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**يُرجع**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿**الأمر**﴾ نائب الفاعل. ﴿**كلُّه**﴾ توكيد. ﴿**فاعبده**﴾ فعل أمر مرتب على ما قبله، ﴿**وتوكل**﴾ معطوف عليه. ﴿**عليه**﴾ متعلق بتوكل. ﴿**وما ربّك**﴾ ما واسمها دخل عليها حرف العطف. ﴿**بغافل**﴾ جُرّ لفظاً بحرف الجر الزائد ونصب محلاً خبر ما. ﴿**عمّا**﴾ متعلق بغافل. ﴿**تعملون**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد**﴾: استئناف للتنويه بشأن الأنباء التي مر ذكرها، واسم الإشارة إلى المذكور كله من القصص؛ من قصة نوح وما بعدها. وعبر بالمضارع في قوله: نقصه مع أنّ القصص مضَى؛ لاستحضار حالة هذا القصص البليغ. وقائم صفة لموصوف محذوف دل عليه عطف وحصيد، والمعنى: منها زرع قائم وزرع حصيد، وهذا تشبيه بليغ، والمقصود من هذه الجملة الاعتبار. وهذه التوجيهات تشتمل على تعليقات وتعقيبات وتفريعات متنوعة مبنية على ما سبق في سياق السورة من قصص ومن غيره، ولما كان القصص في

هذه السورة يؤلف معظمها جاءت التعقيبات والتعليقات على القصص.

والتعقيب الأول في هذه التوجيهات تعقيب مباشر على القصص، يليه تعقيب آخر مستمد من عاقبة القرى ومن مشهد القيامة؛ لتقرير أنّ المشركين الذين يواجههم محمد شأنهم شأن من قبلهم في الحالين؛ وإذا كان عذاب الاستئصال لا يقع عليهم في الأرض، فذلك لكلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى، كما أجل العذاب لقوم موسى مع اختلافهم فيما جاءهم من كتاب، ولكن هؤلاء وهؤلاء سيوفون أعمالهم على وجه التأكيد. فاستقم أيّها الرسول على طريقتك أنت ومن تاب معك. ثم عودة إلى القرون الخالية التي لم يكن فيها إلاّ قليل من الذين ينهون عن الفساد في الأرض، وفي النهاية يسجل السياق غرضاً من أغراض هذا القصص.

وجملة... ﴿**وما ظلمناهم**﴾: عطفت بالواو؛ لأنّ نفي الظلم كان قبل الأخذ ومعه وبعده... ﴿**ولكن ظلموا أنفسهم**﴾: استدراك على نفي الظلم عن الله، فهم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك... ﴿**فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء**﴾: مرتب على ما قبله؛ فهم لما عبدوها كانوا يعبدونها للخلاص من طوارق الحدثان، ولتكون لهم شفعاء عند الله، فلما جاء أمرهم بضد ذلك كان ذلك الضد مضاداً لتأميلهم وتقديرهم. والغرض من هذا التفريع التعريض بتحذير المشركين من العرب من الاعتماد على نفع الأصنام.

وقوله... ﴿**لما جاء أمر ربّك**﴾: دليل على عدم نفع الأصنام، وليس قيداً في عدم النفع. وجملة... ﴿**وما زادوهم غير تتبيب**﴾: علاوة وارتقاء على عدم النفع. والذين زادوهم لم تكن الأصنام، فهي جماد لم تزد ولم تنقص، وإنّما هم سدنتها القائمون على رعايتها والدعاية لها بالنفع والضر؛ فالتعبير بضمير العقلاء له دخل كبير في تنبيه السامع الخبير، وقد كانت خرافات الأصنام ومناقبها الباطلة، مغرية لهم بارتكاب الفواحش والضلال وانحطاط الأخلاق وفساد التفكير!.. ﴿**وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إنّ أخذه أليم شديد**﴾: هذا تذييل مقرر لمضمون ما قبله، والمقصود منه التعريض بتهديد مشركي العرب من أهل مكة وغيرها. وجملة إنّ أخذه أليم شديد في موضع البيان لمضمون وكذلك أخذ ربّك، وفيه إشارة إلى وجه الشبه... ﴿**إنّ في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة**

ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلاّ لأجل معدود﴾: بيان للتعريض وتصريح بعد تلويح. والإشارة إلى الأخذ المتقدم، وفي هذا تخلص إلى موعظة المسلمين والتعريض بمدحهم؛ بأنّ مثلهم من ينتفع بالآخرة ويعتبر بالعبر. وجملة ذلك يوم مجموع له الناس معترضة للتنويه بشأن هذا اليوم. والإشارة بذلك إلى الآخرة؛ لأنّ ما صدقها يوم القيامة.

واللام في ﴿**له**﴾ لام العلة. ومجيء الخبر جملة اسمية يدل على معنى الثبات بتحقق وقوعه. ووصل وذلك يوم مشهود بالعطف على ذلك يوم مجموع له الناس لزيادة التهويل لليوم بأنّه يُشهَد. وطوى ذكر الفاعل؛ إذ المراد يشهده الشاهدون. وجملة وما نؤخره إلاّ لأجل معدود معترضة بين جملة ذلك يوم مجموع له الناس وبين جملة يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه، والمقصود الرد على المنكرين للبعث مستدلين بتأخير وقوعه؛ فهو قريب لاشك في وقوعه، لأنّ وقته محدد معدود. . . ﴿**يوم يأتي لا تكلم نفس إلاّ بإذنه**﴾: هذه الجملة تفصيل لمدلول الجملة السابقة؛ فالمقصد الأول من هذه الجملة هو قوله: ﴿**فمنهم شقي وسعيد**﴾، وأما ما قبله فتمهيد له أفصح عن عظمة ذلك اليوم، فالتقدير: لا تكلم نفس حين يحل اليوم المشهود. والضمير في بإذنه عائد إلى الله تعالى المفهوم من المقام، والمقصود من هذا إبطال اعتقاد أهل الجاهلية أن الأصنام لها حق الشفاعة عند الله.

ونفس يعم جميع النفوس لوقوعه في سياق النفي. . . ﴿**فأمّا الذين شقوا ففي النار**﴾: تفصيل لقوله: فمنهم شقي وسعيد، جاء على اللف والنشر المرتب. وقدم الشقي لما في السياق من التحذير والإنذار. . . ﴿**لهم فيها زفير وشهيق**﴾: بيان للحال التي فيها أهل الشقاء. وخُصّ بالذكر من أحوالهم في جهنم الزفير والشهيق تنفيراً من أسباب المصير إلى النار؛ لما في ذكر هاتين الحالتين من التشويه بهم وذلك أخوف لهم من الألم. ومعنى. . . ﴿**خالدين فيها مادامت السماوات والأرض**﴾: التأبيد؛ لأنّه جرى مجرى المثل. . . ﴿**إلاّ ما شاء ربك**﴾: الاستثناء هنا علّق الخلودَ بالمشيئة المطلقة، وهي الإرادة الاختيارية، فلا شيء يقع دون إرادة واختيار وحكمة. . . ﴿**إنّ ربّك فعّال لما يريد**﴾: دليل على المشيئة المطلقة! ..﴿**وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلاّ ما شاء ربّك**﴾: الكلام هنا مثل الكلام السابق.

في قسيم هذا. . . ﴿**عطاء غير مجذوذ**﴾: وعد كريم وتطمين عظيم رفع به احتمال وقوع المشيئة، وهو زيادة في التكريم. . . ﴿**فلا تك في مرية ممّا يعبد هؤلاء**﴾: تفريع على ما تقدم من أخذ القرى بالاستئصال، مع إنذار المشركين به دون وقوعه بالفعل؛ فجاء النهي مفرعاً عليه. وهؤلاء إشارة إلى الحاضرين من أهل مكة في زمن النزول. والخطاب موجه إلى الرسول تطمينٌ له وتهديدٌ لهم حيث كانوا مشابهين لمن سبقهم من الآباء والأجداد في عبادتهم الأصنام واتخاذهم الأنداد من أصحاب مدين وقوم لوط وهود وعاد. . . ﴿**ما يعبدون إلاّ كما يعبد آباؤهم من قبل وإنّا لموفوهم نصيبهم غير منقوص**﴾: غير أنّ العذاب يختلف باختلاف أسبابه وملابساته؛ فعذاب قريش جاء من نوع غير نوع العذاب السابق، فهزموا وأسروا وقتلوا بأيدي المؤمنين «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين»، ومثل هؤلاء العرب بنوا اسرائيل عندما جاءهم بالتوراة فاختلفوا فيه وتفرقوا شيعاً وأحزاباً فسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب. . . ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربّك لقضي بينهم وإنّهم لفي شك منه مريب وإنْ كلاً لما ليوفينّهم ربّك أعمالهم إنّه بما يعملون خبير**﴾: فالوعيد هنا مشترك بين أهل الكتابين: كتاب موسى، وكتاب محمد؛ فكلهم دخلوا تحت الوعيد إن بقوا على الاختلاف والشك المريب. وجاءت خاتمة الكلام مقررة بالترهيب: إنّه بما يعملون خبير! ..﴿**فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنّه بما تعملون بصير**﴾: مرتب على ما قبله، وهو تعقيب بديع!؛ فقد وقع الاختلاف من أهل التوراة فلا بد أن يستقيم أهل القرآن على ما جاء في القرآن.

ووجه الأمر إلى النبيء أولاً؛ لأنّه المتلقي للأوامر الشرعية ابتداءً، فهذا تنويه له بمقام رسالته، ثم أعلم بخطاب أمته بذلك بقوله: ومن تاب معك، وقد جمع قوله: فاستقم كما أمرت أصول الصلاح الديني وفروعه. ثم وجه النهي إلى الأمة محذراً لهم من الطغيان بقوله: ولا تطغوا، وعلله بقوله: إنّه بما تعملون بصير. . . ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون**﴾: وصل الكلام بما قبله بالعطف؛ فبعد أن نهاهم عن الطغيان نهاهم عن التقارب من الظالمين؛ فالركون مجاز في الموافقة، والآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه. . . ﴿**وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل**﴾: متصل

بما قبله بالعطف، فقد ارتبطت النواهي والأوامر بعضها ببعض؛ وجاءت تارة للمفرد وتارة أخرى للجماعة حسب القرائن والأحوال، فهنا جاء الأمر بإقامة الصلاة في وقتين كما كان مفروضاً قبل فرض الصلوات الخمس، كما كان مفروضاً قيام الليل على المسلمين.

وجملة... **﴿إنّ الحسنات يذهبن السيآت﴾**: مسوقة مساق التعليل للأمر بإقامة الصلاة. وتأكيد الجملة بإنّ للاهتمام وتأكيد الخبر... **﴿ذلك ذكرى للذاكرين﴾**. **﴿واصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾**: ذلك الأمر وهو لأقرب مذكور الجامع لكل مأمور؛ فالصلاة ذكرى للذاكرين، وهي لا تقام إلاّ لوجود الذكر القلبي واللساني ومعه شدة العزم وقوة الصبر... **﴿واصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾**: فقد تسلسلت الأوامر والنواهى حتى وصلت إلى الغاية المقصودة من خلاصة الإسلام الناتجة من إقامة الصلاة والصبر عليها على الدوام! ..**﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلاّ قليلاً ممن أنجينا منهم﴾**: الفاء للتفريع، ولولا للتحضيض، والآية تفريع على الأمر بالاستقامة والنهي عن الطغيان وعن الركون إلى الذين ظلموا.

وهذا الأسلوب الذي في الآية من أبدع أساليب الإعجاز... **﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾**: جملة معطوفة على ما أفاده الاستثناء من وجود قليل ينهون عن الفساد، فهو تصريح بمفهوم الاستثناء وتبيين لإجماله، والمعنى: وأكثرهم لم ينهوا عن الفساد، ولم ينتهوا هم ولا قومهم، واتبعوا ما أترفوا فيه... **﴿وكانوا مجرمين﴾**: عطف على قوله: واتبع، فهو بيان للسبب الذي من أجله هلكوا؛ ففي الكلام إيجاز حذف آخره، والتقدير: فحق عليهم هلاك المجرمين؛ ولذلك تهيأ المقام لقوله بعده... **﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾**: وصيغة وما كان ربّك ليهلك تدل على قوة انتفاء الفعل.

والمراد بالقرى أهلها على طريقة المجاز المرسل، وجملة وأهلها مصلحون حال من القرى. والمصلحون مقابل المفسدين المترفين المجرمين... **﴿ولو شاء ربّك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربّك ولذلك خلقهم﴾**: عطف هذا الجملة على ما قبلها ليفرق بين سبب إهلاك القرى وبين نفي الظلم عن الله في إهلاكها؛ فالاختلاف واقع بسبب التكوين، والظلم الواقع من

الناس بسبب التكليف، وهو معنى قوله: ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربّك ولذلك خلقهم، فمن رحمه أفهمه سر التكليف. ثم أعقب ذلك بقوله... ﴿**وتمت كلمة ربّك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**﴾: الكلمة الشريعة التي جاءت بتكليف الجن والإنس بالاعتراف بالله وبالعمل على مقتضى كلمته التي بينت الرشد من الغي، وبدون إكراه على نوع معين من أي شيء... ﴿**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك**﴾: وصل الكلام بما قبله بالعطف، وهو عطف الإخبار على الأخبار، وهو تقرير بخلاصة ما سبق من أنباء الرسل وأنباء القرى.

وتقديم كلاّ على نقص العامل فيه للاهتمام، ولِمَا فيه من الإبهام؛ ليأتي بيانه بعده فيكون أرسخ في ذهن السامع. وتنوين كلاًّ تنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف المبيّن بقوله: من أنباء الرسل. وما نثبت به فؤادك بدل من كلاً، والتثبيت هنا مستعار للتقرير المطمْئِن للقلب بحصول اليقين من النصر والتمكين... ﴿**وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين**﴾: موصول بالعطف على قوله: نقص عليك من أنباء الرسل؛ فهذه الأنباء التي جاء بها هذا القرآن فيها الحق الثابت والموعظة التي تجعل القلب يطمئنُّ، والذكرى التي تجعل صاحبها يستفيق ويلين. وتنكير موعظة وذكرى للتعظيم... ﴿**وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنّا عاملون وانتظروا إنّا منتظرون**﴾: موصولة بما قبلها بالعطف على قوله: وجاءك في هذه الحق؛ فهي لما اشتملت على أنّ في هذه الموعظة ذكرى للمؤمنين أمر بأن يخاطب الذين لا يؤمنون بما فيها خطاب الآيس من انتفاعهم بالذكرى الذين لا يُعْبَأ بإعراضهم ولا يصدّه عن دعوته إلى الحق تألبهم على باطلهم ومقاومتهم الحق.

وقوله: ﴿**اعملوا على مكانتكم إنّا عاملون**﴾ هو نظير ما حكى عن شعيب في هذه السورة، وضمائر إنّا عاملون، وإنّا منتظرون للنبيء والمؤمنين الذين معه، وهي شهادة بصدق إيمان الصحابة. وقوله: وانتظروا إنّا منتظرون تهديد ووعيد، كما يقال في الوعيد: سوف ترى! ..﴿**ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله**﴾: هذا الكلام جامع، وهو تذييل للسورة مؤذن بختامها، فهو من براعة المقطع. وتقديم المجرورين في قوله: ولله غيب، وإليه يرجع لإفادة الاختصاص. والتعريف في الأمر تعريف الجنس، وتأكيده بكله للتنصيص على العموم...

﴿فاعبده وتوكل عليه﴾: مفرع على ما قبله؛ لأنّ الله هو الحقيق بأن يُعبد وأن يتوكل عليه في كل أمر، وهو تعريض بالتخطئة للذين عبدوا غير الله وتوكلوا على شفاعة الآلهة ونفعها. وجملة. . . **﴿وما ربّك بغافل عما تعملون﴾**: فذلكة جامعة، فهو تذييل لما تقدم. وبهذا الكلام الجامع يرتبط السياق بأول السورة؛ فيرد العجز إلى الصدر، وهو من بلاغة الأسلوب؛ فهو إحكام بين المبدإ والمنتهى بخلاصة المطلوب!.

خلاصة المعنى العام وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد﴾: الخطاب موجه إلى الرسول ﷺ؛ لأنّه هو المبلِّغُ بهذه الأنباء أولاً، ثم بلغها إلى الناس بعد ذلك، ولأنّ هذه الأنباء كانت من أقوى الأدلة على صحة دعوته وحقيقة رسالته؛ فما كان لمحمد ﷺ بما وقع لأهل القرى من علم، إنّما هو الوحي الذي جاءه من ربّه يعلمه بهذا النبإ العظيم. منها قائم لا تزال آثاره شاهدة ماثلة أمام العين، كآثار الفراعنة في مصر وآثار غيرهم في ديار الشام والعراق واليمن وغيرها مما اكتشف فصار عبرة للناس في الماضي والحاضر. ومنها حصيد مدروس لا أثر له في المشاهد المحسوس، مثل قوم نوح وقوم لوط وغيرهم ممن ذهبوا مع الأمس الدابر! ..**﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾**: فعطلوا مداركهم، وتولوا عن الهدى، وكذّبوا بالآيات، واستهزأوا بالوعيد. . . **﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربّك﴾**: فقد افتتحت السورة بإنذار الذين يتخذون من دون الله آلهة.

وتكرر الإنذار مع كل رسول، وقيل لهم: إنّ هذه الآلهة المفتراة لا تعصمهم من الله، فهاهي ذي العاقبة تحقق النذر، فلا تغني عنهم آلهتهم شيئاً، ولا تدفع عنهم العذاب لمّا جاء أمر الله. . . **﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾**: إنّ هذه الآلهة المفتراة جماد لا تعي ولا تحس بشيء، ولكن عابدوها هم الذين جعلوا لها هذا الشأن، واختلقوا لها العلم والقدرة بالبهتان، فاغتر الضعيف لضعفه، واغتر بها المنتفع من أجلها لطمعه وطيشه، فما زاد بعضهم بعضاً إلاّ التخسير والتدمير. . . **﴿وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إنّ أخذه أليم شديد﴾**: كذلك الذي قصصناه عليك. وبمثل هذا الدمار والنكال يأخذ ربّك القرى حين يأخذها وهي

ظالمة؛ ظالمة للحق، وظالمة لنفسها بالشرك والفساد في الأرض، والإعراض عن دعوة التوحيد والصلاح، وقد ساد فيها الظلم وسيطر الظالمون، وتبيّن أنّ دعاة الحق الصالحين قلة منعزلة لا تأثير لها في حياة الجماعة الظالمة السادرة في الضلال. . . فذلك الأخذ الأليم الشديد في الدنيا علامة على عذاب الآخرة، يراها من يخافون ذلك العذاب الموعود. . . **﴿إنّ في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلاّ لأجل معدود﴾**:

فهنا يَعْبُر السياق بالقلب البشري من مشاهد الأرض إلى مشاهد القيامة، ثم يأخذ في وصف تلك المشاهد فيرتسم مشهدُ التجميع يشمل الخلق جميعاً، على غير إرادة منهم. إنّما هو سياق الجميع سوقاً إلى ذلك المعرض المشهود؛ فالكل يحضر والكل ينتظر ما سوف يكون. . . **﴿يوم يأتي لا تكلم نفس إلاّ بإذنه﴾**: فالصمت الهائل يغشى الجميع، والرهبة الشاملة تخيم على المشهد ومن فيه، والكلام بإذن، لا يجرؤ أحد على طلبه، ولكن يؤذن لمن يشاء الله، فيخرج من صمته بإذنه. ثم تبدأ عملية الفرز والتوزيع. . . **﴿فمنهم شقي وسعيد﴾**: ومن خلال التعبير نشهد الذين شقوا؛ نشهدهم في النار مكروبي الأنفس. . . **﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾**: من الحر والكتمة والضيق. ونشهد الذين سعدوا، نشهدهم في الجنة، لهم فيها عطاء دائم غير مقطوع ولا ممنوع؛ هؤلاء وأولئك خالدون حيث هم مادامت السماوات والأرض، وهو تعبير يلقي في الذهن صفة الدوام والاستمرار. وللتعبيرات ظلال، وظل هذا التعبير هنا هو المقصود.

وقد عَلّقَ السياقُ هذا الاستمرار بمشيئة الله في كلتا الحالتين، وكل قرار وكل سُنّة معلقة بمشيئة الله في النهاية؛ فمشيئة الله هي التي اقتضت السنة وليست مقيدة بها ولا محصورة فيها. إنّما هي طليقة تُبدَّلُ هذه السنّةُ حين يشاء الله. . . **﴿إنّ ربّك فعال لما يريد﴾**: وزاد السياق في حالة الذين سعدوا ما يطمئنهم إلى أن مشيئة الله اقتضت أن يكون عطاؤه لهم غير مقطوع، وهو مُطْلَقُ فَرْضٍ يُذْكر لتقرير حرية المشيئة بعدما يوهم التقييد.

التوجيه الثاني: **﴿فلا تك في مرية ممّا يعبد هؤلاء ما يعبدون إلاّ كما يعبد آباؤهم من قبل وإنّا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربّك لقضي بينهم وإنّهم لفي شك منه مريب﴾**:

بعد هذا الاستطراد إلى المصير في الآخرة بمناسبة عرض مصائر الأقوام في الدنيا، والمشابه بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وتصوير ما ينتظر المكذبين هنا ثم هناك، يعود السياق ببعض ما يستفاد من القصص ومن المشاهد إلى الرسول تسرية وتثبيتاً؛ وإلى قومه بياناً وتحذيراً، فليس هناك شك في أنّ القوم يعبدون ما كان آباؤهم يعبدون ـ شأنهم شأن أصحاب ذلك القصص، وأصحاب تلك المصائر ـ، ونصيبهم الذي يستحقونه سيُوفونه، فإن كان قد أخر عنهم فقد أخر عذاب الاستئصال عن قوم موسى ـ بعد اختلافهم في دينهم ـ لأمر الله قد شاء إنظارَهم. ولكن قوم موسى وقوم محمد على السواء سيوفون ما يستحقون بعد الأجل وفي الموعد المحدد؛ فالخطاب للرسول والتحذير لقومه. وهذا الأسلوب أفعلُ في النفس أحياناً؛ لأنّه يوحي بأنها قضية موضوعية بيّنها الله لرسوله، وليست جدالاً لأحد ولا خطاباً للمتلبسين بها، إهمالاً لهم وقلة انشغال بهم!.

وعندئذ يكون لتلك الحقيقة الخالصة المجردة أثرها في اهتمامهم أكثر مما لو خوطبوا بها خطاباً مباشراً، فلا تك في مرية ممّا يعبد هؤلاء ما يعبدون إلاّ كما يعبد آباؤهم من قبل. ومصيرهم إذنْ كمصيرهم؛ العذاب، ولكنه يلقيه كذلك في التعبير تمشياً مع الأسلوب: وإنّا لموفوهم نصيبهم غير منقوص. ومعروف نصيبهم هذا من نصيب القوم قبلهم، وقد رأينا منه نماذج ومشاهد، وقد لا يصيبهم عذاب الاستئصال في الدنيا، كما لم يصب قوم موسى: ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه، وتفرقت كلمتهم واعتقاداتهم وعباداتهم، ولكن كلمة سبقت من الله أن يكون حسابهم الكامل يوم القيامة: ولولا كلِمة سبقت من ربّك لقضي بينهم، ولحكمة ما سبقت هذه الكلمة، ولم يحل عذاب الاستئصال بهم؛ لأنّ لهم كتاباً، والذين لهم كتاب من أتباع الرسل كلهم مؤجلون إلى يوم القيامة؛ لأنّ الكتاب دليل هداية باق، تستطيع الأجيال أن تتدبّره كالجيل الذي أنزل فيه. والأمر ليس كذلك في الخوارق المادية التي لا يشهدها إلا جيل؛ فإمّا أن يؤمن بها أو لا يؤمن، فيأخذه العذاب، والتوراة والإنجيل كتابان متكاملان يظلان معروضين للأجيال حتى يجيء الكتاب الأخير مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل. وإنهم: قوم موسى لفي شك منه مريب، من كتاب موسى؛ لأنّه لم يكتب إلاّ بعد أجيال، وتفرقت فيه الروايات واضطربت، فلا يقين فيه لمتبعيه. وإن كان العذاب قد أجل فإنّ الكل سيوفون أعمالهم، سوفيهم بها العليم الخبير ولن تضيع. . . ﴿**وإن كلاّ لما ليوفينهم**

ربّك أعمالهم إنّه بما يعملون خبير﴾: وفي التعبير توكيدات منوّعة حتى لا يشك أحد في الجزاء والوفاء من جرّاء الإنظار والتأجيل.

ذلك البيان مع هذا التوكيد يلقي في النفس أنّ سنة الله ماضية على استقامتها في خلقه وفي دينه وفي وعده وفي وعيده. وإذنْ فليستقيم المؤمنون بدين الله والداعون له على طريقتهم ـ كما أمروا ـ لا يَغْلُون في الدين ولا يزيدون فيه، ولا يركنون إلى الظالمين مهما تكن قوتهم، ويؤدون عباداته في أوقاتها، وليصبروا حتى تتحقق سنة الله عندما يريد. . . **﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنّه بما تعملون بصير. ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون. وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إنّ الحسنات يذهبن السيآت ذلك ذكرى للذاكرين﴾**.

﴿واصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾: هذا الأمر موجه للرسول ﷺ ومن تاب معه. والاستقامة الاعتدال والمضي على النهج دون انحراف، وهو في حاجة إلى اليقظة الدائمة والتدبر الدائم والتحري الدائم لحدود الطريق، وضبط الانفعالات البشرية التي تميل بالاتجاه قليلاً أو كثيراً، ومن ثم فهي شغل دائم في كل حركة من حركات الحياة. وإنّه لمّا يستحق الانتباه هنا أنّ النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة لم يكن نهياً عن القصور والتقصير؛ إنّما كان نهياً عن الطغيان والمجاوزة، وذلك أنّ الأمر بالاستقامة وما يتبعه في الضمير من يقظة وتحرج قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحول هذا الدين من يسر إلى عسر. والله يريد دينه كما أنزله، ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير. وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة لإمساك النفوس على الصراط، بلا انحراف إلى الغلو أو الإهمال على السواء؛ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك، فهو الحضّ على الدوام على التمسك بتعاليم الإسلام على وجه قويم، وعبر عن ذلك بالاستقامة لإفادة الدوام على العمل بتعاليم الإسلام دواماً جماعةَ الاستقامة عليه والحذر من تغييره.

ولمّا كان الاختلاف في كتاب، إنّما جاء من أهل الكتاب عُطف على أمر النبيء بالاستقامة على كتابه أمرُ المؤمنين بتلك الاستقامة أيضاً؛ لأنّ الاعوجاج من دواعي الاختلاف في الكتاب بنهوض فِرَق من الأمة إلى تبديله لمجاراة أهوائهم،

فلا جرم أن كانت الاستقامة حائلاً دون ذلك؛ إذ الاستقامة هي العمل بكمال الشريعة بحيث لا ينحرف عنها قيد شبر، ومتعلقها العمل بالشريعة بعد الايمان؛ لأنّ الإيمان أصل فلا تتعلق به الاستقامة. ووجّه الأمر إلى النبيء ﷺ تنويهاً بشأنه ليبنى عليه قوله: كما أمرت، فيشير إلى أنّه المتلقي للأوامر الشرعية ابتداءً، وهذا تنويه له بمقام رسالته، ثم أعلم بخطاب أمته بذلك بقوله: ومن تاب معك، ومن تاب هم المؤمنون؛ لأنّ الإيمان توبة من الشرك. وقد جمع قوله: فاستقم كما أمرت أصول الصلاح الديني وفروعه.

وشمل الطغيان المنهي عنه هنا أصول المفاسد، فكانت الآية جامعة لإقامة المصالح ودرء المفاسد، فكان النهي عنه جامعاً لأحوال مصادر الفساد من نفس المفسد، وبقى ما يخشى عليه من عدوى فساد خليطه، فهو المنهي عنه بقوله بعد هذا... ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار: فلا تستندوا وتطمئنوا إلى الذين ظلموا؛ إلى الجبارين الطغاة الظالمين، أصحاب القوة في الأرض، الذين يقهرون بقوتهم ويظلمون؛ لا تركنوا إليهم طالبين نصرتهم أو حمايتهم مهما يكن في أيديهم من القوة والسلطان والمال، فإنّ ركونكم إليهم ـ على هذا النحو ـ يقدح في اعتمادكم على الله، وفي إخلاصكم التوجه إليه وحْده، والاتكال عليه وحده، والاعتزاز به وحده، فتمسكم النار جزاء هذا الانحراف... وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون: في هذه الحال. والركون إلى الظلمة المتسلطين، سواء كانوا أفراداً أو كانوا دولاً يتمثل في صور شتى، ومنه التعاون مع الطغاة المسلطين على الشعوب الذين لا يحكمون بما أنزل الله، ومنه معاهدات الحماية ومعاهدات الدفاع المشترك، ومعاهدات الصداقة والتحالف مع الذين يُؤْذون المؤمنين في دينهم ويخرجونهم من ديارهم؛ فكل صورة يتحقق فيها اعتماد المسلمين على أهل الظلم أفراداً ودولاً، والاستناد إلى قوتهم وعونهم ومساعدتهم... وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إنّ الحسنات يذهبن السيآت: هذا أمر بأعظم العبادات، وهو إقامة الصلاة التي فرضت في مكة قبل فرض الصلوات الخمس التي فرضت في الملإ الأعلى ليلة المعراج، وكانت مرتين في اليوم: قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.

وفي الليل صلاة التهجد كانت مفروضة على المسلمين كما هو معلوم من

آيات أخرى في السور المكية. إن الحسنات يذهبن السيآت؛ فالصلاة أعظم الحسنات وأكبر العبادات المكفِّرة للسيآت «إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر»، «ذلك ذكرى للذاكرين»، «واصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين»، «وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها»، «ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين». فاستعن بالصبر والصلاة على سائر أعباء الدعوة إلى الإسلام والإصلاح، وانتظار عاقبتها من النصر والفلاح؛ فإنّ هذا من الإحسان الذي لا جزاء له إلاّ الإحسان... واصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين: والاستقامة إحسان، وإقامة الصلاة إحسان، والصبر على كيد التكذيب إحسان، والله لا يضيع أجر المحسنين!.

التوجيه الثالث: ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلاّ قليلاً ممّن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾: في هذا التوجيه لفت الأنظار إلى ما حصل للظالمين المترفين من الهلاك والدمار؛ فيعود السياق هنا إلى تكملة التعليق والتعقيب على مصارع القرى والقرون، فيشير من طرفٍ خفي إلى أنّه لو كان في تلك القرون أولوا بقية يستبقون لأنفسهم الخير عند الله، فينهون عن الفساد في الأرض، ويصدون الظالمين عن الظلم، ما أخذ تلك القرى عذاب الاستئصال الذي حل بها، إنّما كان في هذه القرون وفي تلك القرى قلة من المؤمنين لا نفوذ لهم ولا قوة فأنجاهم الله، وكان فيها كثرة من المترفين الذين أطغتهم القوة، وأزهاهم السلطان وأبطرهم المال والطغيان؛ فالإتراف هو الباعث على الإسراف والفسوق والعصيان والظلم والإجرام يظهر في الكبراء والرؤساء، ثم يسري بالتقليد في الدهماء من أتباعهم والخانعين لهم، فيهلكهم الله على السواء!.

وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم؛ فالأمة التي يقع فيها الظلم والفساد فيجدان من ينهض لدفعهما هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير، فأمّا الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد أو يكون فيها من يستنكرها، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد فإنّ سنة الله تحق عليها؛ إمّا بهلاك الاستئصال، وإمّا بهلاك الانحلال والاختلال. فدعاة الإصلاح المناهضون للطغيان والظلم والفساد هم

صمام الأمان للأمم والشعوب، وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين للخير والصلاح، الواقفين للظلم والفساد، إنّهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب، إنّما هم يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله، واستحقاق النكال والضياع. والتعقيب الأخير عن اختلاف البشر؛ إلى الهدى وإلى الضلال، وسنة الله المستقيمة في اتجاهات خلقه إلى هذا أو ذاك... ﴿**ولو شاء ربّك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربّك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربّك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**﴾: فلو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد، وباستعداد واحد؛ نسخاً مكرورة لا تفاوت بينها ولا تنويع فيها.

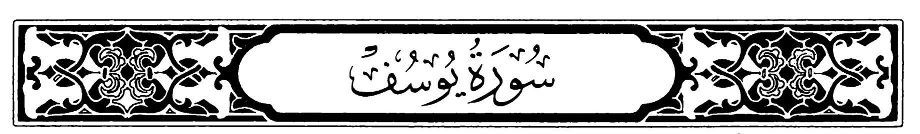
وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدرة على هذه الأرض، وليست طبيعة هذا المخلوق البشري الذي استخلفه الله في الأرض. ولقد شاء الله أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهاته، وأن يوهب القدرة على حرية الاتجاه، وأن يختار هو طريقه ويُحمّل تبعة الاختيار، ويُجازى على اختياره للهدى أو للضلال. هكذا اقتضت سنة الله وجرت مشيئته، فالذي يختار الهدى كالذي يختار الضلال سواء في أنّه تصرف حسب سنة الله في خلقه ووفق مشيئته في أن يكون لهذا المخلوق أن يختار وأن يلقى جزاء منهجه الذي اختار. شاء الله ألاّ يكون الناس أمة واحدة، فكان من مقتضى هذا أن يكونوا مختلفين وأن يبلغ هذا الاختلاف أن يكون في أصول العقيدة ـ إلاّ الذين أدركتهم رحمة الله الذين اهتدوا إلى الحق ـ والحق لا يتعدد ـ فاتفقوا عليه، وهذا لا ينفي أنّهم مختلفون مع أهل الضلال. ومن المقابل الذي ذكره النص: وتمت كلمة ربّك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين، يفهم أنّ الذين التقوا على الحق وأدركتهم رحمة الله لهم مصير آخر هي الجنة تمتلئ بهم كما تمتلئ جهنم بالظالمين المختلفين مع أهل الحق، والمختلفين فيما بينهم على صنوف الباطل ومناهجه الكثيرة.

التوجيه الرابع: ﴿**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين**﴾: في هذا التوجيه خطاب الرسول وإعلامه بحكمة سوق القصص إليه في خاصة نفسه وإلى المؤمنين لتكون لهم موعظة وذكرى، فأمّا الذين لا يؤمنون فليلق إليهم كلمته الآخيرة. ويالله للرسول!، لقد يجد من قومه، ومن انحرافات النفوس، ومن أعباء الدعوة ما

يحتاج معه إلى التسلية والتسرية والتثبيت من ربه ـ وهو الصابر الثابت المطمئن إلى ربه ـ: وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه «السورة» الحق، من أمر الدعوة، ومن قصص الرسل، ومن سنن الله، وموعظة وذكرى للمؤمنين، فأما الذين لا يؤمنون بعد هذه فلا موعظة لهم ولا ذكرى، وإنّما هي الكلمة الفاصلة. . . **﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنّا عاملون. وانتظروا إنّا منتظرون﴾**: كما قال أخ لك ممّن سبق قصصهم في هذه السورة لقومه، ثم تركهم لمصيرهم يلاقونه، وما ينتظرونه غيب من غيب الله. . . **﴿ولله غيب السماوات والأرض﴾**، والأمر كله إليه؛ أمرك وأمر المؤمنين وأمر الذين لا يؤمنون وأمر هذا الخلق كله، ما كان في غيبه وما سيكون. . . **﴿وإليه يرجع الأمر كله فاعبده﴾**: فهو الجدير وحده بالعبادة. . . **﴿وتوكل عليه﴾**: فهو الولي وحده والنصير، وهو العليم بما تعملون من خير وشر، ولن يضيع جزاء أحد. . . **﴿وما ربّك بغافل عما تعملون﴾**!.

وهكذا تختم السورة التي بدئت بالتوحيد في العبادة والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله في النهاية بمثل ما بدئت به من عبادة الله وحده والتوجيه إليه وحده والرجعة إليه في نهاية المطاف، وذلك بعد طول التطواف في آفاق الكون وأغوار النفس وأطواء القرون. وهكذا يلتقي جمال التنسيق الفني في البدء والختام، والتناسق بين القصص والسياق، بكمال النظرة والفكرة والاتجاه في هذا القرآن!. «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»!.

7 ـ قصة يوسف الخالدة تأتي كاملة مرة واحدة



النص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿1﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿2﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿3﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿4﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿5﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿6﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿7﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿8﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿9﴾ * قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ

فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿10﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿11﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿12﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿13﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿14﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿15﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿16﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿17﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿18﴾ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿19﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿20﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ

وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿21﴾ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ
ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿22﴾
وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ
وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّي أَحْسَنَ
مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿23﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ
وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ
عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿24﴾
وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ
قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ
أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿25﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ
مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿26﴾
وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿27﴾
فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ
إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿28﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا
وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿29﴾
وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ
قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿30﴾

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ
وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ
أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31)
قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ
وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (32)
* قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ
عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (33)
فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ (34) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ
حَتَّىٰ حِينٍ (35) وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ
إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى
خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (36)
قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ
قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ
مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (37)
وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ
لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا
وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38)

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿39﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿40﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿41﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿42﴾ ۞ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿43﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿44﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿45﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿46﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿47﴾ ثُمَّ يَأْتِى

مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿48﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿49﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿50﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿51﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿52﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿**ألـر**﴾: تقدم مثلها في سورتي يونس وهود... ﴿**تلك آيات الكتاب المبين**﴾: آيات هذه السورة هي آيات الكتاب المبين الظاهر بنفسه في حقيقته وإعجازه وكونه ليس من كلام البشر، والمظهر لما شاء الله من حقائق الدين ومصالح الدنيا، تقول العرب: أبان الشيءُ فعلاً لازماً بمعنى ظهر واتضح، وتقول: أبان الرجل كذا إذا أظهره وفصله من غيره ممّا شأنه أن يشتبه به... ﴿**إنّا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون**﴾: هذا الكتاب أنزله الله بلغة العرب ليعقلوا ما فيه من إحكام وبيان... ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص**﴾: معنى نقص: نخبر الأخبار السالفة، فهو منقول من قص الأثر إذا اتّبع مواقع الأقدام ليتعرف منتهى سير صاحبها، فهذه القصص التي جاءت في القرآن أحسن من قصص غيره من

جهة حسن نظمه وإعجاز أسلوبه، وبما يتضمنه من العبر والحكم... ﴿**بما أوحينا إليك هذا القرآن**﴾: بسبب ما أوحيناه إليك من هذا القرآن المعجز الحكيم... ﴿**وإن كنت من قبله لمن الغافلين**﴾: وشأنك وحالك قبل إنزال هذا القرآن وإعلامك الغفلةُ وعدمُ العلم بشأن الأمم وقصص الرسل... ﴿**إذ قال يوسف لأبيه يأبت إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين**﴾: بداية القصة التي هي من جمل قصص القرآن المعبر عنها بأحسن القصص؛ فقصة يوسف تعتبر نموذجاً مثاليّاً تعبر عن مَغْزًى عظيمٍ من مغزى قصص القرآن العظيم!. ويوسف: هو ابن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيمَ ـ عليهم السلام ـ.

وكلمة يا أبت: نداءٌ للأب، ونداء يوسف أباه ليعلمه بما رآه في منامه ممّا بينه بقوله: إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين. والمراد بالسجود هنا: الانقياد له والتذلل والخضوع. والأحد عشر كوكباً: رمز لإخوته. والشمس والقمر: رمز لأبويه، وظهر تعبير هذه الرؤيا في آخر القصة كما سيأتي... ﴿**قال يابني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً**﴾: يابني: تصغير لكلمة ابن في نداء العطف والتحبّب. والقصّ: حكاية الرؤيا، يقال: قصّ الرؤيا إذا حكاها وأخبر بها. والرؤيا بألف التأنيث: هي رؤية الصور في النوم، فرّقوا بينها وبين رؤية اليقظة باختلاف علامتي التأنيث. والكيد: إخفاء عمل يضر المكيد، وهو ما يدبر الإنسان من الحيل لوقوع غيره في مضرة، وقد يكون الكيد في النفع... ﴿**وكذلك يجتبيك ربّك**﴾: الإشارة تدل إلى ما دلت عليه الرؤيا من العناية الربانية به.

والاجتباء: الاختيار والاصطفاء... ﴿**ويعلمك من تأويل الأحاديث**﴾: التأويل: إرجاع الشيء إلى حقيقته ودليله. والأحاديث: جمع حديث بمعنى الخبر المتحدث به، فمعنى التأويل هنا: تعبير الرؤيا... ﴿**ويتم نعمته عليك**﴾: إتمام النعمة على يوسف: إعطاؤه أفضل النعم؛ في الدنيا الحكم والنبوءة، وفي الآخرة درجات المرسلين الأخيار... ﴿**وعلى آل يعقوب**﴾: وهم أبناؤه الأسباط... ﴿**كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إنّ ربّك عليم حكيم**﴾: إتمام هذه النعم عليك وعلى إخوتك مثل إتمام النعم التي سبقت لأبويك إبراهيم وإسحاق... ﴿**لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين**﴾: الآيات: الدلائل

على ما تتطلب معرفته من الأمور الخفية، والآيات حقيقة في آيات الطريق، وهي علامات يجعلونها في المفاوز تكون بادية لا تغمرها الرمال لتكون مرشدة للسائرين، ثم أطلقت على حجج الصدق وأدلة المعلومات الدقيقة.

والسائلون: جمع سائل، وهو المتوقع منه أن يسأل عن الغرض المقصود. . . **﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منّا ونحن عصبة﴾**: غاظ الإخوةَ ما رأوه من تفضيل أبيهم يوسفَ وأخاه وهما أقل منهم وأضعف، فحكموا على أبيهم بضلال الرأي لعدم الاهتمام بهم فدبروا المكيدة ليوسف. . . فقال بعضهم لبعض **﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾**: دبروا المكيدة للتخلص من يوسف ليخلص لهم أبوهم، فكان بعضهم أمر بقتله، والبعض الآخر أمر بطرحه بعيداً في أرض مجهوله، ولكن هذين الأمرين لم يرض عنها بعْضٌ آخر. . . **﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابات الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾**: فهذا الرأي الأخير هو الذي نُفِّذَ بعدما اتفقوا عليه جميعاً.

والجُبّ: حفرة في الأرض غايرة عميقة غير مطوية. وغيابات الجب: جهاته الغائبة عن بصر الواقف على الجب. والالتقاط: الأخذ باليد. والسيارة: المسافرون، وهذا الجب يأتيه الوارد لأخذ الماء منه وهو معروف للرعاة وللمسافرين. . . **﴿قالوا ياأبانا مالك لا تأمننا على يوسف وإنّا له لناصحون﴾**: بعدما دبروا المكيدة جاءوا إلى أبيهم واستفهموا منه كيف لا يأمنهم على يوسف والحال أنّهم أشد حفظاً له ورعاية به. . . **﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون﴾**: فطلبوا من أبيهم إرسال أخيهم غداة غد، ليرتعي ويلعب ويتفسح في الجو الطلق النقي؛ فالصحراء تنطلق فيها شهية الأكل، وتنشط فيها الأعضاء، وتنشرح لها النفس. . . **﴿قال إنّي ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾**: الحزن: ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه.

والخوف: ألم النفس بما يتوقع من مكروه قبل أن يقع، والذهاب بيوسف يحزن يعقوب لفقده، ويخوفه لوقوع مكروه. والذئب: حيوان مفترس من فصائل الكلاب جريء يتعدى على الغنم، ويتعدى على الإنسان إن اختلى به. . . **﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنّا إذنْ لخاسرون﴾**: العصبة من الرجال: الكثيرون

الأقوياء يشد بعضهم بعضاً. وكلمة إذنْ: جوابية... **﴿فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابات الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾**: أجمعوا على كذا: صمموا واتفقوا على فعله. والإيحاء: الإعلام بإخبارِ ملَكٍ أو إلهام؛ فصمّموا على جعل يوسف في غيابات الجب فوضعوه فيه وأوحى الله إليه بما سيقع له مع إخوته في المستقبل... **﴿وجاءوا أباهم عشاء يبكون﴾**: العشاء: وقت غيبوبة الشفق الأحمر الباقي من بقايا شعاع الشمس بعد غروبها.

والبكاء: خروج الدموع من العينين مع صوت فيه همهمة وترديد... **﴿قالوا ياأبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾**: إنّا ذهبنا من مكان اجتماعنا الذي نجتمع فيه للراحة إلى مكان بعيد للسباق والجري واللعب، وخلفنا يوسف في مكان الرحل الذي فيه الطعام والشراب والغطاء وما يتبع ذلك، فأكله الذئب حيث كنا بعيدين عنه، فلم نره ولم نسمع صراخاً. وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين: نفي تصديقه لهم معلوم مسبق لديهم لعلمهم بشدة حبه ليوسف... **﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾**: جاءوا بقميص يوسف ملطخاً بدم مكذوب أنّه دمه. والدم: هو السائل الأحمر يخرج من جسم الحيوان عند جرحه أو ذبحه... **﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾**: بل هنا: حرف إضراب إبطال لدعواهم. والتسويل: التسهيل وتزيين ما يحرص على حصوله... **﴿فصبر جميل﴾**: الصبر الجميل: هو الذي لا يخالطه جزع.

والجمال: حسن الشيء في صفات محاسن صنفه، فجمال الصبر أحسن أحواله، وهو أن لا يقارنه شيء يقلل خصائص ماهيته... **﴿والله المستعان على ما تصفون﴾**: تفويض الأمر إلى الله بالصبر الجميل وبالاستعانة به في الأمر الجليل... **﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشراي هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون﴾**: السيارة تقدم معناها قريباً. والوارد: الذي يرد الماء ليستقي للقوم. والإدلاء: إرسال الدلو في البئر لنزع الماء. والدلو: وعاء من جلد يخاط وتجعل له عروة ويربط به حبل يخرج به الماء من البئر أو الصهريج أو الجب، ويكون صغيراً يستطيع الإنسان جذبه من البئر، ويكون كبيراً يستعان على جذبه ببكرة على البئر وبحيوان أو أكثر من واحد من الناس. والبشرى: الشيء المفرح يجده الإنسان بغتة.

والغلام: الطفل المميز قبل البلوغ. ومعنى أسرّوه: أخفوه. والبضاعة: عروض التجارة... ﴿**وشروه**﴾: باعوه... ﴿**بثمن بخس**﴾: الثمن: قيمة السلعة المبيعة والبخس: النقص... ﴿**دراهم معدودة**﴾: الدرهم: العملة الجارية على حسب العرف، وكان في الماضي قطعة مسكوكة من الفضة لها وزن خاص وقيمة محدودة. والمعدودة: المحددة بعدد، لا بوزن ولا بكيل... ﴿**وكانوا فيه من الزاهدين**﴾: كان السيارة غير راغبين في إغلاء ثمن يوسف، فالزهادة هنا: قلة الرغبة في عوضه... ﴿**وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه**﴾: الذي اشترى يوسف: عزيز مصر. ومصر: البلد المعروف. وامرأته: زوجته.

ومعنى أكرمي مثواه: اجعلي إقامته عندك كريمة... ﴿**عسى أن ينفعنا**﴾: بما فيه من ملامح النجابة والذكاء... ﴿**أو نتخذه ولداً**﴾: يعوض عنا فقد الولد... ﴿**وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض**﴾: ومثل هذا التمكين بوجود يوسف في مصر وفي بيت العزيز هيأنا له أسباب التمكن في الأرض التي سيكون فيها عزيزاً حقاً... ﴿**ولنعلمه من تأويل الأحاديث**﴾: علّة لظهور علمه بها حتى يشتهر عند الملك ورعيته فيحصل له القبول والتمكين كما سيأتي مفصلاً في الأحداث القادمة... ﴿**والله غالب على أمره**﴾: هو ما قدره وأراده ليوسف من كل ما وقع له من نعم ونقم... ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾: تدبير الله في الأمور كلها... ﴿**ولمّا بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين**﴾: بلوغ الأشد: الوصول إلى مرحلة الرجولة الكاملة جسماً وعقلاً. آتيناه حكماً وعلماً: ملكاً ونبوءة.

وكذلك نجزي المحسنين: مثل ضربه الله لكل محسن... ﴿**وراودته التي هو في بيتها عن نفسه**﴾: المراودة: محاولة من يريد شيئاً متنازع عليه رداً وقبولا، والمراد بها هنا: ما فعلته امرأة العزيز من التحيّل بكل المغريات لمواقعته إيّاها!.. وغلّقت الأبواب: حرصاً منها على ما تريد... ﴿**وقالت هيت لك**﴾: تصريح بما تريد من المراودة، وهيت: اسم فعل أمر بمعنى بادر، وهلمّ إليّ!. وكلمة لك: لزيادة بيان المقصود من الخطاب... ﴿**قال معاذ الله**﴾: أعوذ بالله معاذاً وأتحصن به، فهو يعيذني من أن أكون من الجاهلين الفاسقين... ﴿**إنّه ربّي أحسن مثواي**﴾: يطلق الرب على السيد والمالك والمتصرف في أمر غيره؛ قصد يوسف

بهذا القول تعليل امتناعه عن الوقوع بها، وزاد تعليلا آخر... ﴿**إنّه لا يفلح الظالمون... ولقد همّت به**﴾: الهم: العزم على الفعل وتنفيذه بقَصْد وجِدٍّ، فكان هم امرأة العزيز على هذا المعنى، ولكن يوسف لم يكن منه هم... ﴿**وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه**﴾: رؤية البرهان ما عند يوسف من الدين وسلامة الفطرة، والتعدى على الحرمات لا يكون من صاحب الدين وزكيّ الطبع... ﴿**كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء**﴾: مثل ضربه الله ليوسف ليمتثل به كل مؤمن تقي نقي زكيّ... ﴿**إنّه من عبادنا المخلصين**﴾: الذين أخلصهم الله له ديناً وصفاوة وفطرة... ﴿**واستبقا الباب**﴾: تكلّف كل واحد منهما أن يسبقا إلى الباب، فأدركته... ﴿**وقدّت قميصه من دبر**﴾: القدّ: القطع المستأصل.

والقميص: الثوب، ومن دبر: من خلف... ﴿**وألفيا**﴾: وجدا... ﴿**سيدها**﴾: زوجها... ﴿**لدى الباب**﴾: عند باب المدخل... ﴿**قالت**﴾: الزوجة لزوجها... ﴿**ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم**﴾: ومعنى كلام الزوجة: ليس جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا سجن يحبس فيه أو عذاب أليم يناله... ﴿**قال هي راودتني عن نفسي**﴾: هذا كلام يوسف رد على ادعاء المرأة... ﴿**وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين**﴾: هذا هو حكم الشاهد الذي شهد ورأى... ﴿**فلما رأى قميصه قدّ من دبر**﴾: وتحقق عنده براءة يوسف... ﴿**قال إنّه من كيدكن إنّ كيدكن عظيم**﴾: ظهر للشاهد حقيقة ما دبرته ليوسف، وعلله بالتوكيد والجزم بكون كيدكن عظيما لا يفلت منه إلاّ من كان خلقه عظيماً... ﴿**يوسف أعرض عن هذا**﴾: كلام العزيز ليوسف... ﴿**واستغفري لذنبك**﴾: وعظ وإرشاد لزوجته... ﴿**إنّك كنت من الخاطئين**﴾: تعليل ولوم لها... ﴿**وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه**﴾: النسوة: جمع قلة للمرأة من غير مادة لفظها. والفتى: الشاب القوي الشهم... ﴿**قد شغفها حباً**﴾: الشغف: إصابة الشغاف، وهي جلدة القلب، ومعناه: بلوغ حبها له قد سكن قلبها واستقر فيه... ﴿**إنّا لنراها في ضلال مبين**﴾: الضلال هنا: مخالفة طريق الصواب، فهي مفتونة بحب هذا الفتى، وليس المراد الضلال الديني، وهذا مثل ما سبق من قوله على لسان أبناء يعقوب: «إنّ أبانا لفي ضلال مبين»... ﴿**فلمّا سمعت بمكرهن**﴾: سمعت: بمعنى أخبرت بما يقلن فيها...

﴿أرسلت إليهن﴾: بعثت من ينادي النسوة إلى بيتها... **﴿وأعتدت﴾**: هيّأت وأعدّت وأشرفت بنفسها على تهيئة المكان المعد... **﴿لهن متكأً﴾**: نمارق وأرائك يتكئن عليها... **﴿وآتت كل واحدة منهن سكيناً﴾**: ما يقطع به اللحم والفواكه التي تحتاج إلى تقطيع أو تقشير... **﴿وقالت اخرج عليهن﴾**: اخرج من مكانك وادخل عليهن في أمكنتهن المعدة لهن... **﴿فلما رأينه﴾**: وقعت أعينهن عليه... **﴿أكبرنه﴾**: رأينه كبيراً وعظيماً أكثر ممّا يتصوّرنه فتى جميلاً ووسيماً... **﴿وقطعن أيديهن﴾**: حصل القطع في الأيدي بدل الفاكهة... **﴿وقلن حاش لله ما هذا بشرا﴾**: تنزيهاً عما كن يعتقدن فيه، فهذا ليس من البشر... **﴿إن هذا إلاّ ملك كريم﴾**! .**﴿قالت فَذَلِكُنَّ الذي لمتنني فيه﴾**: إن كان الحال كما ترين فذلكن حالي معه... **﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكوننْ من الصاغرين﴾**: صرحت بهذا الكلام أمام النسوة ليسمع يوسف هذا التهديد بالوعيد الشديد!.

ولكن يوسف يلتجئ إلى ربّه ويقرر في نفسه ويختار طريقاً يتخلص بها من كيدهن جميعاً... **﴿قال ربّ السجن أحب إليّ ممّا يدعونني إليه وإلاّ تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾**: فلمّا علم يوسف ـ عليه السلام ـ أنّه لا محيص من أحد الأمرين صار السجن محبوباً إليه، باعتبار أنّه يخلصه من الوقوع في الحرام، ويباعده عن الصبو والجهل ومصارعة الغرام! ..**﴿فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيدهن إنّه هو السميع العليم﴾**: سمع الله دعاء يوسف فاستجاب له وباعده عن الفتن والمحن بعدما ظهرت براءته وانتشرت بينهم طهارته... **﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾**: ثم ظهر لهم بعد ما تحققت براءته ليسجننه حتى حين، فدخل السجن واستراح من كيد القصور والفجور... **﴿ودخل معه السجن فتيان﴾**: السجن: المكان الخاص يوضع فيه من حكم عليه بالإجرام أو من ظهرت عليه بوادر الاتهام، أو من كان ضحية الطغاة الحكّام.

والفتيان: هما ساقي الملك وخازن طعامه... **﴿قال أحدهما إنّي أراني أعصر خمراً﴾**: أعصر عنباً يصير بعْدُ خمراً. والعصر: الضغط باليد أو بحجر أو بغيره على شيء فيه رطوبة لإخراج ما فيه من سائل. والخمر هنا: عصير العنب وغيره من ثمار الفواكه تعصر وتعالج، تصير سكراً تغطي على العقل، ومن هذا جاء

اشتقاق الخمر. . . ﴿**وقال الآخر إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه**﴾: الخبز: دقيق يعجن بالماء ويقطع قطعاً ويوضع في الفرن أو يلصق في التنور، وهو معروف من أقدم العصور. . . ﴿**نبئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين**﴾: طلب الفتيان من يوسف تعبير رؤيتهما المنامية؛ لأنّهما علما من حاله وكلامه ومن رأفته وإحسانه مع المسجونين معه. . . ﴿**قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلاّ نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما**﴾: الطعام الذي يأتي المساجين رزقهم المقدر لكل واحد المحدد بوقت معلوم؛ فوقّت لتأويل الرؤيا وقتاً محدداً، وهو يعلمهم بهذا ليتمكن منهم بما يلقي إليهما من توجيههما إلى الدين الحق، وهو ما يدعوهما إليه لينتشر الخبر مع انتشار تعبير الرؤيا في السجن، فدل ذلك على أن يوسف صار رسولاً يدعو الناس إلى الدين القيم. . . ﴿**ذلكما ممّا علمني ربّي إنّي تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون**﴾.

﴿**واتّبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾: ثم أخذ يوجههم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم باتّباع الدين الحق. . . ﴿**ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار**﴾؟: ثم يبيّن لهم ما هم عليه من الشرك والضلال. . . ﴿**ما تعبدون من دونه إلاّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان**﴾: ثم بيّن لهم حقيقة الدين الذي أمر الله الناس باتباعه. . . ﴿**إن الحكم إلاّ لله أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾: ثم بعدما بيّن لهما ما هما عليه وما هو عليه من الدين القيم القويم شرع في تأويل رؤياهما فقال. . . ﴿**ياصاحبي السجن**﴾: الملازمين له. . . ﴿**أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمرا**﴾: فيرجع إلى منصبه وعمله، فيسقي سيده الملك خمراً. . . ﴿**وأما الآخر**﴾: الذي كان يهيئ للملك طعامه. . . ﴿**فيصلب**﴾: يحكم عليه بالشنق حتى الموت. . . ﴿**فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان**﴾: انتهى الأمر الذي كنتم فيه تستفتيان، وتسألان عن تأويله. . . ﴿**وقال للذي ظن أنّه ناج منهما اذكرني عند ربّك**﴾: الذي ظن نجاته هو ساقي الملك الذي سيعود إلى عمله الأول، أوصاه بأن يذكر يوسف عنه حتى ينظر في أمره. . . ﴿**فأنساه الشيطان ذكر ربّه فلبث في السجن بضع سنين**﴾: لم يذكر الساقي وصية يوسف بسبب مشاغله وأهوائه الشخصية وملذاته الذاتية حتى أنساه الشيطان هذه

الوصية، فبقي يوسف في السجن مدة طويلة عبر عنها هنا ببضع سنين، والبضع: من الثلاثة إلى عشرة... **﴿وقال الملك إنّي أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾**: الملك: حاكم مصر في زمن يوسف، وهو من ملوك العمالقة، ولم يكن فرعوناً من الفراعنة كما هو في زمن موسى، فهو قد رأى رؤيا في منامه بينها في كلامه.

والبقرات السمان والبقرات العجاف والسنبلات الخضر والسنبلات اليابسات ظاهر معناها لا يحتاج إلى توضيح... **﴿يا أيّها الملأُ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾**: الإفتاء: الإخبار بإزالة مشكل، وأصل اشتقاق أفتى من الفتوة، وهي القوة، واستفتاه طلب منه الفتيا، وهي بيان الشيء وتوضيحه بإزالة إبهامه وإشكاله. وتعبير الرؤيا: تأويلها، والإخبار عنها بآخر ما يؤول إليه أمْرُها... **﴿قالوا أضغاث أحلام﴾**: الأضغاث: جمع ضغث، وهو ما جمع في حزمة واحدة من أخلاط النبات وأعواد الشجر. والأحلام: جمع حلم، وهو ما يراه النائم في نومه... **﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾**: نفى الملأ علم تأويل هذه الأحلام التي رآها الملك في منامه... **﴿وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله﴾**: عند هذا الحدث الخطير تذكر الساقي وصاية يوسف بعدما مضت مدة طويلة، فقال: أنا عندي أمر مهم يتعلق بهذا الحدث... **﴿فأرسلوني﴾**: فأنا أنبئكم بتأويله، فأرسلوه. وجاء إلى يوسف فقال له... **﴿يوسف أيّها الصديق﴾**: كثير الصدق، وهو لقب جامع لمعاني الكمال الإنساني قولاً وفعلاً وسلوكاً، ثم ذكر له ما رآه الملك في منامه... **﴿أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾**: ثم بيّن يوسف له تأويل الرؤيا... **﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا﴾**: علم يوسف من رؤية السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر أنّ سبع سنين تأتي أوّلاً، فيها الخصب وكثرة المحصول، فأمرهم بأن يكثروا من الزرع ويستمرون فيه مدة هذه السنين السبع.

والسبع البقرات العجاف، والسبع السنبلات اليابسات، هي سبع سنين فيها القحط والجدب، وهو ما عبر عنه بقوله... **﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهنّ إلاّ قليلاً مما تحصنون﴾**: ففي السبع السنين التي يكون فيها

الخصب يكثرون من الزرع ويخزنونه في سنبله محصّناً من التلف، ثم تأتي السبع السنين التي فيها الجدب والقحط فتأكل وتُنهي ما خزنوه في السنين التي فيها الخصب... ﴿**ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون**﴾: هذا الخبر زيادة على تأويل رؤيا الملك أتى به بشارة لهم بعد اليأس. والإغاثة: جلب الخير والعون والنفع للمستغاث، يقال: أغاثه إغاثةً إذا أعانه ونجّاه.

والعصر هنا: أعمّ مما قبلهُ «أعصر خمرا»، فهو عصر كل حبّ فيه دهن أو شراب... ﴿**وقال الملك ائتوني به**﴾: لما سمع الملك من الرسول تأويل الرؤيا علم أنّ يوسف له شأن عظيم، فلابد أن يأمر بإحضاره ليراه رؤية العين، فأرسلوا إلى يوسف من يأتي به، فلما جاءه الرسول، وأعلمه بأمر الملك امتنع يوسف عن الخروج حتى يبث في أمره أمام الملك... ﴿**قال ارجع إلى ربّك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إنّ ربّي بكيدهن عليم**﴾: فهو يأمر بالرجوع إلى الملك ليتحقق الملك من شأن النسوة وامرأة العزيز الذي كان بسببه دخول يوسف السجن المدّة الطويلة، فهو لا يدري بكيدهن هل بقي معهن وهن لازلن وراءه، ولكن الله هو العليم بكيدهن؛ فنادى الملك النسوة ومعهن امرأة العزيز... ﴿**قال ما خطبكن**﴾: الخطب: الشأن المهم من حالة حادثة، فالحال تقتضي المخاطبة وترديد الكلام أخذاً ورداً... ﴿**إذْ راودتن يوسف عن نفسه**﴾: تقدم معنى المراودة... ﴿**قلن حاش لله**﴾: تقدم معنى هذا الكلام كذلك... ﴿**ما علمنا عليه من سوء**﴾: نَفْيٌ للتهمة من أساسها... ﴿**قالت امرأة العزيز الآن حَصْحَصَ الحق**﴾: حصحص الحق: ظهر وثبت بشهادة النسوة وبشهادتي أنا بالذات... ﴿**أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصادقين. ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين. وما أبرئ نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلاّ ما رحم ربّي إنّ ربّي غفور رحيم**﴾.

مبحث الإعراب

﴿**ألر**﴾ تقدم الكلام على إعراب الحروف المقطعة التي وردت في أوائل السور. ﴿**تلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**آيات**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**الكتاب**﴾ مضاف إلى آيات. ﴿**المبين**﴾ نعت للكتاب. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أنزلناه**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**قرآنا**﴾ حال من الضمير المفعول.

﴿عربياً﴾ نعت له. **﴿لعلكم﴾** لعلّ واسمها. **﴿تعقلون﴾** فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لعل. **﴿نحن﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿نقص﴾** فعل مضارع، وفاعله ضمير العظمة يعود على نحن. **﴿عليك﴾** متعلق بنقص، وجملة نقص في محل رفع خبر المبتدإ. **﴿أحسن﴾** مفعول به. **﴿القصص﴾** مضاف إلى أحسن. **﴿بما﴾** متعلق بنقص. **﴿أوحينا﴾** فعل وفاعل، والجملة صلة ما. **﴿إليك﴾** متعلق بأوحينا.

﴿هذا﴾ في محل نصب مفعول به. **﴿القرآن﴾** بيان لهذا. **﴿وإن﴾** مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. **﴿كنت﴾** كان واسمها. **﴿من قبله﴾** متعلق بما بعده: **﴿لمن الغافلين﴾** متعلق بمحذوف خبر كان، واللام للفرق بين إن المخففة وإن النافية، وجملة كنت من قبله لمن الغافلين في محل رفع خبر إنْ، والجملة في محل نصب حال. **﴿إذ﴾** ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمقدر يدل عليه السياق. **﴿قال يوسف﴾** فعل وفاعل. **﴿لأبيه﴾** متعلق بقال. **﴿ياأبت﴾** منادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف، والتاء زائدة، والأصل ياأبي. **﴿إني﴾** إنّ واسمها. **﴿رأيت﴾** فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر إنّ. **﴿أحد عشر﴾** مفعول به مبني على الفتح في محل نصب. **﴿كوكباً﴾** منصوب على التمييز. **﴿والشمس﴾** معطوف على أحد عشر. **﴿والقمر﴾** معطوف على الشمس. **﴿رأيتهم﴾** فعل وفاعل ومفعول. **﴿لي﴾** متعلق بما بعده.

﴿ساجدين﴾ حال من الضمير المنصوب. **﴿قال﴾** فعل ماض. **﴿يابني﴾** منادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المدغمة في ياء التصغير، واجتمعت في هذا التركيب ثلاث ياآت: ياء منقلبة عن واو، وياء التصغير، وياء المتكلم؛ فحذفت ياء المتكلم لدلالة الكسرة عليها. **﴿لا تقصص﴾** فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). **﴿رؤياك﴾** مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على الألف، وضمير المخاطب في محل جر مضاف إلى رؤياك. **﴿على إخوتك﴾** متعلق بلا تقصص. **﴿فيكيدوا﴾** فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية؛ لوقوعها بعد النهي. **﴿لك﴾** متعلق بيكيد. **﴿كيداً﴾** مفعول مطلق. **﴿إنّ الشيطان﴾** إنّ واسمها. **﴿للإنسان﴾** متعلق بما بعده: **﴿عدو﴾** خبر إنّ. **﴿مبين﴾** نعت لعدو، وجملة إنّ الشيطان تعليل. **﴿وكذلك﴾** الكاف في محل نصب نعت لمفعولٍ مطلق، واسم الإشارة في محل جر بالكاف.

﴿**يجتبيك**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء، وضمير المخاطب في محل نصب مفعول به. ﴿**ربّك**﴾ فاعل يجتبي، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ويعلّمك**﴾ معطوف على يجتبيك... ﴿**من تأويل**﴾ متعلق بيعلّمك. ﴿**الأحاديث**﴾ مضاف إلى تأويل. ﴿**ويتم**﴾ معطوف على يجتبيك، والفاعل ضمير يعود على ربّك. ﴿**نعمته**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه ﴿**عليك**﴾ متعلق بيتم. ﴿**وعلى آل**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**يعقوب**﴾ مضاف إلى آل مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿**كما**﴾ الكاف في محل نصب نعت لمفعول مطلق، وما في محل جر بالكاف. ﴿**أتمها**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على ربّك، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**على أبويك من قبل**﴾ متعلقان بأتمّ. ﴿**إبراهيم**﴾ بدل من أبويك مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿**وإسحاق**﴾ معطوف على إبراهيم.

﴿**إنّ ربّك عليم**﴾ الجملة من إنّ واسمها وخبرها تعليل. ﴿**حكيم**﴾ خبر ثان. ﴿**لقد كان**﴾ فعل ماضٍ ناقص دخل عليه حرف التحقيق ولام التوكيد. ﴿**في يوسف**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان مقدم. ﴿**وإخوته**﴾ معطوف على يوسف. ﴿**آيات**﴾ اسم كان مؤخر. ﴿**للسائلين**﴾ متعلق بآيات. ﴿**إذ**﴾ تقدم إعراب مثلها قريبا. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ليوسف**﴾ مبتدأ دخل عليه لام التوكيد. ﴿**وأخوه**﴾ معطوف على يوسف مرفوع بالواو؛ لأنّه من الأسماء الخمسة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أحبُّ**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بالضمة. ﴿**إلى أبينا منّا**﴾ متعلقان بأحب. ﴿**ونحن**﴾ في محل رفع مبتدأ.

﴿**عصبة**﴾ خبر، والجملة في محل نصب حال. ﴿**إنّ أبانا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لفي ضلال**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ، واللام لتوكيد الخبر. ﴿**مبين**﴾ نعت لضلال. ﴿**اقتلوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**يوسف**﴾ مفعول به. ﴿**أو اطرحوه**﴾ معطوف على اقتلوا يوسف. ﴿**أرضاً**﴾ مفعول به أو فيه، أو منصوب على نزع الخافض. ﴿**يخل**﴾ فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر. ﴿**لكم**﴾ متعلق بيخل. ﴿**وجه**﴾ فاعل. ﴿**أبيكم**﴾ مضاف إلى وجه. ﴿**وتكونوا**﴾ معطوف على يَخْلُ مجزوم مثله، وواو الجماعة اسم تكون. ﴿**من بعده**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**قوماً**﴾ خبر تكون. ﴿**صالحين**﴾ نعت لقوم. ﴿**قال قائل**﴾ فعل وفاعل. ﴿**منهم**﴾ متعلق بقائل.

﴿**لا تقتلوا يوسف**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والفعل مجزوم بلا الناهية، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**وألقوه**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، والضمير المتصل مفعول، والواو للعطف. ﴿**في غيابات**﴾ متعلق بألقوه. ﴿**الجب**﴾ مضاف إلى غيابات. ﴿**يلتقطه**﴾ فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**بعْضُ**﴾ فاعل. ﴿**السيارة**﴾ مضاف إلى بعض. ﴿**إن كنتم**﴾ كان واسمها دخل عليها حرف الشرط. ﴿**فاعلين**﴾ خبر كان منصوب بالياء، والجواب محذوف معلوم ممّا قبله. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ياأبانا**﴾ منادى منصوب بالألف، وضمير المتكلمين مضاف إليه. ﴿**ما**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**لك**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ.

﴿**لا تأمننا**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفي، والفاعل ضمير المخاطب، وضمير المتكلمين مفعول به. ﴿**على يوسف**﴾ متعلق بتأمنّنا وجملة لا تأمننا في محل نصب حال من الضمير المجرور. ﴿**وإنّا**﴾ إنّ واسمها، والواو للحال. ﴿**له**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**لناصحون**﴾ خبر إنّ دخل عليه لام التوكيد، والجملة في محل نصب حال من ضمير المتكلمين. ﴿**أرسله**﴾ فعل أمر مبني على السكون، والفاعل أنت، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**معنا**﴾ متعلق بأرسله. ﴿**غداً**﴾ منصوب على الظرفية متعلق بأرسله. ﴿**يرتع**﴾ مجزوم بحذف الياء في جواب الأمر، والفاعل ضمير يعود على يوسف. ﴿**ويلعب**﴾ معطوف على يرتع. ﴿**وإنّا له لحافظون**﴾ مثل وإنّا له لناصحون في الإعراب.

﴿**قال إنّي**﴾ إنّ واسمها ﴿**ليحزنني**﴾ فعل مضارع دخل عليه لام التوكيد مرفوع بالضمة، والنون الثانية للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به. ﴿**أن تذهبوا**﴾ فعل وفاعل، والفعل منصوب بأن المصدرية، وهي وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع فاعل يحزنني. ﴿**به**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**وأخاف**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة معطوف على قوله ليحزنني أن تذهبوا به، والفاعل ضمير المتكلم (أنا)، والجملتان بعد قال في محل نصب مقول القول. ﴿**أن يأكله**﴾ فعل مضارع منصوب بأن، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**الذئب**﴾ فاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول بأخاف. ﴿**وأنتم**﴾ في محل رفع مبتدأ، والواو للحال. ﴿**عنه**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**غافلون**﴾ خبر المبتدإ.

﴿قالوا﴾ فعل وفاعل. **﴿لئن﴾** اللام موطئة للقسم، وإن شرطية. **﴿أكله الذئب﴾** فعل الشرط. **﴿ونحن عصبة﴾** الجملة من المبتدإ والخبر في محل نصب حال من الواو في قالوا. **﴿إنّا﴾** إنّ واسمها. **﴿إذن﴾** جوابية. **﴿لخاسرون﴾** خبر إنّ دخل عليه لام التوكيد، وجملة إنّا إذا لخاسرون جواب القسم أغنت عن جواب الشرط. **﴿فلمّا ذهبوا﴾** فعل وفاعل، فعل شرط لمّا، والفاء للتفريع. **﴿به﴾** متعلق بذهبوا. **﴿وأجمعوا﴾** معطوف على ذهبوا. **﴿أن يجعلوه﴾** فعل وفاعل ومفعول دخلت عليه أن المصدرية، وهي وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول بأجمعوا. **﴿في غيابات﴾** متعلق بالفعل قبله. **﴿الجب﴾** مضاف إلى غيابات. **﴿وأوحينا﴾** فعل وفاعل، والواو للعطف. **﴿إليه﴾** متعلق بأوحينا. **﴿لتنبئنّهم﴾** فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة دخل عليه لام التوكيد، والفاعل ضمير المخاطب (أنت)، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، وجملة لتنبئنّهم بيان لأوحينا. **﴿بأمرهم﴾** متعلق بالفعل قبله.

﴿هذا﴾ في محل جر عطف بيانٌ لأَمْرِهِمْ. **﴿وهم﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿لا يشعرون﴾** فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي، وجملة لا يشعرون في محل رفع خبر المبتدإ، وجملة وهم لا يشعرون في محل نصب حال من ضمير الجماعة، وجواب لمّا محذوف يفهم من السياق: فلما حصل من فعلهم وقولهم، ألقوه في غيابات الجب وتركوه هنالك، وجملة وأوحينا إليه معترضة لا محل لها من الإعراب. **﴿وجاءوا أباهم﴾** فعل وفاعل ومفعول معطوف على قوله: فلمّا ذهبوا به. **﴿عشاء﴾** منصوب على الظرفية. **﴿يبكون﴾** فعل وفاعل، والجملة حال من ضمير جاءوا. **﴿قالوا﴾** فعل وفاعل. **﴿ياأبانا﴾** تقدم إعراب مثله. **﴿إنّا﴾** إنّ واسمها. **﴿ذهبنا﴾** فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر إنّ.

﴿نستبق﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير المتكلمين (نحن)، والجملة حال من الفاعل في ذهبنا. **﴿وتركنا يوسف﴾** فعل وفاعل ومفعول معطوف على ذهبنا **﴿عند﴾** متعلق بتركنا. **﴿متاعنا﴾** مضاف إلى عند. **﴿فأكله﴾** فعل ماضٍ معطوف بالفاء على تركنا، والضمير المتصل بالفعل مفعول. **﴿الذئبُ﴾** فاعل. **﴿وما أنت﴾** ما واسمها. **﴿بمؤمن﴾** خبرها جُرّتْ لفظاً ونُصِبَتْ محلاً. **﴿لنا﴾** متعلق بمؤمن. **﴿ولو كنا صادقين﴾** كان واسمها وخبرها دخلت عليها لو

الوصلية وواو الحال، والجملة في محل نصب حال من الضمير المجرور. ﴿**وجاءوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**على قميصه**﴾ متعلق بمحذوف حال من دم. ﴿**بدم**﴾ متعلق بجاءوا. ﴿**كذب**﴾ نعت لدم. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**بل سوّلت**﴾ فعل ماضٍ دخل عليه حرف الإضراب. ﴿**لكم**﴾ متعلق بسوّلت. ﴿**أنفسكم**﴾ فاعل. ﴿**أمراً**﴾ مفعول.

﴿**فصبر**﴾ خبر لمبتدإ محذوف: أمْرِي صبْرٌ. ﴿**جميل**﴾ نعت لصبر، والفاء للتفريع. ﴿**والله**﴾ مبتدأ. ﴿**المستعانُ**﴾ خبره، والواو للعطف. ﴿**على ما**﴾ متعلق بالمستعان. ﴿**تصفون**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما، وجملة والله المستعان تذييل. ﴿**وجاءت سيارة**﴾ فعل وفاعل معطوف على ما قبله. ﴿**فأرسلوا واردهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول تعقيب على ما قبله. ﴿**فأدلى**﴾ معقب على ما قبله. ﴿**دلوه**﴾ مفعول أدلى، والضمير في دلوه يعود على فاعل أدلى. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**يابشراي**﴾ منادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وفتحت ياء المتكلم للتخفيف. ﴿**هذا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**غلام**﴾ خبره، وجملة يا بشراي هذا غلام مقول القول. ﴿**وأسروه**﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ما قبله. ﴿**بضاعة**﴾ حال من الضمير المنصوب. ﴿**والله**﴾ مبتدأ. ﴿**عليم**﴾ خبره. ﴿**بما**﴾ متعلق بعليم. ﴿**يعملون**﴾ فعل وفاعل صلة ما، وجملة والله عليم تذييل.

﴿**وشروه**﴾ فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ما قبله من قوله: وأسرّوه بضاعة. ﴿**بثمن**﴾ متعلق بشروه. ﴿**بخس**﴾ نعت لثمن. ﴿**دراهم**﴾ بدل من ثمن مجرور بالفتحة لصيغة منتهى الجموع. ﴿**معدودة**﴾ نعت لدراهم. ﴿**وكانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**فيه متعلق**﴾ بما بعده. ﴿**من الزاهدين**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان. ﴿**وقال الذي**﴾ فعل وفاعل، والواو للعطف. ﴿**اشتراه**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على الذي، والضمير المتصل بالفعل مفعول، والجملة صلة الذي. ﴿**من مصر**﴾ متعلق بمحذوف نعت للذي. ﴿**لامرأته**﴾ متعلق بقال. ﴿**أكرمي**﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والفاعل ضمير المخاطبة (أنت). ﴿**مثواه**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على الألف، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة أكرمي مثواه في محل نصب مقول القول.

﴿**عسى**﴾ فعل ماضٍ ناقص، واسم عسى ضمير يعود على يوسف. ﴿**أن**

ينفعنا﴾ فعل مضارع منصوب بأن، والفاعل ضمير الغائب (هو) يعود على يوسف، وضمير المتكلمين مفعول، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب خبر عسى. **﴿أو نتخذه﴾** معطوف على ينفعنا. **﴿ولداً﴾** مفعول ثان لنتخذ. **﴿وكذلك﴾** الواو للعطف، والكاف في محل نصب نعت لمفعول مطلق مقدر، وذلك في محل جر بالكاف. **﴿مكنّا﴾** فعل وفاعل. **﴿ليوسف في الأرض﴾** متعلقان بمكنّا. **﴿ولنعلّمه﴾** فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل ضمير العظمة (نحن)، والضمير المتصل بالفعل مفعول. **﴿من تأويل﴾** متعلق بنعلّمه. **﴿الأحاديث﴾** مضاف إلى تأويل. **﴿والله غالب﴾** الجملة من المبتدإ والخبر تذييل. **﴿على أمره﴾** متعلق بغالب. **﴿ولكنّ أكثر﴾** لكنّ واسمها. **﴿الناس﴾** مضاف إلى أكثر.

﴿لا يعلمون﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي، والجملة في محل رفع خبر لكنّ، والجملة معطوفة على قوله: والله غالب على أمره. **﴿ولمّا بلغ﴾** فعل ماضٍ دخلت عليه أداة الشرط، والواو للعطف، والفاعل ضمير يعود على يوسف. **﴿أشده﴾** مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿آتيناه﴾** فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب الشرط. **﴿حكماً﴾** مفعول ثان لآتينا. **﴿وعلماً﴾** معطوف على حكماً. **﴿وكذلك﴾** مثل وكذلك السابقة. **﴿نجزي﴾** فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء، والفاعل نحن. **﴿المحسنين﴾** مفعول به منصوب بالياء. **﴿وراودته﴾** فعل ماضٍ دخل عليه حرف العطف، والضمير المتصل بالفعل مفعول. **﴿التي﴾** في محل رفع فاعل راودت. **﴿هو﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿في بيتها﴾** متعلق بمحذوف خبر، والجملة صلة التي. **﴿عن نفسه﴾** متعلق براودته.

﴿وغلّقت﴾ فعل ماضٍ دخل عليه حرف العطف، والفاعل ضمير يعود على التي. **﴿الأبواب﴾** مفعول غلّقت. **﴿وقالت﴾** معطوف على وغلّقت. **﴿هيت﴾** اسم فعل أمر. **﴿لك﴾** اللام لزيادة بيان المقصود بالخطاب. **﴿قال﴾** فعل ماض. **﴿معاذَ﴾** مفعول مطلق. **﴿الله﴾** مضاف إلى معاذ. **﴿إنّه﴾** إنّ واسمها. **﴿ربّي﴾** خبر إنّ مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وياء المتكلم في محل جر مضاف إلى رب، وحُرِّكَتْ بالفتحة للتخفيف، والجملة تعليلية. **﴿أحسن﴾** فعل ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على ربّي. **﴿مثواي﴾** مفعول به، مثل أكرمي مثواه،

وجملة أحسن مثوايَ مؤكدة لما قبلها. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا يفلح الظالمون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي، وجملة لا يفلح الظالمون في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّه لا يفلح الظالمون تعليلية. ﴿**ولقد**﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، وقد للتحقيق.

﴿**همّت**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل هي ضمير يعود على المرأة التي هو في بيتها. ﴿**به**﴾ متعلق بهمت. ﴿**وهمّ بها**﴾ معطوف على قوله: ولقد همت به. ﴿**لولا**﴾ حرف امتناع لوجود وهي متضمنة معنى الشرط، وفعل الشرط. ﴿**أن رأى**﴾ وهي جملة مؤولة بمصدر مرفوع مبتدأ بعد لولا، وخبره محذوف غالباً. ﴿**برهان**﴾ مفعول رأى. ﴿**ربّه**﴾ مضاف إلى برهان، وجواب لولا محذوف يدل عليه قوله: وهمّ بها، والتقدير: ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها. ﴿**كذلك لنصرف**﴾ الكاف في محل نصب مفعول ثان لفعل مقدر، أي: أريناه مثل ذلك البرهان لنصرف. ﴿**عنه**﴾ متعلق بنصرف. ﴿**السوء**﴾ مفعول به. ﴿**والفحشاء**﴾ معطوف على السوء. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**من عبادنا**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**المخلصين**﴾ نعت لعبادنا مجرور بالياء، وجملة إنّه من عبادنا المخلصين تعليلية. ﴿**واستبقا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف العطف. ﴿**الباب**﴾ مفعول به.

﴿**وقدت**﴾ معطوف على قوله: واستبقا الباب. ﴿**قميصه**﴾ مفعول قدت. ﴿**من دبر**﴾ متعلق بقدت. ﴿**وألفيا**﴾ معطوف على واستبقا. ﴿**سيدها**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لدى**﴾ ظرف مكان منصوب بفتحة مقدرة على الألف متعلق بألفيا. ﴿**الباب**﴾ مضاف إلى لدى. ﴿**قالت**﴾ فعل ماضٍ ما حرف نفي. ﴿**جزاء**﴾ مبتدأ. ﴿**مَنْ**﴾ في محل جر مضاف إلى جزاء. ﴿**أراد**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة من. ﴿**بأهلك**﴾ متعلق بأراد. ﴿**سوءاً**﴾ مفعول. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ لاعمل لها. ﴿**أن يسجن**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بأن، ونائب الفاعل ضمير يعود على من، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع خبر المبتدإ. ﴿**أو عذاب**﴾ معطوف على المصدر المرفوع. ﴿**أليم**﴾ نعت لعذاب، وتقدير قولها: ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلاّ سجْنُه أو شدّةُ عذابه، وجملة ما جزاء في محل نصب مقول القول.

﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**هي**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**راودتني**﴾ فعل ماضٍ،

والفاعل هي، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به، وجملة راودتني في محل رفع خبر المبتدإ، وجملة هي راودتني في محل نصب مقول القول. ﴿**عن نفسي**﴾ متعلق براودتني. ﴿**وشهد شاهد**﴾ فعل وفاعل معطوف على قال هي. ﴿**من أهلها**﴾ متعلق بمحذوف نعت لشاهد. ﴿**إن كان قميصه**﴾ كان واسمها، وهو فعل الشرط لإنْ. ﴿**قُدّ**﴾ فعل ماضٍ مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على القميص. ﴿**من قبل**﴾ متعلق بقد، وجملة قدّ في محل نصب خبر كان، وجملة كان قميصه في محل جزم فعل الشرط. ﴿**فصدقت**﴾ جواب الشرط، ودخلت الفاء لتقدير قدّ. ﴿**وهو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**من الكاذبين**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ، والجملة معطوفة على الجواب.

﴿**وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين**﴾ معطوف على ما قبله وهو مثله في الإعراب. ﴿**فلمّا رأى**﴾ جملة شرطية مرتبة على ما قبلها. ﴿**قميصه**﴾ مفعول به. ﴿**قدّ من دبر**﴾ جملة حالية. ﴿**قال**﴾ جواب الشرط. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**من كيدكن**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ، وجملة إنّه من كيدكن مقول القول. ﴿**إنّ كيدكن**﴾ عظيم الجملة من إنّ واسمها وخبرها تعليل. ﴿**يوسف**﴾ منادى حذفت منه ياء النداء مبني على الضم في محل نصب لأنّه علم مفرد. ﴿**أعرض**﴾ فعل أمر. ﴿**عن هذا**﴾ متعلق بأعرض. ﴿**واستغفري**﴾ معطوف على أعرض. ﴿**لذنبك**﴾ متعلق باستغفري. ﴿**إنّك**﴾ إنّ واسمها. ﴿**كنت**﴾ كان واسمها. ﴿**من الخاطئين**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان، وجملة كنت من الخاطئين في محل رفع خبر إنّ.

﴿**وقال نسوة**﴾ فعل وفاعل، والواو للعطف ﴿**في المدينة**﴾ متعلق بمحذوف نعت لنسوة. ﴿**امرأة**﴾ مبتدأ. ﴿**العزيز**﴾ مضاف إلى امرأة. ﴿**تراود**﴾ فعل مضارع، والفاعل هي. ﴿**فتاها**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على الألف، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة تراود في محل رفع خبر المبتدإ، وجملة امرأة العزيز تراود فتاها في محل نصب مقول القول. ﴿**عن نفسه**﴾ متعلق بتراود. ﴿**قد**﴾ حرف تحقيق. ﴿**شغفها**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل هو، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**حباً**﴾ منصوب على التمييز، وجملة قد شغفها حباً تعليل. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لنراها**﴾ فعل مضارع دخل عليه لام التوكيد والفاعل نحن، والضمير المتصل

بالفعل مفعول أول. ﴿**في ضلال**﴾ متعلق بمحذوف مفعول ثان. ﴿**مبين**﴾ نعت لضلال، وجملة لنراها في محل رفع خبر إنّ.

﴿**فلما سمعت**﴾ جملة شرطية مرتبة على قول النسوة. ﴿**بمكرهن**﴾ متعلق بسمعت. ﴿**أرسلت**﴾ جواب الشرط. ﴿**إليهن**﴾ متعلق بأرسلت. ﴿**وأعتدت**﴾ معطوف على أرسلت. ﴿**لهن**﴾ متعلق بأعتدت. ﴿**متكأ**﴾ مفعول به. ﴿**وآتت**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**كل**﴾ مفعول أول. ﴿**واحدة**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**منهن**﴾ متعلق بمحذوف نعت لواحدة. ﴿**سكيناً**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**وقالت**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**اخْرُجْ**﴾ فعل أمر، والفاعل ضمير المخاطب يعود على يوسف. ﴿**عليهن**﴾ متعلق باخرج. ﴿**فلما رأينه**﴾ جملة شرطية مرتبة على ما قبلها. ﴿**أكبرنه**﴾ فعل وفاعل ومفعول جواب الشرط. ﴿**وقطّعن أيديهن**﴾ معطوف على أكبرنه، وهو مثله في الإعراب. ﴿**وقلن**﴾ فعل وفاعل معطوف على ما قبله. ﴿**حاش**﴾ مصدر منصوب مفعول مطلق. ﴿**لله**﴾ متعلق به. ﴿**ما**﴾ بمعنى ليس تعمل عملها. ﴿**هذا**﴾ في محل رفع اسم ما. ﴿**بشراً**﴾ خبرها. ﴿**إن**﴾ نافية.

﴿**هذا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**إلاّ ملك**﴾ خبر المبتدإ، ﴿**وإلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**كريم**﴾ نعت لملك، وجملة ما هذا بشرا في محل نصب مقول القول. ﴿**قالت**﴾ فعل ماض. ﴿**فذلكن**﴾ في محل رفع مبتدأ، والفاء فاء الفصيحة. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**لمتنني**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل نون النسوة، والنون الأخيرة للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به، وجملة لمتنني صلة الذي. ﴿**فيه**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**ولقد راودته**﴾ معطوف على قالت فذلكن، واللام وقد لتأكيد الكلام. ﴿**عن نفسه**﴾ متعلق براودته. ﴿**فاستعصم**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**ولئن**﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، وإن شرطية. ﴿**لم يفعل**﴾ مجزوم بلم، وجملة لم يفعل في محل جزم فعل الشرط، والفاعل ضمير يعود على يوسف. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول يفعل. ﴿**آمره**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المتكلم، والضمير المتصل بالفعل مفعول، والجملة صلة ما.

﴿**ليسجنن**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، ونائب الفاعل هو يعود على يوسف، والجملة جواب القسم أغنت عن جواب الشرط. ﴿**وليكونن**﴾ مثل ليسجنن في الإعراب، فهو مبني على الفتح

لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة. ﴿**من الصاغرين**﴾ متعلق بمحذوف خبر يكون، واسمها ضمير يعود على يوسف. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**ربّ**﴾ منادى حذفت منه ياء النداء منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة تخفيفا. ﴿**السجن**﴾ مبتدأ. ﴿**أحبُّ**﴾ خبره. ﴿**إليّ ممّا**﴾ متعلقان بأحب. ﴿**يدعونني**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وجملة يدعونني صلة ما. ﴿**إليه**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**وإلاّ**﴾ أدغمت إن الشرطية في لا النافية. ﴿**تصرف**﴾ فعل الشرط مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير المخاطب، وهو ربّ. ﴿**عني**﴾ متعلق بتصرف. ﴿**كيدهن**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه.

﴿**أصب**﴾ فعل مضارع مجزوم بحذف العلة، والفاعل ضمير المتكلم، وهو يوسف، وهو جواب الشرط. ﴿**إليهن**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**وأكن**﴾ معطوف على أصب مجزوم بالسكون، واسم أكن ضمير المتكلم. ﴿**من الجاهلين**﴾ متعلق بمحذوف خبر أكن. ﴿**فاستجاب**﴾ فعل ماض اقترن به فاء التعقيب. ﴿**له**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**ربّه**﴾ فاعل. ﴿**فصرف عنه**﴾ معطوف على قوله فاستجاب. ﴿**كيدهن**﴾ مفعول به. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**هو**﴾ ضمير فصل. ﴿**السميع العليم**﴾ خبران لإنّ، وجملة إنّه هو السميع العليم تعليلية. ﴿**ثم**﴾ حرف عطف وترتيب وتراخ. ﴿**بدا**﴾ فعل ماض. ﴿**لهم من بعد**﴾ متعلقان به. ﴿**ما**﴾ في محل جر مضاف إلى بعد. ﴿**رأوا الآيات**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ما، وفاعل بدا مقدر يؤخذ من السياق، وهو الحكم عليه بالسجن.

﴿**ليسجننه**﴾ اللام للقسم، والفعل مؤكد بنون التوكيد، حذف واو الجماعة لالتقاء الساكنين، وحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال. ﴿**حتى حين**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**ودخل**﴾ فعل ماضٍ دخل عليه حرف العطف. ﴿**معه**﴾ متعلق بدخل. ﴿**السجن**﴾ مفعول به. ﴿**فتيان**﴾ فاعل دخل مرفوع بالألف. ﴿**قال أحدهما**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أراني**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الألف، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به. ﴿**أعصر**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المتكلم، والجملة حال من ضمير أراني. ﴿**خمراً**﴾ مفعول به. ﴿**وقال الآخر إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً**﴾ معطوف على قال أحدهما، فهو مثله في الإعراب. ﴿**تأكل الطير**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب نعت لخبزاً. ﴿**منه**﴾ متعلق بتأكل.

﴿نبئنا﴾ فعل أمر مبني على السكون، وضمير المتكلمين مفعول به، والفاعل ضمير المخاطب. **﴿بتأويله﴾** متعلق بنبئنا. **﴿إنّا﴾** إنّ واسمها. **﴿نراك﴾** فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الألف، وضمير المخاطب مفعول به، وفاعله نحن، وجملة نراك في محل رفع خبر إنّ. **﴿من المحسنين﴾** متعلق بالفعل قبله، وجملة إنّا نراك تعليلية. **﴿قال﴾** فعل ماض. **﴿لا يأتيكما﴾** فعل مضارع دخل عليه حرف النفي، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. **﴿طعامٌ﴾** فاعل. **﴿ترزقانه﴾** فعل مضارع مبني للمجهول، وألف المثنى نائب الفاعل، والنون علامة الرفع، والضمير المتصل به مفعول. **﴿إلاّ نبأتكما﴾** فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف الاستثناء. **﴿بتأويله﴾** متعلق بالفعل قبله. **﴿قبل﴾** ظرف منصوب بالفتحة متعلق بنبأتكما. **﴿أن يأتيكما﴾** فعل مضارع منصوب بأن، والفاعل ضمير يعود على الطعام، والضمير المتصل بالفعل مفعول، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور مضاف إلى قبل، وجملة ترزقانه في محل رفع نعت لطعام. **﴿ذلكما﴾** في محل رفع مبتدأ.

﴿مما﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. **﴿علمني﴾** فعل ماضٍ، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به. **﴿ربّي﴾** فاعل مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وياء المتكلم في محل جر مضافة إلى رب، وجملة ذلك ممّا علمني ربّي بيانية لا محل لها من الإعراب. **﴿إنّي﴾** إنّ واسمها. **﴿تركت ملة﴾** فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّي تركت تعليل. **﴿قوم﴾** مضاف إلى ملة. **﴿لا يؤمنون﴾** فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي، وجملة لا يؤمنون في محل جر نعت لقوم. **﴿بالله﴾** متعلق بالفعل قبله. **﴿وهم﴾** في محل رفع مبتدأ، والواو للعطف. **﴿بالآخرة﴾** متعلق بالخبر بعده. **﴿هم﴾** ضمير فصل. **﴿كافرون﴾** خبر المبتدإ. **﴿واتّبعت ملة﴾** فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف العطف. **﴿آبائي﴾** مضاف إلى ملة مجرور بكسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، **﴿آباء﴾** مضاف وياء المتكلم مضاف إليه، وفتحت للتخفيف. **﴿إبراهيم﴾** بدل بعض من كل مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. **﴿وإسحاق ويعقوب﴾** معطوفان على إبراهيم.

﴿ما كان﴾ فعل ماضٍ ناقص دخل عليه حرف النفي. **﴿لنا﴾** متعلق بمحذوف كان. **﴿أن نشرك﴾** فعل مضارع منصوب بأن، والفاعل نحن، وأن وما دخلت عليه

في تأويل مصدر مرفوع اسم كان مؤخر، أي: ما كان الإشراك ديناً لنا. ﴿**بالله**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**من شيء**﴾ جرّ بمن الزائدة لفظاً، وهو في محل نصب مفعول نشرك، وجملة ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء بيانية. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**من فضل**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى فضل. ﴿**علينا**﴾ متعلق بفضل. ﴿**وعلى الناس**﴾ معطوف على علينا، وجملة ذلك من فضل الله زيادة في البيان. ﴿**ولكنّ أكثر**﴾ لكنّ واسمها دخل عليها حرف العطف. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى أكثر. ﴿**لا يشكرون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لكنّ.

﴿**ياصاحبي**﴾ منادى منصوب بالياء. ﴿**السجن**﴾ مضاف إلى صاحبي. أأرباب مبتدأ دخل عليه حرف الاستفهام. ﴿**متفرقون**﴾ نعت لأرباب. ﴿**خير**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**أم الله**﴾ معطوف على المبتدإ. ﴿**الواحد القهار**﴾ عَطْفَا بَيَانٍ لله. ﴿**ما تعبدون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي. ﴿**من دونه**﴾ متعلق بتعبدون. ﴿**إلاّ أسماء**﴾ مفعول به دخلت عليه أداة الاستثناء. ﴿**سميتموها**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**أنتم**﴾ ضمير فصل في محل رفع بدل من الضمير الفاعل. ﴿**وآباؤكم**﴾ معطوف عليه. ﴿**ما أنزل الله**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي. ﴿**بها**﴾ متعلق بأنزل. ﴿**من سلطان**﴾ مجرور بمن الزائدة، ومحله النصب مفعول أنزل. ﴿**إن الحكم**﴾ مبتدأ دخل عليه حرف النفي. ﴿**إلاّ لله**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ، وإلاّ أداة استثناء مفرغ.

﴿**أمر**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل ضمير هو يعود على الله. ﴿**ألاّ تعبدوا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي وأن المصدرية؛ فأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر متعلق بأمر، والتقدير: أمر الله بعدم عبادة غيره. ﴿**إلاّ إيّاه**﴾ مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. الدين خبره. ﴿**القيم**﴾ نعت للدين. ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ تقدم إعراب مثله. ﴿**ياصاحبي السجن**﴾ كذلك. ﴿**أمّا أحدكما**﴾ مبتدأ دخل عليه حرف التفصيل. ﴿**فيسقي**﴾ فعل مضارع دخل عليه فاء التفريع، والفاعل هو. ﴿**ربّه**﴾ مفعول أول. ﴿**خمراً**﴾ مفعول ثان. ﴿**وأمّا الآخر فيصلب**﴾ مبني للمجهول، والجملة معطوفة على أمّا أحدكما. ﴿**فتأكل الطير**﴾ فعل وفاعل، والفاء للتعقيب.

﴿**من رأسه**﴾ متعلق بتأكل. ﴿**قضي**﴾ فعل ماضٍ مبني للمجهول. ﴿**الأمر**﴾ نائب الفاعل. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع نعت للأمر. ﴿**فيه**﴾ متعلق بالفعل بعده.

﴿**تستفتيان**﴾ فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، وألف المثنى فاعل، والجملة صلة الذي. ﴿**وقال**﴾ معطوف على ما قبله، والفاعل هو يعود على يوسف. ﴿**للذي**﴾ متعلق بقال. ﴿**ظن**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل هو. ﴿**أنّه**﴾ أنّ واسمها. ﴿**ناجٍ**﴾ خبر أنّ مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة. ﴿**منهما**﴾ متعلق بمحذوف نعت لناج. ﴿**اذكرني**﴾ فعل أمر، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به. ﴿**عند**﴾ متعلق باذكرني. ﴿**ربّك**﴾ مضاف إلى عند. ﴿**فأنساه**﴾ فعل ماضٍ، والفاء للتعقيب، والضمير المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿**الشيطان**﴾ فاعل. ﴿**ذكرَ**﴾ مفعول ثان. ﴿**ربّه**﴾ مضاف إلى ذكر. ﴿**فلبث**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**في السجن**﴾ متعلق بلبث. ﴿**بضع**﴾ منصوب على الظرفية. ﴿**سنين**﴾ مضاف إلى بضع مجرور بالياء.

﴿**وقال الملك**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف العطف. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أرى**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الملك. ﴿**سبع**﴾ مفعول به. ﴿**بقرات**﴾ مضاف إلى سبع. ﴿**سمان**﴾ نعت لبقرات. ﴿**يأكلهن**﴾ فعل مضارع، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**سبع**﴾ فاعل. ﴿**عجاف**﴾ نعت لسبع. ﴿**وسبع**﴾ معطوف على سبع بقرات. ﴿**سنبلات**﴾ مضاف إلى سبع. ﴿**خضر**﴾ نعت لسنبلات. ﴿**وأخر**﴾ معطوف على سبع سنبلات. ﴿**يابسات**﴾ نعت لأخر منصوب بالكسرة، وجملة يأكلهن حال من بقرات. ﴿**ياأيّها**﴾ منادى مبني على الضم في محل نصب، وها للتنبيه. ﴿**الملأُ**﴾ نعت لأيُّ. ﴿**أفتوني**﴾ فعل أمر. ﴿**في رؤياي**﴾ متعلق بأفتوني. ﴿**إن كنتم**﴾ كان واسمها دخل عليها حرف الشرط. ﴿**للرؤيا**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**تعبرون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله.

﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أضغاث**﴾ خبر لمبتدإ محذوف، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**وما نحن**﴾ ما واسمها دخل عليها حرف العطف. بتأويل متعلق بما بعده. ﴿**الأحلام**﴾ مضاف إلى تأويل. ﴿**بعالمين**﴾ خبر ما جُرّت بما الزائدة، وهي في محل نصب. ﴿**وقال الذي**﴾ فعل وفاعل، والواو للعطف.

﴿**نجا**﴾ فعل ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على الذي، والجملة صلة الذي. ﴿**منهما**﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل نجا. ﴿**وادّكر**﴾ فعل ماضٍ، والواو للعطف. ﴿**بعد**﴾ متعلق بادكر.

﴿**أمة**﴾ مضاف إلى بَعْدَ. ﴿**أنا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أنبئكم**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المتكلم، والضمير المتصل بالفعل مفعول، وجملة أنبئكم في محل رفع خبر المبتدإ، وجملة أنا أنبئكم في محل نصب مقول القول. بتأويله متعلق بالفعل قبله. ﴿**فأرسلوني**﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، وواو الجماعة فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به، والجملة مرتبة على ما قبلها بالفاء. ﴿**يوسف**﴾ منادى مبني على الضم في محل نصب، حذف حرفُ النداء. ﴿**أيُّها**﴾ بدل من يوسف. ﴿**الصديق**﴾ نعت لأيُّ. ﴿**أفتنا**﴾ فعل أمر مبني على حذف الياء، والفاعل ضمير المخاطب، وضمير الجماعة مفعول به. ﴿**في سبع**﴾ متعلق بأفتنا. ﴿**بقرات**﴾ مضاف إلى سبع. ﴿**سمان**﴾ نعت لبقرات. ﴿**يأكلهن سبعٌ عجاف**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**وسبع سنبلات خضر**﴾ معطوف على سبع بقرات. ﴿**وأخر**﴾ معطوف على سبع مجرور بالفتحة للوصفية والعدل.

﴿**يابسات**﴾ نعت لأخر مجرور بالكسرة. ﴿**لعلّي**﴾ لعل واسمها. ﴿**أرجع**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المتكلم، والجملة في محل رفع خبر لعل، وجملة لعلّي أرجع تعليلية. ﴿**إلى الناس**﴾ متعلق بأرجع. ﴿**لعلهم يعلمون**﴾ مثل لعلّي أرجع في الإعراب. ﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**تزرعون**﴾ فعل مضارع. ﴿**سبع**﴾ منصوب على الظرفية. ﴿**سنين**﴾ مضاف إلى سبع. ﴿**دأبا**﴾ منصوب على الحال من ضمير تزرعون. ﴿**فما حصدتم**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه ما الشرطية وفاء التعقيب. ﴿**فذروه**﴾ فعل وفاعل ومفعول جواب الشرط لدخول فاء الربط. ﴿**في سنبله**﴾ متعلق بجواب الشرط. ﴿**إلاّ قليلا**﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿**ممّا**﴾ متعلق بمحذوف نعت لقليلاً. ﴿**تحصنون**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**ثم يأتي**﴾ معطوف على تزرعون. ﴿**من بعد**﴾ متعلق بيأتي. ﴿**ذلك**﴾ في محل جر مضاف إلى بعد. ﴿**سبع**﴾ فاعل يأتي. ﴿**شداد**﴾ نعت لسبع. ﴿**يأكلن**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول يأكلن.

﴿**قدمتم**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**لهن**﴾ متعلق بقدمتم، وجملة يأكلن في

محل نصب حال من سبع شداد. ﴿**إلاّ قليلاً ممّا تأكلون**﴾ مثل إلاّ قليلاً ممّا تحصنون في الإعراب. ﴿**ثم يأتي من بعد ذلك عام**﴾ مثل يأتي من بعد ذلك سبع. ﴿**فيه**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**يغاث**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿**الناس**﴾ نائب الفاعل. ﴿**وفيه يعصرون**﴾ معطوف على فيه يغاث الناس، وجملة فيه يغاث الناس وما عطف عليه في محل جر نعت لعام. ﴿**وقال الملك**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف العطف. ﴿**ائتوني**﴾ فعل أمر. ﴿**به**﴾ متعلق بفعل الأمر. ﴿**فلمّا جاءه الرسول**﴾ جملة شرطية مفرعة عمّا قبلها. ﴿**قال ارجع إلى ربّك**﴾ جواب الشرط. ﴿**فاسأله**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**ما**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**بالُ**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**النسوة**﴾ مضاف إلى بال. ﴿**اللاتي**﴾ في محل جر نعت للنسوة. ﴿**قطعن أيديهن**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وجملة قطعن صلة الموصول. ﴿**إنّ ربّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**بكيدهن**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**عليم**﴾ خبر إنّ. ﴿**قال**﴾ فعل ماض، والفاعل هو يعود على الملك. ﴿**ما**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**خطبكن**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**إذ**﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بخطبكن. ﴿**راودتن يوسف**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿**عن نفسه**﴾ متعلق براودتنّ.

﴿**قلن**﴾ فعل وفاعل. ﴿**حاش لله**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**ما علمنا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي. ﴿**عليه**﴾ متعلق بعلمنا. ﴿**من سوء**﴾ مجرور بمن الزائدة، وهو في محل نصب مفعول به، وجملة ما علمنا عليه من سوء مقول القول. ﴿**قالت امرأة**﴾ فعل وفاعل. ﴿**العزيز**﴾ مضاف إلى امرأة. ﴿**الآن**﴾ ظرف زمان منصوب بالفتحة متعلق بما بعده. ﴿**حصحص الحق**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أنا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**راودته**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**عن نفسه**﴾ متعلق براودته. ﴿**وإنّه**﴾ إنّ واسمها، والواو للعطف. ﴿**لمن الصادقين**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ، واللام لتوكيد الخبر. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**ليعلم**﴾ الفعل منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل ضمير يعود على يوسف، وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور باللام متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**أنّي**﴾ أنّ واسمها. ﴿**لم أخنه**﴾ الفعل مجزوم بلم، والضمير المتصل بالفعل مفعول، والفاعل ضمير المتكلم، وجملة لم أخنه في محل رفع خبر أنّ. ﴿**بالغيب**﴾ متعلق بمحذوف حال من الفاعل. ﴿**وأنّ الله لا يهدي**﴾ الجملة من أنّ

واسمها وخبرها معطوفة على أنّي لم أخنه. ﴿**كيد**﴾ مفعول بيهدي. ﴿**الخائنين**﴾ مضاف إلى كيد مجرور بالياء.

مبحث الأسلوب البلاغي

وجه تسمية هذه السورة بسورة يوسف ظاهر، وهي من السور المكية، وعدد آياتها مائة وإحدى عشرة آية، وجاءت قصة يوسف في هذه السورة كاملة مفصلة مرة واحدة، فلم يذكر يوسف في غير هذه السورة إلاّ مرتين: في الأنعام، وفي غافر. ومناسبتها لما قبلها يتحقق في الآتى: ابتداؤها بالحروف: ألر مثل ما في سورتي يونس وهود. وفيها تثبيت فؤاد الرسول زيادة على ما تقدم من قصص الرسل التي سبقت قصة يوسف وتفصيلاً لقوله تعالى: «وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك»؛ ففي هذه السورة «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن». فأهمّ أغراض هذه السورة: بيان قصة يوسف مع إخوته، وما لقيه في حياته، والعبرة بحسن العواقب، ثم ما فيها من تسلية الرسول محمد ﷺ بما لقى من أقاربه، ثم ما فيها من عبر تاريخ الأمم والحضارة القديمة وقوانينها وعاداتها.

فجاءت هذه السورة على أسلوب استيعاب القصة على ما يقتضيه السياق إيجازاً وإطناباً تحدّياً للعرب بالمعارضة؛ فابتدأت أول ما ابتدأت: ﴿**ألر. تلك آيات الكتاب المبين**﴾: إنّه الكتاب المبين للعرب حيث جاء مكتوباً بحروفهم مقروءاً بلسانهم... ﴿**إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**﴾: وجملة إنّا أنزلناه تعليل للإبانة من جهتي لفظه ومعناه؛ فإن كونه قرآناً يدل على إبانة المعاني؛ لأنّه ما جعل مقروءاً إلاّ لما في تراكيبه من المعاني المفيدة للقارئ، وكونه عربياً يفيد إبانة ألفاظه المعانيَ المقصودة للذين خوطبوا به ابتداءً وهم العرب، فقد أفصحت عن التعليل المقصود جملةُ: لعلكم تعقلون، أي: رجاء حصول العلم لكم من لفظه ومعناه؛ لأنّكم عرب، فنزوله بلسانكم مشتملاً على ما فيه نفعكم هو سبب لعقلكم ما يحتوي عليه.

وعبر عن العلم بالعقل للإشارة إلى أنّ دلالة القرآن على هذا العلم قد بلغت في الوضوح حدَّ أنْ يُنَزَّلَ من لم يحصل له العلم منها منزلة من لا عقل له، وأنّهم

ماداموا معرضين عنه فهم في عداد غير العقلاء. . . ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين**﴾: هذه الآية جاءت مفصولة عما قبلها فلم تعطف؛ لأنّها تتنزل من جملة: إنّا أنزلناه قرآنا عربياً منزلة بدل الاشتمال؛ لأنّ أحسن القصص ممّا يشتمل عليه إنزال القرآن. وكون القصص من عند الله يتنزل منزلة الاشتمال من جملة تأكيد إنزاله من عند الله. وقوله: بما أوحينا إليك هذا القرآن يتضمن رابطاً بين جملة البدل والجملة المبدل منها. وافتتاح الآية بضمير العظمة للتنويه بالخبر. وتقديم الضمير (نحن) على الخبر الفعلي (نقص) يفيد الاختصاص رداً على من يطعن في القرآن بقوله: إنّ محمداً يأخذ القرآن من غيره من البشر، وفي هذا الاختصاص توافق بين جملة البدل والجملة المبدل منها في تأكيد كون القرآن من عند الله المفاد بقوله: إنّا أنزلناه قرآناً عربياً.

وجعل هذا القصص أحسن القصص؛ لأنّ بعض القصص لا يخلو من حسن ترتاح له النفوس، وقصص القرآن أحسن من قصص غيره من جهة حسن نظمه، وإعجاز أسلوبه، وبما يتضمنه من العبر والحكم. وبما أنّ قصص القرآن كلها واقعية بخلاف قصص الناس، فأكثره خيالي متصنع ليلفتوا به انتباه الناس، فإنّ القصص الوارد في القرآن كان أحسن؛ لأنّه وارد من العليم الحكيم، فهو يوحي ما يعلم أنّه أحسن نفعاً للسامعين في أبدع الألفاظ والتراكيب؛ فيحصل منه غذاء العقل والروح، وابتهاج النفس والذوق ممّا لا تأتي بمثله عقول البشر. وجيء باسم الإشارة (هذا) لزيادة التمييز، فقد تكرّر ذكر القرآن بالتصريح والإضمار واسم الإشارة ست مرات، فجمع له طرق التعريف كلها؛ وهي اللام والإضمار والعلمية والإشارة والموصولية والإضافة، وهي المعارف السبعة التي ذكرت في قول من أحصاها :

إنّ المعارف سبعة فيها سهل ... أنا صالح ذا ما الفتى ابني يارجل

وسابع المعارف المنادى الذي يأتي قريباً في قوله تعالى: ياأبت، يابنيّ. وجملة: وإن كنت من قبله لمن الغافلين: حال من ضمير المخاطب: محمد ﷺ. وأدخلت اللام في خبر كان؛ لأنّه جزء من الجملة الواقعة خبراً عن إن المخففة من الثقيلة؛ فالجملة مؤكدة من عدة وجوه. ومفهوم من قبله مقصود منه التعريض

بالمشركين ومن على شاكلتهم المعرضين عن هَدْي القرآن. . . ﴿**إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين**﴾: هذا شروع في بيان أحسن القصص، فهو بدل منه يشتمل عليه؛ فنادى يوسف أباه يعقوب ليقص عليه ما رأى في منامه. والنداء في الآية مع كون المنادى حاضراً مقصود به الاهتمام بالخبر الذي سيلقى إلى المخاطب، فينزل منزلة الغائب المطلوب حضوره، وهو كناية عن الاهتمام.

وجملة رأيتهم مؤكدة لجملة إنّي رأيت أحد عشر كوكباً. واستعمل ضمير جمع المذكر للكواكب والشمس والقمر لما في السجود من بعض الخضوع والانقياد، فنزلت منزلة العقلاء، ولأنها ترمز وتشير إلى الأخوة والأب والأم. . . ﴿**قال يابني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إنّ الشيطان للإنسان عدو مبين**﴾: جاءت الآية مفصولة عمّا قبلها على طريقة المحاورات، والنداء مع حضور المخاطب مستعمل في طلب إحضار الذهن اهتماماً بالغرض المخاطب فيه. والتصغير في قوله: يابُنيّ كناية عن تحبيب وشفقة؛ فَهِمَ يعقوب من هذه الرؤيا أنّ ابنه سيكون له شأن عظيم يسود به الناس وأهله حتى أباه وأمَّه وإخوته، وخاف أن يسمع إخوتُه ما سمعه ويفهموا ما فهمه فيحسدوه ويكيدوا لإهلاكه، فنهاه أن يقص رؤياه عليهم، وعلّله بقوله: فيكيدوا لك كيداً. وتنوين كيداً للتعظيم والتهويل زيادة في تحذيره من قص الرؤيا عليهم.

وجملة: إنّ الشيطان للإنسان عدو مبين زيادة في تعليل النهي عن قص الرؤيا على إخوته، وعداوة الشيطان لجنس الإنسان تحمله على أن يدفعهم إلى إضرار بعضهم ببعض. . . ﴿**وكذلك يجتبيك ربّك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إنّ ربّك عليم حكيم**﴾: وصلت الآية بما قبلها بالعطف على قوله: لا تقصص إعلاماً له بعلوّ قدره ومستقبل كماله. والإشارة في قوله: وكذلك إلى ما دلت عليه الرؤيا من العناية الربانية به، والتشبيه هنا تشبيه تعليل، أي: ومثل ذلك الشأن الرفيع والمجد البديع الذي تمثل لك في رؤياك يجتبيك ربّك ويختارك ويصطفيك على الناس وعلى آلك فتكون من عباده المخلصين.

وتأويل الأحاديث هنا: أعم من تأويل الرؤيا. وإتمام النعمة عليه إعطاؤه

النبُوءةَ، وهي تمامِ النِّعَمِ. والتشبيه في قوله: كما أتمها على أبويك من قبل **إبراهيم وإسحاق** تذكير لهِ بِنِعَمٍ سابقة. وجملة: إنّ ربّك عليم حكيم تذييل بتمجيد هذه النعم، وأنّها كائنة علىً وفق علمه وحكمته، وتصدير الجملة بإنّ للاهتمام، وهو ذريعة إلى إفادة التعليل... ﴿**لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين**﴾: هذا شروع في القصة بعد مقدمتين: الأولى في صفة القرآن. والثانية في رؤيا يوسف وما فَهِمَ منها أبُوه. وجمع الآيات مراعى فيها تعددها وتعدد أنواعها، وفيها من الدلائل على صدق محمد ﷺ، وأنّ القرآن وحي من الله.

والسائلون مراد منهم من يتوقع منه السؤال... ﴿**إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إنّ أبانا لفي ضلال مبين**﴾: كانت تلك الآيات وقت ما اجتمع الأخوة وتشاوروا وتحاوروا وتآمروا، فقالوا ما قالوا، والمراد بقولهم هذا تبرير ما يفعلونه بيوسف عندما يقترحون فعلاً يُبْعِدُ يوسف عن أبيه؛ فاقترحوا أولاً... ﴿**اقتلوا يوسف**﴾: ولكن القتل لم يرض البعض، فاقترحوا ثانياً... ﴿**أو اطرحوه أرضاً**﴾: أي مكان مجهول... ﴿**يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين**﴾: فهم لم يفعلوا هذا انتقاماً من يوسف، فجاء اقتراح ثالث... ﴿**قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابات الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين**﴾: واتفقوا على هذا الرأي الأخير؛ لأنّ في هذا عبرة في الاقتصاد من الانتقام، والاكتفاء بما يحصل به الغرض دون إفراط.

ثم أخذوا يتحيلون على تخليص يوسف من أبيه حتى يتسنى لهم ما دبروا... ﴿**قالوا ياأبانا مالك لا تأمنّا على يوسف وإنّا له لناصحون**﴾: فبهذا الكلام اللين المحرك لعاطفة الأب ـ يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف؟! ـ واجهوا أباهم بهذا الطلب... ﴿**أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون**﴾: وفي هذا القول الذي تواطأوا عليه عند أبيهم عِبْرةٌ من تواطئ أهل الغرض الواحد على التحيل لنصْبِ الأحابيل لتحصيل غرض دنيء، وكيف ابتدأوا بالاستفهام عن عدم أمنه إيّاهم على أخيهم وإظهار أنّهم نصحاء له، وحققوا ذلك بالجملة الاسمية وبحرف التوكيد، ثم أظهروا أنّهم ما حرصوا إلاّ على فائدة أخيهم، وأنّهم حافظون له، وأكدوا ذلك أيضا... ﴿**قال إنّي ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون**﴾: رد طلبهم بسببين؛ حزنه على يوسف بعد فراقه، وخوفه عليه

من الذئاب تفترسه دون رفاقه، فتأكيد الجملة بحرف التوكيد قطعاً لإلحاحهم بتحقيق أنّ حزنه لفراقه ثابت، تنزيلا لهم منزلة من ينكر ذلك، فأبوا إلاّ المراجعة. . . ﴿**قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنّا إذن لخاسرون**﴾: وأكدوا كلامهم بلام القسم وإنّ وإذن الجوابية واللام المؤكدة للخبر، تحقيقاً لحصول خسرانهم على تقدير حصول الشرط. وزيادة على هذه التأكيدات قولهم: ونحن عصبة، فقد أعادوا هذا القول مرة أخرى لعدم كلمة أخرى تناسب المقام، فهم عصبة لأبيهم يستند عليهم، وهم عصبة لأخيهم يحتفظ بهم! ..﴿**فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابات الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون**﴾: تفريع حكاية الذهاب به والعزم على إلقائه في الجب على حكاية المحاورة بين يعقوب وبنيه في محاولة الخروج بيوسف إلى البادية يؤذن بجمل محذوفة، فيها ذكر أنّهم ألحّوا على أبيهم حتى أقنعوه فأذن ليوسف بالخروج معهم، وهو إيجاز.

وجواب لمّا محذوف دل عليه: أن يجعلوه في غيابات الجب، والتقدير: جعلوه في غيابات الجب ـ ومثله كثير في القرآن ـ وهو من الإيجاز الخاص بالقرآن، فهو تقليل اللفظ لظهور المعنى. وجملة: وأوحينا إليه معطوفة على وأجمعوا، فهذا المُوحَى من مُهمّ عِبَر القصة. وجملة: لتنبئنّهم بأمرهم هذا بيان لجملة أوحينا، وأكدت باللام ونون التوكيد لتحقيق مضمونها. وجملة: وهم لا يشعرون في موضع الحال، فهذا إعلام بما يؤول إليه أمره وأمرهم فيما بعد. . . ﴿**وجاءوا أباهم عشاء يبكون قالوا ياأبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين**﴾: هذه الآية وصلت بما قبلها بالعطف على قوله: فلمّا ذهبوا به، والعطف بالواو لا يقتضي التعقيب السريع بخلاف الفاء، ومن عادة الرعاة أن يبقوا مدة، ثم يرجعوا إلى الحيّ، وغالبا ما يكون وصولهم مساءً، ولعلهم قصدوا ذلك حتى لا يظهر الكذب على ملامح وجوههم فيفتضح أمرهم، فهم أظهروا البكاء والنحيب وأخذوا يسردون حالهم وما هم عليه وما وقع ليوسف وما آل إليه.

ثم في نهاية كلامهم مع أبيهم لفقوا كلاماً قصدوا به نفي إلصاق التهمة بهم: وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين!! . . . ﴿**وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل**

سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾: المراد من هذه الجملة الفذة في بلاغتها أنّهم جاءوا بقميصه ملطخاً ظاهرُه بدم غير دم يوسف يدّعون أنّه دمه ليشهد لهم بصدقهم، فكان دليلاً على كذبهم؛ فنكر الدم، ووصفه باسم الكذب بعينه، فالعرب تضع المصدر موضع الصفة للمبالغة. وقيل: على قميصه؛ ليصور للقارئ والسامع أنّه موضوع على ظاهره وضعاً متكلّفا، وبهذا كله لم يصدقهم أبوهم: قال: بل سولت لكم أنفسكم أمرا؛ فحرف الإبطال إضراب لدعواهم أنّ الذئب أكله، فقد صرح لهم بكذبهم.

والإبهام الذي في كلمة (أمرا) يحتمل عدة أشياء، فهو لم يعلم تعيين ما فعلوه، وتنكير (أمرا) للتهويل. وفرع على ذلك إنشاء التصبر: فصبر جميل. وقوله: والله المستعان على ما تصفون عطف على جملة فصبر جميل، والتعبير عمّا أصاب يوسف بما تصفون في غاية البلاغة... **﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشراي هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون﴾**: وصلت الآية بما قبلها لإتمام الكلام على ما حصل ليوسف بعد ما ألقوه في الجب وتركوه هنالك، فجاءت سيارة من المسافرين فأرسلوا من يستقي لهم الماء من الجب فجاءه فأدلى دلوه فيه فتعلق به يوسف فظهر مع الدلو فلما رآه الوارد استبشر وفرح: قال يابشراي ...الخ، وكل هذا جرى ليوسف من تصرف الأخوة ومن تصرف السيارة تحت تصرف علم الله وحكمته، فلا أحد يحيط بسر هذا التصرف إلاّ الله العليم الخبير... **﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾**: الأسلوب هنا يقتضي أن تكون هذه الآية عطفاً على مقدر، فالتقدير: وأسروه بضاعة وذهبوا به إلى مصر وباعوه هنالك بثمن قليل؛ دراهم معدودة لزهادتهم فيه خوفاً من طلب أحد له، ومن شأن المسروق والموجود لقطة أن يباع بأي ثمن! ..**﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**: هذه الآية وصلت بما قبلها بالعطف مثل سابقتها تنميماً لما سيحصل ليوسف بعد بيعه.

والذي اشتراه من مصر هو العزيز المتولي على شؤون الملك بعد الملك. وامرأته: زوجته، أوصاها بإكرامه وإحسان منزلته رجاء أن ينتفعا به ويكون لهما ولداً عوضاً عن فقد الولد، وإنّما قال ذلك لحسن تفرسه في ملامح يوسف المؤذنة

بالكمال. وقوله: وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض بيان للغرض المقصود إليه وصول يوسف الى الحكم غاية المطاف. وقوله: ولنعلمه من تأويل الأحاديث معطوف على قوله: وكذلك مكنا، وهو غرض آخر يصل به يوسف إلى كرسي الملك. وقوله: والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون تذييل مقرر لمضمون كل ما حصل ليوسف من أمور جرت له ومن أمور ستجري عليه كلها مقدرة مرادة لله تعالى؛ فكل ما دبّر الأخوة، وكل ما أراده العزيز من يوسف، وما أرادته امرأته أمور ظاهرية لم تقدم ولم تؤخر من أمر الله شيئاً غير أنّ أكثر الناس يجهلون ذلك الأمر؛ فيقدرون أموراً يحسبونها تجري على ما يريدون!، فيعقوب قد أدرك هذا السر عندما قال: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون، ويوسف علم سرّ ذلك عندما أوحي إليه وهو في الجب ما يؤول إليه حاله في النهاية! ..**﴿ولمّا بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾**: هذا متصل بقوله: وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث زيادة في بيان معنى التمكن المتدرج من حال إلى حال، حتى وصل إلى الحكم بين الناس، والعلم بكيفية الإرشاد إلى الدين القيم دين الأنبئاء والمرسلين، وهذا نتيجة الإحسان الذي كان من خلق يوسف وسلوكه الديني والفطري... **﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنّه ربي أحسن مثواي إنّه لا يفلح الظالمون﴾**: هذه الآية معطوفة على قوله تعالى: وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه ... إلى آخر قوله، وما بينهما اعتراض لغرض بلاغيٍّ في السياق، فهو رجوع إلى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز بعد ما أمر امرأته بإكرام مثواه.

وأما الجمل المعترضة فجيء بها نموذجاً للقصة ليعلم السامع من أول الأمر أنّ ما لقيه يوسف من الفتن التي ستُحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة، وأنّه عليه السلام محسن في جميع أعماله. فالمراودة هنا عبارة عن التحيل لمواقعته إيّاها، والتعبير عن امرأة العزيز بطريق الموصولية في قوله: التي هو في بيتها؛ لقصد ما تؤذن به الصلة من تقرير عصمة يوسف؛ لأنّ كونه في بيتها من شأنه أن يطوّعه لمرادها. وتضعيف غلّقت لإفادة شدّة الفعل. وهيت اسم فعل أمر بمعنى بادر. ولك زيادة في بيان المقصود من الخطاب. واقتصر على هذا في التنزيل وهو منتهى النزاهة في التعبير.

وجملة: قال معاذ الله بيان مستأنف لجواب يوسف مبني على سؤال: وماذا قال بعد تسفل المرأة وهي سيدته إلى هذه الدركة من التذلل له، وهو كما قالت مريم ابنة عمران لذلك الذي تمثل لها بشراً سوياً: «إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا». وعلل هذه الاستعاذة بقوله: إنّه ربّي أحسن مثواي، وفي هذا التعبير تورية بلاغية؛ لأنّ الصيغة تحتمل معنيين: ربّي الذي أستعيذُ به، أو ربّي الذي اشتراني وربيت في بيته. ثم علل امتناعه بما هو خاص بنزاهة نفسه فقال: إنّه لا يفلح الظالمون، وضمير إنّه ضمير الشأن يفيد أهمية الخبر بعده، فهي موعظة جامعة... ﴿**ولقد همت به**﴾: الجملة موصولة بما قبلها في السياق دون ترتيب؛ لأنّ همها مقدم على المراودة، والمقصود من ذكر همها به التمهيد إلى ذكر انتفاء همه بها لبيان الفرق بين حاليهما في الدين؛ فإنّه معصوم من الخطإ والخيانة والظلم. وأكد همها بحرف القسم وحرف التحقيق وبالفعل الماضي؛ لأنّها عزمت عزماً محققاً، وكانت جادّةً في مراودتها لا مختبرة.

وجملة... ﴿**وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه**﴾: معطوفة على جملة: ولقد همت به، وليست معطوفة على جملة همت التي هي جواب القسم المدلول عليه باللام؛ فالتقدير: لولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها، فقدم الجواب على شرطه للاهتمام به، فبذلك يظهر أنّ يوسف لم يخالطه هَمٌّ بامرأة العزيز ولم يخطر بباله مجرد الخطور، فهو المعصوم المبرّأ من كل سوء... ﴿**كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين. واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر**﴾: هذه الجملة متصلة بما قبلها من قوله: ولقد همت، فالمعنى: ولقد همت به وأبا هو وسارع إلى الخارج حتى وصلا الباب الأخير ـ المدخل ـ وجذبت قميصه فقدته قبل أن يصلا إلى الباب، وهو لقوة الجذب وسرعة الهرب انقدّ القميص طولاً من الأعلى إلى الأسفل؛ ولذلك أسند القدُّ إليها دونه... ﴿**وألفيا سيدها لدى الباب**﴾: متصل بقوله: استبقا، والتعبير بسيدها دونه؛ لأنّ يوسف لم يكن عبداً له حقيقة.

والباب الذي استبقا إليه هو الباب الذي ألفيا لديه الزوج... ﴿**قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءً إلاّ أن يسجن أو عذاب أليم**﴾: استئناف مبني على سؤال سائل يقول: فماذا كان حين ألفيا العزيز عند الباب؟. فقيل: قالت ما جزاء ..إلخ.

وابتدرته بالكلام إمعاناً في البهتان بحيث لم تتلعثم، تخيل إليه أنّها على الحق. وأفرغت الكلام في قالب كلي ليأخذ صيغة القانون... ﴿**قال هي راودتني عن نفسي**﴾: فصلت هذه الجملة على طريق المحاورة. وهذا هو رد يوسف على التهمة التي وجهت إليه، وكلمة هي أفادت القصر، وهو قصر قلب للرد عليها... ﴿**وشهد شاهد من أهلها**﴾: معطوف على ما قبلها من المحاورة التي حصلت أمام العزيز، والقرآن لم يفصح عن الشاهد، وإنّما أتى به منكراً؛ لكنه شاهد مخصوص من أهلها، فالعبرة ليست في عينه، ولكن العبرة فيما شهد به... ﴿**إن كان قميصه قُدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قُدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين**﴾: وجملة إن كان قميصه مبينة لفعل شهد.

وزيادة وهو من الكاذبين بعد فصدقت، وزيادة وهو من الصادقين بعد فكذبت تأكيد لزيادة تقرير الحق كما هو شأن الأحكام... ﴿**فلمّا رأى قميصه قُدَّ من دبر قال إنّه من كيدكن إنّ كيدكن عظيم**﴾: تعقيب على الحكم السابق ونتيجة له. والذي رأى هو العزيز، فعلم أنّ يوسف بريء ممّا رمته به، وهو من كيد النساء؛ فضمير جمع الإناث خطاب لها، فدخل فيه من هن من صنفها بتنزيلهن منزلة الحواضر. ثم أمر يوسف بالإعراض عمّا رمته به بالكف عن إعادة الخوض فيه... ﴿**يوسف أعرض عن هذا**﴾: حذف منه حرف النداء لقربه وكمال تفطنه للحديث، وفيه تقريب له وتلطيف لمحله.

وأمر زوجه بالاستغفار من ذنبها... ﴿**واستغفري لذنبك**﴾: وعلّل أمره بقوله... ﴿**إنّك كنت من الخاطئين**﴾: وأكد هذا التعليل بإنّ ومواجتها بالخطاب وبثبوت كونها من الخاطئين، وهو غاية في اللوم والعتاب المر الوجيع له ولها!.. ﴿**وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبّاً إنّا لنراها في ضلال مبين**﴾: وظهر أمر امرأة العزيز بين بعض نساء الحي الذي كانت تسكن فيه، والقصد من هذا القول لومها على ما أرادت، فهي امرأة العزيز تراود فتاها المملوك، وهو أمر عجيب لا يخطر بالبال!.

والتعبير بالمضارع في **تراود**؛ لقصد استحضار الحالة العجيبة لقصد الإنكار واللوم على ما صنعت. وجملة: قد شغفها حبّاً في موضع التعليل لجملة تراود فتاها، فزدن هذا اللوم والإنكار عليه وعلى ما قبله بقولهن: إنّا لنراها في ضلال

مبين؛ فالتأكيد بإنّ واللام وعلمهن المؤكد بالاعتقاد الجازم، فهي غريقة في ضلال واضح لا يخفى على أحد؛ فالجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع، وتسجيل عليها بأنّها في أمرها على خطإ عظيم.

وإنّما لم يقلن: إنها لفي ضلال مبين إشعاراً بأنّ ذلك الحكم غير صادر عنهن مجازفة، بل عن حلم ورأي مع التلويح بأنّهن منزهات عن أمثال ما هي عليه... **فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن**: هذه الجمل جاءت مرتبة تعقيباً على قول النسوة: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، فبمجرد ما أخبرت بهذا الكلام سارعت إلى مكر أكبر من مكرهن حيث دعتهن إلى منزلها وهيأت لهن مكاناً خاصاً بهن لائقاً بمقامهن حسبما يعرف في بيوت الأمراء والكبراء؛ فلبين الطلب، واجتمعن في المكان المهيإ، وأخذت كل واحدة منهن مكانها وشرعن في مناولة ما يؤكل بعد الأكل من الفواكه التي تقطع بالسكاكين، وهن على هذه الحالة وإذا امرأة العزيز تأمر يوسف بالخروج من مكانه والدخول عليهن فجأة... **فلمّا رأينه أكبرنه: رأين شيئاً أعظم ما يتصور من الحسن والجمال والعظمة والكمال، ذهلن عمّا يفعلن ﴿وقطعن أيديهن... وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملك كريم﴾**!: الأسلوب هنا أسلوب بديع! لاَ يُشَوَّهُ بالتحليل والتقطيع، وإنّما يُتْرَكُ للقارئ كما جاء في النظم البديع! ..**﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه﴾**: الفاء فصيحة، والخطاب للنسوة، والإشارة إلى يوسف بالعنوان الذي وصفنه به الآن من الخروج في الحسن والجمال من المراتب البشرية، والاقتصار على الملكية.

ثم بعد ما أقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرها، وقد أصابهن من يوسف ما أصابها باحت لهن ببقية سرها فقالت... **﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾**: امتنع طالباً للعصمة، وهو بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد، وفيه برهان نَيِّرٌ على أنّه لم يصدر عنه شيء مخلٌّ باستعصامه بقوله: معاذ الله من الهم وغيره. اعترفت لهن أوّلاً بما كن يسمعنه من مراودتها له، وأكدته إظهاراً لابتهاجها بذلك، ثم زادت على ذلك أنّه أعرض عنها على أبلغ ما يكون ولم يمل إليها قط. ثم زادت عليه أيضاً أنّها مستمرة في ما كانت عليه غير مرعوية عنه بلوم العواذل ولا بإعراض الحبيب، فقالت... **﴿ولئن لم يفعل ما**

آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين﴾: ولقد أتت بهذا الوعيد المنطوي على فنون التأكيد بمحضر منهن ليعلم يوسف أنّها ليست في أمرها على خفية ولا خيفة من أحد، فتضيق عليه الحيل وتعيابه العلل، وينصحن له ويرشدنه إلى موافقتها.

ولما كان هذا الإبراق والإرعاد منها مظنة لسؤال سائل يقول: فما صنع يوسف حينئذ؟. فقيل... **﴿قال ربّ السجن أحب إلى ممّا يدعونني إليه وإلاّ تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾**: فهذا القول من يوسف استغاثة بربّه والتجاء إليه، فهو الذي يصرف عنه السوء والفحشاء، وفضّل السجن مع ما فيه من الألم والشدة وضيق النفس على ما يدعونه إليه من الاستمتاع بالمرأة الحسنة النفيسة على ما فيه من اللذة، ولكن كرهه لفعل الحرام. فلمّا علم أنّه لا محيض من أحد الأمرين صار السجن محبوباً إليه، باعتبار أنّه يخلصه من الوقوع في الحرام. وأسند الفعل إلى ضمير جمع النساء مع أن التي دعته امرأة واحدة؛ لأنّ تلك الدعوة من رغبات صنف النساء.

وجملة وإلاّ تصرف عني كيدهن، خبر مستعمل في التخوف والتوقع؛ التجاء إلى الله، وملازمة للأدب نحو ربّه بالتبرّؤ من الحول والقوة، والخشية من تقلب القلب ومن الفتنة بالميل إلى اللذة الحرام؛ فالخبر مستعمل في الدعاء، ولذلك فرع عنه جملة... **﴿فاستجاب له ربه﴾**: وعطف جملة: **﴿فصرف﴾** على استجاب بالفاء كذلك؛ فهو تعقيب سريع بالاستجابة لطلبه بصرف كيدهن. وفي إسناد الاستجابة إلى الرب مضاف إلى يوسف ما لا يخفى من إظهار اللطف. وجملة... **﴿إنّه هو السميع العليم﴾**: في موضع العلة لاستجاب المعطوف بفاء التعقيب، أي: أجاب دعاءه بدون مهلة؛ لأنّه سريع الإجابة، وعليم بالضمائر الخالصة؛ فالسمع مستعمل في إجابة المطلوب، وتأكيده بضمير الفصل لتحقيق ذلك المعنى... **﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتى حين﴾**: ثم هنا للترتيب الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل؛ فإنّ ما بدا لهم أعجب بعد ما تحققت براءته. والضمير في لهم لجماعة العزيز من مشير وآمر. وجملة: ليسجننه جواب قسم محذوف وهي معلقة فعل بدا عن العمل فيما بعده؛ لأجل لام القسم؛ لأنّ ما بعد لام القسم كلام مستأنف، والتقدير: بدا لهم ما يدل عليه هذا القسم... **﴿ودخل معه السجن فتيان﴾**: هذا عطف على مفهوم ما قبله، أي: فسجنوه ودخل معه السجن فتيان، وهما من فتيان ملك مصر.

وجملة... ﴿**قال أحدهما**﴾: ابتداء محاورة كما دل عليه قال... ﴿**إنّي أراني أعصر خمرا**﴾: مقول قول الأول، وهو أنّه رأى نفسه في المنام يعصر عنباً ليكون بعد العصر والصنع خمراً، ففيه مجاز الأُول... ﴿**وقال الآخر**﴾: معطوف على قال أحدهما... ﴿**إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه**﴾: مقول قول الآخر، وهو ما رآه في منامه. والتعبير بالمضارع في المقولين لاستحضار صورة الماضي... ﴿**نبئنا بتأويله**﴾: طلبا منه تعبير رؤياهما. وعللوه بقولهما... ﴿**إنّا نراك من المحسنين. قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلاّ نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما**﴾: جملة قال لا يأتيكما طعام جواب عن كلامهما، فصلت على أسلوب حكاية جمل التحاور. أراد بهذا الجواب أن يفترض إقبالهما عليه وملازمة الحديث معه؛ إذ هما يترقبان تعبيره الرؤيا، فيدمج في ذلك دعوتهما إلى الإيمان الصحيح مع الوعد بأنّه يعبر لهما رؤياهما غير بعيد، وجعل لذلك وقتاً معلوماً لهم، وهو وقت إحضار طعام المساجين؛ إذ ليس لهم في السجن حوادث يوقتون بها.

ووصْفُ الطعام بجملة ترزقانه تصريح بالضبط بأنّه طعام معلوم الوقت، لا ترقب طعام يُهْدَى لهما بحيث لا ينضبط حصوله. وضمير بتأويله عائد إلى ما عاد إليه ضمير بتأويله الأول، وهو المنام، ولا ينبغى أن يعود إلى طعام؛ إذ لا يحسن إطلاق التأويل عن الإنباء بأسماء أصناف الطعام خلافاً لما سلكه جمهور المفسرين. والاستثناء في قوله: إلا نبأتكما بتأويله استثناء من أحوال متعددة تناسب الغرض، وهي حال الإنباء بتأويل الرؤيا وحال عدمه، أي: لا يأتي الطعام المعتاد إلاّ في حال أنّي قد نبأتكما بتأويل رؤياكما، أي: لا في حال عدمه. فالقصر المستفاد من الاستثناء إضافي، وجردت جملة الحال من الواو وقد مع أنّها ماضية اكتفاء بربط الاستثناء.

وجملة... ﴿**ذلكما ممّا علمني ربي**﴾: استئناف بياني؛ لأنّ وعده بتأويل الرؤيا في وقت قريب يثير عجب السائلين عن قوة علمه، وعن الطريقة التي حصل بها هذا العلم، فيجيب بأنّ ذلك ممّا علمه الله بوحي منه إليه، لا بكهانة ولا بعرافة ولا تنجيم؛ فهو تخلص إلى دعوتهما للإيمان بإله واحد. وزاد في الاستئناف البياني جملة... ﴿**إنّي تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله**﴾: لأنّ الإخبار بأنّ الله علّمه التأويل وعلوماً أخرى ممّا يثير السؤال عن وسيلة حصول هذا العلم،

فأخبر بأنّ سبب عناية الله به أنّه انفرد في ذلك المكان بتوحيد الله وترك ملة أهل المدينة، فأراد الله اختياره لهديهم.

وجملة... ﴿**وهم بالآخرة هم كافرون**﴾: زيادة في معنى قوله: لا يؤمنون بالله، وأكد هذه الجملة بضمير الفصل... ﴿**واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب**﴾: أنّه إنّما حاز هذه الكمالات، وفاز بتلك الكرامات بسبب أنّه اتبع ملة آبائه الكرام، ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدإ والمعاد. وإنّما قال يوسف هذا الكلام ترغيباً لصاحبيه في الإيمان والتوحيد، وتنفيراً لهما عمّا كانا عليه من الشرك والضلال. وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه ملة آبائه؛ لأنّ التخلية متقدمة على التحلية... ﴿**ما كان**﴾: ما صح وما استقام فضلاً عن الوقوع... ﴿**لنا**﴾: معاشر الأنبئاء لقوة نفوسنا ووفور علومنا... ﴿**أن نشرك بالله من شيء**﴾: أي شيء كان من ملكي أو جني أو إنسي فضلاً عن الجماد البَحْت... ﴿**ذلك**﴾: التوحيد المدلول عليه بقوله: ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء... ﴿**من فضل الله علينا**﴾: ناشئ من تأييده لنا بالنبوءة وترشيحه إيّانا لقيادة الأمة وهدايتهم إلى الحق، فهذا فضل عظيم علينا بالذات... ﴿**وعلى الناس**﴾: كافة بواسطتنا، وهو المقصود من الترغيب بالجملة.

وأتى بالاستدراك بقوله... ﴿**ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾: للتصريح بأنّ حال المخاطبين في إشراكهم حال من يكفر نعمة الله؛ فإرسال الهداة نعمة ينبغي أن ينظر الناس فيها، فيعلموا أنّ ما يدعونهم إليه خير وإنقاذ لهم من الانحطاط في الدنيا، والعذاب في الآخرة؛ ولأنّ الإعراض عن النظر في أدلة صدق الرسل كفر بنعمة العقل والنظر... ﴿**ياصاحبي السجن**﴾: استئناف ابتدائي مُصَدَّرٌ بتوجيه الخطاب إلى الفتيين بطريق النداء المسترعي سمعهما إلى ما يقوله؛ للاهتمام به. وعبر عنهما بوصف الصحبة في السجن دون اسميهما؛ للإيذان بما حدث من الصلة بينهما في دار الأشجان ودار الأحزان التي تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة؛ ليقبلا عليه ويتقبلا مقالته.

وقد ضرب لهما مثلاً يتضح به الحق عندهما حقَّ اتّضاح فقال... ﴿**أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار**﴾؟: وأراد بالكلام الذي كلمهما به تقريرهما بإبطال دينهما؛ فالاستفهام تقريري. وأرباب متفرقون: مختلفون في الإرادة والقدرة

والشكل واللون والصفة والهدف الذي يريده من مربوبيه. وبعد أن أثار لهما الشك صحة إلهية أربابهم المتعددين انتقل إلى إبطال وجود تلك الآلهة على الحقيقة بقوله... ﴿**ما تعبدون من دونه إلاّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان**﴾: ومعنى قصرها على أنها أسماء قصراً إضافيا أنّها أسماء لا مسميات، فليس لها في الوجود إلاّ أسماؤها.

وقوله: أنتم وآباؤكم جملة مفسرة للضمير المرفوع في سميتموها، والمقصود من ذلك الرد على آبائهم سدّاً لمنافذ الاحتجاج؛ لأحقيتها بأنّ تلك الآلهة معبودات آبائهم، وإدْمَاجاً لتلقين المعذرة لهما؛ ليُسهّلَ لهما الإقلاع عن آلهة متعددة. وإنزال السلطان كناية عن إيجاد دليل إلهيتها في شواهد العالم. وجملة... ﴿**إن الحكم إلاّ لله**﴾: إبطال لجميع التصرفات المزعومة لآلهتهم بأنّها لا حكم لها فيما زعموا أنّه من حكمها وتصرفها. وجملة... ﴿**أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه**﴾: انتقال من أدلة إثبات انفراد الله تعالى بالإلهية إلى التعليم بامتثال أمره ونهيه؛ لأنّ ذلك نتيجة إثبات الإلهية والوحدانية له، فهي بيان لجملة إن الحكم إلاّ لله من حيث ما فيها من معنى الحكم.

وجملة... ﴿**ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾: خلاصة لما تقدم من الاستدلال، وهو بمنزلة رد العجز على الصدر لقوله: إنّي تركت ملة قوم ... إلى آخر كلامه في هذا الموضوع. والاستدراك هنا جاء لنفي العلم. وجاء الاستدراك بنفي الشكر نظراً لما يقتضيه المقام في كل الموضوعين... ﴿**ياصاحبي السجن أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان**﴾: افتتح خطابهما بالنداء اهتماماً بما يلقيه إليهما من التعبير، وخاطبهما بمثل الخطاب السابق، وهذا التعبير جاء بعدما وعدهم به، وبعدما استغل فرصة وجودهما معه، فبيّن لهم حقيقة الدين القيم الذي هو عليه مثل آبائه، ثم بيّن لكل واحد منهما نتيجة ما رأى في منامه. وجملة: قضي الأمر الذي فيه تستفتيان تحقيق لما دلت عليه الرؤيا... ﴿**وقال للذي ظن أنّه ناج منهما اذكرني عند ربّك**﴾: وصل الكلام بما قبله بالعطف تكملة لكلام يوسف. والظن هنا مستعمل في القريب من القطع؛ لأنّه لا يشك في صحة تعبيره للرؤيا.

وأراد بذكره ذكر قضيته ومظلمته، وأراد بربّه ملك مصر... ﴿**فأنساه الشيطان**

ذكر ربّه﴾: أنسى الشيطان الذي نجا أن يذكر حال يوسف للملك بما ألقاه في نفسه من الأشغال الخاصة به فنسي يوسف... **﴿فلبث في السجن بضع سنين. وقال الملك إنّي أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾**: وصل الكلام بما قبله بالعطف تكملة لوصف خلاص يوسف من السجن. والتعريف في الملك للعهد؛ فالتعبير عنه بالملك في القرآن دون التعبير بفرعون؛ لأنّ الحكم في هذا الوقت لم يكن للفراعنة القبط، وإنما كان لملوك الرعاة (الهكسوس)، كما هو معلوم ممّا دلت عليه الآثار، فهو من دقائق إعجاز القرآن العلمي.

وبعد ما رأى هذه الرؤيا في منامه أحضر الملأ من قومه فناداهم... **﴿ياأيّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾**: فردوا عليه سريعاً بأنّهم لا يعلمون عن هذا الحلم المختلط بالبقرات السمان والعجاف والسنبلات الخضر واليابسات شيئاً... **﴿قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾**: فلمّا ظهر جهلُ الملإ وغموض تعبير هذا الحلم تذكر الذي كان في السجن مع يوسف وتذكر ما أوصاه يوسف به، وهو يعلم علم يوسف بتأويل الأحلام كما وقع له ولصاحبه معه، فأراد أن يدلهم على من يعلم تأويل هذا الحلم... **﴿وقال الذي نجا منهما وادّكَر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلوني﴾**: فأرسلوه وجاء يوسف في السجن وناداه بقوله... **﴿يوسف أيّها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾**: والصديق أصله صفة مبالغة مشتقة من الصدق، وصف به يوسف عن خبرة وتجربة عندما كان معه في السجن.

وإعادة العبارات المحكية عن الملك بعينها إشارة إلى أنّه بلّغ السؤال كما تلقاه، وذلك تمام أمانة الناقل، وعلّل ذلك بقوله: لعلي أرجع إلى الناس، وهم الملأ من خواص الملك، وعلل ذلك بقوله: لعلهم يعلمون؛ فحذف معمول يعلمون ليعم الخبر كل ما يهم... **﴿قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلاّ قليلاً ممّا تأكلون﴾**: هذا جواب لقول السائل أفتنا، وقد عبّر له الرؤيا بكل ما دلت عليه؛ فالبقرات للسنين الزراعة، والسمان رمز للخصب، والعجاف رمز للقحط، والسنبلات رمز للأقوات، فالسنبلات الخضر رمز لطعام

ينتفع به، وكونها سبعاً رمز للانتفاع به في السبع السنين، فكل سنبلة رمز لطعام سنة، فذلك يقتاتونه في تلك السنين جديداً، والسنبلات اليابسات رمز لما يدخر، وكونها سبعاً رمز لادخارها في سبع سنين؛ لأنّ البقرات العجاف أكلت البقرات السمان وتأويل ذلك: أنّ سني الجدب أتت على ما أثمرته سنو الخصب.

وقوله: تزرعون خبر عمّا يكون من عملهم، وذلك أنّ الزرع عادتهم؛ فذكره إيّاه تمهيد للكلام الآتي؛ ولذلك قيده بدأبا، وقد مزج تعبيره بإرشاد جليل لأحوال التموين والادخار لمصلحة الأمة، فأشار إلى إبقاء ما فضل من أقواتهم في سنبله ليكون أسلم له من الفساد بالرطوبة والسوس. وأشار عليهم بتقليل ما يأكلون في سنوات الخصب لادخار ما فضل عن ذلك لزمن الشدة. ووصف السنين بالشدة على طريق المجاز العقلي، ووصفها بالأكل كذلك، وهو قوله... **﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلاّ قليلا مما تحصنون﴾**: وأمّا قوله... **﴿ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾**: فهو بشارة وإدخال لمسرة الأمل بعد الكلام المؤيس، وهو من لازم انتهاء مدة الشدة. ومن سنن الله تعالى في الحصول لليسر بعد العسر.

وعبر بالعام بدل السنين لتغيير الحال، وهو عام الغوث والعصر للثمار والدرس للغلال. وهذا زيادة على ما في رؤيا الملك جاءه به الوحي دليلاً على رسالته وحسن تصرفه في الحال والمآل... **﴿وقال الملك ائتوني به﴾**: معطوف على ما قبله موصول به، وقول الملك موجه للملإ أن يختاروا من يرسلونه إلى يوسف ليأتيهم به؛ ولذلك فرع عليه... **﴿فلمّا جاءه الرسول قال ارجع إلى ربّك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إنّ ربّي بكيدهن عليم﴾**: وقد أبى يوسف الخروج من السجن قبل أن تثبت براءته مما رُمِيَ به في بيت العزيز، وجعل طريق تقرير براءته مفتتحة بالسؤال عن الخبر، لإعادة ذكره من أوله.

وهذه حكمة عظيمة تحق بأن يتأسّى بها، وجعل السؤال عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز تسهيلاً للكشف عن أمرها، ولأنّ النسوة كن شواهد على إقرار امرأة العزيز، فلا جرم كان طلب الكشف عن أولئك النسوة منتهى الحكمة في البحث وغاية الإيجاز في الخطاب. وجملة: إنّ ربّي بكيدهن عليم من كلام يوسف، وهو تذييل وتعريض بأنّ الكشف المطلوب سيتجلّى عن براءته

وظهور كيد الكائدات له ثقة بالله ربّه أنّه ناصره. . . ﴿**قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه**﴾؟: جملة قال ما خطبكن مستأنفة إستئنافاً بيانياً؛ لأنّ الجمل التي سبقتها تثير سؤالاً في نفس السامع عمّا حصل من الملك لمّا أبلغ إليه اقتراح يوسف، مع شدة تشوقه إلى حضوره بين يديه. ووقوع هذا بعد جملة ارجع إلى ربّك مؤذن بكلام محذوف، تقديره: فرجع فأخبر الملك فأحضر الملك النسوة اللاتي كانت جمعتْهن امرأة العزيز لمّا اعتدت لهن متكئاً فقال لهن: ما خطبكن؟.

وجملة. . . ﴿**قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء**﴾: مفصولة؛ لأجل كونها حكاية جواب عن كلام الملك. وحاش لله مبالغة في النفي والتنزيه. وجملة ما علمنا عليه من سوء مبينة لإجمال النفي الذي في حاش لله، وهي جامعة لنفي مراودتهن إيّاه ومراودته إيّاهن؛ لأن الحالتين من أحوال السوء. . . ﴿**قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصادقين**﴾: جاءت هذه الجملة مفصولة؛ لأنّها حكاية جواب عن سؤال الملك، وهذا يدل على كلام محذوف، وهو أنّ امرأة العزيز كانت حاضرة من جملة النسوة اللاتي أحضرهن الملك. ولم يشملها قول يوسف: ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن؛ لأنّها لم تقطع يدها معهن، ولكن شملها كلام الملك إذ قال: إذ راودتن يوسف عن نفسه ففي الكلام إيجاز حذف، وقد اعترفت المرأة اعترافاً كاملاً أمام الملك؛ فتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في جملة أنا راودته للقصر؛ لإبطال أن يكون النسوة راودنه فهذا إقرار منها على نفسها وشهادة لغيرها بالبراءة وزادت فأكدت صدقه بأن واللام، وصيغة من الصادقين. . . ﴿**ذلك ليعلم إنّي لم أخنه بالغيب وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين**﴾: هذا تعليل لقولها: أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصادقين؛ فالإشارة بذلك إلى الإقرار المستفاد من جملة أنا راودته عن نفسه، أي: ذلك الإقرار ليعلم يوسف أنّي لم أخنه بالغيب. والتعريف في (الغيب) تعريف الجنس. تمدحت بعدم الخيانة على أبلغ وجه؛ إذ نفت الخيانة في الغيب وهو حائل بينه وبين دفاعه عن نفسه، وجملة وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين عطف على ليعلم، وهو علة ثانية لإصداعها بالحق، والخبر مستعمل في لازم الفائدة.

خلاصة المعنى العام وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**ألر. تلك آيات الكتاب المبين. إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون. نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين**﴾: في هذا التوجيه بيان للرسول محمد ﷺ بقيمة هذا القرآن المعجز للبشر المتحدى به الإنس والجن، فهو الذي أنزله الله قرآناً عربياً؛ مكتوباً بحروف العرب، ومؤلفاً على أسلوب العرب، ومقروءاً بلسان العرب؛ ففيه توجيه مباشر لكل مخاطب يعقل هذا المعنى من هذا الكلام العربي المبين. ثم وضح هذا توضيحاً كاملاً مدللاً بالشواهد المحسوسة والمعقوله: نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين؛ فالشاهد المحسوس هو من أوحى الله إليه هذا القرآن، وهو أمي وقومه أميون لا يدرون من أمر الماضي شيئاً إلاّ ما ندر وقل ممّا كان يتحدث به في بيئتهم وما سمعوه من قصص وخرافات إن صح القليل منه فكثيره باطل.

والشاهد المعقول هو إخبار القرآن بما كان مجهولاً للناس جميعاً من أخبار الرسل على وجه العموم، وما في هذه السورة على وجه الخصوص؛ فإليك هذا البيان لأحسن القصص الذي سيتلى عليك... ﴿**إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين**﴾: فهذا هو المشهد الأول من مشاهد القصة التي اختيرت في هذه السورة من أحسن القصص التي وعد الله قصها لرسوله، فنرى أو نسمع يوسف الصبي يقص رؤياه على أبيه؛ كان يوسف صبياً أو غلاماً. وهذه الرؤيا كما وصفها لأبيه ليست من رؤى الصبية ولا الغلمان، وأقرب ما يراه غلام ـ حين تكون رؤياه صبيانية أو صدى لما يحلم به ـ أن يرى هذه الكواكب والشمس والقمر في حجره أو بين يديه يَطُولُها، ولكن يوسف رآها ساجدة له، متمثلة في صورة العقلاء الذين يحنون رءوسهم بالسجود تعظيماً. والسياق يروي عنه في صيغة الإيضاح المؤكدة: إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر، ثم يعيد لفظ رأى: رأيتهم لي ساجدين؛ لهذا أدرك أبوه يعقوب بحسه وبصيرته أنّ وراء هذه الرؤيا شأناً عظيماً لهذا الغلام، لم يفصح عنه، ولم يفصح عنه سياق القصة، ولا تظهر بوادره إلاّ بعد حلقتين منها، أمّا تمامه فلا يظهر إلاّ في نهاية القصة بعد انكشاف الغيب المحجوب. ولهذا نصحه

بألاّ يقص رؤياه على إخوته خشية أن يستشعروا ما وراءها فتمتلئ نفوسهم بالحقد فيدبروا له أمراً يسوءه. . . ﴿**قال يابني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً**﴾: ثم علل هذا بقوله. . . ﴿**إنّ الشيطان للإنسان عدو مبين**﴾: ومن ثم فهو يوغر صدور الناس بعضهم على بعض، ويزين لهم الخطيئة والشر.

ويعقوب قد أحس من رؤيا ابنه يوسف أن سيكون له شأن، فاتجه خاطره إلى أنّ هذا الشأن في وادي الدين والصلاح والمعرفة بحكم جو النبوءة الذي يعيش فيه، وما يعلمه من أنّ جده إبراهيم مبارك من الله هو وأهل بيته المؤمنين؛ فتوقع أن يكون يوسف هو الذي يختار من أبنائه من نسل إبراهيم لتحل عليه البركة، وتتمثّل فيه السلسلة المباركة في بيت إبراهيم. فقال له. . . ﴿**وكذلك يجتبيك ربّك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم واسحاق إنّ ربّك عليم حكيم**﴾: إنّ هذا الكلام من يعقوب لابنه يوسف، فهم مغزاه من الرؤيا التي رآها يوسف بأنّ ابنه سيكون له شأن عظيم من الإلهام والنبوءة والرسالة. ثم بعدها لِمَا يكون له من الملك والسلطان، فكل هذا لما له من العناية والرعاية من ربّه العليم الحكيم.

وقد جاءت القصة من أولها إلى آخرها مفسرة لهذا الكلام. . . ﴿**لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين**﴾: هذا شروع في القصة بعد مقدمتين؛ الأولى في صفة القرآن وكونه تنزيلاً من الرحمن، دالاً على رسالة من أنزل عليه، وكونه عربياً تقوم به الحجة على العرب أهل هذا اللسان. والثانية رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه وما استشفه منها في مستقبل الزمان. وهذا الترتيب في الوضع والتنسيق في الصنع إعجاز مقصود منه صحة دعوة الرسول الأمي الذي لم يكن يعلم شيئاً قبل إنزال هذا القرآن. وتبتدئ القصة بإثارة انتباه السامع لما فيها من الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته، وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده، وتربيته لهم، وحسن عنايته بهم، للسائلين عنها من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها؛ لأنّهم هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم به منه، فإنّ للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلاّ منها.

فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابات الجب، ولو لم يلقوه لما

وصل إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراستِه أمانتَه وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله، ولو لم تراوده امرأة عن نفسه ويستعصم لما ظهرة نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما ألقي في السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن لما عرفه ساقي ملك مصر وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به وله وجعله على خزائن الأرض، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهله أجمعين من المخمصة ويأتي بهم إلى مصر فيشاركوه في رياسته ومجده، بل لما تم قول أبيه له: ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب؛ فما من حلقة من هذه السلسة إلاّ وكان ظاهرها محرقاً وباطنها مشرقاً!، وبدايتها شراً وخسراً وعاقبتها خيراً وفوزاً وفخراً. فهذه أنواع من آيات الله للسائلين عن وقائع القصة والحكمة من عرضها منسّقةً هذا التنسيق العجيب؟. فهذا الافتتاح كفيل بتحريك الانتباه والاهتمام ليرى بعده مباشرة مشهد إخوة يوسف يدبرون ليوسف ما يدبرون. . . ﴿**إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منّا ونحن عصبة إنّ أبانا لفي ضلال مبين**﴾: كيف يكون هذا؟!.

فما الحيلة وما التدبير في هذا الأمر الخطير؟. ثم يغلي الحقد ويدخل الشيطان فيختلّ تقديرهم للوقائع، وتتضخم في حسهم أشياء صغيرة، وتهون أحداث ضخام؛ فتهون عندهم إزهاق روح غلام بريء لا يملك دفعاً عن نفسه، وهم له أخوة وهم أبناء نبيء؛ يهون هذا، وتضخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب. . . ﴿**اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً**﴾: وهما قريب من قرب، فطرحه في أرض نائية مقطوعة مفض في الغالب إلى الموت. ولماذا؟ ..﴿**يخل لكم وجه أبيكم**﴾: فلا يحجبه يوسف، وهم يريدون قلبه، كأنه حين لا يراه في وجهه يصبح قلبه خالياً من حبه، ويتوجه لهذا الحب إلى الآخرين!. والجريمة؛ الجريمة تتُوبُون عنها وتصلحون ما أفسدتم بارتكابها. . . ﴿**وتكونوا من بعده قوماً صالحين**﴾: هكذا ينزغ الشيطان، وهكذا يسول للنفوس عندما تغضب وتفقد زمامها، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث، وهكذا لما غلي في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم: اقتلوا، والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات!. وليست التوبة هكذا، إنّما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر؛ حتى إذا تذكر ندم، وجاشت نفسه بالتوبة، أما التوبة الجاهزة!، التوبة التي تعد

سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة فليست بالتوبة؛ إنّما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان!.

ولكنّ ضميراً واحداً فيهم، فارتعش لهول ما هم مقدمون عليه، فاقترح حلاً يريحهم من يوسف، ويخلي لهم وجه أبيهم، ولكنّه لا يقتل يوسف ولا يلقيه في أرض مهجورة يغلب فيها الهلاك؛ إنّما يلقيه في الجب على طريق القوافل، حيث يرجح أن تعثر عليه إحدى القوافل فتنقذه وتذهب به بعيداً. . . ﴿**قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابات الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين**﴾: ويحس من قوله: إن كنتم فاعلين، روح التشكيك؛ كأنّه يشككهم في أنّهم مصرون على إيقاع الأذى بيوسف، وهو أسلوب من أساليب التثبيط عن الفعل، واضح فيه عدم الارتياح للتنفيذ، ولكنّ هذا كان أقل ما يشفي حقدهم، ولم يكونوا على استعداد للتراجع فيما اعتزموه.

يفهم هذا من المشهد التالي في السياق؛ فها هم أولاء عند أبيهم يراودونه في اصطحاب يوسف معهم منذ الغداة، وها هم أولاء يخادعون أباهم، ويمكرون به وبيوسف. . . ﴿**قالوا ياأبانا ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنّا له لناصحون. أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون**﴾: والتعبير يرسم بكلماته وعباراته كل ما بذلوه ليتدسسوا به إلى قلب الوالد المتعلق بولده الصغير الحبيب، الذي يتوسم فيه أن يكون الوارث لبركات أبيه إبراهيم. يا أبانا: بهذا اللفظ الموحي المذكر بما بينه وبينهم من آصرة. مالك لا تأمنا على يوسف؟. سؤال فيه عتب وفيه استنكار خفي، وفيه استجاشة لنفي مدلوله من أبيهم، والتسليم لهم بعكسه وهو تسليمهم يوسف؛ فمبادرتهم له بأنّه لا يأتمنهم على أخيهم وهو أبوهم مقصود بها استجاشته لنفي هذا الخاطر، ومن ثم يفقد إصراره على احتجاز يوسف. ورداً على العتاب الاستنكاري الأول جعل يعقوب ينفي ـ بطريق غير مباشر ـ أنّه لا يأمنهم عليه، ويعلل احتجازه معه بقلة صبره على فراقه، وخوفه عليه من الذئاب. . . ﴿**قال إنّي ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون**﴾: فهو لا يطيق فراقه، ولابد أنّ هذه هاجت أحقادهم وضاعفتها أن يبلغ حبه له درجة الحزن لفراقه، ولو لبعض يوم، وهو ذاهب كما قالوا له للنشاط والمسرة، ووجدوا في قوله الثاني عذراً كانوا يبحثون عنه، أو كان الحقد الهائج أعماهم فلم يفكروا ماذا

يقولون لأبيهم بعد فعلتهم المنكرة، حتى لقنهم أبوهم هذا الجواب!.

واختاروا أسلوباً من الأساليب المؤثرة لنفي هذا الخاطر عنه... ﴿**قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنّا إذاً لخاسرون**﴾: لئن غلبنا الذئب عليه ونحن جماعة قوية هكذا فلا خير فينا لأنفسنا، وإنّنا لخاسرون كل شيء فلا نصلح لشيء أبداً!. وهكذا استسلم الوالد الحريص لهذا التوكيد، ولذلك الإحراج؛ ليتحقق قدر الله وتتم القصة كما تقتضي مشيئته. والآن وقد ذهبوا به، وها هم أولاء ينفذون المؤامرة المدبرة، والله سبحانه يلقي في روع الغلام أنّها محنة وتنتهي، وأنّه سيعيش وسيذكر إخوته بموقفهم هذا منه، وهم لا يشعرون أنّه هو... ﴿**فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابات الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون**﴾: فقد استقر أمرهم جميعاً على أن يجعلوه في غيابات الجب، حيث يغيب فيه عنهم.

وفي لحظة الضيق والشدة التي يواجه فيها هذا الفزع، والموت منه، ولا منقذ له ولا مغيث، وهو وحده صغير وهم عشرة أشداء، في هذه اللحظة اليائسة يلقي الله في روعه أنّه ناج وأنّه سيعيش حتى يواجه إخوته بهذا الموقف الشنيع، وهم لا يشعرون بأنّ الذي يواجههم هو يوسف الذي تركوه في غيابات الجب وهو صغير. وندع يوسف في غيابات الجب يؤنسه ولا شك ما ألقى الله في روعه ويطمئنه، حتى يأذن الله بالفرج؛ ندعه لنشهد إخوته بعد الجريمة يواجهون الوالد المفجوع... ﴿**وجاءوا أباهم عشاءً يبكون قالوا ياأبانا إنّا ذهبا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين. وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون**﴾: فقد ألهاهم الحقد الغائب عن سبك الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصاباً ما فعلوها منذ المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم، ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون، يخشون ألاّ تواتيهم الفرصة مرة أخرى، كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلاً على التسرع، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس، وهم ينفونها ويكادون يتهكمون بها!. فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا يوسف للذئب الذي حذرهم أبوهم منه أمس!.

وبمثل هذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب لطخوه به في غير إتقان؛

فعلوا هذا وجاءوا أباهم عشاءً يبكون، يقولون إنّهم ذهبوا يتسابقون، وتركوا يوسف عند أمتعتهم فأكله الذئب. ويحسون أنّها مكشوفة، ويكاد المريب أن يقول خذوني، فيقولون وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين؛ فأدرك يعقوب من دلائل الحال، ومن نداء قلبه أن يوسف لم يأكله الذئب، وأنّهم دبروا له مكيدةً ما، وأنّهم يلفقون له قصة ويصفون له حالاً لم تكن، فواجههم بأنّ نفوسهم قد حسنت لهم أمراً منكراً وذللته ويسرت لهم ارتكابه، وأنّه سيصبر متحمّلاً متجملاً لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو، مستعيناً بالله على ما يلفقونه من حيل وأكاذيب.

ثم لنعد سريعاً إلى يوسف في الجب؛ لنرى المشهد الأخير في هذه الحلقة الأولى من حلقات القصة... ﴿**وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشراي هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين**﴾: لقد كان الجب على طريق القوافل التي تبحث عن الماء في مظانه في الآبار وفي مثل هذا الجب الذي ينزل فيه ماء المطر ويبقى فترة، ويكون في بعض الأحيان جافاً، ويحذف السياق حركة يوسف في التعليق بالدلو احتفاظاً بالمفاجأة القصصية للقارئ والسامع.

ومرة أخرى يحذف السياق كل ما حدث بعد هذا وما قيل، وحال يوسف، وكيف ابتهج للنجاة؛ ليتحدث عن مصيره مع القافلة، فاعتبروه بضاعة وعزموا على بيعه رقيقاً، ولمّا لم يكن كذلك فقد أسرّوه ليخفوه عن الأنظار، ثم باعوه بثمن قليل، فهم يريدون التخلص منه خوفاً من تهمة استرقاقه وبيعه على غير المشروع عندهم، فكانت هذه نهاية المحنة الأولى في حياة النبيء الكريم.

التوجيه الثاني: ﴿**وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً**﴾: في هذا التوجيه لفت الأنظار إلى الحلقة الثانية من حلقات القصة؛ فقد وصل يوسف إلى مصر، وبيع بيع الرقيق!، ولكن الذي اشتراه توسم فيه الخير - والخير يتوسم في الوجوه الصباح وبخاصة حين تصاحبها السجايا الملاح - فإذا هو يوصي به امرأته خيراً. ولكن محنة أخرى من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشده وقد أوتي حكماً وعلماً يستقبل بها هذه المحنة الجارفة التي لا يقف لها إلاّ من رحم الله. إنّها محنة التعرض للغواية في جو القصور، وفي جو ما يسمونه (الطبقة الراقية)، وما يغشاها من استهتار وفجور.

وهذه هي المحنة الحقيقية في نظرنا لا واقعة امرأة العزيز في ذاتها مجردة عن ملابساتها، ويخرج يوسف منها سليماً معافى في خلقه وفي دينه، ولكن بعد أن يخالط المحنة ويصلاها. والسياق لا يكشف لنا حتى الآن عمن اشتراه، وسنعلم بعد شوط في القصة أنّه عزيز مصر، قيل: إنّه كبير وزرائها، ولكنّا نعلم منذ اللحظة أن يوسف قد وصل إلى مكان آمن، وأنّ المحنة الأولى قد انتهت بسلام، وأنّه مقبل بعد هذا على خير؛ فالمقصود بإكرام مثواه إكرامُه، ولكن التعبير أعمق؛ لأنّه يجعل الإكرام لا لشخصه فحسب، ولكن لمكان إقامته، وهي مبالغة في الإكرام في مقابل مثواه في الجب وما حوله من مخاوف وآلام.

ويكشف الرجل لامرأته عمّا يتوسمه في الغلام من خير وما يتطلعه فيه من أمل. والذي يظهر أنّهما لم يكن لهما ولد، ومن ثم تطلع الرجل أن يتخذاه ولدا إذا صدقت فراسته، وتحققت مخايل نجابته وطيبته مع وسامته، وهنا يقف السياق لينبه إلى أنّ هذا التدبير من الله. . . ﴿**وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾: وبه وبمثله قدر ليوسف التمكين في الأرض ـ وها قد بدأت بشائره بتمكين يوسف في قلب الرجل وبيته ـ ويشير إلى أنّه ماضي في الطريق ليعلمه الله من تأويل الأحاديث.

ويعقب هذا السياق على هذا الابتداء في تمكين يوسف بما يدل عليه أنّ قدره الله غالبة لا تقف في طريقها قوة، وأنّه مالك أمره ومسيطر عليه، وها هو ذا يوسف أراد له إخوته أمراً، وأراد له الله أمراً؛ ولمّا كان الله غالباً على أمره ومسيطراً فقد نفذ أمره، أمّا إخوة يوسف فلا يملكون أمرهم فأفلت من أيديهم وخرج على ما أرادوه؛ ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنّ سنة الله ماضية وأنّ أمره هو الذي يكون. ويمضي السياق ليقرر أنّ ما شاءه الله ليوسف، وقال عنه ولنعلمه من تأويل الأحاديث قد تحقق حين بلغ أشده. . . ﴿**ولمّا بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين**﴾: فقد أوتي صحة الحكم على الأمور، وأوتي علماً بمصائر الأحاديث أو بتأويل الرؤيا، أو بما هو أعلم من العلم بالحياة وأحوالها؛ فاللفظ عام ويشمل الكثير.

وكان ذلك جزاء إحسانه؛ إحسانه في الاعتقاد، وإحسانه في السلوك: وكذلك نجزي المحسنين. وعندئذ تجيئه المحنة الثانية في حياته، وهي أشد وأعمق من

المحنة الأولى؛ تجيئه وقد أوتي صحة وأوتي العلم ـ رحمة من الله ـ ليواجهها وينجوَ منها جزاء إحسانه الذي سجله الله له في قرآنه. والآن نشهد ذلك المشهد العاصف الخطير المثير كما يرسمه التعبير. . . ﴿**وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي إنّه لا يفلح الظالمون**﴾: إنّ السياق لم يذكر كم كانت سنها، وكم كان سنه؛ فلننظر في هذا الأمر من باب التقدير، لقد كان يوسف غلاماً عندما التقطه السيارة وباعوه في مصر، أي: إنّه كان حوالي الرابعة عشر تنقص ولا تزيد.

فهذه هي السن التي يطلق فيها لفظ غلام، وبعدها يسمى فتًى فشاباً فرجلاً، وفي هذا الوقت كانت هي زوجة، وكانت وزوجها لم يرزقا أولاداً، كما يبدو من قوله: أو نتخذه ولداً، فهذا الخاطر خاطر التبني لا يرد على النفس عادة إلاّ حين لا يكون هناك ولد، ويكون هناك يأس أو شبه يأس من الولد، فلابد أن تكون قد مضت على زواجهما فترة يعلمان فيها أن لا ولد لهما، وعلى كل حال فالمتوقع عن رئيس وزراء مصر ألاّ تقل سنه عن أربعين سنة، عندما يكون يوسف في الخامسة والعشرين أو حواليها، وهي السنّ التي نرجح أن الحادثة وقعت فيها؛ نرجحه لأنّ تصرف المرأة في الحادثة وما بعدها يشير إلى أنّها كانت مكتملة جريئة مالكة لكيدها متهالكة كذلك على فتاها، وهي حالة المرأة في الأربعين وما حولها، ونرجحه من كلمة النسوة فيما بعد: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، وإن كانت كلمة فتى تقال بمعنى عبد، ولكنها لا تقال إلاّ ولها حقيقة من مدلولها من سن يوسف، وهو ما ترجحه شواهد الحال. نبحث هذا البحث لنصل منه إلى نتيجة معينة، لنقول: إنّ التجربة التي مر بها يوسف ـ أو المحنة ـ لم تكن فقط في مواجهة المراودة في هذا المشهد الذي يصوره السياق، إنّما كان في حياة يوسف فترة مراهقته كلها في جو هذا القصر، مع هذه المرأة بين سن الثلاثين وسن الأربعين، مع جو القصور، وجو الهيئة التي يصورها قول الزوج أمام الحالة التي وجد فيها امرأته مع يوسف: يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين، وكفى.

والتي يتحدث فيها النسوة عن امرأة العزيز، فيكون جوابها عليهن: مأدُبة يخرج عليهن يوسف فيها فيفتتن به، ويصرحن فتصرح المرأه: ولقد راودته عن

نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين؛ فهذه البيئة التي تسمح بهذا وذلك بيئة خاصة، هي بيئة الطبقة المترفة دائما، ويوسف كان فيها مولى وتربى فيها في سن الفتنة، فهذه هي المحنة التي مر بها يوسف وصمد لها ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة. ولسنه وسن المرأة التي يعيش معها تحت سقف واحد كل هذه المدة قيمة في تقدير مدى الفتنة وخطورة المحنة والصمود لها هذا الأمد الطويل.

أمّا هذه المرأة فلو كانت وحدها وكانت مفاجأة بلا تمهيد من إغراء طويلٍ لما كان عسيراً أن يصمد لها يوسف، وبخاصة أنّه هو مطلوب فيها لا طالب، وتهالك المرأة عادة يصد من نفس الرجل، وهي كانت متهالكة. والآن نواجه النصوص... وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك: وإذن فقد كانت المراودة في هذه المرة مكشوفة، وكانت الدعوة فيها سافرة إلى الفعل الأخير. وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلاّ في اللحظة الأخيرة، وقد وصلت المرأة إلى اللحظة الأخيرة الحاسمة التي تهتاج فيها دفعة الجسد الغليظة ونداء الجسد الأخير وقالت: هيت لك. هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة، إنّما تكون هي الدعوة الأخيرة، وقد لا تكون أبداً إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً، والفتى يعيش معها وقوته وفتوّته تتكامل، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتنضج، فلابد كانت هناك إغراآت شتى خفيفة لطيفة قبل هذه المفاجأة الغليظة والعنيفة... قال معاذ الله إنّه ربي أحسن مثواي إنّه لا يفلح الظالمون: معاذ الله!.

أعيذ نفسي بالله أن أفعل، إنّه ربّي أحسن مثواي وأكرمني بأن نجاني من الجب وجعل في هذه الدار مثواي الطيب الآمن، إنّه لا يفلح الظالمون، الذين يتجاوزون حدود الله فيرتكبون ما تدعينني إليه. والنص هنا صريح وقاطع في أنّ رد يوسف على المراودة كان هو التأبي المصحوب بتذكر نعمة الله عليه، وبتذكر حدوده وجزاء من يتجاوزون هذه الحدود، فلم تكن هناك استجابة أصلاً في هذا الموقف لما دعته إليه دعوة غليظة جاهرة بعد تغليق الأبواب، وبعد الهتاف باللفظ الذي يتجمل القرآن في حكايته وروايته: وقالت هيت لك... ﴿**ولقد همّت به**﴾: بكل ما في هذا الهم من المغريات بالتلويح أولاً، ثم بالتصريح الذي لا مواربة فيه

ولا تلميح. . . ﴿**وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه**﴾: لولا ما عنده من عقل ونقل وسلامة فطرة وقوة دين قويم ينهى عن السوء والفحشاء لهمَّ بها لما فيه من الغريزة البشرية، ولكن الله سلّمه وأنقذه بمثل ما عنده من سلامة العقل وصحة النقل ونقاوة الفطرة فاعترف بحق العشرة التي لا يفلح خائنها. . . ﴿**كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين**﴾.

﴿**واستبقا الباب**﴾: فهو قد آثر التخلص بعد أن قال: معاذ الله! إنّه ربّي أحسن مثواي إنّه لا يفلح الظالمون، وهي عَدَت خلفه لتمسك به، ربما لأنّها لا تزال في هياجها الحيواني، وربما خوف الافتضاح. . . ﴿**وقدّت قميصه من دبر**﴾: نتيجة جذبها له لترده عن الباب. وتقع المفاجأة. . . ﴿**وألفيا سيدها لدى الباب**﴾: وهنا تتبدى المرأة المكتملة فتجد الجواب حاضراً على السؤال الذي يهتف به المنظر المريب، إنّها تتهم الفتى. . . ﴿**قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءً إلاّ أن يسجن أو عذاب أليم**﴾: ولكنها امرأة تعشق فهي تخشى عليه، فتشير بالعقاب، ويجهر يوسف بالحقيقة في وجه الاتهام الباطل. . . ﴿**قال هي راودتني عن نفسي**﴾!: وهنا يذكر السياق أنّ أحد أهلها حسم بشهادته في هذا النزاع. . . ﴿**وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قُدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قُدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين. فلما رأى قميصه قُدَّ من دبر قال إنّه من كيدكن إنّ كيدكن عظيم**﴾: هذه شهادة شاهد من أهلها حكم بما رأى بعد أن قدر القضية في نفسه: إن كان كذا فهي كذا، وإن كانت كذا فهو كذا؛ فليس في النص ما يدل على أنّ هناك شاهد جاء من غير أهل البيت. والقرآن واضح في التعبير بالأهل على أنّه يدل على أهل البيت، والمرأة قالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءً إلاّ أن يسجن أو عذاب أليم.

والبيت ليس فيه بالمعنى الحقيقي إلاّ المرأة وزوجها العزيز؛ لأنّه بيت خاص بها، ويوسف معدود كولدهما. والذي يظهر لي دون اعتبار لأي رواية من الروايات، أنّ المراد بأهلها زوجها وشهادته حضوره، ثم نظر وقدر الواقعة كما هي. . . فلمّا رأى قميصه قُدَّ من دبر: تبين له حسب الشهادة المبنية على منطق الواقع أنّها هي التي راودت، وهي التي دبرت الاتهام؛ وهنا تبدو لنا صورة من الطبقة الراقية قبل آلاف السنين وكأنّها هي هي اليوم، رخاوة في مواجهة الفضائح

الجنسية وميل إلى كتمانها حتى لا تتسرب إلى الخارج. وهذا هو المهم... قال إنّه من كيدكن إنّ كيدكن عظيم. **﴿يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين﴾**: فهي اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق، والتلطف في مجابهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كله فيما يشبه الثناء؛ فإنّه لا يسوء المرأة أن يقال لها: إنّ كيدكن عظيم!؛ فهو دلالة في حسها على أنّها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الأنثى على الكيد!.

والتفاته إلى يوسف البريء: يوسف أعرض عن هذا، فأهمله ولا تعره اهتماماً ولا تتحدث به، وهذا هو المهم محافظة على الظواهر وعظة إلى المرأة التي راودت فتاها عن نفسه وضبطت متلبسة بمساورته وتمزيق قميصه: واستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين. إنّها الطبقة الأرستقراطية من رجال الحاشية في كل زمان وفي كل مكان قريب من قريب. ويسدل الستار على المشهد وما فيه، ولم يحل السيد بين المرأة وفتاها، ومضت الأمور على طريقها، فهكذا تمضي الأمور في القصور، وما يجري في القصور لا يمكن أن يكون مستوراً، وبخاصة في الوسط الأرستقراطي الذي ليس لنسائه من هم إلاّ الحديث عما يجري في محيطهن، وإلاّ تداول هذه الفضائح ولوكها على الألسن في المجالس والسهرات والزيارات... **﴿وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنّا لنراها في ضلال مبين﴾**: وهو كلام أشبه بما تقوله النسوة في كل زمان عن مثل هذه الشؤون، ولأول مرة نعرف أنّ المرأة هي امرأة العزيز، وأنّ الرجل الذي اشتراه من مصر هو عزيز مصر؛ ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر في المدينة... **﴿فلمّا سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئاً وآتت كل واحدة منهن سكينا﴾**: لمّا سمعت المرأة بقول النسوة واعتبرته مكراً منهن لها، استدعتهن إلى بيتها، وأقامت لهنّ مأدبة تليق بمقامهن، فندرك من هذا أنّهن كن من نساء الطبقة الراقية، فهنّ اللواتي يدعين إلى المآدب في القصور، وهن اللواتي يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر؛ فأعدت لهن هذا المتكأ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها في أكل الفاكهة التي يؤتى بها بعد أكل الطعام عادة، أو وحدها دون طعام. وبينما هنّ منشغلات في تناول الفاكهة فاجأتهن بيوسف... **﴿وقالت اخرج عليهن فلما رأينه﴾**: بهتن لطلعته، ودهشن... **﴿أكبرنه وقطعن أيديهن﴾**: جرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة المفاجئة... **﴿وقلن حاش لله﴾**!:

وهي كلمة تنزيه تقال في هذا الموضع تعبيراً عن الدهشة بصنع الله. . . ﴿**ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملك كريم**﴾: ورأت المرأة أنّها انتصرت على نساء طبقتها، وأنّهن لقين من طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول، فقالت قولة المرأة المنتصرة التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها، والتي تفخر عليهن بأنّ هذا في متناول يدها، وإن كان قد استعصى قياده مرة فهي تملك هذا القياد. . . ﴿**قالت فذلكن الذي لمتنّني فيه**﴾: فانظرن ماذا لقيتن منه من البهر والدهش والإعجاب. . . ﴿**ولقد راودته عن نفسه فاستعصم**﴾: ولقد بهرني مثلكن فراودته عن نفسه فطلب الاعتصام ـ تريد أن تقول: إنّه عانى في الاعتصام والتحرز من دعوتها وفتنتها! ـ.

ثم تظهر سيطرتها عليه أمامه وأمامهن في تبجح المرأة من ذلك الوسط، لا ترى بأساً من الجهر بنزواتها الجنسية في معرض النساء. . . ﴿**ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين**﴾: فهو الإصرار والتبجح والتهديد والإغراء الجديد في ظل التهديد. ويسمع يوسف هذا القول في مجتمع النساء المبهورات، المبديات لمفاتنهن في مثل هذه المناسبات، ونفهم من السياق أنّهن كن نساء فاتنات مفتونات في مواجهته وفي التعليق على هذا القول من ربة الدار؛ فإذا هو يقول. . . ﴿**رب السجن أحب إليّ ممّا يدعونني إليه**﴾: ولم يقل ما تدعوني إليه، فهنّ جميعاً كنّ مشتركات في الدعوة، سواء بالقول أو بالحركات واللفتات، وإذا هو يستنجد ربّه أن يصرف عنه محاولتهن لإيقاعه في حبائلهن خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدائم، فيقع فيما يخشاه على نفسه، ويدعو الله أن ينقذه منه. . . ﴿**وإلاّ تصرف عنّي كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين**﴾: وهي دعوة الإنسان العارف ببشريته، الذي لايغترُّ بعصمته، فيريد مزيداً من عناية الله وحياطته، يعاونه على مايعترضه من فتنة وكيد وإغراء. . . ﴿**فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيدهن إنّه هو السميع العليم**﴾: وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس في نفوسهن من استجابته لهن بعد هذه التجربة، أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتى لا يحس في نفسه أثراً منه، أو بهما جميعاً. إنّه هو السميع العليم: الذي يسمع ويعلم؛ يسمع الكيد ويسمع الدعاء، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء. وهكذا اجتاز يوسف محنته الثانية بلطف الله ورعايته، وانتهت بهذه النجاة الحلقة الثانية من قصته المثيرة.

التوجيه الثالث: ﴿**ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتى حين**﴾:

في هذا التوجيه عرض للحلقة الثالثة من حلقات القصة، والمحنة الثالثة من محن يوسف. والمحنة في هذه الحلقة هي محنة السجن بعد ظهور البراءة؛ فبعدما رأوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف، وبعد أن بلغ التبجح بامرأة العزيز أن تقيم للنسوة حفل استقبال تعرض عليهن فتاها الذي شغفها حباً، ثم تعلن لهم أنّها به مفتونة حقا، ويفتتنّ هنّ به ويغرينه بما يلجأ إلى ربّه ليغيثه منه وينقذه، والمرأة تعلن في مجتمع النساء ـ دون حياء ـ أنّه إمّا أن يفعل ما يؤمر به، وإمّا أن يلقى السجن والهوان والصغار، فيختار السجن على ما يؤمر به!. بعد هذا كله بدا لهم أن يسجنوه إلى حين!.

ولعل المرأة كانت قد يئست من محاولاتها بعد التهديد، ولعل الأمر كذلك قد زاد انتشاراً في طبقات الشعب الأخرى، وهنا لابد أن تحفظ سمعة البيوتات، وإذا عجز رجال البيوتات عن صيانة بيوتهن ونسائهن، فإنّهم ليسوا بعاجزين عن سجن فتى بريء، كل جريمته أنّه لم يستجب، وأنّ امرأة من الوسط الراقي قد فتنت به وشهرت بحبه، ولاكت الألسن حديثها في الأوساط الشعبية... ﴿**ودخل معه السجن فتيان**﴾: سنعرف من بعد أنّهما من خدم الملك الخواص. ويختصر السياق ما كان من أمر يوسف في السجن، وما ظهر من صلاحه وإحسانه، فوجه إليه الأنظار وجعله موضع ثقة المساجين، وفيهم الكثيرون ممن ساقهم سوء الطالع مثله للعمل في القصر أو الحاشية فغضب عليهم في نزوة عارضة، فأُلقي بهم في السجن؛ يختصر السياق هذا كله ليعرض مشهد يوسف في السجن وإلى جواره فتيان أَنِسَا إليه، فهما يقصان رؤيا رأياها، ويطلبان إليه تعبيرها؛ لما يتوسمانه فيه من الطيبة والصلاح وإحسان العبادة والذكر والسلوك... ﴿**قال أحدهما إنّي أراني أعصر خمراً**﴾.

﴿**وقال الآخر إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين**﴾: وينتهز يوسف هذه الفرصة ليبث بين السجناء عقيدته الصحيحة، فكونه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة السائدة بين أهل مصر إذ ذاك؛ عقيدة الأرباب المفترقة، والآلهة المتعددة، بل إنّ وسط السجن وما فيه من ضيق، وما فيه من مظالم قد يجعل النفوس أقرب إلى سماع الهدى، والاتجاه إلى الله الواحد كاشف الكروب، ومزيل الظلم والطغيان، ومحطم

الكبرياء الزائف والسلطان. ويبدأ يوسف مع الزميلين من موضوعهما فيطمئنهما إلى أنّه سيؤول لهما رؤياهما فيحدده لهما بوقت يسبق حضور الطعام المحدد بوقت معلوم... ﴿**قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلاّ نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما**﴾: لأنّ الله ربّه وهبه علماً لَدُنياً جزاء على تجرده من عبادة الشركاء، وإخلاصه نفسه لله الواحد هو وآباؤه من قبله... ﴿**ذلكما ممّا علمني ربّي إنّي تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون**﴾.

﴿**واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾: ويبدو في طريقة تناول يوسف للحديث لطف مدخله إلى النفوس وسيره خطوة في رفق دقيق، فيحدد لهما الموعد بتعبير الرؤيا، ثم يأخذ في عرض ما هو عليه من علم وإيمان، فبيّن لهما أنّه علم من ربّه في تأويل الرؤيا لا بكهانة ولا عرافة ولا تنجيم، ولا ما يشبهها من طرق صناعية أو تعليم بشري يلتبس به الحق بالباطل، ويشتبه الصواب بالخطإ. بهذا التوكيد الموحي بالثقة بأنّ الرجل على علم وخبرة بالموضوع الذي يستعينان به فيه، فهذا مدخل لطيف وخطوة خطوة في حذر ولين. ثم يتوغل في قلوبهما أكثر، ويفصح عن دعوته، ويكشف عن فساد اعتقادهما واعتقاد قومهما بعد ذلك التمهيد... ﴿**ياصاحبي السجن**﴾: فهو يتخذ منهما صاحبين، ويتحبب إليهما بهذه الصفة، فهما صاحباه في السجن؛ ليدخل من هذا إلى صلب العقيدة التي يدعوهما إليها.

وهو لا يدعوهما إليها دعوة مباشرة، إنّما يعرض قضية موضوعية... ﴿**أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار**﴾!: وما من شك أنّ كثرة الأرباب المتفرقة الطباع والصفات والأهواء والنزوات كما تقول الأساطير وتصف هذه الأرباب ـ مسألة متعبة لعبادها المساكين ـ الذين لا يدرون كيف يرضون كل واحد منها دون أن يسخطوا الآخرين، ويثيروا حنقهم وحقدهم ونزواتهم ونزعاتهم التي لا تهدأ حتى تثور!. وما من شك أنّ الإله الواحد القهار الذي يعتوله الجميع، والذي يقهر الطغاة والحاكمين المتسلطين، وله مشيئة واحدة وعبادة واحدة وسنة واحدة، ما من شك أنّ هذا الله الواحد القهار خير من أولئك الأرباب المتفرقين.

ثم يخطو يوسف خطوة أخرى... ﴿**ما تعبدون من دونه إلاّ أسماء سميتموها**

أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾: فهذه الأرباب والمعبودات ليست شيئاً سوى أسماء؛ أسماء لا مدلول لها ولا حقيقة، أسماء اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم من عند أنفسكم، ومن وحي خيالاتكم، وليست العقيدة هكذا خيالاً ووهماً واصطلاحاً، إنّما العقيدة حق قوي مستمد قوته وسلطانه من الله، وهذه الأرباب ما أنزل الله بها من سلطان، فهي مجردة من كل قوة، ومن قوة الحق التي تتلبس بالفكرة فتفرضها على القلوب والعقول، ومن قوة التصرف التي تجعل لها في الحياة عملاً وأثراً.

وإنّها مجردة من كل قوة؛ لأنّ الله لم ينزل بها قوة، والله هو القهار ذو السيطرة على جميع الخلق، فما لم يمنحه قوة من الأشخاص والأفكار والعقائد فلا قوة به ولا سلطان... **﴿إن الحكم إلاّ لله﴾**: فما يقضي به الله فهو وحده المطاع، والله **﴿أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إياه﴾**، فذلك وحده هو الحكم، وهذا وحده هو الدين... **﴿ذلك الدين القيم﴾**: المستقيم والذي له قيمة؛ كلاهما تؤدِّيه كلمةُ **﴿قِيّم﴾**، وهما وصفان متداخلان متكاملان... **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**: ومن ثم فهم يعبدون هذه الأرباب المتفرقة؛ فإذا علموا وجب أن يعودوا إلى الدين القيم، وها هو ذا قد أعلمهما وعلّمهما. وإلى هنا يبلغ يوسف أقصى الغاية من الدرس الذي ألقاه مرتبطاً في مطلعه بالأمر الذي يشغل بال صاحبيه في السجن.

ومن ثم فهو يؤوّلُ لهما الرؤيا في نهاية الدرس؛ ليزيدهما ثقة في قوله كله، وتعلقاً به... **﴿ياصاحبي السجن أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمراً وأمّا الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾**: ولم يعين من هو صاحب البشرى، ومن هو صاحب المصير السيء تلطفاً وتحرجاً من المواجهة بالشر والسوء، ولكنه أكد لهما الأمر واثقاً من العلم الذي وهبه الله له... **﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾**: وانتهى فهو كائن كما قضاه الله. وأحب يوسفُ السجينُ البريءُ الذي أمر الملك بسجنه دون تحرٍّ ودون بحث إلاّ ما نقله إليه بعض حاشيته من وشاية؛ لعلهم صوروا له فيها حادث امرأة العزيز وحادث النسوة تصويراً مقلوباً ـ كما يقع عادة في مثل هذه الأوساط ـ أحب يوسف أن يبلغ أمرَه إلى الملك ليفحص عن الأمر... **﴿وقال للذي ظنّ أنّه ناج منهما اذكرني عند ربّك﴾**: واذكر حالي وحقيقتي عند سيدك، قال هذا القول تمشياً مع المتحدث إليه.

وهنا يسقط السياق أنّ التأويل قد تحقق، وأنّ الأمر قد قضي على ما أوّله يوسف، ويترك هنا فجوة نعرف منها، أنّ هذا كله قد كان، ولكن الذي ظن يوسف أنّه ناج فنجا فعلاً لم ينفذ الوصية، ذلك أنّه نسي الدرس الذي لقنه له يوسف، ونسي ذكر ربّه في زجرة حياة القصر وملهياتها وقد عاد إليها، فنسي يوسف وأمرَه كلَّه. . . **﴿فأنساه الشيطان ذكر ربّه﴾**: فكان سبباً في بقاء يوسف في السجن هذه المدة. . . **﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾**.

التوجيه الرابع: ﴿وقال الملك إنّي أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ياأيّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾: في هذا التوجيه عرض المرحلة النهائية من مراحل المحن من قصة يوسف، وهي التي كانت سبباً في إخراجه من السجن وفتح لباب آخر جديد يظهر من خلاله ما قدر ليوسف من مزايا ومِنَنٍ؛ فنحن الآن في مجلس الملك وقد رأى رؤيا أهمته، فهو يطلب تأويلها من رجال الحاشية ومن الكهنة والمدعين الاتصال بالغيّبات، فعجز الملأ من حاشيته ومن الكهنة عن تأويلها، أو أحسوا أنّها تشير إلى سوء لم يريدوا أن يواجهوا به الملك على طريقة رجال الحاشية على إظهار كل ما يسر الملوك وإخفاء ما يزعجهم وصرف الحديث عنه!، فقالوا إنّها أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

والآن يتذكر صاحب السجن الذي نجا، وأوصاه يوسف بعرض حاله على الملك، فأنساه الشيطان ذكر ما أوصاه يوسف به لربّه في دوامة القصر والحاشية والعصر والخمر والشراب، هنا الآن تذكر ذلك الرجل الذي أوّل رؤياه ورؤيا صاحبه فتحقق التأويل. . . **﴿وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلوني﴾**: فهو بعدما تذكر أعلمهم بأنّ هناك رجلاً في السجن عالماً بتأويل الرؤيا لو بعثتموني إليه لنبأتكم بتأويله، فأرسلوه ودخل عليه السجن وناداه. . . **﴿يوسف أيّها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾**: فالساقي الناجي المرسل من قبل الملك يلقب يوسف بالصديق، وهي كلمة تعطي غاية الكمال في الصدق، وهذا ما جربه في شأنه فقاس عليه، ونقل ألفاظ الملك التي قالها كاملة؛ لأنّه يطلب تأويلها، فكان دقيقاً في نقلها، وأثبتها السياق مرة أخرى

ليبيّن هذه الدقة أولاً، وليجيء تأويلها ملاصقاً في السياق لذكرها، ولكن كلام يوسف هنا ليس هو التأويل المباشر المجرد، إنّما هو التأويل والنصح لمواجهة عواقبه، وهذا أكمل. . . ﴿**قال تزرعون سبع سنين دأبا**﴾: متوالية متتابعة، وهي السنوات السبع المخصبة المرموز لها بالبقرات السمان، والمرموز لها بالسنبلات الخضر ما فيها من الأقوات. . . ﴿**فما حصدتم فذروه في سنبله إلاّ قليلاً مما تأكلون**﴾: فجردوه من سنابله، واحتفظوا بالبقية للسنوات الأخرى المجدبة المرموز لها بالبقرات العجاف، والمرموز لعدم أقواتها بالأخرى اليابسات. . . ﴿**ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد**﴾: لا زرع فيها. . . ﴿**يأكلن ما قدمتم لهن**﴾: وكأنّ هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها كل ما يقدم لها لشدة نهمها وجوعها. . . ﴿**إلاّ قليلاً ممّا تحصنون**﴾: إلاّ قليلاً ممّا تحفظونه وتصونونه من التهامها. . . ﴿**ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون**﴾: ثم تنقضي هذه السنوات الشداد العجاف المجدبة، التي تأتي على ما خزنتم وادخرتم من سنوات الخصب، تنقضي ويعقبها عام رخاء، يغاث الناس فيه بالزرع والماء، وتنمو كرومهم فيعصرونها خمرا، وسمسمهم وزيتونهم فيعصرونه زيتاً.

وهنا نلحظ أنّ هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك، فهو إذن من العلم اللدني الذي وهبه الله يوسف، فبشر به الساقي ليبشر الملك والناس بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخي رفيد. وهنا كذلك ينتقل السياق إلى المشهد التالي، تاركاً فجوة بين المشهدين يكمل الخيال ما تم فيها من حركة، ويرفع الستار مرة أخرى على مجلس الملك، ويحذف السياق ما نقله الساقي من تأويل الرؤيا، وما تحدث به عن يوسف الذي أوّلها، وعن سجنه وأسبابه والحال التي هو فيها؛ كل أولئك يحذفه السياق من المشهد؛ لنسمع نتيجته من رغبة الملك في رؤية يوسف، وأمره أن يأتوه به. . . ﴿**وقال الملك ائتوني به**﴾: ومرة ثالثة في المشهد يحذف السياق جزئيات تفصيلية في تنفيذ الأمر، ولكنا نجد يوسف يرد على رسول الملك الذي لا نعرف من هو؟.

إن كان الساقي الذي جاءه أوّلَ مرّة أو هو رسول تنفيذي مكلف بمثل هذا الشأن، نجد يوسف السجين الذي طال عليه السجن لا يستعجل الخروج حتى تتحقق قضيته، ويتبيّن الحق واضحاً في موقفه، وتعلن براءته على الأشهاد، من

الوشايات والدسائس والغمز في الظلام. . . **﴿قال ارجع إلى ربّك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن؟. إنّ ربّي بكيدهن عليم﴾**: لقد رد يوسف أمر الملك باستدعائه حتى يستوثق الملك من أمره، وحتى يتحقق من شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن بهذا القيد تذكيراً بالواقعة وملابساتها وكيد بعضهن لبعض فيها وكيدهن له بعدها، وحتى يكون هذا التحقق في غيبته لتظهر الحقيقة خالصة بدون أن يتدخل هو في مناقشتها، كل ذلك لأنّه واثق من نفسه، واثق من براءته، مطمئن إلى أنّ الحق لا يخفى طويلاً، ولا يُخذل طويلاً.

ورجع الرسول فأخبر الملك، وأحضر الملك النسوة يستجوبهن، والسياق يحذف هذا لنعلمه ممّا يليه. . . **﴿قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾**؟: فكأنّ الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن، وهو المعتاد في مثل هذه الأحوال؛ ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه، فهو يواجههن مقرراً الاتهام، ومشيراً إلى أمْرٍ لهنّ جللٍ أو شأنٍ لهنّ خطير!. ومن هذا نعلم شيئاً ممّا دار في حفل الاستقبال في بيت العزيز، وما قالته النسوة ليوسف، وما لمّحن به وأشرن إليه، من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة.

ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى في ذلك العهد الموغل في التاريخ، إنّه حينما كان الترف، وكانت القصور والحاشية، كان التحلّل والتميُّع والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرستقراطية!. وفي هذه المواجهة بالاتهام في حضرة الملك يبدو أنّه لم يكن هنالك مجال للإنكار. . . **﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾**!: فهي الحقيقة التي يصعب إنكارها، ولو من مثل هؤلاء النسوة، فقد كان أمر يوسف إذن من النصاعة والوضوح بحيث لا يقوم فيه جدال. وهنا تتقدم المرأة المفتونة بيوسف التي يئست منه، ولكنها لا تستطيع أن تخلص من فتنتها به ـ ذلك إن كانت المرأة تيئس من شيء كهذا تريده! ـ، تتقدم لتقول كل شيء في صراحة. . . **﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصادقين﴾**: الآن حصحص الحق وظهر ظهوراً واضحاً لا يحتمل الخفاء.

وزادت ما يكشف عن أن قلبها لم يخل من إيثاره ورجاء تقديره والتفاته بعد كل هذا الأمد. . . **﴿ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب﴾**: وهذا الاعتراف وما بعده يصوره السياق هنا بألفاظ موحية، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر، كما

يشي الستار الرقيق بما وراءه في ترفع وتجمل في التعبير: أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصادقين. شهادة كاملة بنظافته وبراءته وصدقه لا تبالي المرأة ما وراءها ممّا يلم بها هي ويلحق بإرادتها؛ فهل هو الحق وحده الذي يدفعها لهذا الإقرار الصريح في حضرة الملك والملأ؟. يشي السياق بحافز آخر، هو حرصها على أن يحترمها الرجل الذي أهان كبرياءها الأنثوي ولم يعبأ بفتنتها الجسدية، أن يحترمها تقديراً لصدقها وأمانتها في حقه عند غيبته: ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب. ثم تمضي في هذه المحاولة والعودة إلى الفضيلة التي يحبها يوسف ويقدرها... ﴿**وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين**﴾: وتمضي خطوة أخرى في هذه المشاعر الطيبة... وما أبرئ نفسي إنّ النفس لأمارة بالسوء إلاّ ما رحم ربّي إنّ ربّي غفور رحيم: إنّها امرأة أحبت، امرأة تكبر الرجل الذي عشقته، فهي لا تملك إلاّ أن تظل معلقة بكلمة منه، أو خاطرة ارتياح لها تحس أنّها صدرت منه!. وهكذا يتجلى العنصر الإنساني في القصة، التي لم تُسق لمجرد الفن، إنّما سيقت للعبرة والعظة، وسيقت لتعالج قضية العقيدة من بعض جوانبها، ويرسم التعبير الفني فيها خفقات المشاعر وانتفاضات الوجدان رسماً رشيقاً رقيقاً شفيفاً عفيفاً نظيفاً!.

1 ـ نهاية المآسي والمحن، وبداية المواهب والمنن

النص

* وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿53﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿54﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿55﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿56﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿57﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿58﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿59﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿60﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿61﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿62﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿63﴾

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ
مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿64﴾
وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا
مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا
وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿65﴾ قَالَ لَنْ
أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ
إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ
وَكِيلٌ ﴿66﴾ * وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟
مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ
إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿67﴾
وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى
عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا
وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿68﴾
وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ
أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿69﴾
فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ
ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿70﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟
عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿71﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن

جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿72﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم
مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿73﴾ قَالُواْ
فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿74﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ
فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿75﴾
فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ
لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ
دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿76﴾ * قَالُوٓاْ إِن
يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ
فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ
بِمَا تَصِفُونَ ﴿77﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا
فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿78﴾
قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ
إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿79﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ
قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم
مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ
ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿80﴾
ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ

وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿81﴾
وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿82﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ
أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿83﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ
عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿84﴾
قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا
أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿85﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي
وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿86﴾
يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ
إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿87﴾
* فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا
وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ
لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿88﴾
قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ
أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿89﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ
وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿90﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ

لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿91﴾
قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿92﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى
يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿93﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ
ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ﴿94﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿95﴾
فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ
أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿96﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا
ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿97﴾ قَالَ سَوْفَ
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿98﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ
يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
ءَامِنِينَ ﴿99﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا
وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم
مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ
إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿100﴾
۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ
فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ
تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿101﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿**وما أبرئ نفسي**﴾: لا أنزّه نفسي عن السوء؛ لأنَّ النفس كثيرة الأمر بالسوء... ﴿**إنّ النفس لأمّارة بالسوء**﴾: النفس البشرية كثيرة الميل إلى الشهوات... ﴿**إلاّ ما رحم ربّي**﴾: من النفوس التي يعصمها من الوقوع في المهالك... ﴿**إنّ ربّي غفور رحيم**﴾: عظيم المغفرة لما يعتري النفوس بموجب طباعها، ومبالغ في الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك... ﴿**وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي**﴾: أستخلصه: أجعله خالصاً لي لا يشاركني فيه أحد... ﴿**فلمّا كلّمه**﴾: كلم يوسف الملك... ﴿**قال إنّك اليوم لدينا مكين أمين**﴾: المكين: صفة مشبهة من مكُن إذا صار ذا مكانة، وهي المرتبة العظيمة، وهي مشتقة من المكان.

والأمين: فعيل بمعنى مفعول، مأمون على شيء... ﴿**قال اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم**﴾: خزائن: جمع خزانة، وهو البيت الذي يخزن فيه الأقوات والأموال. والأرض: أرض الملك، وهي مصر. والحفيظ: شديد الحفظ لما وُكّل عليه. والعليم: كثير العلم بطبيعة ما عُهِدَ إليه... ﴿**وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض**﴾: ومثل هذا التمكين الذي طلبه يوسف مكنّا له في أرض مصر... ﴿**يتبوّأ منها حيث يشاء**﴾: فمعنى التبوؤ: النزول والإقامة... ﴿**نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين. ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾: إصابة الرحمة في الدنيا: إعطاء الحكم والغنى والجاه والكلمة المسموعة.

والأجر في الآخرة: النعيم المقيم في جنة الخلد، وهو خير وأحسن للذين آمنوا وثبتوا على التقوى... ﴿**وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليهم فعرفهم وهم له منكرون**﴾: الكلمات في هذه الآية واضحة... ﴿**ولمّا جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم**﴾: الجهاز: بفتح الجيم وكسرها ما يحتاج إليه المسافر، والتجهيز: إعطاء الجهاز، ويطلق على ما يحتاج إليه من أثاث العرس، وما يحتاج إليه الميت من كفن وغيره، ويطلق على الحاضر المهيأ يقال: هذا شيء جاهز...

﴿**ألا ترون أنّي أوفي الكيل وأنا خير المنزلين**﴾: المنزل: المضيف الذي ينزل عنده الضيف. . . ﴿**فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون**﴾: الكيل: في الموضعين مراد منه المصدر، وليس الكيل الذي يكال به. . . ﴿**قالوا سنراود عنه أباه**﴾: تقدم معنى المراودة في قوله: وراودته، ومعناه هنا: سنحاول أن لا يشح به، وأصل المراودة: الطلب بإلحاح، واستعمله القرآن في هذا المعنى. . . ﴿**وقال لفتيته اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون**﴾: الفتية: جمع فتى، والفتى من كان في مبدإ الشباب، وتقدم في قوله: ودخل معه السجن فتيان.

والبضاعة: ما يقطع من المال سلعة وثمناً. والرحال: جمع رحل، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب، ولذا سمى البعير راحلة. والانقلاب: الرجوع. . . ﴿**فلمّا رجعوا إلى أبيهم قالوا ياأبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنّا له لحافظون**﴾: منع منا الكيل: حيل بيننا وبين الكيل في المستقبل، أي: مُنعنا من أن نطلب الكيل إلاّ إذا حضر معنا أخونا. . . ﴿**قال هل آمنكم عليه إلاّ كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حفظاً وهو أرحم الراحمين**﴾: ينفي صدق قولهم في حفظهم له؛ لأنّهم قالوا هذه الكلمة في حق يوسف، ولكن الله هو خير حفظاً وهو أرحم الراحمين. . . ﴿**ولمّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا ياأبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردّت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير**﴾: أصل المتاع: ما يتمتع به من العروض والثياب. ومعنى ما نبغي: ماذا نطلب بعد هذا؟.

والمِيرة: الطعام المجلوب. . . ﴿**قال لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقاً من الله لتأتنّني به إلاّ أن يحاط بكم**﴾: الموْثق: أصله مصدر ميمي للتوثق، أطلق هنا على المفعول، وهو ما به التوثّق، بمعنى اليمين. ومعنى يحاط بكم: يحيط بكم محيط، والإحاطة: الأخذ بأسر أو هلاك ممّا هو خارج عن قدرتهم، وأصله إحاطة الجيش في الحرب. . . ﴿**فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل**﴾: فلمّا أعطوه ما طلب منهم من اليمين الموثق فوض أمره إلى الله. . . ﴿**وقال يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة**﴾: الأبواب: أبواب المدينة، وكانت لها أبواب عدة؛ نهاهم أن يدخلوا مجتمعين من باب واحد، وأمرهم بأن

يتفرقوا على الأبواب المتفرقة حتى لا يلفتوا النظر اليهم... ﴿**وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلاّ لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون**﴾: أراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله مع الأخذ في الأسباب... ﴿**ولمّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم**﴾: حيث تدل على الجهة، وهي بحسب ما يضاف إليها، ومعناه هنا: الجهات التي أمر يعقوب أبناءه أن يدخلوا منها متفرقين.

ومعنى ﴿**ما كان يغني عنهم من الله من شئ**﴾: أنّه ما كان يرد عنهم قضاء لولا أنّ الله قدر سلامتهم. ومعنى ﴿**إلاّ حاجة في نفس يعقوب قضاها**﴾: نصيحة لأبنائه أدّاها لهم، ولم يدخرها عنهم ليطمئن قلبه بأنّه لم يترك شيئاً يظنه نافعاً لهم إلاّ أبلغه إليهم... ﴿**وإنّه لذو علم لما علمناه ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون**﴾: هذا ثناء من الله على يعقوب بالعلم والتدبير، وأنّ ما أسداه من النصح لهم هو من العلم الذي آتاه الله، وهو من علم النبوءة. ومعنى ولكن أكثر الناس لا يعلمون: أنّ أكثر الناس في جهالة عن وضع هذه الحقائق موضعها... ﴿**ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إنّي أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون**﴿﴾: آوى إليه أخاه: أدناه وقرّبه إليه. فلا تبتئس: لا تحزن ولا تتكدر بما حدث وبما سيحدث من عملهم، فهو تطمين لأخيه بما سيكون من أمره فيما يأتي... ﴿**فلمّا جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه**﴾: السقاية: الإناء يسقى به... ﴿**ثم أذّن مؤذن أيتها العير إنّكم لسارقون**﴾: التأذين: النداء المكرر لقصد الإعلام.

والعير: اسم للحمولة من إبل وما عليها من أحمال وما معها من ركابها، فهو اسم لمجموع هذه الثلاث... ﴿**قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون. قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم**﴾: فقَد الشيءَ: عَدِمَه. وصواع الملك: سقايته المتقدمة، وسمي صواعاً لأنّه مقدر بصاع من الشراب. وحمل البعير: ما يحمل من طعام. والزعيم: الكفيل الضامن... ﴿**قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين**﴾: تالله: كلمة قسم، فهم يقسمون على نفي ما نسب إليهم... ﴿**قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين**﴾.

﴿**قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين**﴾: فما جزاء سرقة الصواع إن كنتم كاذبين في جحودكم وادعائكم البراءة منه؟. فأجابوا بقولهم: جزاء سرقته أخذ السارق رقيقاً لصاحب الصواع، مثل ذلك الحكم نحكم

على السارق المتعدي على حق غيره. . . ﴿**فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه**﴾: الأوعية: جمع وعاء، وهو الظرف، مشتق من الوعي بمعنى الحفظ والجمع. . . ﴿**ثم استخرجها من وعاء أخيه**﴾: وجد السقاية في رحل أخيه فأخرجها منه؛ ليكونوا شاهدين. . . ﴿**كذلك كدنا ليوسف**﴾: الكيد: فعل يتوصل بظاهره إلى مقصد خفي، والكيد هنا: ما فعله يوسف مع إخوته ليتوصل به إلى إبقاء أخيه معه. . . ﴿**ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك**﴾: ما كان معروفاً في شريعة الملك هذا الحكم، ولكن الله شاء ذلك. . . ﴿**إلاّ أن يشاء الله**﴾.

﴿**نرفع درجات من نشاء**﴾: نرقي درجات من نشاء في العلم والحكم حتى يصل إلى غاية بعيدة في تصريف الأمور. . . ﴿**وفوق كل ذي علم عليم**﴾: كما هو مشاهد ومشهور. . . ﴿**قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل**﴾: إنّها كلمة يبرّروا بها موقفهم وشوهوا بها الأخوين. . . ﴿**فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم: قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون**﴾: فلم تظهر على يوسف علامة الغضب بما قال عنه إخوته، وإنّما فوض الأمر إلى الله. . . ﴿**قالوا ياأيّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنّا نراك من المحسنين**﴾: استعطفوا يوسف بقولهم: ياأيّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً، فيأخذ بدله آخر من الإخوة الكبار، وإنّا نراك من المحسنين.

فأجاب يوسف. . . ﴿**قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده إنّا أذن لظالمون**﴾: معاذ الله من أخذ أحد غير من وجد المتاع عنده، فأخذ غيره ظلم وتعدٍّ. . . ﴿**فلمّا استيأسوا منه خلصوا نجياً. قال كبيرهم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبلُ ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين. ارجعوا إلى أبيكم فقولوا ياأبانا إنّ ابنك سرق وما شهدنا إلاّ بما علمنا وما كنا للغيب حافظين. واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنّا لصادقون**﴾: معنى استيأسوا: يئسوا منه؛ لأنّه لم يقبل طلبهم. وخلصوا: بمعنى اعتزلوا وانفردوا.

ونجيّاً: تكلموا فيما بينهم سراً. والذي تكلم أولاً كبير الإخوة، فذكرهم بما فعلوا مع أبيهم وما قالوا له، فقرر على البقاء في مصر إلى أن يأذن له أبوه أو يحكم الله حكمه، ثم لقنهم كبيرهم ما يقولون لأبيهم. . . ﴿**قال بل سولت لكم**

أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾: رد عليهم بنفس الكلمة التي قالها لهم عندما قالوا له: إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب... **﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنّه هو العليم الحكيم﴾**: لم ييأس يعقوب بل رجا فرجَ الله بالإتيان بهم جميعاً وجمعه بأبنائه كلهم... **﴿وتولّى عنهم﴾**: تركهم... **﴿وقال يا أسفى على يوسف﴾**: الأسف: أشد الحزن... **﴿وابيضّت عيناه من الحزن﴾**: اغرورقت بالماء الأبيض بسبب الحزن الذي يخففه البكاء... **﴿فهو كظيم﴾**: الكظم: الإمساك النفساني الذي لا يظهر للناس... **﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين﴾**: القسم بتالله لا يكون إلاّ في الأمر العجيب النادر الوقوع.

تفتأ: لا تفتر. والحرض: شدة الضعف بسبب الهموم والأحزان وكثرة الدموع... **﴿قال إنّما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾**: البث: الهم الشديد. والحزن: الأسف على فائت، وهذا القول منه استغاثة بالله، فهو دعاء، والدعاء عبادة؛ ولهذا قال... **﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون... يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾**: التحسس: شدة التطلب والتعرف... **﴿ولا تيأسوا من روح الله إنّه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون﴾**: روْح الله: فرَجُه وإزالة المصائب... **﴿فلمّا دخلوا عليه قالوا ياأيّها العزيز مسّنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إنّ الله يجزي المتصدقين﴾**: مس الضر: إصابة الفاقة.

والبضاعة المزجاة: القليلة التي لا يرغب فيها، والمراد بها مال قليل للامتيار؛ فطلبوا منه إيفاء الكيل والتصدق عليهم بما يختار... **﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾**: تذكير لهم بما مضى منهم مع يوسف وقت ما كانوا يجهلون ما يصير إليه يوسف من عزة وسؤدد... **﴿قالوا أإنّك لأنت يوسف﴾**؟: فهموا من كلامه أنّه يوسف، فاستفهموا عنه... **﴿قال أنا يوسف وهذا أخي قد مَنَّ الله علينا إنّه من يتق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾**: قد عَرَّفهم يوسف بنفسه وبأخيه ليعلّمهم نتيجة التقوى والصبر، ويبيّن لهم جزاء المحسنين... **﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنّا لخاطئين﴾**: تكرر اليمين منهم بتالله لغرابة موقفهم الآن أمام يوسف فاعترفوا له بالفضل، وأنّ الله أراد له

هذا الفضل دونهم، فهم الآن يعترفون بخطئهم معه فيما مضى. . . ﴿**قال لا تثريب عليكم**﴾: التثريب: التقريع والتوبيخ واللوم والتعبير بالذنب. . . ﴿**اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**﴾: اليوم يعفو عنهم، واليوم يغفر الله لهم لتوبتهم من حق يوسف وحق ربه. . . ﴿**اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين**﴾: يأمر من يذهب بقميص يوسف لِيُعَرِّفَ أباه به، وليذهب عنه الحزن والبكاء، فيأتي إليه بصيراً حاد البصر معافى، ويأمرهم بأن يأتوه بأهلهم أجمعين. . . ﴿**ولمّا فصلت العير قال أبوهم إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون قالوا تالله إنّك لفي ضلالك القديم**﴾: فصلت العير: خرجت من مصر واتجهت إلى أرض يعقوب، فقال لهم قبل أن تصل إليه: إنّي لأجد ريح يوسف. فنّده تفنيداً: كذّبه وعجّزه وخطّأ رأيه، وقال الحاضرون: إنّك لفي ضلالك القديم. . . ﴿**فلمّا أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون**﴾.

﴿**قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كنا خاطئين. قال سوف أستغفر لكم ربّي إنّه هو الغفور الرحيم**﴾: الكلمات في هذه الآيات واضحات. . . ﴿**فلمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين**﴾: آوى إليه أبويه: أباه وأمه، والإيواء تقدم معناه قريباً. . . ﴿**ورفع أبويه على العرش**﴾: وهو سرير المُلك. . . ﴿**وخروا له سجداً**﴾: اعترافاً برفعته وشرفه. وذكّر أباه برؤياه التي قصها عليه وقال له لا تقصص رؤياك. . . ﴿**قال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إنّ ربّي لطيف لما يشاء إنّه هو العليم الحكيم. رب قد آتيتني من الملك**﴾: حكم مصر. . . ﴿**وعلّمتني من تأويل الأحاديث**﴾: العلم بتأويل الرؤيا، وهى لا تكون إلاّ للأنبئاء، وهي لا تكون إلاّ بعلم لدني غير مكتسب. . . ﴿**فاطر السماوات والأرض**﴾: خالق ومبدع. . . ﴿**أنت وليّي**﴾: ناصري ومتولي أمري. . . ﴿**توفني مسلماً**﴾: أمتني على دين الإسلام. . . ﴿**وألحقني بالصالحين**﴾.

مبحث الإعراب

﴿**وما أبرئ**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفي وواو العطف، والفاعل

ضمير المتكلم. ﴿**نفسي**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وياء المتكلم في محل جر بالإضافة. ﴿**إنّ النفس**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لأمّارة**﴾ خبر إنّ، واللام لتوكيد الخبر. ﴿**بالسوء**﴾ متعلق بأمّارة. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**ما**﴾ في محل نصب على الاستثناء. ﴿**رحم**﴾ فعل ماض. ﴿**ربّي**﴾ فاعل مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وجملة رحم ربّي صلة ما. ﴿**إنّ ربّي غفور رحيم**﴾ الجملة من إنّ واسمها وخبرها تعليل لا محل لها من الإعراب.

﴿**وقال الملك**﴾ فعل وفاعل دخل عليه واو العطف. ﴿**ائتوني**﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، وواو الجماعة فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول. ﴿**أستخلصه**﴾ فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر، والفاعل ضمير المتكلم، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**لنفسي**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**فلمّا**﴾ الفاء للتفريع، لمّا ظرفية شرطية. ﴿**كلّمه**﴾ فعل ماض، والفاعل هو ضمير يعود على يوسف، والضمير المتصل بالفعل مفعول، وهو ضمير الملك. ﴿**قال**﴾ الملكُ جواب الشرط. ﴿**إنّك**﴾ إنّ واسمها. ﴿**اليوم لدينا**﴾ ظرفان متعلقان بما بعدهما. ﴿**مكين أمين**﴾ خبَرَانِ لإنّ، وإنّ واسمها وخبرها في محل نصب مقول القول.

﴿**قال**﴾ يوسف. ﴿**اجعلني**﴾ فعل أمر طلبي، والفاعل ضمير المخاطب وهو الملك، وياء المتكلم مفعول به وهو يوسف. ﴿**على خزائن**﴾ متعلق باجعلني. ﴿**الأرض**﴾ مضاف إلى خزائن. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**حفيظ**﴾ عليم خبَرَانِ لإنّ. ﴿**وكذلك**﴾ الواو للعطف، والكاف في محل نصب نعت لمصدر مقدر، وذلك في محل جر بالكاف. ﴿**مكنّا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ليوسف في الأرض**﴾ متعلقان بمكنّا. ﴿**يتبوأُ**﴾ فعل مضارع، والفاعل هو ضمير يعود على يوسف. ﴿**منها**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**حيث**﴾ ظرف مبني على الضم في محل نصب متعلق بيتبوأ. ﴿**يشاء**﴾ فعل مضارع، والفاعل هو ضمير يعود على يوسف، وجملة يشاء في محل جر مضاف إلى حيث، وجملة يتبوأ منها بيانية لا محل لها من الإعراب. ﴿**نصيب**﴾ فعل مضارع، والفاعل نحن؛ ضمير عظمة يعود على الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿**برحمتنا**﴾ متعلق بنصيب. ﴿**مَن**﴾ في محل نصب مفعول نصيب.

﴿**نشاء**﴾ فعل مضارع، وفاعله نحن كما في نصيب، وجملة نشاء صلة منْ. ﴿**ولا نضيع**﴾ معطوف على نصيب. ﴿**أجر**﴾ مفعول به. ﴿**المحسنين**﴾ مضاف إلى

أجر، وجملة نصيب ولا نضيع تذييل. ﴿ولأجر﴾ مبتدأ دخل عليه لام التوكيد وواو العطف. ﴿الآخرة﴾ مضاف إلى أجر. ﴿خير﴾ خبر المبتدإ. ﴿للذين﴾ متعلق بخير. ﴿آمنوا﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿وكانوا﴾ كان واسمها دخل عليها حرف العطف. ﴿يتقون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان. ﴿وجاء إخوة﴾ فعل وفاعل دخل عليه وواو العطف. ﴿يوسف﴾ مضاف إلى إخوة مجرور بالفتحة. ﴿فدخلوا﴾ فعل وفاعل دخل عليه فاء التعقيب. ﴿عليه﴾ متعلق بدخلوا.

﴿فعرفهم﴾ فعل ماض دخل عليه فاء التعقيب، والفاعل هو ضمير يعود على يوسف، والضمير المتصل بالفعل مفعول، ﴿وهم﴾ في محل رفع مبتدأ، والواو للعطف. ﴿له﴾ متعلق بما بعده. ﴿منكرون﴾ خبر المبتدإ. ﴿ولمّا جهزهم﴾ جملة شرطية، وتقدم مثلها في قوله: فلما كلمه. ﴿بجهازهم﴾ متعلق بجهز. ﴿قال يوسف﴾، هو جواب الشرط. ﴿ائتوني﴾ فعل أمر لإخوته. ﴿بأخ﴾ متعلق بائتوني. ﴿لكم﴾ متعلق بمحذوف نعت لأخ. ﴿من أبيكم﴾ متعلق بمحذوف حال من أخ، وسوّغ مجيء الحال من النكرة لوصفها. ﴿ألا ترون﴾ فعل وفاعل دخلت عليه أداة الاستفتاح. ﴿أنّي﴾ أنّ واسمها. ﴿أوفي﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء، والفاعل ضمير المتكلم يعود على يوسف، وجملة أوفي في محل رفع خبر أنّ. وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول ترون.

﴿الكيل﴾ مفعول أوفي. ﴿وأنا﴾ في محل رفع مبتدأ دخل عليه واو العطف. ﴿خير﴾ خبر المبتدإ. ﴿المنزلين﴾ مضاف إلى خير. ﴿فإن﴾ الفاء للتفريع، وإن شرطية. ﴿لم ﴿تأتوني﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، وواو الجماعة فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول، وجملة لم تأتوني في محل جزم فعل الشرط. ﴿به﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿فلا كيل﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، ولا نافية للجنس تعمل عمل إنّ. كيل اسم لا مبني على الفتح في محل نصب. ﴿لكم﴾ متعلق بمحذوف خبر لا. ﴿عندي﴾ متعلق بالخبر كذلك، وجملة فلا كيل لكم في محل جزم جواب الشرط. ﴿ولا تقربون﴾ معطوف على جواب الشرط مجزوم بلا الناهية، وحذف ضمير المتكلم المفعول للتخفيف. ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل. ﴿سنراود﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المتكلمين. ﴿عنه﴾ متعلق بالفعل.

﴿**أباه**﴾ مفعول منصوب بالألف. ﴿**وإنّا**﴾ إنّ واسمها دخل عليها واو العطف. ﴿**لفاعلون**﴾ خبر إنّ، واللام للتوكيد.

﴿**وقال**﴾ يوسف. ﴿**لفتيته**﴾ متعلق بقال. ﴿**اجعلوا**﴾ فعل أمر للفتية. ﴿**بضاعتهم**﴾ مفعول به. ﴿**في رحالهم**﴾ متصل باجعلوا، وجملة قال عطف على قال ائتوني. ﴿**لعلهم**﴾ لعل واسمها. ﴿**يعرفونها**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل رفع خبر لعلّ، وجملة لعلهم يعرفونها تعليلية. ﴿**إذا انقلبوا**﴾ فعل وفاعل مضاف إلى الظرف، وهو متعلق بيعرفونها. ﴿**إلى أهلهم**﴾ متعلق بانقلبوا. ﴿**لعلهم يرجعون**﴾ مثل لعلهم يعرفونها في الإعراب. ﴿**فلمّا رجعوا**﴾ جملة شرطية. ﴿**إلى أبيهم**﴾ متعلق برجعوا. ﴿**قالوا**﴾ جواب الشرط. ﴿**ياأبانا**﴾ منادى منصوب بالألف، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**منع**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**منّا**﴾ متعلق بمنع. ﴿**الكيل**﴾ نائب الفاعل.

﴿**فأرسل**﴾ فعل طلب دخل عليه حرف التفريع. ﴿**معنا**﴾ متعلق بأرسل. ﴿**أخانا**﴾ مفعول أرسل منصوب بالألف. ﴿**نكتل**﴾ فعل مضارع مجزوم في جواب الطلب. ﴿**وإنّا**﴾ إنّ واسمها دخل عليها حرف العطف. ﴿**له**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**لحافظون**﴾ خبر إنّ. ﴿**قال**﴾ يعقوب. ﴿**هل آمنكم**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف الاستفهام الإنكاري، والفاعل ضمير المتكلم، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**عليه**﴾ متعلق بآمنكم. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**كما**﴾ الكاف بمعنى مثل في محل نصب نعت لمصدر مقدر، وما في محل جر بالكاف. ﴿**أمنتكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول صلة ما. ﴿**على أخيه**﴾ متعلق بأمنتكم. ﴿**من قبل**﴾ كذلك. ﴿**فالله**﴾ مبتدأ دخل عليه حرف التفريع. ﴿**خير**﴾ خبره. ﴿**حفظاً**﴾ منصوب على التمييز. ﴿**وهو أرحم**﴾ معطوف على المبتدإ والخبر قبله.

﴿**الراحمين**﴾ مضاف إلى أرحم. ﴿**ولمّا فتحوا متاعهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخلت عليه أداة الشرط وواو العطف؛ فالجملة شرطية. ﴿**وجدوا بضاعتهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، جواب الشرط. ﴿**ردّت**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على البضاعة. ﴿**إليهم**﴾ متعلق بردت. وجملة ردت إليهم في محل نصب حال من البضاعة. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ياأبانا**﴾ منادى. ﴿**ما نبغي**﴾ فعل مضارع دخل عليه اسم الاستفهام، والفاعل نحن، وجملة قالوا يا أبانا

ما نبغي بيانية. ﴿**هذه**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**بضاعتنا**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**ردّت إلينا**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**ونمير**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف العطف. ﴿**أهلنا**﴾ مفعول نمير. ﴿**ونحفظ أخانا**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**ونزداد**﴾ كذلك. ﴿**كيل**﴾ مفعول نزداد. ﴿**بعير**﴾ مضاف إلى كيل. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**كيل**﴾ خبره. ﴿**يسير**﴾ نعت لكيل.

﴿**قال**﴾ يعقوب. ﴿**لن أرسله**﴾ فعل مضارع منصوب بلن، والضمير المتصل به مفعول، والفاعل ضمير المتكلم. ﴿**معكم**﴾ متعلق بالفعل. ﴿**حتى تؤتوني**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، وواو الجماعة فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول أول. ﴿**موثقاً**﴾ مفعول ثان. ﴿**من الله**﴾ متعلق بمحذوف نعت للموثق، أي: موثقاً صادراً من الله. ﴿**لتأتنني**﴾ فعل مضارع دخلت عليه نون التوكيد الثقيلة فحذفت نون الرفع، وحذف ضمير الجماعة الفاعل لالتقاء الساكنين، والنون الأخيرة للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول. ﴿**به**﴾ متعلق بالفعل، والجملة جواب القسم دخل عليها لام التأكيد. ﴿**إلاّ أن يحاط**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بأن دخلت عليها أداة الاستثناء. ﴿**بكم**﴾ متعلق بيحاط ناب مناب الفاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف مقدر دخلت عليه أداة الاستثناء، والتقدير: لتأتنَّني به في أي حال من الأحوال إلاّ في حال الإحاطة بكم من محيط يحيط بكم. ﴿**فلما آتوه موثقهم**﴾ جملة شرطية مرتبة على ما قبلها. ﴿**قال**﴾ يعقوب؛ جواب الشرط. ﴿**الله**﴾ مبتدأ. ﴿**على ما**﴾ متعلق بما بعده.

﴿**نقول**﴾ صلة ما. ﴿**وكيل**﴾ خبر المبتدإ، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**وقال**﴾ يعقوب: ﴿**يابني**﴾ منادى منصوب بالياء المدغمة في ياء المتكلم، وياء المتكلم في محل جر بالإضافة، وحركت بالفتحة للتخفيف. ﴿**لا تدخلوا**﴾ الفعل مجزوم بلا الناهية. ﴿**من باب**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**واحد**﴾ نعت لباب. ﴿**وادخلوا**﴾ أمر معطوف على النهي. ﴿**من أبواب**﴾ متعلق بفعل الأمر. ﴿**متفرقة**﴾ نعت لأبواب. ﴿**وما أغني**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفي وواو العطف، والفاعل ضمير المتكلم. ﴿**عنكم**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**من الله**﴾ كذلك. ﴿**من شيء**﴾ زيدت من هنا لتأكيد عموم شيء. ﴿**إن الحكم**﴾ مبتدأ دخلت عليه إن

النافية. ﴿**إلاّ لله**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ، وإلاّ ملغاة لا عمل لها. ﴿**عليه**﴾ متعلق بالفعل بعده. ﴿**توكلت**﴾ فعل وفاعل. ﴿**وعليه**﴾ عطف على عليه الأولى. ﴿**فليتوكل المتوكلون**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه لام الأمر الجازمة، وفاء التعقيب، وجملة إن الحكم إلاّ لله تعليلية، وجملة عليه توكلت وما عطف عليها بيانية. ﴿**ولمّا دخلوا**﴾ جملة شرطية معطوفة على ما قبلها من الأمر بالدخول من أبواب متفرقة. ﴿**من حيث**﴾ متعلق بدخلوا.

﴿**أمرهم**﴾ فعل ماض، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**أبوهم**﴾ فاعل مرفوع بالواو، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة أمرهم أبوهم في محل جر مضافة إلى حيث، وحيث مبنية على الضم في محل جر بمن. ما كان ما نافية، واسم كان ضمير يعود على الدخول. ﴿**يغني**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء، والفاعل ضمير مثل اسم كان، وجملة يغني في محل نصب خبر كان. من الله﴾ متعلق بيغني. ﴿**من شيء**﴾ من زائدة، وجملة ما كان جواب الشرط. ﴿**إلاّ حاجة منصوب على الاستثناء.** ﴿**في نفس**﴾ متعلق بمحذوف نعت لحاجة. ﴿**يعقوب**﴾ مضاف إلى نفس مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة.

﴿**قضاها**﴾ فعل ماض، والفاعل هو ضمير يعود على يعقوب، والضمير المتصل بالفعل مفعول، وجملة قضاها في محل نصب نعت ثان لحاجة. ﴿**وإنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لذو**﴾ خبر إنّ مرفوع بالواو، واللام لتأكيد الخبر. ﴿**علم**﴾ مضاف إلى ذو. ﴿**لما**﴾ اللام للتعليل، وما مصدرية. ﴿**علمناه**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وما وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بمحذوف نعت لعلم، والتقدير: وإنّه لذو علم مستقرٍّ وحاصلٍ لتعليمنا إيّاه هذا العلم، والجملة هذه اعتراضية. ﴿**ولكنّ أكثر**﴾ لكنّ واسمها دخل عليها واو العطف. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى أكثر. ﴿**لا يعلمون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي، والجملة في محل رفع خبر لكنّ. ﴿**ولما دخلوا**﴾ جملة شرطية. ﴿**على يوسف**﴾ متعلق بدخلوا.

﴿**آوى**﴾ فعل ماض، والفاعل هو ضمير يعود على يوسف، والجملة جواب الشرط. ﴿**إليه**﴾ متعلق بآوى. ﴿**أخاه**﴾ مفعول. ﴿**قال**﴾ يوسف: ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أنا**﴾ ضمير فصل. ﴿**أخوك**﴾ خبر إنّ، والجملة بيانية. ﴿**فلا تبتئس**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، والفاء للتفريع، والفاعل ضمير المخاطب. ﴿**بما**﴾

متعلق بالفعل قبله. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يعملون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا يعملون صلة ما. ﴿**فلمّا جهزهم**﴾ جملة شرطية مرتبة على ما قبلها. ﴿**بجهازهم**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**جعل**﴾ فعل ماض، والفاعل هو، والجملة جواب الشرط. ﴿**السقاية**﴾ مفعول به. ﴿**في رحل**﴾ متعلق بجعل. ﴿**أخيه**﴾ مضاف إلى رحل. ﴿**ثم أذن**﴾ مؤذن فعل وفاعل دخل عليه حرف العطف. ﴿**أيتُها**﴾ منادى حذف منه حرف النداء. ﴿**العير**﴾ نعت على لفظ أيتُها.

﴿**إنّكم**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لسارقون**﴾ خبر إنّ، واللام لتأكيد الخبر. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**وأقبلوا**﴾ جملة حالية من ضمير قالوا. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**ماذا**﴾ اسم استفهام مبتدأ. ﴿**تفقدون**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**نفقد**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير المتكلمين. ﴿**صواع**﴾ مفعول به. ﴿**الملك**﴾ مضاف إلى صواع. ﴿**ولمن**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**جاء**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على من، والجملة صلة من. ﴿**به**﴾ متعلق بجاء. ﴿**حمل**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**بعير**﴾ مضاف إلى حمل، والجملة معطوفة على نفقد. ﴿**وأنا**﴾ مبتدأ دخل عليه حرف العطف. ﴿**به متعلق**﴾ بما بعده. ﴿**زعيم**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**تالله**﴾ قسم.

﴿**لقد علمتم**﴾ توكيد له. ﴿**ما جئنا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي؛ جواب القسم. ﴿**لنفسد**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل ضمير المتكلمين، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بجئنا، والتقدير: تالله ما جئنا للإفساد. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بالفعل. ﴿**وما كنا سارقين**﴾ الجملة من كان واسمها وخبرها معطوفة على جملة ما جئنا لنفسد. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**فما**﴾ الفاء للتفريع، وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**جزاؤه**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**إن كنتم كاذبين**﴾ الجملة من كان واسمها وخبرها شرطية حذف جوابها لدلالة ما قبلها عليه. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**جزاؤه**﴾ مبتدأ.

﴿**مَن وُجد في رحله**﴾ من في محل رفع خبر المبتدإ على تقدير مضاف، والتقدير: جزاء سرقة الصواع أَخْذُ مَنْ وُجِدَ في رحله، ووجد في رحله صلة مَن. ﴿**فهو جزاؤه**﴾ تفريع لتأكيد الحكم. ﴿**كذلك كدنا ليوسف**﴾ سبق إعراب مثله في

قوله: وكذلك مكنّا ليوسف. ﴿ما كان﴾ اسم كان ضمير يعود على يوسف، وما نافية. ﴿ليأخذ﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وُجُوباً بعد لام الجحود[1]، والفاعل ضمير يعود على يوسف. ﴿أخاه﴾ مفعول به. ﴿في دين﴾ متعلق بيأخذ. ﴿الملك﴾ مضاف إلى دين. ﴿إلاّ أن يشاء الله﴾ فعل وفاعل دخلت عليه أن الناصبة وأداة الاستثناء، والاستثناء من أعم الأحوال، فالمعنى: ما كان يوسف يصح له أخذ أخيه في شريعة الملك في أي حال من الأحوال إلاّ في حال مشيئة الله ذلك. ﴿نرفع﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير التعظيم (نحن) يعود على الله تعالى. ﴿درجات﴾ مفعول به. ﴿من﴾ في محل جر مضاف إلى درجات.

﴿نشاء﴾ صلة من؛ والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله. ﴿وفوق﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم، والواو للعطف. ﴿كل﴾ مضاف إلى فوق. ﴿ذي﴾ مضاف إلى كل. ﴿علم﴾ مضاف إلى ذي. ﴿عليم﴾ مبتدأ مؤخر، وهو تذييل ثان. ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل. ﴿إن يسرق﴾ فعل الشرط، وفاعله ضمير يعود على أخي يوسف. ﴿فقد سرق ﴿أخ له﴾ من قبل جواب الشرط، والجار والمجرور في له ومن قبل متعلقان بمحذوف لأخ، وأخ فاعل سرق، وربط الجواب بالفاء لوجود قد. ﴿فأسرّها﴾ فعل ماض دخل عليه حرف التعقيب، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿يوسف﴾ فاعل. ﴿في نفسه﴾ متعلق بأَسَرّ. ﴿ولم يبدها﴾ معطوف على أسَرّها.

﴿لهم﴾ متعلق بيبدها. ﴿قال﴾ فعل ماض. ﴿أنتم﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿شر﴾ خبره. ﴿مكاناً﴾ منصوب على التمييز. ﴿والله﴾ مبتدأ دخل عليه حرف العطف. ﴿أعلم﴾ خبره. بما متعلق به. ﴿تصفون﴾ صلة ما، والجملة تذييل. ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل. ﴿ياأيّها العزيز﴾ منادى، بنيت الكلمتان على الضم لفظاً. ﴿إنّ له﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ مقدم. ﴿أباً﴾ اسمها مؤخر. ﴿شيخاً﴾ عطف بيان. ﴿كبيراً﴾ نعت له. ﴿فخذ﴾ فعل طلب مرتب على ما قبله، والفاعل ضمير المخاطب، وهو العزيز. ﴿أحدنا﴾ مفعول خذ. ﴿مكانه﴾ منصوب على الحال من المفعول، أي: عوضاً عنه. ﴿إنّا﴾ إنّ واسمها. ﴿نراك﴾ فعل مضارع، والضمير

---

(1) كل لام قبلها ما كان، أو لم يكن فللجحود بَانَ.

المتصل به. مفعول، والفاعل ضمير المتكلمين، والجملة خبر إنّ. ﴿**من المحسنين**﴾ متعلق بمحذوف مفعول ثان لنرى؛ فالرؤية قلبية.

﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**معاذ**﴾ مفعول مطلق. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى معاذ، وتقدم ليوسف مثل هذا القول. ﴿**أن نأخذ**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بمن متعلق بفعل المصدر المقدر، والتقدير: أعوذ بالله من أخْذِنَا أحداً. ﴿**إلاّ**﴾ من وجدنا فمن في محل نصب على الاستثناء، وجملة وجدنا صلة مَن. ﴿**متاعنا**﴾ مفعول به. عنده متعلق بوجدنا. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**إذن**﴾ ظرفية جوابية، والتنوين عوض عن جملة، أي: إنّا إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده. ﴿**لظالمون**﴾ خبر إنّ، واللام لتقوية الخبر. ﴿**فلمّا استيأسوا**﴾ جملة شرطية مرتبة على ما قبلها. ﴿**منه**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**خلصوا**﴾ فعل وفاعل؛ جواب الشرط. ﴿**نجياً**﴾ منصوب على الحال من الفاعل. ﴿**قال كبيرهم**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ألم تعلموا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي الجازم وحرف الاستفهام. ﴿**أنّ أباكم**﴾ أنّ واسمها.

﴿**قد أخذ**﴾ فعل ماض دخل عليه حرف التحقيق، والفاعل ضمير يعود على الأب، والجملة خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول تعلموا، أي: ألم تعلموا أخذ أبيكم ﴿**عليكم موثقاً من الله**﴾. ﴿**ومن قبلُ**﴾ مبني على الضم في محل جر لحذف المضاف إليه ونية معناه، أي قبل هذا. ﴿**ما فرطتم**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه ما المصدرية، أي: تفريطكم، وهو بيان لهذا المقدر[1]. ﴿**في يوسف**﴾ متعلق بفرطتم. ﴿**فلن أبرح**﴾ فعل مضارع منصوب بلن، والفاء للتفريع، والفاعل ضمير المتكلم. ﴿**الأرض**﴾ مفعول به. ﴿**حتى يأذن**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى. ﴿**لي**﴾ متعلق بالفعل قبله.

﴿**أبي**﴾ فاعل مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وياء المتكلم في محل جر بالإضافة حركت بالفتحة تخفيفاً. ﴿**أو يحكم الله**﴾ فعل وفاعل معطوف على يأذن. ﴿**لي**﴾ متعلق بيحكم. ﴿**وهو**﴾ خير مبتدأ وخبر، والجملة تذييل. ﴿**الحاكمين**﴾ مضاف إلى خير. ﴿**ارجعوا**﴾ فعل أمر. ﴿**إلى أبيكم**﴾ متعلق

---

(1) ويجوز أن تكون ما شرطية، وجوابها فلن أبرح الأرض، وهذا أوضح.

بارجعوا. ﴿**فقولوا**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**ياأبانا**﴾ منادى وقد سبق إعراب مثله. ﴿**إنّ ابنك**﴾ إنّ واسمها. ﴿**سرق**﴾ فعل ماض، والفاعل هو ضمير يعود على الابن، وجملة سرق خبر إنّ، وجملة إنّ ابنك سرق في محل نصب مقول القول. ﴿**وما شهدنا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي وواو العطف. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء ملغاة. ﴿**بما**﴾ متعلق بشهدنا.

﴿**علمنا**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**وما كنا**﴾ كان واسمها دخل عليها حرف النفي وواو العطف. ﴿**للغيب**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**حافظين**﴾ خبر كان. ﴿**واسأل**﴾ فعل طلب، وهو معطوف على ما قبله. ﴿**القرية**﴾ مفعول به. ﴿**التي**﴾ في محل نصب نعت للقرية. ﴿**كنّا**﴾ كان واسمها. ﴿**فيها**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان، والجملة صلة التي. ﴿**والعير التي أقبلنا فيها**﴾ معطوف على القرية التي كنا فيها، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**وإنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لصادقون**﴾ خبرها، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿**قال**﴾ يعقوب. ﴿**بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل**﴾ تقدم إعراب مثلها في أول هذه السورة.

﴿**عسى**﴾ فعل ماض ناقص تعمل عمل كان وكاد؛ ترفع الاسم وتنصب الخبر، غير أن كاد وعسى يكون خبرها جملة فعلية تقرن بأن في عسى كما هنا. ﴿**الله**﴾ اسم عسى. ﴿**أن يأتيني**﴾ فعل مضارع منصوب بأن، والنون للوقاية، والياء مفعول به، والفاعل هو ضمير يعود على الله، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب خبر عسى. ﴿**بهم**﴾ متعلق بيأتي. ﴿**جميعاً**﴾ منصوب على الحال من الضمير المجرور. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**هو**﴾ ضمير فصل. ﴿**العليم الحكيم**﴾ خبَرَانِ لإنّ، والجملة تعليل لا محل لها من الإعراب. ﴿**وتولى**﴾ يعقوب. ﴿**عنهم**﴾ متعلق بتولى.

﴿**وقال**﴾ فعل ماض، والواو للعطف. ﴿**يا أسفى**﴾ منادى مضاف إلى ياء المتكلم التي أبدلت ألفا. ﴿**على يوسف**﴾ متعلق بمعنى يا أسفى، أي: حزناً على يوسف. ﴿**وابيضّت عيناه**﴾ فعل وفاعل. ﴿**من الحزن**﴾ متعلق بابيضّت. ﴿**فهو كظيم**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر تعقيب على ما قبلها. ﴿**قالوا تالله**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**تفتأ**﴾ فعل مضارع ناقص يرفع الاسم وتنصب؛ ملازم للنفي، واسمه ضمير المخاطب، وهو يعقوب. ﴿**تذكر**﴾ فعل مضارع، وفاعله نفس الضمير

السابق، والجملة خبر تفتأ. ﴿**يوسف**﴾ مفعول به. ﴿**حتى تكون**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، واسمها ضمير يعود على يعقوب، ﴿**حرضاً**﴾ خبر تكون، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحتى. ﴿**أو تكون من الهالكين**﴾ معطوف على تكون حرضاً.

﴿**قال**﴾ فعل ماض. ﴿**إنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**أشكو**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الواو، والفاعل ضمير المتكلم. ﴿**بثي**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وياء المتكلم مضاف إليه. ﴿**وحزني**﴾ معطوف على بثي. ﴿**إلى الله**﴾ متعلق بأشكو. ﴿**وأعلم**﴾ معطوف على أشكو. ﴿**من الله**﴾ متعلق بأعلم. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول. ﴿**لا تعلمون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي، والجملة صلة ما. يابني تقدم إعراب مثله. ﴿**اذهبوا**﴾ فعل أمر. ﴿**فتحسسوا**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**من يوسف**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**وأخيه**﴾ معطوف على يوسف. ﴿**ولا تيأسوا**﴾ معطوف على اذهبوا، والفعل مجزوم بلا الناهية. ﴿**من روح**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى روح. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا ييأس**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفي.

﴿**من روح الله**﴾ متعلق بييأس. ﴿**إلاّ**﴾ القوم فاعل، وإلاّ ملغاة. ﴿**الكافرون**﴾ نعت للقوم، وجملة إنّه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون تعليل. ﴿**فلمّا دخلوا**﴾ جملة شرطية مرتبة على جمل قبلها مقدرة. ﴿**عليه**﴾ متعلق بدخلوا. ﴿**قالوا**﴾ جواب الشرط. ﴿**ياأيّها العزيز**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**مسّنا**﴾ فعل ماض، والضمير المتصل بالفعل في محل نصب مفعول. ﴿**وأهلنا**﴾ معطوف عليه. ﴿**الضر**﴾ فاعل مسّ. ﴿**وجئنا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف العطف. ﴿**ببضاعة**﴾ متعلق بجئنا. ﴿**مزجاة**﴾ نعت لبضاعة. ﴿**فأوف**﴾ فعل طلب مبني على حذف الياء، والفاعل ضمير المخاطب، والفاء للتفريع. ﴿**لنا**﴾ متعلق بأوف. ﴿**الكيل**﴾ مفعول به. ﴿**وتصدّق**﴾ معطوف على أوف. ﴿**علينا**﴾ متعلق بتصدق.

﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**يجزي**﴾ فعل مضارع، والفاعل هو ضمير يعود على الله، والجملة خبر إنّ. ﴿**المتصدقين**﴾ مفعول به، وجملة إنّ الله تعليل. ﴿**قال**﴾ يوسف. ﴿**هل علمتم**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف الاستفهام. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول. ﴿**فعلتم**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**بيوسف**﴾ متعلق بفعلتم.

﴿**وأخيه**﴾ معطوف عليه. ﴿**إذ**﴾ أنتم مبتدأ. ﴿**جاهلون**﴾ خبره، والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف، وهو متعلق بفعلتم. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أإنّك**﴾ إنّ واسمها دخل عليها حرف الاستفهام. ﴿**لأنت**﴾ ضمير فصل دخل عليه لام التوكيد. ﴿**يوسف**﴾ خبر إنّ. ﴿**قال**﴾ يوسف: ﴿**أنا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**يوسف**﴾ خبره. ﴿**وهذا أخي**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر معطوفة على ما قبلها. ﴿**قد مَنَّ الله**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التحقيق. ﴿**علينا**﴾ متعلق بمنّ.

﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**من يتق**﴾ فعل مضارع مجزوم؛ فعلُ شرط مَنْ، والفاعل هو ضمير يعود على مَنْ. ﴿**ويصبر**﴾ معطوف على يتق. ﴿**فإنّ الله**﴾ إنّ واسمها، والفاء لربط الجواب. ﴿**لا يضيع**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفي، والفاعل هو ضمير يعود على الله، والجملة خبر إنّ، وجملة فإنّ الله في محل جزم جواب الشرط، وجملة إنّه من يتق ويصبر تعليل. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**تالله**﴾ قسم كما تقدم. ﴿**لقد آثرك**﴾ فعل ماض دخل عليه حرف التحقيق ولام التوكيد، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**الله**﴾ فاعل. ﴿**علينا**﴾ متعلق بآثرك. ﴿**وإنْ**﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿**كنّا**﴾ كان واسمها. ﴿**لخاطئين**﴾ خبر كان، واللام للتوكيد، وجملة كنّا في محل رفع خبر إن المخففة.

﴿**قال**﴾ يوسف. ﴿**لا تثريب**﴾ لا واسمها. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر لا. ﴿**اليوم**﴾ منصوب على الظرفية متعلق بالخبر قبله مع احتمال تعلقه بما بعده. ﴿**يغفر الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**لكم**﴾ متعلق بيغفر. ﴿**وهو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أرحم خبره.** ﴿**الراحمين**﴾ مضاف إلى أرحم. ﴿**اذهبوا**﴾ فعل أمر. ﴿**بقميصي**﴾ متعلق به. ﴿**هذا**﴾ اسم إشارة للقميص في محل جر عطف بيان له. ﴿**فألقوه**﴾ مرتب على اذهبوا. ﴿**على وجه**﴾ متعلق بألقوه. ﴿**أبي**﴾ مضاف إلى وجه، وياء المتكلم مضاف إليه. ﴿**يأت**﴾ فعل مضارع مجزوم في جواب الطلب، والفاعل هو. ﴿**بصيراً**﴾ حال من الفاعل. ﴿**وأتوني**﴾ معطوف على اذهبوا. ﴿**بأهلكم**﴾ متعلق به. ﴿**أجمعين**﴾ توكيد للأهل. ﴿**ولمّا**﴾ فصلت العير جملة شرطية معطوفة على ما قبلها.

﴿**قال أبوهم**﴾ فعل وفاعل جواب الشرط. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لأجد**﴾ فعل

مضارع، واللام لتقوية الخبر، والفاعل ضمير المتكلم، والجملة خبر إنّ. ﴿**ريح**﴾ مفعول به. يوسف مضاف إلى ريح. ﴿**لولا**﴾ حرف امتناع لوجود متضمن معنى الشرط. ﴿**أن تفندون**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع مبتدأ، والخبر محذوف، وجواب لولا محذوف، والتقدير: لولا تفنيدكم إيّاي موجود لصدقتموني. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**تالله**﴾ قسم. ﴿**إنّك**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لفي ضلالك**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**القديم**﴾ نعت لضلال. ﴿**فلمّا**﴾ أن جاء البشير فعل وفاعل، وأن زائدة، والجملة شرطية معطوفة على ما قبلها. ﴿**ألقاه**﴾ جواب الشرط، والضمير المتصل بالفعل مفعول، والفاعل ضمير يعود على البشير. ﴿**على وجهه**﴾ متعلق بألقاه. ﴿**فارتد**﴾ مرتب على ما قبله، والفاعل ضمير يعود على يعقوب. ﴿**بصيراً**﴾ حال من الفاعل.

﴿**قال**﴾ يعقوب. ﴿**ألم أقل**﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، والهمزة للاستفهام، والفاعل ضمير المتكلم. ﴿**لكم**﴾ متعلق بأقل. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أعلم**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير المتكلم، والجملة خبر إنّ. ﴿**من الله**﴾ متعلق بأعلم. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول. ﴿**لا تعلمون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي، والجملة صلة ما. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ياأبانا**﴾ استغفر جملة دعائية بعد النداء. ﴿**لنا**﴾ متعلق باستغفر. ﴿**ذنوبنا**﴾ مفعول به. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**كنّا**﴾ كان واسمها. ﴿**خاطئين**﴾ خبر كان، وكان واسمها وخبرها خبر إنّ. قال يعقوب. ﴿**سوف**﴾ حرف تسويف خاص بالفعل المضارع. ﴿**أستغفر**﴾ فاعله ضمير المتكلم. ﴿**لكم**﴾ متعلق بأستغفر. ﴿**ربّي**﴾ منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم معمول أستغفر: ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**هو**﴾ ضمير فصل. ﴿**الغفور الرحيم**﴾ خبرَانِ لإنّ، والجملة تعليل. ﴿**فلمّا دخلوا على يوسف آوى إليه**﴾ ﴿**أبويه**﴾ تقدم إعراب مثله في قوله: ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه.

﴿**وقال**﴾ يوسف. ﴿**ادخلوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**مصر**﴾ مفعول ادخلوا. ﴿**إن شاء الله**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه إن الشرطية. ﴿**آمنين**﴾ حال من واو الجماعة، وجواب إن شاء الله مقدر، والتقدير: إن شاء الله دخولكم تدخلوا آمنين، وكلمة إن شاء الله غلب عليها معنى التبرك. ﴿**ورفع**﴾ فعل ماض دخل عليه حرف العطف. ﴿**أبويه**﴾ مفعول. ﴿**على العرش**﴾ متعلق برفع. ﴿**وخروا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف العطف. ﴿**له**﴾ متعلق به. ﴿**سجداً**﴾ حال من واو الجماعة.

﴿**وقال**﴾ يوسف. ﴿**ياأبت**﴾ منادى كما تقدم في أول السورة. ﴿**هذا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**تأويل**﴾ خبره. ﴿**رؤياي**﴾ مضاف إلى تأويل مجرور بكسرة مقدرة على الألف، وياء المتكلم مضاف إليه، وحركت بالفتحة تخفيفاً. ﴿**من قبل**﴾ متعلق برؤياي. ﴿**قد**﴾ ﴿**جعلها**﴾ فعل ماض دخل عليه حرف التحقيق، والضمير المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿**ربّي**﴾ فاعل. ﴿**حقاً**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**وقد أحسن**﴾ معطوف على قد جعلها. ﴿**بي**﴾ متعلق بأحسن. ﴿**إذ ظرف**﴾ متعلق بأحسن. ﴿**أخرجني**﴾ فعل ماض، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به، والفاعل ضمير يعود على ربّي. ﴿**من السجن**﴾ متعلق بأخرجني. ﴿**وجاء**﴾ معطوف على أخرجني. ﴿**بكم من البدو**﴾ متعلقان بجاء. ﴿**من بعد**﴾ كذلك. أن نزغ الشيطان فعل وفاعل دخلت عليه أن المصدرية، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور مضاف إلى بعد. ﴿**بيني**﴾ ظرف متعلق بنزغ.

﴿**وبين**﴾ معطوف على الظرف قبله. ﴿**إخوتي**﴾ مضاف إلى الظرف. ﴿**إنّ ربّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لطيف**﴾ خبرها. ﴿**لما**﴾ متعلق بلطيف. ﴿**يشاء**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على ربّي، والجملة صلة ما. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**هو**﴾ ضمير فصل. ﴿**العليم**﴾ ﴿**الحكيم**﴾ خبران لإنّ، والجملة تعليل. ﴿**ربّ منادى**﴾ حذف منه حرف النداء وياء المتكلم تخفيفاً. ﴿**قد آتيتني**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف التحقيق. ﴿**من الملك**﴾ متعلق بآتيتني. ﴿**وعلمتني**﴾ معطوف على آتيتني. ﴿**من تأويل**﴾ متعلق بعلمتني. ﴿**الأحاديث**﴾ مضاف إلى تأويل. ﴿**فاطر**﴾ منادى حذف منه حرف النداء. ﴿**السماوات**﴾ مضاف إلى فاطر. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات. ﴿**أنت**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**وليّي**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم. ﴿**في الدنيا**﴾ متعلق بوليي. ﴿**والآخرة**﴾ معطوف على الدنيا. ﴿**توفني**﴾ فعل طلب مبني على حذف الألف، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول أول. ﴿**مسلماً**﴾ مفعول ثان. ﴿**وألحقني**﴾ معطوف على توفني. ﴿**بالصالحين**﴾ متعلق بألحقني.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**وما أبرئ نفسي إنّ النفس لأمارة بالسوء إلاّ ما رحم ربّي إنّ ربّي غفور رحيم**﴾: هذه الآية وصلت بما قبلها بالعطف تكملة لكلام امرأة العزيز، وذلك

كالاحتراس مما يقتضيه قولها: ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب، من أن تبرئة نفسها من هذا الذنب ادّعاءٌ بأنّ نفسها بريئة براءة عامة، فقالت: وما أبرئ نفسي؛ فجملة إنّ النفس لأمارة بالسوء تعليل لجملة وما أبرئ نفسي. والاستثناء في إلاّ ما رحم ربّي استثناء من عموم الأزمان. وجملة: ﴿**إنّ ربّي غفور رحيم**﴾ تعليل لهذا الاستثناء. وفي اعتراف امرأة العزيز بحضرة الملك عبرة؛ لفضيلة الاعتراف بالحق، وتبرئة البريء ممّا ألصق به... ﴿**وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلمّا كلّمه قال إنّك اليوم لدينا مكين أمين**﴾: هذه الآية وصلت بما قبلها بالعطف؛ لأنّها تتميم لما حصل من المحاورة قبلها. وفي قول الملك: أستخلصه لنفسي مبالغة عظيمة، وهو كناية عن شدة اتصاله به والعمل معه.

وجملة: فلمّا كلّمه مفرعة على جملة محذوفة دلّ عليها: وقال الملك ائتوني به، والتقدير: فأتوه به، فحضر لديه وكلمه، فلمّا كلمه. والمقصود من جملة: فلمّا كلّمه إفادة أنّ يوسف كلم الملك كلاماً أعجب الملك بما فيه من حكمة وأدب، فلذلك قال: إنّك اليوم لدينا مكين أمين. والمكين صفة مشبهة؛ مأخوذة من مكن إذا صار ذا مكانة. والأمين فعيل بمعنى المفعول، أي: مأمون، فهذه صيغة تولية جامعة لكل ما يحتاج إليه ولي الأمر من الخصال. وهذا التنويه بشأنه والثناء عليه تعريض بأنّه يريد الاستعانة به في أمور مملكته؛ فجملة ﴿**قال اجعلني على خزائن الأرض**﴾ حكاية جوابه لكلام الملك؛ ولذلك فصلت على طريقة المحاورات. وعلى هنا للاستعلاء المجازي، وهو التصرف والتمكن.

والتعريف في الأرض تعريف العهد. وعلل طلبه ذلك بقوله: ﴿**إنّي حفيظ عليم**﴾، ولا يخفى ما في هذه الجملة من التأكيد... ﴿**وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين. ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾: وصلت الآية بما قبلها بالعطف لتكون مظهراً من مظاهر التمكين الحقيقي المسند إلى الله تعالى، إنّما الملك كان آلة فقط. وقوله: يتبوأ منها حيث يشاء بيان لجملة مكنّا، وهو كناية عن تصرفه في جميع مملكة مصر. وجملة: نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون تذييل لمناسبة عمومه لخصوص ما أصاب يوسف من الرحمة في أحواله في الدنيا، وما كان له من مواقف الإحسان

التي كان ما أعطيه من النعم وشرف المنزلة جزاء لها في الدنيا؛ لأنّ الله لا يضيع أجر المحسنين، ولأجره في الآخرة خير من ذلك له ولكل من آمن واتقى.

والتعبير في جانب الإيمان بصيغة الماضي وفي جانب التقوى بصيغة المضارع؛ لأنّ الإيمان عقد القلب الجازم فهو حاصل دفعة واحدة، وأما التقوى متجددة بتجدد أسباب الأمر والنهي، واختلاف الأعمال والازمان... ﴿**وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون**﴾: طوى السياق كل ما يتعلق بالعزيز وامرأته والملك وشؤونه ونهايته وعطف هذه الآية على ما يتعلق بيوسف وإخوته، فهو المقصود من قصة يوسف من أولها، وهو إظهار ما يلقاه الأنبئاء من ذويهم، وكيف تكون لهم عاقبة النصر والحسنى. فقوله: فدخلوا عليه فعرفهم بهذه السرعة دليل على قوة فراسته وشدة ملاحظته. وجملة: وهم له منكرون عطف على جملة فعرفهم.

ووقع الإخبار عنهم بالجملة الاسمية للدلالة على أنّ عدم معرفتهم به أمر ثابت متمكن منهم. وكان الإخبار عن معرفته إيّاهم بالجملة الفعلية المفيدة للتجدد للدلالة على أنّ معرفته إيّاهم حصلت بحَدَثان رؤيته إيّاهم دون توسم وتأمل. وقرن منكرون الذي هو ضمير يوسف بلام التقوية، ولم يقل: وهم منكرونه لزيادة تقوية جهلهم بمعرفته، وتقديم المجرور بلام التقوية في له منكرون للرعاية على الفاصلة، وللاهتمام بتعلق نكرتهم إيّاه للتنبيه على أنّ ذلك من صنع الله تعالى، وإلاّ فإنّ شمائل يوسف ليست ممّا شأنه أن يُجهل ويُنسى... ﴿**ولمّا جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنّي أوفي الكيل وأنا خير المنزلين**﴾: أسند التجهيز إلى يوسف إظهاراً لتكريمهم والإحسان بهم ليتسنى له طلبه بالإتيان بأخيهم.

وقوله: ائتوني بأخ لكم يقتضي وقوع حديث منهم عن أنّ لهم أخاً من أبيهم لم يحضر معهم. وقوله: ألا ترون أنّي أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ترغيب لهم في العود إليه. ودلّ قوله: خير المنزلين على أنّه كان ينزل الممتارين في ضيافته لكثرة الوافدين على مصر للميرة، وهذه الجملة كناية عن الوعد بأن يوفي لهم الكيل ويكرم ضيافتهم إن أتوا بأخيهم... ﴿**فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون**﴾: تعقيب على قوله: ائتوني بأخ لكم من أبيكم، وهو كناية عن منعهم

من ابتياع الطعام. . . ﴿**قالوا سنراود عنه أباه وإنّا لفاعلون**﴾: هذا وعد بأن يبذلوا قصارى جهدهم في الإتيان بأخيهم، وإشعار بصعوبة ذلك.

وجملة: وإنّا لفاعلون عطف على الوعد بتحقيق الموعود به، وأكّدوا ذلك بالجملة الاسمية وحرف التأكيد. . . ﴿**وقال لفتيته اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلّهم يرجعون**﴾: هذه الآية موصولة بما قبلها بالعطف. وأسند جَعْلُ بضاعتِهم في رحالهم إلى الفتية لأنّهم هم الذين يزاولون هذا الفعل بأمر يوسف، فإسناد التجهيز إلى يوسف في الآية السابقة مجاز عقلي. والمراد بالبضاعة التي ردت إليهم ثمن الطعام المشترى. وقوله: لعلّهم يعرفونها رجاء أن يعرفوا أنّها عين بضاعتهم. وجملة لعلّهم يرجعون جواب للأمر في قوله. اجعلوا بضاعتهم في رحالهم؛ لأنّه لما أمرهم بالرجوع استشعر بنفاذ رأيه أنّهم قد يكونون غير واجدين بضاعة ليبتاعوا بها الميرة؛ لأنّه رأى مخايل الضيق عليهم، وكانوا يتعاملون بالمقايضة بدل النقود لقلتها في اليد؛ ولهذا عبر هنا بالبضاعة. . . ﴿**فلمّا رجعوا إلى أبيهم قالوا ياأبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنّا له لحافظون**﴾: هذه الآية جاءت مرتبة على ما قبلها بأسلوب الشرط؛ ليسرعوا بإخبار أبيهم عما حصل وعما سيحصل، فمعنى منع منا الكيل حيل بيننا وبين الكيل في المستقبل؛ لأنّ رجوعهم بالطعام المعبر عنه بالجهاز قرينة أنّ المنع من الكيل يقع في المستقبل.

والكيل مصدر صالح لمعنى الفاعلية والمفعولية، وهو هنا بمعنى الإسناد إلى الفاعل، فالممنوع هو ابتداء الكيل منهم، ولمّا لم يكن بيدهم ما يكال تعين تأويل الكيل بطلبه، ولذلك صح تفريع: فأرسل معنا أخانا عليه، فصار تقدير الكلام: مُنعنا من أن نطلب الكيل إلاّ إذا حضر أخونا معنا؛ فتعين أنّهم حكوا القصة لأبيهم مفصلة، واختصرها القرآن لظهور المراد، والمعنى: إن أرسلته معنا نرحل للاكتيال ونطلبه. وإطلاق المنع على هذا المعنى مجاز؛ لأنّهم أنذروا بالحرمان، فصار طلبهم ممنوعاً منهم؛ لأنّ طلبه عبث. وجملة: وإنّا له لحافظون عطف على جملة فأرسل، وأكدوا حفظه بالجملة الاسمية الدالة على الثبات، وبحرف التوكيد. . . ﴿**قال هل آمنكم عليه إلاّ كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حفظاً وهو أرحم الراحمين**﴾: جواب يعقوب على سؤال أبنائه، فهو كلام موجه يحتمل أن يكون

معناه: إنّي آمنكم عليه كما أمنتكم على أخيه، وأن يكون معناه: ماذا أفاد ائتمانكم على أخيه من قبل حتى آمنكم عليه. والاستفهام إنكاري فيه معنى النفي، فهو يستفهم عن وجه التأكيد في قولهم: وإنّا له لحافظون. والمقصود من الجملة على احتماليها هو التفريع الذي في قوله: فالله خير حفظاً؛ خيْرٌ حفظاً منكم، فإنْ حفِظَهُ اللَّهُ سَلِمَ، وإن لم يحفظه لم يسلم كما لم يسلم أخوه من قبل حين أمنتكم عليه، وهم قد اقتنعوا بجوابه وعلموا منه أنّه مرسل معهم أخاهم، ولذلك لم يراجعوه في شأنه.

وقوله: وهو أرحم الراحمين تذييل مقرر لمضمون كلام يعقوب. . . ﴿**ولمّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم قالوا ياأبانا ما نبغي؟. هذه بضاعتنا ردّت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير**﴾: الآية موصولة بما قبلها بالعطف. وإطلق المتاع هنا على الأوعية التي فيها المتاع من تسمية الشيء باسم الحالِّ فيه. وجملة: قالوا ياأبانا مستأنفة استئنافاً بيانياً لترقب السامع أن يعلم ماذا صدر منهم حين فاجأهم وُجْدانُ بضاعتِهم في ضمن متاعهم؛ لأنّها مفاجأة غريبة، ولهذه النكتة لم يعطف بالفاء. وما في قوله: ما نبغي يجوز أنّ ما للاستفهام الإنكاري كتنزيل المخاطب منزلة من يتطلب منهم تحصيل بغية فينكرون أن تكون لهم بغية أخرى، ويجوز أن تكون ما نافية، والمعنى واحد؛ لأنّ الاستفهام الإنكاري في معنى النفي.

وجملة: هذه بضاعتنا ردت إلينا مبيّنة لجملة ما نبغي على الاحتمالين. وجملة: ونمير أهلنا معطوفة على جملة هذه بضاعتنا ردّت إلينا. وجملة: ونحفظ أخانا معطوفة على جملة نمير أهلنا. وجملة: ونزداد كيل بعير زيادة في إظهار حرصهم على سلامة أخيهم، وهذه الجمل مرتبة ترتيباً بديعاً؛ لأنّ بعضها متولد عن بعض. والإشارة في ذلك كيل يسير إلى الطعام الذي في متاعهم، وإطلاق الكيل عليه من إطلاق المصدر على المفعول بقرينة الإشارة. . . ﴿**قال لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقاً من الله لتأتنني به إلاّ أن يحاط بكم فلمّا آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل**﴾: هذه الآية جاءت مفصولة عمّا قبلها فلم تعطف؛ لأنّها جواب لطلبهم أن يرسل أخاهم معهم، فطلب منهم أن يحلفوا له بالله أن يحافظوا عليه، وأن يأتوا به إليه إلاّ إذا غلب عليه أمرهم، فأعطوه ما طلب منهم، وفوض

الأمر بعد ذلك إلى من له الأمر. . . ﴿**وقال يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلاّ لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون**﴾: وصلت هذه الآية بما قبلها بالعطف زيادة في نصحهم؛ فالمقصود من حكاية قوله هذا العبرة بقوله: وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم ...الخ، وإنّما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد خشية أن يسترعي عددهم أبصار أهل المدينة وحراسها، فنهاهم عن الدخول من باب واحد ولا من بابين ولا من ثلاثة، وأمرهم بالدخول من أبواب متفرقة، وهو بيان لما هو المراد بالنهي.

ووجه العدول عن المتعددة إلى المتفرقة الإيماء إلى علة الأمر، وهي إخفاء كونهم جماعة واحدة. وجملة: وما أغني عنكم من الله من شيء معترضة في آخر الكلام، وأراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة. وجملة: إن الحكم إلاّ لله في موضع التعليل لمضمون وما أغني عنكم من الله من شيء. وجملة: عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون في موضع البيان لجملة وما أغني عنكم من الله من شيء؛ ليبيّن لهم أن وصيته بأخذ الأسباب مع التنبيه على الاعتماد على الله هو معنى التوكل الذي يضل في فهمه كثيرٌ من الناس اقتصاراً وإنكاراً. . . ﴿**ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلاّ حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنّه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾: وصلت هذه الآية بالعطف على كلام مقدر، والتقدير: عندما سمعوا كلام أبيهم تأهبوا للسفر وسافروا ودخلوا من حيث أمرهم أبوهم ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم سلموا ممّا كان يخافه عليهم، وما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم يغني عنهم من الله من شيء لو قدر الله أن يحاط بهم، فالكلام إيجاز. والاستثناء في قوله: إلاّ حاجة منقطع، فالتقدير: لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها.

والحاجة التي في نفس يعقوب هي حرصه على تنبيههم للأخطار، وتعليمهم الأخذ بالأسباب، مع التوكل على الله. وجملة: وإنه لذو علم لما علمناه معترضة بين جملة: ولمّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم، وبين جملة: ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وهو ثناء على يعقوب بالعلم والتدبير. وقوله: ولكنّ أكثر الناس لا

يعلمون استدراك نشأ عن جملة: ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ...الخ، والمعنى أنّ أكثر الناس في جهالة عن وضع هذه الحقائق موضعها، والقليل هم الذين يعلمون سِرَّ القدر، ولا يفرطون في أخذ الحذر مثل يعقوب. . . ﴿**ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إنّي أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون**﴾: موقع جملة: ولمّا دخلوا على يوسف كموقع جملة: ولمّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم في إيجاز الحذف، وأطلق الإيواء هنا مجاز على الإدناء والتقريب.

وجملة: قال إنّي أنا أخوك بَدَلُ اشتمال من جملة آوى إليه أخاه، وكلمه بكلمة مختصرة بليغة إذ أفاده أنّه هو أخوه الذي ظنه أنّه أكله الذئب، فأكد الخبر بإنّ، وبالجملة الاسمية، وبالقصر الذي أفاده ضمير الفصل. وفرع على هذا الخبر فلا تبتئس بما كانوا يعملون، وأفاد فعل الكون في المضي أنّ المراد ما عملوه فيما مضى، وأفاد صوغ يعملون بصيغة المضارع أنّه أعمال متكررة من الأذى؛ ففيه تهيئة لنفس أخيه لتلقي حادث الصواع باطمئنان حتى لا يخشى أن يكون بمحل الريبة من يوسف. . . ﴿**فلمّا جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه**﴾: تقدم الكلام على نظيره في التجهيز الأول. وإسناد جعل السقاية إلى ضمير يوسف مجاز عقلي، وإنّما هو أمر بالجعل، والذين جعلوا السقاية في الرحل الفتية العاملون.

وتعريف السقاية تعريف العهد الذهني، وهي سقاية الملك المعبر عنها بصواع الملك، وهي سقاية معروفة لا يخلو عن مثلها مجلس العظيم. . . ﴿**ثم أذّن مؤذن أيّتها العير إنّكم لسارقون. قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون. قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم**﴾: هذا النداء وقع بعد مهلة من تجهيزهم ورحيلهم. وجملة: قالوا جواب لنداء المنادي إيّاهم، وفصلت لأنّها في طريقة المحاورة. وجملة: وأقبلوا عليهم حال من ضمير قالوا.

وجملة: ماذا تفقدون مقول القول. وجملة: قالوا نفقد صواع الملك جواب لقولهم: ماذا تفقدون. وجملة: ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم كلام المؤذن الذي ناداهم. . . ﴿**قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنّا سارقين**﴾: قالوا تالله جواب لقول المنادى: إنكم لسارقون. وقولهم: لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنّا سارقين أكدوا ذلك بالقسم، واللام، وقد، فنفوا ما اتُّهِمُوا به على أبلغ وجه. . . ﴿**قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين**﴾؟: سؤال من

الفتية مرتب على قول الإخوة لقصد التحكيم في القضية. . . ﴿**قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين**﴾: جواب الأخوة على سؤال الفتية، أي: جزاءُ سَرِقَةِ الصواعِ أَخْذُ من وجد عنده، وأكدوا هذا الحكم بتفريع المثل فهو جزاؤه، وتمثيل الجزاء بمن يستحق هذا الحكم: كذلك نجزي الظالمين. . . ﴿**فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه**﴾: تفريع على مقدر، والتقدير: أقبلوا عليهم فقالوا ما قالوا، ثم رجعوا إلى يوسف فبدأ بتفتيشهم، فكانت البداية بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، ثم استخرجها من وعاء أخيه. . . ﴿**كذلك كدنا ليوسف**﴾: دخلت الكاف على اسم الإشارة للدلالة على فخامة المشار إليه، وكذا ما في ذلك من معنى البعد، أي: مثل ذلك الكيد العجيب حصل ما حصل من المقدمات التي رتبها حتى وصل إلى غرضه، وهو أخذ أخيه. . . ﴿**ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلاّ أن يشاء الله**﴾: استئناف وتعليل؛ فكأنه قيل: لماذا فعل ذلك؟.

فقيل: لأنّه لم يكن هذا الحكم مشروعاً في شريعة الملك لكن أراد الله ذلك فحصل ما حصل. . . ﴿**نرفع درجات من نشاء**﴾: هذا تذييل مقرر لمضمون قصة أخذ يوسف أخاه؛ لأنّ فيها رفع درجة يوسف في الحال بالتدبير الحكيم من وقت مناجاته أخاه إلى وقت استخراج السقاية من رحله؛ فالدرجات مستعارة لقوة الشرف من استعارة المحسوس للمعقول. وجملة. . . ﴿**وفوق كل ذي علم عليم**﴾: تذييل ثان لجملة: كذلك كدنا ليوسف، وفيها شاهد لتفاوت الناس في العلم المؤذن بأن علم الذي خلق لهم العلم لا ينحصر مداه، وأنّه فوق كل نهاية من علم الناس. والفوقية مجاز في شرف الحال؛ لأنّ الشرف يُشبّه بالارتفاع. وظاهر تنكير عليم أن يراد به الجنس، فيعم كل موصوف بقوة العلم إلى أن ينتهي إلى علم الله تعالى. . . ﴿**قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون**﴾: لمّا بهتوا بوجود الصواع في رحل أخيهم اعتراهم ما يعتري المبهوت، فاعتذروا عن دعواهم تنزههم عن السرقة إذ قالوا وما كنا سارقين؛ عذراً بأنّ أخاهم قد تسربت إليه خصلة السرقة من غير جانب أبيهم، فزعموا أنّ أخاه الذي أشيع فقده كان سرق من قبل، وإنّما قالوا: قد سرق أخ له من قبل بهتاناً ونفياً للمعرّة عن أنفسهم، وليس ليوسف سرقة من قبل، وكان هذا الكلام بمسمع من يوسف في مجلس

حكمه، فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم، قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون. . . ﴿**قالوا ياأيّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنّا نراك من المحسنين**﴾: في هذا القول الموجه بالنداء والتشريف استعطاف وترفق بالأب الشيخ الضعيف!.

وفرّعوا على هذا بقولهم: فخذ أحدنا مكانه، وعللوا ذلك بقولهم: إنّا نراك من المحسنين. . . ﴿**قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده إنّا إذاً لظالمون**﴾: هذا الرد جاء قوياً حاسماً بتأكيده بالتعوذ بالله من أخذ أحد غير من ثبت عليه الحكم منكم، فهو رد لاستعطافهم بحجة مقنعة، ولذلك علل الرد لطلبهم بأنّه لو فعله لكان ذلك ظلماً، ودليل التعليل شيئان: وقوع إنّ في صدر الجملة، والإتيان بحرف الجزاء، وهو إذن. . . ﴿**فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً**﴾: ترتب على قول يوسف: معاذ الله يأسُهم من تخليص أخيهم منه فانصرفوا عنه، وخلوا بأنفسهم متناجين: كيف يواجهون أباهم بغير أخيهم؟! ..﴿**قال كبيرهم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله**﴾: في هذا، وفي يوسف من قبله، وهو تفريطهم فيه. . . ﴿**ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين**﴾: هذا شرط على قوله: ألم تعلموا أنّ أباكم؛ فصمّم على البقاء في مكانه حتى يأتيه إذن من أبيه، وهذا ما رسمه لنفسه. أو يحكم الله لي، وهو ما عسى أن يكون قدره الله له مما لا قبل له بدفعه.

وجملة وهو خير الحاكمين تذييل مقرر لمضمون ما قبله. ثم لقنهم كبيرهم ما يقولون لأبيهم. . . ﴿**ارجعوا إلى أبيكم فقولوا ياأبانا إنّ ابنك سرق وما شهدنا إلاّ بما علمنا وما كنّا للغيب حافظين. واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنّا لصادقون. قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنّه هو العليم الحكيم**﴾: جعلت جملة: قال بل سولت في صورة الجواب عن الكلام الذي لقنه أخوهم على طريقة الإيجاز، والتقدير: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا ذلك الكلام الذي لقنه إيّاهم كبيرهم؛ قال أبوهم: بل سولت.

وقوله هنا كقوله لهم حين زعموا أنّ يوسف أكله الذئب، فهو تهمة لهم بالتغرير بأخيهم، وفي كلا القولين تفويض الأمر إلى الله؛ فهناك قال: والله

المستعان على تصفون، وهنا قال: عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً. وجملة: إنّه هو العليم الحكيم، تعليل لرجائه من الله بأنّ الله عليم فلا تخفى عليه مواقعهم المتفرقة، حكيم فهو قادر على إيجاد أسباب جمعهم بعد التفرق... ﴿**وتولّى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم**﴾: انتقال إلى حكاية حال يعقوب في انفراده عن أبنائه ومناجاته نفسه؛ ولما كان التولي يقتضي الاختلاء بنفسه ذكر من أحواله تجدد أسفه على يوسف. ونداء الأسف مجاز؛ نزّل الأسف منزلة من يعقل فيقول له: احضر، فهذا أوان حضورك. والألف عوض عن ياء المتكلم فإنّها في النداء قد تبدل ألفا. وإنّما أسف على يوسف مع أنّ الحادث مصيبة أخويه؛ لأنّ رزأه كان قاعدة الأرزاء غضّاً عنده - وإن تقادم عهده -، آخذاً بمجامع قلبه لا ينساه؛ ولأنّه كان واثقاً بحياتهما عالماً بمكانهما طامعاً في إيابهما.

وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله. وجملة: وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم تكملة لبيان حاله في الجملة. وجملة... ﴿**قالوا تالله**﴾: محاورة بنيه إيّاه. وجواب القسم... ﴿**تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين**﴾: لأنّ المقصود من هذا اليمين الإشفاق عليه بأنّه صائر إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه مصيبة يوسف. وجواب القسم هنا فيه حرف النفي مقدر بقرينة عدم قرنه بنون التوكيد، والمعنى: لا تفتر تذكر يوسف فيتجدد لك الأسى والحزن فتضعف فتكون هالكاً من الهالكين... ﴿**قال إنّما أشكو بثي وحزني إلى الله**﴾: رد لكلامهم العنيف بهذا الكلام اللطيف، وهو أنّ ذكره يوسف موجه إلى الله دعاءً بأن يرده عليه؛ فجملة إنّما أشكو بثي وحزني إلى الله مفيدة قصر شكواه على التعلق باسم الله، فصارت الشكوى بهذا القصد ضراعة، والضراعة دعاء، والدعاء عبادة، وصار ابيضاض عينيه الناشئ عن التذكر الناشئ عن الشكوى أثراً جسدياً ناشئاً عن كثرة العبادة، فابيضاض العينين هنا ليس عماً ولكن لكثرة البكاء.

وقد أعقب كلامه بقوله... ﴿**وأعلم من الله ما لا تعلمون**﴾: لينبههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية؛ ليعلموا أنّهم دون مرتبة أن يعلّموه أو يلوموه. ثم صرح لهم بشيء مما يعلمه وكاشفهم بما يحقق كذبهم ادّعاء ائتكال الذئبِ يوسفَ حين أذنه الله بذلك عند تقدير انتهاء البلوى فقال... ﴿**يا بني**

اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه﴾: فجملة يابني اذهبوا مستأنفة استئنافا بيانيا؛ لأنّ في قوله: وأعلم من الله ما لا تعلمون ما يثير في أنفسهم ترقب مكاشفته على كذبهم. والتحسس: شدة التطلب والتعرف، وهو أهم من التجسس، فهو التطلب مع اختفاء وتستر. . . **﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾**: في خطابهم بوصف البنوة منه ترقيق لهم وتلطف ليكون أبعث على الامتثال.

وجملة. . . **﴿إنّه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون﴾**: تعليل للنهي عن اليأس، والرَّوْحُ استعير هنا وفيما قبله لكشف الكرب. . . **﴿فلمّا دخلوا عليه قالوا يا أيّها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إنّ الله يجزي المتصدقين﴾**: وصلت هذه الآية بما قبلها بالعطف بالفاء التي هي للترتيب والتعقيب، فعطفت على كلام مقدر دلّ عليه المقام، والتقدير: فذهبوا إلى مصر فوصلوها فدخلوا على يوسف فلمّا دخلوا عليه قالوا ياأيّها العزيز ...الخ الآية. . . **﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾**: فصل الآية هنا ظاهر.

والاستفهام مستعمل في التوبيخ. وهل مفيدة للتحقيق؛ لأنّها بمعنى قد في الاستفهام، فهو توبيخ على ما يعلمونه محققاً من أفعالهم مع يوسف وأخيه، فهي بالنسبة ليوسف واضحة، وأمّا بالنسبة إلى أخيه فهي ما كانوا يعاملونه به مع أخيه يوسف من الإهانة التي تنافيها الأخوة؛ ولذلك جُعل ذلك الزمن زمن جهالتهم بقوله: إذ أنتم جاهلون، وفيه تعريض بأنّهم قد صلح حالهم من بعد. . . **﴿قالوا أإنّك لأنت يوسف﴾**؟: هذا القول من الإخوة يدل على أنّهم استشعروا من كلامه ثم من ملامحه ثم من تفهم قول أبيهم لهم: وأعلم من الله ما لا تعلمون؛ إذ قد اتضح لهم المعنى التعريضي من كلامه فعرفوا أنّه يتكلم مريداً نفسه. وتأكيد الجملة بإنّ ولام الابتداء وضمير الفصل لشدة تحققهم أنّه يوسف. وأدخل الاستفهام التقريري على الجملة المؤكدة؛ لأنّهم طلبوا تأييده لعلمهم به. . . **﴿قال أنا يوسف وهذا أخي قد مَنَّ الله علينا﴾**: تجرد جواب يوسف عن التأكيد؛ لأنّهم كانوا متحققين ذلك فلم يبق إلاّ تأييده لذلك.

وقوله: وهذا أخي خبر مستعمل في التعجيب من جمع الله بينهما بعد طول الفرقة؛ فجملة: قد مَنَّ الله علينا بيان للمقصود من جملة وهذا أخي. وجملة. . .

﴿إنّه من يتق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾: تعليل لجملة مَنَّ الله علينا؛ فيوسف اتقى الله وصبر، وأخوه صبر ولم يعص الله فكان تقياً. أراد يوسف تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى وحثهم على التقوى والتخلق بالصبر تعريضاً بأنّهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه، ولم يصبروا على إيثار أبيهم إيّاهما عليهم، وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته. وذكر المحسنين وضْعٌ للظاهر موضع المضمر؛ إذ مقتضى الظاهر أن يقال: فإنّ الله لا يضيع أجرهم، فعدل عنه إلى المحسنين؛ للدلالة على أنّ ذلك من الإحسان، وللتعليل في الحكم وتعميمه؛ ليكون كالتذييل، ويدخل في عمومه هو وأخوه. . . **﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنّا لخاطئين﴾**: صيغة اليمين هنا مستعملة في لازم الفائدة، وهي علمهم ويقينهم بأنّ ما ناله هو تفضيل من الله، وأنّهم عرفوا مرتبته، وليس المقصود إفادة تحصيل ذلك؛ لأنّ يوسف يعلمه، والمراد: الإيثار في الدنيا بما أعطاه الله من النعم.

واعترفوا بذنبهم إذ قالوا: وإن كنا لخاطئين، بهذه الجملة المؤكدة بعدة تأكيدات. . . **﴿قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾**: جاء هذا الرد مناسباً لما هم عليه من الاعتراف والندم على ما حصل من الاقتراف، فجاء على ما ينبغي بصيغة الصفح والاستعطاف!؛ فأعلمهم بأنّ الذنب قد غفر فرفع عنهم اللوم والوزر. . . **﴿اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين﴾**: هذا الكلام من يوسف يدل على أنّه أعطاهم قميصاً، فلعله جعل قميصه علامة لأبيه على حياته، وعلامة على صدق إخوته أنّهم جاءوا من عند يوسف. وأمّا إلقاء القميص على وجه أبيه فلقصد المفاجأة بالبشرى، وليتحقق من حوله أنّه صادق في تحسسه من وجوده، وفي قوله: إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون.

وأدمج الأمر بالإتيان بأبيه في ضمن تبشيره بوجوده إدْمَاجاً بليغاً؛ إذ قال يأتي بصيراً ثم قال: وأتوني بأهلكم أجمعين؛ لقصد صلة أرحام عشيرته. . . **﴿ولمّا فصلت العير قال أبوهم إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾**: هذه الآية موصولة بما قبلها بعطفها على مقدر، والتقدير: خرجوا بالقميص من عند يوسف

وابتعدوا عن المدينة وفصلت العير عن العمران، ولما فصلت العير قال: إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون. ووجدان يعقوب ريح يوسف إلهام خارق للعادة. وأكد هذا القول بإنّ واللام؛ لأنّه مظنة الإنكار؛ ولذلك أعقبه بلولا أن تفندون. وجواب لولا محذوف دل عليه التأكيد، أي: لولا أن تفندون لتحققتم. والذين **﴿قالوا تالله إنّك لفي ضلالك القديم﴾** هم الحاضرون من أهله، ولم يسبق ذكرهم لظهور المراد منهم، وليسوا أبناءه؛ لأنّهم كانوا سائرين في طريقهم إليه.

وفي هذا الكلام نوع من التعنيف، وهي شفقة على مثله ممن وصل سن الهوس والتخريف. لكن الأمر ظهر على خلاف هذا الظن الضعيف؛ فهاهو ذا البشير يصل ويلقي القميص على وجه يعقوب فيرتد حاد البصر ويهتف بهم مستبشراً قوياً معافى. . . **﴿فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون﴾**: فلمّا رأوا وسمعوا من أبيهم هذا القول، فلم يسعهم إلاّ أن يطلبوا العفو والاستغفار من أبيهم كما سبق وأن طلبوه من أخيهم. . . **﴿قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كنّا خاطئين﴾**: فهذا الكلام مثل الكلام الذي قالوه لأخيهم. . . **﴿قال سوف أستغفر لكم ربّي إنّه هو الغفور الرحيم﴾**: لكن يعقوب لم يتحقق من عفو يوسف عن إخوته، فجعل استغفاره لهم في المستقبل ليتحقق من عفو يوسف عن إخوته أمامه. . . **﴿فلمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إنّ شاء الله آمنين﴾**: هذه الآية مرتبة على كلام مقدر طواه السياق لمعرفته بالقرائن الدالة من المقام، والتقدير: تجهزوا فخرجوا من بلادهم فوصلوا مصر فدخلوها، فدخلوا على يوسف، فلمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه، فقوله: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين جملة دعائه بقرينة قوله: إن شاء الله؛ لكونهم قد دخلوا مصر حينئذ؛ فالأمر في ادخلوا للدعاء، والمقصود تقييد الدخول بآمنين، وهو مناط الدعاء.

وجملة: إن شاء الله تأدب مع الله كالاحتراس في الدعاء الوارد بصيغة الأمر، وهو لمجرد التيمُّن. . . **﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقّاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إنّ ربّي لطيف لما يشاء إنّه هو العليم الحكيم﴾**: هذه الآية موصولة بما قبلها بالعطف تكملة لعرض

المشهد هنا، وهو إيواؤه أبويه، ووجود إخوته كلهم لديه، وتذكيرهم بما كان يوسف فيه، وما آل أمره إليه بعدما رفع على العرش أبويه، وخروا له سجداً بين يديه، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقاً، ثم بين لأبيه ما حصل له من نعم الله عليه بإحسانه به حين أخرجه من السجن وجاء بهم من البدو إلى الحضر من بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته من مؤامرتهم عليه، لكن الله سلمه ولطف به: إنّ ربّي لطيف لما يشاء إنّه هو العليم الحكيم.

وهنا يرتبط الكلام في هذه القصة آخره بأوله تعبيراً في الكلمات، وتفسيراً في المعاني والتوجيهات. . . **﴿ربّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾**: فصلتَ هذه الآية فلم تعطف على ما قبلها؛ فهي خاتمة تحتوي على كل ما حصل ليوسف من نعم الدنيا، وما طلبه في المستقبل من نعم الآخرة؛ ففي الآية براعة المقطع، وهو من بدائع الكلام البالغ النهاية من البلاغة العربية، فقد أعقب يوسف ـ عليه السلام ـ ذكر نعمة الله عليه بتوجهه إلى مناجاة ربّه بالاعتراف بأعظم نعم الدنيا، والنعمة العظمى في الآخرة، فذكر ثلاث نعم: اثنان دنيويتان، وهما نعمة الولاية على الأرض، ونعمة العلم، والثالثة أخروية، وهي نعمة الدين الحق المعبر عنه بالإسلام. وأشار بقوله: توفني مسلماً إلى النعمة العظمى، وهو نعمة الدين الحق؛ فإنّ طلب توفيه على الدين الحق يقتضي أنّه متصف بالدين الحق المعبر عنه بالإسلام من الآن، فهو يسأل الدوام عليه إلى الوفاة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿وما أبرئ نفسي إنّ النفس لأمارة بالسوء إلاّ ما رحم ربّي إنّ ربّي غفور رحيم﴾: في هذا التوجيه عرض آخر فقرة في المشهد السابق؛ مشهد الملك يستجوب النسوة اللاتي قطّعن أيديهن ـ كما رغب إليه يوسف أن يفعل ـ تمحيصاً لتلك المكائد التي أدخلته السجن، وإعلاناً لبراءته على الملإ، قبل أن يبدأ مرحلة جديدة في حياته، وقد أحس أنّها ستكون مرحلة ظهور في حياة الدولة، فيحسن أن يبدأها وكل ما حوله واضح، ولا شيء من غبار الماضي يلاحقه وهو بريء. ومع أنّه قد تجمّل فلم يذكر عن امرأة العزيز شيئاً، ولم يشر إليها على وجه

التخصيص؛ إنّما رغب إلى الملك أن يفحص عن أمر النسوة اللاتي قطعن أيديهن، فإنّ امرأة العزيز تقدمت لتعلن الحقيقة كاملة: «الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصادقين، ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين، وما أبرئ نفسي إنّ النفس لأمارة بالسوءِ إلاّ ما رحم ربّي إنّ ربّي غفور رحيم».

وفي هذه الفقرة الأخيرة تبدو المرأةُ مؤمنةً متحرجة، تبرئ نفسها من خيانة يوسف في غيبته، ولكنها تتحفظ فلا تدعي البراءة المطلقة؛ لأنّ النفس أمّارة بالسوء ـ إلاّ ما رحم ربّي ـ، ثم تعلن ما يدل على إيمانها بالله ـ ولعلّ ذلك كان اتباعاً ليوسف ـ إنّ ربّي غفور رحيم. وبذلك يستر الستار على ماضي الآلام في حياة يوسف الصديق، وتبدأ مرحلة الرخاء والعز والتمكين... **﴿وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلمّا كلّمه قال إنّك اليوم لدينا مكين أمين. قال اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم. وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾**.

﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾: لقد تبيّنت للملك براءة يوسف، وتبيّن له معها علمه في تفسير الرؤيا، وحكمته في طلب تمحيص أمر النسوة، كذلك تبيّنت له كرامته وإباؤه، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن، ولا يتهافت على لقاء الملك!. ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم في سمعته، المسجون ظلماً، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه؛ ويطلب الكرامة لشخصه قبل أن يطلب الحظوة عند الملك. كل أولئك أوقع في نفس الملك احترام هذا الرجل وحبه فقال: ائتوني به أستخلصه لنفسي، فهو لا يأتي به من السجن ليطلق سراحه، ولا ليرى هذا الذي يفسر الرؤيا، ولا ليسمعه كلمة (الرضاء الملكي السامي) فيطير بها فرحاً؛ كلا إنّما يطلبه ليستخلصه لنفسه، ويجعله بمكان المستشار والنجّي والصديق؛ فياليت رجالاً يمرّغون كرامتهم على أقدام الحكام ـ وهم أبرياء مطلقو السراح ـ فيضعون النير في أعناقهم بأيديهم؛ ويتهافتون على نظرة رضى وكلمة ثناء، وحظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء، يا ليت رجالاً من هؤلاء يقرأون هذا القرآن، ويقرأون قصة يوسف؛ ليعرفوا أنّ الكرامة والإباء والاعتزاز تدر من الربح ـ حتى المادي ـ أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء.

فيحذف السياق جزئية تنفيذ الأمر لنجد يوسف مع الملك، فلمّا كلّمه تحقق له صدق ما توسمه، فإذا هو يطمئنه على أنّه عنده ذو مكانة وفي أمان، فتلك المكانة وهذا الأمان لدى الملك وفي حماه؛ فماذا قال يوسف؟. إنّه لم يسجد شكراً كما سجد للملك رجال الحاشية المتملقون، ولم يقل له: عشت يا مولاي، وأنا عبدك الخاضع، أو خادمك الأمين، كما يقول رؤساء الوزارات للملوك؛ كلا!. إنّما طالب بما يعتقد أنّه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة التي أوّل بها رؤيا الملك، خيراً مما ينهض بها أحد في البلاد؛ وبما يعتقد أنّه سيصون به أرواحاً من الموت وبلاداً من الخراب، ومجتمعاً من الفتنة ـ فتنة الجوع ـ، فكان قوياً في إدراكه لحاجة الموقف إلى خبرته وكفايته وأمانته وقوته في الاحتفاظ بكرامته وإبائه، قال: اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم.

والأزمة القادمة وسنو الرخاء التي تسبقها في حاجة إلى الحفظ والصيانة والقدرة على إدارة الأمور بالدقة وضبط الزراعة والمحاصيل وصيانتها، وفي حاجة إلى الخبرة وحسن التصرف والعلم بكافة فروعه الضرورية لتلك المهمة في سنوات الخصب، وفي سني الجدب على السواء. ومن ثم ذكر يوسف من صفاته ما تحتاج إليه المهمة التي يرى أنّه أقدر عليها، وأنّ وراءها خيراً كبيراً لشعب مصر وللشعوب المجاورة. ولم يكن يوسف نفعيّاً ولا انتهازيّاً، وهو يرى إقبال الملك عليه فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض، إنّما كان حصيفاً في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة؛ وليكون مسؤولاً عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات، لا زرع فيها ولا ضرع، فليس هذا غنماً يطلبه يوسف لنفسه، فإنّ التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد إنّه غنيمة، إنّما هي تبعة يهرب منها الرجال؛ لأنّها قد تكلفهم رؤوسهم، والجوع كافر.

كذلك لم يكن يوسف مزكياً لنفسه وهو يقول: إنّي حفيظ عليم، إنّما كان يذكر الصفتين الضروريتين للاضطلاع بذلك الواجب الثقيل، صادقاً فيما يقوله، متحدثاً بنعمة الله عليه، وقد آتاه الله الحكم والعلم. ولا يثبت السياق أنّ الملك وافق، فكأنّما يقول: إنّ الطلب تضمن الموافقة زيادة في تكريم يوسف، وإظهار مكانته عند الملك، فيكفي أن يقول ليجاب، بل ليكون قوله هو الجواب، فمن ثم

يحذف رد الملك، ويدع القارئ يفهم أنّه أصبح في المكان الذي طلبه: وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون.

فعلى هذا النحو من إظهار براءة يوسف، ومن إعجاب الملك به، ومن الاستجابة له فيما طلب؛ على هذا النحو مكنا ليوسف في الأرض، وثبّتنا قدميه، وجعلنا له فيها مكاناً ملحوظاً. والأرض هي مصر، أو هي هذه الأرض كلها باعتبار أنّ مصر يومذاك أعظم ممالكها. يتبوأ منها حيث يشاء، يتخذ منها المنزل الذي يريد، والمكان الذي يريد، والمكانة التي يريد، في مقابل الجب وما فيه من مخاوف، والسجن وما فيه من قيود. نصيب برحمتنا من نشاء، فنبد له من العسر يسراً، ومن الضيق فرجاً، ومن الخوف أمناً، ومن القيد حرية، ومن الهوان عزاً ومقاماً عليّاً، ولا نضيع أجر المحسنين الذين يحسنون الإيمان بالله، والتوكل عليه، والاتجاه إليه، ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس. هذا في الدنيا، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون، فلا ينقص منه المتاع في الدنيا وإن كان خيراً من متاع الدنيا، متى آمن الإنسان واتقى، فاطمأن بإيمانه إلى ربّه وراقبه بتقواه في سره وجهره.

وهكذا عوض الله يوسف عن المحنة بعد المحنة، تلك المكانة في الأرض وهذه البشرى في الآخرة، جزاءً وفاقاً على الإيمان والصبر والإحسان. ودارت عجلة الزمن، وطوى السياق دوراتها بما كان فيها طوال سنوات الرخاء؛ فلم يذكر كيف كان الخصب، وكيف زرع الناس، وكيف أدار يوسف جهاز الدولة، وكيف نظم ودبر وادخر، كأنّ هذه كلها أمور مقررة بقوله: إنّي حفيظ عليم. وكذلك لم يذكر مقدم سني الجدب، وكيف تلقاها الناس، وكيف ضاقت الأرزاق، لأنّ هذا كله ملحوظ في رؤيا الملك وتأويلها. كذلك لم يبرز السياق الملك ولا أحد من رجاله بعد ذلك في السورة كلها، كأنّ الأمر كله قد صار ليوسف، الذي اضطلع بالعبء في الأزمة الخانقة الرهيبة، وأبرز يوسف وحده على مسرح الحوادث، وسلط عليه كل الأضواء، وهذه حقيقة استخدمها السياق استخداماً فنياً كاملاً في الأداء.

التوجيه الثاني: ﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾:

في هذا التوجيه يعرض السياق مجيء إخوة يوسف من البدو إلى مصر يبحثون عن الطعام بسبب ما فعلت سنو الجدب في مصر وفيما جاورها من بدو وحضر؛ ومن ذلك ندرك اتساع دائرة المجاعة، كما ندرك كيف وقفت مصر ـ بتدبير يوسف ـ منها، وكيف صارت قبلة جيرانها، ومخزن الطعام في المنطقة كلها. وفي الوقت ذاته تمضي قصة يوسف في مجراها الأكبر: بين يوسف وإخوته، فقد اجتاح الجدب والمجاعة أرض يعقوب وما حولها، فاتجه أبناء يعقوب ـ إخوة يوسف ـ فيمن يتجهون إلى مصر، وقد تسامع الناس بما فيها من فائض الغلة منذ السنوات السمان؛ وها نحن أولاء نشهدهم يدخلون على يوسف وهم لا يعلمون.

إنّه يعرفهم، فهم هم لم يتغيروا كثيراً، أمّا يوسف فإنّ خيالهم لا يدرك قط أنّه هو ذاك، وأين الغلام الصغير الذي ألقوه في الجب منذ سنوات طال أمدها من عزيز مصر الذي بيده خزائن الأرض. ولم يكشف لهم يوسف عن نفسه، فلابد من دروس يتلقونها، ولكنّا ندرك من السياق أنّه أنزلهم منزلاً طيباً، ووفى لهم الكيل مع السماحة، ثم أخذ في إعداد الدرس الأول. . . **﴿ولمّا جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾**: فنفهم من هذا أنّه تركهم يأنسون إليه، واستدرجهم حتى ذكروا له من هم على وجه التفصيل، وأنّ لهم أخاً أصغر من أبيهم لم يحضر معهم؛ لأنّ أبّاه يحبه ولا يطيق فراقه؛ فلما جهزهم بالغلة وعلف الرواحل وحاجات الرحلة قال لهم: إنّه يريد أن يرى أخاهم هذا عندما يجيئون في المرة القادمة لشراء غلات وأعلاف جديدة ـ ويبدو أنّ يوسف كان يعطي الناس على دفعات على نظام يشبه نظام البطاقات؛ ليوازن بين حاجات المحتاجين والزمن الطويل الذي يضطلع فيه بالتموين، فلم يكن كل من يملك الشراء يشتري المقادير التي يستطيع شراءها ليخزنها ويموت الآخرون ـ، وقيل ـ وفي السياق دلالة عليه ـ أنّه كان يعطي كل فرد في الفترة الواحدة حمل بعير، وهو مقدار معلوم.

﴿قال: ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾، وقد رأيتم أنّي أوف الكيل، فأوفيه نصيبه حين يجيء معكم، ورأيتم أنّي أكرم النزلاء، فلا خوف عليه بل سيلقى مني الإكرام المعهود: **﴿ألا ترون أنّي أوف الكيل وأنا خير المنزلين﴾**. ولمّا كانوا يعلمون كيف يضن أبوهم بأخيهم الأصغر ـ وبخاصة بعد ذهاب يوسف ـ فقد أظهروا أنّ الأمر ليس ميسوراً، وإنّما في طريقه عقبات من ممانعة أبيهم، وأنّهم

سيحاولون إقناعه مع توكيد عزمهم ـ على الرغم من هذه العقبات ـ على إحضاره معهم حين يعودون. . . **﴿قالوا سنراود عنه أباه وإنّا لفاعلون﴾**: أمّا يوسف فقد أمر غلمانه أن يدسوا البضاعة التي حضر بها إخوته ليستبدلوا بها القمح والعلف، وقد تكون خليطاً من نقد ومن غلات صحراوية أخرى من غلاّت الشجر الصحراوي ومن الجلود والشعر وسواها ممّا كان يستخدم في التبادل في الأسواق؛ أمر فتيته بدسها في رحالهم؛ لعلهم يعرفون حين يرجعون أنّها بضاعتهم التي جاءوا بها، فيدعوهم هذا إلى العودة؛ للتوقية بالثمن ـ على ما يعلم من أخلاق بيته ـ أو يشجعهم هذا الإكرام على العودة بأخيهم إليه. . . **﴿وقال لفتيته اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلّهم يرجعون﴾**: وندع يوسف في مصر؛ لنشهد يعقوب وبنيه في أرض كنعان، دون كلمة واحدة عن الطريق وما فيه. . . **﴿فلمّا رجعوا إلى أبيهم قالوا ياأبانا منع منّا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنّا له لحافظون﴾**: ويبدوا أنّهم في دخلتهم على أبيهم وقبل أن يفكوا متاعهم عاجلوه بأنّ الكيل قد تقرر منعه ما لم يأتوا بأخيهم معهم إلى مصر، فهم يطلبون إليه أن يرسل معهم أخاهم ليكون لهم حق الشراء في المرة القادمة، ولابد أنّ هذا الوعد قد أثار كوامن يعقوب، فهو ذاته وعدهم له في يوسف؛ فإذا هو يجهر بما أثاره الوعد من شجونه. . . **﴿قال هل آمنكم عليه إلاّ كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾**: فخلوني من وعودكم وخلوني من حفظكم، فإذا أنا طلبت الحفظ لولدي والرحمة بي. . . **﴿فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾**: وبعد الاستقرار من المشوار، والراحة من السفر فتحوا أوعيتهم ليخرجوا ما فيها من غلال، فإذا هم يجدون فيها بضاعتهم التي ذهبوا يشترون بها مردودة إليهم؛ ورد الثمن يشير إلى عدم الرغبة في البيع مرة أخرى، أو هو إنذار بذلك، واعتبار المرة الأولى هدية أو ما يشبه ذلك. . . **﴿قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾**: ثم أخذوا يحرجونه بالتلويح له بمصلحة أهلهم الحيوية في الحصول على الطعام. . . **﴿ونمير أهلنا﴾**: ويؤكدون له عزمهم على حفظ أخيهم. . . **﴿ونحفظ أخانا﴾**: ويرغبونه بزيادة الكيل لأخيهم. . . **﴿ونزداد كيل بعير﴾**: وهو ميسور لهم حين يرافقهم. . . **﴿ذلك كيل يسير﴾**: واستسلم الرجل على كُرْهٍ، ولكنه جعل لتسليم ابنه الباقي شرطاً. . . **﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقاً من الله لتأتنني به إلاّ أن يحاط بكم﴾**: لتقسمن لي بالله قسماً يربطكم، أن تردوا على ولدي إلاّ إذا غلبتم على

أمركم غلباً لا حيلة لكم فيه، ولا تجدي مدافعتكم عنه، فأقسموا... **﴿فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾**: وهو زيادة في التوكيد والتذكير.

وبعد هذا الموثق جعل الرجل يوصيهم بما خطر له في رحلتهم القادمة ومعهم الصغير العزيز... **﴿وقال يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلاّ لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾**: وسار الركب ونفذوا وصية أبيهم... **﴿ولمّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلاّ حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنّه لذو علم لما علمناه ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾**: فيم كانت هذه الوصية؟. لم قال لهم أبوهم: لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة؟. تضرب الروايات والتفاسير في هذا وتبدي وتعيد، بلا ضرورة، بل ضد ما يقتضيه السياق القرآني الحكيم؛ فلو كان السياق يحب أن يكشف عن السبب لقال، ولكنه قال فقط: إلاّ حاجة في نفس يعقوب قضاها.

فينبغي أن يقف المفسرون عندما أراده السياق، احتفاظاً بالجو الذي أراده. والجو يوحي بأنّه كان يخشى شيئاً عليهم، ويرى في دخولهم من أبواب متفرقة اتّقاءً لهذا الشيء مع تسليمه بأنّه لا يغني عنهم من الله من شي، فالحكم كله إليه، والاعتماد كله عليه، إنّما هو خاطر شعر به، وحاجة في نفسه قضاها بالوصية، وهو على علم بأنّ إرادة الله نافذة، فقد علّمه الله هذا فتعلّم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ثم ليكن هذا الشي الذي كان يخشاه هو العين الحاسدة، أو هي غيرة الملك من كثرتهم وفتوتهم، أو هو تتبع قطاع الطرق لهم، أو كائنا ما كان، فهو لا يزيد شيئاً في الموضوع سوى أن يجد الرواة والمفسرون باباً للخروج عن الجو القرآني المؤثر إلى قال وقيل، مما يذهب بالجو القرآني كله في كثرة الأحايين.

التوجيه الثالث: ﴿فلمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إنّي أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾: في هذا التوجيه لفت النظر إلى مشهد دخول إخوة يوسف عليه بعد طيٍّ ما دار بين الإخوة من تهيئ إلى السفر، وكيف كان هذا السفر حتى دخلوا على يوسف... فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ...الخ الآية؛ فنجد السياق هنا يعجل بضم يوسف لأخيه في المأوى، واطلاعه على أنّه هو أخوه، ودعوته لأن يترك من خاطره ذكرى ما فعله إخوته به من قبل، وهي

ذكرى لابد كان يبتئس لها الصغير كلّما علمها من البيت الذي كان يعيش فيه، يعجل السياق بهذا، بينما الطبيعي والمفهوم أنّ هذا لم يحدث فور دخولهم على يوسف، ولكن بعد أن اختلى يوسف بأخيه، ولكنّ هذا ولا شك كان أول خاطر ساور يوسف عند دخولهم عليه، وعند رؤيته لأخيه بعد الفراق الطويل، ومن ثَمَّ جعل السياقُ أوّلَ عمل؛ لأنّه كان أول خاطر، وهذه من دقائق التعبير في هذا الكتاب العجيب؛ ويطوي السياق كذلك فترة الضيافة، وما دار فيها بين يوسف وإخوته ليعرض مشهد الرحيل الأخير، فنطلع على تدبير يوسف ليحتفظ بأخيه، ريثما يتلقى إخوته درساً أو دروساً ضرورية لهم، وضرورية للناس في كل زمان ومكان. . . ﴿**فلمّا جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيّتها العير إنّكم لسارقون**﴾: فمن وراء الستار يدس يوسف السقاية ـ وهو كأس الشراب المسمى بالصواع، وهو كأس مقدر فيه الشراب بالرقم والمقياس كما هو عادة الملوك وزوارِهم وندمائهم؛ فهو شيء نادر وثمين للغاية، فليس كما يقال: هو مكيال الطعام الذي يباع!. ـ، يدسها في الرحل المخصص لأخيه، تنفيذاً لتدبير خاص ألهمه الله له، ثم ينادي مناد بصوت مرتفع في صيغة إعلان عام: أيّتها العير إنّكم لسارقون، فيسمعون هذا النداء وهم منصرفون، فيرتاعون لهذا النداء الذي يتهمهم بالسرقة، وهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم!، فيعودون أدراجهم يتبينون الأمر المريب. . . ﴿**قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون**﴾؟: قال الغلمان الذين يتولون تجهيز الرحال، ومنهم هذا الذي أذاع الإعلان. . . ﴿**قالوا نفقد صواع الملك**﴾: وأعلن المؤذن أنّ هناك مكافأة لمن يحضره متطوعاً، وهي مكافأة ثمينة في هذه الظروف. . . ﴿**ولمن جاء به حمل بعير**﴾: من القمح العزيز. . . ﴿**وأنا به زعيم**﴾: كفيل.

ولكن القوم مستيقنون من براءتهم، فهم لم يسرقوه، وما جاءوا ليسرقوا ويجترحوا هذا الفساد الذي يخلخل الثقة والعلاقات في المجتمعات، فهم يقسمون واثقين. . . ﴿**قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين**﴾: فقد علمتم من حالنا ومظهرنا ونسبنا أنّنا لا نجترح هذا أصلاً، فما يقع منا هذا الفعل الشنيع!. قال الغلمان. . . ﴿**فما جزاؤه إن كنتم كاذبين**﴾؟: وهنا ينكشف طرف التدبير الذي ألهمه الله يوسف، فقد كان المتبع في شريعة يعقوب أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيراً أو رقيقاً في مقابل ما يسرق. ولما كان إخوة يوسف موقنين

بالبراءة، فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنّه سارق، ذلك ليتم تدبير الله ليوسف وأخيه. . . ﴿**قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين**﴾: وهذه هي شريعتنا نحكمها في السارق، والسارق من الظالمين.

كل هذا الحوار كان على منظر ومسمع من يوسف، فأمر بالتفتيش، وأرشدته حصافته إلى أن يبدأ برحالهم قبل رحل أخيه؛ كي لا يثير شبهة في نتيجة التفتيش. . . ﴿**فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه**﴾!: ويدعنا السياق نتصور الدهشة بالمفاجأة العنيفة لأبناء يعقوب الموقنين ببراءتهم الحالفين المتحدّين، فلا يذكر شيئا عن هذا، بل يتركه يتملاه الخيال على الصورة التي تكمل رسم المشهد بانفعالاته، بينما يأخذ في التعقيب ببعض مرامي القصة، ريثما يفيق النظارة وأبناء يعقوب مما هم فيه. . . ﴿**كذلك كدنا ليوسف**﴾: ودبرنا له هذا التدبير الدقيق. . . ﴿**ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك**﴾: فلو حكّم شريعة الملك ما تمكن من أخذ أخيه، إنّما كان يعاقب السارق على سرقته دون أن يستولى على أخيه كما استولى عليه بتحكيم إخوته لدينهم هم، وهذا هو تدبير الله الذي ألهم يوسف أسبابه، وهو كيد الله له، وهو ما شاءه ونفَذَ به القضاءُ. . . ﴿**إلاّ أن يشاء الله**﴾: ويتضمن التعقيب الإشارة إلى ما ناله يوسف من رفعة. . . ﴿**نرفع درجات من نشاء**﴾: وإلى ما ناله من علم، مع التنبيه إلى أنّ علم الله هو الأعلى. . . ﴿**وفوق كل ذي علم عليم**﴾: وهو احتراس لطيف دقيق.

ثم نعود إلى إخوة يوسف بعد هذا التعقيب القصير؛ نعود إليهم وقد حرك الحرج الذي يلاقونه كوامن حقدهم على أخي يوسف، وعلى يوسف من قبله، فإذا هم يتنصلون من نقيصة السرقة، وينفونها عنهم، ويلقونها على هذا الفرع من أبناء يعقوب. . . ﴿**قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل**﴾: وتنطلق الروايات والتفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا في تعلاّت وحكايات وأساطير، كأنّهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم في يوسف؛ وكأنّهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعاً للتهمة التي تحرجهم، وتبرؤاً من يوسف وأخيه السارق، وإرواءً لحقدهم القديم على يوسف وأخيه!، لقد قذفوا بها يوسف وأخاه. . . ﴿**فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم**﴾: أسر هذه الفعلة وحفظها في نفسه ولم يبد تأثره منها، وهو يعلم براءته وبراءة أخيه. إنّما ﴿**قال**﴾ لهم. . . ﴿**أنتم شر مكاناً والله**

أعلم بما تصفون﴾: وأراد بذلك قطع الجدل في الاتهام الذي أطلقوه ولا دخل له بالموضوع. وعندئذٍ عادوا إلى الموقف المحرج الذي وقعوا فيه، عادوا إلى الموثق الذي أخذه عليهم أبوهم، فراحوا يسْتَرْحمون يوسف باسم والد الفتى، الشيخ الكبير، ويعرضون أن يأخذ بدله واحداً منهم إن لم يكن مطلقه لخاطر أبيه؛ ويستعينون في رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبرّه لعله يلين... **﴿قالوا ياأيّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنّا نراك من المحسنين﴾**: ولكن يوسف كان يريد أن يلقي عليهم درسا، وكان يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التي يعدها لهم ولوالده وللجميع؛ ليكون وقعها أعمق وأشد أثراً في النفوس... **﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده إنّا إذاً لظالمون﴾**: ولم يقل أن نأخذ بريئاً بجريرة سارق؛ لأنّه كان يعلم أنّ أخاه ليس بسارق، فعبّر أدق تعبير يحكيه السياق هنا باللغة العربية بدقة: معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده، وهي الحقيقة الواقعية دون زيادة في اللفظ تحقق الاتهام أو تنفيه. إنّا إذاً لظالمون، وما نريد أن نكون ظالمين.

وكانت هي الكلمة الأخيرة في الموقف، وعرفوا ألاّ جدوى بعدها من الرجاء، فانسحبوا يفكرون في موقفهم المحرج أمام أبيهم حين يرجعون؛ يئس إخوة يوسف من محاولة تخليص أخيهم الصغير، فانصرفوا من عنده وعقدوا مجلساً يتشاورون فيه، وهم هنا في هذا المشهد يتناجون. والسياق لا يذكر أقوالهم جميعاً، إنّما يثبت آخرها الذي يكشف عما انتهوا إليه... **﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبلُ ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين. ارجعوا إلى أبيكم فقولوا ياأبانا إنّ ابنك سرق وما شهدنا إلاّ بما علمنا وما كنا للغيب حافظين﴾**.

﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنّا لصادقون﴾: إنّ كبيرهم ليذكرهم بالموثق المأخوذ عليهم، كما يذكرهم هم بتفريطهم في يوسف من قبل، ويقرن هذه إلى تلك، ثم يرتب عليهما قراره الجازم: ألاّ يبرح مصر، وألاّ يواجه أباه إلاّ أن يأذن له أبوه، أو يقضي الله له بحكم كائناً ما كان، فإنّه يخضع له وينصاع. أمّا هم فقد طلب إليهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحة بأنّ ابنه

سرق فأُخذ بما سرق ذلك ما علموه شهدوا به؛ أمّا إن كان بريئا وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه فهم غير موكلين بالغيب، كما أنّهم لم يكونوا يتوقعون أن يحدث ما حدث، فلذلك كان غيباً لهم، وما هم بحافظين للغيب.

وإن كان في شك من قولهم فليسأل أهل القرية التي كانوا فيها، وليسأل القافلة التي كانوا فيها، فهم لم يكونوا وحدهم، فالقوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتمتار الغلة في السنين العجاف. ويطوى السياق الطريق بهم حتى يقفهم في مشهد أمام أبيهم المفجوع، وقد أفضوا إليه بالنبإ الفظيع، فلا نسمع إلاّ رده قصيراً سريعاً شجياً وجيعاً، ولكن وراءه أملاً لم ينقطع في الله أن يرد عليه ولديه، أو أولاده الثلاثة بما فيه كبيرهم الذي أقسم لا يبرح حتى يحكم الله له.

وإنّه لأمل عجيب في ذلك القلب الوجيع... ﴿**قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنّه هو العليم الحكيم**﴾: فهي كلمته ذاتها التي قالها يوم فقد يوسف، ولكنه في هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل؛ أن يرد الله عليه يوسف وأخاه فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك؛ إنّه هو العليم الحكيم، الذي يعلم حاله ويعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات، ويأتي بكل أمر في وقته المناسب، عندما تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج. هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ؟.

إنّه الرجاء في الله، والإحساس الداخلي الذي قلّما يكذب في مثل هذه القلوب... ﴿**وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم**﴾: وهي صورة مؤثرة للوالد المفجوع، يحس أنّه منفرد بهمه، وحيدٌ بمصابه، لا تشاركه هذه القلوب التي حوله ولا تجاوبُه، فينفرد في معزل يتأسف على ولده الحبيب؛ يوسف، الذي لم ينسه، ولم تُهوّن من مصيبته السنون، والذي تذكّره به نكبته الجديدة في أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل: يا أسفى على يوسف!. ويكظم الرجل حزنه ويتجلد فيؤثر هذا الكظم في أعصابه حتى تبيضّ عيناه حزناً وكمداً، وهذه هي الحقيقة العلميّة التي ثبتت صحتها بالتجربة في هذا العصر الحاضر، وهو أن الماء الذي يصيب عيون بعض الناس سببه الحزن الدائم وكظمه في الأعماق، والماء الذي يصيب العيون بهذا السبب قسمان: ماء أبيض يُضعِفَ النظر ولا يفقده، وهو ما حصل لأبي يوسف، وماء أزرق يذهب بالبصر

نهائياً ولا ينفع فيه العلاج، وقد أصاب كثيراً من الناس في هذا العصر؛ عضر الأحزان والكروب من جزاء التكالب على الدنيا!.

ويبلغ الحقد بقلوب بنيه؛ ألاّ يرحموا ما به، وأن يلسع قلوبهم ليوسف وحزنه عليه ذلك الحزن الكامد الكظيم، فلا يسرُون عنه ولا يعزونه ولا يعلّلونه بالرجاء، بل يريدون ليطمسوا في قلبه الشعاع الأخير... **﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين﴾**: وهي كلمة حانقة مستنكرة؛ تالله تظل تذكر يوسف ويهدُّك الحزنُ عليه حتى تذوب حزناً أو تهلك أسًى بلا جدوى، فيوسف ميئوس منه، فقد ذهب ولن يعود. ويرد عليهم الرجل بأن يتركوه لربّه، فهو لا يشكو لأحد من خلقه، وهو على صلة بربّه غير صلتهم، ويعلم من رحمته ما لا يعلمون، فيؤمل في فرجه المنظور... **﴿قال إنّما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾**: ثم يوجههم إلى تَلَمُّس يوسف وأخيه، وألاّ ييأسوا من رحمة الله في العثور عليهما؛ فإنّ رحمة الله واسعة وفرجه دائماً منظور... **﴿يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنّه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون﴾**: فياللقلب الموصول بالله!، يستشعر رحمته في أحرج ساعات الشدة، ويرجو فرجه في أشد أوقات الضيق!؛ يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه، تحسسوا بحواسكم في لطف وبصر وصبر على البحث، ودون يأس من عون الله وفرجه ورحمته.

وكلمة رَوْح أدق دلالة وأكثر شفافية، ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من روح الله الندي. إنّه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون، فأمّا المؤمنون المتصلة قلوبهم بالله، الندية أرواحهم بروحه، الشاعرون بنفحاته المحميّة الرخية، فإنّهم لا ييأسون من روح الله ولو أحاط بهم الكرب واشتد بهم الضيق، وإنّ المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه، وفي أنس من صلته بربه، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه، وهو في مضايق الشدة ومخانق الكروب!.

التوجيه الرابع: **﴿فلمّا دخلوا عليه قالوا ياأيّها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعه مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا إنّ الله يجزي المتصدقين﴾**: في هذا التوجيه عرض لمشهد إخوة يوسف يدخلون مصر للمرة الثالثة؛ وقد أضرت بهم المجاعة، ونفذت منهم النقود، وجاءوا ببضاعة تافهة مختلطة من أنواع مختلفة،

هي الباقية لديهم يشترون بها الزاد؛ يدخلون وفي حديثهم انكسارٌ لم يُعْهد في أحاديثهم من قبل. . . وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام. وعندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا تبقى في نفس قدرة على المضي في تمثيل دور العزيز، والتخفي عنهم بحقيقة شخصيته فقد انتهت الدروس، وحان وقت المفاجأة الكبرى التي لا تخطر لهم على بال؛ فإذا هو يترفق في الإفضاء بالحقيقة إليهم، فيعود بهم إلى الماضي البعيد الذي يعرفونه وحدهم، ولم يطلع عليه أحد إلاّ الله. . . ﴿**قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون**﴾؟! : ورنّ في آذانهم صوت لعلهم يذكرون شيئاً من نبراته، ولاحت لهم ملامح وجه لعلهم لم يلتفتوا إليها وهم يرونه في سمت عزيز مصر وأبهته وشياته، والتمع في نفوسهم خاطر من بعيد. . . ﴿**قالوا أئنّك لأنت يوسف**﴾؟ أئنك لأنت؛ فالآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير في ذلك الرجل الكبير. . . ﴿**قال أنا يوسف وهذا أخي قد مَنَّ الله علينا إنّه من يتق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾: مفاجأة عجيبة يعلنها لهم يوسف ويذكرهم في إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه في دفعة الجهل، ولا يزيد؛ سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه، معللاً هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله في الجزاء، أمّا هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف ويجللهم الخزي والخجل وهم يواجهونه محسناً إليهم وقد أساءوا، حليماً بهم وقد جهلوا، كريماً معهم وقد وقفوا منه موقفاً غير كريم. . . ﴿**قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنّا لخاطئين**﴾: اعتراف بالخطيئة وإقرار بالذنب، وتقرير لما يرونه من إيثار الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان.

يقابله يوسف بالصفح والعفو وإنهاء الموقف المخجل؛ شيمة الرجل الكريم، وينجح يوسف في الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل في الابتلاء بالشدة، إنّه كان من المحسنين. . . ﴿**قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**﴾: فلا مؤاخذة لكم ولا تأنيب اليوم؛ فقد انتهى الأمر من نفسي ولم تعد له جذور، والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم الراحمين. ثم يحول الحديث إلى شأن آخر؛ شأن أبيه الذي ابيضت عيناه من الحزن، فهو معجل إلى تبشيره، معجل إلى لقائه، معجل إلى كشف ما علق بقلبه من حزن، وما ألم بجسمه من ضنى، وما أصاب بصره من كلال. . . ﴿**اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم**

أجمعين﴾: كيف عرف يوسف أنّ رائحته سترد على أبيه بصره الكليل؟.

ذلك ممّا علمه الله، وذلك معهود قريب في مثل هذه الحالات التي تتأثر بها الأعصاب، والمفاجآت السارة تصنع في كثير من هذه الحالات فعل المعجزات... **﴿ولمّا فصلت العير قال أبوهم إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾**: ريح يوسف!؛ كل شيء إلا هذا، فما يخطر على بال أحد أنّ يوسف يعدُّ في الأحياء بعد هذا الأمد الطويل، وأنّ له ريحاً يشمها هذا الشيخ الكليل. إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تقولوا شيخ خرف؛ لولا أن تفندون لصدقتم معي ما أجده من ريح الغائب البعيد... **﴿قالوا تالله إنّك لفي ضلالك القديم﴾**: في ضلالك بيوسف، وضلالك بانتظاره وقد ذهب مذهب الذي لا يعود.

ولكن المفاجأة البعيدة تقع وتتبعها مفاجآت أخرى... **﴿فلمّا أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا﴾**: مفاجأة وهو دليل على يوسف وقرب لقياه، ومفاجأة ارتداد البصر بعدما ابيضت عيناه. وهنا يذكر يعقوب صلته بالله التي حدثهم بها من قبل فلم يفهموه... **﴿قال ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون. قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كنّا خاطئين﴾**: ونلمح هنا أنّ في قلب يعقوب شيئاً من بنيه، وأنّه لم يصف لهم بعد، وإن كان يعدهم باستغفار الله لهم بعد أن يصفو ويسكن ويستريح... **﴿قال سوف أستغفر لكم ربّي إنّه هو الغفور الرحيم﴾**: وحكاية عبارته بكلمة سوف لا تخلوا من إشارة إلى قلب مكلوم، أو هو آخر الاستغفار إلى أن يعفو يوسف عن إخوته أمام أبيه.

ويمضي السياق في مفاجآت القصة، فيطوى الزمان والمكان؛ لنلتقي في المشهد النهائي المؤثر المثير... **﴿فلمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين. ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا﴾**: وياله من مشهد، بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام، وبعد اليأس والقنوط، وبعد الألم والضيق، وبعد الامتحان والابتلاء، وبعد الشوق المضني والحزن الكامد واللهف الظامئ الشديد؛ ياله من مشهد حافل بالانفعال والدموع والفرح والخفقات!؛ وياله من مشهد ختامي موصول بمطلع القصة؛ ذلك في ضمير الغيب وهذا في واقع الحياة.

ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين،

ويذكر رؤياه ويرى تأويلها بين يديه في انحناء إخوته له ـ وقد رفع أبويه على السرير الذي يجلس عليه ـ كما رأى الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين. . . **﴿ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقاً﴾**: ثم يذكر نعمة الله عليه. . . **﴿وقد أحسن بي إذا أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾**: بعد ما تقطعت الأواصر بين الإخوة بوسوسة الشيطان. . . **﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾**: ويذكر لطف الله في تدبيره وتحقيق مشيئته. . . **﴿إنّ ربّي لطيف لما يشاء﴾**: يناله بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها. . . **﴿إنّه هو العليم الحكيم﴾**: ذاك التعبير الذي قاله يعقوب وهو يقص عليه رؤياه في مطلع القصة: إنّ ربّك عليم حكيم؛ ليتوافق البدء والختام حتى في العبارات.

التوجيه الخامس: ﴿ربّ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾: في هذا التوجيه لفت الأنظار إلى ما في آخر الكلام من الحوار، وهو ما قاله يوسف مناجياً ربّه في آخر المشوار: ربّ قد آتيتني من الملك؛ آتيتني منه سلطانه ومكانه وجاهه وماله، فذلك من نعمة الدنيا. وعلمتني من تأويل الأحاديث: إدراك مآلاتها وتعبير رؤاها، فذلك من نعمة العلم؛ نعمتك يارب أذكرها وأعددها. يا فاطر السماوات والأرض؛ خلقتها وبيدك أمرها، ولك القدرة عليها، ولك الحكم على أهلها. أنت وليِّى في الدنيا والآخرة؛ فأنت الناصر والمعين. رب تلك نعمتك وهذه قدرتك. رب إنّي لا أسألك سلطاناً ولا صحة ولا مالا. رب إنّي أسألك ما هو أبقى وأنقى وأغنى؛ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين. وهكذا يتوارى الجاه والسلطان، وتتوارى فرحة اللقاء واجتماع الأهل ولمة الإخوان، ويبدو المشهد الأخير؛ مشهد إنسان فرد يبتهل إلى الله ربّه أن يحفظ له إسلامه، حتى يتوفاه إليه، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه. إنّه النجاح المطلق في الامتحان الأخير.

2 ـ وفي الختام، يوجه الخطاب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام

النص

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿102﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿103﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿104﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿105﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿106﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿107﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿108﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿109﴾ * حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿110﴾

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿**ذلك**﴾: اسم الإشارة هنا مشار به إلى ما ذكر من أحداث قصة يوسف ـ عليه السلام ـ. . . ﴿**من أنباء**﴾: جمع نبإ، وهو الخبر المهم الذي ينبغي أن ينتبه إليه. . . ﴿**الغيب**﴾: ما غاب عن حواس الناس، في الماضي أو في الحال أو في الاستقبال. . . ﴿**نوحيه إليك**﴾: نعلمه بالوحي المنزل عليك منّا، والوحي: إلقاء الكلام خفية بحيث لا يدري به إلا الموحي والموحى إليه. . . ﴿**وما كنت لديهم**﴾: ما كنت حاضراً عندهم. . . ﴿**إذ أجمعوا أمرهم**﴾: اتفقوا على أمر دبروه سراً بينهم، وصمموا على تنفيذه. . . ﴿**وهم يمكرون**﴾: المكر: الإيقاع بالشخص غفلة حتى يقع المحذور وهو لا يدري. . . ﴿**وما أكثر الناس**﴾: نفي الكثرة هنا: معناه القلة.

والناس: الجنس. . . ﴿**ولو**﴾: لو هذه وصلية، وهي التي تفيد أن شرطها هو أقصى الأسباب لجوابها. . . ﴿**حرصت**﴾: الحرص: شدة الطلب لتحصيل شيء ومعاودته. . . ﴿**بمؤمنين**﴾: التصميم على الكفر يمنع الإيمان أن يدخل إلى القلب. . . ﴿**وما تسألهم**﴾: لا تطلب منهم. . . ﴿**عليه**﴾: على تبليغ الوحي إليهم. . . ﴿**من أجر**﴾: من جعل تأخذه منهم مقابل التبليغ. . . ﴿**إن هو**﴾: ما هو هذا القرآن. . . ﴿**إلاّ ذكر**﴾: عظة وعبرة وتوجيه. . . ﴿**للعالمين**﴾: لكل مكلف بهذا القرآن، فليس مختصاً بجيل ولا بقبيل. . . ﴿**وكأيّن من آية**﴾: كأيّن: اسم كلمة يدل على كثرة العدد المبهم يبينه تمييز مجرور بمن، أي: كأي عدد شئت

من الآيات والعلامات الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته غير هذه الآية التي جئت بها. . . ﴿**في السماوات والأرض**﴾: كائنة فيها؛ من الأجرام الفلكية وما فيها من النجوم وتغير أحوالها، ومن الجبال والبحار وسائر ما في الأرض من العجائب. . . ﴿**يمرون عليها**﴾: يشاهدونها ولا يعبأون بها. . . ﴿**وهم عنها معرضون**﴾: غير ناظرين إليها ولا متفكرين فيها. . . ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله**﴾: يؤمنون بألسنتهم، فيقولون بوجود الله وبخلقه ورزْقه. . . ﴿**إلاّ وهم مشركون**﴾: يشركون بالله غيره في العبادة، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ويقولون: ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى. . . ﴿**أفأمنوا**﴾: استفهام عن اطمئنانهم بما هم عليه من الشرك والكفر والعصيان والعناد. . . ﴿**أن تأتيهم غاشية من عذاب الله**﴾: والغشْيُ والغشيان: الإحاطة من كل جانب «وإذا غشيهم موج كالظلل»، والغاشية: الحادثة التي تحيط بالناس، والعرب يؤنثون هذه الحوادث، مثل: الطامة، والصاخة، والداهية، والمصيبة، والكارثة، والحادثة والواقعة والحاقة. الغاشية من عذاب الله: ما يقع في الدنيا من المصائب والمعاطب. . . ﴿**أو تأتيهم الساعة بغتة**﴾: الساعة: يوم القيامة وما فيها من النكال والوبال لأهل الكفر والضلال.

والبغتة: الفجأة، التي تأتي بدون سابقة علامة. . . ﴿**وهم لا يشعرون**﴾: غير شاعرين بإتيانها وليسوا مستعدين لها. . . ﴿**قل هذه سبيلي**﴾: طريقي في الدعوة إلى التوحيد والإيمان والإخلاص. . . ﴿**أدعوا إلى الله على بصيرة**﴾: أدعو الناس إلى الله ببيان وحجة واضحة غير عمياء. . . ﴿**أنا ومن اتبعني**﴾: من سار على طريقي ودعا بدعوتي. . . ﴿**وسبحان الله**﴾: تنزيه الله عما يقول المشركون. . . ﴿**وما أنا من المشركين**﴾: نفي للإشراك من أصله. . . ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً**﴾: لم نرسل من قبلك إلاّ رجالاً مثلك، فلا غرابة في إرسالك إلى الناس بشيراً ونذيراً. . . ﴿**يوحى إليهم**﴾: يأتيهم الوحي من الله مثلك. . . ﴿**من أهل القرى**﴾: القرى: جمع قرية، والقرية: المصر الجامع، وهو مقر الناس واجتماعهم، «وإن من قرية إلاّ خلا فيها نذير». . . ﴿**أفلم يسيروا في الأرض**﴾: السير في الأرض: الذهاب فيها. . . ﴿**فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم**﴾: ليروا ما حل بالمكذبين من الدمار والهلاك. . . ﴿**ولدار الآخرة خير للذين اتقوا**﴾: الذين اتّقَوْا لَهُم العاقبة الحسنى في الدنيا بالنصر والغلبة والعيش الكريم، وفي

الآخرة بالفوز بالنعيم المقيم في جنات النعيم... ﴿**أفلا تعقلون**؟!.. **حتى إذا استيأس الرسل**﴾: حتى هنا ابتدائية بالنسبة لما بعدها، وغائية بالنسبة لما قبلها. إذا: ظرف زمان متضمن معنى الشرط، فتحتاج إلى جواب يأتي بعد جملة الشرط.

واستيأس: مبالغة في اليأس، واليأس: قطع الأمل فيما يرجى نفعه... ﴿**وظنوا أنّهم قد كذبوا**﴾: بلغ بهم اليأس إلى الظن بفشلهم وخيبة أملهم... ﴿**جاءهم نصرنا**﴾: أتاهم نصر الله فجأة، وهو أشد وقعاً في النفس... ﴿**فننجي من نشاء**﴾: من نشاء تخليصه من العذاب الواقع على المجرمين نخلّصُه، وهم المؤمنون... ﴿**ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين**﴾: رد البأس صرفه وإبعادُه. والبأس: العذاب النازل على المكذبين، وهم المجرمون الذين لا يُرَدّ عنهم بأسُ الله... ﴿**لقد كان في قصصهم**﴾: القصص هنا: ما قصه الله تعالى من أنباء الرسل التي تقدمت في سورة هود وسورة يوسف وما تضمنته من وقائع، وما فيها من عبر وروائع... ﴿**عبرة لأولى الألباب**﴾: والعبرة: العجب مما حصل، وهو يوصل إلى ما يتطلبه الحدث من اهتمام واعتبار، وهو لا ينتفع به إلاّ أهل العقول الراجحة والقلوب الثابتة والنفوس المطمئنة بالإيمان... ﴿**ما كان حديثاً يفترى**﴾: هذا القصص الذي جاء به القرآن لم يكن قصصاً مخترعاً متخيلاً، ولكن جاء تصديقاً لما حصل فعلاً للرسل مع أممهم، وقد أخبر الله عنهم وهو أعلم بهم... ﴿**وتفصيل كل شيء**﴾: هذا القصص جاء تفصيلاً لكل شيء، أو من أخبر بهذا القصص، وهو القرآن... ﴿**وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾: الهدى الذي في القصص: العبر الباعثة على الإيمان والتقوى بمشاهدة ما جاء من الأدلة في أثناء القصص على أنّ المتصرف هو الله تعالى وعلى أنّ التقوى هي أساس الخير في الدنيا والآخرة، وكذلك الرحمة؛ فإنّ في قصص أهل الفضل دلالة على رحمة الله لهم، وعنايته بهم، وذلك رحمة للمؤمنين.

مبحث الإعراب

﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**من أنباء**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**الغيب**﴾ مضاف إلى أنباء. ﴿**نوحيه**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء، والفاعل ضمير العظمة (نحن)، والضمير المتصل بالفعل في محل نصب مفعول نوحي. ﴿**إليك**﴾ متعلق به، وجملة نوحيه بيانية. ﴿**وما كنت**﴾ كان واسمها، دخل

عليها حرف النفي وواو العطف. ﴿**لديهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان. ﴿**إذ أجمعوا**﴾ أمرهم فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف (إذ)، والظرف متعلق بالخبر المتعلق به لديهم. ﴿**وهم**﴾ في محل رفع مبتدأ، والواو للحال. ﴿**يمكرون**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدإ، وجملة وهم يمكرون في محل نصب حال من الواو في أجمعوا.

﴿**وما أكثرُ**﴾ ما مجازية تعمل عمل ليس ترفع الاسم وتنصب الخبر، أكثر اسمها مرفوع بالضمة، والواو للعطف. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى أكثر. ﴿**ولو**﴾﴾ حرصت جملة شرطية اعتراضية لا محل لها من الإعراب. ﴿**بمؤمنين**﴾ خبر ما دخل عليه حرف الجر الزائد، جر لفظه وهو في محل نصب. ﴿**وما تسألهم**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفي وواو العطف، والفاعل ضمير المخاطب (أنت)، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**عليه**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**من أجر**﴾ مفعول ثان جر بمن الزائدة، وهو في محل نصب.

﴿**إن هو**﴾ في محل رفع مبتدأ، وإنْ نافية. ﴿**إلاّ أداة**﴾ استثناء مفرغ. ﴿**ذكر**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**للعالمين**﴾ متعلق بذكر. ﴿**وكأيّن**﴾ لفظ ركب من كاف التشبيه وأي الاستفهامية، جر لفظاً وهو في محل رفع مبتدأ. ﴿**من آية**﴾ تمييز جر بمن على أصله. ﴿**في السماوات**﴾ متعلق بمحذوف نعت لآية. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات. ﴿**يمرون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ كأيّن. ﴿**عليها**﴾ متعلق بيمرون. ﴿**وهم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**عنها**﴾ متعلق بما بعدها ﴿**معرضون**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بالواو، وجملة وهم عنها معرضون في محل نصب حال من ضمير الجماعة المرفوع في يمرون.

﴿**وما يؤمن**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفي وواو العطف. ﴿**أكثرُهم**﴾ فاعل مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بالله**﴾ متعلق بيؤمن. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**وهم مشركون**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر في محل نصب حال من أكثرهم، والاستثناء من عموم الأحوال، أي: لا يؤمن أكثر الناس في حال من الأحوال إلاّ في حال شرك يعتقدونه أو يتصفون به. ﴿**أفأمنوا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التفريع وهمزة الاستفهام. ﴿**أن تأتيهم**﴾ فعل مضارع منصوب بأن، والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**غاشية**﴾ فاعل. ﴿**من عذاب**﴾ متعلق بمحذوف

نعت لغاشية، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول أمنوا. **﴿أو تأتيهم الساعة﴾** معطوف على قوله: تأتيهم غاشية.

﴿بغتةً﴾ منصوب على الحال من الساعة. **﴿وهم﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿لا يشعرون﴾** فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي، والجملة خبر المبتدإ، وجملة وهم لا يشعرون في محل نصب حال من ضمير النصب المفعول. **﴿قل﴾** فعل أمر. **﴿هذه﴾** في محل رفع المبتدأ. **﴿سبيلي﴾** خبر المبتدإ مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وياء المتكلم في محل جر مضافة إلى سبيل، وحركت بالفتحة تخفيفاً. **﴿أدعو﴾** فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الواو، والفاعل ضمير المتكلم. **﴿إلى الله﴾** متعلق بأدعو. **﴿على بصيرة﴾** متعلق بمحذوف حال من فاعل أدعو. **﴿أنا﴾** ضمير فصل. **﴿ومن﴾** معطوف على فاعل أدعو.

﴿اتبعني﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على مَنْ. والنون للوقاية والياء مفعول به، وجملة اتبعني صلة مَنْ، وجملة أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني تفسير لقوله: هذه سبيلي. **﴿وسبحان﴾** منصوب على المصدرية مفعول مطلق. **﴿الله﴾** مضاف إلى سبحان، والجملة اعتراضية. **﴿وما أنا﴾** في محل رفع مبتدأ دخل عليه حرف النفي وواو العطف. **﴿من المشركين﴾** متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. **﴿وما أرسلنا﴾** فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي وواو العطف. **﴿من قبلك متعلق بأرسلنا. ﴿إلاّ رجالاً﴾** مفعول أرسلنا. **﴿يوحى﴾** فعل مضارع مبني للمجهول. **﴿إليهم متعلق بيوحى.**

﴿من أهل﴾ متعلق بمحذوف حال من قوله: رجالاً؛ لكونه موصوفاً بيوحى. **﴿القرى﴾** مضاف إلى أهل مجرور بكسرة مقدرة على الألف. **﴿أفلم يسيروا﴾** فعل وفاعل، والفعل مجزوم بلم، والفاء للتفريع، والهمزة للاستفهام. **﴿في الأرض﴾** متعلق بالفعل قبله. **﴿فينظروا﴾** مرتب على يسيروا. **﴿كيف﴾** مبني على الفتح في محل نصب. **﴿كان عاقبة﴾** كان واسمها. **﴿الذين﴾** في محل جر مضاف إلى عاقبة. **﴿من قبلهم﴾** متعلق بمحذوف صلة الذين. **﴿ولدار﴾** مبتدأ دخل عليه لام التوكيد وواو العطف. **﴿الآخرة﴾** مضاف إلى دار. **﴿خير﴾** خبر المبتدإ. **﴿للذين﴾** متعلق بخير. **﴿اتقوا﴾** فعل وفاعل، صلة الذين.

﴿أفلا تعقلون﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي وفاء التعقيب وحرف

الاستفهام. ﴿**حتى غائية**﴾ تجر ما بعدها. ﴿**إذا استيأس**﴾ الرسل فعل الشرط. ﴿**وظنوا**﴾ معطوف على استيأس الرسل. ﴿**أنّهم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**قد كذّبوا**﴾ فعل ماضٍ مبني للمجهول، والواو نائب الفاعل، وقد حرف تحقيق، وجملة قد كذّبوا في محل رفع خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول به. ﴿**جاءهم**﴾ ﴿**نصرنا**﴾ جواب إذا. ﴿**فننجي**﴾ مرتب على قوله: جاءهم نصرنا. ﴿**مَنْ**﴾ في محل نصب مفعول ننجي. ﴿**نشاء**﴾ فاعله ضمير العظمة (نحن) مثل فاعل ننجي، وجملة نشاء صلة مَنْ.

﴿**ولا يرد**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، دخل عليه حرف النفي وواو العطف. ﴿**بأسُنا**﴾ نائب الفاعل مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**عن القوم**﴾ متعلق بيرُد. ﴿**المجرمين**﴾ نعت للقوم. ﴿**لقد**﴾ اللام للقسم، وقد للتحقيق. ﴿**كان في قصصهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان مقدم. ﴿**عبرة**﴾ اسم كان مؤخر. ﴿**لأولي**﴾ متعلق بعبرة. ﴿**الألباب**﴾ مضاف إلى أولي. ﴿**ما كان**﴾ اسم كان ضمير مستتر، وما﴾ نافية. ﴿**حديثاً**﴾ خبر كان. ﴿**يفترى**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر يعود على الحديث، وجملة يفترى في محل نصب نعت لخبر كان. ﴿**ولكن تصديق**﴾ خبر لكان مقدرة مع اسمها بعد حرف الاستدراك، والتقدير: ولكن كان الحديث تصديق. ﴿**الذي**﴾ في محل جر مضاف إلى تصديق. ﴿**بين**﴾ متعلق بمحذوف صلة الذي. ﴿**يديه**﴾ مضاف إلى بين. ﴿**وتفصيل**﴾ معطوف على تصديق. ﴿**كل**﴾ مضاف إلى تفصيل. ﴿**شيء**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**وهدًى**﴾ معطوف على تصديق منصوب بفتحة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين. ﴿**ورحمة**﴾ معطوف على هدى. ﴿**لقوم**﴾ متعلق برحمة. ﴿**يؤمنون**﴾ فعل وفاعل، وجملة يؤمنون في محل جر نعت لقوم.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك**﴾: فصل الكلام عما قبله فلم يعطف؛ لأنّه جاء تذييل مقرر لما تضمنته قصة يوسف من الغرائب والعجائب، فلا يمكن أن يلم بتفاصيلها وما فيها من الأخبار والأسرار رجل مثل محمد لا يدري عن أحوال الأمم التي سبقته في الزمان وابتعدت عنه في المكان، ومع هذا فقد أخبر بأشياء وأحوال خفيت عن أهلها، فلم يعلموا تفاصيلها؛ فكانت وحياً من الله إلى رسوله

دون وهم ولا ريب. ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك؛ فالإشارة إلى البعيد دلالة على ما في هذه الأنباء من بعد تناولها عن الناس، والإشارة جاءت هنا لتمييز الأنباء أكمل تمييز، فهي هنا كأنّها مشاهدة حاضرة؛ لتتمكن من عقول السامعين لما فيها من العبر والمواعظ.

والغيب ما غاب عن علم الناس، وأصله مصدر غاب سمي به الشيء الذي لا يشاهد. وتذكير ضمير نوحيه لأجل مراعاة اسم الإشارة (ذلك)، وهو يشير إلى ما تقدم من قصص الأنبئاء عموماً، لا ما كان خاصاً بقصة يوسف، بدليل ما يأتي من قوله: لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب... **﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾**: وصلت هذه الجملة بما قبلها بالعطف، تكملة وتوضيح لقوله: من أنباء الغيب نوحيه إليك؛ فأنت لم تكن حاضراً لديهم عندما كانوا يتآمرون ويدبرون في الخفاء، وهم في أشد الغيظ والحقد على أخيهم وأخيه وأبيه؛ فهذه الجملة استخلاص لمواضع العبرة من القصة، وفيها منّةٌ على النبيء ﷺ، وفيها تعريض للمشركين بتنبيههم لإعجاز القرآن من الجانب العلمي، فإنّ صدور ذلك من رجل أمي في قوم أميين آية كبرى على أنّ هذا الكلام وحى من الله تعالى، ولذلك عقب بقوله... **﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾**: فهو انتقال من سوق هذه القصة إلى العبرة بتصميم المشركين على التكذيب بعد هذه الدلائل البينة؛ فالواو للعطف على جملة: ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، باعتبار إفادتها أنّ هذا القرآن وحي من الله، وأنّه حقيق بأن يكون داعياً سامِعِيهِ إلى الإيمان بالنبيء محمد ﷺ.

ولمّا كان ذلك من شأنه أن يكون مطمعاً في إيمانهم عقب بإعلام النبيء بأنّ أكثرهم لا يؤمنون. والناس مقصود به الجنس. وجملة: ولو حرصت في موضع الحال؛ معترضة بين اسم ما وخبرها. ولو هذه وصلية، وهي التي تفيد أنّ شرطها هو لأقصى الأسباب لجوابها. وجواب لو محذوف يدل عليه قوله: وما أكثر الناس. وجملة... **﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾**: موصولة بالعطف على جملة وما أكثر الناس... الخ؛ باعتبار ما أفادته من التأييس من إيمان أكثرهم، فلا يسوؤك عدم إيمانهم، فلست تبتغي أن يكون إيمانهم جزاء على التبليغ، بل إيمانهم لفائدتهم.

وجملة... ﴿**إن هو إلاّ ذكر للعالمين**﴾: بمنزلة التعليل لجملة: وما تسألهم عليه من أجر. والقصر إضافي، أي: ما هو إلاّ ذكر للعالمين، لا لتحصيل أجْرِ مبلِّغِه، وضمير عليه عائد إلى القرآن المعلوم من قوله: «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك»... ﴿**وكأيّن من آية في السماوات والأرض**﴾: وصل الكلام بما قبله، فهو معطوف على جملة وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين، أي: ليس إعراضهم عن آية حصول العلم للأمي بما في الكتب السالفة فحسب، بل هم معرضون عن آيات كثيرة في السماوات والأرض. وكأين: اسم يدل على كثرة العدد المبهم، ببينة تمييز مجرور بمن. والمراد بالآية هنا: العلامة الدالة على وحدانية الله تعالى، بقرينة ذكر الإشراك بعدها.

ومعنى ﴿**يمرون عليها**﴾: يرونها، والمرور مجاز مكنى به عن التحقيق والمشاهدة؛ إذ لا يصح حمل المرور على المعنى الحقيقي بالنسبة لآيات السماوات، فالمرور هنا كالذي في قوله تعالى: «وإذا مروا باللغو مروا كراماً». وجملة: ﴿**وهم عنها معرضون**﴾ حال مؤكدة لما قبلها، وهو تعجيب من غفلتهم وعدم اكتراثهم بما يدور من حولهم، فلا ينتبهون لحالهم... ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون**﴾: وصلت هذه الآية بالعطف على ما قبلها زيادة لما عليه الناس نتيجة الغفلة وعدم الاكتراث بدلائل الآيات، والمقصود من هذا تشنيع حالهم، والأظهر أن يكون هذا من قبيل تأكيد الشيء بما يشبه ضده على وجه التهكم!، فكأنّ إيمانهم لا يوجد إلا مع الشرك، وهم الذين يدّعون الاعتراف بالله وأنّه هو الخالق والرازق وهم أكثر الناس، أمّا الأقل فلا يعترف بخالق ولا رازق، وإنّما يقول: «ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر»، وهؤلاء جميعاً كفرة ومشركون ودهرة ملحدون... ﴿**أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون**﴾: فصلت الآية عما قبلها فلم تعطف؛ لأنّها تعقيب وتعليق وتفريع مسبوق بالاستفهام للتنديد والتهديد والتقريع والتشنيع، فكأنّهم في إعراضهم عن توقع حصول غضب الله آمنون أن تأتيهم غاشية من عذابه في الدنيا، أو تأتيهم الساعة بغتة دون أن يعلمهم بها أحد من المخلوقين، فتحول بينهم وبين التوبة، ويصيرون إلى العذاب الخالد... ﴿**قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين**﴾: فصل هذه الآية بما قبلها معلوم من السياق؛ فقد انتهى الكلام مع المعارضين المعاندين بعدما

قامت عليهم الحجة، وانسدت عليهم المحجة، وتركوا في مصير مجهول لا يدرون فيه شيئاً عن المستقبل المهول، فاستؤنف الكلام للانتقال من الاعتبار بدلالة نزول هذه القصة للنبيء الأمي على صدق نبوءته وصدقه فيما جاء به من التوحيد، إلى الاعتبار بجميع ما جاء به من هذه الشريعة عن الله تعالى، وهو المعبر عنه بالسبيل على وجه الاستعارة لإبلاغها إلى المطلوب، وهو الفوز الخالد؛ كإبلاغ الطريق إلى المكان المقصود للسائر. وهي استعارة متكررة في القرآن وفي كلام العرب.

والإشارة إلى الشريعة بتنزيل المعقول منزلة المحسوس؛ لبلوغه من الوضوح للعقول حدًّا لايخفى فيه إلاّ عمّن لا يُعَدُّ مُدْرِكاً. وما في جملة هذه سبيلي من الإبهام قد فسرته جملة أدعو إلى الله على بصيرة. وعلى فيه للاستعلاء المجازي المراد به التمكن. والبصيرة فعيلة بمعنى فاعلة، وهي الحجة الواضحة، والمعنى: أدعو إلى الله ببصيرة متمكناً منها، ووصف الحجة ببصيرة مجاز عقلي. وضمير أنا تأكيد للضمير المستتر في أدعو؛ أُتي به لتحسين العطف بقوله: ومن اتبعني، وهو تحسين واجب في اللغة، وفي الآية دلالة على أنّ أصحاب النبيء ﷺ والمؤمنين الذين آمنوا به مأمورون بأن يدعوا إلى الإيمان بما يستطيعون. وعطفت جملة: وسبحان الله على جملة: أدعو إلى الله، أي: أدعوا إلى الله وأنزهه، وسبحان اسم مصدر التسبيح جاء بدَلاً عن الفعل للمبالغة.

وجملة... وما أنا من المشركين: بمنزلة التذييل لما قبلها؛ لأنّها تعم ما تضمنته... **﴿وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً يوحى إليهم من أهل القرى﴾**: وصل الكلام بالعطف على ما قبله لاتصال المعنى فيما بينها بما تضمنه قوله تعالى: ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، فإنّ تلك الآية وما بعدها تضمنت الحجة على صدق الرسول فيما جاءهم به، وتضمنت أنّ الذين أشركوا غير مصدّقينه عناداً وإعراضاً عن آيات الصدق، فالمعنى: أنّ إرسال الرسل سنة إلهية قديمة، فلماذا يجعل المشركون رسالتك أمراً مستحيلاً؟!.

فلا يصدقون بها مع ما قارنها من آيات الصدق، ومن كونك رجلاً معروفاً عندهم من أهل القرى الذين لا يخفى أمرهم على الناس... **﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾**: هذا تفريع على قوله تعالى:

وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً. والاستفهام إنكارى، وهنا تعريض بالوعيد والتهديد، وهذا السؤال موجه للمعارضين لدعوة الرسول. . . ﴿**ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون**﴾: هذا مقابل الوعيد والتهديد المعرَّض به للمعارضين، وهو التبشير وحسن العاقبة للرسل ومن آمن بهم، وهم الذين اتقوا.

وقوله: أفلا تعقلون التفات بالخطاب إلى المعارضين توبيخاً وتقريعاً وتهديداً! ..﴿**حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا**﴾: دل حرف حتى على حذف في الكلام دل عليه جملة: وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً، فالمعنى: أرسلنا قبلك يامحمد رسلاً فدعوا قومهم فكذبوهم وتمادوا على تكذيبهم حتى استيأسوا وظنوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا. . . ﴿**فننجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين**﴾: فأنت يا محمد مثل أولئك الرسل مع قومك، فلتطمئن على دعوتك، فالعاقبة لك ولمن آمن بك. . . ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾: هذا من رد العجز على الصدر، فهي مرتبطة بجملة: ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وهي تتنزل منزلة البيان لما تضمنه معنى الإشارة في قوله: ذلك من أنباء الغيب من التعجيب، وما تضمنه معنى: وما كنت لديهم من الاستدلال على أنّه وحي من الله مع دلالة الأمية.

ولا يخفى على الباحث أنّ قوله تعالى: ذلك من أنباء الغيب، وقوله: لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب يربط آخر السورة بأولها في قوله: نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين. وكذلك يربط قصص الأنبئاء الذي تقدم في سورتي يونس وهود ليتخلص بعد ذلك إلى تفصيل الآيات التي استخلصت من هذا القصص فيما يأتي من سورة الرعد وسورة إبراهيم. . . ﴿**ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدًى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾: جملة: ما كان حديثاً يفترى ...الخ تعليل بجملة: لقد كان في قصصهم عبرة، فهو خبر صدق مطابق للواقع، وما هو بقصة مخترعة.

ووجه التعليل أنّ الاعتبار بالقصة لا يحصل إلاّ إذا كانت خبراً عن أمر واقع؛ لأنّ ترتيب الآثار على الواقع ترتيب طبيعي، فمن شأنها أن تترتب أمثالها على أمثالها، كلما حصلت في الواقع. ولأن حصولها ممكن؛ إذ الخارج لا يقع فيه

المحال ولا النادر، وذلك بخلاف القصص الموضوعة بالخيال والتكاذيب، فإنّها لا يحصل بها اعتبار؛ لاستبعاد السامع وقوعها، لأنّ أمثالها لا يعهد، مثل مبالغات الخرافات وأحاديث الجن والغول عند العرب وعند غيرهم، فالسامع يتلقاها تلقي الفكاهات والخيالات اللذيذة، ولا يتهيأ للاعتبار بها إلاّ على سبيل الفرض والاحتمال، فهذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى في أول السورة: نحن نقص عليك أحسن القصص؛ فكما سماه الله أحسن القصص في أول السورة نفى عنه الافتراء في هذه الآية تعريضاً بالمكذبين الذين يقولون عن القرآن إنّه أساطير الأولين.

ومعلوم من هذه الآية وغيرها أنّ القرآن مصدق لما بين يديه من الكتب، وأنّه فصّل وبين ووضح ما كان وما سيكون، فهو المعجزة الخالدة إلى يوم الدين. والهدى الذي في القصص: العبر الباعثة على الإيمان والتقوى لمشاهدة ما جاء من الأدلة في أثناء القصص على أنّ المتصرف هو الله تعالى، وعلى أن التقوى هي أساس الخير في الدنيا والآخرة. وكذلك الرحمة، فإنّ في قصص أهل الفضل دلالة على رحمة الله لهم، وعنايته بهم. وذلك رحمة للمؤمنين؛ لأنّهم باعتبارهم بها يأتون ويذرون، فتصلح أحوالهم ويكونون في اطمئنان بال، وذلك رحمة من الله بهم في حياتهم وسبب لرحمته إيّاهم في الآخرة، ففي هذا براعة المقطع، ورد العجز على الصدر في المطلع!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾: فيه توجيه الخطاب للرسول محمد ﷺ بالإشارة إلى ما تحويه قصة يوسف من أخبار وأسرار لا يعلمها إلاّ علام الغيوب. انتهت قصة يوسف لتبدأ التعقيبات عليها، وتبدأ معها اللفتات المتنوعة، واللمسات المتعددة، والجولات الموحية في صفحة الكون وفي أغوار النفس وفي آثار الغابرين، وفي الغيب المجهول وراء الحاضر المعلوم. تلك القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمد ﷺ ثم بعث إليهم، وفيها أسرار لم يعلمها إلاّ الذين لامسوها من أشخاص القصة، وقد غبرت بهم القرون.

ذلك القصص الذي مضى في السياق من الغيب الذي لا تعلمه، ولكننا نوحيه

إليك، وآية وحيه أنّه كان غيباً بالقياس إليك، وما كنت معهم إذ اجتمعوا واتفق رأيهم وهم يمكرون، ذلك المكر الذي تحدّثت عنه القصة في مواضعه؛ وهم يمكرون بيوسف، وهم يمكرون بأبيهم، وهم يدبرون أمرهم بعد أخذ أخيه وقد خلصوا نجيا، وهو من المكر بمعنى التدبير. وكذلك ما كان هناك من مكر بيوسف من ناحية النسوة ومن ناحية رجال الحاشية وهم يودعونه السجن؛ كل أولئك مكر، ما كنت حاضره لتحكي عنه، إنّما هو الوحي الذي سيقت السورة لتثبته من بين ما تثبت من قضايا اعتقادية وأخلاقية، وهي متناثرة في مشاهد القصة الكثيرة.

ولقد كان من مقتضى ثبوت الوحي، وإيحاء القصص، واللفتات واللمسات التي تحرك القلوب أن يؤمن الناس بهذا القرآن، وهم يشهدون الرسول ويعرفون أحواله، ثم يسمعون منه ما يسمعون ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. وهم يمرون كذلك على الآيات المبثوثة في صفحة الوجود فلا ينتبهون إليها، ولا يدركون مدلولها، كالذي يلوي صفحة وجهه فلا يرى ما يواجهه؛ فما الذي ينتظرونه؟ وعذاب الله قد يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون: **﴿وما أكثر الناس ـ ولو حرصت ـ بمؤمنين. وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلاّ ذكر للعالمين. وكأيِّنْ من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون. وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون. أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون﴾**.

ولقد كان الرسول حريصاً على إيمان قومه، رغبة في إيصال الخير الذي جاء به إليهم، ورحمة لهم من العذاب الذي ينتظر المشركين، ولكن الله العليم بقلوب البشر، الخبير بطبائعهم وأحوالهم يُنْهِي إليه أنّ حرصه على إيمانهم لن يسوق الكثرة المشركة إلى الإيمان؛ لأنّهم ـ كما قال في هذه الآيات ـ يمرون على الآيات الكثيرة معرضين؛ فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان، ولا يجعلهم ينتفعون بدلائله المبثوثة في الآفاق. وإنّك لغني عن إيمانهم، فما تطلب منهم أجراً على الهداية؛ وإنّ شأنهم في الإعراض عنها لعجيب، وهي تبذل لهم بلا أجر ولا مقابل: «وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلاّ ذكر للعالمين»؛ تذكرهم بآيات الله، وتوجه إليها أبصارهم وبصائرهم. وهي مبذولة للعالمين، لا احتكار فيها لأمة، ولا جنس، ولا قبيلة، ولا ثمن لها يعجز عنه أحد، فيمتاز الأغنياء على الفقراء.

ولا شرط لها يعجز عنه أحد، فيمتاز القادرون على العاجزين، إنّما هي ذكرى للعالمين، ومائدة عامة شاملة معروضة لمن يريد أن يتذوق طعم الإيمان؛ فالآيات الدالة على الله وقدرته ووحدانيته كثيرة مبثوثة في تضاعيف الكون، معروضة للأبصار والبصائر، في السماوات وفي الأرض، يمرون عليها صباح مساء، آناء الليل وأطراف النهار، وهي ناطقة تكاد تدعو الناس إليها، بارزة تواجه العيون والمشاعر، موحية تخايل للقلوب والعقول، ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون إيقاعها العميق. وإن لحظة تأمل في الخضم الزاخر والعين الفوارة والنبع؛ في مطلع الشمس ومغيبها.

لحظة تأمل في الظل المحدود ينقص بلطف ويزيد. لحظة تأمل في النبتة النامية والبرعم الناعم والزهرة المتفتحة والحصيد الهشيم. لحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء، والسمك السابح في الماء، والدود السارب والنمل الدائب، وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوام. لحظة تأمل في صبح أو مساء، في هدأة الليل أو في زحمة النهار. لحظة واحدة يتسمع فيها القلب البشري إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب!. إنّ لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب، والتأثر المستجيب، ولكنّهم يمرون عليها وهم عنها معرضون، لذلك لا يؤمن الأكثرون!.

وحتى الذين يؤمنون، كثير منهم يتدسس الشرك - في صورة من صوره - إلى قلوبهم؛ فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفي عن القلب أوّلاً بأولٍ كلَّ خالجة شيطانية، وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف، لتكون كلها لله، خالصة له دون سواه: وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون؛ مشركون قيمة من قيم هذه الأرض في تقريرهم للأحداث والأشياء والأشخاص، مشركون سبباً من الأسباب مع قدرة الله في النفع أو الضر سواء، مشركون في الخوف من قوة غير قوة الله لحاكم أو ظالم أو ذي جاه، مشركون في رجاء يتعلق بغير الله من بني الإنسان، مشركون في تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس، مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضر ولكن لغير الله، مشركون في عبادة يُلْحَظُ فيها وجْهٌ مع وجه الله؛ فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان، والكثيرون لا يكلفون نفوسهم هذه اليقظة،

ومن ثم يقول الله: وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون؛ فتنطبق على من كان يواجههم رسول الله في الجزيرة، وتشمل غيرهم على تتابع الزمان وتغيُّر المكان، فالإنسان هو الإنسان.

وبعد، فماذا ينتظر أولئك المعرضون عن آيات الله المعروضة في صفحات الوجود بعد إعراضهم عن آيات القرآن التي لا يُسألون عليها أجرا؟!. ماذا ينتظرون؟. أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون: وهي لمسة قوية لمشاعرهم، لإيقاظهم من غفلتهم، وليحذروا عاقبة هذه الغفلة، فإنّ عذاب الله الذي لا يعلم موعده أحد قد يغشاهم اللحظة بغاشية تلفهم وتشملُهم، وربما تكون الساعة على الأبواب، فيطرقهم اليوم الرهيب المخيف بغتة وهم لا يشعرون. إنّ الغيب موصد الأبواب لا تمتد إليه عين ولا أذن ولا يدري أحد ماذا سيكون اللحظة، فكيف يأمن الغافلون؟!.

التوجيه الثاني: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾: فيه توجيه الرسول إلى الناس ليقول لهم الكلمة الفاصلة التي دلت عليها آيات هذا القرآن الذي سمعوه وأعرضوا عنه. وكانت الآيات التي يحفل بها هذا الكون معروضة للأنظار، فإذا كانت هذه وتلك يمرون عليها وهم عنها معرضون، ويشركون بالله شركاً ظاهراً أو خفياً وهم الأكثرون، فما على الرسول بعد هذا وذاك إلاّ أن يواجه الناس بالحقيقة ويقول لهم: هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين.

فهي إذن السبيل الوحيدة المستقيمة لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة، فأنا أدعو الناس إليها؛ لأنّها هي طريق الحق رضيتها ورضى بها من تبعني، فنحن على هدى من الله ونور؛ نعرف طريقنا جيداً، ونسير فيها على بصر وإدراك ومعرفة، لا نخبّط ولا نتحسّس ولا نحدس، فهو اليقين البصير المستنير، ننزه الله سبحانه عما لا يليق به، وما أنا من المشركين لا ظاهر الشرك ولا خافيه، فهذه طريقي، فمن شاء فليتابع، ومن لم يشأ فأنا سائر في طريقي المستقيم. ثم لفتة إلى سنة الله في رسالاته، وإلى بعض آيات الله في الأرض من مصائر السابقين.

إنّ محمداً ليس بدعاً من الرسل، ورسالته ليست بدعاً من الرسالات، وهذه

عواقب الذين كذبوا من قبل؛ آيات معروضة في الأرض... **﴿وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً يوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾**؟: إنّ النظر في آثار الغابرين يهز القلوب، حتى قلوب المتجبرين، ولحظات الاسترجاع الخيالي لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم، وتصورهم أحياء يروحون في هذه الأمكنة ويجيئون، يخافون ويرجون، يطمعون ويتطلعون، ثم إذا هم ساكنون لا حس ولا حركة؛ آثارهم خاوية طواهم الفناء وانطوت معهم مشاعرهم وعوالمهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم، ودنياهم الماثلة للعيان والمُسْتَكِنَّةِ في الضمائر والمشاعر.

إنّ هذه التأملات لتهز القلب البشري هزاً مهما يكن نَاسِيًا غافلاً قاسياً، فمن ثَمَّ يأخذ القرآن بيد القوم ليوقفهم على مصائر الغابرين بين الحين والحين؛ فالرسل الذين أرسلهم الله قبل محمد لم يكونوا ملائكة ولا خلقاً آخر، إنّما كانوا بشراً يعرفون الناس ويعرفهم الناس ظاهرين في القرى، لا مختفين في البيوت ولا منقطعين في البوادي، فرسالة محمد ماضية على سنة الله في إرسال الرسل من البشر المعروفين للناس ظاهرين غير مختفين. أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟ فيدركوا أنّ مصيرهم كمصيرهم، وأنّ سنة الله الواضحة الآثار في آثار الغابرين ستنالهم؛ وأنّ عاقبتهم في هذه الأرض إلى ذهاب. ولدار الآخرة خير للذين اتقوا، خير من هذه الدار التي ليس فيها قرار. أفلا تعقلون؟ فتتدبروا سنن الله في الغابرين. أفلا تعقلون؟ فتؤثرون النعيم الباقي على المتاع القصير؟!.

التوجيه الثالث: **﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنّهم قد كُذّبوا جاءهم نصرنا فننجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾**: في هذا التوجيه لفت الانتباه إلى حقيقة قد يغفل عنها من لا يميز بين النظائر والأشباه، فرسم للناس موقفاً يصور فيه ساعات الحرج القاسية في حياة الرسل، قبيل اللحظة الحاسمة التي يتحقق فيها وعد الله، وتمضي فيها سنته التي لا تتخلف ولا تحيد، فهي صورة رهيبة ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل؛ وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود، وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلاّ قليل،

وتكر الأعوام والباطل في قوته وكثرة أهله، والمؤمنون في عدّتهم القليلة وقوتهم الضئيلة.

إنّها ساعات حرجة، والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر، والرسل ينتظرون الوعد الذي لا يخلف، وهم واثقون أنّه لو كان وعداً من الله فلن يتخلف، فتهجس في خواطرهم الهواجس. إنّها الزلزلة الرهيبة التي تهز ثقتهم بحقيقة أنفسهم، وحقيقة اتصالاتهم، وحقيقة تلقيهم، فهم لا يشكون لحظة في صدق وعد الله، ولكنهم يشكون في أنفسهم. وما يقف الرسول هذا الموقف إلاّ وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر، ففي هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب، ويأخذ الضيق بمخانق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة، في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً.

تلك سنة الله في الدعوات، لابد من الشدائد، ولابد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد، ولا بقية من طاقة، ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس، يجيء والنصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة؛ ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين، وينجون من البطش والعسف الذي كان يسلطه عليهم المتجبرون، ويحل بأس الله بالمجرمين، مدمراً ماحقاً لا يقفون له، ولا يصده عنهم ولي ولا نصير. ذلك؛ كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً، فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعيٌّ بدعوة لا تكلفه شيئاً أو تكلفه القليل، ودعوة الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً، فإنّما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء، فالأدعياء لا يتحملون تكاليف الدعوة؛ لذلك يشفقون أن يدّعوها، فإذا ادعوها عجزوا عن حملها وطرحوها، وتبيّن الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلاّ الواثقون الصادقون.

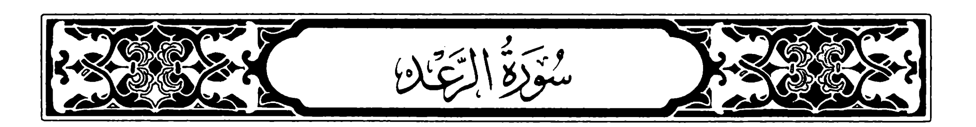
وفي قصة يوسف ألوان من الشدائد: في الجب، وفي بيت العزيز، وفي السجن، وألوان من الاستيآس من نصرة الناس. ثم كانت العاقبة خير للذين اتقوا ـ كما هو وعد الله الصادق الذي لا يخيب ـ، وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين، فيها عبرة لمن يعقل، وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل، على غير صلة بين محمد وهذه الكتب، فما كان من الممكن أن يكون ما

جاء به حديثاً مفترى، فالأكاذيب لا يصدق بعضها بعضاً، ولا تحقق هداية، ولا يستروح فيها القلب رائحة الرحمة... ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾: وهكذا يتوافق المطلع والختام في السورة، كما توافق المطلع والختام في القصة، وتجيء التعقيبات في أول القصة وآخرها، وبين ثناياها، متناسقة مع موضوع القصة، وطريقة أدائها وعباراتها كذلك، فتحقق الهدف الديني كاملاً، وتحقق السمات الفنية كاملة، مع صدق الرواية، ومطابقة الواقع في الموضوع.

وقد بدأت القصة وانتهت في سورة واحدة؛ لأنّ طبيعتها تختم هذا اللون من الأداء، فهي رؤيا تتحقق رُوَيْداً رويداً، ويوماً بعد يوم، ومرحلةً بعد مرحلة، فلا تتم العبرة بها ـ كما لا يتم التنسيق الفني ـ إلاّ بأن يتابع السامع القارئ خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها. وإفراد حلقة واحدة منها في موضوع لا يحقق شيئاً من هذا كله، كما يحققه إفراد بعض الحلقات في قصص الرسل الآخرين؛ كحلقة قصة سليمان مع ملكة سبأ، أو حلقة قصة مولد مريم، أو حلقة قصة مولد عيسى، أو حلقة قصة نوح، فهذه الحلقات تفي بالغرض منها دينياً وفَنّيّاً، أمّا قصة يوسف فتقتضي أن تُتْلى كلُّها متوالية حلقاتها ومشاهدها من بدئها إلى نهايتها. وصدق الله العظيم: «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين».

هذا ختام السورة الكريمة، وتلك القصة القوية المؤثرة، التي اشتركت فيها عناصر مختلفة في أماكن متعددة؛ قصة فصولها متعددة الألوان، فيوسف مع إخوته، ثم هو في الجب، ثم هو في بيت العزيز، ثم هو في السجن، ثم هو في دست الحكم؛ قصة جمعت بين كيد الإخوة وحسدهم، وكيد النساء ومكرهن. قصة الصبر والحكمة والفداء والبطولة، قصة السياسة والرياسة، قصة لها معان وفيها إشارات وعبرة وذكرى لأولي الألباب.

3 ـ تفصيل الآيات جاء في سورة الرعد من المعجزات



النص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرٰ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ وَالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1) اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى الَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4) * وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ الْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (5) (6)

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٨﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٩﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿١٠﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١١﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٣﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٤﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٥﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (16) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ (17) أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (18) أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (19) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (20)

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿**ألمر**﴾: تقدم الكلام على نظائر ألمر؛ مما وقع في أوائل بعض السور من الحروف المقطعة، مثل ألم في سورتي البقرة وآل عمران، وألمص في سورة الأعراف، وألر في سور يونس وهود ويوسف... ﴿**تلك آيات الكتاب**﴾: مثل قوله في سورة يونس: «تلك آيات الكتاب الحكيم»... ﴿**والذي أنزل إليك من ربّك الحق**﴾: القرآن الذي فيه هذه الآيات هو القرآن، وهو الحق الثابت

الدائم. . . ﴿**ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون**﴾: مع وضوح آيات القرآن وكونه نازلاً من عند الله، وهو الحق الثابت الذي لا يتطرق إليه شكٌّ؛ فأكثر الناس لا يؤمنون به ولا يعتبرونه كتاباً منزلاً من عند الله. . . ﴿**الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها: رفعها**﴾: خلقها مرتفعة عالية.

والسماوات هنا: العالم العلوي المقابل للعالم السفلي. وارتفاع السماوات بدون عمد ظاهر لكل راء، وكونها بلا عمد مرئية يدركها العالم بسير الكواكب والنجوم لما فيها من سر الدفع والجذب، فهي حقيقة من حقائق العلوم. . . ﴿**ثم استوى على العرش**﴾: هذا هو الترقي في كيفية الخلق، فليس ما يرى الإنسان من كواكب ونجوم في عالم الفضاء هو الخلق الوحيد، بل هناك عوالم لا تحصى ولا تعد من مخلوقات الله الحميد المجيد. . . ﴿**وسخر الشمس والقمر**﴾: أوضح ما في الكون من دلائل القدرة والعلم والإرادة والحكمة والقهر والغلبة. . . ﴿**كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون**﴾.

﴿**وهو الذي مدّ الأرض**﴾: بسطها ووسعها أمام السائر والناظر كما هو للعيان ظاهر. والحقيقة أكبر من هذا وأعظم عندما يبحث العالم في هذه الظواهر، فكلّما ذهب الذاهب في الأرض يميناً أو شمالاً شرقاً أو غرباً وجد الأرض أمامه، فليس فيها حد يقف عنده؛ سواء سار في البر أو في البحر أو في الجو. . . ﴿**وجعل فيها رواسي**﴾: جبالاً ثابتة راسية راسخة شامخة. . . ﴿**وأنهاراً**﴾: جارية متدفقة سائرة على الدوام متسابقة. . . ﴿**ومن كل الثمرات**﴾: كل الثمرات التي في الأرض تعيش بالماء وتحتاج إلى شعاع الشمس وضوء القمر. . . ﴿**جعل فيها زوجين اثنين**﴾: اثنينية حقيقية كما هو معلوم من مباحث علم النبات؛ فالزوجية ليست خاصة بالحيوان، وإنّما تعم جميع الأحياء، بل هي عامة في كل شيء؛ لظاهر قوله تعالى: «ومن كل شيء خلقنا زوجين».

والاثنينية في الزوجية ذكورة فاعلة وأنوثة منفعلة. . . ﴿**يغشى الليل النهار**﴾: الإغشاء: تغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية، ومعناه هنا: يستر النهار بالليل؛ فالليل يغطي الأشياء بظلمته، «والليل إذا يغشى». . . ﴿**إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾: التفكير في هذه الأشياء يؤدي إلى نتيجة صادقة بدليل البرهان أنّ المتغير والمتنوع والحادث خاضع لمتصرّف عليم قادرٍ حكيمٍ. . . ﴿**وفي الأرض**

قطع متجاورات﴾: القطع: جمع قطعة، وهي الجزء من الشيء، وقطع الأرض: الأجزاء المختلفة. ومتجاورات: متقاربات... **﴿وجنات من أعناب وزرع ونخيل﴾**: جنات: جمع جنة، وهي الأرض المستورة بالأشجار. والأعناب: نوع من أشجار الكروم معروف.

والزرع: ما يزرع بذره ويخرج وينمو وتكون له سنابل يخرج منها حبوب مختلفة. والنخيل: الشجر ذات الجدع الواحد وعلى رأسها الجريد وعراجين البلح... **﴿صنوان وغير صنوان﴾**: الصنو: المتفرع في الأصل، واشتهر عرفاً في النخل المتفرع إلى فرعين أو أكثر، وهذا مشاهد معروف في غابات النخل التي يكثر فيها المياه الجوفية والعيون... **﴿تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾**: هذا التنويع أشبه ما يكون في النخل، يكون في الأرض الواحدة تسقى بماء واحد، ويختلف تمرها لوناً وحجماً وطعما اختلافاً كثيراً حتى يعد بعشرات الأسماء ومئات الأصناف... **﴿إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾**.

﴿وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً إنّا لفي خلق جديد﴾: الخطاب للنبيء ﷺ، أي: هذا موضع عجب حيث أنكروا البعث، وقد تبيّن لهم من خلق السماوات والأرض ما دلهم على البعث. والعجب: استغراب الشيء الذي لم يكن معتاداً، وقد قالوا: إذا عرف السبب بطل العجب. والخلق الجديد: إعادة الإنسان إلى الحياة... **﴿أولئك الذين كفروا بربّهم﴾**: لإنكارهم البعث وتكذيبهم بالقرآن... **﴿وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾**: جزاء لكفرهم. والأغلال: جمع غل، وهو القيد الذي يجعل في العنق وهو أشد التقيد.

والأعناق: جمع عنق، وهو الجيد والرقبة... **﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**: بيان لمكان العذاب الدائم... **﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة﴾**: استعجله: حثّه وأمره أن يعجل، والعجلة: السرعة. والسيئة: المصيبة التي تسوء من تحل به. والحسنة: ضدها... **﴿وقد خلت من قبلهم المثلات﴾**: مضت من قبلهم في الأمم السابقة العقوبات الشديدة التي تكون مثلاً يتمثل بها لهولها وفظاعتها... **﴿وإنّ ربّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾**: فلا يعجل بالعقوبة ولو طلبوها... **﴿وإنّ ربّك لشديد العقاب﴾**: عندما يحق عقابه ويأتي موعده فلا مناص منه يومئذ... **﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من**

ربّه﴾: هؤلاء الذين كفروا بربّهم يقترحون ويقولون: هلاّ أنزل الله على محمد آية مثل آيات من سبقه من الرسل ناسين أو متناسين هذا القرآن العظيم الذي جاء متناسباً لزمانهم ومدراكهم في عقلهم ولسانهم... **﴿إنّما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾**.

﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾: حمل الأنثى ما يتولد في رحمها. وغيض الأرحام: عقمها وعدم نماء الولد فيها. وزيادتها: خصبها ونماء الولد فيها إلى أن يخرج... **﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾**: كل شيء عند الله مقدر بالكمية والكيفية، والنوعية والجنسية؛ الأول باعتبار الفرد والثاني باعتبار المجموع... **﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾**: يعم علمه جميع الأشياء مما كان ومما سيكون... سبحانه لا إله إلاّ هو الكبير المتعال! **﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به﴾**: يستوي عند الله من أخفى كلامه فلم يسمع، ومن جهر به وسمع في كل موضع... **﴿ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾**: الاستخفاء: شدة الخَفَاءِ.

والسرب: الذهاب في السرب، والسرب: الطريق... **﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾**: المعقبات: جمع معقبة، اسم فاعل عقّبه إذا تبعه، واشتقاقه من العقب، والمعقبات هنا: ملائكة الليل والنهار. والحفظ: المراقبة... **﴿إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**: التغيير: التبديل بالمغاير، فهو تهديد لأولي النعمة من المشركين بأنّهم قد تعرضوا لتغييرها... **﴿وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾**: إذا أراد الله أن يغير ما بقوم حين يغيرون ما بأنفسهم ما يرد إرادته شيء.

والوالي: الذي يلي أمر أحدٍ، مشتق من ولي إذا قرب... **﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾**: البرق تقدم ذكره في سورة البقرة، وهو الشرارة اللامعة في السحاب مصحوبة بصوت الرعد، وحينما يشتد تنشأ عنه صاعقة قاصفة، والخوف والطمع يحصلان للإنسان بسبب ما يرجو من الغيث وما يخاف من الحرق أو الهدم أو الغرق... **﴿وينشىء السحاب الثقال﴾**: إنشاء السحاب الثقال بالماء هو من تصريف الله في الكون دون تدخل أحد من البشر... **﴿ويسبح الرعد بحمده﴾**: تسبيح الرعد: خضوعه وانْقِيَادُهُ... **﴿والملائكة من خيفته﴾**: بتكليف

الله إيّاها بالتسبيح... ﴿**ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء**﴾: تخويف لمن لا يسبح الله ولا يؤمن به من كفرة البشر... ﴿**وهم يجادلون في الله**﴾: بعد هذا كله لا يزالون يجادلون ويشكون ويمكرون ويكفرون... ﴿**وهو شديد المحال**﴾: لا يغلبه غالب ولا يهرب منه هارب... ﴿**له دعوة الحق**﴾: هو المجيب القريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه... والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال: الذين يدعون من دونه الأصنام التي لا تسمع ولا تجيب، ومثل من يدعوها كمثل إنسان يمد يديه إلى الماء ويبسطها ويريد أن يبلغ الماء فاه فلا يحصل منه بطائل؛ وهكذا خيبة أمل الكافر عندما يدعو غير من لا يستجيب... ﴿**ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً**﴾: المراد بالسجود هنا: الخضوع والانقياد.

ومن في السماوات والأرض: جميع المخلوقات. طوعاً: انقياد التَّكَيُّف الاختياري. وكرهاً: انقياد التكوين الاضطراري. والظلال: جمع ظل، وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور. والغُدُوّ: الزمان الذى يغدو فيه الناس، وهو من طلوع الشمس إلى الضحى. والآصال: جمع أصيل، وهو من العصر إلى قرب الغروب، وهما الوقتان اللذان يطول فيهما الظل... ﴿**قل من رب السماوات والأرض**﴾؟: أمر الله رسوله بأن يوجه هذا السؤال إلى المشركين... ﴿**قل الله**﴾: أمر يرد الجواب عن السؤال، وهو جواب مسلّم منهم دون اعتراض... ﴿**قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً**﴾؟: استفهام تقرير وتوبيخ وتسفيه لرأيهم بناءً على الإقرار المسلم في الجواب السابق؛ فهم اتخذوا معبودات لا تقدر على فعل شيء من نفع أو ضر، حتى لنفسها! ..﴿**قل هل يستوي الأعمى والبصير**﴾؟: أصل الأعمى: من اتصف بالعمى. والبصير: من اتصف بالبصر... ﴿**أم هل تستوي الظلمات والنور**﴾؟: أطلق هنا الأعمى والظلمات على المشرك المتخبط في الكفر والضلال، وأطلق البصير والنور على الموحد المؤمن المستنير بنور هدى الإسلام... ﴿**أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم**﴾؟: أم للإضراب الانتقالي متضمنة معنى الاستفهام، والاستفهام هنا مستعمل في التهكم والتغليظ، أي: هل هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم، لهم خلق مثل خلق الله؟! فاشتبه عليهم فلم يميزوا بينهما!.

لو جعلوا لله شركاء يخلقون كما يخلق الله لكانت لهم شبهة في الاغترار واتخاذهم آلهة. . . ﴿**قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار**﴾: ليس لغير الله خلق فكل هذه المعبودات من دون الله خلق من مخلوقات الله، والله هو الواحد المتصرف في مخلوقاته بالقهر. . . ﴿**أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً**﴾: إنزال الماء من السماء: إنزال المطر من السحاب. وسيلان الأودية: جريان الماء في الأماكن الصالحة لجريان الماء فيها، وتقدرها بقدر ما يحمل الوادي من ماء لاختلاف الأودية سعة وضيقاً.

واحتمال السيل الزبد الرابي: ما يحمله الماء من خفيف الأشياء وما ينتج من حركة المياه من رغوة، فتتجمع على سطح الماء وتنتفخ وتربوا حتى تغطي الماء الأصلي: فاحتمال السيل زبداً رابياً. . . ﴿**وممّا توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله**﴾: إيقاد النار على الشيء وهو فيها لإظهار الصافي منه وإزالة الخبث منه، والمراد به: الذهب والفضة لأجل التحلية به للزينة، ولأجل الانتفاع به للمتاع؛ من هذين المعدنين يخرج زبد مثل زبد السيل. . . ﴿**كذلك يضرب الله الحق والباطل**﴾: مثل هذا الضرب بالماء والزبد وطيب الذهب وما عليه من خبث يضرب الله الحق الذي مثل الماء والذهب، والباطل الذي مثل الزبد والخبث. . . ﴿**فأما الزبد فيذهب جفاءً**﴾: يذهب طريحاً مرمياً تذروه الرياح. . . ﴿**وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**﴾: تشربه الأرض فيمكث فيها لسقي النبات وسقي الحيوان من الآبار والعيون والغدران. . . ﴿**كذلك يضرب الله الأمثال**﴾: جمع مِثْلٍ وَمَثَل ومثيل وهو الشبيه، والمراد به التمثيل السابق في قوله كذلك يضرب الله الحق والباطل، الممثل به الماء والزبد.

وكثيراً ما ضرب الله الأمثال في القرآن. . . ﴿**للذين استجابوا لربهم الحسنى**﴾: للذين آمنوا بالله واستجابوا لدعوته بما تضمنه المثل السابق وغيره. والحسنى: المثوبة الحسنى، وهي الجنة. . . ﴿**والذين لم يستجيبوا له**﴾: مقابل الذين استجابوا لربهم. . . ﴿**لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به**﴾: جملة شرطية مصدرة بلو الامتناعية، وذلك لما يلاقونه من هول المطلع في قوله: ﴿**أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد**﴾.

مبحث الإعراب

﴿**ألمر**﴾ حروف مسرودة لا محل لها من الإعراب. ﴿**تلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**آياتُ**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**الكتاب**﴾ مضاف إلى آيات. ﴿**والذي**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أنزل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر يعود على الذي. ﴿**إليك من ربّك**﴾ متعلقان بأنزل، وجملة أنزل صلة الذي. ﴿**الحقُّ**﴾ خبر المبتدإ، وجملة والذي أنزل إليك من ربّك الحق معطوفة على ما قبلها. ﴿**ولكنّ أكثر**﴾ لكنّ واسمها، والواو للعطف. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى أكثر. ﴿**لا يؤمنون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي، وجملة لا يؤمنون في محل رفع خبر لكنّ. ﴿**اللهُ**﴾ مبتدأ. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع خبره.

﴿**رفع**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير مستتر يعود على الله، والجملة صلة الذي. ﴿**السماوات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**بغير**﴾ متعلق برفع. ﴿**عمد**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**ترونها**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب، ويمكن أن تكون في محل نصب على الحال من السماوات، وأن تكون في محل جر نعت لعمد. ﴿**ثم استوى**﴾ فعل ماض دخل عليه حرف العطف، والفاعل ضمير مستتر يعود على الله. ﴿**على العرش**﴾ متعلق باستوى. ﴿**وسخّر**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**الشمس**﴾ مفعول به. ﴿**والقمر**﴾ معطوف عليه. ﴿**كلٌّ**﴾ مبتدأ.

﴿**يجري**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير مستتر يعود على كل، وجملة يجري في محل رفع خبر المبتدإ، والجملة بيانية. ﴿**لأجل**﴾ متعلق بيجري. ﴿**مسمّى**﴾ نعت لأجل مجرور بكسرة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين. ﴿**يدبّر**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير مستتر يعود على الله. ﴿**الأمر**﴾ مفعول به. ﴿**يفصل الآيات**﴾ إعرابها مثل ما قبلها. ﴿**لعلّكم**﴾ لعلّ واسمها. ﴿**بلقاء**﴾ متعلق بالفعل بعده. ﴿**ربّكم**﴾ مضاف إلى لقاء. ﴿**توقنون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لعل. ﴿**وهو**﴾ في محل رفع مبتدأ، والواو للعطف. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**مدَّ**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير مستتر يعود على الموصول.

﴿**الأرض**﴾ مفعول به، والجملة صلة الذي. ﴿**وجعل**﴾ معطوف على مدّ. ﴿**فيها**﴾ متعلق بجعل. ﴿**رواسي**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**وأنهاراً**﴾ معطوف

على رواسي. ﴿**ومن كل**﴾ متعلق بجعل. ﴿**جعل فيها زوجين**﴾ مثل جعل فيها رواسي. ﴿**اثنين**﴾ نعت لزوجين منصوب بالياء. ﴿**يُغشي الليل**﴾ إعرابها مثل يدبر الأمر. ﴿**النهار**﴾ مفعول ثان ليغشي. ﴿**إنّ في ذلك**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ مقدم. ﴿**لآيات**﴾ اسم إنّ مؤخر منصوب بالكسرة، واللام لتأكيد الخبر. ﴿**لقوم**﴾ متعلق بآيات. ﴿**يتفكرون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر نعت لقوم. ﴿**وفي الأرض**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**قطع**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**متجاورات**﴾ نعت لقطع.

﴿**وجنات**﴾ معطوف على قطع. ﴿**من أعناب**﴾ متعلق بمحذوف نعت لجنات. ﴿**وزرع ونخيل**﴾ معطوفان على أعناب. ﴿**صنوان**﴾ نعت لنخيل. ﴿**وغير**﴾ معطوف على صنوان. ﴿**صنوان**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**تُسقى**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر يعود على جنات. ﴿**بماء**﴾ متعلق بتسقى. ﴿**واحد**﴾ نعت لماء. ﴿**ونفضل**﴾ معطوف على تسقى. ﴿**بعضها**﴾ مفعول نفضل. ﴿**على بعض**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾ إعرابها مثل إعراب ما سبقها من قوله: إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. ﴿**وإن تعجب**﴾ فعل مضارع مجزوم بإن الشرطية، والفاعل ضمير المخاطب (أنت). ﴿**فعجب**﴾ خبر مقدم. ﴿**قولهم**﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة جواب الشرط، وهو إن تعجب. ﴿**أإذا**﴾ الهمزة للاستفهام، والظرف متعلق بفعل مقدر، والتقدير: أنبعث إذا.

﴿**كنّا تراباً**﴾ كان واسمها وخبرها في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لفي خلق**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. جديد نعت لخلق، والجملة تعجبية إنكارية. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**كفروا**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الذين. ﴿**بربّهم**﴾ متعلق بكفروا. ﴿**وأولئك الأغلال**﴾ معطوف على أولئك الذين. ﴿**في أعناقهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر عن الأغلال، وجملة الأغلال في أعناقهم خبر أولئك. ﴿**وأولئك أصحاب**﴾ معطوف كذلك. ﴿**النار**﴾ مضاف إلى أصحاب .﴿**هم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**فيها**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**خالدون**﴾ خبر المبتدإ، والجملة بيان لأصحاب. ﴿**ويستعجلونك**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**بالسيئة قبل**﴾ متعلقان بيستعجلونك.

﴿**الحسنة**﴾ مضاف إلى قبل، والجملة معطوفة على جملة وإن تعجب. ﴿**وقد**

﴿**خلت**﴾ فعل ماض دخل عليه حرف التحقيق وواو الحال. ﴿**من قبلهم**﴾ متعلق بخلت. ﴿**المثلاتُ**﴾ فاعل، والجملة حال من واو الجماعة. ﴿**وإنّ ربّك**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لذو**﴾ خبرها مرفوع بالواو، واللام لتوكيد الخبر، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿**مغفرة**﴾ مضاف إلى ذو. ﴿**للناس على ظلمهم**﴾ متعلقان بمحذوف نعت لمغفرة. ﴿**وإنّ ربّك لشديد العقاب**﴾ معطوف على إنّ ربّك لذو مغفرة. ﴿**ويقول الذين**﴾ فعل وفاعل. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين. ﴿**لولا**﴾ حرف تحضيض بمعنى هلاّ. ﴿**أُنزل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**عليه**﴾ متعلق بأُنزل. ﴿**آية**﴾ نائب الفاعل. ﴿**من ربّه**﴾ متعلق بمحذوف نعت لآية.

﴿**إنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**أنت**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**منذر**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**ولكل**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**قوم**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**هاد**﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، والجملة معطوفة على قوله: إنّما أنت منذر. ﴿**الله**﴾ مبتدأ. ﴿**يعلم**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير مستتر يعود على الله، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول يعلم. ﴿**تحمل**﴾ كل فعل وفاعل. ﴿**أنثى**﴾ مضاف إلى كل مجرور بكسرة مقدرة على الألف، وجملة تحمل كل أنثى صلة ما. ﴿**وما تغيض الأرحام**﴾ معطوف على ما تحمل كل أنثى. ﴿**وما تزداد**﴾ معطوف على ما تغيض الأرحام. ﴿**وكل**﴾ مبتدأ. ﴿**شيء**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**عنده**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**بمقدار**﴾ متعلق بمحذوف حال من كل شيء عنده.

﴿**عالم**﴾ خبر لمبتدإ محذوف، أي: هو عالم. ﴿**الغيب**﴾ مضاف إلى عالم. ﴿**والشهادة**﴾ معطوف على الغيب. ﴿**الكبير**﴾ مثل عالم. ﴿**المتعال**﴾ كذلك. ﴿**سواء**﴾ خبر مقدم. ﴿**منكم**﴾ متعلق بمحذوف حال. ﴿**مَنْ**﴾ في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿**أسرَّ**﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على مَنْ، وجملة أسرَّ صلة مَنْ. ﴿**القول مفعول به.** ﴿**ومن جهر به**﴾ معطوف على من أسر القول. ﴿**ومن**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**هو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**مستخف**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، وجملة وهو مستخف صلة مَنْ. ﴿**بالليل**﴾ متعلق بمستخف.

﴿**وسارب**﴾ معطوف على مستخف. ﴿**بالنهار**﴾ متعلق بسارب. ﴿**له**﴾ متعلق

بمحذوف خبر مقدم. ﴿**معقبات**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**من بين**﴾ متعلق بمحذوف نعت لمعقبات. ﴿**يديه**﴾ مضاف إلى بين مجرور بالياء. ﴿**ومن خلفه**﴾ معطوف على من بين يديه. ﴿**يحفظونه**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة نعت ثان لمعقبات. ﴿**من أمر متعلق بمحذوف نعت لمعقبات،** ﴿**أو**﴾ متعلق بيحفظونه. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى أمر. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا يغيّر**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفي، والفاعل ضمير يعود على الله، وجملة لا يغيّر خبر إنّ. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول يغير. ﴿**بقوم**﴾ متعلق بجملة صلة ما. ﴿**حتى**﴾ غائية بمعنى إلى.

﴿**يغيروا**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، وواو الجماعة فاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحتى. ﴿**ما بأنفسهم**﴾ إعرابها مثل إعراب ما تقدم. ﴿**وإذا أراد الله**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه أداة الشرط وواو العطف. ﴿**بقوم**﴾ متعلق بأراد. ﴿**سوءً**﴾ مفعول به. ﴿**فلا مردّ**﴾ اسم لا مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**له**﴾ متعلق بمحذوف خبر لا، والجملة جواب الشرط، والفاء رابطة للجواب. ﴿**وما لهم من دونه**﴾ متعلقان بمحذوف خبر مقدم، وما نافية، والواو للعطف. ﴿**من والٍ**﴾ مبتدأ مؤخر دخلت عليه من الزائدة فجرت لفظه ومحله الرفع، وهو مجرور بكسرة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين مثل هادٍ.

﴿**هو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**يريكم**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، وضمير المخاطبين مفعول أول. ﴿**البرق**﴾ مفعول ثان. ﴿**خوفاً**﴾ مفعول لأجله منصوب بالفتحة. ﴿**وطمعاً**﴾ معطوف عليه. ﴿**وينشئُ**﴾ معطوف على يريكم. ﴿**السحاب**﴾ مفعول به. ﴿**الثقال**﴾ نعت للسحاب. ﴿**ويسبح الرعد**﴾ فعل وفاعل معطوف على ما قبله. ﴿**بحمده**﴾ متعلق بيسبح. ﴿**والملائكة**﴾ معطوف على الرعد. ﴿**من خيفته**﴾ متعلق بيسبح. ﴿**ويرسل**﴾ معطوف على يريكم. ﴿**الصواعق**﴾ مفعول به. ﴿**فيصيب**﴾ مرتب على يرسل. ﴿**به**﴾ متعلق بيصيب. ﴿**مَن**﴾ في محل نصب مفعول يصيب. ﴿**يشاء**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة من. ﴿**وهم**﴾ في محل رفع مبتدأ.

﴿**يجادلون**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**في الله**﴾ متعلق بيجادلون،

وجملة وهم يجادلون في الله عطف على ما قبلها. ﴿**وهو شديد**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر في محل نصب حال من الله. ﴿**له**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**دعوةُ**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**الحق**﴾ مضاف إلى دعوة. ﴿**والذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**يدعون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**من دونه**﴾ متعلق بيدعون. ﴿**لا يستجيبون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**لهم بشيء**﴾ متعلقان بالفعل. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**كباسط**﴾ متعلق بنعت لمصدر مقدر، والتقدير: لا يستجيبون لهم استجابة في أي حال من الأحوال إلاّ في حال استجابة مماثلة لباسط. ﴿**كفيه**﴾ مضاف إلى باسط. ﴿**إلى الماء**﴾ متعلق بباسط.

﴿**ليبلغ**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل ضمير يعود على الماء. ﴿**فاه**﴾ مفعول يبلغ منصوب بالألف، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام العلة متعلق بباسط. ﴿**وما هو**﴾ في محل رفع اسم ما، والواو للعطف. ﴿**ببالغه**﴾ خبر ما دخل عليه حرف الجر الزائد؛ جر لفظه ومحله النصب خبر ما العاملة عمل ليس. ﴿**وما دعاء**﴾ مبتدأ دخل عليه حرف النفي واو العطف. ﴿**الكافرين**﴾ مضاف إلى دعاء. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**في ضلال**﴾ متعلق بمحذوف بدل من الخبر المقدر، والتقدير: وما دعاء الكافرين كائن في شيء إلاّ في ضلال. ﴿**ولله**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**يسجد**﴾ من فعل وفاعل.

﴿**في السماوات**﴾ متعلق بجملة فعلية صلة مَنْ. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات. ﴿**طوعاً**﴾ منصوب على الحال مِنْ مَنْ. ﴿**وكرهاً**﴾ معطوف عليه. ﴿**وظلالُهم**﴾ معطوف على من في السماوات والأرض. ﴿**بالغدو**﴾ متعلق بيسجد. ﴿**والآصال**﴾ معطوف على الغدو. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**مَن**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**ربُّ**﴾ خبره. ﴿**السماوات**﴾ مضاف إلى رب. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**اللهُ**﴾ مبتدأ، وخبره مقدر معلوم من السؤال، أي: الله رب السماوات والأرض. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**أفاتخذتم**﴾ فعل وفاعل دخل عليه فاء التفريع وهمزة الاستفهام. ﴿**من دونه**﴾ متعلق باتخذتم. ﴿**أولياء**﴾ مفعول به.

﴿**لا يملكون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي. ﴿**لأنفسهم**﴾ متعلق بيملكون. ﴿**نفعاً**﴾ مفعول به. ﴿**ولا ضراً**﴾ معطوف عليه، والجملة نعت لأولياء.

﴿قل﴾ فعل أمر. **﴿هل يستوي الأعمى﴾** فعل وفاعل دخل عليه حرف الاستفهام. **﴿والبصير﴾** معطوف على الأعمى. **﴿أم هل تستوي الظلمات﴾** معطوف على هل يستوي الأعمى. **﴿والنور﴾** معطوف على الظلمات. **﴿أم جعلوا﴾** فعل وفاعل دخل عليه حرف العطف الانتقالي. **﴿لله﴾** متعلق بجعلوا. **﴿شركاء﴾** مفعول به. **﴿خلقوا﴾** فعل وفاعل، والجملة في محل نصب نعت لشركاء. **﴿كخلقه﴾** الكاف في محل نصب نعت لمفعول مطلق، أي: خلقوا خلقاً مثل خلقه. **﴿فتشابه الخلق﴾** فعل وفاعل مرتب على خلقوا. **﴿عليهم﴾** متعلق بتشابه. **﴿قل﴾** فعل أمر. **﴿الله﴾** مبتدأ.

﴿خالق﴾ خبره. **﴿كل﴾** مضاف إلى خالق. **﴿شيء﴾** مضاف إلى كل. **﴿وهو الواحد﴾** الجملة من المبتدإ والخبر معطوفة على الله خالق. **﴿القهار﴾** خبر ثان. **﴿أنزل﴾** فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله. **﴿من السماء﴾** متعلق بأنزل. **﴿ماء﴾** مفعول به. **﴿فسالت أودية﴾** فعل وفاعل، والفاء للترتيب. **﴿بقدرها﴾** متعلق بسالت. **﴿فاحتمل السيل﴾** فعل وفاعل مرتب على سالت. **﴿زبداً﴾** مفعول به. **﴿رابياً﴾** نعت له. **﴿ومما﴾** متعلق بمحذوف خبر مقدم. **﴿توقدون﴾** فعل وفاعل، والجملة صلة ما. **﴿عليه في النار﴾** متعلقان بتوقدون. **﴿ابتغاء﴾** مفعول لأجله. **﴿حلية﴾** مضاف إلى ابتغاء. **﴿أو متاع﴾** معطوف على حلية.

﴿زبد﴾ مبتدأ مؤخر. **﴿مثلُه﴾** نعت لزبد. **﴿كذلك﴾** اسم الإشارة في محل جر بالكاف، والكاف بمعنى مثل في محل نصب نعت لمصدر مقدر، والتقدير: يضرب الله ضرباً مثل ذلك الضرب. **﴿يضرب الله الحق﴾** فعل وفاعل ومفعول. **﴿والباطل﴾** معطوف على الحق. **﴿فأمّا الزبد﴾** مبتدأ دخلت عليه أمّا التفصيلية وفاء التفريع. **﴿فيذهب﴾** فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الزبد، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ. **﴿جفاء﴾** حال من الزبد. **﴿وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾** معطوف على فأمّا الزبد فيذهب جفاء. **﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾** إعراب هذه الجملة مثل إعراب جملة كذلك يضرب الله الحق. **﴿للذين﴾** متعلق بمحذوف خبر مقدم.

﴿استجابوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الذين. **﴿لربهم﴾** متعلق باستجابوا. **﴿الحسنى﴾** مبتدأ مؤخر، أي: الحسنى كائنة لهؤلاء. **﴿والذين﴾** في محل رفع

مبتدأ. ﴿**لم يستجيبوا**﴾ الجملة صلة الذين. ﴿**له**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**لو**﴾ حرف امتناع لامتناع. ﴿**أنّ لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر أنّ مقدم. ﴿**ما في**﴾ محل نصب اسم أنّ مؤخر. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بجملة فعلية صلة ما. ﴿**جميعاً**﴾ حال من ما. ﴿**ومثله**﴾ معطوف على اسم أنّ. ﴿**معه**﴾ متعلق بمحذوف نعت لمثل. ﴿**لافتدوا**﴾ فعل وفاعل جواب لو الشرطية. ﴿**به**﴾ متعلق بافتدوا، وجملة لو أنّ لهم ما في الأرض خبر المبتدإ. ﴿**أولئك**﴾ مبتدأ أول. لهم متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**سوء**﴾ مبتدأ ثان مؤخر عن خبره. ﴿**الحساب**﴾ مضاف إلى سوء، وجملة لهم سوء الحساب خبر المبتدإ الأول أولئك. ﴿**ومأواهم**﴾ مبتدأ. ﴿**جهنم**﴾ خبره، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿**وبئس المهاد**﴾ فعل وفاعل، وهو معطوف على مأواهم جهنم، وهي جملة تذييلية يقصد بها الذم.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ألمر. تلك آياتُ الكتاب**﴾: ابتدئت هذه السورة بحروف أربعة من حروف الهجاء العربى: أ. ل. م. ر. فهي تناسب ما قبلها من سورة يوسف وهود ويونس والأعراف وآل عمران والبقرة، وقد تكلمت في سورة البقرة على حكمة هذه الحروف في ابتداء بعض السور، وبينت أنّ الغرض منها تحدي العرب في معارضة القرآن حيث جاء مكتوباً بحروفهم مقروءاً بألسنتهم، فعجزوا عن معارضته بأقصر سورة منه. وسميت هذه السورة بسورة الرعد لذكر الرعد فيها من جملة من يسبح بحمد الله تعالى ويخضع لتصرفه وتدبيره مثل بقية المخلوقات في الكون العلوي والسفلي. وآيات هذه السورة أربع وأربعون آية. ومناسبتها لآخر سورة يوسف تفصيل ما جاء في قوله: «وكأيّن من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون»؛ فهي موجهة للعرب الذين نزل القرآن بلسانهم، وكتب بحروفهم، ومع ذلك فهم أكفر الناس به وبدلائله المعجزة المؤثرة في القلوب وفي العقول!.

تلك آيات الكتاب: فالإشارة هنا تشير إلى ما في القرآن من دلائل وفوائد وعبر ومواعظ... ﴿**والذي أنزل إليك من ربّك الحق ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون**﴾: ومع هذه الدلائل الواضحة والحكم الصالحة لأهل العقول الراجحة غفل عنها كثير من الناس وفي مقدمتهم العرب الذين عرفوا صدق محمد ﷺ، وعرفوا ما يحتويه هذا الكتاب من علم وحكم، ولكنّهم جحدوه تكبراً وعناداً وحسداً من

عند أنفسهم، فهم أول من تعدى وظلم! ..﴿**الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها**﴾: استئناف ابتدائي، هو ابتداء المقصود من السورة، وما قبله بمنزلة الديباجة من الخطبة؛ ولذا نجد الكلام في هذا الغرض قد طال واطّرد.

ومناسبة هذا الكلام المستأنف لقوله: ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون؛ لأنّ أصل كفرهم بالقرآن ناشئ عن تمسكهم بالكفر وعن تطبعهم بالاستنكار والإعراض عن دعوة الحق. ومن الغريب أنّ العرب اليوم هم العرب في أيام نزول القرآن أكثر الناس كفراً به وإعراضاً عنه، وأبعد ما يكونون عن حِكَمِه وإرشاداته وتوجيهاته، وأكثر الناس إلحاداً فيه وجهلاً به؛ فتمسكوا بأوهام البشر، وتنكروا لمنهج الله الذي رفع السماوات، وخلق كل ما ظهر واستتر... ﴿**ثم استوى على العرش**﴾: فمخلوقات الله أكبر ممّا يتصور الإنسان أو يتخيل، وأعظم مما في السماوات والأرض من ثابت ومتغير؛ فالعرش وما يحتويه من مخلوقات، وعالَم الآخرة وما فيه من خيرات وجنات وأهوال ونيران أعدت للمشركين والمشركات، وعالم الملائكة وما لهم من الأوصاف والأنواع ووظائف العبادات، «وما يعلم جنود ربّك إلاّ هو» «يزيد في الخلق ما يشاء إنّ الله على كل شيء قدير»، «والسماء بنيناها بأيد وإنّا لموسعون»... ﴿**وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى**﴾: موصول بالعطف على ما قبله.

وتسخير الشمس والقمر أوضح دليل مشاهد لجميع الناس على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته ووحدة ألوهيته وربوبيته. وقوله: يجري لأجل مسمى بيان لكيفية التسخير. واللام في قوله: لأجل لام العلة. والأجل: هو المدة التي قدرها الله لدوام سيرها، وهي مدة بقاء النظام الشمسي الذي إذا اختل انتشرت الكواكب وانخرم نظام هذا العالم وقامت القيامة، «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار». والمسمى: أصله المعروف باسمه، وهو هنا كناية عن المعين المحدد؛ إذ التسمية تستلزم التعيين والتمييز عن الاختلاط... ﴿**يدبر الأمر يفصل الآيات**﴾: جملة يدبر الأمر حال من اسم الله، وهو توكيد لقوله: رفع، واستوى، وسخر. وجملة: يفصل الآيات حال ثانية تُرك عطفُها على التي قبلها؛ لتكون على أسلوب التعداد والتوقيف، وذلك اهتمام باستقلالها. ووجه الجمع بينهما هنا أنّ تدبير الأمر يشمل تقدير الخلق الأول والثاني، فهو إشارة إلى التصرف بالتكوين للعقول والعوالم.

وتفصيل الآيات مشير إلى التصرف بإقامة الأدلة والبراهين ـ الأدلة النقلية والبراهين العقلية ـ، وشأن مجموع الأمرين أن يفيد اهتداء الناس إلى اليقين بأنّ بعد هذه الحياة حياة أخرى؛ لأنّ النظر بالعقل في المصنوعات وتدبيرها يهدي إلى ذلك. وهذا الأسلوب من إدماج غرض في أثناء غرض آخر؛ لأنّ الكلام جار على إثبات الوحدانية، وفي أدلة الوحدانية دلالة على البعث... ﴿**لعلكم بلقاء ربّكم توقنون**﴾: وصيغ يدبر ويفصل بالمضارع عكس قوله: ﴿**رفع السماوات وسخر الشمس والقمر**﴾؛ لأنّ التدبير والتفصيل متجدد متكرر بتجدد تعلقِ القدرة بالمقدورات، وأما رفع السماوات وتسخير الشمس والقمر فقد تمّ واستقر دفعة واحدة... ﴿**وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين**﴾: وصلت هذه الجمل بالجمل التي قبلها بالعطف؛ لما بينهما من شبه التضاد؛ فالجمل الأولى اشتملت على ذكر العوالم العلوية وأحوالها، والجمل الثانية اشتملت على ذكر العوالم السفلية وأنواعها وأحوالها، والمعنى أنّ الله خالق جميع العوالم وأعراضها، وفي جعل الله الأرض على هذه الكيفية آية ومنة للعباد ليهتدوا بدلائلها إلى شكر خالقها.

وتعددت أدلة الأرض هنا من مدّ الأرض ورسوّ الجبال وجري الأنهار وكثرة الثمرات ...الخ؛ لأنّها موقعُ منّة مع العبرة، ولتمكن الإنسان من مشاهدتها ومزاولة ما عليها بالسير والزرع والغرس والنفع بما فيها من معادن وثمار، وراحة وتعب إلى غير ذلك من منافع الأرض وما فيها من خصب وجدب وسهل وصعب وعامر وخرب، وحيوان على مختلف الأنواع والأجناس ونبات مختلف الألوان والثمار والطعوم لا يحصرها عدّ ولا تدخل تحت القياس... ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين: ومع هذه الكثرة التي لا يستطيع حصرها الإنسان، فهي عند الله محصورة في زوجين اثنين، فيتساوى في هذا النبات والحيوان، وهو ما يوضحه قوله تعالى في سورة يس: «سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون»، وهو غير النبات والحيوان، كما في سورة الذريات: «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون»... ﴿**يغشي الليل النهار**﴾: هذا استدلال بأعراض أحوال الأرض، وذكْرُه مع آيات العالم السفلي في غاية الدقة العلمية؛ لأنّ الليل والنهار من أعراض الكرة الأرضية، وفي التعبير بهذا الأسلوب غاية في الدقة البلاغية؛ ففي العبارة استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه

إزالة نور الجو بالظلمة بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية. . . ﴿**إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾: حكمةُ ما تقدم من مدّ الأرض وما فيها من جبال وأنهار ونبات وثمار تظهر واضحة لأهل البصائر والأفكار، ففي هذه كلها علامات ودلالات لا تخفى إلاّ على من طمس الله فكره وأعمى بصيرته، فلم ينتفع بهذه الآثار.

وجعل الأشياء المذكورات ظروفاً لآيات؛ لأنّ كل واحدة من الأمور المذكورة تتضمن آيات عظيمة يجلوها النظر الصحيح والتفكير المجرد عن الأوهام، فلذلك أجرى صفة التفكير على لفظ قوم؛ إشارة إلى أنّ التفكير المتكرر المتجدد هو صفة راسخة فيهم، بحيث جعلت من مقومات قوميتهم. وفي هذا إيماء إلى أنّ الذين نسبوا أنفسهم إلى التفكير من الطبائعيين، فعلّلوا صدور الموجودات من المادة ونفوا الفاعل المختار ما فكروا إلاّ تفكيراً قاصراً مخلوطاً بالأوهام، ليس مما تقتضيه جبلة العقل؛ إذ اشتبهت عليهم العلل والمواليد بأصل الخلق والإيجاد.

وجيء في التفكير بالصيغة الدالة على التكلف وبصيغة المضارع للإشارة إلى تفكير شديد ومكرر. . . ﴿**وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾: لله بلاغة القرآن في تغيير الأسلوب عند الانتقال إلى ذكر النعم الدالة على قدرة الله تعالى فيما ألهم الناس من العمل في الأرض بفلحها وزرعها وغرسها والقيام عليها، فجاء ذلك معطوفا على الأشياء التي أسند جعلها إلى الله تعالى، ولكنه لم يسند إلى الله حتى بلغ إلى قوله: ونفضل بعضها على بعض في الأكل؛ لأنّ ذلك بأسرار أودعها الله تعالى فيها هي موجب تفاضلها. وأمثال هذه العبر، ولفت النظر مما انفرد به القرآن، فلم يعرف مثله في كلام البشر!. وأعيد اسم الأرض الظاهر دون ضميرها الذي هو المقتضى؛ ليستقل الكلام ويتجدد الأسلوب.

والقطع: جمع قطعة، وهي الجزء من الشيء، تشبيهاً لها بما يقتطع. وليس وصف القطع بمتجاورات مقصوداً بالذات في هذا المقام؛ إذ ليس هو محل العبرة بالآيات، بل المقصود وصف محذوف دل عليه السياق، تقديره: مختلفات الألوان والمنابت، وإنّما وصفت بمتجاورات لأنّ اختلاف الألوان والمنابت مع التجاور أشد دلالة على القدرة العظيمة. وخص النخل بذكر صفة صنوان؛ لأنّ العبرة بها

أقوى. وقوله: تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل بيان لقدرة الخالق المختار، وفيه منّة على الناس بتنوع الثمار وطعومها واختلاف أنواعها، مع كون الأصل واحدا والغذاء بالماء واحدا، وما ذاك إلاّ لكون هناك قوة خفية أودعها الله فيها، فجاءت آثارها مختلفة، ومن ثم جاءت جملة: إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون مجيءَ التذييل!.

ووصفت الآيات بأنّها من اختصاص الذين يعقلون تعريضاً بأنّ من لم تقنعهم تلك الآيات مُنَزَّلُون منزِلَة مَن لا يعقل. وزيد في الدلالة على أنّ العقل سجية للذين انتفعوا بتلك الآيات بإجراء وصف العقل على كلمة قوم إيماء إلى أنّ العقل من مقومات قوميتهم، كما بيّن في الآية قبلها. . . ﴿**وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً إنّا لفي خلق جديد**﴾؟: وصلت الآية بالعطف على قوله: الله الذي رفع السماوات إلى آخر الآيات؛ فلما قضى حق الاستدلال على الوحدانية نقل الكلام إلى الرد على منكري البعث، وهو غرض مستقل مقصود من هذه السورة. وقد أدمج ابتداء خلال الاستدلال بقوله: لعلكم بلقاء ربكم توقنون تمهيداً لما هُنا، ثم نقل الكلام إليه باستقلاله بمناسبة التذييل على عظيم القدرة مستخرجاً من الأدلة السابقة عليه في مواضع أخرى، فصيغ الاستدلال هنا بصيغة التعجيب من إنكار منكري البعث؛ لأنّ الأدلة لم تُبْق عُذْراً لهم في ذلك، فصار في إنكارهم محل عجب المتعجب!.

والإشارة بقوله. . . أولئك الذين كفروا بربهم: للتنبيه على أنّهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة من الخبر لأجل ما سبق اسم الإشارة من قولهم: أئذا كنا تراباً إنّا لفي خلق جديد، بعد أن رأوا دلائل الخلق الأول، فحق عليهم بقولهم هذا حكمان: أنّهم كفروا بربهم، واستحقاقهم العذاب. . . ﴿**أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾: وإعادة اسم الإشارة ثلاث مرات للتهويل. وجملة: هم فيها خالدون بيان لجملة أصحاب النار. . . ﴿**ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات**﴾: وصلت هذه الجملة بالعطف على جملة وإن تعجب. ؛ لأنّ كلتا الجملتين حكاية لغريب أحوالهم في المكابرة والعناد والاستخفاف بالوعيد؛ فابتدأ بذكر تكذيبهم بوعيد الآخرة لإنكارهم البعث، ثم عطف عليه تكذيبهم بوعيد الدنيا

لتكذيبهم الرسول، وفي الاستخفاف بوعيد نزول العذاب، وعِدّهِم إيّاه مستحيلاً في حال أنّهم شاهدوا آثار العذاب النازل بالأمم قبلهم.

وما ذلك إلاّ لذهولهم عن قدرة الله تعالى، فهم يستعجلون بنزوله بهم استخفافاً واستهزاء؛ كقولهم: «فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»، وقولهم: «أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً»، فهذه الآية نزلت حكاية لبعض أحوال سؤالهم الظانين أنّه تعجيز، والدالين به على التهكم بالعذاب. وجملة: وقد خلت من قبلهم المثلات في موضع الحال، وهو محل زيادة التعجيب؛ لأنّ ذلك قد يعذرون فيه لو كانوا لم يروا آثار الأمم المعذبة مثل عاد وثمود والذين من بعدهم. وجملة... **﴿وإنّ ربّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾**: عطف على جملة وقد خلت من قبلهم المثلات، وهذا كشف لغرورهم بتأخير العذاب عنهم؛ لأنّهم لما استهزأوا بالنبيء ﷺ وتعرضوا لسؤال حلول العذاب بهم ورأوا أنّه لم يعجل لهم حلوله اعترتهم ضراوة بالتكذيب وحسبوا تأخير العذاب عجزاً عن المتوعد، وكذبوا النبيء وهم يجهلون أنّ الله حليم يمهل عباده لعلهم يرجعون.

وعلى في قوله: على ظلمهم بمعنى مع، وفائدة هذه العلاوة إظهار شدة رحمة الله بعباده في الدنيا، كما قال: «ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى». وجملة... **﴿وإنّ ربّك لشديد العقاب﴾**: احتراس؛ لئلا يحسبوا أنّ المغفرة المذكورة مغفرة دائمة تعريضاً بأنّ العقاب حال بهم من بعدُ... **﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربّه إنّما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾**: وصلت هذه الآية بالعطف على آية ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة. وهذه حالة من أعجوباتهم، وهي عدم اعتدادهم بالآيات التي تأيد بها محمد ﷺ، وأعظمها آيات القرآن؛ فلا يزالون يسألون آية كما يقترحونها، فله اتصال بجملة: ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.

والذين كفروا هم عين أصحاب ضمير يستعجلونك، وإنّما عدل عن ضميرهم إلى اسم الموصول لزيادة تسجيل الكفر عليهم، ولِما يومئ إليه الموصول من تعليل صدور قولهم ذلك، وصيغة المضارع تدل على تجدد ذلك وتكرره. ولولا حرف تحضيض، يموهون بالتحضيض أنّهم حريصون وراغبون في نزول آية غير

القرآن ليؤمنوا، وهم كاذبون في ذلك؛ إذ لو أوتوا آية كما يقترحون لكفروا بها. وقد رد الله اقتراحهم من أصله بقوله: إنّما أنت منذر؛ فقصر النبيء على صفة الإنذار، وهو قصر إضافي، فبهذا يظهر وجه قصره على الإنذار دون البشارة؛ لأنّه قصر إضافي بالنسبة لأحواله نحو المشركين.

وجملة: ولكل قوم هاد تذييل بالأعم، أي: إنّما أنت منذر لهؤلاء لهدايتهم، ولكل قوْمٍ هَادٍ أرسله الله ينذرهم لعلهم يهتدون، فما كنت بدعاً من الرسل، وما كان للرسل من قبلك آيات على مقترح أقوامهم، بل كانت آياتهم بحسب ما أراد الله أن يظهره على أيديهم. على أنّ معجزات الرسل تأتي على حسب ما يلائم حال المرسل إليهم. ولما كان الذين ظهرت بينهم دعوة محمد عرباً أهل فصاحة وبلاغة جعل الله معجزته العظمى القرآن بلسان عربي مبين. وإلى هذا المعنى يشير قول النبيء ﷺ ـ في الحديث الصحيح: «مَا مِنَ الأنبئاءِ نَبِيءٌ إلاَّ أُوتِي مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُه آمَنَ عليه البشرُ، وإنّما كان الذي أُوتِيتُ وحْياً أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكُونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القِيامة».

وبهذا العموم الحاصل بالتذييل والشامل للرسول صار المعنى إنّما أنت منذر لقومك هادٍ إيّاهم إلى الحق؛ فإنّ الإنذار والهدى متلازمان، فما من إنذار إلاّ وهو هداية وما من هداية إلاّ وفيها إنذار. والهداية أعم من الإنذار، ففي هذا احتباك بديع. . . ﴿**الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد**﴾: انتقال إلى الاستدلال على تفرد الله تعالى بالإلهية، فهو متصل من حيث المعنى بجملة: الله الذي رفع السماوات. . . الخ. وهذه الجملة استئناف ابتدائي فإنه لما قامت البراهين العديدة بالآيات السابقة على وحدانية الله تعالى بالخلق والتدبير، وعلى عظيم قدرته التي أودع بها في المخلوقات دقائق الخِلقة انتقل الكلام إلى إثبات العلم له تعالى علماً عاماً بدقائق الأشياء وعظائمها؛ ولذلك جاء افتتاحه على الأسلوب الذي افتتح به الغرض السابق بأن ابتدئ باسم الله كما ابتدئ به هنالك في قوله: الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها.

وجعلت هذه الجملة في هذا الموضع لأنّ لها مناسبة بقولهم: لولا أنزل عليه آية من ربه، فإنّ ما ذكر فيها من علم الله وعظمته صالحٌ لأن يكون دليلاً على أنّه لا يعجزه الإتيانُ بما اقترحوا من الآيات، ولكنّ بعثة الرسول ليس المقصد منها

المنازعات، بل هي دعوة للنظر في الأدلّة، وصِيغَ الْخَبَرُ هنا بصيغة المضارع المفيد للتجدد والتكرير لإفادة أنّ ذلك العلم متكرر متجدد التعلق بمقتضى أحوال المعلومات المتنوعة والمتكاثرة على نحو ما قُرّر في قوله: يدبر الأمر يفصل الآيات، وعبر بالحمل دون الحبل ليشمل كل أنثى من إنسان وغيره.

وجملة... ﴿**وكل شيء عنده بمقدار**﴾: معطوفة على جملة: يعلم ما تحمل كل أنثى، والمعنى هنا: يعلم كل شيء علماً مفصلاً لا شيوع فيه ولا إبهام، فهو من عطف العام على الخاص، فهذه قضية كلية أثبتت عموم علمه تعالى بعد أن وقع إثبات العموم بطريقة التمثيل بعلمه بالجزئيات الخفية في قوله: الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد. وجملة... ﴿**عالم الغيب والشهادة**﴾: تذييل وفذلكة لتعميم العلم بالخفيّات والظواهر، وهما قِسْمَا الموجودات، فالمقصود من الغيب والشهادة تعميم الموجودات؛ كقوله: «فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون»... ﴿**الكبير المتعال**﴾: اسمان من أسماء الله الحسنى كناية عن بلوغ العظمة والتعالي مبلغاً عظيماً لا يتصور كُنْهَهَا الإنسان... ﴿**سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار**﴾: بعدما بيّن الله سبحانه أنّه عالم بجميع أحوال الإنسان في مراتب فطرته ومحيط بعالمي الغيب والشهادة بيّن أنّه تعالى عالم بجميع ما يأتون وما يذرون من الأفعال والأقوال، وأنّه لا فرق بين السر والعلن، فموقع هذه الآية استئناف بياني؛ لأنّ مضمونها بمنزلة النتيجة لعموم علم الله تعالى بالخفيّات والظواهر.

وعدل عن الغيبة المتبعة في الضمائر فيما تقدم إلى الخطاب هنا في قوله: سواء منكم؛ لأنّه تعليم يصلح للمؤمنين والكافرين، وفيها تعريض بالتهديد للمشركين المتآمرين على النبيء ﷺ. وذكر الاستخفاء مع الليل لكونه أشدَّ خفاءً، وذكر السروب مع النهار لكونه أشد ظهوراً، والمعنى: أنّ هذين الصنفين سواء لدى علم الله تعالى... ﴿**له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله**﴾: هذه الجملة بيان وتوضيح لقوله: سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، فالملائكة المعقبات تحفظ على الإنسان أقواله وأفعاله وحركاته بالنهار وسكناته بالليل وتكتب عليه ما هو مكلف به شرعاً من المأمورات والمنهيات، فالحفظ هنا حفظ خاص بأعمال الإنسان التي تدخل تحت التكليف، فهو مثل قوله تعالى في

سورة الانفطار: «وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون»؛ هذه المعقبات للإنسان جاءت بأمر الله... **﴿إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**: الجملة تعليل لما قبلها؛ فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان كاملاً بالفطرة التي زوده الله بها، ثم زاد كماله ببعثة الرسُل من البشر يشرعون له المنهج الصحيح، ومن الملائكة يشهدون له بالخير وعليه بالشر، يحفظون ويكتبون كل ما يعمل، فإن سار عى الفطرة ونَهَج منهج الشريعة سعد في دنياه وأخراه، وإن انحرف عنها شقي في دنياه وأخراه... **﴿وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾**: هذا تصريح بمفهوم الغاية المستفاد من حتى يغيروا ما بأنفسهم تأكيداً للتحذير؛ لأنّ المقام مقام خوف ووجل يقتضي التصريح دون التعريض ولا ما يقرب منه.

وجملة: وما لهم من دونه مِن وال زيادة في التحذير من الغرور؛ لئلا يحسبوا أنّ أصنامهم شفعاؤهم عند الله. وفي هذا إيذان بأنّهم بما باشروه من إنكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية قد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة، واستحقوا بذلك غضب الله وعذابه، فلو بقوا على فطرتهم السابقة وتمسكوا بالشريعة اللاحقة لكان لهم ناصر ووال! ..**﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال﴾**: استئناف ابتدائي على أسلوب تعداد الحجج الواحدة تلوى الأخرى؛ فلأجل أسلوب التعداد إذ كان كالتكرير لم يعطف على جملة سواء منكم، وقد أعرب هذا عن مظهر من مظاهر قدرة الله وعجيب صنعه، وفيه من المناسبة للإنذار بقوله: إنّ الله لا يغير ما بقوم ...الخ أنّه مثال لتصرف الله بالإنعام والانتقام في تصرف واحد مع تذكيرهم بالنعمة التي هم فيها. وكل ذلك مناسب لمقاصد الآيات الماضية في قوله: الله يعلم ما تحمل كل أنثى، وقوله: وكل شيء عنده بمقدار؛ فكانت هذه الجملة جديرة بالاستقلال، وأن يجاء بها مستأنفة لتكون مستقلة في عداد الجمل المستقلة الواردة في غرض السورة.

وجاء هنا بطريق الخطاب على أسلوب قوله: سواء منكم من أسر القول؛ لأنّ الخوف والطمع يصدران من المؤمنين ويهدد بهما الكفرة. وافتتحت الجمل بِهُوَ بدل الله المفتتح به في الجمل السابقة، فجاءت على أسلوب مختلف، فهي من الجمل المفرعة عن أغراض الجمل السابقة، فإنّ جمل فواتح الأغراض افتتحت

بالاسم العلم، كقوله: «الله الذي رفع السماوات»، «الله يعلم ما تحمل كل أنثى»، «إنّ الله لا يغير ما بقوم»، وجمل التفاريع ابتدئت بالضمائر، كقوله: «يدبر الأمر»، «وهو الذي مد الأرض»، «جعل فيها زوجين اثنين»... ﴿**ويسبح الرعد بحمده**﴾: عطف الرعد على ذكر البرق والسحاب؛ لأنّه مقارنهما، وهو مسموع يأتي بعد المرئي عادة.

وإسناد التسبيح إلى الرعد مجاز عقلي... ﴿**والملائكة من خيفته**﴾: عطف على الرعد، والعطف يقتضي المغايرة، ففيه رد على من يقول: إنّ الرعد صوت ملك يزجر السحاب؛ فتسبيح الرعد تكويني، وتسبيح الملائكة تكليفي... ﴿**ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء**﴾: زيادة في التخويف؛ فالصواعق لا طمع فيها، وكان العرب يخافون الصواعق لكثرة صعق الناس بها في الصحراء لعدم وجود المفرغ الكهربي غير الإنسان أو الحيوان. وجملة... ﴿**وهم يجادلون في الله**﴾: في موضع الحال؛ لأنّه من متممات التعجب الذي في قوله: وإن تعجب فعجب قولهم ...الخ، فضمائر الغيبة كلها عائدة إلى الكفار الذين تقدم ذكرهم في صدر السورة بقوله: «ولكن أكثر الناس لا يؤمنون»، «وأولئك الذين كفروا بربّهم»، «ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية»، وقد أعيد الأسلوب هنا إلى ضمائر الغيبة لانقضاء الكلام على ما يصلح لموعظة المؤمنين والكافرين، فتمحّص تخويفُ الكافرين... ﴿**وهو شديد المحال**﴾: جملة حالية من اسم الله.

والمحال بمعنى الكيد، وفعله محل. وجيء به على طريقة المشاكلة، أي: وهو شديد المحال لا يغلبونه. ونظيره: «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين»... ﴿**له دعوة الحق**﴾: استئناف ابتدائي بمنزلة النتيجة، ونهوض المدلل عليه بالآيات السالفة التي هي براهين الانفراد بالخلق الأول ثم الخلق الثاني، وبالقدرة التامة التي لاتدانيها قدرة قدير، وبالعلم العام، فلا جرم أن يكون صاحب تلك الصفات هو المعبود بالحق، وأنّ عبادة غيره ضلال. واللام في له للملك المجازي. وتقديم الجار والمجرور على المبتدإ؛ لإفادة التخصيص، أي: دعوة الحق ملكه لا ملك غيره، وهو قصر إضافي. وقد صرح بمفهوم جملة القصر بجملة... ﴿**والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء**﴾: فكانت بياناً لها، وكان مقتضى الظاهر أن تفصل ولا تعطف، وإنّما عطفت لما فيها من التفصيل

والتمثيل، فكانت زائدة على مقدار البيان، والمقصود بيان عدم استحقاق الأصنام أن يدعوها الداعون.

واسم الموصول صادق على الأصنام، وضمير يدعون للمشركين، ورابط الصلة ضمير نصب محذوف، والتقدير: والذين يدعونهم من دونه لا يستجيبون لهم. وأجرى على الأصنام ضمير العقلاء في قوله: لا يستجيبون مجاراة للاستعمال الشائع في كلام العرب؛ لأنّهم يعاملون الأصنام معاملةَ العاقلين. والاستجابة إجابة نداء المنادي ودعوة الداعي؛ فالسين والتاء لقوة الفعل، والباء في بشيء لتعدية يستجيبون. وتنكير شيء للتحقير، والمراد أقل ما يجاب به من الكلام. والاستثناء في قوله. . . ﴿**إلاّ كباسط كفيه إلى الماء**﴾: من عموم أحوال الداعين والمستجيبين والدعوة والاستجابة؛ لأنه تشبيه هيئة، فهو يسري إلى جميع أجزائها.

فهذا الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده، فيؤول إلى نفي الاستجابة في سائر الأحوال بطريق التلميح والكناية. واللام في قوله. . . ﴿**ليبلغ فاه**﴾: للعلة. وضمير يبلغ عائد إلى الماء، وكذلك ضمير هو. وضمير ببالغه للفم، والكلام تمثيل: شبه حال المشركين في دعائهم الأصنام وجلب نفعهم وعدم استجابة الأصنام لهم بشيء بحال الظمآن يبسط كفيه يبتغي أن يرتفع الماء في كفيه المبسوطتين إلى فمه ليرويه وما هو ببالغ إلى فمه بذلك الطلب، فيذهب سعيه وتعبه باطلاً مع ما فيه من كناية وتلميح. . . وجملة. . . ﴿**وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال**﴾: عطف على جملة: والذين يدعون من دونه؛ لاستيعاب حال المدعو وحال الداعي، فبينت الجملة السابقة حال عجز المدعو عن الإجابة، وأعقبت بالتمثيل على كناية وتمليح، واشتمل ذلك أيضاً بالكناية على خيبة الداعي. وبينت هذه الجملة الثانية حال خيبة الداعي بالتصريح عقب تبيينه بالكناية؛ فاختلاف الغرض والأسلوب حسن العطف.

وبالمآل حصل توكيد الجملة الأولى وتقريرها، وكانت الثانية كالفذلكة لتفصيل الجملة الأولى. وفي في قوله: في ضلال للظرفية المجازية للدلالة على التمكن في الوصف. . . ﴿**ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال**﴾: وصلت الآية بالعطف على قوله: له دعوة الحق، فالمعنى: له

دعوة الحق، وله يسجد من في السماوات والأرض، فأما الدعوة فقد اختص بالحقّة منها دون الباطلة، وأما السجود والخضوع والانقياد فقد اختص الله به على الإطلاق، وعدل عن الضمير إلى اسم الله تعالى تبعاً للأسلوب السابق في افتتاح الأغراض الأصلية. والمقصود من قوله: طوعاً وكرهاً السجود التكليفي الاختياري وهو انقياد المؤمنين لله في العبادة.

والسجود التكويني الاضطراري وهو خضوع وانقياد الكائنات لله في حركاتها وسكناتها، ومما يدل على هذا التوجيه قوله: ﴿**وظلالهم بالغدو والآصال**﴾. والغرض من هذا الاستدلال الرمزي التنبيه لدقائق صنع الله كيف جاء على نظام مطرد، دل بعضه على بعض. وفي كل شيء له آية، تدل على أنّه الواحد. . . ﴿**قل من رب السماوات والأرض؟. قل الله. قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً**﴾: لما نهضت الأدلة الصريحة بمظاهر الموجودات المتنوعة على انفراده بالإلهية من قوله: «الله الذي رفع السماوات بغير عمد»، «وهو الذي مد الأرض»، «الله يعلم ما تحمل كل أنثى»، «هو الذي يريكم البرق»، وما فيها من دلائل رمزية دقيقة، من قوله: «له دعوة الحق»، «ولله يسجد من في السماوات»، لا جرم تهيأ المقام لتقرير المشركين تقريراً لا يجدون معه عن الإقرار مندوحة، ثم لتقريعهم على الإشراك تقريعاً لا يسعهم إلاّ تجرع مرارته.

لذلك استؤنف الكلام وافتتح بالأمر بالقول تنويهاً بوضوح الحجة، ولكون الاستفهام غير حقيقي جاء جوابه من قِبَلِ المستفهِم، وهذا كثير في القرآن، وهو من بديع أساليبه. وإعادة فعل الأمر بالقول في قل أفاتخذتم من دونه أولياء الذي هو تفريع على الإقرار بأنّ الله ربّ السماوات والأرض لقصد الاهتمام بذلك التفريع لما فيه من الحجة الواضحة، فالاستفهام تقريرٌ وتوبيخٌ وتسفيهٌ لرأيهم بناء على الإقرار المسلم، وفيه استدلال آخر على عدم أهلية أصنامهم للإلهية؛ فإنّ اتخاذهم أولياء من دونه معلوم لا يحتاج إلى الاستفهام عنه.

وجملة يملكون صفة لأولياء، والمقصود منها تَنْبِيهُ السامعين للنظر في تلك الصفة؛ فإنّهم إن تدبروا علِمُوها، وعلموا أنّ من كانت تلك صفته فليس بأهل لأن يُعْبَدَ. وعطفُ الضر على النفع استقصاءٌ في عجزهم. . . ﴿**قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور**﴾؟: إعادة الأمر بالقول للاهتمام الخاص

بهذا الكلام؛ لأنّ ما قبله إبطال لاستحقاق آلهتهم العبادة. وهذا إظهار لمزية المؤمنين بالله على أهل الشرك؛ ذلك أنّ قوله: قل من رب السماوات والأرض قل الله تضمن أنّ الرسول دعا إلى إفراد الله بالربوبية، وأنّ المخاطبين أثبتوا الربوبية للأصنام، فكان حالهم وحاله كحال الأعمى والبصير وحال الظلمات والنور.

ونَفْيُ التسْوِيَهْ بين الحالين يتضمن تشبيهاً بالحالين، وهذا من صيغ التشبيه البليغ. وأم للإضراب الانتقالي في التشبيه، فهي لتشبيه آخر. وأظهر حرف هل بعد أم؛ لأنّ فيه إفادة تحقيق الاستفهام. واختير التشبيه في المتقابلات: العمَى والبصرُ والظلمةُ والنورَ لتمام المناسبة... ﴿**أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار**﴾: أم للإضراب الانتقالي في الاستفهام مقابلة قوله: أفاتخذتم من دونه أولياء؛ فالكلام بَعْدَ أمْ استفهامٌ حُذِفت أداتُه لدلالة أم عليها. والتفت عن الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عنهم لما مضى من ذكر ضلالهم.

والاستفهام مستعملٌ في التهكم والتغليظ، فالمعنى: لو جعلوا لله شركاء يخلقون كما خلق الله لكانت لهم شبهة في الاغترار واتخاذهم آلهة. وجملة: قل الله خالق كل شيء فذلكة لما تقدم ونتيجة له، فإنّه لما جاء الاستفهام التوبيخي في أفاتخذتم من دونه أولياء، وفي أم جعلوا لله شركاء خلقوا، كان بحيث ينتج أنّ أولئك الذين اتخذوهم شركاء لله، والذين تبيّن قصورهم عن أن يملكوا لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، وأنهم لا يخلقون كخلق الله إن هم الاّ مخلوقاتٌ لِله، وأن الله خالق كل شئ، وما أولئك الأصنام إلاّ أشياء داخلة في عموم كل شيء، وأن الله هو المتوحد بالخلق... وهو الواحد القهار: وهو القهار لكل شيء دونه، ولتعين موضوع الوحدة ومتعلق القهر حذف متعلقهما، والتقدير: الواحد بالخلق القهار للموجودات... ﴿**أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأمّا الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال**﴾: جملة أنزل من السماء ماء استئناف ابتدائي أفاد تسجيل حرمان المشركين من الانتفاع بدلائل الاهتداء التي من شأنها أن تهدي من لم يطبع الله على قلبه، فاهتدى بها المؤمنون.

وجيء في هذا التسجيل بطريقة ضرب المثل بحالي فريقين في تلقي شيء واحد؛ انتفع فريق بما فيه من منافع، وتعلق فريق بما فيه من مضار. وجيء في ذلك التمثيل بحالة فيها دلالة على بديع تصرف الله تعالى ليحصل التخلص من ذكر دلائل القدرة إلى ذكر عبر الموعظة؛ فالمركب مستعمل في التشبيه التمثيلي بقرينة قوله: كذلك يضرب الله الحق والباطل... الخ. شبه إنزال القرآن الذي به الهدى من السماء بإنزال الماء الذي به النفع من السماء، وشبه ورود القرآن على أسماع الناس بالسيل يمر على مختلف الجهات، فهو يمر على التلال والجبال فلا يستقر فيها ولكنه يمضي إلى الأودية والوهاد فيأخذ منه كل بقدر سعته.

وتلك السيول في حال نزولها تحمل في أعاليها زبداً، وهو رغوة الماء التي تربوا وتطفوا على سطح الماء، فيذهب الزبد غير منتفع به، ويبقى الماء الخالص الصافي ينتفع به الناس للشرب والسقي. ثم شبهت هيئة نزول الآيات وما تحتوي عليه من إيقاظ النظر فيها، فينتفع به من دخل الإيمان قلوبهم على مقادير قوة إيمانهم وعملهم، ويمر على قلوب قوم لا يشعرون به، وهم المنكرون المعرضون، ويخالط قلوب قوم فيتأملونه فيأخذون منه ما يثير لهم شبهاتٍ وإلحاداً. ولما كان المقصود التشبيه بالهيئة كلها جيء في حكاية ما ترتب على إنزال الماء بالعطف بفاء التفريع في قوله: فسالت، فاحتمل، فهذا تمثيل صالح لتجزئة التشبيهات التي تركب منها، وهو أبلغ التمثيل.

وعلى نحو هذا التمثيل وتفسيره جاء ما بينه من التمثيل الذي في قول النبيء ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى إنّما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ؛ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به». وجملة... وممّا توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله: معترضة بين جملة: فاحتمل السيل زبداً رابياً، وجملة: فأمّا الزبد فيذهب جفاء، وهذا تمثيل آخر ورد استطراداً عقب ذكر نظيره يفيد تقريب التمثيل لقوم لم يشاهدوا سيول الأودية من سكان القرى مثل أهل مكة، وهو المقصود،

فقد كان لهم في مكة صواغون، فقرب إليهم تمثيل عدم انتفاعهم بما انتفع به غيرهم بمثل ما يصهر من الذهب والفضة في البواثق، فإنّه يقذف زبداً ينتفي عنه وهو الخبث، وهو غير صالح لشيء في حين صلاح معدنه لاتخاذه حلية أو متاعا، فالكلام من قبيل تعدد التشبيه القريب.

وتقديم المسند إلى المسند إليه في قوله: وممّا توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبدٌ مثلُه للاهتمام بالمسند؛ لأنّه موضعُ اعتبار أيضاً ببديع صنع الله تعالى؛ إذ جعل الزبد يطفوا على أرق الأجسام، وهو الماء، وعلى أغلظها، وهو المعدن، فهو ناموس من نواميس الخلقة، فبالتقديم يقع تشويق السامع إلى ترقب المسند إليه. وعدل عن تسمية الذهب والفضة إلى الموصولية بقوله: وممّا توقدون عليه في النار؛ لأنّها أخصر وأجمع، ولأنّ الغرض في ذكر الجملة المجعولة صلة، فلو ذكرت بكيفية غير صلة كالوصفية مثلا لكانت بمنزلة الفضلة في الكلام، ولطال الكلام بذكر اسم المعدنين مع ذكر الصلة؛ إذ لا محيد عن ذكر الوقود؛ لأنّه سبب الزبد، فكان الإتيان بالموصول قضاء لحق ذكر الجملة مع الاختصار البديع، ولأنّ في العدول عن ذكر اسم الذهب والفضة إعراضاً يؤذن بقلة الاكثرات بهما ترفعاً عن ولع الناس بهما؛ فإنّ اسمهما قد اقترنا بالتعظيم في عرف الناس.

وجملة: كذلك يضرب الله الحق والباطل معترضة، هي فذلكة التمثيل ببيان الغرض منه. وقد علم أنّ الزبد مَثَل للباطل، وأنّ الماء مثل للحق، فجملة: فأمّا الزبد فيذهب جفاء معطوفة على جملة: فاحتمل السيل زبداً رابياً، مفرعة على التمثيل. وافتتحت بأمّا للتوكيد وصرف ذهن السامع إلى الكلام لما فيه من خفي البشارة والنذارة، ولأنّه تمام التمثيل، والتقدير: فذهب الزبد جفاء، ومكث ما ينفع الناس في الأرض، واكتفى بذكر وجه شبه النافع بالماء وغير النافع بالزبد عن ذكر وجه شبه النافع بالذهب أو الفضة وغير النافع بزبدهما استغناء عنه.

وجملة: كذلك يضرب الله الأمثال مستأنفة تذييلية لما في لفظ الأمثال من العموم، فهو أعم من جملة: كذلك يضرب الله الحق والباطل؛ لدلالتهما على صنف من المثل دون جميع أصنافه، فلما أعقب بمثل آخر، وهو فأمّا الزبد فيذهب جفاء جيء بالتنبيه إلى الفائدة العامة من ضرب الأمثال، وحصل أيضاً توكيد جملة: كذلك يضرب الله الحق والباطل؛ لأنّ العام يندرج فيه الخاص، فإشارة

كذلك إلى التمثيل السابق في جملة أنزل من السماء ماء، أي: مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله الأمثال، وهو المقصود بهذا التذييل، والإشارة للتنويه بذلك المثل، وتنبيه الأفهام إلى حكمته وحكمة التمثيل، وما فيه من المواعظ والعِبَر، وما جمعه من التمثيل والكناية التعريضية، إلى بلاغة القرآن وإعجازه، وذلك تبهيج للمؤمنين وتحدٍّ للمشركين، وليعلم أنّ جملة فأمّا الزبد فيذهب جفاء لم يؤت بها لمجرد تشخيص دقائق القدرة الإلهية والصنع البديع؛ بل ولضرب المثل، فيعلم الممثّل له بطريق التعريض بالمشركين والمؤمنين، فيكون الكلام قد تم عند قوله: كذلك يضرب الله الأمثال، كما هو شأن التذييل.

وبعد ما بُين شأنُ كل من الحق والباطل حالاً ومآلاً أكملَ بيانٍ، شُرِع في بيان حال أهل كل منهما مآلاً تكميلاً للدعوة ترغيباً وترهيباً، فقيل... ﴿**للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد**﴾: وهو استئناف بياني لجملة: ﴿**كذلك يضرب الله الأمثال**﴾، فمناسبَتُه لِمَا تقدم من التمثيلين أنّهما عائدان إلى أحوال المسلمين والمشركين؛ ففي ذكر هذه الجملة زيادةُ تنبيهٍ للتمثيل وللغرض منه مع ما في ذلك من جزاء الفريقين؛ لأنّ المؤمنين استجابوا لله لَمّا عقلوا الأمثال فجوزوا بالحسنى، وأمّا المشركون فأعرضوا ولم يعقلوا الأمثال، فكان جزاؤهم عذاباً عظيماً، وهو سوء الحساب الذي عاقبته المصير إلى جهنم. وفي العدول إلى الموصولين وصلتهما في قوله: للذين استجابوا، والذين لم يستجيبوا، إيماء إلى أنّ الصلتين سببان لما حصل للفريقين. وتقديم المسند في قوله: للذين استجابوا لربهم الحسنى؛ لأنّه الأهم؛ لأنّ الغرض التنويه بشأن الذين استجابوا مع جعل الحسنى في مرتبة المسند إليه، وفي ذلك تنويه بها أيضاً. وأما الخبر عن وعيد الذين لم يستجيبوا فقد أجري على أصل نظم الكلام في التقديم والتأخير لقلة الاكثرات بهم. وأتى باسم الإشارة في قوله: أولئك لهم سوء الحساب؛ للتنبيه على أنّهم أحْرِياء بما بعد اسم الإشارة من الخبر بسبب ما قَبْلَ اسمِ الإشارة من الصلة. وسوء الحساب ما يحف بالحساب من إغلاظ وإهانة للمحاسَب، وأما أصل الحساب فهو حسن لأنّه عدل.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿ألمر. تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون﴾: في هذا التوجيه يوجه الله إلى رسوله محمد هذا الخطاب ليوجهه إلى الناس ـ العرب أولاً ثم إلى بقية الناس جميعاً ـ لعلهم يؤمنون بهذا القرآن، ولعلهم يوقنون بما جاء به القرآن من بعث وحساب وثواب وعقاب وما فيه من جنات ونيران. جاء هذا التوجيه في أول هذه السورة ـ سورة الرعد ـ، وهي من أعاجيب السور القرآنية التي تأخذ في نفس واحد، وإيقاع واحد وجوّ واحد وعطر واحد من بدئها إلى نهايتها، والتي تفعم النفس وتزحم الحس بالصور والظلال والمشاهد والخوالج، والتي تأخذ النفس من أقطارها جميعا، فإذا هي في مهرجان من الصور والمشاعر والإيقاعات والإشراقات، والتى ترتاد بالقلب آفاقاً وأكواناً وعوالم وأزماناً، وهو مستيقظ مبصر مدرك، شاعر بما يموج حوله من المشاهد والمُوحِيَاتِ.

إنّها ليست ألفاظاً وعبارات؛ إنّما هي مطارق وإيقاعات؛ صُوَرُها، ظِلاَلُها، مشاهدُها، موسيقاها، لمساتها الوجدانية التي تكمن وتتوزع هنا وهناك!. إنّ موضوعها الرئيسي كل موضوع السور المكية (العقيدة)، وقضاياها هي التوحيد والبعث والوحي. إنّ هذه القضايا لا تعرض عرضاً جدلياً بارداً يقال في كلمات وينتهي كأيّة قضية ذهنية باردة، إنّما تعرض وحولها إطار هو هذا الكون كله بكل ما فيه من عجائب؛ هي براهين هذه القضايا وآياتها في الإدراك البشري البصير المفتوح. وهذه العجائب لا تنْفَد؛ ولا تبلى جدتها؛ لأنّها تنكشف كل يوم عن جديد يصل إليه الإدراك، وما كشف منها من قبل يبدو جديداً في ضوء الجديد الذي يكشف!، ومن ثم تبقى تلك القضايا حية في مهرجان العجائب الكونية التي لا تنفدُ ولا تبلى جدتها. وهذه السورة تطوف بالقلب البشري في مجالات وآفاق وآماد وأعماق، فتعرض عليه الكون كله في شتى مجالاته الأخاذة: في السماوات المرفوعة بغير عمد، وفي الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، وفي الليل يغشاه النهار، وفي الأرض الممدودة وما فيها من رواس ثابتة وأنهار جارية، وجنات وزرع ونخيل مختلف الأشكال والطعوم والألوان، ينبت في قطع من الأرض متجاورات ويسقى بماء واحد، وفي البرق يُخيف ويُطمع، والرعد يسبح

ويحمد، والملائكة تخاف وتخشع، والصواعق يصيب بها من يشاء، والسحاب الثقال، والمطر في الوديان، والزبد الذي يذهب جفاء ليبقى في الأرض ما ينفع الناس.

وهي تلاحق ذلك القلب أينما توجه؛ تلاحقه بعلم الله النافذ الكاشف الشامل، يلم بالشارد والوارد، والمستخفي والسارب، ويتعقب كل حي ويحصي عليه الخواطر والخوالج. والغيب المكنون الذي لا تدركه الظنون مكشوف لعلم الله: وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار، فهي تُقَرِّب لمدارك البشر شيئا من حقيقة القوة الكبرى المحيطة بالكون ظاهره وخافيه، جليله ودقيقه، حاضره وغيبه، وهذا القدر الذي يمكن لمدارك البشر تصوُّرُه هائل مخيف ترجف له القلوب. وذلك إلى الأمثال المصورة تتمثل في مشاهد حية حافلة بالحركة والانفعال، إلى مشاهد القيامة، وصور النعيم والعذاب، وخلجات النفس في هذا وذاك، إلى وقفات على مصارع الغابرين، وتأملات في سير الراحلين، وفي سنة الله التي مشت عليهم فإذا هم داثرون؛ فهذا عن موضوعات السورة وقضاياها، وعن آفاقها الكونية وآمادها، ووراءها خصائص الأداء الفنية العجيبة. فالإطار العام الذي تعرض فيه قضاياها هو الكون ومشاهده وعجائبه في النفس وفي الآفاق. وهذا الإطار ذو جو خاص؛ جو المشاهد الطبيعية المتقابلة: من سماء وأرض، وشمس وقمر، وليل ونهار، وشخوص وظلال، وجبال راسية وأنهار جارية، وزبد ذاهب وماء باقٍ، وقطع من الأرض متجاورات مختلفات، ونخيل صنوان وغير صنوان.

ومن ثَمَّ تُطرد هذه التقابلات في كل المعاني وكل الحركات وكل المصائر في السورة؛ لتناسق التقابل المعنوي في السورة مع التقابلات الحسية، وتُنسّق في الجو العام، فمن ثَم يتقابل الاستعلاء في الاستواء على العرش مع تسخير الشمس والقمر، ويتقابل ما تغيض الأرحام مع ما تزداد، ويتقابل من أسر القول مع من جهر به، ومن هو مستخف بالليل مع من هو سارب بالنهار، ويتقابل الخوف مع الطمع تجاه البرق، ويتقابل تسبيح الرعد حمداً مع تسبيح الملائكة خوفاً، وتتقابل دعوة الحق لله مع دعوة الباطل للشركاء، ويتقابل من يعلم مع من هو أعمى، ويتقابل الذين يفرحون من أهل الكتاب بالقرآن مع من ينكر بعضه، ويتقابل المحو

مع الإثبات في الكتاب؛ فبالإجمال تتقابل المعاني وتتقابل الحركات وتتقابل الاتجاهات تنسيقاً للجو العام في الأداء.

وظاهرة أخرى من ظواهر التناسق في جو الأداء؛ فلأنّه جو الطبيعة من سماء وأرض وشمس وقمر ورعد وبرق وصواعق وأمطار وحياة ونبات، يجيء الحديث عما تكنه الأرحام من حيواناتٍ، ويجيء معها وما تغيض الأرحام وما تزداد، ويتناسق غيض الأرحام وازديادها مع سيل الماء في الوديان وإنْبَات، وذلك من بدائع التنسيق الفني في القرآن. تبدأ السورة بقضية عامة من قضايا العقيدة؛ قضية الوحي بهذا الكتاب، والحق الذي اشتمل عليه. وتلك هي قاعدة بقية القضايا من توحيدٍ لِله، ومن إيمانٍ بالبعث، ومن عملٍ صالحٍ في الحياة، فكلها متفرعة عن الإيمان بأنّ الآمر بهذا هو الله، وأنّ هذا القرآن وحي من عنده إلى رسوله. وتبتدئ السورة بحروف أربعة: أ. ل. م. ر.

آيات هذا القرآن الدالة على الوحي به من عند الله؛ إذ كانت صياغته من مادة هذه الأحرف، دلالة على أنّه وحي الله لا من عمل مخلوق كائناً من كان، فهو الحق جزماً وقطعاً؛ الحق الخالص الذي لا يتلبس بالباطل، والذي لا يحتمل الشك والتردّد، فهي من عند الله ولن يكون ما عند الله إلاّ حقاً لا ريب فيه. ومع هذا، فأكثر الناس لا يؤمنون؛ لا يؤمنون بأنّه وحي، ولا يؤمنون بالقضايا المترتبة على الإيمان بهذا الوحي من توحيد وبعث وعمل صالح في الحياة.

هذا هو الافتتاح الذي يلخص موضوع السورة كله، ويشير إلى جملة قضاياها. ومن ثم يبدأ في استعراض آيات القدرة، وعجائب الكون الدالة على قدرة الخالق وحكمته وتدبيره؛ الناطقة بأنّ من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحي لتبصير الناس، وأن يكون هناك وحي لحساب الناس، وأنّ من مقتضيات تلك القدرة أن تكون مستطيعةً بعْثَ الناس ورجعَهم إلى الخالق الذي بدأهم وبدأ الكون كله قبلهم، وسخّره لهم ليبلوهم فيما آتاهم. وتبدأ الريشة المعجزة في رسم المشاهد الكونية الضخمة؛ لمسة في السماوات، ولمسة في الأرض وما فيها، ولمسات في مشاهد الكون وكوَامِن الحياة، ثم التعجيب من قوم ينكرون البعث بعد هذه الآيات الضخام، ويستعجلون عذاب الله ويطلبون آية غير هذه الآيات. . . ﴿**الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على**

العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربّكم توقنون﴾.

﴿وهو الذي مدَّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقي بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنّا تراباً إنّا لفي خلق جديد. أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وإنّ ربّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإنّ ربّك لشديد العقاب. ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربّه إنّما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾: والسماوات - أيّاً كان مدلولها؟. وأيّاً كان ما يدركه الناس من لفظها في شتى العصور؟. - معروضة على الأنظار، هائلة - ولا شك - حين يخلو الناس إلى تأملها لحظة مطلقة لا تستند إلى شيء، مرفوعة بغير عمد مكشوفة ترونها؛ فهذه هي اللمسة الأولى في مجالِي الكون الهائلة، وهي بذاتها اللمسة الأولى للوجدان الإنساني، وهو يقف أمام هذا المشهد الهائل يتملاه، ويدرك أنّه ما من أحد يقدر على رفعها بلا عمد - أو حتى بعمد - إلاّ الله.

وقصارى ما يرفعه الناس بعمد أو بغير عمد تلك البنيان الصغيرة الهزيلة القابعة في ركن ضيق من الأرض لا تتعداه، ثم يتحدث الناس عمّا في تلك البنيان من عظمة ومن قدرة ومن إتقان؛ غافلين عمّا يشملهم ويعلوهم من سماوات مرفوعة بغير عمد؛ وعمّا وراءها من القدرة الحقة والعظمة الحقة، والإتقان الذي لا يتطاول إليه خيال إنسان!. ومن هذا المنظور الهائل الذي يراه الناس إلى الغيب الهائل الذي تتقاصر دونه المدارك والأبصار: ثم استوى على العرش؛ فإذا كان علو فهذا أعلى، وإذا كانت عظمة فهذا أعظم. وهو الاستعلاء المطلق، يرسمه في صورة على طريقة القرآن في تقريب الأمور المطلقة لمدارك البشر المحدودة، وهي لمسة أخرى هائلة من لمسات الريشة المعجزة، لمسة في العلو المطلق إلى جانب اللمسة الأولى في العلو المنظور تتجاوران وتتّسِقَانِ في السياق.

ومن الاستعلاء المطلق إلى التسخير: تسخير الشمس والقمر؛ تسخير العلو المنظور للناس على ما فيه من عظمة أخّاذة، أخذت بألبابهم في اللمسة الأولى، ثم إذا هي مسخّرة بعد ذلك لله الخالق. ونقف لحظة أمام التقابلات المتداخلة في المشهد قبل أن نمضي معه إلى غايته، فإذا نحن أمام ارتفاع في الفضاء المنظور يقابله ارتفاع في الغيب المجهول، وإذا نحن أمام استعلاء يقابله التسخير، وإذا نحن أمام الشمس والقمر يتقابلان في الجنس نجم وكوكب، ويتقابلان في الأوان بالليل والنهار. ثم نمضي مع السياق، فمع الاستعلاء والتسخير الحكمة والتدبير: كل يجري لأجل مسمى، وإلى حدود مرسومة، ووفق ناموس مقدر؛ سواء في جريانهما في فلكيهما دورة سنوية ودورة يومية، أو جريانهما في مداريهما لا يتعديانه ولا ينحرفان عنه، أو جريانهما إلى الأمد المقدر لهما قبل أن يُحوّل هذا الكون المنظور.

وكذلك يدبر الأمر؛ الأمر كله على هذا النحو من التدبير الذي يسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، والذي يمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة في الفضاء فيجريها لأجل لا تتعداه، لا شك عظيم التدبير جليل التقدير. ومن تدبيره الأمر، أنّه يفصل الآيات وينظمها وينسقها، ويعرض كلا منها في حينه ولعلّته ولغايته لعلكم بلقاء ربّكم توقنون.

حين ترون الآيات منسّقةً مفصّلةً، ومن ورائها آيات الكون، تلك التي أبدعتها يد الخالق أوّلَ مرَّةٍ؛ وصورت لكم آيات القرآن ما وراء إبداعها من تدبير وتقدير وإحكام ذلك كله يوحي بأن لابد من عودة إلى الخالق بعد الحياة الدنيا؛ لتقدير أعمال البشر ومجازاتهم عليها، فذلك من كمال التقدير الذي توحي به حكمة الخلق الأوّل عن حكمة وتدبير. وبعد ذلك يهبط الخط التصويري الهائل من السماء إلى الأرض فيرسم لوحتها العريضة الأولى: وهو الذي مد الأرض، وجعل فيها رواسي وأنهارا، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشي الليل النهار، إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، والخطوط العريضة في لوحة الأرض هي مدُّ الأرض وبسطها أمام النظر، وانفساحها على مداه، لا يهم ما يكون شكلها الكلي في حقيقته، إنّما هي مع هذا ممدودة مبسوطة فسيحة.

هذه هي اللمسة الأولى في اللوحة، ثم يرسم خط الرواسي الثوابت من

الجبال، وخط الأنهار الجارية في الأرض، فتتم الخطوط العريضة الأولى في المشهد الأرضي متناسقة متقابلة، ومما يناسب هذه الخطوط الكلية ما تحتويه الأرض من الكليات، وما يلابس الحياة فيها من كليات كذلك. وتتمثل الأولى فيما تنبت الأرض: ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، وتتمثل الثانية في ظاهرتي الليل والنهار: يغشي الليل النهار. والمشهد الأول يتضمن حقيقة علمية لم تعرف إلاّ قريباً، هي أنّ كل الأحياء وأوّلها النبات تتألف من ذكر وأنثى، حتى النباتات التي كان مظنوناً أن ليس لها من جنسها ذكور، تبيّن أنّها تحمل في ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة، أو متفرقة في العود، وهي حقيقة تتضامن مع المشهد في إثارة الفكر إلى تدبّر أسرار الخلق بَعْدُ على ظواهره.

والمشهد الثاني مشهد الليل والنهار متعاقبين، هذا يغشي ذاك في انتظام عجيب، هو ذاته مثار تأمل في مشاهد الطبيعة، فقدوم ليل وإدبار نهار أو إشراق فجر وانقشاع ليل، حادث تُهَوّنُ الألفةُ من وقْعه في الحس، ولكنّه في ذاته عجب من العجب، لمن ينفض عنه موات الألفة وخمودها، ويتلقاه بحس الشاعر المتجدّد، الذي لم يجمده التكرار، فالنظام الدقيق الذي لا تتخلف معه دورة الفلك هو بذاته كذلك مثار تأمل في ناموس هذا الكون، وتفكير في القدرة المبدعة التي تدبّرُه وترْعاه: إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

ونقف كذلك هنا وقفة قصيرة أمام التقابلات الفنية في المشهد قبل أن نجاوزه إلى ما وراءه؛ التقابلات بين الرواسي الثابتة والأنهار الجارية، وبين الزوج والزوج في كل الثمرات، وبين الليل والنهار، ثم بين مشهد الأرض كله ومشهد السماء السابق، وهما متكاملان في المشهد الكوني الكبير الذي يضمهما ويتألف منهما جميعاً. ثُمَّ تمضي الريشة المبدعة في تخطيط وجْهِ الأرض بخطوط جزئية أدق من الخطوط العريضة الأولى: وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون؛ فبهذه المشاهد الأرضية، فِينَا الكثيرون يمرُّون عليها فلا تثير فيهم حتى رغبة التطلع إليها!، إلاّ أن ترجع النفس إلى حيوية الفطرة والاتصال بالكون الذي هو قطعة منه، انفصلت عنه لتتأمله، ثم تندمج فيه.

وفي الأرض قطع متجاورات: متعددة الشيات، وإلاّ ما تبيّن أنّها قطع، فلو كانت متماثلة لكانت قطعة؛ فمنها الطيب الخصب، ومنها السبخ النكد، ومنها المقفر الجدب، ومنها الصخر الصلد، وكل واحد من هذه وتلك أنواع وألوان ودرجات. ومنها العامر والغامر، ومنها المزروع الحي والمهمل الميت، ومنها الريان والعطشان، ومنها ومنها ومنها، وهي كلها في الأرض متجاورات. هذه اللمسة العريضة الأولى في التخطيط التفصيلي، ثم تتبعها تفصيلات: وجنات من أعناب، وزرع، ونخيل، وهي تمثل ثلاثة أنواع من النبات: الكرم المتسلق، والنخيل المتناسق، والزرع المغمق من بقول وأزهار وما أشبهه، والغرض هو تلوين المنظر وملء فراغ اللوحة الطبيعية، والتمثيل لمختلف أشكال النبات؛ ذلك النخيل: صنوان وغير صنوان، منه ما هو عود واحد، ومنه ما هو عودان أو أكثر في أصل واحد، وكلها تسقى بماء واحد، والتربة واحدة، ولكن الثمار مختلفات الطعوم، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، فمن غير الخالق المدبر المريد يفعل ذلك؟!.

من منا لم يذق الطعوم مختلفات في نبت البقعة الواحدة؟. فكم منا التفت هذه اللفتة التي وجه القرآن إليها العقول والقلوب؟. إنّه بمثل هذا يبقى القرآن جديداً أبداً؛ لأنّه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد في الكون والنفس؛ وهي لا تنفد ولا يستقصيها إنسان في عمره المحدود، ولا تستقصيها البشرية في أجلها الموعود: إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون. تلك الجولة الهائلة في آفاق الكون الفسيحة، يعود منها السياق ليعجب من قوم هذه الآيات كلها في الآفاق لا توقظ قلوبهم ولا تنبه عقولهم، ولا يلوح لهم من ورائها تدبير المدبّر، وقدرة الخالق، كأنّ عقولَهم مغلولة، وكأنّ قلوبَهم مقيدة، فلا تنطلق للتأمل في تلك الآيات: وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً إنّا لفي خلق جديد.

أولئك الذين كفروا بربّهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. وإنّه لعجيب يستحق التعجيب أن يسأل قوم بعد هذا العرض الهائل: أئذا كنا ترابا؟ إنّا لفي خلق جديد!. والذي خلق هذا الكون الضخم ودبّره على هذا النحو قادر على إعادة الناس في بعث جديد. إنّما هو الكفر بربهم الذي خلقهم ودبّر أمرهم، وإنّما هي أغلال العقل والقلب، فالجزاء هو الأغلال في

الأعناق، تنسيقاً بين غل العقل وغل العنق، والجزاء هي النار خالدين فيها، فقد عطلوا كل مقومات الإنسان التي من أجلها يكرّمُه الله.

وانتكسوا في الدنيا... فهم في الآخرة يلاقون عاقبة الانتكاس: حياة الهوان والنكال وهى أحط وأدنى من حياتهم الدنيا التي عاشوها معطلى الفكر والشعور والإحساس. هؤلاء القوم الذين يعجبون من أن يبعثهم الله خلْقاً جديدا. وعجبهُم هذا هو العجب!. هؤلاء يستعجلونك أن تأتيهم بعذاب الله، بدلا من أن يطلبوا هدايته ويرجوا رحمته: ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة. وكما أنّهم لا ينظرون في آفاق الكون وآيات الله المبثوثة في السماء والأرض، فهم لا ينظرون إلى مصارع الغابرين الذين استعجلوا عذاب الله فأصابهم، وتركهم مثلة يعتبر بها من بعدهم... وقد خلت من قبلهم المثلات: فهم في غفلة حتى عن مصائر أسلافهم من بني البشر، وقد كان فيها مثل لمن يعتبر... وإنّ ربّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم: فهو بعباده رحيم حتى وإن ظلموا فترة، يفتح لهم باب المغفرة ليدخلوه عن طريق التوبة.

ولكن يأخذ بعقابه الشديد من يصرون ويلجّون، ولا يلجون من الباب المفتوح... وإنّ ربك لشديد العقاب. والسياق يقدم هنا مغفرة الله على عقابه في مقابل تعجل هؤلاء الغافلين للعذاب قبل الهداية؛ ليبدو الفارق الضخم الهائل بين الخير الذي يريده الله لهم، والشر الذي يريدونه لأنفسهم، ومن ورائه يظهر انطماس البصيرة وعمى القلب والانتكاس الذي يستحق درك النار. ثم يمضي السياق في التعجيب من أمر القوم الذين لا يدركون كل تلك الآيات الكونية فيطلبون آية واحدة ينزلها الله على محمد؛ آية واحدة والكون كله آيات... ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربّه إنّما أنت منذر ولكل قوم هاد: إنّهم يطلبون خارقة، والخوارق ليست من عمل الرسول ولا اختصاصه، إنّما يبعث بها الله معه، حين يرى بحكمته أنّها لازمة، فالرسول محذر ومبصر، فقد بعث الله الرسل للهداية، فأمّا الآيات الخارقة فأمرها إلى مدبر الكون والعباد.

التوجيه الثاني: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾: في هذا التوجيه جولة أخرى في أعماق النفس بعدما كانت في أعماق الكون؛ ليقف الحس مشدوهاً يرتعش تحت وقع هذه اللمسات

العميقة في التصوير، وتحت إيقاع هذه الموسيقى العجيبة في التعبير، يقف مشدوهاً وهو يقفو مسارب علم الله ومواقعه، وهو يتبع الحمل المكنون في الأرحام، والسر المكتوم في الصدور، والحركة الخفيفة في جنح الليل؛ وكل مستخف وكل سارب وكل هامس وكل جاهر، وكل ذلك مكشوف تحت المجهر الكاشف، يتتبعه شعاع من علم الله، وتتعقبه حفظة تُحْصي خواطره ونواياه، ألا إنّها الرهبة الخاشعة التي لا تملك النفس إلاّ أن تلجأ إلى الله، تطمئن في حماه، وإنّ المؤمن بالله ليعلم أنّ علم الله يشمل كل شيء.

ولكن وقع هذه القضية الكلية في الحس لا يقاس إلى وقع مفرداتها كما يعرض السياق بعْضَها في هذا التصوير العجيب. وأين أية قضية تجريدية، وأية حقيقة كلية في هذا المجال من قوله: الله يعلم ما تحمل كل أنثى ...؟!. حين يذهب الخيال يتتبع كل أنثى في هذا الكون المترامي الأطراف، كل أنثى، كل أنثى في الوبر والمدر، في البدو والحضر، في البيوت والكهوف والغابات والمحيطات... ويتصور علم الله مُطِلاً على كل حمل في أرحام هذه الأمهات... وأين أية قضية تجريدية وأية حقيقة كلية في هذا المجال من قوله: سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل؟!.

حين يذهب الخيال يتتبع كل هامس وكل جاهر وكل مستخف وكل سارب في هذا الكون الهائل... ويتصور علم الله يتعقب كل فرد من بين يديه ومن خلفه ويقيد عليه كل شاردة وكل واردة آناء الليل وأطراف النهار!... إن اللمسات الأولى في آفاق الكون الهائل ليست بأضخم ولا أعمق من هذه اللمسات الأخيرة في أغوار النفس والغيب ومجاهيل السرائر... وإن هذا لكفء لتلك في مجال التقابل والتناظر... ونستعرض شيئا من بدائع التعبير والتصوير في تلك الآيات: الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار... فلما أن صور العلم بالغيض والزيادة في مكنونات الأرحام عقب بأن كل شيء عنده بمقدار.

والتناسق واضح بين كلمة مقدار وبين النقص والزيادة، والقضية كلها ذات علاقة بإعادة الخلق فيما سبق من ناحية الموضوع. كما أنها من ناحية الشكل والصورة ذات علاقة بما سيأتى بعدها من الماء الذى تسيل به الأودية بقدرها في

السيولة والتقدير. . . كما أن في الغيض والزيادة تلك المقابلة المعهودة في جوّ السورة على الإطلاق. ﴿**عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال**﴾: لفظة الكبير ولفظة المتعال كلتاهما تلقى ظلها في الحس ولكن يصعب تصور ذلك الظل بألفاظ أخرى. إنه ما من خلق حادث إلا وفيه نقص يصغره. وما يقال عن خلق من خلق الله كبير. . . أو أمر من الأمور كبير. . . أو عمل من الأعمال كبير حتى يتضاءل بمجرد أن يذكر الله. . . وكذلك المتعال. . . ﴿**سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار**﴾: التقابل واضح في العبارة.

إنّما تستوقفنا كلمة سارب، وهي تكاد بظلها تعطي عكس معناها، فظلها ظل خفاء أو قريب من الخفاء، والسارب الذاهب، فالحركة فيها هي المقصودة في مقابل الاستخفاء؛ هذه النعومة في جرس اللفظ وظله مقصودة كي لا تخدش الجو، جو العلم الخفي اللطيف الذاهب وراء الحمل المكنون والسر الخافي والمستخفي بالليل والمعقبات التي لا تراها الأنظار، فاختار اللفظ الذي يؤدي معنى التقابل مع المستخفي، ولكن في لين ولطف وشبه خفاء! ..﴿**له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله**﴾: الحفظة التي تتعقب كل إنسان تحفظ كل شاردة وكل واردة وكل خاطرة وكل خالجة، والتي هي من أمر الله لا يتعرض لها السياق بوصف ولا تعريف أكثر من أنّها من أمر الله. . . ﴿**إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾: فهو يتعقبهم بالحفظة من أمره لمراقبة ما يُحْدِثُونَه من تغيير بأنفسهم وأحوالهم فيرتب عليه الله تصرفه بهم.

وإنّها لحقيقة تُلْقي على البشر تبعة ثقيلة، والنص صريح في هذا لا يحتمل التأويل، وهو يحمل كذلك إلى جانب التبعة دليل التكريم لهذا المخلوق الذي اقتضته مشيئة الله، أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه. وبعد تقرير المبدإ يُبْرِزُ السياق حالة تغيير الله ما يقوم إلى السوء؛ لأنّهم ـ حسب المفهوم من الآية ـ غيروا ما بأنفسهم إلى أسوإ فأراد لهم الله السوء. . . ﴿**وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال**﴾: يبرز السياق هذا الجانب هنا دون الجانب الآخر؛ لأنّه في معرض الذين يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، ثم يأخذ السياق في جولة جديدة في وادٍ آخَرَ موصل لذلك الوادي الذي كنا فيه؛ وادٍ تجتمع فيه مناظر الطبيعة ومشاعر النفس، متداخلة متناسقة في الصورة والظل

والإيقاع، وتخيم عليه الرهبة والضراعة والجهد والإشفاق، وتظل النفس فيه في ترقب وحذر وفي تأثر وانفعال. . . ﴿**هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته**﴾: والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة، وكذلك الصواعق التي تصاحبها في بعض الأحيان، وهي بذاتها مشاهد ذات أثر في النفس ـ حتى اليوم وعند الذين يعرفون الكثير عن طبيعتها ـ.

والسياق يحشدها هنا ويضيف إليها الملائكة والظلال والتسبيح والسجود والخوف والطمع والدعاء الحق والدعاء الذي لا يستجاب، ويضم إليها هيئة أخرى؛ هيئة ملْهوفٍ يتطلب الماء باسطاً كفيه ليبلغه فاتحاً فاه بتلقف قطرة منه، هذه كلها لا تتجمع في النص اتفاقاً أو جزافاً، إنّما تتجمع لتلقي كلها ظلالها على المشهد، وتلفه في جو من الرهبة والترقب والخوف والطمع والضراعة والارتجاف في سياق تصوير سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضر، نفياً للشركاء المدّعاة، وإرهاباً من عقبى الشرك بالله: هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً، هو الله الذي يريكم هذه الظاهرة الكونية، فهي ناشئة من طبيعة الكون التي خلقها هو على هذا النحو الخاص، وجعل لها خصائصها وظواهرها، ومنها البرق الذي يريكم إيّاه وفق ناموسه فتخافونه لأنّه بذاته يهز الأعصاب، ولأنّه قد يتحول إلى صاعقة ولأنّه قد يكون نذيراً لسيل مدمر كما علمتكم تجاربكم وتطمعون في الخير من ورائه، فقد يعقبه المطر المدرار المحيي للموات، والمجري للأنهار.

وينشئ السحاب الثقال: هو كذلك ينشئ السحاب، فوفق ناموسه في خلقه هذا الكون وتركيبه لتكون السحب وتهطل الأمطار. والرعد، الظاهرة الثالثة لجو المطر والبرق والرعد، هذا الصوت المقرقع المدوي، إنّه أثر من آثار الناموس الكوني، الذي صنعه الله ـ أيا كانت طبيعته وأسبابه ـ فهو رجع صنع الله في هذا الكون، فهو حمد وتسبيح بالقدرة التي صاغت هذا النظام، كما أنّ كل مصنوع جميل متقن يسبح ويعلن عن حمد الصانع والثناء عليه بما يحمله من آثار صنعته من جمال وإتقان. إنّما اختار التعبير أن يجعل صوت الرعد تسبيحاً بالحمد اتباعاً لمنهج التصوير القرآني في مثل هذا السياق وخلع سمات الحياة وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة لتشارك في المشهد بحركة من جنس حركة المشهد كله.

والمشهد هنا مشهد أحياء في جَوٍّ طبيعي، وفيه الملائكة تسبح من خيفته، وفيه دعاء لله ودعاء للشركاء، وفيه باسط كَفّيْه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، ففي وسط هذا المشهد الداعي العابد المتحرك اشترك الرعد ككائن حيٍّ بصوته في التسبيح والدعاء. ثم يكمل جوّ الرهبة والابتهال، والبرق والرعد والسحاب الثقال، بالصواعق يرسلها فيصيب بها من يشاء. والصواعق ظاهرة طبيعية ناشئة من تركيب الكون على هذا المنوال. والله يصيب بها أحياناً من غيروا ما بأنفسهم، واقتضت حكمته ألا يمهلهم؛ لعلمه أن لا خير في إمهالهم فاستحقوا الهلاك.

والعجيب أنّ في هول البرق والرعد والصواعق، وفي زحمة تسبيح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته، وزمجرة الصواعق بغضبه؛ في هذا الهول ترتفع أصوات بشرية بالجدل في الله صاحب كل هذه القوى، وباعث كل هذه الأصوات التي ترتفع على كل جدل وكل مُحال: ﴿**وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال**﴾. وهكذا تضيع أصواتهم الضعيفة في غمرة هذا الهول المتجاوب بالدعاء والابتهال والرعد والقرقعة والصواعق الناطقة كلها بوجود الله ـ الذين يجادلون فيه ـ وبوحدانيته، واتّجاه التسبيح والحمد إليه وحده، من أضخم مجال الكون الهائل، ومن الملائكة الذين يسبحون من خيفته في هذا المجال، فأين من هذا كله أصوات الضعاف من البشر وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال؟!. وهم يجادلون في الله وينسبون إليه شركاء يدعونهم معه.

ودعوة الله هي وحدها الحق، وماعداها باطل ذاهب، لا ينال صاحبه فيه إلاّ العناء... ﴿**له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال**﴾: والمشهد هنا ناطق متحرك جاهد لاهف، فدعوة واحدة هي الحق، وهي التي تحق، وهي التي تستجاب، وماعداها باطل وضائع وهباء. ألا ترون حال الداعين لغيره من الشركاء؟. انظروا هذا: واحد منهم ملهوف ظمآن يمد ذراعيه ويبسط كفيه، وفمه مفتوح يلهث بالدعاء، يطلب الماء ليبلغ فاه فلا يبلغه، وما هو ببالغه بعد الجهد واللهفة والعناء، وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء: وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال.

وفي أي جو لا يبلغ هذا الداعي اللاهف اللاهث قطرة من ماء؟. في جو

البرق والرعد والسحاب الثقال التي تجري هناك بأمر الله الواحد القهار!، وفي الوقت الذي يتخذ هؤلاء الخائبون آلهة من دون الله، ويتوجهون إليها بالرجاء والدعاء؛ إذا كلُّ من في الكون يعنو لله!، وكلهم محكومون بإرادته، خاضعون لسنته، مسيرون وفق ناموسه؛ المؤمن منهم يخضع طاعة وإيماناً، باختياره فيما كلفه الله به، وبتسليمه فيما قدره عليه، وغير المؤمن يخضع أخذاً وإرغاماً دون اختيار أو رضى، والباقي من المخلوقات تخضع تحت أمر التكوين الذي لا تكليف فيه بطاعة أو عصيان، فما يملك أحد أن يخرج على إرادة الله، ولا أن يعيش خارج ناموسه الذي سنه للحياة. . . ﴿**ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً**﴾: فلأنّ الجو جو عبادة ودعاء، فإنّ السياق يعبر عن الخضوع لمشيئة الله بالسجود، وهو أقصى رمز للعبودية، ثم يضم إلى شخوص من في السماوات والأرض ظلالهم كذلك؛ ظلالهم بالغد في الصباح، وبالآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال، يضم هذه الظلال إلى الشخوص في السجود والخضوع والامتثال.

وهي في ذاتها حقيقة، فالظلال تبع للشخوص، ثم تلقي هذه الحقيقة ظلها على المشهد، فإذا هو عجب وإذا السجود مزدوج: شخوص وظلال، وإذا الكون كله بما فيه من شخوص وظلال جاثية خاشعة عن طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء. كلها تسجد لله. وأولئك الخائبون يدعون آلهة من دون الله!. وفي جو هذا المشهد العجيب يتوجه إليهم بالأسئلة التهكمية، فما يجدر بالمشرك بالله في مثل هذا الجو إلاّ التهكم، وما يستحق إلاّ السخرية والاستهزاء. . . ﴿**قل من ربّ السماوات والأرض؟. قل الله. قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً؟. قل هل يستوي الأعمى والبصير؟. أم هل تستوي الظلمات والنور؟. أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم؟. قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار**﴾: سلْهم وكل من في السماوات والأرض مأخوذ بقدرة الله وإرادته ـ رضي أم كره ـ: من ربّ السماوت والأرض؟!.

وهو سؤال لا يجيبون عنه، فقد أجاب السياق من قبل؛ إنّما ليسمعون الجوابَ ملفوظاً وقد رأوْهُ مشهوداً، قل: الله. ثم سلهم: أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً؟. سلهم للاستنكار، فهم بالفعل قد اتخذوا أولئك الأولياء، سلهم والقضية واضحة، والفرق بين الحق والباطل واضح وضوح

الفارق بين الأعمى والبصير، وبين الظلمات والنور. وفي ذكر الأعمى والبصير إشارة إليهم وإلى المؤمنين؛ فالعمى وحده هو الذي يصدهم عن رؤية الحق الواضح الجاهر الذي يحس بأثره كل من في السماوت والأرض، وفي ذكر الظلمات والنور إشارة إلى حالهم وحال المؤمنين؛ فالظلمات التي تحجب الرؤية هي التي تكفهم وتكفهم عن الإدراك للحق المبين. أم ترى هؤلاء الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله؟، فتشابهت على القوم هذه المخلوقات وتلك، فلم يدروا أيّها من خلق الله وأيّها من خلق الشركاء؟.

فهم معذورون إذن إن كان الأمر كذلك في اتخاذ الشركاء، فلهم من صفات الله تلك القدرة على الخلق التي بها يستحق المعبود العبادة، وبدونها لا تقوم شبهة في عدم استحقاقه؟. وهو التهكم المر على القوم يرون كل شيء من خلق الله ويرون هذه الآلهة المدّعاة لم تخلق شيئاً وما هي بخالقة شيئاً، إنّما هي مخلوقة، وبعد هذا كله يعبدونها في غير شُبْهة، وذلك أسخف وأحط ما تصل العقول إلى دركه من التفكير. والتعقيب على هذا التهكم اللاذع حيث لا معارضة ولا جدال بعد هذا السؤال: قل: الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار؛ فهي الوحدانية في الخلق، وهي الوحدانية في القهر ـ أقصى درجات السلطان ـ.

وهكذا تحاط قضية الشركاء في مطلعها بسجود من في السماوات والأرض، وفي ختامها بالقهر الذي يخضع له كل شيء. ثم نمضي مع السياق يضرب مثلاً للحق والباطل، للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح، للخير الهادئ والشر المنتفخ. والمثل المضروب هنا مظهر لقوة الله الواحد القهار، ولتدبير الخالق المدبّر المقدّر، وهو من جنس المشاهد الطبيعية التي يمضي في جوها السياق. . . **﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها...﴾** الخ الآية: فإنزال الماء من السماء حتى تسيل به الوديان يتناسق مع جو البرق والرعد والسحاب الثقال في المشهد السابق، ويؤلف جانباً من المشهد الكوني العام الذي تجري في جوه قضايا السورة وموضوعاتها، فهي إحدى القضايا التي تعالجها. وليس هذا أو ذلك بعْدُ إلاّ إطار للمثل الذي يريد الله ليضربه للناس من مشهود حياتهم الذي يمرون عليه دون انتباه.

إنّ الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية، وهو يلم في طريقه غثاء فيطفو

على وجهه في صورة الزبد، حتى ليحجب الزبد الماء في بعض الأحيان؛ هذا الزَّبَدُ نافِشٌ رابٍ منتفخ، ولكنه بعدُ غثاء، والماء من تحته سارب ساكن هادئ، ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة، كذلك يقع في معدن الذهب والفضة؛ فيه خبث ووسخ يطفو عليه فيحجبه، ولكنه بَعَدُ زبد أو خبث، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً ويبقى الذهب؛ ذلك مثل الحق والباطل، فكذلك يقرر الله مصائر الدعوات، ومصائر الاعتقادات، ومصائر الأعمال من الأقوال والأفعال، وهو الواحد القهار المدبر للكون والحياة، العليم بالظاهر والباطن والحق والباطل والباقي والزائل، فمن استجاب لله فله الحسنى، والذين لم يستجيبوا له يلاقون من الهول ما يود أحدهم لو ملك ما في الأرض ومثله معه أن يفتدى به وما هو بمفتد، إنّما هو الحساب الذي هو يسوء، وإنّما هي جهنم لهم مهاد، وبالسُوء المهاد! . . . **﴿للذين استجابوا لربّهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾**: ويتقابل الذين يستجيبون مع الذين لا يستجيبون، وتتقابل الحسنى مع سوء العذاب، ومع جهنم وبئس المهاد، على منهج السورة كلها وطريقتها المطردة في الأداء!.

4 - بيان الوصف الفارق
بين المؤمن الصادق والكافر والمنافق

النص

* أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿21﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿22﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿23﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿24﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿25﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿26﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿27﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿28﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿29﴾

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿30﴾ ۞ كَذَٰلِكَ
أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ
أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿31﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ
أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا
أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا
وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ
قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿32﴾
وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟
ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿33﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ
عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ
أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ
ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿34﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿35﴾
۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ
ٱلنَّارُ ﴿36﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ

وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿37﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿38﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿39﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿40﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿41﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿42﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿43﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿44﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿أفمن يعلم أنّما أُنزل إليك من ربّك الحق كمن هو أعمى﴾: المُنزَل من الله إلى محمد: هو القرآن الذي مثل بالماء المُنزَل من السماء والإبريز الخالص في المنفعة والجدوى. والحق: الذي أشير إليه بالأمثال المضروبة. ومعنى الأعمى

هنا: الحائر في ظلمات الجهل وغياهب الضلال... ﴿**إنّما يتذكر أولوا الألباب**﴾: التذكر: التنبّه لأمر كان مغفولاً عنه. والألباب: العقول الصافية السليمة من آفات الأوهام... ﴿**الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق**﴾: الوفاء بالعهد: أن يحقق المرء ما عاهد على أن يعمله، ومعنى العهد: الوعد الموثق بإظهار العزم على تحقيقه من يمين أو توكيد.

وعهد الله: الإيمان الذي أخذه الله على الإنسان عندما كان على الفطرة السليمة قبل أن يضله الشيطان!. «ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألاّ تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدو مبين»... ونقض الميثاق: عكس الوفاء بالعهد، والتعريف في الميثاق يحمل على تعريف الجنس فيستغرق جميع المواثيق، وبذلك يكون أعم من عهد الله فيشمل المواثيق الحاصلة بين الناس... ﴿**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل**﴾: الوصل: ضم شيء لشيء، وضده القطع، ويطلق على القرب وضده الهجر.

و﴿**ما أمر الله به أن يوصل**﴾: عام في جميع الأواصر والعلائق التي أمر الله بالمودة والإحسان لأصحابها؛ فمنها آصرة الإيمان، ومنها آصرة القرابة... ﴿**ويخشون ربّهم**﴾: الخشية: خوف بتعظيم المخوف منه... ﴿**ويخافون سوء الحساب**﴾: خوف سوء الحساب: ظن وقوع المضرة مما يقع للمحاسَب عند محاسبته الحساب العسير... ﴿**والذين صبروا ابتغاء وجه ربّهم**﴾: الصبر: تحمل ما يشق على النفس عمله من أوامر الشرع ونواهيه، وأصله في اللغة: تحمل ما يشق على النفس إيجاباً وسلباً، فهو أعم من الصبر الشرعي؛ ولهذا جيء بالشرط له بقوله: ابتغاء وجه ربّهم؛ لأنّه يسهل العمل على النفس مع الرياء والعجب... ﴿**وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية**﴾: أدوا الصلاة والزكاة المفروضتين المقرونتين كثيراً في القرآن الكريم... ﴿**ويدرءون بالحسنة السيئة**﴾: الدرء: الدفع والطرد والإزالة والعدوة، فقد جمع يدرأون جميع هذه المعاني... ﴿**أولئك لهم عقبى الدار**﴾: العقبى: العاقبة، وهي الشيء الذي يعقب. والدار: المنزل والمأوى والمقر الدائم... ﴿**جنات عدن يدخلونها**﴾: تفسير لعقبى الدار وتوضيح أكثر... ﴿**ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم**﴾: من صلح: بالإيمان والعمل الصالح. والآباء: الأصول.

والأزواج والذرية: النسل الصالح من الزوجات الصالحات. . . ﴿**والملائكة يدخلون عليهم من كل باب**﴾: زيادة في الأنس والتكريم بالإتحاف والتنعيم. . . ﴿**سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾: هذا قول الملائكة لهم عند دخولهم عليهم تكريماً لهم بالقول مع تكريمهم بالفعل. فنعم عقب الدار: الجنة. . . ﴿**والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار**﴾: الذين ينقضون: مقابل الذين يوفون. ويقطعون: مقابل يَصِلُونَ. ويفسدون: مقابل يصلحون، وهو مضمون الصفات التي اتصف بها المؤمنون من الخشية والخوف والصبر ...الخ الأوصاف التي اتسمت بالصلاح؛ فاللعنة مقابل الإقامة في الجنة، وسوء الدار مقابل عقبى الدار. . . ﴿**الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**﴾: بسط الرزق: كثرته، وهو المأكل والمشرب والملبس والمسكن وما فيه من أثاث ورياش.

وتقديره: قلته. . . ﴿**وفرحوا بالحياة الدنيا**﴾: الفرح بالحياة الدنيا: البطر والأسر والزهو والتكبر على الغير بما لهم من النعيم وكثرة الخير. . . ﴿**وما الحياة الدنيا** ﴿**في الآخرة إلاّ متاع**﴾: أصل المتاع: ما يتمتع به المسافر من الزاد في وقت سفره، والإنسان في هذه الدنيا مسافر إلى الآخرة، وهي دار النعيم ودار القرار؛ فمتاع الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة شيء تافه لا يعتد به من قلته وعدم دوامه. . . ﴿**ويقول** ﴿**الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربّه**﴾: تقدم معنى هذا في الدرس السابق. . . ﴿**قل إنّ الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب**﴾: الإضلال: ترك التائه في تيهه حتى يهلك.

والهدايَة: إراءة دلائل الطريق حتىَ يتضح لمن يريد أن يسلكه. والإنابة: حقيقتها الرجوع، وأطلقت هنا على الاعتراف بالحق عند ظهور دلائله؛ لأنّ النفس تنفر من الحق ابتداء، ثم ترجع إليه؛ فالإنابة هنا ضد النفور. . . ﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله: الاطمئنان**﴾: والسكون والهدوء والرضى. والقلوب: العقول. وذكر الله: القرآن. . . ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾: تنويه بشأن القرآن، وأنّه الوحيد الذي تطمئن النفوس وتهدأ هواجسها باستيلاء العقل الفاهم لما في القرآن على غرائز النفس والشيطان. . . ﴿**الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب**﴾: طوبى: مصدر من طاب طيباً إذا حسن، وهي بوزن البُشرى والزلفى، قلبت ياؤها واواً لمناسبة الضمة.

وحسن المآب: المرجع الحسن والمستقر المطمئن في دار القرار... ﴿**كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم**﴾: مثل هذا الإرسال أرسلناك يا محمد في أمة ـ هي أمة العرب الذين عرفوا بالفصاحة وحسن البيان ـ قد ذهبت قبلها أمم كثيرة جاءتهم رسل كثيرة ـ كل رسول جاء بمعجزة تناسب أمته... ﴿**لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك**﴾: أرسلناك إلى أمة العرب ليسمعوا منك هذا القرآن بتلاوتك عليهم؛ ليكون حجة ودليلاً كافياً وهادياً لهم... ﴿**وهم يكفرون بالرحمان**﴾: حيث أشركوا به غيره وأنكروا معنى الرحمان الذي خصهم لهذه الرحمة الشاملة للقرآن ولمحمد ﷺ... ﴿**قل هو ربي لا إله الاّ هو عليه توكلت وإليه متاب**﴾: المتاب مصدر ميمي على وزن مفعل، وهو بمعنى الرجوع إلى الله في المآل... ﴿**ولو أنّ قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى**﴾: معنى لو أنّ كتاباً من الكتب السالفة اشتمل على أكثر من الهداية، فكانت مصادر لإيجاد العجائب لكان هذا القرآن كذلك.

ولكن لم يكن قرآن كذلك، فهذا القرآن لا يطلب منه أن تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو تكلم به الموتى؛ إذ ليس ذلك من طبع الكتب الإلهية... ﴿**بل لله الأمر جميعا**﴾: ليس ذلك من أمر الكتب بل الأمر كله لله في إنزال الكتب وفي إرسال الخوارق، فليس هذا من أمر الرسول... ﴿**أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً**﴾: ييأس: بمعنى يعلم، ولا يستعمل هذا الفعل إلاّ مع أن المصدرية التي تأتي بعده، وأصله مشتق من اليأس الذي هو تيقن عدم حصول المطلوب بعد البحث... ﴿**ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله**﴾: معنى لا يزال: يدل على الإخبار باستمرار شيء واقع. والقارعة: الحادثة المفجعة، وأصل القرع ضرب شيء بشيء آخر ينشأ منهما صوت مزعج. والحلول: النزول.

ووعد الله: نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين في الدنيا، والثواب والعقاب في العقبى... ﴿**إنّ الله لا يخلف الميعاد**﴾: حيث وعد المؤمنين وأوعد الكافرين... ﴿**ولقد استهزئ برسل من قبلك**﴾: الاستهزاء: شدة الهزء، والهزء السخرية... ﴿**فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب**﴾: الإملاء: الإمهال والترك مدّة. والاستفهام في قوله: فكيف كان عقاب للتعجيب... ﴿**أفمن هو قائم على**

كل نفس بما كسبت﴾: الاستفهام إنكاري حيث ساوى المشركون آلهتهم بالله القائم على كل نفس بما كسبت، فجعلوا لله أندادا عبدوها من دون الله!.. وجعلوا لله شركاء: لا وجود لها إلاّ في أوهام المشركين... **﴿قل سموهم﴾**: سموهم شركاء، فليس لهم حظ إلاّ التسمية... **﴿أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض﴾**: استفهام إنكاري توبيخي حيث جعلوا مع الله شيئاً لا وجود له، إلاّ في ظاهر قولهم... **﴿بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل﴾**: إضراب عن الاحتجاج عليهم إلى كشف السبب، وهو أنّ أئمة المشركين زينوا لهم الشرك مكراً بهم وتغريراً؛ فالمكر إخفاء وسائل الضر... وصدوا عن السبيل: حيث وقفوا مانعين الناس عن طريق الحق بالتزيين والمكر والخداع... **﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾**: حكم عام يدخل فيه كل من عمل عملهم... **﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾**: عذاب الدنيا: القتل والخزي والأسر والخوف من مصائب الدهر... **﴿ولعذاب الآخرة أشق﴾**: عذاب الآخرة: دخولهم جهنم خالدين فيها أبداً. ووجه كونه أشق من عذاب الدنيا، لأنّ عذاب الدنيا ينتهي بالموت، وعذاب الآخرة لا موت معه ولا نهاية له ولا فيه فوت... **﴿وما لهم من الله من واق﴾**.

﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها﴾: المثل هنا: الصفة العجيبة. والجنة التي وعد المتقون: مقابل العذاب الذي وعد الكافرون. وصفت بثلاثة أوصاف: جريان الأنهار من تحتها، ودوام أكلها، وانتشار ظلها... **﴿تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾**: بهذه المقارنة يتّضحُ الفرق بين عقبى المتقين وعقبى الكفار... **﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك﴾**: هم أهل الكتاب اليهود والنصارى المفروض فيهم أن يفرحوا بهذا القرآن المصدق لما عندهم... **﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾**: الأحزاب الذين تحزبوا تعصباً ضد بعثة محمد العربي إليهم، وإنّما محمد مبعوث إلى العرب فقط، ولا زالت بعض طوائف من اليهود والنصارى ترى هذا الرأي... **﴿قل إنّما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعوا وإليه مآب﴾**: عرض قضية دعوة محمد دون تعصب ولا تحيز، فهو مأمور بعبادة الله وحده وعدم الإشراك به كائناً من كان، فهو الذي يدعو إليه وحده، وإليه المرجع والمآب... **﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾**: ومثل هذا الإنزال أنزلنا القرآن معجزاً من جهة حكمة التشريع، ومن جهة دلالة التبليغ... **﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من**

ولي ولا واق﴾: تحذير الرسول من اتباع أهواء المشركين التي فقدت الدليل النقلي والعقلي بعد ما جاءه العلم المدعّم بالنقل والعقل بالتوضيح والتفصيل.

والولي: النصير. والواقي: المدافع والحامي... **﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذريّة﴾**: ردٌّ على من يزعم أنّ الرسول لا يتزوج ولا يولد له؛ فالرسل الذين أرسلهم الله أكثرهم تزوّج النساء وتركوا أولاداً وأحفاداً، ومنهم من تزوج ولم يولد له ومنهم من تزوج وولد له البنون وماتوا قبله ومنهم كثير... **﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلاّ باذن الله﴾**: ردٌّ آخر لإنكار المشركين عدم إتيان الرسول بالخوارق التي طلبوها... **﴿لكل أجل كتاب﴾**: الأجل: الوقت الموقت به عمل معزوم أو موعود. والكتاب: المكتوب المحدد. **﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾**: المحو: إزالة الشيء، وكثر في إزالة الخط أو الصورة. والتثبيت: جعل الشيء ثابتاً قارّاً في مكان... **﴿وعنده أم الكتاب﴾**: الأم: الأصل.

والكتاب: كل ما يكتب، فالمحو معلوم والتثبيت مقصود... وكل شيء عنده بمقدار... **﴿وإن مّا نرينّك بعض الذي نعدهم أو نتوفينّك فإنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾**: كيفما دارت الحال؛ أريناك بعض ما وعدناهم من العذاب الدنيوي أو لم نركَهُ فعلينا ذلك، وما عليك إلاّ تبليغ الرسالة... **﴿أو لم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾**: تبشير للنبيء بالفتح والنصر، وإنذار لقريش بالغلبة والقهر... **﴿وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار﴾**: مكر هؤلاء ومكر الذين من قبلهم. وحل العذاب بالذين من قبلهم، فمكر الله بهم. وهو يمكر بهؤلاء مكراً عظيماً كما مكر بمن قبلهم، فهو تهديد بالأخذ الشديد! ..**﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً﴾**: تصريح بالإنكار... **﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾**: ردٌّ على إنكارهم شهادة الله برسالته، وكذلك شهادة من له إدراك بالكتب السابقة وهو: **﴿ومن عنده علم الكتاب﴾**.

مبحث الإعراب

﴿أفمن﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء للتفريع، ومن في محل رفع مبتدأ. **﴿يعلم﴾** فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على من، والجملة صلة مَنْ. **﴿أنّما﴾**

كافة ومكفوفة. ﴿**أُنزل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**إليك**﴾ من ربّك متعلقان بأُنزل. ﴿**الحقُّ**﴾ نائب فاعل أُنزل. ﴿**كمن**﴾ الكاف في محل رفع خبر المبتدإ، ﴿**ومن**﴾ في محل جر بالكاف. ﴿**هو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أعمى**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بضمة مقدرة على الألف، وجملة هو أعمى صلة مَنْ. ﴿**إنّما**﴾ مثل أنّما. ﴿**يتذكر**﴾ أولوا فعل وفاعل. ﴿**الألباب**﴾ مضاف إلى أولوا، وجملة أنّما أنزل في محل نصب مفعول يعلم مؤول بمصدر، وجملة إنّما يتذكر تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع مبتدأ.

﴿**يوفون**﴾ فعل وفاعل، صلة الذين. ﴿**بعهد**﴾ متعلق بيوفون. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى عهد. ﴿**ولا ينقضون الميثاق**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف النفي وواو العطف. ﴿**والذين يصلون**﴾ معطوف على الذين يوفون. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول يصلون. ﴿**أمر الله**﴾ فعل وفاعل، صلة ما. ﴿**به**﴾ متعلق بأمر. ﴿**أن يوصل**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول. ونائب الفاعل ضمير يعود على ما، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف مقدر متعلق بأمر، والتقدير: يصلون ما أمر الله بإيصاله، وهو بدل من الضمير في به. ﴿**ويخشون ربّهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على يصلون. ﴿**ويخافون سوء**﴾ كذلك. ﴿**الحساب**﴾ مضاف إلى سوء. ﴿**والذين صبروا**﴾ معطوف على الذين يوفون. ﴿**ابتغاء**﴾ مفعول لأجله. ﴿**وجه**﴾ مضاف إلى ابتغاء. ﴿**ربّهم**﴾ مضاف إلى وجه. ﴿**وأقاموا**﴾ معطوف على صبروا. ﴿**الصلاة**﴾ مفعول به. ﴿**وأنفقوا**﴾ معطوف على أقاموا. ﴿**ممّا**﴾ متعلق بأنفقوا.

﴿**رزقناهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، صلة ما. ﴿**سراً**﴾ حال من ضمير الجماعة. ﴿**وعلانية**﴾ معطوف عليه. ﴿**ويدرءون**﴾ فعل وفاعل معطوف على ما قبله. ﴿**بالحسنة**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**السيئة**﴾ مفعول به. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**عقبى**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**الدار**﴾ مضاف إلى عقبى، وجملة لهم عقبى الدار خبر أولئك، وجملة أولئك لهم عقبى الدار خبر الذين يوفون بعهد الله. ﴿**جنات**﴾ بدل من عقبى. ﴿**عدن**﴾ مضاف إلى جنات. ﴿**يدخلونها**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة بيانية. ﴿**ومن**﴾ معطوف على الضمير الفاعل. ﴿**صلح**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والجملة

صلة مَنْ. ﴿**من آبائهم**﴾ بيان لمن. وأزواجهم معطوف على آبائهم. ﴿**وذرياتهم**﴾ كذلك. ﴿**والملائكة**﴾ مبتدأ.

﴿**يدخلون**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدإ، وجملة والملائكة يدخلون في محل نصب حال من فاعل يدخلونها. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بيدخلون. ﴿**من كل**﴾ كذلك. ﴿**باب**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**سلامٌ**﴾ مبتدأ. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ، والجملة في محل نصب مقول لقول مقدر. ﴿**بما**﴾ متعلق بما دل عليه سياق الكلام. ﴿**صبرتم**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**فنعم**﴾ فعل ماض دخل عليه حرف التعقيب. ﴿**عقبى**﴾ فاعل نعم. ﴿**الدار**﴾ مضاف إلى عقبى، وجملة نعم عقبى الدار في محل رفع خبر لمبتدإ مقدر، وهو المخصوص بالمدح، والتقدير: الجنات نعم عقبى الدار.

﴿**والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار**﴾: هذا معطوف على قوله: الذين يوفون بعهد الله. . . إلى قوله: أولئك لهم عقبى الدار، فإعراب هذا مثل إعراب مُقَابِلِهِ. ﴿**الله**﴾ مبتدأ. ﴿**يبسط**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**الرزق**﴾ مفعول به. ﴿**لمن**﴾ متعلق بيبسط. ﴿**يشاء**﴾ صلة مَنْ. ﴿**ويقدر**﴾ معطوف على يبسط. ﴿**وفرحوا**﴾ فعل وفاعل، والواو للعطف. ﴿**بالحياة**﴾ متعلق بفرحوا. ﴿**الدنيا**﴾ نعت للحياة مجرور بكسرة مقدرة على الألف. ﴿**وما الحياة**﴾ مبتدأ دخل عليه حرف النفي وواو العطف. ﴿**الدنيا**﴾ نعت له.

﴿**في الآخرة**﴾ متعلق بمحذوف حال من الحياة الدنيا. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**متاع**﴾ بدل من الخبر المقدر. والتقدير: وما الحياة الدنيا في جانب الآخرة شئ إلا شئ قليل مثل متاع المسافر. ﴿**ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه**﴾: تقدم إعراب مثله في الدرس السابق. ﴿**قل: إن الله**﴾ إن واسمها. ﴿**يضل**﴾ فعل مضارع والفاعل ضمير يعود على الله. وجملة يضل في محل رفع خبرُ إنّ. وجملة إن الله يضل في محل نصب مقول القول. ﴿**مَن**﴾ في محل نصب مفعول به. وجملة يشاء صلة مَنْ. ﴿**ويهدى**﴾ معطوف على يضل. ﴿**إليه**﴾ متعلق بيهدى. ﴿**مَن**﴾ مفعول يهدى. ﴿**أناب**﴾ فعل ماضى. والفاعل ضمير يعود على مَن. والجملة صلة مَن. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع مبتدأ.

﴿آمنوا﴾ صلة الذين. ﴿وتطمئن﴾ فعل مضارع معطوف على الصلة. ﴿قلوبهم﴾ فاعل. ﴿بذكر﴾ متعلق بتطمئن. ﴿الله﴾ مضاف إلى ذكر. ﴿ألا﴾ أداة استفتاح. ﴿بذكر﴾ متعلق بما بعده. ﴿الله﴾ مضاف إلى ذكر. ﴿تطمئن﴾ القلوبُ فعل وفاعل. وجملة ألا بذكر الله تطمئن القلوب اعتراضية. ﴿الذين﴾ في محل رفع بدل من المبتدإ. ﴿آمنوا﴾ صلة الذين. ﴿وعملوا الصالحات﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿طوبى﴾ خبر الذين آمنوا الأول. مرفوع بضمة مقدرة على الألف. ﴿لهم﴾ متعلق بمحذوف نعت لطوبى. ﴿وحسنُ﴾ معطوف على طوبى. ﴿مآب﴾ مضاف إلى حسن. ﴿كذلك﴾ الكاف في محل نصب نعت لمصدر مقدر واسم الإشارة في محل جر بالكاف.

﴿أرسلناك﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿فى أمة﴾ متعلق بأرسلناك. ﴿قد خلت من قبلها﴾ متعلق بخلت. ﴿أممٌ﴾ فاعل خلت. ﴿لتتلوَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل. والفاعل ضمير المخاطب. ﴿عليهم﴾ متعلق بتتلو ﴿الذى﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿أوحينا﴾ صلة الذى. ﴿إليك﴾ متعلق به. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور باللام متعلق بأرسلناك. ﴿وهم﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿يكفرون﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿بالرحمن﴾ متعلق بيكفرون والجملة معطوفة على قوله: كذلك أرسلناك. ﴿قل﴾ فعل أمر ﴿هو﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿ربى﴾ خبر المبتدإ مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم. ﴿لا إله﴾ لا واسمها. ﴿إلا هو﴾ بدل من الخبر لا المقدر.

والتقدير: لا إله معبودٌ إلا هو. وجملة لا إله إلا هو خبر ثان لهو. ﴿عليه﴾ متعلق بقوله: ﴿توكلت﴾ فعل وفاعل. ﴿وإليه﴾ متعلق بقوله: ﴿متاب﴾. وهو معطوف على قوله: عليه توكلت أى: ورجعت مرجعا إليه. ﴿ولو أن قرآنا﴾ أن واسمها دخل عليها حرف الشرط وواو العطف. ﴿سيرت﴾ فعل ماضى مبنى للمجهول. ﴿به﴾ متعلق بسيرت. ﴿الجبال﴾ نائب فاعل سيرت. ﴿أو قطعت به الأرض﴾ مثله في الإعراب معطوف عليه. ﴿أو كلم به الموتى﴾ كذلك. وجواب لو محذوف معلوم من السياق أى: لو كان قرآنا بهذا الوصف لكان هذا القرآن. . . فالجمل الثلاث في محل رفع خبر أنّ. ﴿بل﴾ حرف إضراب. ﴿لله﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم.

﴿**الأمر**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**جميعا**﴾ منصوب على الحال من الأمر والجملة معطوفة ببل على قوله: ولو أن قرآنا... ﴿**أفلم ييأس الذين**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه لم الجازمة وفاء التفريع وهمزة الاستفهام. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**أن**﴾ مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن. ﴿**لو**﴾ حرف امتناع لامتناع متضمنة معنى الشرط .﴿**يشاء الله**﴾ فعل الشرط. ﴿**لهدى**﴾ جوابه. وجملة الشرط وجوابه في محل رفع خبرُ أنّ المخففة. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق ببيأس. وتقدير الكلام: أفلم ييأس الذين آمنوا من هداية الكافرين لأجل عدم هدايته إياهم إذ لو شاء لهدى ﴿**الناس جميعا**...﴾ ولكن لم يشأ ذلك. ﴿**ولا يزال الذين**﴾ الواو للعطف. ولا نافية. يزال مضارع زال من أخوات كان.

﴿**الذين**﴾ اسمها. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين. ﴿**تصيبهم**﴾ فعل مضارع. والضمير المتصل به مفعول... ﴿**قارعة**﴾ فاعل تصيب وجملة تصيبهم... في محل نصب خبر يزال. وقوله ﴿**بما صنعوا**﴾ متعلق بتصيبهم. ﴿**أو تحل**﴾ معطوف على تصيب. ﴿**قريبا**﴾ حال من فاعل تحل. وهى القارعة. ﴿**من دارهم**﴾ متعلق بالحال. ﴿**حتى يأتى وعْدُ**﴾ فعل وفاعل تصيب بأن مضمرة بعد حتى. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى وعد. ﴿**إن الله**﴾ إن واسمها. ﴿**لا يخلف**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفى. والفاعل ضمير يعود على الله. وجملة لا يخلف. في محل رفع خبر إنّ. وجملة إن الله... تذييل... ﴿**ولقد استهزئ**﴾ فعل ماضى مبنى للمجهول دخل عليه حرف التحقيق ولام القسم وواو العطف. ﴿**برسل**﴾ متعلق باستهزئ ناب مناب الفاعل. ﴿**من قبلك**﴾ متعلق بمحذوف نعت لرسل.

﴿**فأمليت**﴾ فعل وفاعل دخل عليه فاء التعقيب. ﴿**للذين**﴾ متعلق بأمليت. ﴿**كفروا**﴾ صلة الموصول. ﴿**ثم أخذتهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على «فأمليت». ﴿**فكيف**﴾ اسم استفهام تعجيبى في محل نصب حال. ﴿**كان عقاب**﴾ فعل وفاعل حذفت ياء عقابى تخفيفا. ﴿**أفمن**﴾ الفاء الواقعة بعد همزة الاستفهام مؤخرة من تقديم؛ لأن همزة الاستفهام لها الصدارة... فتقدير أصل النظم: فأمن... ومن في محل رفع مبتدأ ﴿**هو قائم**﴾ صلة من. ﴿**بما**﴾ متعلق بقائم. ﴿**كسبت**﴾ صلة ما. وخبر المبتدإ محذوف دلت عليه جملة وجعلوا الله شركاء.

والتقدير: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت مثل ما جعلوا شركاء لا يملكون شيئا؟. ﴿**وجملة وجعلوا لله شركاء**﴾ في موضع الحال من ضمير المشركين المفهوم من الكلام السابق. ﴿**قل: سموهم**﴾ فعل أمر وواو الجماعة فاعل. وضمير الغائبين مفعول. والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**أم تنبئونه**﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف بأمْ على جملة سموهم. ﴿**بما**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**لا يعلم**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفى. والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**فى الأرض**﴾ متعلق بالفعل قبله. وجملة لا يعلم في الأرض صلة ما. ﴿**أم بظاهر**﴾ معطوف على بما لا يعلم. ﴿**من القول**﴾ متعلق بظاهر. ﴿**بل زين**﴾ فعل ماضى مبنى للمجهول دخل عليه حرف الإضراب. ﴿**للذين**﴾ متعلق بزين. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين.

﴿**مكرهم**﴾ نائب فاعل زُين. ﴿**وصدوا**﴾ فعل وفاعل معطوف على زين. ﴿**عن السبيل**﴾ متعلق بصدوا. ﴿**ومن يضلل الله**﴾ جملة شرطية. ﴿**فماله**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. وما نافية. والفاء رابطة. ﴿**من هاد**﴾ مبتدأ مؤخر دخل عليه حرف الجر الزائد فَجرُّ لفظا ورُفِعَ محلاً. وجملة فماله من هاد في محل جزم جواب الشرط. وجملة ومن يضلل الله فماله من هاد تذييل لا محل لها من الإعراب. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**عذاب**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**فى الحياة**﴾ متعلق بالخبر. ﴿**الدنيا**﴾ نعت للحياة. والجملة بيانية. ﴿**ولعذاب**﴾ مبتدأ. دخل عليه لام التوكيد وواو العطف. ﴿**الآخرة**﴾ مضاف إلى عذاب. ﴿**أشق**﴾ خبر المبتدإ.

﴿**وما لهم من الله من واق**﴾ مثل فماله من هاد في الإعراب... ﴿**مثلُ**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿**الجنة**﴾ مضاف إلى مثل. ﴿**التى**﴾ في محل جر نعت لجنة. ﴿**وعد**﴾ فعل ماضى مبنى للمجهول. ﴿**المتقون**﴾ نائب فاعل وُعِدَ. ﴿**تجرى**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء. ﴿**من تحتها**﴾ متعلق بتجرى. ﴿**الأنهارُ**﴾ فاعل. ﴿**أكلُها**﴾ مبتدأ. دائم خبره. والجملة خبر ثان لمثل. ﴿**وظلُّها**﴾ معطوف على أكلها. والخبر مقدر دل عليه دائم... ﴿**تلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**عقبى**﴾ خبره. ﴿**الذين**﴾ في محل جر مضاف إلى عقبى. ﴿**اتقوا**﴾ صلة الذين. ﴿**وعقبى**﴾ مبتدأ. ﴿**الكافرين**﴾ مضاف إلى عقبى.

﴿**النارُ**﴾ خبر المبتدإ. والجملة عطف على جملة تلك عقبى... ﴿**والذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**آتيناهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**الكتاب**﴾ مفعول ثان لآتينا. وجملة آتيناهم الكتاب صلة الذين. ﴿**يفرحون**﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**بما**﴾ متعلق بيفرحون. ﴿**أُنزل**﴾ إليك صلة ما. ﴿**ومِن الأحزاب مَن**﴾ مِن بمعنى بعض مبتدأ. ﴿**ومن**﴾ اسم موصول خبره. والتقدير: وبعض الأحزاب الذين ينكرون بعضه. وجملة. ﴿**ينكر صلة مَنْ**...﴾ ﴿**بعضه**﴾ مفعول به. ﴿**قل: إنما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**أمرت**﴾ فعل ماضى مبنى للمجهول. وضمير المتكلم نائب الفاعل. ﴿**أن أعبد**﴾ فعل مضارع منصوب بأن والفاعل ضمير المتكلم. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بالباء متعلق بأمرت. ﴿**الله**﴾ مفعول به منصوب.

﴿**ولا أشرك**﴾ معطوف على أعبد. ﴿**به**﴾ متعلق بالفعل قبله. والتقدير: قل. أمرت بعبادة الله وعدم الإشراك به. ﴿**إليه**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**أدعو**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الواو. والفاعل ضمير المتكلم. ﴿**وإليه مآب**﴾ معطوف على إليه أدعو. ﴿**وكذلك**﴾ أنزلناه تقدم إعراب مثل هذا في قوله: كذلك أرسلناك... ﴿**حكما عربيا**﴾ منصوبان على الحال من الضمير المنصوب. ولئن الواو عاطفة. والام للقسم. وإن شرطية. ﴿**اتبعت أهواءهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. فعل الشرط. ﴿**بعد**﴾ متعلق باتّبعت. ﴿**ما**﴾ في محل جر مضاف إلى بعد. ﴿**جاءك**﴾ صلة ما. ﴿**من العلم**﴾ متعلق بجاءك. ﴿**ما**﴾ نافية. ﴿**لك**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**من الله**﴾ متعلق به.

﴿**من ولى**﴾ مبتدأ مؤخر جُرَّ بحرف الجر الزائد. ﴿**ولا واق**﴾ معطوف عليه. وجملة ما لك جواب القسم... وَسدّ مسدّ جواب الشرط. ﴿**ولقد أرسلنا رسلا**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف التحقيق ولام التوكيد وواو العطف. ﴿**من قبلك**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**وجعلنا**﴾ معطوف على أرسلنا. ﴿**لهم**﴾ متعلق بجعلنا. ﴿**أزواجا**﴾ مفعول به. ﴿**وذرية**﴾ معطوف عليه. ﴿**وما كان**﴾ فعل ماضى تام دخلت عليه ما النافية وواو العطف. ﴿**لرسول**﴾ متعلق بكان. ﴿**أن يأتى**﴾ فعل مضارع منصوب بأن. والفاعل ضمير يعود على رسول. ﴿**بآية**﴾ متعلق بيأتى. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع فاعل كان. وتقدير الكلام: ما صح لرسول

إتيانُه بآية من عند نفسه. ﴿إلا بإذن الله﴾ استثناء من عموم الأحوال. أى: في أى حال من الأحوال إلا في حال إذن الله.

﴿يمحو الله﴾ فعل وفاعل. ﴿ما﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿يشاء﴾ صلة ما. ﴿ويثبت﴾ معطوف على يمحو. ﴿وعنده﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿أمُّ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿الكتاب﴾ مضاف إلى أم. ﴿وإن ما نرينك﴾ الواو للعطف. وإن شرطية. وما صلة. نرينك فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد. في محل جزم بإنْ. والفاعل نحن. والضمير المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿بعض﴾ مفعول ثانٍ. ﴿الذى﴾ في محل جر مضاف إلى بعض. ﴿نعدهم﴾ صلة الذى. ﴿أو نتوفينك﴾ معطوف على نرينك. وهو مثله في الإعراب. ﴿فإنما﴾ كافة ومكفوفة والفاء رابطة. ﴿عليك﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدّم. ﴿البلاغ﴾ مبتدأ مؤخر.

﴿وعلينا الحسابُ﴾ معطوف على عليك البلاغ. ﴿أولم يروا﴾ فعل مضارع مجزوم بلم. والهمزة للاستفهام. والواو للعطف. وواو الجماعة فاعل. ﴿أنا﴾ أن واسمها. ﴿نأتى﴾ فعل مضارع. والفاعل نحن. ﴿الأرض﴾ مفعول به. وجملة نأتى خبر أنّ وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول يروا. ﴿ننقصها﴾ جملة حالية من فاعل نأتى. ﴿من أطرافها﴾ متعلق بننقصها. والله مبتدأ. ﴿يحكم﴾ فعل مضارع. والفاعل ضمير يعود على الله. وجملة يحكم خبر المبتدإ والجملة اعتراضية ﴿لا معقب﴾: لا واسمها لحكمه: متعلق بمحذوف خبر لا: ﴿وهو سريع﴾: الجملة من المبتدأ والخبر تذييل. ﴿الحساب﴾ مضاف إلى سريع. والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿وقد مكر الذين﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التحقيق وواو الحال.

﴿من قبلهم﴾ متعلق بمحذوف صلة الذين. ﴿فلله﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدّم. والفاء للتفريع. ﴿المكر﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿جميعا﴾ حال من المكر. ﴿يعلم﴾ فعل مضارع. والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿ما﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿تكسب﴾ كل فعل وفاعل صلة ما. ﴿نفس﴾ مضاف إلى كل. ﴿وسيعلم﴾ الكافر فعل وفاعل معطوف على يعلم... ﴿لمن﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿عقبى﴾ مبتدأ. مرفوع بضمة مقدرة على الألف. وجملة لمن عقبى

الدار في محل نصب مفعول يعلم. والجملة استفهامية. ﴿**ويقول الذين**﴾ فعل وفاعل. والجملة معطوفة على ما تضمنه الكلام السابق. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين. ﴿**لست**﴾ ليس واسمها. ﴿**مرسلا**﴾ خبرها. وجملة لست مرسلا مقول القول: ﴿**قل**﴾: كفى فعل ماضى. ﴿**بالله**﴾ فاعل كفى جُرّ لفظه بحرف الجر الزائد. ﴿**شهيدا**﴾ منصوب على التمييز. ﴿**بينى**﴾ متعلق بما قبله. ﴿**وبينكم**﴾ معطوف على بينى. ﴿**ومَن**﴾ في محل رفع معطوف على الله. ﴿**عنده**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**علم**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**الكتاب**﴾ مضاف إلى علم وجملة كفى بالله شهيدا بينى وبينكم في محل نصب مقول القول.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾: هذا تفريع على قوله: للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له... الخ الآية... فالكلام نفى استواء المؤمن والكافر. وجاء الكلام في صورة الاستفهام تنبيها على غفلة الضالين عن عدم الاستواء. واستعير لمن لا يعلم أن القرآن حق اسم الأعمى؛ لأنه انتفى علمه بشئ ظاهِرٍ بَيِّنٍ فأشبه الأعمى... فالكاف في قوله: كمن هو أعمى للتشابه مستعمل للتماثل. والاستواء المراد به التماثل في الفضل بقرينة ذكر العمى.

ولهذه الجملة في المعنى اتصال بقوله في أول السورة: والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. وجملة إنما يتذكر أولوا الألباب تعليل للإنكار الذى هو بمعنى الانتفاء بأنّ سبب عدم علمهم بالحق أنهم ليسوا أهلا للتذكر؛ لأن التذكر من شعار أولى الألباب. والقصر بإنما إضافى... ففيه تعريض بالمشركين بأنهم لا عقول لهم؛ إذ انتفت عنهم فائدة عقولهم. ﴿**الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق**﴾ استئناف ابتدائى جاء لمناسبة ما أفادت الجملة التي قبلها من إنكار الاستواء بين فريقين.

ولذلك ذكر في هذه الجمل حال فريقين في المحامد والمساوى؛ ليظهر أن نفى التسوية بينهما في الجملة السابقة ذلك النفي المراد به تفضيل أحد الفريقين على الآخر هو نفي مُؤَيَّدٌ بالحجّة وبذلك يصير موقع هذه الجملة مفيدا تعليلا لنفى

التسوية المقصود منه تفضيل المؤمنين على المشركين... فيكون قوله: الذين يوفون بعهد الله مسند إليه. وكذلك ما عطف عليه وجملة ﴿**أولئك لهم عقبى الدار**﴾ مسندا. واجتلاب اسم الإشارة ـ أولئك لهم ـ للتنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف التي قبل اسم الإشارة. وقد ظهر بهذه الجملة كلها وبموقعها تفضيل الذين يعلمون أن ما أنزل حق؛ بما لهم من صفات الكمال الموجبة للفضل في الدنيا وحسن المصير في الآخرة. وبِمَا لِأَضْدَادِهم من ضد ذلك... والتعريف في قوله: ولا ينقضون الميثاق يُحْمَلُ على تعريف الجنس... فيستغرق جميع المواثيق. وبذلك يكون أعم من عهد الله... فيشمل المواثيق الحاصلة بين الناس من عهود وأيْمَان.

وباعتبار هذا العموم حصلت مغايرة ما بينه وبين عهد الله. وتلك هى مسوغة عطف ولا ينقضون الميثاق على يوفون بعهد الله مع حصول التأكيد لمعنى الأولى بنفى ضدها. وتعريضا بالمشركين لاتصافهم بضد ذلك الكمال. ﴿**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب**﴾: إعادة اسم الموصول في الجملة المعطوفة للدلالة على أن صلاتها خصال عظيمة تقتضى الاهتمام بذكر من اتصف بها... ومناسبة العطف في هذه الجملة أنّ وَصْلُ ما أمر الله به أن يوصل أثر من آثار الوفاء بالعهد. وهو عهد الطاعة الشامل لكل مأمور... وجاءت الصلات ـ الذين يوفون ـ والذين يصلون ـ وما عطف عليها بصيغة المضارع في تلك الأفعال الخمسة لإفادة التجدد؛ كناية عن الاستمرار.

وجاءت صلة: ﴿**والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية**﴾ بصيغة الماضى لإفادة تحقق هذه الأفعال الثلاثة لهم وتمكنها من أنفسهم تنويها بها؛ لأنها أصولٌ لفضائل الأعمال ثم أعيد أسلوب التعبير بالمضارع في المعطوف على صلة. وهو قوله: ﴿**ويَدْرَأُون بالحسنة السيئة**﴾ لاقتضاء المقام إفادة التجدد إيماء إلى أن تجدد هذا الدرْء مما يُحْرَصُ عليه. والدرْء هنا مستعار لإزالة أثر الشئ... وجملة ﴿**أولئك لهم عقبى الدار**﴾ نتيجة الأوصاف التي ذكرت لأولى الألباب. ودل اسم الإشارة أن المشار إليهم جديرون بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة لأجل ما وصف به المشار إليهم من الأوصاف.

﴿**جناتُ عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة**

يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾: تفسير وتوضيح لمعنى عقبى الدار التي كانت جزاء لمن وصفوا بالأوصاف السابقة... فتكررت الكلمة بعينها بدءا وختما... **﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾**: هذا شرح حال أضداد الذين يوفون بعهد الله. والجملة معطوفة على مقابلها... وجملة أولئك لهم اللعنة خبر عن والذين ينقضون عهد الله... فهى تقابل جملة أولئك لهم عقبى الدار... وتقابل في الجملتين الأوصاف الحميدة بالأوصاف الذميمة... فدخول الجنة يقابلها الطرد من الرحمة... وعقبى الدار يقابلها سوء الدار. والخزى يقابله السلام. **﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾**: هذه الآية مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا عما يهجس في نفوس السامعين من سماع قوله: أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار... المفيد أنهم مغضوب عليهم. ومع ذلك فهم متمتعون في الدنيا... فهل هذا له حكمة؟!.

فأجيبوا بأن الله يشاء بسط الرزق لبعض عباده ونقصه لبعض آخر؛ بحكمة متصلة بأسباب العيش في الدنيا... فالبسط للكافر استدراج. والقبض للمؤمن اختبار واستنهاض لما هو خير وأبقى. **﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب﴾**: هذه الجملة تكرير لنظيرتها السابقة من قوله: ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد. جئ بها هنا لغرض آخر وهو التعجيب من حال هؤلاء في عنادهم وضلالهم. إن آيات صدق النبئ واضحة لولا أن عقولهم لم تدركها لما فيها من موانع الإدراك... وأن الآيات الخارقة التي اقترحوها لم تنفع الأمم السابقة... فكانت سبب هلاكهم... ومع هذا أو ذاك أسباب أخرى خفية جعلتهم مستمرين في عنادهم وضلالهم!... **﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾**: استئناف اعتراضى مناسبته المضادة لحال الذين أضلهم الله، والبيان لحال الذين هداهم مع التنبيه على أن مثال الذين ضلوا هو عدم اطمئنان قلوبهم لذكر الله. وهو القرآن؛ لأن قولهم: لولا أنزل عليه آية من ربه يتضمن أنهم لم يعدوا القرآن آية من الله... فضلوا عن الذكر المطمئن للقلوب.

واهْتَدَى إليه المؤمنون. . . فأطمأنت قلوبهم وصلحت أعمالهم وحسنت أحوالهم وأُصلح بالُهم فطاب عيشهم وطاب مآلُهم! . . . **﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن﴾**: هذا الجواب عن قولهم: لولا أنزل عليه آية من ربه ؛. لأن الجواب السابق بقوله: قل: إن الله يضل من يشاء، جواب بالإعراض عن جهالتهم والتعجيب من ضلالهم. وما هنا هو الجوابُ الرادُّ لقولهم. . . فهى جملة بيانية. وفى افتتاحها بقوله: كذلك، الذى هو اسم إشارة تأكيد للمشار إليه. وهو التعجب من ضلالهم؛ إذ عموا عن صفة الرسالة.

والمشار إليه الإرسال المأخود من فعل أرسلناك. . . فالمشبه به عين المشبه. . . فهو إبطال لتوهم المشركين أن النبئ لمّاً لم يأتهم بما سألوه فهو غير مرسل من الله. . . وفى هذا الاستدلال تمهيد لقوله: ولو أن قرآنا سيرت به الجبال. . . فلذلك أردفت الجملة بقوله: لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك. وتضمن لام التعليل في قوله: لتتلو عليهم، أن الإرسال لأجل الإرشاد والهداية بما أمر الله لا لأجل الانتصاب لخوارق العادات. وفيه إيماء إلى أن القرآن هو معجزته، لأنه ذَكَرَه في مقابلة إرسال الأولين، ومقابلة قوله: ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه. وجملة وهم يكفرون بالرحمن عطف على جملة كذلك أرسلناك. . . والضمير عائد إلى المشركين المفهومين من المقام لا إلى أمة؛ لأن الأمة منها مؤمنون. والتعبير بالمضارع في يكفرون للدلالة على تجدد ذلك واستمراره.

واختيار اسم الرحمان من بين أسمائه تعالى؛ لأن كفرهم بهذا الاسم أشد؛ لأن هذه الصفة مزيد اختصاص بتكذيبهم الرسول وتأييده بالقرآن؛ لأن القرآن هدى ورحمة للناس؛ وقد أرادوا تعويضه بالخوارق التي لا تكسب هديا بذاتها. . . وقد لقن النبئ إبطال كفرهم المحكى إبطالا جامعا بأن يقول: **﴿هو ربى. . .﴾** فضمير هو عائد إلى الرحمان باعتبار المسمى بهذا الاسم. وقوله: **﴿لا إله إلا هو﴾** إبطال لإشراكهم معه في الإلهية غيره. وجملة **﴿عليه توكلت وإليه متاب﴾**، هى نتيجة لكونه ربا واحدا. . . وتقديم المجرورين، وهما، عليه. وإليه؛ لإفادة اختصاص التوكل، والمتاب بالكون عليه؛ لأنه لما توحد بالربوبية كان التوكل عليه. ولما اتصف بالرحمانية كان المتاب إليه؛ لأن رحمانيته مظنة لقبوله تَوْبَةَ عبدِه.

والمتاب مصدر ميمى على وزن مفعل، يفيد المبالغة؛ لأن الأصل في المصادر الميمية أنها أسماء زمان جعلت كناية عن المصدر ثم شاع استعمالها حتى صارت كالمصدر الصريح. ولما كان المتاب متضمنا معنى الرجوع إلى ما يأمر الله به عُدّى المتاب بحرف إلى. ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى: وصل الكلام بما قبله بالعطف؛ لأنه تتمة للجواب عن قولهم لولا أنزل عليه آية من ربه. وجواب لو محذوف لدلالة المقام عليه. ويفيد ذلك معنى تعريضيا بالنداء عليهم نهاية ضلالتهم؛ إذ لم يهتدوا بهدى القرآن ودلائله، والحال لو أن قرآنا أمر الجبال أن تسير. والأرض أن تنقطع والموتى أن تتكلم لكان هذا القرآن بالغا ذلك، ولكن ذلك ليس من شأن الكتب.

وجملة ﴿**بل لله الأمر**﴾ جميعا عطف على قوله: ولو أن قرآنا بحرف الإضراب أى: ليس ذلك من شأن الكتب بل لله أمر كل محدث... فهو الذى أنزل الكتاب وهو الذى يخلق العجائب إن شاء. وقد أفادت الجملتان المعطوفة والمعطوف عليها معنى القصر؛ لأن العطف ببل من طرق القصر. وأل في الأمر للاستغراق. وجميعا تأكيد له. وتقديم المجرور على المبتدإ لمجرد الاهتمام. وفرع على الجملتين ﴿**أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا**﴾ استفهاما إنكاريا، إنكار الانتفاء يَأْسِ الذين آمنوا... فهم حقيقون بزوال يأسهم وأن يعلموا أن لو شاء الله لهدى الناس جميعا... ففى هذا الكلام زيادة تقرير لمضمون جملة قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب.

﴿**ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد**﴾: وصلت الجملة بما قبلها بالعطف تكملة بوضع قاعدة عامة تتعلق بحال الكفر وأهله في كل زمان ومكان... ففيها تهديد بالوعيد على تعنت المشركين وإصرارهم على عدم الاعتراف بمعجزة القرآن. وتهكمهم باستعجال العذاب الذى توعدوا به. ﴿**ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب**﴾: وصلت الآية بالعطف على ما قبلها تكملة للموضوع حقه من جهة بدايته؛ وهو إصرارهم على الكفر بتعنتهم على طلب الخوارق استهزاءً... ومن جهة نهايته؛ وهو حلول العذاب بهم في الدنيا والآخرة. والاستفهام في قوله: فكيف كان عقاب لتعجيب السامع من فظاعة ذلك العذاب!.

وفى الأسلوب تمثيل بديع حيث أملى لهم كما يملى للدابة في عنفوان الربيع. **﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾**: فصل الكلام عما قبله لوجود همزة الاستفهام... فهو تفريع على ما سبق إظهاراً لقبح إشراكهم. وتنديد بسخافة عقولهم... فالفاء الواقعة بعد همزة الاستفهام مؤخرة من تقديم، لأن همزة الاستفهام لها الصدارة... فالفاء لتفريع الاستفهام وليس الاستفهام استفهاما للتفريع. وذلك هو الوجه في وقوع حروف العطف الثلاثة: والواو والفاء وثم بعد الاستفهام. وهو رأى المحققين... وخبر من هو قائم محذوف دلت عليه جملة وجعلوا لله شركاء. والتقدير: أمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ومن جعلوهم به شركاء سواء في استحقاق العبادة. والاستفهام إنكار لتلك التسوية المفاد من لفظ شركاء.

والعدول عن الاسم العلم إلى الموصول في قوله: أفمن هو قائم؛ لأن في الصلة دليلا على انتفاء المساواة. وتخطئة لأهل الشرك في تشريك آلهتهم لله تعالى في الإلهية. ونداء على غباوتهم؛ إذ هم معترفون بأن الله هو الخالق وجملة وجعلوا لله شركاء في موضع الحال. وإظهار الاسم العلم إظهار في مقام الإضمار وفائدة هذا الإظهار التعبير عن المسمى باسمه العلم الذى هو الأصل... وليكون تصريحا بأنه المراد من الموصول السابق زيادة في التصريح بالحجة. وجملة قل: سموهم استئناف أعيد معها الأمر بالقول لاسترعاء الأفهام لوعى ما سيذكر... فالأمر مستعمل في معنى الإباحة كناية عن قلة المبالاة بادعائهم أنهم شركاء ثم أضرب عن ذلك بجملة أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض. ودلت أم على أن ما بعدها في معنى الاستفهام. وهو إنكارى توبيخى. وهو كناية عن غير الموجود؛ لأن مالا يعلمه الله لا وجود له.

وأم الثانية متصلة هى معادلة همزة الاستفهام المقدرة في أم تنبئونه. وإعادة الباء للتأكيد بعد أم العاطفة. والتقدير: بل أتنبئونه بما لا يعلم في الأرض. بل أتنبئونه بظاهر من القول. أى: بمجرد قول لا ثبات له وليس بحق وقوله: **﴿بل زين للذين كفروا مكرهم﴾** إضراب عن الاحتجاج عليهم بإبطال إلهية أصنامهم إلى كشف السبب. وهو أن أئمة المشركين زينوا للذين كفروا مكرهم بهم؛ حيث وضعوا لهم عبادتها... وقد تضمن هذا الاحتجاج أساليب وخصوصيات: أحدها ـ

توبيخهم على قياسهم أصنامهم على إثبات الإلهية لها قياسا فاسدا لانتفاء الجهة الجامعة. . . فكيف يسوى من هو قائم على كل نفس بمن ليسوا في شئ من ذلك؟ ثانيها ـ تجهيلهم في جعلهم أسماء لا مسميات لها آلهة.

ثالثها ـ إبطال كون أصنامهم آلهة بأن الله لا يعلمها آلهة. وهو كناية عن انتفاء إلهيتها. رابعها ـ أن ادعاءهم آلهة مجرد كلام لا انطباق له مع الواقع. . . بل هو مجرد قول. . . خامسها ـ أن ذلك تمويه باطل روّجه فيهم دعاة الكفر. سادسها ـ أنهم يصدون الناس عن سبيل الهدى. وهو قوله: ﴿**وصدوا عن السبيل**﴾. وجملة ﴿**ومن يضلل الله فما له من هاد**﴾ تذييل لما فيه من العموم. ﴿**لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق**﴾: استئناف بيانى نشأ عن قوله: ومن يضلل الله فما له من هاد؛ لأن هذا التهديد يومئ إلى وعيد يسأل عنه السامع. وفيه تكملة للوعيد المتقدم في قوله: ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة. . . مع زيادة الوعيد بما بعد ذلك في الدار الآخرة وتنكير عذاب للتعظيم والتهويل. . . وهو عذاب القتل والخزى والأسر. وإضافة عذاب إلى الآخرة على معنى في.

ومن في قوله: من الله لتعدية واق. ومن في قوله: من واق؛ لتأكيد النفى تنصيصا على العموم. ﴿**مثل الجنة التي وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها**﴾: استئناف ابتدائى يرتبط بقوله: الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب؛ ذكر هنا بمناسبة ذكر ضده في قوله: ولعذاب الآخرة أشق. . . ومثل الجنة هنا مستعار من المثل الذى هو الشبيه في حالة عجيبة أطلق على الحالة العجيبة غير الشبيهة؛ لأنها جديرة بالتشبيه بها. وجملة تجرى من تحتها الأنهار خبر عن مثل باعتبار أنها من أحوال المضاف إليه. . . فهى من أحوال المضاف لشدة الملابسة بين المتضايفين وجملة أكلها دائم خبر ثان. وظلها كذلك. . . فدَوَامُ الظل كناية عن التفاف الأشجار. . . وذلك من محامد الجنات وملاذّها. . . وجملة ﴿**تلك عقبى الذين اتقوا**﴾ مستأنفة. والإشارة إلى الجنة بصفاتها بحيث صارت كالمشاهدة.

وقد علم أن الذين اتقوا هم المؤمنون الصالحون كما تقدم. . . وجملة ﴿**وعقبى الكافرين النار**﴾ ذكرت هنا للمناسبة بالمضادّة. وهى كالبيان لجملة ولهم

سوء الدار. ﴿**والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه**﴾: هذا الكلام مكمل لبقية الناس في قوله ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وكانوا يستفتحون على المشركين بالنبئ المبعوث... فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به... فكانت حالة اضطراب أهل الكتاب عندما دمغتهم بعثة النبئ المنتظر... فمنهم من فرح أول الأمر ولكن بعد ذلك أخذته العزة بالإثم.

ومنهم من آمن وأسلم... وفى التعبير منهم الأحزاب إيماء إلى أن هؤلاء هم المتحزبون المتصلبون لما كانوا عليه... ﴿**قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب**﴾: في هذا رد على المشركين وعلى أهل الكتاب ببيان موقف النبئ معهم... فهو مأمور بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به وبأن يدعو غيره... ومن بلاغة الجدل القرآنى أنه لم يأت بذلك من أول الكلام بل أتى به متدرجا فيه... فقال: أن أعبد الله؛ لأنه لا ينازع في ذلك أحد: من أهل الكتاب، ولا المشركين... ثم جاء بعده: ولا أشرك به؛ لإبطال إشراك المشركين، وللتعريض بإبطال إلهية عيسى، لأن ادعاء بنوّتِه من الله تعالى يؤول إلى الإشراك.

وجملة إليه أدعو وإليه مآب بيان لجملة إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به؛ لأنه لما أمر بذلك من قبل الله استفيد أنه مرسل من الله... فهو مأمور بالدعوة إليه. وتقديم المجرور في الموضعين للاختصاص. أى: إليه لا إلى غيره أدعو. أى: بالقرآن. وإليه لا إلى غيره متابى... فإن المشركين يرجعون في مهمتهم إلى الأصنام يستنصرونها ويستغيثونها. ﴿**وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله. من ولى ولا واق**﴾: الكلام موصول بالعطف على ما قبله... والجار والمجرور من اسم الإشارة نائب عن المفعول المطلق.

والتقدير: أنزلناه إنزالا مثل ذلك الإنزال. وكون المنزل حُكْماً عربيا كَمَالاَنِ لهذا الكتاب المنزّل: كمال من جهة معانيه ومقاصده... وكمال من جهة ألفاضه المنسّقة وعباراته المنمّقة من جهة فصاحة كلماته وبلاغة موارده... ثم في كونه عربيا امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء بأنه بلغتهم، وبأن في ذلك حسن

سُمْعَتِهِم. . . ففيه تعريض بأفن رأى الكافرين منهم؛ إذ لم يشكروا هذه النعمة. ﴿**لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم**﴾ وجملة ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم وردت ثلاث مرات. وكلها لمناسبة الرد على أهل الكتاب والمشركين الذين يحاولون صدّ المسلمين هذا الهدى الذى جاء به. . . فالمقصود من هذا تحذير المسلمين من أن يركنوا إلى أهل الكتاب والمشركين.

ويستمعوا إلى ترهاتهم وخزعبلاتهم ومحاولاتهم دائما صرف نظر المسلمين إلى ما يقولون عن القرآن ورسوله!. وتوجيه الكلام إلى الرسول مقصود به شدة التحذير من الوقوع في هذا المأزق الخطير. . . على حد قوله: . . . لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين. وقوله: ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون. وهنا: مالك من الله من ولى ولا واق!. . . ﴿**ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**﴾: زيادة في الرد على أهل الكتاب والمشركين عندما طعنوا في الرسول بعدما طعنوا في القرآن. . . وأدمج في هذا الرد إزالة الشبهة التي أثيرت حول الرسول بأنه يتزوج النساء ويمارس شؤون الحياة. وهذه الشبهة لازالت قائمة إلى اليوم يموه بها المبشرون من النصارى وعملائهم على ضعفاء الإيمان بأن عيسى لم يتزوج فلو كان محمد رسولا لكان مثل عيسى.

وجملة وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله هى المقصودة وهى معطوفة على جملة ولقد أرسلنا رسلا من قبلك. وتركيب ما كان يدل على المبالغة في النفى وإِذْنُ الله هو إذْنُ التكوين للآيات وإعلام الرسول بأن ستكون آية. . . فاستعير الإتيان للإظهار. واستعير الإذن للخلق والتكوين. لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب: تذييل؛ لأنه أفاد عموم الآجال. . . فشمل أجل الإتيان بآية من قوله: وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله. وذلك إبطال لتوهم المشركين أن تأخر الوعيد يدل على عدم صدق الرسول.

وهذا ينظر إلى قوله تعالى: ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب. . . فقد قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. . . وجملة يمحو الله ما يشاء: مستأنفة استئنافا

بيانيا. وجملة ويثبت أطلقت مجازا على أضداد معانى المحو المذكورة. وكل ذلك مظاهر لتصرف حكمته وعلمه وقدرته. وعنده أم الكتاب: الأصل الثابت الذى لا يتبدل ولا يتغبر... فالتبدل يطرأ على الحكم لمناسبة زمنه وأهله. وعلى نوع الدلالة التي تؤيد هذا الحكم. والكتاب الذى جاء من هذا الأصل؛ وهو القرآن يشمل الحكم الكامل الذى لا يحتاج معه إلى كتاب آخر. ويشمل الدليل القاطع الذى لا يحتاج معه إلى خارق قاهر.

﴿وإنْ ما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾: الكلام موصول بالعطف على قوله: يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب؛ لأنها جاءت زيادة لبيان أن النبئ ليس مأمورا بالاشتغال بالوعيد ولا بترقبه وإنما هو مبلغ عن الله لعباده. وأن استمرار هذا الدين الذى جئت به تكفل بحفظه وتأييده دون وجود الرسول بعد إكمال تبليغه وتأكيد الشرط بنون التوكيد وما المزيدة بعد إن الشرطية مراد منه تأكيد الربط بين هذا الشرط وجوابه. وهو إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، وعلى في قوله: عليك البلاغ مستعملة في الإيجاب والإلزام. وإنما للحصر. والمحصور فيه هو البلاغ.

وجملة وعلينا الحساب عطف على جملة عليك البلاغ. فهى مدخولة في المعنى لحرف الحصر. **﴿أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾**: وصلت هذه الآية بالعطف على الآيات قبلها؛ لإنذار المكذبين بأن ملامح نصر النبئ قد لاحت وتباشير ظفره قد طلعت... فكان تعقيب المعطوف عليها بهذه الجملة للاحتراس بأن يتوهموا أن العقاب بطئ وغير واقع بهم. والاستفهام في أولم يروا إنكارى. والضمير للمكذبين. والكلام تهديد لهم بإيقاظهم إلى ما دبّ إليهم من أشباح الاضمحلال بإنقاص الأرض وجملة والله يحكم لا معقب لحكمه عطف على جملة أولم يروا... مؤكدة للمقصود منها. وهو الاستدلال على أن تأخير الوعيد لا يدل على بطلانه.

وإظهار اسم الله بعد الإضمار الذى في قوله: أنا نأتى الأرض لتربية المهابة، وللتذكير بما يحتوى عليه الاسم العظيم من معنى الإلهية والوحدانية المقتضبة عدم المُنَازع. وأيضا لتكون الجملة مستقلة بنفسها؛ لأنها بمنزلة الحكمة والمثل. وجملة

وهو سريع الحساب معطوفة على ما قبلها زيادة في الأدلة السابقة بأن حكمه غير منقوص ولا مهمَلٌ. والحساب كناية عن الجزاء. ﴿**وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار**﴾: لما كان قوله: أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها تهديدا أو إنذارا. وهو إنكار بوعيد على تظاهرهم بطلب الآيات وهم يضمرون التصميم على التكذيب والاستمرار عليه شبه عملهم بالمكر وشبه بعمل المكذبين السابقين.

وفى هذا التشبيه رمز إلى أن عاقبتهم كعاقبة الأمم التي عرفوها فنقص أرض هؤلاء من أطرافها من مكر الله بهم جزاء مكرهم... فلذلك أعقب بقوله: وقد مكر الذين من قبلهم كما مكر هؤلاء وجملة فلله المكر جميعاً تفريع على جملة أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها، وجملة والله يحكم لا معقب لحكمه، وتقديم المجرور في قوله: فلله المكر.. للاختصاص وأُكّد مدلول الاختصاص بقوله: جميعا. وجملة يعلم ما تكسب كل نفس بمنزلة العلة لجملة فلله المكر جميعا. وجملة وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار عطف على جملة فلله المكر جميعا. والكلام تعريض بالوعيد.

﴿**ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب**﴾: عطف على ما تضمنته جملة وقد مكر الذين من قبلهم من التعريض بأن قولهم: لولا أنزل عليه آية من ربه ضرب من المكر بإظهارهم أنهم يتطلبون الآيات الدالة على صدق الرسول، مظهرين أنهم في شك من صدقه، وهم يبطلون التصميم على التكذيب فذكرت هذه الآية أنهم قد أفصحوا بما أبطنوه فنطقوا بصريح التكذيب وخرجوا من طور المكر إلى طور المجاهرة بالكفر... وقد حكى قولهم بصيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك منهم، ولاستحضار حالهم العجيبة من الاستمرار على التكذيب بعد أن رأوا دلائل الصدق ولما كانت مقالتهم المحكية هنا صريحة لا مواربة فيها أمر الرسول بجواب لا جدال فيه. وهو تحكيم الله بينه وبينهم. وإشهاد الله بمعنى الحلف على الصدق. وقد تأكد هذا بالباء الداخلة على الله وبالتمييز المبين... ومن عنده علم الكتاب معطوف على اسم الله.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب﴾:

فى هذا التوجيه عرض كامل للرسول ﷺ لمن يستجيب لدعوته ومن لا يستجيب لها فالأولُ عَلِمَ: والثانى عَمِىَ. وفيه توضيح وتفصيل لطبيعة المؤمنين وطبيعة الكافرين. والصفات المميزة لهؤلاء وهؤلاء... إن المقابل لمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا؛ إنما المقابل هو الأعمى. وهو خطاب للرسول ليواجه به جميع الناس ويعرضه عليهم في صورته الاستفهامية كما نصها الله عليه. وهو أسلوب عجيب في لمس القلوب وتجسيم الفروق. وهو الحق في الوقت ذاته لا مبالغة ولا زيادة ولا تحريف... فالعمى وحده هو الذى ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تخفى إلاّ على أعْمَى... والناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان: مبصرون فهم يعلمون. وعمى فهم لا يعلمون. والعمى عمى البصيرة، وانطماس المدارك، واستغلاق القلوب، وانطفاء قبس المعرفة في الأرواح، وانفصالها عن مصدر الإشعاع: إنما يتذكر أولوا الألباب، الذين لهم عقول وقلوب مدركة، تذكَّر بالحق فتتذكر، وتُنبّه إلى دلائله فتتفكّر... وهذه صفات هؤلاء: **﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق...﴾** وعهد الله مطلق يشمل كل عهد. وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق. والعهد الأكبر الذى تقوم عليه العهود كلها هو عهد الإيمان. والميثاق الأكبر الذى تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان.

وعهد الإيمان قديم وجديد: قديم مع الفطرة البشرية المتصلة بناموس الوجود كله المدركة إدراكا مباشرا لوحدة الإرادة التي صدر عنها الوجود، ووحدة الخالق صاحب الإرادة، وأنه وحده المعبود. وهو الميثاق المأخود على الذرية في ظهور بنى آدم... ثم هو جديد مع الرسل الذين بعثهم الله، لا لينشئوا عهد الإيمان ولكن ليجددوه وليذكروا به ويفصّلوه، ويبينوا مقتضياته من العمل الصالح والسلوك القويم، والتوجه به إلى الله وحده صاحب الميثاق القديم... ثم تترتب على العهد الإلهى والميثاق الربّانى كل العهود والمواثيق مع البشر. سواء مع الرسول أو مع الناس. ذوى قرابة أو أجانب. أفراداً أم جماعات فالذى يرعى العهد الأول

يرعى سائر العهود؛ لأن رعايتها فريضة شرعا. . . والذى ينهض بتكاليف الميثاق الأول يؤدّى كل ما هو مطلوب منه للناس؛ لأن ذلك داخل في تكاليف الميثاق. . . فهى القاعدة الضخمة الأولى التي يقوم عليها بنيان الحياة كلها ليقررها في كلمات. . . ﴿**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب**﴾: هكذا في إجمال. . . فكل ما أمر الله به أن يوصل يصلونه. . . فهى الطاعة الكاملة والاستقامة الواصلة والسير على السنة ووفق الناموس بلا انحراف ولا التواء فلهذا ترك الأمر مجملا ولم يفصل مفردات ما أمر الله به أن يوصل؛ لأن هذا التفصيل يطول. وهو غير مقصود. إنما المقصود هو تصوير الاستقامة المطلقة التي لا تلتوى والطاعة المطلقة التي لا تتفلّت، والصلة المطلقة التي لا تنقطع.

ويلمح آخر الآية إلى الشعور المصاحب في نفوسهم لهذه الطاعة الكاملة: ﴿**ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب**﴾. فهى خشية الله ومخافة العقاب الذى يسوء في يوم لقائه الرهيب. وهم أولوا الألباب الذين يتدبرون الحساب قبل يوم الحساب. ﴿**والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم**﴾: والصبر ألوان. وللصبر مقتضيات. . . صبر على تكاليف الميثاق. . . من عمل وجهاد ودعوة واجتهاد. . . وصبر على النعماء والبأساء. وقلّ من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر. . . وصبر على حماقات الناس وجهالاتهم. . . وهو يَضِيقُ الصدور. . . وصبر كله ابتغاء وجه ربهم. لا تحرجا من أن يقول الناس: جزعوا. . . ولا تجملا ليقول الناس: صبروا. . . ولا رجاء في نفع من وراء الصبر. . . ولا دفعا لضر يأتى به الجزع. . . ولا لهدف واحد غير ابتغاء وجه الله، والصبر على نعمته وبلواه صبرا لتسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضى والاقتناع. . . ﴿**وأقاموا الصلاة**﴾ وهى داخلة في الوفاء بعهد الله وميثاقه. . . ولكنه يبرزها لأنها الركن الأول لهذا الوفاء.

ولأنها مظهر التوجه الخالص الكامل لله. ولأنها الصلة الظاهرة بين العبد والرب. الخالصة لله ليس فيها من حركة ولا كلمة لسواه ..﴿**وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية**﴾: وهى داخلة في وصل ما أمر الله به أن يوصل، وفى الوفاء بتكاليف الميثاق. ولكنه يبرزها لأنها الصلة بين عباد الله. التي تجمعهم في الله وهم في نطاق الحياة والتى تزكى نفس معطيها من البخل. وتزكى نفس آخذها من الغِلّ.

وتجعل الحياة في المجتمع لائقة بالبشر المتعاونين المتضامنين الكرام على الله. . . والإنفاق سرا وعلانية. السر حيث تصان الكرامة وتطلب المروءة. وتتحرج النفس من الإعلان. والعلانية حيث تطلب الأسوة وتنفذ الشريعة ويطاع القانون. ولكلٍّ موضعه في الحياة. ﴿**ويدْرءون بالحسنة السيئة**﴾ والمقصود أنهم يقابلون السيئة بالحسنة. ولكن التعبير يتجاوز المقدمة إلى النتيجة. فمقابلة السيئة بالحسنة يكسر شرة النفوس ويوجهها إلى الخير، ويطفئ جذوة الشر، ويردّ نزغ الشيطان ومن ثم يدرأ السيئة ويدفعها في النهاية. . . فعجل النص بهذه النهاية وصدر بها الآية ترغيبا في مقابلة السيئة بالحسنة وطلبا لنتيجتها المرتقبة. . . ثم هى إشارة خفية إلى مقابلة السيئة بالحسنة عندما يكون في هذا درء السيئة ودفعها؛ لا إطماعها واستعلاؤها!. . . فأما حين تحتاج السيئة إلى القمع، ويحتاج الشر إلى الدفع. . . فلا مكان لمقابلتها بالحسنة، لئلا ينتفش الشر ويتجرأ ويستعلى. . . ودرء السيئة بالحسنة يكون غالبا في المعاملة الشخصية بين المتماثلين. . . فأما المستعلى الغاشم. . . فلا يجدى معه إلا الدفع الصارم.

وأما المفسدون في الأرض. . . فلا يجدى معهم إلا الأخذ الحاسم. والتوجيهات القرآنية متروكة لتدبر المواقف، واستشارة الألباب، والتصرف فيما يرجح أنه الخير والصواب. ﴿**أولئك لهم عقبى الدار: جنات عدن يدخلونها، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم. فنعم عقبى الدار**﴾: أولئك! في مقامهم العالى لهم عقبى الدار: جنات عدن للإقامة والقرار. في هذه الجنات يأتلف شملهم مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم. . . ولكنهم يُكْرَمُونَ بتجميع شتاتهم، وتلاقى أحبابهم. وهى لذة أخرى تضاعف لذة الشعور بالجنان.

وفى جو التجمع والتلاقى يشترك الملائكة في التأهيل والتكريم في حركة رائحة غادية: يدخلون عليهم من كل باب. ويدعنا السياق نَرَى المشهَدَ حاضرا وكأنما نشهده ونسمع الملائكة أطوافا أطوافا: سلام عليكم بما صبرتم فَنِعْمَ عقبى الدار. . . فهو مهرجان حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والسلام. وعلى الضفة الأخرى أولئك الذين لا ألباب لهم فيتذكروا. . . ولا بصيرة لهم فيبصروا.

وهم على النقيض في كل شئ مع أولى الألباب: ﴿**والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار**﴾: إنهم ينقضون عهد الله المأخوذ على الفطرة في صورة الناموس الأزلي وينقضون من بعده كل عهد... فمن نقض العهد الأول فكل عهد قائم عليه منقوض من الأساس. والذى لا يرعى الله لا يبقى على عهد ولا ميثاق. ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل على وجه العموم والإطلاق.

ويفسدون في الأرض في مقابل صبر أولئك وإقامتهم الصلاة وإنفاقهم سرا وعلانية ودرء السيئة بالحسنة. فالإفساد في الأرض يقابل هذا كله. وترك شئ من هذا كله إنما هو إفساد أو دافع إلى الإفساد. أولئك... المُبْعَدُون المطرودون لهم اللعنة والطرد في مقابل التكريم هناك. ولهم سوء الدار ولا حاجة إلى ذكرها. فقد عرفت بمقابلها هناك!. أولئك فرحوا بالحياة الدنيا ومتعها الزائل فلم يتطلعوا إلى الآخرة ونعيمها المقيم. مع أن الله هو الذى يقدر الرزق فيوسع فيه. أو يضيق... فالأمر كله إليه في الأولى والآخرة على السواء. ولو ابتغوا الآخرة ما حرمهم الله متاع الأرض. وهو الذى أعطاهم إياه: ﴿**الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع**﴾.

التوجيه الثاني: ﴿**ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب...**﴾: في هذا التوجيه بيان موقف المعارضين الذين لم يستجيبوا لله ولرسوله ويطلبون من الرسول آية غير آية القرآن... ولقد سبقت الإشارة إلى الفارق الضخم بين من يعلم أنما أنزل إلى الرسول هو الحق ومن هو أعمى... فالآن يحكى السياق شيئا عن العُمْى الذين لا يرون آيات الله في الكون، والذين لا يكفيهم هذا القرآن... فإذا هم يطلبون آية. وقد حكى السياق شيئا كهذا في شطر السورة الأول، وعقب عليه بأن الرسول ليس إلا منذرا والآيات عند الله. وهو الآن يحكيه ويعقب عليه ببيان أسباب الهدى وأسباب الضلال.

ويضع إلى جواره صورة القلوب المطمئنة بذكر الله، لا تقلق ولا تطلب خوارق لتؤمن وهذا القرآن بين أيديها. هذا القرآن العميق التأثير حتى لكاد تسير به الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى؛ لما فيه من قوة ودفعة وحيوية...

﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب. الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب. كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يفكرون بالرحمان. قل: هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب. ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا...**﴾ وينهى الحديث عن هؤلاء الذين يتطلبون القوارع والخوارق بتيئيس المؤمنين منهم.

وبتوجيههم إلى المثلات من قبلهم، وإلى ما يحل بالمكذبين من حولهم بين الحين والحين: ﴿**أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا. ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد. ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب...**﴾ ونظرة فاحصة إلى السياق في جُمَلِهِ وكَلِمَاتِه الفاصلة يتبين لنا أن الرد على طلبهم آيةً خارقةً: أن الآيات ليست هى التي تقود الناس إلى الإيمان... فالإيمان دواعيه الأصلية في النفوس.

وأسبابه المؤدية إليه من فعل هذه النفوس: ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه؟ قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب... فالله يهدى من ينيبون إليه. فالإنابة إلى الله هى التي جعلتهم أهلا لهداه. والمفهوم إذن أن الذين لا ينيبون هم الذين يستأهلون الضلال فيضلهم الله. فهو استعداد القلب للهدى وسعيه إليه وطلبه. أما القلوب التي لا تتحرك إليه فهو عنها بعيد... ثم يرسم صورة شيقة للقلوب المؤمنة في جو من الطمأنينة والأنس والبشاشة والسلام: الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله... تطمئن بإحساسها بالصلة بالله. والأنس بجواره. والأمن في جانبه. وتطمئن من قلق الوحدة وحيرة الطريق بإدراك الحكمة في الخلق والمبدإ والمصير. وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضُرٍّ ومن كل شر إلا بما يشاء مع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء.

وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر. في الدنيا والآخرة: ألا بذكر الله تطمئن القلوب. ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فاتصلت بالله. يعرفونها، ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها؛ لأنها لا تنقل بالكلمات إنما

تسرى في القلب فيستروحها ويهش لها ويندى بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام. ويحس أنه في هذا الوجود ليس وحده مفردا بلا أنيس. . . فكل ما حوله صديق؛ إذ كل ما حوله من صنع الله الذى هو في حماه.

وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يُحْرَمُونَ طمأنينة الأنس إلى الله. ليس أشقى ممن يطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون؛ لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بما حوله في الله خالق الكون. ليس أشقى ممن يعيش لا يدرى لم جاء؟ ولم يذهب؟ ولم يعانى ما يعانى في الحياة؟ ليس أشقى ممن يسير في الأرض يوجس من كل شئ خيفة؛ لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شئ في هذا الوجود. ليس أشقى في الحياة ممن يشق طريقه فَريداً وحيداً شارداً في فلاة، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين.

وإن هناك للحظاتٍ في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنا إلى الله، مطمئنا إلى حماه، مهما أوتى من القوة والثبات والصلابة والاعتداد. . . ففى الحياة لحظات تعصف بهذا كله. . . فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله. . . هؤلاء المنيبون إلى الله، المطمئنون بذكر الله، يحسن الله مآبهم عنده، كما أحسنوا الإنابة إليه، وكما أحسنوا العمل في الحياة: الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب. . . أما أولئك الذين يطلبون. آية فلم يستشعروا طمأنينة الإيمان فهم في قلق يطلبون الخوارق والمعجزات ولست أول رسول جاء لقومه بمثل ما جئت به حتى يكون الأمر عليهم غريبا. . . فقد خلت من قبلهم الأمم وخلت من قبلهم الرسل. . . فإذا كفروا هم فلتمضى على نهجك ولتتوكل على الله: كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمان. قل: هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب. . . والعجيب أنهم يكفرون بالرحمان. العظيم الرحمة. الذى تطمئن القلوب بذكره واستشعار رحمته الكبرى. وما عليك إلا أن تتلو عليهم الذى أوحينا إليك. . . فلهذا أرسلناك. . . فإن يكفروا فأعلن لهم أن اعتمادك على الله وحده.

وأنك نائب إليه وراجع لاتتجه إلى أحد سواه. وإنما أرسلناك لتتلو عليهم هذا القرآن. هذا القرآن العجيب، الذى لو كان من شأن قرآن أن تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يكلم به الموتى لكان في هذا القرآن من الخصائص والمؤثرات

ما تتم معه هذه الخوارق والمعجزات... ولكنه جاء لخطاب المكلفين الأحياء. فإذا لم يستجيبوا فقد آن أن ييأس منهم المؤمنون، وأن يَدَعُوهم حتى يأتى وعد الله للمكذبين: ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى. بل لله الأمر جميعا. أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد... ولقد صنع هذا القرآن في النفوس التي تلقّتْه وتكيفت به أكثر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى.

لقد صنع في هذه النفوس وبهذه النفوس أضخم وأبعد آثارا في أقدار الحياة، بل أبعد أثرا في شكل الأرض ذاته... فكَمْ غيَّر الإسلام والمسلمون من وجه الأرض، إلى جانب ما غيروا من وجه التاريخ؟!.. وإن طبيعة هذا القرآن ذاتها: طبيعته في دعوته وفى تعبيره. طبيعته في موضوعه وفى أداته. طبيعته في حقيقته وفى تأثيره... إن طبيعة هذا القرآن لتحتوى على قوة خارقة نافذة، يمسها كل من له ذوق وبصر وإدراكٌ لِلْكلاَم، واستعداد لإدراك ما يوجه إليه ويوحى به. والذين تلقوه وتكيفوا به سيروا ما هو أضخم من الجبال، وهو تاريخ الأمم والأجيال؛ وقطعوا ما هو أصلب من الأرض، وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد؛ وأحيوا ما هو أخمد من الموتى، وهو الشعوب التي قتل روحَها الطغيانُ والأوهام.

والتحول الذى تم في نفوس العرب وحياتهم أضخم بكثير من تحول الجبال عن رسوخها، وتحول الأرض عن جمودها، وتحول الموتى عن الموتى... فإذا كان قوم بعد هذا القرآن لم تتحرك قلوبهم فما كان أجدر المؤمنين الذين يحاولون تحريكها أن ييأسوا من القوم؛ وأن يدعوا الأمر لله... فلو شاء لخلق الناس باستعداد واحد للهدى، فيهدى الناس جميعا على نحو خلقة الملائكة لو كان يريد... فليدعوهم إذن لأمر الله. وإذا كان الله قد قدر ألا يهلكهم هلاك استئصال في جيل كبعض الأقوام قبلهم... فإن قارعة من عنده بعد قارعة تنزل بهم، فتصيبهم بالضر والكرب، وتهلك من كتب عليه منهم الهلاك... أو تحل قريبا من دارهم فتروعهم وتدعهم في قلق وانتظار لمثلها. وقد تلين بعض القلوب وتحركها وتجيبها... حتى يأتى وعد الله الذى أعطاهم إياه وأمهلهم إلى انتهاء

أجله إن الله لا يخلف الميعاد... فهوآت لا ريب فيه فملاقون فيه ما وعدوه، والأمثلة حاضرة وفى مصارع الغابرين عبرة بعد الانتظار والإمهال: ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب؟... وهو سؤال لا يحتاج إلى جواب... فلقد كان عقابا تتحدث به الأجيال!...

التوجيه الثالث: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت. وجعلوا لله شركاء. قل: سموهم. أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض؟ أم بظاهر من القول﴾؟... في هذا التوجيه استفهام يوجه للسامع ليجيب على هذه القضية: قضية الشركاء... فهى تثار هنا في سؤال تهكمى حين تقرن هذه الشركاء إلى الله القائم على كل نفس المجازى لها بما كسبت في الحياة... فالله سبحانه رقيب على كل نفس، مسيطر عليها في كل حال، عالم بما كسبت في السر والعلن... فلنتصور كل نفس أن عليها حارسا قائما عليها مشرفا مراقبا يحاسبها بما كسبت. ومَن؟ إنه الله... فأية نفس لا ترتعد لهذه الصورة، وهى في ذاتها حق... ثم يجعلون لله شركاء؟!! هنا يبدو تصرفهم مستنكرا مستغربا في ظل هذا المشهد الشاخص المرهوب. وجعلوا لله شركاء... الله القائم على كل نفس بما كسبت لا تفلت منه ولا تروغ.

قل: سموهم... فإنهم نكرات مجهولة. وقد تكون لهم أسماء... ولكن التعبير هنا ينزلهم منزلة النكرات التي لا تعرف أسماؤها... أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض... فيا للتهكّم!... أم إنكم أنتم البشر تعلمون ما لا يعلمه الله! فتعلمون أن هناك آلهة في الأرض أو غاب هذا عن علم الله؟! إنها دعوى لا يجرؤون على تصورها. ومع هذا فهم يقولونها بلسان الحال... أم بظاهر من القول... فتدّعون وجودها لكلام سطحى ليس وراءه مدلول. وهل قضية الألوهية من التفاهة والهزل بحيث يتناولها الناس بظاهر من القول؟... وينتهى هذا التهكم بالتقرير الجاد الفاصل: **﴿بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل. ومن يضلل الله فما له من هاد...﴾** فالمسألة إذن أن هؤلاء كفروا وستروا أدلّة الإيمان عنهم. وستروا نفوسهم عن دلائل الهدى... فحقَّتْ عليهم سنةُ الله، وصورت بهم نفوسهم أنهم على صواب. وأن مكرهم وتدبيرهم ضد الدعوة حسن وجميل... فصدهم هذا عن السبيل الواصل المستقيم.

ومن تقتضى سنة الله ضلاله؛ لأنه سار في طريق الضلال، فلن يهديه أحد؛ لأن سنة الله لا تتوقف إذا حقت بأسبابها على العباد. والنهاية الطبيعية لهذه القلوب المنتكسة هى العذاب: لهم عذاب في الحياة الدنيا، إن أصابتهم قارعة فيها... وإن حلت قريبا من دارهم فهو الرعب والقلق والتوقع. وإلا فجفاف القلب من بشاشة الإيمان عذاب. وحيرة القلب بلا طمأنينة الإيمان عذاب. ومواجهة كل حادث بلا إدراك للحكمة الكبرى وراء الأحداث عذاب.. ﴿**ولعذاب الآخرة أشق**﴾: ويتركه هنا بلا تحديد... للتصور والتخيل بلا حدود... ﴿**وما لهم من الله من واق**﴾، يحميهم من أَخْذِهِ ومن نكالِهِ... فهم مُعرّضون بلا وقاية لما ينزل بهم من عذاب... وعلى الضفة الأخرى المتقون ـ في مقابل وما لهم من الله من واق ـ المتقون الذين وقوا أنفسهم بالإيمان والصلاح... فهم في مأمن من العذاب... بل لهم فوق الأمن الجنة التي وعدوها: ﴿**تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها...**﴾ فهو التنعم والاسترواح ـ ومشهد الظل الدائم والثمر الدائم مشهد تطمئن له النفس وتستريح ـ في مقابل المشقة هناك... ذلك العذاب وهذه الجنة هما النهاية الطبيعية لهؤلاء وأولئك: ﴿**تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار**﴾.

التوجيه الرابع: ﴿**والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه...**﴾: في هذا التوجيه يمضى السياق ـ مع قضية الوحى وقضية التوحيد معا ـ يتحدث عن موقف أهل الكتاب من القرآن ومن الرسول... ويبين للرسول أن ما أنزل عليه هو الحكم الفصل فيما جاءت به الكتب قبله... وهو المرجع الأخير. أثبت الله فيه ما شاء إثباته من أمور دينه الذى جاء به الرسل كافة... ومَحَا ما شاء محْوَه مما كان فيها لا نقضاء حكمته... فليقف عندما أنزل عليه لا يطيع فيه أهواء أهل الكتاب في كبيرة ولا صغيرة أما الذين يطلبون منه آية، فالآيات بإذن الله وعلى الرسول البلاغ... فالفريق الصادق من أهل الكتاب في الاستمساك بدينه يجد في هذا القرآن مصداق القواعد الأساسية في عقيدة التوحيد... كما يجد الاعتراف بالديانات التي سبقته وكُتُبِها... ودرسها مع الإكبار والتقدير... وتصور الآصرة التي تربط المؤمنين بالله جميعا... فمن ثم يفرحون ويؤمنون... والتعبير بالفرح هنا حقيقة نفسية في القلوب الصافية. وهو فرح الالتقاء على الحق... وزيادة اليقين بصحة ما لديهم ومؤازرة الكتاب الجديد

له. . . ومن الأحزاب من ينكر بعضه: الأحزاب من أهل الكتاب. . ولم يذكر السياق هذا البعض الذي ينكرونه، لأن الغرض هو ذكر هذا الإنكار للرد عليه: ﴿**قل: إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب. . .**﴾ فله وحده العبادة. . . وإليه وحده الدعوة. . . وله وحده المآب. . . وقد أمر الرسول أن يعلن.

منهجه في مواجهة من ينكر بعض الكتاب. . . وهو استمساكه الكامل بكامل الكتاب الذى أنزل إليه من ربه. . . سواء فرح به أهل الكتاب كله، أم أنكر فريق منهم بعضه. . . ذلك أن ما أنزل إليه هو الحكم الأخير. . . نزل بلغته العربية. وهو مفهوم له تماما وإليه يرجع ما دام هو حكم الله الخير في العقيدة: ﴿**وكذلك أنزلناه حكما عربيا. . . ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا واق. . .**﴾ فالذى جاءك هو العلم اليقين. . . وما يقوله الأحزاب أهواء لا تستند إلى علم أو يقين. وهذا التهديد الموجه إلى الرسول أبلغ في تقرير هذه الحقيقة التي لا تسامح في الانحراف عنها. . . حتى ولو كان من الرسول. . . وحاشاه عليه الصلاة والسلام.

وإذا كان هناك اعتراض على بشرية الرسول فقد كان الرسل كلهم بشرا: ﴿**ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية. . .**﴾ وإذا كان الاعتراض بأنه لم يأت بخارقة مادية. . . فذلك ليس من شأنه إنما هى شأن الله: ﴿**وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله**﴾. وفق ما تقتضيه حكمته وعندما يشاء وإذا كان هناك خلاف جزئى بين ما أنزل على الرسول وما عليه أهل الكتاب. . . فإن لكل فترة كتابا. . . وهذا هو الكتاب الأخير: ﴿**لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. . .**﴾ فما اقتضت حكمته يمحوه. . . وما هو نافع يثبته. . . وعنده أصل الكتاب المتضمن لكل ما يثبته وما يمحوه. . . فعنه صدر الكتاب كله. وهو المتصرف فيه حسبما تقتضى حكمته.

ولا راد لمشيئته ولا اعتراض. وسواء أخذهم الله في حياة الرسول بشئ مما أوعدهم أو توفّاه إليه قبل ذلك. . . فإن هذا لا يغير من الأمر شيئا. ولا يبدل من طبيعة الرسالة وسنة الألوهية: ﴿**وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. . .**﴾ وإن يد الله القوية لبادية الآثار فيما حولهم فهى

تأتى الأمم القوية الغنية ـ حين تبطر وتكفر وتفسد ـ فتنقص من قوتها. . . وتنقص من ثرائها. . . وتنقص من قدرها. . . وتحصرها في رقعة من الأرض ضيقة بعد أن كانت ذات سلطان وذات امتداد. . . وإذا حكم الله عليها بالإفساد فلا معقب لحكمه ولابد له من النفاذ: ﴿**أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها**﴾.

﴿**والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب**. . .﴾ وليس هم بأشد مكراً ولا تدبيرا ولا كيدا ممن كان قبلهم. . . فأخذهم الله وهو أحكم تدبيرا وأعظم كيدا: ﴿**وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار**. . .﴾ ويختم السورة بحكاية إنكار الكفار للرسالة. . وقد بدأها بإثبات الرسالة. . . فيلتقى البدء والختام. ويشهد الله مكتفيا بشهادته. وهو الذى عنده العلم المطلق بهذا الكتاب وبكل كتاب: ﴿**ويقول الذين كفروا لست مرسلا. قل: كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب**﴾. وتنتهى السورة وقد طوفت بالقلب البشرى في أرجاء الكون. وأرجاء النفس. ووقعت عليه إيقاعات مطردة مؤثرة عميقة. وتركته بعد ذلك إلى شهادة الله التي جاء بها المطلع وجاء بها الختام. والتى يُحسَم بها كل جدل. وينتهى بعدها كل كلام! . . .

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

النص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ

لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿9﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿10﴾
أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
وَثَمُودَ ﴿11﴾ وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَآءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ
وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا
تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿12﴾ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ
فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم
مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا
كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿13﴾
قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ
مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿14﴾
وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ
عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿15﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ
أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿16﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ
ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿17﴾ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿18﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ
مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿19﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ
ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ
عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿20﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ
كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيَٰحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿21﴾
* أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ
يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿22﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿23﴾
وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا
لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ
قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا
مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿24﴾ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ
إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ
فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ
إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ
مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ

أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿25﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿26﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿27﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿28﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿29﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿أ. ل م. ر﴾: ثلاثة أسماء لثلاثة حروف من أحرف الهجاء. **﴿كتاب أنزلناه إليك﴾**: تقدم نظيره في سورة الأعراف. **﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾**: الإخراج هنا: النقل من حال إلى حال. والمراد بالظلمات والنور: ظلمات الكفر ونور الإسلام. **﴿بإذن ربهم﴾**: الإذن: الأمر بفعل يتوقف على رضى الآمر به. **﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾**: المراد بالصراط هنا: الدين الحق. والعزيز: الغالب. والحميد: كثير الحمد لِمَا لَهُ مِن مزَايا الإنعام. **﴿الله الذى له في السماوات وما في الأرض﴾**: العزيز الحميد الله الموصوف بالذى له ما في السماوات وما في الأرض. **﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾**: ويل مصدر لا يعرف له فعل.

ومعناه الهلاك وما يقرب منه من سوء الحالة. والكافرون: هم المعهودون. وهم الذين لم يخرجوا من الظلمات إلى النور. ولا اتبعوا صراط العزيز الحميد. ولا انتفعوا بالكتاب الذى أُنزل بإخراجهم من الظلمات... ﴿**الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة**﴾: يستحبون: يقدّمون مؤثرين باختيارهم الحياة الفانية التافهة على الحياة الدائمة الفائقة... ﴿**ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا**﴾: تقدم معنى الصد مرارا. وهو صد الناس عن الدخول في الإسلام بطرق الإغراء والإرغام... فهم يريدونها عوجا لا استقامة فيها. وغامضة لا دليل عليها ﴿**أولئك**﴾: البعداء عن طريق الحق. ﴿**فى ضلال بعيد**﴾: تِيه لا يُرْجَى منه رجوعٌ... فالضائع فيه أبدا لا يعود ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**﴾: اللسان: اللغة وما به التخاطب. أطلق عليها اللسان من إطلاق اسم المحل على الحال به.

والقوم: الأمة والجماعة. وقوم محمد: هم العرب وأمته جميع الناس الذين استجابوا لدعوته. وقوله: ليبين لهم تعليل لكون دعوة الرسول بلسان قومه العرب... ﴿**فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم**﴾: هذا الكلام مفرع على الإرسال المعلل بالتبيين. والمعنى: أن الإرسال بلسان قومه لحكمة التبيين. وقد يحصل أثر التبيين بمعونة الاهتداء؛ وقد لا يحصل أثر، بسبب ضلال المبيّن لهم والإضلال والهدى من الله بما أعد في نفوس الناس من اختلاف الاستعداد... فالتبيين من مقتضى أمر التشريع. والإضلال من مقتضى أمر التكوين... وهو العزيز الحكيم: ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا**﴾: أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور: هنا تلتقى رسالة موسى برسالة محمد في الغرض المقصود من الرسالتين... وهو إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

والتذكير: إزالة ما ران على القلب من الغفلة والنسيان. وأيام الله: أيام ظهور بطشه وانتقامه من أهل الجحود والكفران: ﴿**وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور...**﴾ فالصبّار كثير الصبر على النقم. والشكور كثير الشكر على النعم. ﴿**وَإِذْ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب**﴾: ذكر موسى قومه نعم الله عليهم حين أنجاهم من عدوهم فرعون حين كان يستعبدهم ويسخرهم في الأعمال الشاقة التي لا

تطاق. . . **﴿ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾**: تقدم نظير هذا الكلام في سورة البقرة. **﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾**: تأذن: تكلم كلاما علناً.

وهذا الكلام هو قوله: لئن شكرتم. . . الخ الآية **﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد﴾**: من تمام تذكير موسى قومَه قولُه لهم هذا الكلام. . . والكفر هنا: كفران النعمة. . . فكفران النعمة يعود عليهم بالوبال والنقمة؛ لأن الله غنى حميد. **﴿ألم يأتِكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد ثمود﴾**: تقدم نظير هذا الكلام في سورة التوبة. . . **﴿والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾**: يشمل بقية الأمم الذين انقرضوا ولم يخبر القرآن عنهم شيئا لكثرتهم وبعد زمنهم. فلا يعلمهم أحد إلا الله. **﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾**: جاء كل أمه رسولها بالأدلة التي تناسبها. . . **﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾**: وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل. . . **﴿وقالوا: إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب. . . قالت رسلهم أفي الله شك﴾**؟ إستفهام إنكار جاء رداً لقولهم: وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب.

﴿فاطر السماوات والأرض﴾: الدليل القاطع على وجود الله. **﴿يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾**: الغرض من دعوة الرسل توجيه الناس إلى الإيمان بالله وحده والتخويف من البعث والحساب. **﴿قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾**: رد لدعوة الرسل. . . فَنَفَوْا عنهم الميزة التي تميزهم باستحقاق. **﴿تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا﴾**: اتهموهم باختلاق الدعوة لقصد انسلاخهم من معتقدات آبائهم. . . **﴿فأتونا بسلطان مبين﴾**: يطلبون منهم الدليل المادى على صدقهم حسبما يقترحون هم ليعترفوا أنها حجة قاطعة. **﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم﴾**: اعتراف الرسل ببشريتهم لاينافى صحة دعوتهم.

﴿ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾: استدراك رفع ما توهموه من كون المماثلة في البشرية مقتضى الاستواء في كل خصلة. **﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا بإذن الله﴾**: ماصح وما استقام لنا إتيانكم بحجة في أى حال من الأحوال إلا في حال إذن الله بإظهارها على أيدينا. . . **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾**: والمؤمن لا يفوض أمره إلا إلى ربه، ونحن مؤمنون به فلا يخيب

رجاءنا في نفاذ دعوتنا: ﴿**وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا**. . .﴾ فالسبل: جمع سبيل وهى طرق دعوات الرسل حسب الأمم وعلى مقتضى الأحوال. . . ﴿**ولنصبرن على ما آذيتمونا**﴾: أظهروا توقع المكروه إصرارا على الاستمرار في دعوتهم مهما كانت الأحوال. . . ﴿**وعلى الله فليتوكل المتوكلون**﴾: شأن المتوكلين على الله لا يبالون بما يواجههم به الرافضون. . . ﴿**وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا**﴾: أظهروا الإصرار على موقفهم من رفض دعوة الرسل. . . فهدّدوهم بالإخراج من الأرض أو الاعتراف بما هم عليه من دين آبائهم.

فتصميمهم على أحد أمرين: إما هذا وإما ذاك. ﴿**فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم**﴾: فرع على ما قالوا من الأباطيل قوله بهذا الوعد الجميل. وهو إهلاك الظالمين المحقق وإسكانكم أرضهم من بعدهم وهو الوعد الحق: ﴿**ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد**. . .﴾ فهو الوعد الذى لا يتخلف: ﴿**إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**﴾. ﴿**واستفتحوا**﴾: الاستفتاح: طلب الفتح وهو النصر. والطالب يحتمل أن يكون الرسل والمؤمنون. وأن يكون الكافرون المدّعون أنهم على دين آبائهم وأنهم على الحق. ﴿**وخاب كل جبار عنيد**﴾: الخيبة: الخسران. والهلاك. والجبار: المتعاظم الشديد التكبّر.

والعنيد كثير العناد على الباطل المتشدد في التمسك به. . . ﴿**من ورائه جهنم**﴾: الخيبة عذاب الدنيا. . . ومن بعده جهنم في الآخرة. . . ﴿**ويسقى من ماء صديد**﴾: الصديد: ما يسيل من القروح المتعفنة الخبيثة. وهذا عذاب زائد على عذاب نار جهنم. ﴿**يتجرّعُه ولا يكاد يسيغه**﴾: التجرع تكلّف الجرْع. والجرع بلع الماء. والسوغ: انحدار الماء في الحلق بدون غصّة. وذلك إذا كان الشراب غير كريه. . . يقال ساغ الشراب. وشراب سائغ. ومعنى لا يكاد: لا يقارب. ﴿**ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت**﴾: إتيان الموت: حلُولُه بآلامه وسكراته دون أن يقضى عليه فيستريح. ﴿**ومن ورائه عذاب غليظ**﴾: ينتظره عذاب آخر بعد العذاب الذى هو فيه.

والغليظ: القوى الشديد المهول الفظيع. ﴿**مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم**

كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف﴾: المثل: يضرب للشئ الغريب العجيب... وأعمال الكفار هى أعمال البر التي عملوها في الدنيا... والرماد: أثر الشئ المحترق. واشتداد الرياح: قوة هبوبها من جميع الجهات... فيتكون منها إعصار هائل... واليوم العاصف: اشتداد الريح طول اليوم... فلم تكن ريح عابرة فيه... **﴿لا يقدرون مما كسبوا على شئ﴾**: ذهبت أعمالهم سُدًى... فلا يقدرون أن ينتفعوا بشئ منها. **﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾**: أقصى ما تنتهى إليه ماهية الضلال... فلا ضلال أبعد من هذا الضلال الذى ضاعت فيه الأعمال وهلك به أهل الأعمال.

﴿ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض. بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. وما ذلك على الله بعزيز﴾: الحق هنا: الحكمة التي هى ضد العبث... والإذهاب: الإعدام. والإتيان بخلق جديد: تبديلهم بغيرهم. وهذا أمر لا يعجزه: وما ذلك على الله بعزيز. فلا يتعسر عليه شئ... **﴿وبرزوا لِله جميعا﴾**: البروز: الخروج من مكان حاجب... فمعنى بَرَزُوا لِله: حضروا بين يديه للحساب: **﴿فقال الضعفاء﴾**: عوام الناس، والأتباع .: **﴿للذين استكبروا﴾**: السادة... والتبع: اسم جمع التابع؛ مثل: الخدم والخوَل: **﴿إنا كنا لكم تبعا... فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ﴾**؟: سؤال وارد من الضعفاء للذين استكبروا... **﴿قالوا لو هدانا الله لهديناكم﴾**: جواب الذين استكبروا للضعفاء. **﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾**: الجزع: حزن مشوب باضطراب.

والمحيص: النجاة والملجأ. **﴿وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموتى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمونِ من قبل﴾**: الشيطان. إبليس الذى أقسم أن يغوى الناس. وقضى الأمر: انتهى الحكم فيه بما يقتضيه من خير أو شر. ووعد الله الحق: ما جاء على لسان الرسل من التحذير من الكفر والضلال... ووعد الشيطان: ما سوّله للكفار من أوهام وآمال كاذبة في المآل... فأخلف بكل ما سوّل وقال... ونفى عن نفسه كل سلطة عليهم على كل حال... لكنه دعاهم فاستجابوا له دون إمهال. واللوم واللائمة العذْل والتعنيف. والإصراخ: الإغاثة. المشتقّ من

الصراخ؛ لأن المستغيث يصرخ بأعلى صوته وقوله: إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل: تنصّلٌ آخر من تبعات عبادتهم إياه... بإظهار شدة التبرىء من إشراكهم.

وجملة ﴿**إن الظالمين لهم عذاب أليم**﴾ من الكلام المحكى عن الشيطان. ﴿**وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام**﴾: كلمات هذه الآية واضحة. وهى انتقال لوصف حال المؤمنين يومئذ بمناسبة ذكر حال المشركين. ﴿**ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون**﴾: ضرب المثل في القرآن تكرر. والكلمة الطيبة ما فيها وقع في السماع ووفْر في الانتفاع. ومثلها الشجرة الطيبة الثابتة الأصول يانعة الفروع باسقة في الطلوع. وافرة الإنتاج تثير في النفس الروْح والابتهاج.

﴿**ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار**﴾: مقابل الكلمة الطيبة: الكلمة الخبيثة. والشجرة الطيبة: والشجرة الخبيثة... والاجتثاث: انتزاع الشجر من أصله؛ لإفساده الشجر الطيب... وقوله: ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون معترضة بين الجملتين المتعاطفتين. ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء**﴾: التثبيت: الترسيخ. والقول الثابت: الكلام الصادق. والمراد به هنا: كلام القرآن؛ لأنه السبب في ثبات إيمان المؤمنين. ومقابله: ويضل الله الظالمين... فيجعلهم في حيرة وعماية... فالضلال اضطراب وارتباك والهداية رسوخ ونماء وثبات وامتساك!.

مبحث الإعراب

﴿**ألر**﴾ تقدم الكلام على مثلها. ﴿**كتاب**﴾ خبر لمبتدإ محذوف. ﴿**أنزلناه**﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة نعت لكتاب. ﴿**إليك**﴾ متعلق بأنزلناه. ﴿**لتخرج**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل ضمير المخاطب. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بأنزلنا. ﴿**الناس**﴾ مفعول به. ﴿**من الظلمات إلى النور**﴾ متعلقان بتخرج. ﴿**بإذن**﴾ كذلك. ﴿**ربهم**﴾

مضاف إلى إذن. ﴿**إلى صراط**﴾ بدل من إلى النور. ﴿**العزيز**﴾ مضاف إلى صراط. ﴿**الحميد**﴾ عطف بيان له. ﴿**اللهُ**﴾ خبر لمبتدإ مقدر؛ والتقدير: هو الله. ﴿**الذى**﴾ في محل رفع نعت لله. ﴿**له**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**ما**﴾ في فى محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿**فى السماوات**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿**وما في الأرض**﴾. معطوف على ما في السماوات.

وجملة له ما في السماوات صلة الذى. ﴿**وويل**﴾ مبتدأ. والواو للعطف ﴿**للكافرين**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**من عذاب**﴾ متعلق بويل. ﴿**شديد**﴾ نعت لعذاب. ﴿**الذين**﴾ في محل جر نعت للكافرين. ﴿**يستحبون الحياة**﴾ فعل وفاعل ومفعول. صلة الذين. ﴿**الدنيا**﴾ نعت للحياة منصوب بفتحة مقدرة على الألف. ﴿**على الآخرة**﴾ متعلق بيستحبون. ﴿**ويصدون**﴾ معطوف على يستحبون. ﴿**عن سبيل**﴾ متعلق بيصدون. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى سبيل. ﴿**ويبغونها**﴾ فعل وفاعل ومفعول. معطوف على ما قبله. ﴿**عوجا**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**فى ضلال**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**بعيد**﴾ نعت لضلال. والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿**وما أرسلنا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفى وواو العطف. ﴿**من رسول**﴾ مفعول به جر بحرف الجر الزائد. ﴿**إلاّ بلسان**﴾ متعلق بأرسلنا مع مراعاة الاستثناء. ﴿**قومه**﴾ مضاف إلى لسان. ﴿**ليبين**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل. والفاعل ضمير يعود على رسول. ﴿**لهم**﴾ متعلق بيبين. والفعل مؤوّل بمصدر مجرور بلام التعليل متعلق بأرسلنا. ﴿**فيضل الله**﴾ فعل وفاعل دخل عليه فاء التفريع. ﴿**من**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**يشاء**﴾ صلة من. ﴿**ويهدى**﴾ من يشاء معطوف على فيضل الله من يشاء ﴿**وهو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**العزيز الحكيم**﴾ خبرَانِ لهُو. والجملة تذييل لا محل لها من الإعراب. ﴿**ولقد أرسلنا موسى**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف التحقيق ولام التوكيد وواو العطف.

﴿**بآياتنا**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**أن**﴾ حرف تفسير ﴿**أخرج**﴾ فعل أمر. ﴿**قومك**﴾ مفعول به. ﴿**من الظلمات إلى النور**﴾ متعلقان بفعل الأمر. وجملة أن أخرج قومك تفسيرية لا محل لها من الإعراب. ﴿**وذكرهم**﴾ معطوف على أخرج قومك.

﴿**بأيام**﴾ متعلق بذكرهم. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى أيام. ﴿**إن في ذلك**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ مقدم. ﴿**لآيات**﴾ اسمها مؤخر. . . ﴿**لكل**﴾ متعلق بمحذوف نعت لآيات. ﴿**صبار**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**شكور**﴾ وصف ثانٍ مثلُ الأول. ﴿**وإذ**﴾ في محل نصب ظرف للزمن الماضى متعلق بفعل أمر مقدر. . . ﴿**قال موسى**﴾ فعل وفاعل واقع في الظرف.

﴿**لقومه**﴾ متعلق بقال. ﴿**اذكروا**﴾ فعل أمر. . . ﴿**نعمة**﴾ مفعول به. الله مضاف إلى نعمة. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بنعمة. ﴿**إذ أنجاكم**﴾ متعلق باذكروا. مثل إذ قال. . . ﴿**من آل**﴾ متعلق بأنجاكم. ﴿**فرعون**﴾ مضاف إلى آل مجرور بالفتحة. ﴿**يسومونكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**سوء**﴾ مفعول ثانٍ. ﴿**العذاب**﴾ مضاف إلى سوء. ﴿**ويذبحون**﴾ معطوف على يسومونكم. ﴿**ويستحيون نساءكم**﴾ معطوف على يذبحون. وجملة يسومونكم وما عطف عليه في محل نصب حال من آل فرعون. ﴿**وفى ذلكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**بلاء**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**من ربكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لبلاء. ﴿**عظيم**﴾ نعت ثانٍ.

وجملة وفى ذلكم بلاء من ربكم. . . تذييل. ﴿**وإذ تأذن ربكم**﴾ معطوف على قوله: إذ أنجاكم. . . ﴿**لئن شكرتم**﴾ جملة شرطية دخل عليها لام القسم. ﴿**لأزيدنكم**﴾ جواب القسم سد مسد جواب الشرط. ﴿**ولئن كفرتم**﴾ معطوف على لئن شكرتم. ﴿**إن عذابى**﴾ إن واسمها ﴿**لشديد خبرها. واللام**﴾ لتوكيد الخبر. ﴿**وقال موسى**﴾ فعل وفاعل والواو للعطف. ﴿**إن تكفروا**﴾ جملة شرطية. ﴿**أنتم**﴾ ضمير فصل. ﴿**ومن فى**﴾ محل رفع معطوف على الفاعل. ﴿**فى الأرض**﴾ متعلق بمحذوف صلة مَنْ. ﴿**جميعا**﴾ حال مؤكدة لمن في الأرض. ﴿**فإن الله لغنى حميد**﴾ الجملة من إنّ واسمها وخبرها جواب الشرط. وجملة الشرط وجوابه مقول القول. ﴿**ألم يأتكم**﴾ فعل مضارع مجزوم بلم والهمزة للاستفهام. وضمير المخاطبين مفعول. ﴿**نبأ**﴾ فاعل.

﴿**الذين**﴾ في محل جر مضاف إلى نبإ. ﴿**من قبلكم**﴾ متعلق بمحذوف صلة الذين. ﴿**قومِ**﴾ بالجر بدل من الذين. ﴿**نوح**﴾ مضاف إلى قوم. ﴿**وعاد وثمود والذين من بعدهم**﴾ معطوفات على نوح. ﴿**لا يعلمهم**﴾ فعل مضارع منفي بلا. ﴿**إلاّ الله**﴾ بدل من الفاعل المقدر؛ والتقدير: لا يعلمهم أحدٌ إلا اللّهُ، والجملة

حال من الذين من بعدهم. ﴿**جاءتهم رسلهم**﴾ فاعل جاءت. ﴿**بالبينات**﴾ متعلق بجاءتهم، وجملة لا يعلمهم إلاّ الله معترضة بين الحال وصاحبها. ﴿**فردوا أيديهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. والفاء للتعقيب. ﴿**فى أفواههم**﴾ متعلق بردوا. ﴿**وقالوا**﴾ معطوف عليه. ﴿**إنا**﴾ إن واسمها. ﴿**كفرنا**﴾ فعل وفاعل. والجملة خبر إنّ. ﴿**بما**﴾ متعلق بكفرنا.

﴿**أرسلتم**﴾ صلة ما. ﴿**به**﴾ متعلق بأرسلتم. وجملة إنا كفرنا مقول القول. ﴿**وإنا**﴾ إن واسمها. ﴿**لفى شك**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**مما**﴾ متعلق بمحذوف نعت لشك. ﴿**تدعوننا**﴾ صلة ما. ﴿**إليه**﴾ متعلق به. ﴿**مريب**﴾ نعت لشك. ﴿**قالت**﴾ رسلُهم فعل وفاعل. ﴿**أفى الله**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. والهمزة للاستفهام. ﴿**شك**﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة مقول القول. ﴿**فاطر**﴾ بالجر نعت لله. ﴿**السماوات**﴾ مضاف إلى فاطر. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات. ﴿**يدعوكم**﴾ الفاعل ضمير يعود على فاطر. والضمير المتصل بالفعل مفعول. والجملة في محل نصب حال من اسم الله. ﴿**ليغفر لكم من ذنوبكم**﴾ متعلقان بيغفر. والفعل مؤول بمصدر مجرور بلام التعليل متعلق بيدعوكم.

﴿**ويؤخركم**﴾ معطوف على يغفر. ﴿**إلى أجل**﴾ متعلق بما قبله. ﴿**مسمى**﴾ نعت لأجل. مجرور بكسرة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين. ﴿**قالوا: إن**﴾ حرف نفى. ﴿**أنتم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**إلا بشر**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**مثلُنا**﴾ نعت لبشر. ﴿**تريدون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أن تصدونا**﴾ مؤول بمصدر منصوب مفعول تريدون. ﴿**عما**﴾ متعلق بما قبله. ﴿**كان يعبد آباؤنا**﴾ اسم كان ضمير يعود على ما. وجملة يعبد آباؤنا خبر كان. وجملة كان واسمها وخبرها صلة ما. ﴿**فأتونا**﴾ فعل أمر دخل عليه حرف التفريع. بسلطان متعلق بما قبله. ﴿**مبين**﴾ نعت لسلطان. ﴿**قالت لهم رسلهم**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إن نحن إلا بشر**﴾ مثلكم مثل إن أنتم إلا بشر مثلنا في الإعراب. ﴿**ولكن الله**﴾ لكنّ واسمها. والواو للعطف. ﴿**يمن**﴾ فعل مضارع والفاعل ضمير يعود على الله. والجملة في محل رفع خبر لكنّ. ﴿**على من**﴾ متعلق بيمنّ. ﴿**يشاء**﴾ صلة من. ﴿**من عباده**﴾ بيان لها.

﴿**وما كان لنا أن نأتيكم**﴾ هذا التركيب مرّ إعرابه في قوله: وما كان لرسول

أن يأتى بآية. ﴿**بسلطان**﴾ متعلق بما قبله. ﴿**إلا باذن الله**﴾ مستثنى من أعم الأحوال. ﴿**وعلى الله**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**فليتوكل المؤمنون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه لام الأمر وفاء التفريع. ﴿**وما**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**لنا**﴾ متعلق بمحذوف خبر. ﴿**ألا نتوكل**﴾ فعل مضارع منصوب بأن. ولا نافية. والفاعل نحن. ﴿**على الله**﴾ متعلق بنتوكل. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بفي متعلق بالخبر. أى: وأى عذر ثابت لنا في عدم توكلنا على الله ﴿**وقد هدانا سبلنا**﴾. الواو للحال. وقد للتحقيق. وهدى ينصب مفعولين. والجملة في محل نصب حال من الفاعل في نتوكل. ﴿**ولنصبرن**﴾ فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد.

وهو معطوف على ما سبقه من كلام الرسل. ﴿**على ما**﴾ متعلق بما قبله. ﴿**آذيتمونا**﴾ فعل وفاعل ومفعول صلة ما. ﴿**وعلى الله فليتوكل المتوكلون**﴾ مثل وعلى الله فليتوكل المؤمنون في الإعراب. ﴿**وقال الذين**﴾ فعل وفاعل. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين. ﴿**لرسلهم**﴾ متعلق بقال. ﴿**لنخرجنكم الفعل**﴾ مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد. دخلت عليه لام القسم. ﴿**من أرضنا**﴾ متعلق بما قبله. ﴿**أو لتعودُنّ**﴾ معطوف على لنخرجنكم. ﴿**فى ملتنا**﴾ متعلق بما قبله. ﴿**فأوحى**﴾ فعل ماضى دخل عليه فاء التعقيب. ﴿**إليهم**﴾ متعلق بأوحى. ﴿**ربهم**﴾ فاعل. ﴿**لنهلكن**﴾ مثل لنخرجن في الإعراب. ﴿**الظالمين**﴾ مفعول به. ﴿**ولنسكننكم**﴾ معطوف على لنهلكن. ﴿**الأرض**﴾ مفعول ثان.

﴿**من بعدهم**﴾ متعلق بنسكننكم. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**لمن**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**خاف**﴾ فعل ماضٍ والفاعل ضمير يعود على من والجملة صلة الموصول. ﴿**مقامى**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم... ﴿**وخاف وعيد**﴾ معطوف على خاف مقامى. وحذفت ياء المتكلم تخفيفا. ﴿**واستفتحوا**﴾ فعل وفاعل معطوف على وقال الذين كفروا. ﴿**وخاب كل**﴾ فعل وفاعل معطوف على واستفتحوا. ﴿**جبار**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**عنيد**﴾ نعت لجبار. ﴿**من ورائه**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**جهنم**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**ويسقى**﴾ فعل مضارع مبنى للمجهول. ونائب الفاعل ضمير يعود على كل جبار... ﴿**من ماء**﴾ متعلق بيسقى. وهو معطوف على جملة من ورائه جهنم.

وجملة من ورائه جهنم نعت لجبار عنيد. ﴿**صديد**﴾ عطف بيان لماء. ﴿**يتجرعه**﴾ فعل مضارع. والفاعل ضمير يعود على كل جبار... والجملة استئناف. ﴿**ولا يكاد**﴾ معطوف على يتجرعه. ويكاد مضارع كاد. وهي تعمل عمل كان. واسمها ضمير يعود معاد الضمائر الأُوَلِ. ﴿**يسيغه**﴾ مثل يتجرعه في الإعراب. والجملة في محل نصب خبر يكاد. ﴿**ويأتيه**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**الموت**﴾ فاعل يأتي. ﴿**من كل**﴾ متعلق بيأتيه. ﴿**مكان**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**وما هو**﴾ ما واسمها. ﴿**بميت**﴾ خبر ما. جر بحرف الجر الزائد. ﴿**ومن ورائه**﴾ عذاب مثل من ورائه جهنم في الإعراب .﴿**غليظ**﴾ نعت لعذاب. ﴿**مثلُ**﴾ مبتدأ. ﴿**الذين**﴾ في محل جر مضاف إلى مثل. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين. ﴿**بربهم**﴾ متعلق بما قبله. ﴿**أعمالُهم**﴾ مبتدأ ثان. ﴿**كرماد**﴾ خبره. والجملة من المبتدإ الثاني وخبره خبر المبتدإ الأول. ﴿**اشتدت فعل ماضٍ.** ﴿**به متعلق به.**

﴿**الرياح**﴾ فاعل اشتدت. ﴿**في يوم**﴾ متعلق باشتدت. ﴿**عاصف**﴾ نعت ليوم، وجملة اشتدت به الرياح نعت لرماد. ﴿**لا يقدرون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفي. ﴿**مما**﴾ متعلق بيقدرون. ﴿**كسبوا**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**على شيء**﴾ متعلق بيقدرون، وجملة لا يقدرون بيانية. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**هو**﴾ ضمير فصل. ﴿**الضلال**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**البعيد**﴾ نعته. والجملة تذييل. ﴿**ألم تر**﴾ تكرر إعراب مثل هذا التركيب. ﴿**أن الله**﴾ أن واسمها. ﴿**خلق**﴾ فعل ماض. والفاعل ضمير يعود على الله. والجملة خبر أن. ﴿**السماوات**﴾ مفعول به. ﴿**الأرض**﴾ معطوف عليه. وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول تر.

﴿**بالحق**﴾ متعلق بمحذوف حال من السماوات. ﴿**إن يشأ**﴾ فعل الشرط. ﴿**يذهبكم**﴾ جوابه. ﴿**ويأت**﴾ معطوف على الجواب. ﴿**بخلق**﴾ متعلق بيأت. ﴿**جديد**﴾ نعت له. ﴿**وما ذلك**﴾ ما واسمها. ﴿**على الله**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**بعزيز**﴾ خبر ما جُر بحرف الجر الزائد، والجملة معطوفة على جملة إن يشأ يذهبكم. ﴿**وبرزوا**﴾ فعل وفاعل، والواو للعطف. ﴿**لله**﴾ متعلق بما قبله. ﴿**جميعاً**﴾ حال من فاعل برزوا. ﴿**فقال الضعفاء**﴾ فعل وفاعل دخل عليه فاء التعقيب. ﴿**للذين**﴾ متعلق بقال. ﴿**استكبروا**﴾ صلة الذين. ﴿**إنّا إنّ**﴾ واسمها. ﴿**كنّا**﴾ كان واسمها. ﴿**لكم**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**تبعاً**﴾ خبر كان، ﴿**وكان**﴾

واسمها وخبرها خبر إنّ. ﴿**فهل أنتم**﴾ في محل رفع مبتدأ، ﴿**وهل**﴾ حرف استفهام، والفاء سببية. ﴿**مغنون**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**عنا من عذاب**﴾ متعلقان بمغنون. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى عذاب. ﴿**من شيء**﴾ من زائدة. ﴿**قالوا: لو هدانا الله**﴾ .جملة شرطية.

﴿**لهديناكم**﴾ جوابها. ﴿**سواء**﴾ خبر مقدم. ﴿**علينا**﴾ متعلق به. ﴿**أجزعنا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف الاستفهام. ﴿**أم صبرنا**﴾ معطوف على أجزعنا. والتقدير: الجزع والصبر سواء علينا. ﴿**ما**﴾ حرف نفى. ﴿**لنا**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**من محيص**﴾ مبتدأ مؤخر جر بمن الزائدة. والجملة تعليل. ﴿**وقال الشيطان**﴾ فعل وفاعل. والواو للعطف. ﴿**لما**﴾ ظرف زمان. ﴿**قضى**﴾ فعل ماضٍ مبنى للمجهول. ﴿**الأمر**﴾ نائب الفاعل. والظرف متعلق بقال. وجملة قضى الأمر في محل جر مضاف إلى الظرف. ﴿**إن الله**﴾ إن واسمها. ﴿**وعدكم**﴾ فعل ماضٍ. والفاعل ضمير يعود على الله. وضمير المخاطبين مفعول. ﴿**وَعْدَ**﴾ مفعول مطلق. ﴿**الحق**﴾ مضاف إلى وعد. وجملة وعدكم في محل رفع خبر إنّ. وجملة إن الله وعدكم. . . مقول القول.

﴿**ووعدتكم**﴾ معطوف على وعدكم. ﴿**فأخلفتكم**﴾ مرتب على وعدتكم. ﴿**وما كان لى عليكم**﴾ متعلقان بكان التامة. ﴿**من سلطان**﴾ فاعل كان جر بمن الزائدة. وما النافية. والواو للعطف. ﴿**إلا أن دعوتكم**﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن. ﴿**فاستجبتم**﴾ مرتب على دعوتكم. ﴿**لى**﴾ متعلق باستجبتم. أى: لكنى دعوتكم فاستجبتم لى. . . ﴿**فلا تلومونى**﴾ مفرع على قوله: فاستجبتم لى. والفعل مجزوم بلا الناهية. ﴿**ولوموا**﴾ فعل أمر معطوف على ما قبله. ﴿**أنفسكم**﴾ مفعول به. ﴿**ما أنا**﴾ ما واسمها. ﴿**بمصرخكم**﴾ خبر ما جُرّ بحرف الجر الزائد. ﴿**وما أنتم بمصرخيّ**﴾ مثلها في الإعراب. ﴿**إنى**﴾ إن واسمها. ﴿**كفرت**﴾ فعل وفاعل. والجملة خبر إنّ. ﴿**بما**﴾ متعلق بكفرت.

﴿**أشركتمونى**﴾ فعل وفاعل ومفعول صلة ما. ﴿**من قبلُ**﴾ متعلق بأشركتمونى. وجملة إنى كفرت. . . بيانية. ﴿**إنّ الظالمين**﴾ إن واسمها. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**عذاب**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**أليم**﴾ نعت لعذاب. وجملة إن الظالمين تعليلية. ﴿**وأدخل**﴾ فعل ماضى مبنى للمجهول. والواو للعطف.

﴿**الذين**﴾ في محل رفع نائب الفاعل. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**وعملوا**﴾ معطوف على آمنوا. ﴿**الصالحات**﴾ مفعول به. ﴿**جنات**﴾ مفعول ثانٍ لأدخل. والأصل أدخل الله الذين آمنوا... جنات... ﴿**تجرى**﴾ فعل مضارع. ﴿**من تحتها**﴾ متعلق بتجرى. ﴿**الأنهارُ**﴾ فاعل تجرى. ﴿**خالدين**﴾ حال من الذين آمنوا. ﴿**فيها**﴾ متعلق بالحال. ﴿**بإذن**﴾: متعلق بأدخل. ﴿**ربهم**﴾: مضاف إلى إذن. ﴿**تحيتهم**﴾: مبتدأ. ﴿**فيها**﴾: متعلق بها. ﴿**سلام**﴾ خبر المبتدإ.

﴿**ألم تر**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**كيف**﴾ في محل نصب. ﴿**ضرب الله مثلا**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**كلمة**﴾ بدل من مثلا، ﴿**طيبة**﴾ نعت لكلمة. ﴿**كشجرة**﴾ نعت ثان. ﴿**طيبة**﴾ نعت لشجرة. ﴿**أصلها**﴾ مبتدأ. ﴿**ثابت**﴾ خبره. ﴿**وفرعها**﴾ معطوف على أصلها. ﴿**فى السماء**﴾ متعلق بمحذوف خبر... ﴿**تؤتى**﴾ فعل مضارع. والفاعل ضمير يعود على الشجرة الطيبة. ﴿**أكلها**﴾ مفعول به. ﴿**كل**﴾ ظرف زمان منصوب بالفتحة. ﴿**حين**﴾ مضاف إلى كل. والجمل الثلاث أوصاف للشجرة الطيبة. ﴿**بإذن**﴾ متعلق بتؤتى. ﴿**ربها**﴾ مضاف إلى إذن. ﴿**ويضرب الله الأمثال**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**للناس**﴾ متعلق بيضرب. والجملة معترضة. ﴿**لعلهم**﴾ لعل واسمها. ﴿**يتذكرون**﴾ فعل وفاعل والجملة في محل رفع خبر لعلّ. وجملة لعلهم يتذكرون تعليل للجملة قبلها. ﴿**ومثلُ**﴾ مبتدأ. ﴿**كلمة**﴾ مضاف إلى مثل. ﴿**خبيثة**﴾ نعت لكلمة.

﴿**كشجرة**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**خبيثة**﴾ نعت لشجرة. ﴿**اجتثّت**﴾ فعل ماض مبنى للمجهول. ﴿**من فوق**﴾ متعلق به. ﴿**الأرض**﴾ مضاف إلى فوق. وجملة اجتثت في محل جر نعت ثانٍ لشجرة. ﴿**ما**﴾ نافية. ﴿**لها**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**من قرار**﴾ خبر ومن زائدة وجملة ما لها من قرار بيان لجملة اجتثت من فوق الأرض. ﴿**يثبت الله الذين آمنوا**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**بالقول**﴾ متعلق بيثبت. ﴿**الثابت**﴾ نعت للقول في الحياة متعلق بيثبت. ﴿**الدنيا**﴾ نعت للحياة. ﴿**وفى الآخرة**﴾ معطوف على في الحياة... ﴿**ويضل الله الظالمين**﴾ معطوف على يثبت الله الذين آمنوا... ﴿**ويفعل الله ما يشاء**﴾ تذييل مقرر لما تضمنته الجمل السابقة.

مبحث الأسلوب البلاغى

﴿**آلر. كتاب أنزلناه إليك...**﴾ سميت هذه السورةُ سورةَ إبراهيم لذكر

إبراهيم فيها. . . وعدد آياتها أربع وخمسون آية. واشتملت من الأغراض على أنها ابتدئت بالتنبيه على إعجاز القرآن. . . وبالتنويه بشأنه. وأنه أنزل لإخراج الناس من الضلالة والامتنان بأن جعله بلسان العرب. وتمجيد الله الذى أنزله. ووعيد الذين كفروا به وبمن أنزل عليه. وإيقاظ المعاندين بأن محمدا ما كان بِدْعا من الرسل، وأن كونه بشرا أمر غيرُ منافٍ لرسالته من عند الله كغيره من الرسل. وضرب له مثلا برسالة موسى إلى فرعون لإصلاح حال بنى إسراءيل، وتذكيره قومه بنعم الله ووجوب شكرها، وموعظته إياهم بما حل بقوم نوح وعاد ومن بعدهم وما لاقته رسلهم من التكذيب، وكيف كانت عاقبة المكذبين.

وإقامة الحجة على تفرد الله بالإلهية بدلائل مصنوعاته. وذكر البعث. وتحذير الكفار من تغرير قادتهم وكبرائهم من كيد الشيطان، وكيف يتبرأون منهم يوم الحشر. ووصف حالهم وحال المؤمنين يومئذ، وفضل كلمة الإسلام وخبث كلمة الكفر. ثم التعجيب من حال قوم كفروا نعمة الله وأوقعوا من تبعهم في دار البوار بالإشراك. والإيماء إلى مقابلته بحال المؤمنين. وعد بعض نعمه على الناس تفصيلا ثم جمعها إجمالا. ثم ذكّر الفريقين بحال إبراهيم ليعلم الفريقين من هو سالك سبيل إبراهيم ومن هو ناكب عنه من ساكنى البلد الحرام. وتحذيرهم من كفران النعمة.

وإنذارهم أن يحل بهم ما حل بالذين ظلموا من قبل. وتثبيت النبئ بوعد النصر. وما تخلل ذلك من الأمثال. وختمت بكلمات جامعة غاية في الحسن والكمال. والربط بين هذه السورة والسورة التي قبلها واضح؛ لأنه قد ذكر في تلك السورة من مدح كتاب وبيان أنه مُغْنٍ عما اقترحوه ما ذكر. وافتتحت هذه بوصف الكتاب، والإيماء إلى أنه مغنٍ عن ذلك أيضا. وإذا أريد بمن عنده علم الكتاب الله تعالى ناسب مطلع هذه ختام تلك أشد مناسبة. وأيضا قد ذكر في تلك إنزال القرآن حكما عربيا ولم يصرح فيها بحكمة ذلك وصرّح بها هنا. وأيضا تضمنت تلك الأخبار من قِبَله تعالى بأنه ما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله، وتضمنت هذه الأخبار به من جهة الرسل وأنهم قالوا ما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله. . . وأيضا ذكر هناك أمر النبئ بأن عليه توكلت، وحكى هنا عن إخوانه المرسلين توكلهم عليه سبحانه.

وأمرهم بالتوكل عليه سبحانه. واشتملت تلك على تمثيل للحق والباطل، واشتملت هذه على ذلك أيضا بتمثيل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة وأيضا ذكر في الأولى من رفع السماء ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر إلى غير ذلك مما ذكر، وذكر هنا نحو ذلك إلا أنه اعتبر ما ذكر أولا آيات، وما ذكر ثانيا نعماً. وصرح في كل بأشياء لم يصرح بها في الأخرى. وأيضا قد ذكر هناك مكر الكفرة، وذكر هنا أيضا. وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك. وقد اشتركت السورتان بأن كلا قد افتتح بالألف واختتم بالباء. وفيها مناسبات أخرى لو تتبعها الباحث لطال به الكلام. وسبحان من أعجز بكتابه جميع الأنام!: **﴿ألر... كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم﴾** وتقدم مثل هذا الأسلوب في مبدإ سورة الأعراف بقوله: ألمص كتاب أنزل إليك؛ غير أن هنا ذكر فاعل الإنزال؛ لأن المقام مقام الامتنان على الناس. ومن ذكر صفة الربوبية.

بخلاف سورة الأعراف فإنها في مقام الطمأنة والتصبير للنبئ المنزل إليه الكتاب... فكان التعرض لذكر المنزل إليه والاقتصار عليه أهم في ذلك المقام؛ مع ما فيه من قضاء حق الإيجاز. أما التعرض للمنزل إليه هنا فللتنويه بشأنه، وليُجعل له حظ في هذه المنة. وهو حظ الوساطة. ولما فيه من غم المعاندين والمبغضين... ولأجل هذا المقصد وقع إظهار صفات فاعل الإنزال ثلاث مرات في قوله: **﴿بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾** بعد أن كان المقام للإضمار تبعا لقوله: أنزلناه... وإسناد الإخراج إلى النبئ؛ لأنه يبلغ هذا الكتاب المشتمل على تبيين طرق الهداية إلى الإيمان، وإظهار فساد الشرك والكفر. وهو مع التبليغ يبين للناس ويقرب إليهم معانى الكتاب بتفسيره وتبيينه العملى.

وتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات إلى النور دل على أن الهداية هى مراد الله تعالى من الناس، وأنه لم يتركهم في ضلالهم... فمن اهتدى فبإرشاد الله. ومن ضل فبإيثار الضال هو نفسه على دلائل الإرشاد. وأمر الله لايكون إلا لِحِكَمٍ ومصالح بعضها أكبر من بعض. والإخراج مستعار للنقل من حال إلى حال. شبهً الانتقال بالخروج، فشبه النقل بالإخراج. والظلمات والنور استعارة للكفر والإيمان؛ لأن الكفر يجعل صاحبه في حيرة فهو كالظلمة في ذلك. والإيمان يرشد إلى الحق فهو كالنور في إيضاح السبيل. وقد يستخلص السامع من ذلك

تمثيل حال المنغمس في الكفر بالمتحير في ظلمة، وحال انتقاله إلى الإيمان بحال الخارج من ظلمة إلى مكان نيّرٍ. ولما كان الإرسال لمصلحتهم أضيف الإذن إلى وصف الربّ المضاف إلى ضمير الناس أي: بإذن الذي يدبر مصالحهم.

وقوله: إلى صراط العزيز الحميد بدل من النور بإعادة الجار للمبدل منه لزيادة بيان المبدل منه اهتماما به. وتأكيد للعامل. ومناسبة الصراط المستعار للدين الحق، لاستعارة الإخراج والظلمات والنور ولما يتضمنه من التمثيل؟، ظاهرة. واختيار وصف العزيز الحميد من بين الصفات الْعُلَى، لمزيد مناسبتها للمقام؛ لأن العزيز الذى لا يُغلب. وإنزال الكتاب برهان على أحقية ما أراده الله من الناس... فهو به غالب للمخالفين مقيم الحجة عليهم. والحميد بمعنى المحمود؛ لأن في إنزال هذا الكتاب نعمة عظيمة ترشد إلى حمده عليه. وبذلك استوعب الوصفان الإشارة إلى الفريقين، من كل منساق إلى الاهتداء من أول وهلة، ومن مجادل صائر إلى الاهتداء بعد قيام الحجة ونفاد الحيلة. ﴿**الله الذى له ما في السماوات وما في الأرض**﴾: حذف المسند إليه للعلم به. أى: هو الله الموصوف بالصفات السابقة، وبالصفات اللاحقة. وهى ملك ما في السماوات وما في الأرض.

وإجراء الوصف بالموصول على اسم الله لزيادة التفخيم لا للتعريف؛ لأن ملك سائر الموجودات صفة عظيمة والله معروف بها عند المخاطبين. وفيه تعريض بأن صراط غير الله من طرق آلهتهم ليس بواصل إلى المقصود لنقصان ذويه. وفى ذكر هذه الصلة إدماج تعريض بالمشركين الذين عبدوا ما ليس له السماوات والأرض. وويل للكافرين من عذاب شديد. الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك في ضلال بعيد: لمّا أفاد قولُه: إلى صراط العزيز الحميد... تعريضا بالمشركين الذين اتبعوا صراط غير الله الذى له ما في السماوات وما في الأرض عطف الكلام إلى تهديدهم وإنذارهم بقوله: ﴿**وويل للكافرين من عذاب شديد**﴾ وجملة وويل للكافرين إنشاء دعاء عليهم في مقام الغضب والذم... مع إفادته الحكم المنفّذ فيهم. والسين والتاء في ﴿**يستحبون**﴾ للتأكيد.

وضمن يستحبون معنى يؤثرون فعدى بحرف على... وجملة ﴿**أولئك في**

ضلال بعيد﴾ مستأنفة وقعت معللة لما سبق من لحوق الويل بهم تأكيداً لما أشعر به بناء الحكم على الموصول. أى: أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة من استحباب الحياة الدنيا على الآخرة وصد الناس عن سبيل الله المستقيمة، ووصفها بالاعوجاج، في ضلال عن طريق الحق بعيد بالغ في ذلك غاية الغايات القاصية... ودل حرف الظرفية على أن الضلال محيط بهم... فلا محيص من الخروج منه. **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾**: هذا رد على زعم المشركين بأن للكتب السماوية لغة خاصة لا يدركها إلا رجل الدين الممارس للكهانة الخبير بها دون غيره من بقية الناس.

وهذا اعتقاد فاش بين أهل العقول الضعيفة... فهؤلاء الذين يعالجون سر الحرف والطلسمات يموهون بأنها لا تكتب إلا باللغة السريانية ويزعمون أنها لغة الملائكة ولغة الأرواح. ولا يطلع عليها إلا الخواص الموهوبون من البشر. وهو معنى النبئ عند اليهود والقديس عند النصارى. والولى عند جهلاء المسلمين. واستقر في نفوس المشركين ومن سار على أوهامهم من جملة مطاعنهم أن القرآن لو كان من عند الله لكان باللغة التي جاءت بها الكتب السالفة المموهة بالألغاز والطلسمات وصارت عربية القرآن عندهم من وجوه الطعن في أنه منزل من عند الله... فالقصر هنا لرد كلامهم. أى: ما أرسلنا من رسول بلسان إلا لسان قومه المرسل إليهم لا بلسان قوم آخرين. وقوم الرسول هم العرب. وأمته الذين يستجيبون لدعوته من جميع الناس المرسل إليهم.

وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا... وإنما كان المخاطب أولا هم العرب الذين عاش الرسول بينهم. ونزل الكتاب بلغتهم لتعذر نزوله بلغات الأمم كلها. واختار الله أن يكون رسوله الخاتم من أمة هى أفصح الأمم لسانا. وأسرعهم أفهاما. وألمعهم ذكاء. وأحسنهم استعداداً لقبول الهدى والإرشاد. واختار أن يكون الكتاب المنزل إليهم بلغة العرب؛ لأنها أصلح اللغات جمع معان وإيجاز عبارة. وسهولة جَرْيٍ على الألسن. وسرعة حفظ. وجمال وقع في الأسماع وفى التعليل بقوله: ليبين لهم إيماء إلى هذا المعنى.

وتفريع قوله: فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء... على مجموع ما أرسلنا

من رسول إلا بلسان قومه والإضلال والهدى من الله بما أعد في نفوس الناس من اختلاف الاستعداد وجملة وهو العزيز الحكيم تذييل؛ لأن العزيز قوى لا ينفلت شئ من قدرته ولا يخرج عما خلق له. والحكيم يضع الأشياء مواضعها... فموضع الإرسال والتبيين يأتى على أكمل وجه من الإرشاد. ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور**﴾: لما كانت الآيات السابقة مسوقة للرد على من أنكروا أن القرآن منزل من الله أعقب الرد بالتمثيل بالنظير. وهو إرسال موسى إلى قومه بمثل ما أرسل به محمد... وبمثل الغاية التي أرسل لها محمد ليخرج قومه من الظلمات إلى النور.

وتأكيد الإخبار عن إرسال موسى بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المنكرين رسالة محمد منزلة من ينكر رسالة موسى. ولما ضمن التذكير معنى الإنذار والوعظ عدى بباء المصاحبة في قوله: وذكرهم بأيام الله. وأيام الله أيامُ ظهور نصْرِ أوليائه وقهر وإهلاك أعدائه... واسم الإشارة في قوله: إن في ذلك لآيات عائد إلى ما ذكر من الإخراج والتذكير... وقد أحاط معنى هذا الشمول حرف الظرفية من قوله: في ذلك؛ لأن الظرفية تجمع أشياء مختلفة يحتويها الظرف. ولذلك كان لحرف الظرفية هنا موقع بليغ. ولكون الآيات مختلفة ـ بعضها آيات موعظة وزجر، وبعضها آيات مِنّة وترغيب جعلت متعلقة بكل صبار شكور؛ إذ الصبر مناسب للزجر. والإنعام يبعث النفس على الشكر.

﴿**وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم**﴾: وصلت الآية بالعطف على آية ولقد أرسلنا موسى بآياتنا باعتبار غرض الجملتين. وهو التنظير بسنن ما جاء به الرسل السابقون من إرشاد الأمم وتذكيرها، كما أنزل القرآن لذلك. وإذ ظرف للماضى متعلق بفعل، تقديره: اذكر. دل عليه السياق الذى هو ذكر شواهد التاريخ بأحوال الرسل مع أممهم. وهذا مما قاله موسى لقومه بعد أن أنجاهم الله من استعباد القبط وإهانتهم... فهو من تفاصيل ما فسر به إرسال موسى. وهو من التذكير بأيام الله. وعطفت جملة ويذبحون على جملة يسومونكم باعتبارها صنفا آخر غير سوء العذاب... فعطفه

من عطف الخاص على العام **﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾**: وصلت هذه الآية بالعطف على ما قبلها؛ لأنها من كلام موسى. ومعنى تأذن ربكم تكلم كلاما علنا.

والتأذن مبالغة في أذن. أى: آذن إيذانا بليغا لا تبقى معه شائبة شبهة؛ لما في صيغة التفعل من معنى التكلف المحمول في حق الله تعالى على غايته التي هى الكمال. ولقد ذكرهم أولا بنعم الله عليهم صريحا، وضمنه تذكير ما أصابهم قبل ذلك من الضراء... ثم أمرهم ثانيا بذكر ما جرى من الله من الوعد بالزيادة على تقدير الشكر. والوعيد بالعذاب على تقدير الكفر. والمراد بتذكير الأوقات تذكير ما وقع فيها من الحوادث مفصلة إذ هى محيطة بذلك... فإذا ذكرت ذكر ما فيها كأنه مشاهد معاين. وجملة لئن شكرتم موطئة للقسم. والقسم مستعمل في التأكيد. والشكر مؤذن بالنعمة. والمراد شكر نعمة الإنجاء من آل فرعون وغيرها؛ ولذلك حذف مفعول شكرتم ومفعول لأزيدنكم ليقدر عاما في الفعلين.

واستغنى بإن عذابى لشديد عن لأعذبنكم عذابا شديدا لكونه أعم وأوجز: ولكون إفادة الوعيد بضرب من التعريض أوقع في النفس. **﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد﴾**: أعيد فعل القول في عطف كلام موسى على بعض، لئلا يتوهم أن هذا مما تأذن الله به الرب، وإنما هو تنبيه على كلام الله. وفى إعادة فعل القول اهتمام بهذه الجملة وتنويه بها حتى تبرز مستقلة، وحتى يصغى إليها السامعون للقرآن. ووجه الاهتمام أن أكثر الكفار يحسبون أنهم يحسنون إلى الله بإيمانهم، وأن أنبئاءهم حين يلحون عليهم بالإيمان إنما يبتغون بذلك تعزيز جانبهم والحرص على مصلحتهم... فلما وعدهم على الشكر بالزيادة وأوعدهم على الكفر بالعقوبة خشى أن يحسبوا ذلك لانتقام المثيب بما أثاب عليه، ولتضرره مما عاقب عليه فنبههم إلى هذا الخاطر الشيطانى حتى لا يسرى إلى نفوسهم فيكسبهم إدلالا بالإيمان والشكر والإقلاع عن الكفر.

﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد ثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب﴾: هذا الكلام استئناف ابتدائي رجع به الخطاب إلى المشركين من العرب على طريقة الالتفات في قوله: ألم

يأتكم... فالموجه إليه الخطاب هنا هم الكافرون المعنيون بقوله: وويل للكافرين من عذاب شديد. وهم معظم المعنِّى من الناس في قوله: لتخرج الناس من الظلمات إلى النور فإنهم بعد أن أُجمل لهم الكلام في قوله: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم... ثم فصل بأن ضُرب المثل للإرسال إليهم لغرض الإخراج من الظلمات إلى النور بإرسال موسى لإخراج قومه، وقضى حق ذلك عقبه بكلام جامع لأحوال الأمم ورسلهم... فكان بمنزلة الموصلة، والتذييل مع تمثيل حالهم بحال الأمم السالفة وتشابه عقلياتهم في حججهم الباطلة، ورد الرسل عليهم بمثل ما رد به القرآن على المشركين في مواضع... ثم ختم بالوعيد.

وجملة لا يعلمهم إلا الله معترضة بين والذين من بعدهم. وهو كناية عن الكثرة التي يستلزمها انتفاء علم الناس بهم وضمائر ردُّوا ـ وأيديهم ـ وأفواههم ـ عائد جميعا إلى قوم نوح والمعطوفات عليه. وهذا التركيب من مبتكرات القرآن؛ إذ لم يعد سبق مثله في كلام العرب والتركيب يصورهم أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل كراهة أن تظهر دواخل أفواههم. وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل وأكدوا كفرهم بما جاءت به الرسل بما دلت عليه إنّ، وفعل المضى في قوله: إنا كفرنا... وسمّوا ما كفروا به مرسلا به تهكما بالرسل... فهم موقنون بتكذيب الرسل. وأما قولهم: وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب، فذلك شك في صحة ما يدعونهم إليه وسداده فهو عندهم معرض للنظر وتمييز صحيحه من سقيمه. فمورد الشك ما يدعونهم إليه. ومورد التكذيب نسبة دعوتهم إلى الله.

﴿**قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى**﴾: استفهام إنكارى. ومورد الإنكار هو وقوع الشك في وجود الله... فقدم متعلق الشك للاهتمام به. واتبع اسم الله الدال على الذات بالوصف الدال على وجوده. وهو وجود السماوات والأرض الدال على أن لهما خالقا حكيما؛ لاستحالة صدور تلك المخلوقات العجيبة المنظمة عن غير فاعل مختار قادر على الاتصال بكم وعالم بما ينفعكم... فهو رحيم بكم إن استجبتم. وشديد العقاب إن لم تستجيبوا... فهذه أدلة قاطعة تغافل عنها الكفار... فطلبوا من الرسل أدلة اقترحوها هم عليهم: ﴿**قالوا إن أنتم إلا بشر**

مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين﴾.

إذا كان الرسل يطلبون منهم الاتباع فهم متبعون لمن لا يشكون في سلوكهم ومنهجهم وهم الآباء والأجداد الذين يحسبونهم معصومين من اتباع الباطل. أما الرسل عندهم فهم في موضع الإنكار لرسالتهم. وفى موضع الشك القوى في صحة دعوتهم... **﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يَمُنّ على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله﴾**: هذا رد لطيف مقابل الرد العنيف... فقولهم **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** تذييل مقرر لمضمون ما سبقه من اعتماد الرسل على الله؛ لأن محاورة المعارض لا تجدى. وزادوا هذا توضيحا بقولهم: **﴿وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾**.

وأكدوا هذا القول بالقسم على الصبر على أذاهم الماضى والمستقبل... فصيغة الاستقبال المستفادة من المضارع المؤكد بنون التوكيد في لنصبرنّ دلت على أذى مستقبل. ودلت صيغة المضى المنتزع منها المصدر في قوله: ما آذيتمونا على أذىً مضَى... فحصل من ذلك معنى نصبر على أذىً متوقع كما صبرنا على أذىً مضى. وهذا إيجاز بديع. **﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا﴾**: الآن يأتى التهديد بالقسم على الوعيد الشديد من الذين كفروا حيث رفضوا كل حوار مفيد. ولكن الرد على هذا التهديد يأتى سريعاً دون مهلة أو ترديد: **﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد...﴾** فهذا هو التهديد الذى ما بعده تهديد. وقد حصل هذا فعلا لكل جبار عنيد.

وزيادة على هذا... فقد كانت جهنم في انتظارهم وهى من ورائهم بأهوالها وشرابها بهذا الماء الصديد... الذى **﴿يتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾** كل فرد منهم من فظاعة ما يلاقيه من هذا الماء الصديد... **﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ﴾**!... فيا لهول ما يلاقيه هذا الجبار العنيد عندما كان يتحدى رسل الله الذين جاءوا بالقول السديد والهدى الرشيد. **﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا**

على شئ ذلك هو الضلال البعيد﴾: قد أثار هذا التمثيل ما دل عليه الكلام السابق من شدة عذابهم. . . فيخطر ببال القارئ والسامع أن سأل نفسه أن لهم أعمالا معروفة في الدنيا فهل يجدون ثواب ذلك في الآخرة؟. . . فشبهت أعمالهم المتجمعة العديدة برماد مكدس. . . فإذا اشتدت الرياح بالرماد تبدد وتفرق هباء في الهواء حيث لا يرجع من جديد.

ومن لطائف هذا التمثيل أن اختير له التشبيه بهيئة الرماد المتجمع؛ لأن الرماد أثر لأفضل أعمال الذين كفروا من العرب وأشبعها بينهم، وهو قرى الضيف وإغاثة الملهوف. . . حتى صارت كثرة الرماد كناية في لسانهم عن الكرم الشديد!. . . فجملة لا يقدرون مما كسبوا على شئ بيان لجملة التشبيه. وجملة ذلك هو الضلال البعيد تذييل جامع لخلاصة حالهم: وهى أنها ضلال بعيد!. **﴿ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾**: استئناف بيانى ناشئ عن جملة فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين؛ فإن هلاك فئة كاملة شديدة القوة والمِرَّة أمر عجيب يثير في النفوس السؤال: كيف تهلك فئة مثل هؤلاء؟ فيجاب بأن الله الذى قدر على خلق السماوات والأرض في عظمتها قادر على إهلاك ما هو دونها. فمبدأ الاستئناف هو قوله: إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد.

فموقع جملة ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض. موقع التعليل لموقع الاستئناف. وقد جئ في الاستدلال على عظيم القدرة بالحكم الأعم إدْمَاجاً للتعليم بالوعيد، وإظهار العظيم القدرة. وفيه إيماء إلى أنه يُذهِبُ الجبابرة المعاندين. ويأتى في مكانهم في سيادة الأرض بالمؤمنين ليمكنهم من الأرض بالنصر والتأييد. وجملة **﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾** عطف على قوله: إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. . . فهو مؤكد لمضمونها. وإنما سلك بهذا التأكيد مسلك العطف لما فيه من المغايرة للمؤكد في الجملة **﴿وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾**: هذه الآية موصولة بالعطف على قوله: إن يشأ يذهبكم باعتبار جواب الشرط وهو الإذهاب وفي الكلام محذوف إذ التقدير: فأذهبهم وبرزوا لله جميعا.

وكان مقتضى الظاهر أن يقول: ويبرزون لله... فعدل عن المضارع إلى الماضى للتنبيه على تحقيق وقوعه حتى كأنه قد وقع. وجميعا حال مؤكدة لشمول الجميع من سادة وعبيد. وقد جئ في هذه الآية بوصف حال الفرق يوم القيامة، ومجادلة أهل الضلالة مع قادتهم... فعرض الضعفاء حالهم في الدنيا إلى هؤلاء القادة في موقف العرض: إنا كنا لكم تبعاً... فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ؟!.. والأسلوب جاء غاية في التعبير. قالوا لو هدانا الله لهديناكم... فهذا الجواب جار على معنى الاستفهام التوبيخى العتابى؛ إذ لم يجيبوهم بأنا لا نملك لكم غناء، ولكن ابتدأوا بالاعتذار عما صدر منهم نحوهم في الدنيا.

وجملة سواء علينا أجزعنا أم صبرنا من كلام الذين استكبروا. وهى مستأنفة. تبيينٌ عن سؤال من الضعفاء يستفتون المستكبرين أيصبرون أم يجزعون. تطلبا للخلاص من العذاب. فأرادوا تأييسهم من ذلك. يقولون: لا يفيدنا جزع ولا صبر... فلا نجاة من العذاب. فضمير المتكلم المشارك شامل للمتكلمين والمجابين. جمعوا أنفسهم إتماما للاعتذار عن توريطهم. وجملة ما لنا من محيص واقعة موقع التعليل لمعنى الاستواء... فلا ملجأ ولا نجاة... فلا معنى للجزع والصبر. على هذه المأساة.

﴿وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾: وصلت هذه الآية بالعطف على ما قبلها زيادة في المأساة التي تورط فيها الضعفاء والطغاة. فها هو كبيرهم الذى كان يمنيهم ويغررهم يعتذر ويتنصل من مسؤوليتهم... فهو يتصدى للتخفيف عن الملام عن نفسه بتشريك الذين أضلهم معه في تبعة ضلالهم. وقد أنطقه الله بذلك لإعلان الحق وشهادة عليهم بأن لهم كسبا في اختيار الانصياع إلى دعوة الضلال دون دعوة الحق... فقول الشيطان: فلا تلومونى ولوموا أنفسكم إبطال لإفراده باللوم في حين أنهم أجدر باللوم.

وجملة ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ بيان لجملة النهى عن لومه. وجملة إنى كفرت بما أشركتمون من قبل استئناف تنصّل آخر من تبعات عبادتهم

إياه عندما دعاهم إلى عبادة غير الله وجملة إن الظالمين لهم عذاب أليم من كلام المحكى عن الشيطان. وهى في موقع التعليل لما تقدم من قوله: ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى. ﴿**وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام**﴾: هذا انتقال لوصف حال المؤمنين يومئذ بمناسبة ذكر حال المشركين؛ لأن حال المؤمنين يومئذ من جملة الأحوال المقصودة بالوصف إظهاراً للتفاوت... فلم يدخل المؤمنون يومئذ في المنازعة والمجادلة تنزيها لهم عن الخوض في تلك الغمرة. مع التنبيه على أنهم حينئذ في سلامة ودعة... فهم مغمورون بالتحية والسلام.

﴿**ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها**﴾: استئناف ابتدائى اقتضته مناسبة ما حكى عن أحوال أهل الضلالة وأحوال أهل الهداية ابتداء من قوله: وبرزوا لله جميعا... إلى قوله: تحيتهم فيها سلام. فضرب الله مثلا لكلمة الإيمان وكلمة الشرك... وفى الكلام تشويق إلى علم هذا المثل. وصوغ التشويق إليه في صيغة الزمن الماضى الدال عليه حرف لم. والدال عليها فعل ضرب بصيغة الماضى لقصد الزيادة في التشويق.

وضرب المثل: نظم تركيبه الدال على تشبيه الحال. وإسناد ضرب إلى الله؛ لأن الله أوحى به إلى رسوله. والمثل لما كان معنى متضمنا عدة أشياء صح الاقتصار في تعليق فعل ضرب به على وجه إجمال يفسره قوله: كلمة طيبة كشجرة طيبة. والطيبة النافعة. استعير الطيب للنفع لحسن وقعه في النفوس. والفرع ما امتد من الشئ وعلا. والسماء مستعمل في الارتفاع. فالمشبه هو الهيئة الحاصلة من البهجة في الحس، والفرح في النفس، وازدياد أصول النفع باكتساب المنافع المتتالية بهيئة رسوخ الأصل، وجمال المنظر، ونماء أغصان الأشجار، ووفرة الثمار، ومتعة أكلها.

وكل جزء من أجزاء إحدى الهيئتين يقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى، وذلك أكمل أحوال التمثيل أن يكون قابلا لجمع التشبيه وتفريقه وجملة ﴿**ويضرب الله الأمثال للناس...**﴾ معترضة بين قوله: ضرب الله مثلا كلمة طيبة... وبين قوله: ﴿**ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار**﴾.

والقول في تمثيل حال الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة على الضد بجميع الصفات الماضية من اضطراب الاعتقاد وضيق الصدر وكدر التفكير والضر المتعاقب. وقد اختصر فيها التمثيل اختصارا؛ اكتفاء بالمضاد... فانتفت عنها سائر المنافع للكلمة الطيبة. والأظهر أن المراد بالكلمة الطيبة القرآن وإرشاده.

وبالكلمة الخبيثة تعاليم أهل الشرك وعقائدهم ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء**﴾: هذه الآية مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عما أثاره تمثيل الكلمة الطيبة بالشجرة الثابتة الأصل بأن يسأل عن الثبات المشبه به: ما هو في الحالة المشبهة؟ فيجاب بأن ذلك الثبات ظهر في قلوب أصحاب الحالة المشبهة، وهم الذين آمنوا إذ ثبتوا على الدين ولم يتزعزعوا فيه. وتفسير ذلك بمقابلته بقوله: ويضل الله الظالمين... وجملة ويفعل الله ما يشاء كالتذييل لما قبلها. وتحت إبهام ما يشاء وعمومه مطاو كثيرة... وإظهار اسم في قوله: يثبت الله. ويضل الله... ويفعل الله لقصد أن تكون كل جملة من الجمل الثلاث مستقلة بدلالتها حتى تسير مسير المثل.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**آلر. كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد**﴾: في هذا التوجيه بيان الغرض من بعثة محمد ﷺ ومن إنزال هذا الكتاب إليه الذى تحدى به العرب في تركيبه وأسلوبه... وتحدى به العالم في معانيه وأغراضه... ليخرج هذا الرسولُ بهذا الكتابِ هذه البشرية من الظلمات: ظلمات النفس وظلمات العقل وظلمات الوهم والخرافة، وظلمات الأوضاع والتقاليد، وظلمات الحيرة في تيه الأرباب المتفرقة. وفى اضطراب التصورات والقيم والتقدير... والإيمان بالله نور يشرق في القلب. فيشرق به هذا الكيان البشرى المؤلف من الطينة الغليظة ومن نفخة روح الله... فإذا ما خلا من إشراق هذه النفخة. وإذا ما طمس هذه الإشراقة فيه استحال طينة معتمة: طينة من لحم ودم.

والإيمان بالله نور تشرق به النفس فترى الطريق. ترى الطريق واضحة إلى الله... فمتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب. ولا تتردد

ولا تحتار. والإيمان بالله نور تشرق به الحياة... فإذا الناس كلهم عباد متساوون... فلا ينقسمون إلى عبيد وطغاة. والإيمان بالله نور. نور العدل، ونور الحرية ونور المعرفة. ونور الأنس بجوار الله... فإن وراء هذا التعبير القصير: لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ـ لآفاقاً لِحقائق ضخمةٍ عميقةٍ في عالم العقل والقلب والضمير. لتخرج الناس من الظلمات إلى النور... بإذن ربهم... فليس في قدرة الرسول إلا البلاغ. وليس من وظيفته إلا البيان... إلى صراط العزيز الحميد... فالصراط بدل من النور وصراط الله طريقُه وسنّتُه وناموسُه الذى يحكم الوجود والنور يهدى إلى هذا الصراط: صراط العزيز الحميد مالك القوة القاهر المسيطر المحمود اليد المشكور... فالقوة تبرز هنا لتهديد من يكفرون.

والحمد يبرز لتذكير من يشكرون... ثم يعقبها: **﴿الله الذى له في السماوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد﴾**. فمن خرج واهتدى فذاك. ولا يذكر عنه شيئا هنا. إنما يمضى السياق إلى تهديد الكافرين ينذرهم بالويل من عذاب شديد. جزاء كفرهم هذه النعمة: نعمة إرسال الرسول بالكتاب ليخرجهم من الظلمات إلى النور... ثم يكشف عن صفة تحمل معنى العلة لكفر الكافرين بنعمة الله التي يحملها رسوله الكريم: **﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة...﴾** فاستحباب الحياة الدنيا على الآخرة كثيرا ما يصطدم بتكاليف الإيمان. ويتعارض مع الاستقامة على الصراط.

وليس الأمر كذلك حين تستحب الآخرة؛ لأنه عندئذ تصلح الدنيا... فلا يقع التعارض بين استحباب الآخرة ومتاع هذه الحياة أما الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة فلا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم من غير الاستئثار بخيرات الأرض ومن الكسب الحرام ومن استغلال الناس وغشهم واستعبادهم لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم هذه في نور الإيمان بالله، وفى ضل الاستقامة على هداه... فمن ثم **﴿يصدون عن سبيل الله﴾**. يصدون أنفسهم ويصدون الناس **﴿ويبغونها عوجا﴾** لا استقامة فيها ولا عدالة.

وحين يفلحون في صد أنفسهم وصد غيرهم عن سبيل الله. وحين يتخلصون من استقامة سبيله وعدالتها... فعندئذ فقط يملكون أن يظلموا وأن يطغوا وأن يغشوا وأن يخدعوا وأن يغرّوا الناس بالفساد... فيتم لهم الحصول على ما يبغونه

من الاستئثار بخيرات الأرض والكسب الحرام والمتاع المرذول بلا مقاومة ولا استنكار. . . إن استقامة الإيمان ضمانة للحياة. وضمانة للأحياء من أثرة الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة. واستئثارهم بخيرات هذه الحياة. . . ﴿**أولئك في ضلال بعيد**﴾ لا يرجى لهم معه عودة من تيه الظلمات. لقد عِشْنَا هذه الحقائق في هذه الأيام المظلمة بالجهل والادّعاء والغرورِ الباطلِ مع الأوهام والترهات! . . .

التوجيه الثاني: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم**﴾: في هذا التوجيه إظهار الحكمة من إرسال الرسل في بيان مقاصد الشريعة التي يأتى بها كل رسول لقومه. وهى نعمة شاملة للبشر في كل مكان وزمان من كل رسالة. . . فلكى يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم ليبين لهم وليفهموا عنه فتتم الغاية من الرسالة. وقد أُرسل النبئ ـ محمد ﷺ بلسان قومه ـ وإن كان رسولا إلى الناس كافة ـ لأن قومه هم الذين سيحملون رسالته إلى كافة البشر.

وقد أمر ليدعو قومه أولا حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام. ومن ثم تكون مَهْداً ومنطلقا يخرج منه حملة رسالة محمد إلى سائر بقاع الأرض. والذى حدث بالفعل ـ وهو من تقدير الله العليم الخبير أن اختير الرسول إلى الرفيق الأعلى عند انتهاء الإسلام إلى آخر حدود الجزيرة. وبعث جيش أسامة إلى خارج الحدود. وقد مهدت لهذا خروج الرسول وأصحابه إلى تبوك قاصدا غزو الروم في عقر دارهم ولكن لم يجد مقاومة. . . فرجع إلى المدينة بعد أن ترك وراءه دويا هائلا ينذر في المستقبل بهزائم الروم وغيرهم. . . وقبل هذا وذاك بعث الرسول برسائله إلى خارج الجزيرة إلى فارس والروم والقبط والحبشة. . . تصديقا لرسالته إلى الناس كافة. وأن تتم رسالته إلى البشر كافة عن طريق حملة هذه الرسالة إلى الأصقاع. . . وقد كان. . . فلا تعارض بين رسالته للناس كافة ورسالته بلسان قومه.

وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم. . . فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء. . . فتنتهى مهمة الرسول عند البيان. أما ما يترتب عليه من هدى ومن ضلال، فلا قدرة له عليه، وليس خاضعا لرغبته. إنه من شأن الله. وضع له

سنة ارتضتها مشيئته المطلقة. . . فمن سار على درب الضلال ضل، ومن سار على درب الهدى وَصَل. . . وهو العزيز الحكيم القادر على تصريف الناس والحياة. يصرفهم بحكمة وتقدير. . . فليست الأمور متروكة جزافا بلا توجيه ولا تدبير. وكذلك كانت رسالة موسى بلسان قومه: ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور**. . .﴾ فالتعبير يُوَحّد بين صيغة الأمر الصادر لموسى والصادر لمحمد.

مع مراعاة طبيعة كل من الرسالتين ـ توحيد طبيعة الوظيفة وطبيعة الغاية. . . فإذا الأمر هناك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور. . . والأمر هنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور. . . فالأولى للناس كافة. والثانية لقوم موسى خاصة، ولكن الغاية واحدة: ﴿**وذكرهم بأيام الله**. . .﴾ ففى هذه الأيام ما هو بُؤْسَى. . . فهو آية للصبر. وفيها ما هو نعمى. . . فهو آية للشكر: ﴿**إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور**﴾. والصبار الشكور هو الذى يدرك هذه الآيات، ويدرك ما وراءها، ويجد فيها عبرة له وعظة. . . وراح موسى يؤدى رسالته ويذكر قومه: ﴿**وإذْ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم**﴾.

إنه يذكرهم بنعمة الله عليهم. نعمة النجاة من سوء العذاب الذى كانوا يلقونه من آل فرعون. . . فلا يفتر عنهم ولا ينقطع. . . ومن ألوانه البارزة تذبيح الذكور من الأولاد واستحياء الإناث. . . منعا لتكاثر القوة المانعة فيهم. واستبقاء لما تطلبه نزوة الشهوة التي كانت تعتريهم. . . فإنجاء الله لهم من هذه الحالة نعمة تذكر. وتُذْكر لتُشكر. . . وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم: بلاء بالعذاب أولا؛ لامتحان الصبر والتماسك والمقاومة والعزم على الخلاص والعمل له. . . فليس الصبر هو احتمال الذل والعذاب وكفى. . . ولكن الصبر هو احتمال العذاب بلا تضعضع ولا هزيمة روحية، واستمرار العزم على الخلاص، والاستعداد للوقوف في وجه الظلم والطغيان. وإلا فما هو صبر مشكور ذلك الاستسلام للذل والهوان. . . وبلاء بالنجاة ثانيا لامتحان الشكر والاعتراف بنعمة الله.

والاستقامة على الهدى في مقابل النجاة. ويمضى موسى في البيان لقومه.

بعدما ذكّرهم بأيامه. ووجههم إلى الغاية من العذاب. والنجاة. وهى الصبر للعذاب والشكر للنجاة يمضى ليبين لهم ما رَتَّبَهُ الله جزاء على الشكر والكفران:
﴿**وإذ تأذن ربكم: لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد...**﴾ ونقف نحن أمام هذه الحقيقة الكبيرة: حقيقة زيادة النعمة بالشكر، والعذاب الشديد على الكفر. نقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا لأوّل وهلة، لأنها وعد من الله الصادق فلابد أن يتحقق على أية حال... فإذا أردنا أن نرى مصداقها في الحياة ونبحث عن أسبابه المدركة لنا... فإننا لا نبعد كثيرا في تلمس الأسباب. إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية... فالخير يشكر؛ لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعى في الفطرة المستقيمة. هذه واحدة... والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته تراقبه في التصرف بهذه النعمة. بلا بطر وبلا استعلاء على الخلق وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد. وهذه وتلك مما يزكى النفس ويدفعها للعمل الصالح وللتصرف الصالح في النعمة بما يُنمّيها ويبارك فيها. ويرضى الناس عنها وعن صاحبها... فيكونون له عونا ويصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات في أمان. إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة.

وإن كان وَعْدُ الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن أدرك الأسباب أو لم يدركها... فهو حق واقع؛ لأنه وعد الله. والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها... أو بإنكار بأن الله واهبها... إنما هو العلم والخبرة والكد الشخصى والسعى... كأنّ هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله. وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد... وكله كفر بنعمة الله... فالعذاب الشديد قد يتضمن محن النعمة: عينا بذهابها. أو سحق آثارها في الشعور... فكم من نعمة تكون بذاتها نقمة يشقى بها صاحبها ويحسُد الخالين! وقد يكون عذابا مؤجلا إلى أجله في الدنيا أو في الآخرة كما يشاء الله... ولكنه واقع؛ لأن الكفر بنعمة الله لا يمضى بلا جزاء. ذلك الشكر لا تعود على الله عائدته. وهذا الكفر لا يرجع إلى الله أثره... فالله غنى بذاته محمود بذاته. لا بحمد الناس وشكرهم على عطاياه: ﴿**وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد...**﴾ إنما هو صلاح الحياة يتحقق بالشكر، ونفوس الناس تزكو بالاتجاه إلى الله. وتستقيم بشكر الخير

وتطمئن إلى الاتصال بالمنعم. . . فلا تخشى نفاد النعمة وذهابها ولا تذهب حسرات وراء ما ينفق أو يضيع منها. . . فالمنعم موجود والنعمة بِشُكْرِهِ تزكُو وتزيد!. . .

التوجيه الثالث: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات. . .﴾ في هذا التوجيه عرض شامل لموكب الرسل يواجه البشرية متجمعة في جاهليتها. حيث تتوارى الفواصل بين أجيالها وأقوامها. وتبرز الحقائق الكبرى مجردة عن الزمان والمكان، كما هى حقيقة الوجود خلف حواجز الزمان والمكان. . . فهاهم يعرضون موكبا بعد موكب حتى إن أكثرهم يتوارى عن الأنظار، ولكنه محسوب في الاعتبار. والسياق هنا لا يُعنَى بتفصيل أمرهم. . . فهناك وحدة في دعوتهم وفيما قوبلت به. . . **﴿فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب. . .﴾** فهو يرسم موقفهم من الرسل بالحركة والحس التي تدل على جهرهم بالتكذيب والاستهزاء بالدعوة والداعين إليها بالشك المريب فإفحاشهم في هذا القول. . . وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق. إمعان منهم في الجهر بالكفر وإظهار في التحجج بالفسق.

ولما كان الذى يدعوهم إليه رسلهم هو الاعتقاد بالله الواحد. . . فإن الشك في هذه الحقيقة الناطقة التي تدركها الفطرة وتدل عليها آيات الله المبثوثة في ظاهر الكون المتجلية في صفحاته يبدوا نكيرا ـ وقد استنكر الرسل هذا الشك .. . . فالسماوات والأرض شاهدان: **﴿قالت رسلهم: أفى الله شك فاطر السماوات والأرض﴾**؟. فهى كلمة قالها الرسل جميعا لما فيها من الوضوح ونقاوة العرض. . . فهذه الدعوة دعوة إلى الإيمان المؤدى إلى الرحمة والغفران: **﴿يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى. . .﴾** فهذان نعمتان: رحمة وسماحة تحسبان في باب النعم. . . فهل هذا هو جواب دعوة الله الرحيم المنعم؟!.

هنا يرجع القوم في جهالتهم إلى ذلك الاعتراض الجهول: **﴿قالوا: إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا. . .﴾** فبدلا من أن يعتز البشر باختيار الله لواحد منهم ليحمل رسالته، فإنهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار،

ويجعلونه مثار ريبة في كذب الرسل المختارين. ويعللون دعوتهم إليهم بأنها رغبة في تحويلهم عما كان يعبد آباؤهم. ولا يسألون أنفسهم: لماذا يرغب الرسل في تحويلهم؟! وبطبيعة الجمود العقلى الذى تطبعه الوثنيات في العقول لا يفكرون فيما كان يعبد آباؤهم ما قيمته؟ ما حقيقته؟ ماذا يساوى في معرض النقد والتفكير؟! وبطبيعة الجمود العقلى كذلك لا يفكرون في الدعوة الجديدة.

إنما يطلبون خارقة ترغمهم على التصديق: ﴿**فأتونا بسلطان مبين**...﴾ ويرد الرسل... لا ينكرون بشريتهم بل يقررونها. ولكنهم يوجهون الأنظار إلى منة الله في اختيار رسل من البشر. وفى منحهم ما يؤهلهم لحمل الأمانة الكبرى: قالوا: ﴿**إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده**...﴾ ويذكر السياق لفظ ـ يمن ـ تنسيقا للحوار مع جو السورة. جو الحديث عن نعم الله. ومنها هذه المنّة على من يشاء من عباده. وهى منّة ضخمة لا على أفراد الرسل وحدهم. ولكن كذلك على البشرية التي تُشْرَفُ بانتخاب أفراد منها لهذه المهمة العظمى: مهمة الاتصال والتلقى من الملإ الأعلى... فأما حكاية الإتيان بسلطان مبين وقوة خارقة، فالرسل يبينون لقومهم أنها من شأن الله؛ ليفرقوا في مداركهم المبهمة المظلمة بين ذات الله الإلهية، وذواتهم هم البشرية.

وليمحصوا صورة التوحيد المطلق الذى لا يلتبس بمشابهته في ذات ولا صفة: ﴿**وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله**﴾ وما نعتمد على قوة غير قوته: ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**...﴾ يطلقها الرسل حقيقة دائمة. فعلى الله وحده يتوكل المؤمن. لا يلتفت قلبه إلى سواه. ولا يَرْجُو عوناً إلا منه ولا يرتكن إلا إلى حماه... ثم يواجهون الطغيان بالإيمان. ويواجهون الأذى بالثبات. ويسألون للتقرير والتوكيد: ﴿**وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون**...﴾ إنها كلمة المطمئن إلى موقفه وطريقة المالِئِ يديه من وليه وناصره.

المؤمن بأن الله الذى يهدى السبيل لابد أن ينصر وأن يعين. وهنا يسفر الطغيان عن وجهه. لا يجادل ولا يناقش ولا يفكر ولا يتعقل لأنه يحس بهزيمته في مجال التفكير والجدل... فيسفر بالقوة المادية الغليظة التي لا يملك غيرها المتجبرون: ﴿**وقال الذين كفروا لرسلهم: لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في**

ملتنا. . .﴾ وعندما تسفر القوة الغاشمة عن وجهها الصلد لا يبقى مجال لدعوة ولا يبقى مجال لحجّة. ولا يكل الله الرسل إلى قوتهم. فقوتهم ليست قوة العضل والسيف ولا قوة الحديد والنار. إنما هى قوة الحق والخير والإقناع. ولا مجال هنا للحق والخير والإقناع. إنما المجال للقوة تحطم القوة. هنا تتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمرة القاضية التي لا تقف لها قوة البشر المساكين، وإن كانوا طغاة متجبرين: **﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين. . .﴾** ونون العظمة ونون التوكيد. . . كلتاهما ذات ظل وإيقاع في هذا الموقف الشديد. . . لنهلكن المتجبرين المهددين الظالمين لأنفسهم وللحق وللرسل وللناس بهذا التهديد. . . **﴿وَلَنُسْكِنَنّكم الأرض من بعدهم. . .﴾** لا محاباة ولا جزافا، إنما هى السنة الجارية العادلة: ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد. . . **﴿ذلك﴾** الإسكان والاستخلاف **﴿لمن خاف مقامى﴾**، فلم يتطاول ولم يتعال ولم يستكبر ولم يتجبر. . **﴿وخاف وعيد. .﴾** حسب حسابه، واتقى أسبابه. . فلم يفسد في الأرض، ولم يظلم في الناس. . . فهو من ثم يستحق الاستخلاف وينالـه باستحقاق.

وهكذا تلتقى القوة الصغيرة الهزيلة ـ قوة الطغاة الظالمين ـ بالقوة الجبارة الطامة ـ قوة الجبار المهيمن المتكبر. . . فقد انتهت مهمة الرسل عند البلاغ المبين. ووقف الطغاة المتجبرون بقوتهم الهزيلة الضئيلة في صف ووقف الرسل الداعون المتواضعون ومعهم قوة الأزل والأبد في الصف. . . ودعا كلاهما بالنصر والفتح. . . فكانت العاقبة كما يجب أن تكون: **﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد. . .﴾** فالمشهد هنا عجيب. إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد. مشهد الخيبة في هذه الأرض. . . ولكنها ليست النهاية في هذا المشهد الرهيب: **﴿من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ. . .﴾** إنه مشهد عجيب يرسم الجبار الخائب المهزوم وراءه مصيره يخايل له على هذا النحو المروع الفظيع.

وتشترك كلمة غليظ في تفظيع المشهد تنسِيقاً لَهُ مع القوة الغاشمة التي كانوا يهددون بها دعاة الحق والخير واللين. وفى ظل هذا المصير يجئ التعقيب مثلا مصورا في مشهد يضرب للذين كفروا: **﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد**

اشتدت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد. . .﴾ فهذا المشهد ينطوى على حقيقة ذاتية في أعمال الكفار. . . فالأعمال التي لا تقوم على قاعدة من الإيمان. ولا تمسكها العروة الوثقى التي تصل العمل بالباعث وتصل الباعث بالله. . . مفككة كالهباء والرماد لا قوام لها ولا نظام. . . فليس المعول عليه هو العمل ولكن باعث العمل. فالعمل حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان عن الآلة إلا بالباعث والقصد والغاية. . . ثم يأتى هذا التعقيب الشدِيد: ذلك هو الضلال البعيد. . . فهو التعقيب يتفق ظله مع ظل الرماد المتطاير.

فى يوم عاصف إلى بعيد. . . ثم يلتقى مع مشهد الرماد المتطاير ظل آخر في الآية التالية التي يلتفت فيها السياق من مصائر المكذبين السابقين إلى المكذبين من قريش، يهددهم بإذهابهم والإتيان بخلق جديد: **﴿ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز. . .﴾** فخلق السماوات والأرض بالحق يوحى بالقدرة كما يُوحِي بالثبات فالحق ثابت مستقر حتى في جرسه اللفظى. . . ذلك في مقابل الرماد المتطاير إلى البعيد؛ وفى مقابل الضلال البعيد. وفى ضوء مصير المعاندين الجبارين في معركة الحق والباطل يجئ التهديد: إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. وخلق السماوات والأرض شاهد ومصارع المكذبين من قبل شاهدة. والرماد المتطاير شاهد من بعيد.

التوجيه الرابع: ﴿وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ؟ قالوا: لو هدانا الله لهديناكم. . .﴾: في هذا التوجيه عرض رواية البشرية ورسلها في المشهد الأخير. . . فقد انتقلت الراوية ـ رواية الدعوة والدعاة والمكذبين والطغاة من مسرح الدنيا إلى مسرح الآخرة. وبرزوا لله جميعا: الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستدلين ومعهم الشيطان. . ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات برزوا جميعا لله مكشوفين. وهم مكشوفون لله دائما. ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب. ولا يسترهم ساتر. ولا يقيهم واق. . . برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار وبدأ الحوار: فقال الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعا. فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ؟ والضعفاء هم الضعفاء.

هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه. وجعلوا أنفسهم تبعا للمستكبرين والطغاة. والضعف ليس عذرا، بل هو الجريمة... فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفا، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه. يعتزّون به والعزة لله. وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعا عن نصيبه في الحرية. التي هى ميزته ومناط تكريمه - أو أن ينزل كارها - والقوة المادية كائنة ما كانت - لا تملك أن تستعبد إنسانا يريد الحرية ويستمسك بكرامته الآدمية، فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبُه.

أما الضمير أما الروح أما العقل فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال. من ذا الذى يملك أن يجعل أولئك. الضعفاء تبعا للمستكبرين في العقيدة، وفى التفكير، وفى السلوك؛ لا أحد. لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة... فهم ضعفاء!. لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة ولا لأنهم أقل جاها أو مالا أو منصبا أو مقاما... كلا، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفا يلحق صفة الضعف بالضعفاء. إنما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفى قلوبهم وفى نخوتهم وفى اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان، وهم هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم: إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير. يتهددنا عذاب الله؟ ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال: ﴿**قالوا: لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص**...﴾ وهو رد يبدو فيه التبرم والضيق: لو هدانا الله لهديناكم... فعلام تلوموننا ونحن وإياكم في طريق واحد إلى مصير واحد... إنا لم نهتد ونضللكم. ولو هدانا الله لقُدْنَاكُم إلى الهدى معنا، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله.

فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرون: ينكرونه وينكرونها، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حسابا لقدرة القاهر الجبار... ثم هم يؤنّبون الضعفاء من طرف خفى... فيعلنونهم بأن لا جدوى من الجزع، كما أنه لا فائدة من الصبر... فقد حق العذاب. ولا رَادَّ لَهُ من صبر أو جزع. وفات

الأوان الذى كان الجزع فيه من العذاب يجدى، فيرد الضالين إلى الهدى؛ وكان الصبر فيه على الشدة يجدى فتدركهم رحمة الله، لقد انتهى كل شئ. . . ولم يعد هنالك مفر ولا مأوى: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص. لقد قضى الأمر وانتهى الجدل وسكت الحوار. . . وهنا نرى على المسرح عجبا. نرى الشيطان: هاتف الغواية وحادى الغواة. نراه الساعة يلبس مسوح الكهان أو مسوح الشيطان. ويتشيطن على الضعفاء. على الضعفاء والمستكبرين سواء. بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب: ﴿**وقال الشيطان لما قضى الأمر: إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم**﴾. الله! الله!.

أما إن الشيطان حقا شيطان وإن شخصيته تبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين في هذا الجو. . . إن الشيطان الذى وسوس في الصدور، وأغرى بالعصيان، وزين الكفر، وصدهم عن استماع الدعوة. . . هو هو الذى يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة، حيث لا يملكون أن يردوها عليه ـ وقد قضى الأمر ـ هو الذى يقول الآن، وبعد فوات الأوان: إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم. . . ثم يخزُّهم وخْزَة أخرى بتَعْبِيرِهِم بالاستجابة له، وليس عليهم من سلطان، سوى أنهم تخلوا عن شخصيتهم، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله: وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى. . . ثم يؤنبهم ويدعوهم لتأنيب أنفسهم يؤنّبهم على أن أطاعوه: فلا تلومونى ولوموا أنفسكم. . . ثم يخلى بهم وينفض يده منهم وهو الذى وعدهم من قبل ومنّاهم ووسوس لهم أن لا غالب لهم. . . فأما الساعة فما هو يمليهم إذا صرخوا، كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ: ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى، وليس بيننا من صلة ولا وَلاء. . . ثم يبرأ من إشراكهم به، ويكفر بهذا الإشراك: إنى كفرت بما أشركتمون من قبل. . . ثم ينهى خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبّها على أوليائه: إن الظالمين لهم عذاب أليم. فيا للشيطانِ! ويَالَهُم من وليهم الذى هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه. ودعاهم الرسول إلى الله فكذبوه وجحدوه!. وقبل أن يسدل الستار نبصر على الضفة الأخرى بتلك الأمة المؤمنة. الأمة الفائزة. الأمة الناجية:

﴿**وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام. . .**﴾ ويُسدل الستار على دار السلام!.

التوجيه الخامس: ﴿**ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. . .**﴾: في هذا التوجيه يلفت نظر السامع إلى خلاصة القصة التي تحدث عنها السياق بفصولها جميعا: في الدنيا وقفت أمة الرسل في مواجهة الفرقة الظالمة. . . واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد. . . وفى الآخرة حيث شاهدنا ذلك المشهد الفريد. . . في ظل القصة ومصائر الأمة الطيبة. . . والفرقة الخبيثة. . . يضرب الله مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، لتصوير سنته الجارية في الطيب والخبيث في هذه الحياة. . . فتكون خاتمة، كتعليق على الرواية بعد إسدال الستار.

إن مشهد الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. . . والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة. اجتثت من فوق الأرض. . . مأخوذٌ من جو السياق ومن قصة النبيئين والمكذبين، ومصير هؤلاء وهؤلاء بوجه خاص. . . إن الكلمة الطيبة ـ دعوةً كانت أو حركة أو عملا ـ لكالشجرة الطيبة، ثابتة سامقة مثمرة. . . ثابتة لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان. وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان. . . سامقة متعالية. تطل على الشر والظلم والطغيان من عل. وإن خيل للبعض أحيانا أن الشر يرجمها في الفضاء. . . مثمرة لا ينقطع ثمرها؛ لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آنا بعْدَ آن. . . وإن الكلمة الخبيثة لكالشجرة الخبيثة. قد تهيج وتتعالى وتتشابك.

ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطّيبة وأقوى. ولكنها تظل نافشة هشّة. وتظل جذورها في التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض. وما هى إلاّ فترة. . . ثم تجتثّ من فوق الأرض. . . فلا قرار لها ولا بقاء. ليس هذا وذاك مجرد مثل يضرب. ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع. إنما هو الواقع في الحياة. ولو أبطأ تحققه في بعض الأحيان. والخير الأصيل لا يموت ولا يذوى. مهما زاحمه الشر وأخذ عليه الطريق. . . والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به ـ فقلما يوجد الشر الخالص ـ وعندما يستهلك ما يلابسه

من الخير فلا تبقى فيه منه بقيّة، فإنه يتهالك ويتهشّم مهما تضخّم واستطال إن الخير بخير. وإن الشر بشر.

﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾.! فهي أمثال مصداقها واقع في الأرض. ولكن الناس كثيرا ما ينسونه في زحمة الحياة. في ظل الشجرة الثابتة مثلا للكلمة الطيبة: **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفى الآخرة...﴾** وفى ظل الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض ما لها من قرار ولا ثبات: **﴿ويضل الله الظالمين﴾** فتتناسق ظلال التعبير وظلال المعانى كلها في السياق. يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفى الآخرة بكلمة الإيمان المستقرة في الضمائر، الثابتة في الفِطَر، المثمرة بالعمل الصالح. المتجدد الباقى في الحياة ويثبتهم بكلمات القرآن وكلمات الرسول.

وبوعده الحق بالنصر في الدنيا والفوز في الآخرة... وكلها كلمات ثابتة صادقة حقّة. لا تتخلف ولا تتفرق بها السبل. ولا يمس أصحابها قلق ولا حيرة ولا اضطراب... ويضل الله الظالمين بظلمهم وتجاوزهم لحدود الطريق. وبعدهم عن النور الهادى. واضطرابهم في تيه الظلمات والأوهام والخرافات. يضلهم وفق سنته التي تنتهى بمن يظلم ويعمى عن النور إلى الضلال والتيه والشرور. **﴿ويفعل الله ما يشاء...﴾** بإرادته المطلقة التي تختار الناموس فلا تتقيد به، ولكنها ترضاه... حتى تقتضى الحكمة تبديله فيتبدّل في نطاق المشيئة التي لا تقف لها قوة ولا يقوم في طريقها عائق والتى يتم كل أمر في الوجود وفق ما تشاء!.

7 ـ لفت الأنظار
إلى ما في بقية السورة من الاعتبار

النص

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿30﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿31﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿32﴾ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿33﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿34﴾ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿35﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿36﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿37﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿38﴾

رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ
عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ
النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (39)
رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ
مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (40) * الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي
لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (41) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي
رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (42) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (43) وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ
الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (44)
مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ
وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (45) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ
فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ
دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ
مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (46) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ
ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمُ الْأَمْثَالَ (47) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ

الْجِبَالُ ﴿48﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿49﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ
وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿50﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿51﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى
وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿52﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿53﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ
وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿54﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿**ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا**﴾: الرؤية هنا بصرية بدليل إلى الذين بدلوا. والتبديل: أخذ شئ مقابل دفع شئ. . . ونعمة الله: الخير التي أتيح لأهل الحرام من الأمن والسؤدد. والكفر: جحود رسالة محمد إليهم. ﴿**وأحلوا قومهم دار البوار**﴾: أنزل عظماؤهم ضعفاءهم دار الهلاك. ﴿**جهنم يصلونها وبئس القرار**﴾: دار البوار جهنم يحترقون بحرّها. وأقبح دار هذه الدار. ﴿**وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله**﴾: الجعل هنا الاختراع. والأنداد جمع ند وهو المماثل في مجْدٍ ورفعة. والإضلال: جعل الغير ضالا. وسبيل الله دعوته التي جاء به محمد ﷺ ﴿**قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار**﴾: التمتع: الانتفاع بالشئ القليل الذى لا يدوم.

والمصير إلى النار: الرجوع والمآل إلى جهنم يوم القيامة. ﴿**قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع**

فيه ولا خلال﴾: اليوم الذى لا بيع فيه ولا خلال: هو يوم القيامة الذى تنتهى فيه المعاوضات والصداقات التي لم تكن لغير الله تعالى **﴿الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾**: في هذه الآية نِعم عامّة مشهودة محسوسة لا يُستطاع إنكارها. ومفردات الآية واضحة.

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا﴾: إذ: اسم زمان ماضٍ منصوب على المفعولية لفعل محذوف شائع الحذف في أمثاله. ورب: منادى محذوف منه حرف النداء. والبلد: المكان المعين من الأرض جعل للسكنى والاستقرار. والآمن: الذى يأمن ساكنه من الجوع والخوف. **﴿واجنبنى﴾** أمر من الثلاثى المجرد. يقال: جنبه الشئ إذا جعله جانبا عنه. وعبادة الأصنام: عبادة غير الله من صورة أو هيكل سماوى أو أرضى... **﴿رب إنهن أضللن كثيرا من الناس﴾**: إضلال الأصنام الناس بسبب ما فيها من الإغراء وتزيين الشهوات والأهواء... **﴿فمن تبعنى فإنه منى﴾**: فمن تبعنى على التوحيد وعبادة الله تعالى فهو متصل بى. **﴿ومن عصانى فإنك غفور رحيم﴾**: لا شأن لى به فأمره مفوض لربه.

﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم﴾: أسكن إبراهيمُ بعض ذريته. وهو إسماعيل ـ البيت الذى بنياه معا ـ وهو بيت الله الحرام... وهو بوادٍ غير ذى زرع؛ لأنه منطقة صخرية لا تمسك الماء... **﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾**: إن هذا البيت جعله الله خالصا لعبادته حتى لا يهتموا بأمر الحرث والشغل في هموم الدنيا: **﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون...﴾ ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شئ في الأرض ولا في السماء﴾**: مفردات هذه الآية واضحة. **﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل واسحاق إن ربى لسميع الدعاء﴾**: الحمد: الثناء بالجميل على الفعل الجميل. والوهْب. الموهبة. وهى العطية المفاجأة... فإبراهيم وهبه الله إسماعيل وإسحاق في وقت لا يكون فيه الإنجاب من الأمر العادى... **﴿رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ربنا**

اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾: كرر إبراهيم الدعاء والتضرع إظهارا للنعم التي أنعم الله بها عليه وعلى ذريته.

﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون﴾: المراد بالنهى هنا النهى عن استعجال العذاب... **﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار... وشخوص البصر﴾**: ارتفاعه كنظر المبهوت الخائف... **﴿مهطعين مقنعى رءوسهم﴾**: الإهطاع: إسراع المشى مع مد العنق كالمتختل. وهى هيئة الخائف. وإقناع الرأس: طأطأته من الذل. **﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾**: لا تطرف أعينهم بل تبقى شاخصة. لهول ما هو فيه. **﴿وأفئدتهم هواء﴾**: خالية من كل رجاء... **﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾**: الإنذار: التحذير مما يقع من المكروه، **﴿ويوم يأتيهم العذاب﴾**: يوم القيامة... **﴿فيقول الذين ظلموا ربّنا أخِّرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾**.

تفريع على قوله: وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب. والذين ظلموا هم الكافرون بالشرك أو بجحود الخالق... فهم يطلبون تأخير الحساب إلى مدة قريبة يتداركون ما فاتهم من إجابة الدعوة واتباع الرسل. ولكن الرد يأتى سريعا بنفى مطلبهم: **﴿أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾**. فهم أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت. **﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾**: ورأيتم الأدلة مما وقع بالظالمين فلم تقنعكم فكيف يقبل طلبكم؟!.

﴿وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾: مكر الظالمين تبيين فعل السوء بالغير. ومكر الله إلحاق الدمار بهم. وما كان مكرهم لتزول منه الجبال... فهو تهوين لمكرهم الهزيل أمام مكر الله القوى العظيم!... **﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾**: تفريع على جميع ما تقدم. وإخلاف الوعد: عدم تنفيذه. ووعد الله رسله بالنصر والتأييد وبإهلاك كل كافر عنيد والعزيز: الذى لا يغلب. وذو انتقام: صاحب انتقام لا يفلُتُ منه هارب. **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾**: تبديل الأرض والسماوات يوم القيامة... فتكون سماوات أخرى وأرض أخرى... فهو استبدال العالم المعهود بعالم جديد ومعنى **﴿وبرزوا لله الواحد القهار﴾**: مثل ما ذكر في

قوله: وبرزوا لله جميعا. . . ﴿**وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد**﴾: التقرين: وضع اثنين في قرن. . . والقرْن: شد الشئ إلى الشئ ووصله إليه.

والقرين: الملازم. والمصاحب. وشيطان الكافر قرينه في النار والأصفاد: جمع صفاد. وهو القيد والغل. ﴿**سرابيلهم من قطران**﴾: السرابيل جمع سربال. وهو القميص المحيط بالجسم. والقطران جسم لزج أسود منتن شديد الاشتعال يستخرج من النفط. ومن مادة صمغية تستخرج من بعض الأشجار. تُطلى بها الإبل الجرباء. ﴿**وتغشى وجوههم النار**﴾: تحيط بها من كل جانب. ﴿**ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب**﴾: تعليل بالجزاء المناسب جاء على قدر قدرة المحاسب ﴿**هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب**﴾: الإشارة إلى الكلام السابق في السورة كلها. والبلاغ اسم مصدر التبليغ. أى: هذا بلاغ للناس ليستيقظوا من غفلتهم. ولينذروا به مما فيه التحذير. وليعلموا مما ذكر فيه من الأدلة: ما الله إلاّ إله واحد. . . وليتذكر بذلك أولوا الألباب الذين عرفوا طريق الصواب.

مبحث الإعراب

﴿**ألم تر**﴾ فعل مضارع مجزوم بلم دخل عليه حرف الاستفهام. والفاعل ضمير المخاطب. ﴿**إلى الذين**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**بدلوا نعمة**﴾ فعل وفاعل ومفعول. والجملة صلة الذين. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى نعمة. ﴿**كفرا**﴾ مفعول ثان ببدّلوا. ﴿**وأحلوا قومهم**﴾ معطوف على بدلوا. ﴿**دار**﴾ مفعول ثان بأحلوا. ﴿**البوار**﴾ مضاف إلى دار. ﴿**جهنم**﴾ بدل من دار منصوب بالفتحة. ﴿**يصلونها**﴾ فعل وفاعل ومفعول. وجملة يصلونها في محل نصب حال من جهنم. ﴿**وبئس القرار**﴾ فعل وفاعل. والواو للعطف. ﴿**وجعلوا**﴾ معطوف على بدلوا. ﴿**لله**﴾ متعلق بجعلوا. ﴿**أندادا**﴾ مفعول به ﴿**ليضلوا**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بجعلوا. ﴿**عن سبيله**﴾ متعلق بيضلوا.

﴿**قل: تمتعوا**﴾ فعل أمر. والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**فإن مصيركم**﴾ إن واسمها. والفاء ربطت الجواب لفعل شرط مقدر. ﴿**إلى النار**﴾

متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**قل: لعبادىَ**﴾ متعلق بقل. ﴿**الذين**﴾ في محل جر نعت لعبادي. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**يقيموا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلام الأمر المقدر. ﴿**الصلاة**﴾ مفعول به. ﴿**وينفقوا**﴾ معطوف على يقيموا. ﴿**مما**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**رزقناهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. والجملة صلة ما. ﴿**سرا**﴾ منصوب على حال من واو الجماعة. ﴿**وعلانية**﴾ معطوف عليه. ﴿**من قبل**﴾ متعلق بيُنفقوا. ﴿**أن يأتى يوم**﴾ فعل وفاعل. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور مضاف إلى قبل. ﴿**لا بيع**﴾ مبتدأ. ولا نافية. ﴿**فيه**﴾ متعلق بمحذوف خبر.

وجملة لا بيع فيه في محل رفع نعت ليوم. ﴿**ولا خلال**﴾ معطوف على قوله: لا بيع. ﴿**اللهُ**﴾ مبتدأ. ﴿**الذى**﴾ في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**خلق**﴾ فعل ماض. والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**السماوات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**والأرض**﴾ عطف على السماوات. ﴿**وأنزل**﴾ معطوف على خلق. ﴿**من السماء**﴾ متعلق بأنزل. ﴿**ماء**﴾ مفعول به. ﴿**فأخرج به**﴾ مرتب على أنزل. ﴿**من الثمرات**﴾ متعلق بأخرج. ﴿**رزقا**﴾ مفعول به. ﴿**لكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لرزق. ﴿**وسخر**﴾ معطوف على خلق. ﴿**لكم**﴾ متعلق بسخر. ﴿**الأنهار**﴾ مفعول به. ﴿**وسخر لكم الشمس والقمر**﴾ مثل وسخر لكم الأنهار... ﴿**دائبين**﴾ حال من الشمس والقمر. ﴿**وسخر لكم الليل والنهار**﴾ كذلك.

﴿**وآتاكم**﴾ عطف على ما سبق من النعم المخلوقة والمنزلة والمسخرة. ﴿**من كل**﴾ متعلق بآتاكم. ﴿**ما**﴾ في محل جر مضافة إلى كل. ﴿**سألتموه**﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة صلة ما. ﴿**وإن تعدوا**﴾ جملة شرطية. والواو للعطف. ﴿**نعمة**﴾ مفعول به. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى نعمة. ﴿**لا تحصوها**﴾ جواب الشرط. ﴿**إن الإنسان**﴾ إن واسمها. ﴿**لظلومٌ كفارٌ**﴾ خبَرَانِ لإنّ... ﴿**واذ قال إبراهيم**﴾ فعل وفاعل دخل عليه ظرف الزمان الماضى. والظرف متعلق لفعل مقدر معطوف على قوله: ألم تر إلى الذين بدلوا... والتقدير: واذكر وقت قول إبراهيم... ﴿**رب**﴾ منادى بمحذوف حرف النداء. وحذف ياء المتكلم تخفيفا. وهو منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم... ﴿**اجعل**﴾ دعاء. ﴿**هذا**﴾ في محل نصب مفعول به.

﴿**البلد**﴾ عطف بيان. ﴿**آمنا**﴾ مفعول ثان. ﴿**واجنبنى**﴾ معطوف على اجعل.

﴿وبنى﴾ معطوف على ياء المتكلم في اجنبنى. **﴿أن نعبد﴾** منصوب بأن والفاعل ضمير المتكلمين. **﴿الأصنام﴾** مفعول به. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول ثان باجنبنى. أى: اجنبنى واجنب بَنِيَّ عبادةَ الأصنام. **﴿رب﴾** مثل ما سبقه. **﴿إنهن﴾** إن واسمها. **﴿أضللن كثيرا﴾** فعل وفاعل ومفعول. والجملة في محل رفع خبرُ إنّ. وجملة إنهن... مقول القول؛ مثل اجعل... واجنبنى... **﴿من الناس﴾** متعلق بكثير. **﴿فمن تبعنى﴾** جملة شرطية مفرعة على ما قبلها. **﴿فإنه منى﴾** جواب الشرط. **﴿ومن عصانى فانك غفور رحيم﴾** عطف على الجملة الشرطية وجوابها. **﴿ربنا﴾** منصوب بالفتحة.

﴿إنى﴾ إن واسمها. **﴿أسكنت﴾** فعل وفاعل والجملة خبر إنّ. **﴿من ذريتى بواد﴾** متعلقان بأسكنت. **﴿غير﴾** نعت لواد مجرور بالكسرة. **﴿ذى﴾** مضاف إلى غير مجرور بالياء. **﴿زرع﴾** مضاف إلى ذى مجرور بالكسرة. **﴿عند﴾** منصوب على الظرفية. متعلق بمحذوف نعت ثان لواد. **﴿بيتك﴾** مضاف إلى الظرف. **﴿المحرم﴾** نعت لبيت. **﴿ربنا﴾** منادى بحذف حرف النداء. **﴿ليقيموا الصلاة﴾** فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف التعليل. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بأسكنت. **﴿فاجعل﴾** فعل دعاء دخل عليه حرف التفريع. **﴿أفئدة﴾** مفعول به. **﴿من الناس﴾** متعلق بمحذوف بيان لأفئدة. **﴿تهوي﴾** فعل مضارع. والفاعل ضمير يعود على أفئدة من الناس. **﴿إليهم﴾** متعلق بتهوي.

وجملة تهوي إليهم في محل نصب مفعول ثان لاجعل. **﴿وارزقهم﴾** فعل دُعاء معطوف على اجعل. **﴿من الثمرات﴾** متعلق بارزقهم. **﴿لعلهم﴾** لعل واسمها. **﴿يشكرون﴾** فعل وفاعل. والجملة في محل رفع خبر لعل. **﴿ربنا﴾** مثل ما سبق. **﴿إنك﴾** إن واسمها. **﴿تعلم﴾** فعل مضارع. والفاعل ضمير يعود على ربنا. والجملة خبرُ إنّ. **﴿ما﴾** في محل نصب مفعول به. **﴿نخفى﴾** فعل مضارع. والفاعل ضمير المتكلمين. والجملة صلة ما. **﴿وما نعلن﴾** معطوف على ما نخفى. **﴿وما يخفى﴾** فعل مضارع بما **﴿على الله﴾** متعلق بيخفى. **﴿من شئ﴾** فاعل يخفى جر بحرف الجر الزائد.

﴿فى الأرض﴾ متعلق بما يخفى. **﴿ولا في السماء﴾** معطوف على في

الأرض. ﴿**الحمد**﴾ مبتدأ. ﴿**لله**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**الذى**﴾ في محل جر نعت لله. ﴿**وهب**﴾ فعل ماضٍ والفاعل ضمير يعود على الله. والجملة صلة الذى. ﴿**على الكبر**﴾ متعلق بوهب. ﴿**إسماعيل**﴾ مفعول به. ﴿**وإسحاق**﴾ معطوف على إسماعيل. ﴿**إن ربى**﴾ إن واسمها. ﴿**لسميع**﴾ خبر إنّ. واللام لتوكيد الخبر. ﴿**الدعاء**﴾ مضاف إلى سميع. ﴿**رب اجعلنى**﴾ فعل دعاء. ﴿**مقيم**﴾ مفعول ثان لاجعل. ﴿**الصلاة**﴾ مضاف إلى مقيم. ﴿**ومن ذريتى**﴾ متعلق بمحذوف نعت لموصوف مقدر. معطوف على قوله: اجعلنى مقيم الصلاة.

﴿**ربنا وتقبل**﴾ فعل دعاء معطوف على الدعاء السابق. ﴿**دعاءى**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوف للتخفيف. ﴿**ربنا اغفر**﴾ تكرير للدعاء. ﴿**لى**﴾ متعلق باغفر. ﴿ **ولوالدى وللمؤمنين**﴾ عطف على قوله: لى، ﴿**يوم**﴾ ظرف منصوب متعلق باغفر. ﴿**يقوم الحساب**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ولا تحسبن**﴾ فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد. ﴿**وهو**﴾ في محل جزم بلا الناهية. والفاعل ضمير المخاطب. ﴿**الله**﴾ مفعول أول بتحسبن. ﴿**غافلا**﴾ مفعول ثان. وهذه الجملة معطوفة على ما سبق من الكلام. ﴿**عما**﴾ متعلق بغافلا. ﴿**يعمل الظالمون**﴾ فعل وفاعل. والجملة صلة ما. ﴿**إنما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**يؤخرهم**﴾ فعل مضارع والفاعل ضمير يعود على الله. والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**ليوم**﴾ متعلق بيؤخرهم. ﴿**تشخص**﴾ فعل مضارع. ﴿**فيه**﴾ متعلق به. ﴿**الأبصار**﴾ فاعل تشخص والجملة نعت ليوم. ﴿**مهطعين مقنعى**﴾ حالان من ضمير الظالمين. ﴿**رءوسهم**﴾ مضاف إلى مقنعى. ﴿**لا يرتد**﴾ فعل مضارع منفى بلا.

﴿**إليهم**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**طرفهم**﴾ فاعل لا يرتد. ﴿**وأفئدتهم**﴾ مبتدأ. دخل عليه حرف العطف. ﴿**هواء**﴾ خبر المبتدإ. والجملتان حالان آخران من صاحب الحالين الأولَيْنِ. ﴿**وأنذر**﴾ فعل أمر. ﴿**الناس**﴾ مفعول به. ﴿**يوم**﴾ متعلق بأنذر. ﴿**يأتيهم**﴾ فعل مضارع والضمير المتصل به مفعول. ﴿**العذاب**﴾ فاعل يأتى. ﴿**فيقول الذين**﴾ فعل وفاعل مرتب على قوله: يوم يأتيهم العذاب. ﴿**ظلموا**﴾ صلة الذين. ﴿**ربنا أخرنا**﴾ فعل دعاء جاء بعد النداء. ﴿**إلى أجل**﴾ متعلق بأخرنا. ﴿**قريب**﴾ نعت لأجل. ﴿**نجب**﴾ فعل مضارع مجزوم في جواب الدعاء. والفاعل ضمير المتكلمين.

﴿**دعوتك**﴾ مفعول بنجبْ. ﴿**ونتبع**﴾ معطوف على نجب حرك بالكسرة لالتقاء الساكنين. ﴿**الرسل**﴾ مفعول به. ﴿**أو لم تكونوا**﴾ الهمزة للاستفهام. والواو للعطف. ولم للنفى والجزم. وواو الجماعة اسم تكون. ﴿**أقسمتم**﴾ فعل وفاعل. والجملة خبر تكون. ﴿**من قبل**﴾ متعلق بأقسمتم. ﴿**ما لكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. وما نافية. ﴿**من زوال**﴾ مبتدأ مؤخر جُر بحرف الجر الزائد. ﴿**وسكنتم**﴾ فعل وفاعل. والواو للعطف. ﴿**فى مساكن**﴾ متعلق بسكنتم. ﴿**الذين**﴾ في محل جر مضاف إلى مساكن. ﴿**ظلموا**﴾ صلة الذين. ﴿**أنفسهم**﴾ مفعول بظلموا. ﴿**وتبين**﴾ عطف على ما سبق. ﴿**لكم**﴾ متعلق بتبين. ﴿**كيف**﴾ مبنى على الفتح في محل رفع فاعل مبين. ﴿**فعلنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**بهم**﴾ متعلق به.

﴿**وضربنا**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**لكم**﴾ متعلق بضربنا. ﴿**الأمثال**﴾ مفعول به. ﴿**وقد مكروا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التحقيق وواو الحال. ﴿**مكرهم**﴾ مفعول مطلق. والجملة في محل نصب حال من الناس في قوله: وأنذر الناس. ﴿**وعند**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى عند. ﴿**مكرهم**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**وإن كان مكرهم**﴾ كان واسمها دخلت عليه إن النافية. ﴿**لتزول**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام. ﴿**منه**﴾ متعلق بتزول ﴿**الجبال**﴾ فاعل تزول. وهى معطوفة على الحال في قوله: وعند الله مكرهم المعطوف على قوله: وقد مكروا مكرهم. ﴿**فلا تحسبن الله مخلف**﴾ مثل ولا تحسبن الله غافلا... فالفاء للتفريع. ﴿**وعده**﴾ مضاف إلى مخلف. ﴿**رسله**﴾ مفعول باسم الفاعل. ﴿**إن الله**﴾ إن واسمها. ﴿**عزيز**﴾ خبرُ إنّ ﴿**ذو**﴾ بيان لعزيز. ﴿**انتقام**﴾ مضاف إلى ذو. ﴿**يوم**﴾ منصوب على الظرفية متعلق بما يدل عليه سياق الكلام المتقدم.

﴿**تبدل**﴾ فعل مضارع مبنى للمجهول. ﴿**الأرض**﴾ نائب الفاعل. ﴿**غير**﴾ منصوب على الحال من الأرض. ﴿**الأرض**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**والسماواتُ**﴾ معطوف على نائب الفاعل. ﴿**وبرزوا**﴾ فعل وفاعل. والواو للعطف. ﴿**لله**﴾ متعلق ببرزوا. ﴿**الواحد القهار**﴾ عطف بيان لله. ﴿**وترى**﴾ فعل مضارع والفاعل ضمير المخاطب. ﴿**المجرمين**﴾ مفعول به. ﴿**يومئذ**﴾ متعلق بترى. ﴿**مقرنين**﴾ حال من المجرمين. ﴿**فى الأصفاد**﴾ متعلق بمقرنين. ﴿**سرابيلهم**﴾ مبتدأ. ﴿**من قطران**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. والجملة حال من المجرمين. ﴿**وتغشى**﴾ معطوف على ترى.

﴿**وجوههم**﴾ مفعول به. ﴿**النارُ**﴾ فاعل تغشى. ﴿**ليجزى الله كل**﴾ فعل وفاعل ومفعول. والفعل مؤول بمصدر مجرور باللام متعلق بفعل مقدر مناسب للسياق. ﴿**نفس**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**كسبت**﴾ صلة ما. ﴿**إن الله سريع**﴾ إن واسمها وخبرها. جملة تعليلية. ﴿**الحساب**﴾ مضاف إلى سريع. ﴿**هذا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**بلاغ**﴾ خبر المبتدأ. ﴿**للناس**﴾ متعلق ببلاغ. ﴿**ولينذروا**﴾ معطوف على مقدر. والتقدير: هذا بلاغ للناس ليستيقظوا من غفلتهم ولينذروا. ﴿**به**﴾ متعلق بينذروا. ﴿**وليعلموا**﴾ معطوف كذلك. ﴿**أنما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**هو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**إله واحد**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**وليذكر أولوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**الألباب**﴾ مضاف إلى أولوا.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا...**﴾: يبدأ هذا الشوط الثانى من نهاية الشوط الأول، قائما عليه متناسقا معه مستمدا منه. لقد تضمن الشوط الأول رسالة الرسول ـ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور... وإرسال موسى إلى قومه كذلك... ثم يثلث برسالة إبراهيم الذى سميت هذه السورة باسمه وهكذا يتماسك الشوط الثانى مع الشوط الأول ويتناسق... فالاستفهام مستعمل في التشويق إلى رؤية ما يعرضه السياق من مناظر تلفت الأنظار من تناسق وانتساق والرؤية هنا بصرية لأن متعلقها مما يُرَى؛ ولأن تعدية فعلها بإلى... وقد نزل المخاطب منزلة من لم ير. والخطاب لمن يصح منه النظر إلى حال هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله مع وضوح حالهم. وفى قوله: بدلوا نعمة الله كفرا محسن الاحتباك.

وتقدير الكلام: بدلوا نعمة الله وشكرها كفرا بها ونقمة منه. كما دل عليه قوله: ﴿**وأحلوا قومهم دار البوار...**﴾ إلخ. واستعير التبديل لوضع الشئ في الموضع الذى يستحقه شئ آخر؛ لأنه يشبه تبديل الذات بالذات. والذين بدلوا هذا التبديل فريق معروفون بقرينة قوله: ألم تر إلى الذين. وهم الذين تلقوا الكلمة الخبيثة من الشيطان... وهم الذين استكبروا من مشركى أهل مكة فكذبوا دعوة الإسلام وكذبوا النبئ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وشردوا من استطاعوا وتسببوا في إحلال قومهم دار البوار... فإسناد فعل أحلوا إليهم على طريقة المجاز العقلى.

ونعمة الله التي بدلوها هى نعمة أن بوأهم حرمه وأمنهم في سفرهم وإقامتهم، وجعل أفئدة الناس تهوى إليهم، وسلمهم مما أصاب غيرهم من الحروب والغارات والعدوان فكفروا بمن وهبهم هذه النعمة وعبدوا الحجارة والأصنام والأوثان. . . ثم أنعم الله عليهم بأن بعث فيهم أفضل رسول وأكرم إنسان. . . فهداهم إلى الحق وهيأ لهم أسباب السيادة. . . فبدلوا شكر تلك النعم بالكفران. . . فنعمة الله الكبرى هى رسالة محمد ودعوة إبراهيم الذى بنى هذا البيت الذى طلب من الله أن يكون بيت سلام وأمان فقوله: وأحلوا قومهم دار البوار: ﴿**جهنم يصلونها وبئس القرار. . .**﴾ نهاية مصير أهل الطغيان.

﴿**وجعلوا لله أنداد ليضلوا عن سبيله**﴾: وصل الكلام بالعطف على قوله: بدلوا. . . وأحلوا. . . ولعل تغيير الترتيب مع أن مقتضى ظاهر النظم أن يذكر كفرانهم بنعمة الله. . . ثم كفرهم بذاته واتخاذ الأنداد. . . ثم إضلالهم لقومهم المؤدى إلى إحلالهم دار البوار لتثنية التعجيب وتكريره. والإيذان بأن كل واحد من وضع الكفر موضع الشكر وإحلال القوم دار البوار واتخاذ الأنداد للإضلال أمر يقضى منه العجب. ولو سيق النظم على نسق الوجود لربما فهم التعجيب من مجموع الهنات الثلاث.

وجملة ﴿**قل تمتعوا**﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا؛ لأن المخاطب بألم تر إلى الذين بدلوا إذا علم هذه الأحوال يتساءل عن الجزاء المناسب لجرمهم وكيف تركهم الله يرفلون في النعيم. . . فأجيب بأنهم يصيرون إلى النار إن استمروا على ذلك إلى الموت. ﴿**قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال**﴾: استئناف نشأ عن ذكر حال الفريق الذى حقت عليه الكلمة الخبيثة بذكر حال مقابله. وهو الفريق الذى حقت عليه الكلمة الطيبة. . . فلما ابتدئ بالفريق الأول لقصد الموعظة والتخلى ثنى بالفريق الثانى على طريقة الاعتراض بين أغراض الكلام، ولما كانوا متحلين بالكمال صيغ الحديث عنهم بعنوان الوصف بالإيمان. وبصيغة الأمر بما هم فيه من صلاة وإنفاق لقصد الدوام على ذلك. . . فحصلت بذلك مناسبة وقع هذه الآية بعد التي قبلها لمناسبة تضاد الحالين.

ولما كان المؤمنون يقيمون الصلاة من قبل، وينفقون من قبل، تعين أن المراد

الاستزادة من ذلك. ولذلك اختير المضارع مع التقدير لام الأمر دون صيغة فعل الأمر لأن المضارع دال على التجدد. وقوله: من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه. ولا خلال، متعلق بفعل يقيموا الصلاة وينفقوا. . . فهذا كناية عن عظيم منافع إقامة الصلاة والإنفاق قبل يوم الجزاء عنهما حين يتمنون أن يكونوا ازدادوا من ديتك لما يسرهم من ثوابهما فلا يجدون سبيلاً للاستزادة منها: إذ لا بيع يومئذ فيشتري الثواب. ولا خلال من شأنها الإفاد والإسعاف بالثواب. . . فالمراد بالبيع المعاوضة، وبالخلال الكناية عن التبرع. ﴿**الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار**﴾: استئناف واقع موقع الاستدلال على ما تضمنته جملة وجعلوا لله أندادا. . . الآية وقد فصل بينه وبين المستدل عليه بجملة قل لعبادى الذين آمنوا ..الآية وأدمج في الاستدلال تعدادهم لنعم تستحق الشكر عليها ليظهر حال الذين كفروها. وبالضد حال الذين شكروا عليها. وليزداد الشاكرون شكرا.

فالمقصود الأول هو الاستدلال على أهل الجاهلية، كما يدل عليه تعقيبه بقوله: وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام. . . فجئ في هذه الآية بنعم عامة مشهودة محسوسة لايستطاع إنكارها إلا أنها محتاجة للتذكير بأن المنعم بها وموجدها هو الله تعالى. وافتتح الكلام باسم الموجد «الله» لأن تعيينه هو الغرض الأهم. وأخبر عنه بالموصول لأن الصلة معلومة الانتساب إليه، والثبوت له؛ إذ لا ينازع المشركون في أن الله هو صاحب الخلق. . . وجملة وآتاكم من كل ما سألتموه تعميم بعد خصوص. . . فهى بمنزلة التذييل لما قبلها. . . وجملة وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها تأكيد للتذييل وزيادة في التعميم وتنبيها على أن ما آتاهم الله كثير منه معلوم، وكثير منه لا يحيطون بعلمه. . . والإحصاء، ضبط العدد. وهو مشتق من الحصا اسما للعدد. وهو منقول من الحصى. وهو صغار الحجارة لأنهم كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنبا للغلط.

وجملة إن الإنسان لظلوم كفار تأكيد لمعنى الاستفهام الإنكارى. المستعمل

في تحقيق تبديل النعمة كفرا. . . فلذلك فصلت عنها. والإنسان هو المشرك. . . وصيغة المبالغة في ظلوم كفار اقتضاهما كثرة النعم المفاد من قوله: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها؛ إذ بمقدار كثرة النعم يكثر كفْرُ الكافرين بها. . . **﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم﴾**: عطف على جملة ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا؛ فإنهم كما بدّلوا نعمة الله كفراً أهملوا الشكر على ما بوّأه الله من النعم بإيجابة دعوة نبيئهم إبراهيم، وبدّلوا اقتداءَهم بسلَفِهم الصالح اقتداءَهم بأسلافهم من أهل الضلالة. وبدلوا دعاء سلفهم الصالح لهم بالإنعام عليهم كفرا بمفيض تلك النعم.

ودعاء إبراهيم هنا ليكون هذا البلد آمنا ودعاء إبراهيم في البقرة ليكون المكان بلداً آمنا. . . فالدعاء هناك سبق البناء. والدعاء هنا بعد البناء. . . ولكل مقام مقال. واجنبنى وَبنىّ أن نعبد الأصنام: تعريض بالمشركين من قريش؛ لأنهم يَدّعُون الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام. . . فلو كانوا منتسبين إليه حقا لما عبدوا الأصنام. ولهذا علق عليه بقوله: رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم. . . فهذه هى دعوة إبراهيم، وهذا هو مطلبه من ربه. . . فمن كان منه فليقم على التوحيد. ومن عصاه وانفصل عن دينه فقد فوض أمره إلى ربه. **﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾**: جملة إنى أسكنت من ذريتى مستأنفة لابتداء دعاء آخر. وافتتحت بالنداء لزيادة التضرع.

وفي كون النداء تأكيداً لنداء سابق ضرْبٌ من الربط بين الجمل المفتتحة بالنداء ربط المثل بمثله والغرض من هذا الكلام هو بيان وظيفة أهل هذا البيت الذى هو ميراث ابراهيم وإسماعيل. . . وكانت ذرية إسماعيل هى التي بقيت في هذا الحرم واستمرت حتى ظهر محمد ﷺ وجدد دعوة إبراهيم وإسماعيل فكان هو المقصود أخيرا من ذرية إبراهيم. . . وعلق ليقيموا بأسكنت تعليلا لإسكان ذلك الوادى بحيث لا يشغلهم عن إقامة الصلاة في ذلك البيت شاغل. . . وتوسيط النداء للاهتمام بمقدمة الدعاء زيادة في الضراعة وتهيأ ذلك أن يفرع عليه الدعاء لهم بأن يجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وكلمة أفئدة مقحمة.

والمعنى: فاجعل أناسا يقصدونهم بحبات قلوبهم. وتهوى مضارع هوى بمعنى سقط. وأطلق هنا على الإسراع في المشى استعارة. فالإسراع جعل كناية عن المحبة والشوق إلى زيارتهم. ورجاء شكرهم داخل في الدعاء؛ لأنه جعل تكملة له تعرضا للإجابة وزيادة في الدعاء لهم بأن يكونوا من الشاكرين. والمقصود توفر أسباب الانقطاع إلى العبادة، وانتفاء ما يحول بينهم وبينها من فتنة الكدح للاكتساب. **﴿ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شئ في الأرض ولا في السماء﴾**: جاء بهذا التوجه إلى الله جامعا لما في ضميره. وفذلكة للجمل الماضية لما اشتملت عليه من ذكر ضلال كثير من الناس.

وذكر من اتبع دعوته ومن عصاه وذكر أنه أراد من إسكان أبنائه بمكة رجاء أن يكونوا حراس بيت الله... وأن يقيموا الصلاة. وأن يشكروا النعم المسوّلة لهم. وفيه تعليم لأتباعه بعموم علم الله تعالى حتى يراقبوه في جميع الأحوال. ويخلصوا النية إليه. وجملة وما يخفى على الله من شئ في الأرض ولا في السماء تذييل لجملة إنك تعلم ما نخفى وما نعلن... ولكونها تذييل أظهر فيها اسم الله ليكون التذييل مستقلا بنفسه بمنزلة المثل والكلام الجامع. **﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء﴾**: لما دعا الله لأهم ما يهمه. وهو إقامة التوحيد، وكان يرجو اجابة دعوته، وأن ذلك ليس بعجب في أمر الله خطر بباله نعمة الله عليه بما كان يسأله وهو أن وهب له وَلَدَيْن في إبان الكبر وحين اليأس من الولادة فناجى الله فحمده على ذلك وأثنى عليه بأنه سميع الدعاء.

﴿رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاءى ربنا اغفر لي ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾: جملة مستأنفة من تمام دعاء إبراهيم عليه السلام. ودعاؤه بتقبل دعائه ضراعة بعد ضراعة. ثم دعا بالمغفرة لنفسه ولوالديه وللمؤمنين تعليما لأتباعه كيفية الدعاء حتى يكون شعار المؤمنين من أتباعه من أمة محمد ﷺ وفائدة المغفرة تظهر يوم يقوم الناس للحساب. **﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾**: وصل الكلام بالعطف على الجمل السابقة. وله اتصال بجملة قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار... فأكد ذلك الوعيد

بهذه الآية، مع إدماج تسلية الرسول على ما يتطاولون به من النعمة والدعة.

وباعتبار ما فيه من زيادة معنى التسلية وما انضم إليه من وصف فظاعة حال المشركين يوم الحشر حسن اقتران هذه الجملة بالعاطف ولم تفصل. وصيغة لا تحسبن ظاهرها نهى عن حسبان ذلك. وهذا النهى كناية عن إثبات وتحقيق ضد المنهى عنه في المقام الذى من شأنه أن يثير للناس ظن وقوع المنهى عنه لقوة الأسباب المثيرة لذلك وذلك أن إمهالهم وتأخير عقوبتهم يشبه حالة الغافل عن أعمالهم. . . فنفى الغفلة عن الله ليس جاريا على صريح معناه؛ لأن ذلك لا يظنه مؤمن. بل هو كناية عن النهى عن استعجال العذاب للظالمين.

والمراد بالظالمين أهل مكة ممن عدت مساويهم من تبديل نعمة الله كفرا، وإحلال قومهم دار البوار، واتخاذ الأنداد كما يؤذن به التعرض لحكمة التأخير المنبئ عنه قوله: قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار. وقوله: إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار. . . الخ الآية استئناف وقع تعليلا للنهى السابق. وجملة ﴿**وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب**﴾ معطوفة على جملة ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون. والمقصود من الناس الكافرون بقرينة قوله: يوم يأتيهم العذاب. . . وإتيان العذاب مستعمل في معنى وقوعه مجازا مرسلا.

وجملة ﴿**فيقول الذين ظلموا: ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل**﴾ مفرعة على قوله: يوم يأتيهم العذاب. والتأخير مستعمل في الإعادة إلى الحياة الدنيا مجازاً مرسلا بعلاقة الأُول. والقريب: القليل الزمن. شبه الزمان بالمسافة. أى: أخرنا مقدار ما نجيب به دعوتك. . . ﴿**أَوَلَمْ تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال**﴾: لما ذكر قبل هذه الجملة طلب الذين ظلموا من ربهم تعيّن أن الكلام الواقع بعدها يتضمن الجواب عن طلبهم. . . فهو بتقدير قول محذوف. أى: يقال لهم. . . وقد عدل عن الجواب بالإجابة أو الرفض إلى التقرير والتوبيخ؛ لأن ذلك يستلزم رفض ما سألوه وافتتحت جملة الجواب بواو العطف تنبيهاً على معطوف عليه مقدر. هو رفض ما سألوه. حذف إيجازا؛ لأن شأن مستحق التوبيخ أن لا يعطى سؤله. . . فالتقدير: كلا. . . أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال.

وجملة ما لكم من زوال بيان لجملة أقسمتم. وقد جمع لهم في إقامة الحجة

بين دلائل الآثار والمشاهدة ودلائل الموعظة في قوله: ﴿**وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال...**﴾ فكان هذا وما قبله من الرد الحاسم والرفض القاصم مواجهة لهم بالخطاب... ثم بيّن حالهم فيما كانوا عليه قبل رد هذا الجواب: ﴿**وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال**﴾. أي: لم يكن الصادر عنهم مجرد الأقسام الذى وُبِّخُوا به. بل اجْتَرَءُوا على مثل هذه الأفعال العظيمة حيث حسبوها كافية لإزالة دعوة الرسول العظيمة وما كان مكرهم لتزول منه الجبال: ﴿**فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام**﴾: وهذا تفريع على جميع ما تقدم من قوله: ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون... فهو محل التسلية.

والخطاب للرسول ﷺ لأن تأخير ما وعد الله رسوله من إنزال العقاب بأعدائه يشبه حال المخلف وعده... فذلك نهى عن حسبانه. وأضيف مُخلف إلى مفعوله الثانى. وهو وعده. وإن كان المفعول الأول هو الأصل في التقديم والإضافة إليه؛ لأن الاهتمام بنفى إخلاف الوعد أشد... فلذلك قدم وعده على رسله. ورسله جَمْعٌ مراد به النبىء لا محالة... فهو جمع مستعمل في الواحد مجازا. وهذا تثبيت للنبىء بأن الله منجز له ما وعده من نصره على الكافرين به.

وجملة إن الله عزيز ذو انتقام تعليل للنهي عن حسبانه مخلف وعده.. فالعزة تنفي الأول، وكونه صاحب انتقام ينفى الثانى؛ لأن مخلف الوعد إما أن يكون عن عجز. وإما أن يكون عن عدم اعتياد الموعود به. وهذه الجملة تذييل أيضا وبها تم الكلام. ﴿**يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار**﴾: استئناف لزيادة الإنذار بيوم الحساب... ومتعلق يوم تبدل الأرض... قوله: ذو انتقام. وتقييده به مع عموم انتقامه للأوقات كلها للإفصاح عما هو المقصود من تعذيب الكفرة المؤخر إلى ذلك اليوم بموجب الحكمة الداعية إليه. وبرزوا لله الواحد القهار. ﴿**وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار**﴾: وبرزوا معطوف على تبدل... والعدول إلى صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه.

والتعرض للوصفين ـ الواحد القهار ـ لتهويل الخطب وتربية المهابة. وإظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام في ذلك اليوم... وجملة وترى المجرمين...

عطف على برزوا. والعدول إلى صيغة المضارع. لاستحضار الصورة... وهى صورة من أبشع وأفظع وأشنع ما سمع سامع ورأى راءٍ. في هذا الوصف الذى لا يستطيع وصفه إلا القادر العليم الخالق الحكيم. **﴿ليجزى الله كل نفس ما كسبت﴾**: متعلق بمضمر. أى: يفعل بهم ذلك ليجزى كل نفس مجرمة ما كسبت من أنواع الكفر والمعاصى جزاءً موافقا لعملها... وجملة **﴿إن الله سريع الحساب﴾**. مقصود منها تحقيق الوعيد مثل قوله: «إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع» **﴿هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب﴾**: الإشارة إلى الكلام السابق في السورة كلها.

والبلاغ: اسم مصدر التبليغ. أى: هذا المقدار من القرآن في هذه السورة تبليغ للناس كلهم. وفى هذا براعة المقطع. وفى قوله في أول السورة كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس... براعة المطلع. وبهذين يلتقى الغرضان من دعوة الرسول في هذا القرآن. وقد رتبت صفات الآيات المشار إليها باسم الإشارة على ترتيب عقلى بحسب حصول بعضها عقب بعض... فابتدئ بالصفة العامة وهى حصول التبليغ... ثم ما يعقب حصول التبليغ من الإنذار... ثم ما ينشأ عنه من علم بالوحدانية لما في خلال هذه السورة من الدلائل... ثم بالتذكير في ما جاء به ذلك البلاغ. وهو تفاصيل العلم والعمل. وهذه المراتب هى جامع ما جاء به الرسول ﷺ موزعة على من بلغ إليهم. ويختص المسلمون بمضمون قوله: وليذكر أولوا الألباب!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار﴾: فيه لفت الأنظار إلى ما عمل هؤلاء الكفار... فالآن يعود السياق إلى المكذبين من قوم محمد ﷺ بعدما عرض عليهم ذلك الشريط الطويل - أولئك الذين أنعم الله عليهم - فيما أنعم - برسول يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويدعوهم ليغفر الله لهم... فإذا هم يكفرون النعمة، ويردونها، ويستبدلون بها الكفر، يؤثرونه على الرسول، وعلى دعوة الإيمان. ومن ثم يبدأ الشوط الثانى بالتعجيب من أمر هؤلاء الذين يبدلون نعمة الله كفرا، ويقودون قومهم إلى دار البوار. كما قاد من قبلهم أتباعهم إلى النار، في قصة

الرسل والكفار: ألم تر إلى تصرف القوم العجيب، بعدما رأوا ما حل بمن قبلهم.

وقد عرضه القرآن عليهم عرض رؤية في مشاهد تلك القصة التي مضى بها الشوط الأول من السورة عرضه كأنه وقع فعلا. وإنه لواقع. وما يزيد النسق القرآنى على أن يعرض ما تقرر وقوعه في صورة الواقع المشهود. لقد استبدلوا بنعمة الرسول ودعوته كفرا. وكانت دعوته إلى التوحيد... فتركوها، ﴿**وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله**...﴾ جعلوا لله أقرانا مماثلين يعبدونهم كعبادته، وينسبون إليهم صفات من صفاته... فيدعونهم لجلب الخير وكشف الضر. وجعلوا لله هذه الأنداد ليضلوا الناس عن سبيل الله الواحد الذى لا يتعدد، ولا تتفرق به السبل.

والنص يشير إلى أنّ كبراء القوم عمدوا عمدا إلى تضليل قومهم عن سبيل الله باتخاذ هذه الآلهة أندادا لله... فعقيدة التوحيد خطر على سلطان الكبراء ومصالحهم في كل زمان. لا في زمان الجاهلية الأولى، ولكن في زمن كل جاهلية ينحرف الناس فيها عن التوحيد المطلق، في أية صورة من صور الانحراف، فيسلمون قيادهم إلى كبرائهم، وينزلون لهم عن حرياتهم وشخصياتهم، ويخضعون لأهوائهم ونزواتهم ويتلقون شريعتهم من آراء الكبراء لا من وحى الله: عندئذ تصبح الدعوة إلى توحيد الله خطرا على الكبراء يتقونه بكل وسيلة. ومنها كان اتخاذ الآلهة أندادا لله في زمن الجاهلية الأولى. ومنها اليوم اتخاذ شرائع من عمل البشر، تأمُرُ بما لم يأمر الله به، وتنهى عما لم ينه الله عنه... فإذا وضعوها في مكان الند لله في النفوس المضللة عن سبيل الله... فيا أيها الرسول ﴿**قل**﴾ للقوم: ﴿**تمتعوا**...﴾ تمتعوا قليلا في هذه الحياة إلى الأجل الذى قدره الله.

والعاقبة معروفة: ﴿**فإن مصيركم إلى النار**﴾. ودعهم وانصرف عنهم إلى عبادى الذين آمنوا... انصرف عنهم إلى موعظة الذين تجدى فيهم الموعظة. الذين يتقبلون نعمة الله ولا يردونها، ولا يستبدلون بها الكفر. انصرف إليهم تعلمهم كيف يشكرون النعمة بالعبادة والبرِّ بعبادِ الله: ﴿**قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال**...﴾ قل لعبادى الذين آمنوا: يشكروا ربهم بإقامة الصلاة... فالصلاة أخص مظاهر الشكر لله.

وينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق سرا وعلانية. سرا حيث تصان كرامة الآخذين ومروءة المعطين. فلا يكون الإنفاق تفاخرا وتظاهرا ومباهاة. وعلانية حيث تعلن الطاعة بالإنفاق وتؤدى الفريضة، وتكون القدوة الطيبة في المجتمع. وهذا وذاك متروك لحساسية الضمير المؤمن وتقديره للأحوال. قل لهم: ينفقوا ليُرْبُوا رصيدَهم المدخر من قبل أن يأتى يوم لا تنموا فيه الأموال بتجارة، ولا تنفع كذلك فيه صداقة. إنما ينفع المدخر من الأعمال يوم لا بيع فيه ولا خلال.

وهنا يفتح كتاب الكون على مصراعيه فتنطق سطوره الهائلة بنعم الله التي لا تحصى وتتوالى صفحاته الضخمة الفسيحة بألوان هذه النعم على مد البصر: السماوات والأرض. الشمس والقمر. الليل والنهار. الماء النازل من السماء والثمار النابتة من الأرض. البحر تجرى فيه الفلك. والأنهار تجرى بالأرزاق... هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار، ولكن البشر لا ينظرون ولا يقرأون ولا يتدبرون ولا يشكرون: ـ ﴿**الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار...**﴾ إنها حَمْلَةٌ.

إنها سياط تلذع الوجدان... حملة أدواتها الهائلة السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والبحار والأنهار والأمطار والثمار. وسياط ذات إيقاع، وذات رنين، وذات لذع لهذا الإنسان الظلوم الكفار... إن من معجزات القرآن أنه يربط كل مشاهد الكون وكل خلجات النفس إلى عقيدة التوحيد. ويحوّل كل ومضة في صفحة الكون أو في ضمير الإنسان إلى دليل أو إيحاء... وهكذا يستحيل الكون بكل ما فيه وبكل من فيه معَرضا لآيات الله تبدع فيه يد القدرة وتتجلى آثارها في كل مشهد فيه ومنظر، وفى كل صورة فيه وظل.

والمشهد الهائل الحافل المعروض هنا لأيادى الله وآلائه تسير فيه خطوط الريشة المبدعة وفق اتجاه الآلاء بالقياس إلى الإنسان: خط السماوات والأرض. يتبعه خط الماء النازل من السماء. والثمرات النابتة من الأرض بهذا الماء... فخط البحر تجرى فيه الفلك. والأنهار تجرى بالأرزاق... ثم تعود الريشة إلى

لوحة السماء. بخط جديد: خط الشمس والقمر. . . فخط آخر في لوحة الأرض متصل بالشمس والقمر: خط الليل والنهار. . . ثم الخط الشامل الأخير الذى يلوّن الصفحة كلها ويظللها: وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها. . إنه الإعجاز الذي تتناسق فيه كل لمسة وكل خط وكل لون وكل ظل في مشهد الكون ومعرض الآلاء. أفكل هذا مسخر للإنسان؟ أفكل هذا الكون الهائل مسخر لذلك المخلوق الصغير؟ السماوات وينزل منها الماء والأرض تتلقاه، والثمرات تخرج من بينهما. والبحر تجرى فيه الفلك بأمر الله مسخرة والأنهار تجرى بالحياة والأرزاق في مصلحة الإنسان! والشمس والقمر مسخران دائبان لايفتران. والليل والنهار يتعاقبان!. . . أفكل أولئك للإنسان؟!. . ثم لا يشكرون ولا يذكرون؟!. . إن الإنسان لظلوم كفار!.

الله الذى خلق السماوات والأرض. . . وبعد ذلك يجعلون لله أندادا. . . فكيف يكون الظلم في التقدير. والظلم في عبادة خلق من خلقه في السماوات أو في الأرض؟!. وأنزل من السماء ماءً فأخرج من الثمرات رزقا لكم. . . والزرع مورد الرزق الأول ومصدر النعمة الظاهر. والمطر والإنبات كلاهما يتبع السنَّة التي فطر الله عليها هذا الكون، ويتبع الناموس الذى يسمح بنزول المطر وإنبات الزرع وخروج الثمر، وموافقة هذا كله للإنسان. وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره. . . بما أودع في العناصر من خصائص تجرى الفلك على سطح الماء، وبما أودع في الإنسان من خصائص يدرك بها ناموس الأشياء. وكلها مسخرة بأمر الله للإنسان، وسخر لكم الأنهار. . . تجرى فتجرى الحياة. وتفيض فيفيض الخير. وتحمل ما تحمل في جوفها من أسماك وأعشاب وخيرات. . . كلها للإنسان ولما يستخدمه الإنسان من طير وحيوان. . . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين. . . لا يستخدمهما الإنسان مباشرة كما يستخدم الماء والثمار والبحار والفلك والأنهار ولكنه ينتفع بأثارهما، ويستمد منهما مواد الحياة وطاقاتها. . . فهما مسخران بالناموس الكونى ليصدر عنهما ما يستخدمه هذا الإنسان في حياته ومعاشه بل في تركيب خلاياه وتجديدها. وسخر لكم الليل والنهار.

كذلك وفق حاجة الإنسان وتركيبه، وما يناسب نشاطه وراحته. ولو كان نهار دائم أو ليل دائم لفسد جهاز هذا الإنسان؛ فضلا على فساد ما حوله كله.

وتعذرت حياته ونشاطه وإنتاجه. وليست هذه سوى الخطوط العريضة في صفحة الآلاء المديدة. . . ففى كل خط من النقط مالا يحصى. ومن ثم يضم إليها على وجه الإجمال المناسب للّوحة المعروضة وللجو الشامل: وآتاكم من كل ما سألتموه. . . من مال وذرية وصحة وزينة ومتاع ـ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ـ فهى أكبر وأكثر من أن يحصيها فريق من البشر، أو كل البشر. وكلُّهم مَحْدُودون بين حدين من الزمان: بدء ونهاية وبين حدود من العلم تابعة لحدود الزمان والمكان. . . ونعم الله مطلقة ـ فوق كثرتها ـ فلا يحيط بها إدراك إنسان. . . وبعد ذلك كله تجعلون لله أندادا. وبعد ذلك كله لا تشكرون نعمة الله، بل تردونها كفرا. . . إن الإنسان لظلوم كفار!!. . .

التوجيه الثاني: ﴿**وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا. . .**﴾: في هذا التوجيه عرض النموذج الكامل للإنسان الذاكر الشاكر. . . وهو أبو الأنبياء: إبراهيم الذى يظلل هذه السورة كما تظللها النعمة وما يتعلق بها من شكران أو كفران. . . ومن ثم يأتى به السياق في مشهد خاشع، يظلله الشكر، وتشيع فيه الضراعة ويتجاوب فيه الدعاء، في نغمة رخية متموجة ذاهبة في السماء. إن السياق يصوِّرُ إبراهيم عليه السلام ـ إلى جوار بيت الله الذى بناه في البلد الذى تكفر قريش فيه بالله، مرتكنة إلى البيت الذى بناه لعبادة الله. . . فيصوره في هذا المشهد الضارع الخاشع الذاكر الشاكر ليرد الجاحدين إلى الاعتراف، ويرد الكافرين إلى الشكر، ويرد الغافلين إلى الذكر ويرد الشاردين من أبنائه إلى سيرة أبيهم لعلهم يقتدون بها ويتأسّون.

ويبدأ ابراهيم دعاءه: رب اجعل هذا البلد آمنا.. فنعمة الأمن نعمة ماسة بالإنسان، عظيمة الوقع في حسه، متعلقة بحرصه على نفسه. والسياق يذكرها هنا ليذكّر بها سكان ذلك البلد، الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها. وقد استجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم فجعل البلد آمنا؛ ولكنهم هم سلكوا غير طريق إبراهيم فكفروا النعمة وجعلوا لله أندادا وصدوا عن سبيل الله. ولقد كانت دعوة أبيهم التالية لدعوة الأمن: ﴿**واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام**﴾. . . ويبدو في دعوة إبراهيم الثانية تسليم إبراهيم المطلق إلى ربه، والتجاؤه اليه في أخص مشاعر قلبه. . . فهو يدعوه أن يجنبه عبادة الأصنام هو وبنيه، يستعينه بهذا الدعاء ويستهديه. . . ثم

ليبرز أن هذه نعمة أخرى من نعم الله. وإنها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده... فيخرج من التيه والحيرة والضلال والشرود إلى المعرفة و الطمأنينة والاستقرار والهدوء.

إنها لنعمة يدعو إبراهيم ربه ليحفظها عليه فيجنبه هو وبنيه أن يعبد الأصنام .يدعو إبراهيم دعوته هذه لما شاهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام من الناس في جيله وفى الأجيال التي قبله؛ ومن فتنوا بها ومن افتتنوا وهم خلق كثير: ﴿**رب إنهن أضللن كثيرا من الناس...**﴾ فأما من تبع طريقى فلم يفتتن بها فهو منى، ينتسب إليّ ويلتقى معى في الآصرة الكبرى. آصرة العقيدة: ﴿**فمن تبعنى فإنه منى...**﴾ وأما من عصانى منهم فأفوض أمره إليك: ﴿**ومن عصانى فإنك غفور رحيم...**﴾ وفى هذا تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم... فهو لايطلب لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه الهلاك. ولا يستعجل لهم العذاب. بل لايذكر العذاب... إنما يكلهم الى غفران الله ورحمته. ويلقى على الجو ظلال المغفرة والرحمة.

وتحت هذا الظل يتوارى ظل المعصية، فلا يكشف عنه إبراهيم الرحيم الحليم! ويمضى إبراهيم في دعائه بذكر إسكانه لبعض أبنائه بهذا الوادى المجدب المقفر المجاور للبيت المحرم. ويذكر الوظيفة التي أسكنهم في هذا القفر الجدب ليقوموا بها: ﴿**ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم...**﴾ لماذا؟: ﴿**ربنا ليقيموا الصلاة...**﴾ فهذا هو الذى من أجله أسكنهم هناك. وهذا هو الذى من أجله يحتملون الجدب والحرمان... ﴿**فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم...**﴾ وفى التعبير رقة ورفرفة تصور القلوب رفافة مجنحة. وهى تهوى إلى ذلك البيت وأهله في ذلك الوادى الجديب. إنه تعبير ندى يندى الجدب برقة القلوب... ﴿**وارزقهم من الثمرات...**﴾ عن طريق تلك القلوب التي ترف عليهم من كل فج... لماذا؟: ليأكلوا ويطعموا ويستمتعوا؟ نعم؛ ولكن لينشأ عن ذلك ما يرجوه إبراهيم الشكور ﴿**لعلهم يشكرون**﴾... وهكذا يبرز السياق هدف السكنى بجوار البيت الحرام... إنه إقامة الصلاة على أصولها كاملة لله.

ويبرز هدف الدعاء برفرفة القلوب وهويّها إلى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الأرض... إنه شكرالله المنعم الوهاب. وفى ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة

واضحة في موقف قريش جيرة البيت المحرم فلا صلاة قائمة لله، ولا شكر بعد استجابة الدعاء، وهوى القلوب والثمرات ويعقب إبراهيم على دعاء الله لذريته الساكنة بجوار بيته المحرم لتقيم الصلاة وتشكر الله. يعقب على الدعاء بتسجيله لعلم الله الذى يطلع على ما في قلوبهم من توجه وشكر ودعاء... فليس القصد هو المظاهرات والأدعية والتصدية والمكاء... إنما هو توجه القلب إلى الله الذى يعلم السر والجهر ولا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء: ﴿**ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شئ في الأرض ولا في السماء**﴾ ويذكر إبراهيم نعمة الله عليه من قبل... فيلهج لسانه بالحمد والشكر شأن العبد الصالح يذكر فيشكر: ﴿**الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء...**﴾ وهبة الذرية على الكبر أوقع في النفس... فالذرية امتداد. وما أجلّ الإنعامَ به عند شعور الفرد بقرب النهاية، وحاجته: النفسية الفطرية إلى الامتداد. وإن إبراهيم ليحمد الله ويطمع في رحمته: إن ربى لسميع الدعاء... ويعقب على الشكر بدعاء الله أن يجعله مديما للشكر. الشكر بالعبادة والنهوض بالفريضة... فيعلن بهذا تصميمه على العبادة وخوفه أن يعوقه عنها عائق، أو يصرفه عنها صارف، ويستعين الله على إنفاذ عزيمته وقبول دعائه: ﴿**رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء...**﴾ وفى ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة مرة أخرى في موقف جيرة البيت من قريش.

وهذا إبراهيم يجعل عون الله له على إقامة الصلاة رجاء يرجوه، ويدعو الله ليوفقه إليه. وهم يَنْأَوْنَ عنها ويعرضون... ويكذبون الرسول الذى يذكّرُهم بما كان إبراهيم يدعو الله أن يعينه عليه هو وبنيه من بعده!. ويختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعا يوم يقوم الحساب... فلا ينفع إنساناً إلا عمله... ثم مغفرة الله في تقصيره: ﴿**ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب...**﴾ وينتهى المشهد الطويل: مشهد الدعاء الخاشع الضارع، ومشهد تعداد النعم والشكر عليها. في إيقاع موسيقى متموج رخيٍّ... ينتهى بعد أن يخلع على الموقف كله ظلا وديعا لطيفا تهفو القلوب معه إلى جوار الله، وتذكر القلوب فيه نِعَمَ الله. ويرتسم إبراهيمُ أبو الأنبئاء، نموذجاً للعبد الصالح الذاكر الشاكر، كما ينبغى أن يكون عباد الله الذين وجه الحديث إليهم قبيل هذا الدعاء...

التوجيه الثالث: ﴿**ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون**. . .﴾: في هذا التوجيه يكمل السياق الشوط مع الذين بدلوا نعمة الله كفرا. . . والذين أُمِرَ الرسولُ أن يقول لهم تمتعوا فإن مصيركم إلى النار. . . يكمل السياق الشوط ليكشف عما أعد للكافرين بنعمة الله؛ ومتى يلقون مصيرهم المحتوم: ﴿**إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار**. . .﴾ والرسول لا يحسب الله غافلا عما يعمل الظالمون؛ ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون، ويسمع بوعيد الله. . . ثم لا يراه واقعا بهم في هذه الحياة الدنيا. . . فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة التي لا إمهال بعدها. ولا فكاك منها. أخذهم في اليوم العصيب الذى تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع!. فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك. . . ثم يرسم مشهد القوم في زحمة الهول: مشهدهم مسرعين لا يلوون على شئ، ولا يلتفتون إلى شئ. رافعين رءوسهم لاعن إرادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكا.

يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب فلا يطرف ولا يرتد إليهم. وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئا يَعُونَه أو يحفظونه أو يتذكرونه. . . فهى هواء خواء. . . هذا هو اليوم الذى يؤخرهم الله إليه، حيث يقفون هذا الموقف، وَيُعَانُونَ هذا الرعب. الذى يرتسم من خلال المقاطع الأربعة مُذْهِلاً آخذا بهم كالطائر الصغير من مخالب الباشق الرعيب!: ﴿**مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء**. . .﴾ فالسرعة المهرولة المدفوعة في الهيئة الشاخصة المكرهة المشدودة مع القلب المفزع الطائر الخاوى من كل وعى ومن كل إدراك. . . كلها تشى بالهول الذى تشخص فيه الأبصار. . . هذا هو اليوم الذى يؤخرهم الله إليه، والذى ينتظرهم بعد الإمهال هناك!. . . فأنذر الناس أنه إذا جاء فلا اعتذار يومئذ ولا فكاك. . . وهنا يرسم مشهدا آخر لليوم المنظور: ﴿**وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل**. . .﴾ أنذرهم يوم يأتيهم ذلك العذاب المرسوم آنفا. . . فيتوجه الذين ظلموا يومئذ إلى الله بالرجاء يقولون: ربنا. . . الآن وقد كانوا يكفرون به من قبل ويجعلون له أندادا. . . أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل. . . وهنا ينقلب السياق من الحكاية إلى الخطاب، كأنهم ماثلون شاخصون يطلبون.

وكأننا في الآخرة وقد انطوت الدنيا وما كان فيها. . . فها هو ذا الخطاب يوجّه إليهم من الملإ الأعلى بالتبكيت والتأنيب والتذكير بما فرط منهم في تلك الحياة: ﴿**أَوَلَمْ تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال**﴾؟!. فكيف ترون الآن؟ زلتم ياترى أو لم تزولوا! ولقد قلتم قولتكم هذه وآثار الغابرين شاخصة مثلا بارزاً للظالمين ومصيرهم المحتوم: ﴿**وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال. . .**﴾ فكان عجيبا أن تروا. مساكن الظالمين أمامكم خالية منهم وأنتم فيها خلفاء. . . ثم تُقْسِمون بعد ذلك: مالكم من زوال! وعند هذا التبكيت ينتهى المشهد.

ونُدْرِك أين صاروا، وماذا كان بعد الدعاء وخيبة الرجاء؟ وإن هذا المثل ليتجدد في الحياة ويقع كل حين فكم طغاة يسكنون مساكن الطغاة الذين هلكوا من قبلهم. وربما يكونون قد هلكوا على أيديهم. . . ثم هم يطغون بعد ذلك ويتجبرون ويسيرون حذوك النعل بالنعل سيرة الهالكين. . . فلا تهز وجدانهم تلك الآثار الباقية التي يسكنونها والتى تتحدث عن تاريخ الهالكين. وتصور مصائرهم للناظرين. . . ثم يؤخذون إخذة الغابرين، ويلحقون بهم وتخلو منهم الديار!. . . ثم يلتفت السياق بعد أن يسدل عليهم الستار هناك إلى واقعهم الحاضر، وشدة مكرهم بالرسول والمؤمنين تدبيرهم الشر في كل نواحى الحياة. . . فيلقى في الروع أنهم مأخوذون إلى ذلك المصير :﴿**وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال. . .**﴾ فإن مكرهم هذا ليس مجهولا وليس خافيا وليس بعيدا عن متناول القدرة؛ بل إنه لحاضر عند الله يفعل به كيفما يشاء: ﴿**فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام. . .**﴾ فما لهذا المكر من أثر، وما يعوق تحقيق وعد الله لرسله بالنصر وأخذ الماكرين أخذ عزيز مقتدر. . . وكلمة الانتقام هنا تلقى الظل المناسب للظلم والمكر. . . فالظالم الماكر يستحق الانتقام، وهو بالقياس إلى الله تعالى يعنى تعذيبهم جزاء ظلمهم وجزاء مكرهم. تحقيقا لعدل الله في الجزاء.

وسيكون ذلك لا محالة: ﴿**يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات. . .**﴾ ولا ندرى نحن كيف يتم هذا ..ولا طبيعة الأرض الجديدة وطبيعة السماوات: ولا مكانها. . . ولكن النص يلقى ظلال القدرة القادرة التي تبدل الأرض وتبدل

السماوات. . . في مقابل ذلك المكر الذى مهما اشتد فهو ضئيل عاجز حسير. . . وفجأة نرى ذلك قد تحقق: ﴿**وبرزوا لِله الواحدِ القهارِ. . .**﴾ وأحسوا أنهم مكشوفون لا يسترهم ساتر، ولا يقيهم واقٍ. وليسوا في دورهم وليسوا في قبورهم. إنما هم في العراء أمام الواحد القهار. . . ولفظة القهار هنا تشترك في ظل التهديد بالقوة القاهرة التي لا يقف لها كيد الجبابرة المدعاة في الأيام الغابرة. ثم ها نحن أولاء أمام مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسى المذل يناسب ذلك المكر وذلك الجبروت: ﴿**وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار. . .**﴾ فمشهد المجرمين المنصوص على إجرامهم اثنين اثنين مقرونين في الوثاق يمرون صفّاً وراء صفٍّ. مشهد مذل دال كذلك على قدرة القهار. ويضاف إلى قرنهم في الوثاق أن سرابيلهم وثيابهم من مادة شديدة القابلية للالتهاب. وهى في ذات الوقت قذرة سوداء من قطران. . . ففيها الذل والتحقير. . . وفيها الإحاء بشدة الاشتعال بمجرد قربهم من النار: وتغشى وجوههم النار. . . فهو مشهد العذاب المذل المتلظى المشتعل جزاء المكر والاستكبار، ﴿**ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب. . .**﴾ ولقد كسبوا المكر والظلم فجزاؤهم القهر والذل؛ إن الله سريع الحساب. . . فالسرعة في الحساب هنا تناسب المكر والتدبير الذى كانوا يحسبونه يحميهم ويخفيهم ويعوق انتصار أحد عليهم ..فهاهم أولاء يجزون ما كسبوا ذلا وألما وسرعة حساب.

وفى النهاية تختم الصورة بمثل ما بدأت ولكن في إعلان عام جهير الصوت على الصدى لتبليغ البشرية كلها في كل مكان: ﴿**هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب**﴾.

1 ـ أول سورة الحجر تهديد وآخرها نصر وتأييد



النص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

* الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿1﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿2﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿3﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿4﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿5﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿6﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿7﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿8﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿9﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿10﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿11﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿12﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿13﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿14﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿15﴾

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿16﴾
وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿17﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ
السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿18﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا
فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿19﴾ وَجَعَلْنَا
لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿20﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ
إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿21﴾
وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ
وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿22﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ
وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿23﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ
وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿24﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿25﴾
* وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿26﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ
مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿27﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا
مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿28﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿29﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿30﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿31﴾
قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿32﴾ قَالَ لَمْ
أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿33﴾
قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿34﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ

إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿35﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿36﴾
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿37﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ
ٱلْمَعْلُومِ ﴿38﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ
فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿39﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿40﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿41﴾ إِنَّ عِبَادِي
لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿42﴾
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿43﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ
جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿44﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿45﴾ ٱدْخُلُوهَا
بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿46﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ
سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿47﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿48﴾
* نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿49﴾ وَأَنَّ عَذَابِي
هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿50﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿51﴾
إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿52﴾ قَالُوا۟
لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿53﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن
مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿54﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ
فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿55﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ
رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿56﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿57﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿58﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا

لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿59﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿60﴾
فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿61﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
مُّنكَرُونَ ﴿62﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿63﴾
وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿64﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ
وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿65﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ
أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿66﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿67﴾
قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿68﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَلَا تُخْزُونِ ﴿69﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿70﴾
قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿71﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي
سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿72﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿73﴾
فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿74﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿75﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿76﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿77﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ
لَظَالِمِينَ ﴿78﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿79﴾
* وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿80﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا
عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿81﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿82﴾
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿83﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا

يَكْسِبُونَ (84) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85) إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ
الْعَظِيمَ (87) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) وَقُلْ إِنِّي
أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90)
الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ
مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96) وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿**ألر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين**﴾: تقدم الكلام على الحروف المقطعة. وعلى معنى تلك آيات الكتاب. . . ﴿**ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين**﴾: ربما مركبة من رب. وما. فكفت رب عمل الجر. وسوغت دخولها على الفعل. وهى في معناها تفيد التقليل. . . وهى تقلل هنا المدة التي بين ما هم عليه الآن من الكفر وبين المدة التي يتمنون فيها أن يكونوا مسلمين. بدليل قوله: ﴿**ذرهم**

يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون. وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾: نَفْيٌ لإِهْلاك القرى بدون سبب يعلمونه من رسولهم أو من كتابه الذى جاء به من ربه. **﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾**: عندما يأتى الموعد المحدد لإهلاكها فلا تتأخر عنه لحظة كما أنها لم تتقدم عنه... **﴿وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾**: الذى نزل عليه الذكر محمد ﷺ ونادوه بهذا الوصف تهكُّماً واستهزاءً بدليل قولهم: إنك لمجنون.

والذكر: القرآن. والمجنون من فقد عقله وبقي يهرق بما لا يعرف. والجنون: اختفاء العقل في الإنسان. **﴿لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾**: لوما حرف تحضيض بمنزلة لولا التحضيضية. ويلزم دخولها الجملة الفعلية. والمراد بالإتيان بالملائكة حضورهم عندهم ليخبروهم بصدقه في الرسالة. **﴿ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين﴾**: هذا ردٌّ على ما اقترحوا... والنزول: التدلى من علو إلى سفل. والمراد به هنا انتقال الملائكة من العالم العلوى إلى العالم الأرضى نزولا مخصوصا. وهو نزولهم لتنفيد أمر الله بعذاب يرسله على الكافرين.

والمراد بالحق هنا: الشئ المقضى الذى يجعله على من يستحقه... وإذن حرب جواب وجزاء. والإنظار: التأخير والتأجيل. **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**: هذا ردٌّ على قولهم: يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون والمقصود الرد عليهم في استهزائهم ثم زاد ذلك ارتقاءً ونكاية لهم بأن منزل الذكر هو حافظه من كيد الأعداء... فلا يُغَيَّرُ ولا يتلاشى؛ بل يبقى كما أنزله الله محفوظا في الصدر، مكتوبا في السطور، مُتوَاتِراً على مرالدهور، **﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين﴾**: الشيع جمع شيعة. وهى الفرقة التي أمرها واحد. والمشايعة: المتابعة والموافقة.

﴿وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون﴾: هذه عادة المكذبين مع كل الرسل... فلم يكن غريبا ما وقع من هؤلاء... **﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾**: السلك الإدخال. والكاف الداخلة على اسم الاشارة للتمثيل والمعنى: مثل السلك الذى سنصفه نسلك الذكر في قلوب المجرمين... فإنهم يسمعونه ويفهمونه؛ إذ هو من كلامهم ويدركون

خصائصه؛ ولكنه لا يستقر في قلوبهم استقرار تصديق به، بل هم مكذبون به. فضمير نسلكه وبه، عائدان الى الذكر... والمجرمون هم كفار قريش.

فهم يسمعون القرآن ولا يؤمنون به كحال من سبقهم من شيع الأولين... ﴿**ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون**﴾: هذا الكلام جامع لإيصال جميع معاذيرهم في مطالبهم... فلو حصل ما طلبوا لقالوا ما قالوا... وظل تدل على الكون في النهار. والعروج الصعود. وسُكِّرت. سُدّت وأُغْلِقت. وبل: للإضراب الإبطالي. والمسحور: المأخوذ بالسحر المعبر عنه بالتموية والتضليل والتخييل.

﴿**ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين. وحفظناها من كل شيطان رجيم. إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين**﴾: البروج: جمع برج. والأصل فيه البناء الكبير المشاهد للأنظار يتخذ لسكنى الملوك والكبراء ليكون حصنا ومأوى دائما... وأطلق هنا على طائفة من النجوم المتجمعة في رأى العين كتجمع القلع والحصون في الأرض. وزيناها للناظرين لما فيها من حسن المنظر وبهجة المبصر. وفيه التنويه بعصمة الوحى من أن يتطرقه الزيادة والنقص. ﴿**والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون**﴾: انتقال من دلائل السماء إلى دلائل الأرض. وتقدم الكلام على معنى مد الأرض. ومعنى الرواسى. والموزون: المقدّر المضبوط... ﴿**وجعلنا لكم فيها معايش**﴾: والمعايش: جمع معيشة. وهو كل ما كان سببا للعيش والبقاء من مأكل ومشرب وملبس. ﴿**ومن لستم له برازقين**﴾: هو كل حيوان يعيش على ما تخرجه الأرض ولا علم للإنسان به. ﴿**وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم**﴾: ما من شئ من الأشياء إلا تحت تصرفنا وحفظنا وما ننزله إلا بقدر معلوم. ﴿**وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين**﴾: الرياح؛ جمع ريح. وهو هبوب الهواء المندفع من جهة إلى أخرى يدفع أمامه السحاب يسير به حيث شاء الله... ثم ينزل منه الماء لسقي النبات والدواب... فليس للإنسان دخل في إنزاله ولا في خزنه وإبقائه في الأرض... ﴿**وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون**﴾: المراد بالإحياء: تكوين الموجودات التي فيها الحياة. وإحياؤها أيضا بعد فناء الأجسام.

ومعنى الإرث هنا: البقاء بعد الموجودات والتصرف فيها تصرف الوارث. ﴿**ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم**﴾: أريد بالمستقدمين الذين تقدموا الأحياء إلى الموت. وبالمستأخرين الذين تأخروا وهم الباقون بعد انقراض غيرهم إلى أجل يأتى. وهكذا دواليك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون**﴾: الإنسان هنا: آدم. والصلصال الطين اليابس. وهو شبه الفخار إلا أن الفخار يعرض على النار فييبس. والصلصال ييبس بالشمس وطول البقاء. وقد جمع في قوله: خلق الإنسان من صلصال كالفخار. والحمأ: الطين الأسود المنتن. والمسنون الذى طالت مدة مكثه حتى تغير لونه ونتنت رائحته. ﴿**والجان خلقناه من قبل من نار السموم**﴾: الجانّ إبليس. خُلِق قبل خلق آدم.

ومادته من النار السموم النار الخالصة التي لم يخالطها شئ. ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أنْ يكون مع الساجدين. قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين**﴾: التسوية: تعديل ذات الشئ. وأطلقت هنا على اعتدال العناصر فيه واكتمالها.

والنفخ: أصله اللغوى إخراج الهواء مضغوطا بين الشفتين مضمومتين، كالصفير ومعناه هنا وضع القوة الغيبية وهى الروح التي اختص بعلم حقيقتها اللهُ خالقهاً. . . ومعنى فقعوا له ساجدين، خُرُّوا له ساجدين تعظيما لآدم وامتثالا لأمر الله. . . فامتثلوا وسجد الملائكة كلهم أجمعون. وامتنع إبليس فلم يجسد حسدا لآدم ورفضا لأمر الله. . . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين. . . فجرى الحوار بينه وبين الله على ما حكى الله عنه هنا وفى سورتى البقرة والأعراف وسيأتى ذكر هذه القصة مرات أخرى. . . فمجموع ما حكى عنه هنا وهناك: كان إبليس مصرحا بتخطئة الخالق، كافرا بصفاته فاستحق الطرد والخزى والمقت. . . إلى أن يلاقى ما هو أشد وأقسى وألعن يوم يبعثون وهو يوم الوقت المعلوم. . .

منعقد العزم على إغواء البشر وإغرائهم على فعل كل شر بتزيينه لهم بالكيد والمكر: قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك، منهم المخلصين... وضمائر لهم - ولأغوينهم - ومنهم - لبنى آدم. ﴿**قال هذا صراط على مستقيم إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين**﴾.

﴿**وإن جهنم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم**﴾: قال الله تعالى: هذا صراط عليَّ مستقيم لا اعوجاج فيه... وعباد الله لا سلطان للشيطان عليهم. لكن من اتبعه من الغاوين الذين ضلوا عن صراط الله المستقيم فتسلط عليهم الشيطان فأغواهم حتى أوصلهم إلى جهنم التي هى موعدهم أجمعين... وجملة لها سبعة أبواب: وصف لجهنم بحيث لا تضيق عن دخولهم. وجملة لكل باب منهم جزء مقسوم وصف لأبواب. أى: لكل باب فريق يدخل منه... ﴿**إن المتقين في جنات وعيون**﴾: هذا انتقال من وعيد الغاوين إلى بشارة المتقين... والجنات: جنات الآخرة.

والعيون: ينابيع أنهارها... ﴿**ادخلوها بسلام آمنين**﴾: يقال لهم هذا الكلام تحية لهم عند دخولها... ﴿**ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين**﴾: النزع: القلع. والغل: الحقد والكراهية التي تكثر عادة بين الناس في الدنيا... فهم أحبة إخوان متقابلون في النعيم متساوون في الكرامة والنزاهة والشرف. ﴿**لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين**﴾: المس: الإصابة. والنصب: التعب والمشاق التي تلم بالمترفين في الدنيا... أما أهل الجنة فهم فيها منعّمون خالدون لا يعتريهم كَلَلٌ ولا ملل.

﴿**نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم**﴾: فذلكة لما سبق من وعيد الغاوين ووعد المتقين مقرّر له. وهو تمهيد لما سيأتى من قصص الأنبياء وأقوامهم... ﴿**ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون**﴾: ضيف إبراهيم: الملائكة الذين تشكلوا بشكل أناس غرباء مارين ببيته. وتقدمت القصة في سورة هود والوجِلُ: الخائف. وجمعه وجلون. ﴿**قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم**﴾: الغلام العليم: إسحاق. والغلام الحليم: إسماعيل ابنا إبراهيم عليهم السلام. ﴿**قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم**

تبشرون﴾: استفهام إبراهيم هنا على وجه التعجب من هذه البشارة التي جاءت في غير وقتها. **﴿قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين﴾** هذه بشارة حق من الله الحق فلا تقنط.

والقنوط: اليأس. **﴿قال: ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾**: استفهام إنكارى بمعنى النفى. أى: لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون. وهذا ما رد به إبراهيم على الملائكة عندما قالوا له: فلا تكن من القانطين **﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون؟ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾**: الخطب: الشأن والأمر. أى: ما شأنكم؟ فأجابوه بأنهم مرسلون إلى قوم مجرمين. وهم قوم لوط... **﴿إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين﴾**: استثناء منقطع؛ لأن آل لوط ليسوا مجرمين. **﴿إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين﴾**: امرأة لوط كافرة فليست من أهله؛ بل من قومه الذين قدر عليهم الهلاك... فهى من الغابرين مثلهم.

والغابر: الذاهب مع الهالكين. والغابر: الباقى مع الكافرين. وكلمة غبر تفيد الضدين. **﴿فلما جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون﴾**: استغرب لوط مجئ هؤلاء... فقال: إنكم قوم منكرون غير معروفين... فأجابوه: **﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون﴾**: ما كان القوم يمترون فيه: هو العذاب الذى توعدهم به لوط عليه السلام بسبب الفاحشة التي اخترعوها ولم يسبقهم بها أحد... **﴿فاسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون﴾**: السرى: الذهاب بالليل. والقطع: الجزء الأخير منه. واتبع الأدبار: المشى خلفهم.

والالتفات: الرجوع إلى الوراء. والمضى؛ الإسراع إلى المكان المطلوب الذهاب إليه. **﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾**: معنى قضينا هنا: أوحينا. وذلك الأمر إبهام للتهويل. وأن دابر هؤلاء مقطوع تفسير لذلك الأمر. والدابر: الأخير. وقَطْعُهُ: إزالته. ومصبحين: داخلين في الصباح. وهو وقت شروق الشمس. **﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون﴾**: جاء أهل المدينة إلى بيت لوط عندما سمعوا بمجيء الأضياف وهم فرحون مستبشرون **﴿قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولاتخزون﴾**: الفضيحة تكشف المساوى. والخزى: الوقوع في بلية... **﴿قالو أو لم ننهك عن العالمين﴾**: قال أهل المدينة

للوط عليه السلام مستنكرين قوله لهم: إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون واتقوا الله ولاتخزون. ﴿**قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين**﴾: تقدم معنى هذا الكلام في سورة هود. ﴿**لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون**﴾: لعمرك كلمة قسم.

والسكرة ذهاب العقل. والعمة التحير وعدم الاهتداء إلى الصواب. ﴿**فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل**﴾: الصيحة الصعقة العظيمة. وكانت هذه الصيحة مع شروق الشمس. فانقلبت المدينة على أهلها وتطايرت حجارتها المحرقة على من كان خارج المدينة فهلكوا عن آخرهم. ﴿**إن في ذلك لآيات للمتوسمين**﴾: الآيات: الأدلة. والإشارة في ذلك إلى جميع ما تضمنته القصة... والمتوسمون أصحاب التوسّم. وهم المتأملون في الأسباب وعواقبها. وأولئك هم المؤمنون.

﴿**وإنها لبسبيل مقيم**﴾: إن هذه المدينة التي هلك أهلها باقية آثارها على طريق القوم: ﴿**إن في ذلك لآية للمؤمنين. وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم**﴾: الأيكة: الغيضة من الأشجار الملتف بعضها ببعض. وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب. والانتقام: العقوبة لأجل ذنب... مشتقة من النقم. وهو الإنكار على الفعل... ﴿**وإنهما لبإمام مبين**﴾: وضمير إنهما لقرية قوم لوط، وأيكة قوم شعيب. والإمام: الطريق الذى يؤمه السائر. وهو مبين واضح لأهل مكة وغيرهم ﴿**ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين**﴾: أصحاب الحجر: هم ثمود. والحجر. الحجارة التي كانوا ينحتونها بيوتا في الجبال ومدنا في السهول.

وتعريف المرسلين للجنس. فيصدق على الواحد؛ فأصحاب الحجر كذبوا رسولهم صالحا. وآياتنا مراد بها الجنس. وهى آية الناقة. فأعرضوا عنها... ﴿**وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين**﴾. وهو السبب في إعراضهم وكفرهم بصالح حيث اعتمدوا على قوتهم وكثرتهم وحصونهم... ﴿**فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون...**﴾ ﴿**وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق**﴾: تعليق على ما سبق وتمهيد لما سيأتى من أمر الرسول بالفحص الجميل... ﴿**وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم. ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم**﴾: إتيان القرآن: إعطاؤه.

والسبع المثانى: هى سورة فاتحة الكتاب؛ لأنها تثنى وتعاد في كل ركعة من ركعات الصلاة... فهى أكثر ترداد لها في أى سورة من سور القرآن. والقرآن العظيم: القرآن كله. وهو عطف عام على خاص. ﴿**لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم**﴾: المد هنا: التحديق بالنظر والطموح به إلى ما عند أهل مكة من سعة العيش ومتعة الحياة... ﴿**ولا تحزن عليهم**﴾: النهى عن الحزن عليهم شامل لكل حال من أحوالهم من شأنها أن تحزن الرسول وتؤسفه... ﴿**واخفض جناحك للمؤمنين**﴾: أمر للرسول بالتواضع للمؤمنين كما نهى عن النظر إلى الكافرين وما هم فيه من المتاع.

﴿**وقل إنى أنا النذير المبين**﴾: لا غير... فوظيفنى إنذاركم وتحذيركم مما أنتم فيه من الكفر والعناد. ﴿**كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين**﴾: المقتسمون مفسر بقوله: الذين جعلوا القرآن عضين. وعضين جمع عضة. والعضة الجزء، والقطعة من الشئ. ﴿**فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون**﴾: الفاء للتفريع. والواو للقسم. ولنسألنهم: جواب القسم. ﴿**فاصدع بما تؤمر**﴾: الصدع: الجهر والإعلان. وأصله الانشقاق. ومنه انصداع الإناء. والصدع لا يكون الا في الشئ الصلب الذى لا يمكن التآمه. وبما تؤمر المراد به الدعوة.

﴿**وأعرض عن المشركين**﴾: المقصود بالإعراض هنا، عدم الالتفات وقلة الاهتمام بما يقولون فيه وفى القرآن بدليل قوله: ﴿**إنا كفيناك المستهزئين...**﴾ فهو منصور مؤيّد... فلا عبرة بقولهم ولا ضرر من فعلهم... فهو مكفى ومعصوم من قول المستهزئين وكيد الماكرين... ﴿**الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون**﴾: هم كل من أشرك بالله غيره. وهو حكم عام في كل زمان ومكان... وفيه تهديد شديد ووعيد ما بعده وعيد. ﴿**ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين. واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾: في هذا الكلام تطمين للرسول وتأييد له على ما يقول. وليس له بعد هذا إلا أن يتجه إلى الله بالسجود والدعاء بالقبول. وفى النهاية النصرُ والتأييدُ من الله مرجوٌّ مأْمولٌ.

مبحث الإعراب

﴿**ألر**﴾ تقدم القول على هذه الحروف. ﴿**تلك**﴾ في محل رفع مبتدأ.

﴿**آياتُ**﴾ خبره. ﴿**الكتاب**﴾ مضاف إلى آيات. ﴿**وقرآنٍ**﴾ معطوف على الكتاب. ﴿**مبينٍ**﴾ نعت لقرآن. ﴿**ربما**﴾ بالتخفيف مركبة من رب وهو حرف يدل على تنكير مدخوله. واقترنت به ما. فكفته عن عمل الجر. وصح دخوله على الفعل. ﴿**يود الذين**﴾ فعل وفاعل. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين. ﴿**لو**﴾ حرف تمنى نزل منزلة المصدر. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**مسلمين**﴾ خبر كان ولو وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول يود. ﴿**ذرهم**﴾ فعل أمر. ﴿**يأكلوا**﴾ مجزوم بلام الأمر المقدّرة. ﴿**ويتمتعوا**﴾ معطوف على يأكلوا. ﴿**ويلههم**﴾ معطوف كذلك. ﴿**الأمل**﴾ فاعل يلههم. ﴿**فسوف**﴾ الفاء للتفريع.

وسوف للتسويف. و﴿**يعلمون**﴾ فعل وفاعل. والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله. ﴿**وما أهلكنا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفى. والواو للعطف. ﴿**من قرية**﴾ في محل نصب مفعول أهلكنا. دخل عليه حرف الجر الزائد. ﴿**إلا**﴾ أداة استثناء. ﴿**ولها**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**كتاب**﴾ مبتدأ مؤخر، ﴿**معلوم**﴾ نعت لكتاب. والجملة في محل نصب حال من قرية. ومجئ الحال من النكرة لعمومها. والاستثناء هنا من عموم الأحوال. ﴿**ما تسبق**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفى. ﴿**من أمة**﴾ في محل رفع فاعل تسبق. جر بحرف الجر الزائد. ﴿**أجلها**﴾ مفعول به. والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وما يستأخرون**﴾ معطوف على ما تسبق. ﴿**وقالوا**﴾ فعل وفاعل. والواو للعطف.

﴿**ياأيُها**﴾ منادى مبنى على الضم في محل نصب. وها للتنبيه. ﴿**الذى**﴾ في محل نصب نعت لأيُّ. ﴿**نزل**﴾ فعل ماضى مبنى للمجهول. ﴿**عليه**﴾ متعلق به. ﴿**الذكر**﴾ نائب الفاعل. ﴿**إنك**﴾ إن واسمها. ﴿**لمجنون**﴾ خبرها. واللام لتوكيد الخبر. وجملة إنك لمجنون في محل نصب مقول القول. ﴿**لو ما**﴾ حرف تحضيض. ﴿**تأتينا**﴾ فعل مضارع. والفاعل ضمير المخاطب. والضمير المتصل بالفعل في محل نصب مفعول به. ﴿**بالملائكة**﴾ متعلق بتأتينا. ﴿**إن كنت**﴾ كان واسمها دخل عليه حرف الشرط. ﴿**من الصادقين**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان. وجواب الشرط محذوف يدل عليه لو ما تأتينا. ﴿**ما تنزل**﴾ فعل مضارع حذفت منه تاء المضارعة. وما حرف للنفى. ﴿**الملائكة**﴾ فاعل. ﴿**إلا**﴾ أداة استثناء. ﴿**بالحق**﴾ متعلق بتنزل.

﴿**وما كانوا**﴾ كان واسمها. دخل عليه حرف النفى، وواو العطف. ﴿**إذنْ**﴾ التنوين ناب مناب جملة مضافة إلى الظرف. وهى جملة جوابية معترضة بين اسم كان وخبرها. ﴿**منظرين**﴾ خبر كان منصوب بالياء. ﴿**إنا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**نحن**﴾ ضمير فصل. ﴿**نزلنا**﴾ الذكر فعل وفاعل ومفعول. والجملة في محل رفع خبرُ إنّ. ﴿**وإنا**﴾ عطف على إنا. ﴿**له**﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿**لحافظون**﴾ خبر إنّ مرفوع بالواو. واللام لتوكيد الخبر. ﴿**ولقد أرسلنا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التحقيق ولام القسم وواو العطف. ﴿**من قبلك في شيع**﴾ متعلقان بأرسلنا. ﴿**الأولين**﴾ مضاف إلى شيع. ﴿**وما يأتيهم**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفى وواو العطف. والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**من رسول**﴾ في محل رفع فاعل يأتى جر بمن الزائدة. ﴿**إلا**﴾ أداة استثناء. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**به**﴾ متعلق بما بعده.

﴿**يستهزءون**﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل نصب خبر كان. ﴿**كذلك**﴾ الكاف في محل نصب نعت لمصدر مقدر. واسم الإشارة في محل جر بالكاف. ﴿**نسلكه**﴾ فعل مضارع. والفاعل نحن. والضمير المتصل بالفعل في محل نصب مفعول به. ﴿**فى قلوب**﴾ متعلق بنسلكه. ﴿**المجرمين**﴾ مضاف إلى قلوب. ﴿**لا يؤمنون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفى. ﴿**به**﴾ متعلق بيؤمنون. والجملة بيانية. ﴿**وقد خلت سنةُ**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التحقيق. ﴿**الأولين**﴾ مضاف إلى سنة. والجملة معترضة. ﴿**ولو**﴾ حرف امتناع لامتناع تضمنت معنى الشرط. والواو للعطف. ﴿**فتحنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بفتحنا. ﴿**بابا**﴾ مفعول به.

﴿**من السماء**﴾ متعلق بفتحنا. ﴿**فظلوا**﴾ ظل واسمها. وهى تعمل عمل كان. والفاء للترتيب. ﴿**فيه**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**يعرجون**﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل نصب خبر ظل. ﴿**لقالوا**﴾ جواب لو. ﴿**إنما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**سكرت**﴾ فعل ماضى مبنى للمجهول. ﴿**أبصارُنا**﴾ نائب الفاعل. وجملة إنما سكرت أبصارنا. في محل نصب مقول القول. ﴿**بل**﴾ حرف إضراب. ﴿**نحن**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**قوم**﴾ خبره. ﴿**مسحورون**﴾ نعت لقوم. ﴿**ولقد جعلنا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التحقيق ولام القسم. والواو للعطف. ﴿**فى السماء**﴾ متعلق بجعلنا. ﴿**بروجا**﴾ مفعول به.

﴿**وزيناها**﴾ معطوف على جعلنا. ﴿**للناظرين**﴾ متعلق بزيناها. ﴿**وحفظناها**﴾ كذلك. ﴿**من**﴾ ﴿**كل**﴾ متعلق بحفظناها. ﴿**شيطان**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**رجيم**﴾ نعت لشيطان. ﴿**إلا**﴾ أداة استثناء منقطع. وهى بمعنى لكن. ﴿**من**﴾ في محل نصب بالاستثناء. ﴿**استرق**﴾ فعل ماضى. والفاعل ضمير يعود على ما. ﴿**السمعَ**﴾ مفعول استرق. والجملة صلة مَن. ﴿**فأتبعه**﴾ فعل ماضى والفاء للتعقيب. والضمير المتصل به مفعول. ﴿**شهابٌ**﴾ فاعل. مبين نعت له. ﴿**والأرض**﴾ مفعول بفعل مقدر. ﴿**مددناها**﴾ فعل وفاعل ومفعول. جرى الكلام على طريقة الاشتعال. وهو من حكم ما يترجح نصبه.

﴿**وألقينا**﴾ معطوف على مددنا. ﴿**فيها**﴾ متعلق بألقينا. ﴿**رواسى**﴾ مفعول به. ﴿**وأنبتنا فيها من كل**﴾ معطوف كذلك. ﴿**شئ**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**موزون**﴾ نعت لشئ. ﴿**وجعلنا**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**لكم**﴾ متعلق بجعلنا فيها كذلك. ﴿**معايش**﴾ مفعول به ومن في محل جر معطوف على الضمير في لكم. ﴿**لستم**﴾ ليس واسمها. ﴿**له**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**برازقين**﴾ خبر ليس دخل عليه حرف الجر الزائد. جر لفظه ونصب محله. ﴿**وإن**﴾ حرف نفى. ﴿**من شئ**﴾ مجرور بحرف الجر الزائد. ﴿**وهو**﴾ مبتدأ. ﴿**إلا**﴾ أداة استثناء. ﴿**عندنا**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**خزائنه**﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة في محل رفع خبر المبتدإ الأول.

﴿**وما ننزله**﴾ فعل مضارع دخل عليه حرف النفى وواو العطف. والفاعل نحن. والضمير المتصل به مفعول. ﴿**إلا**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**بقدر**﴾ متعلق بننزله. ﴿**معلوم**﴾ نعت لقدر. ﴿**وأرسلنا**﴾ الرياح فعل وفاعل ومفعول والجملة معطوفة على ما قبلها. لواقح حال من الرياح. ﴿**فأنزلنا**﴾ مرتب على أرسلنا. ﴿**من السماء**﴾ متعلق بأنزلنا. ﴿**ماء**﴾ مفعول به. ﴿**فأسقيتاكموه**﴾. فعل وفاعل ومفعولان. وهما ضمير المخاطَبِين، وضمير الغائب. والجملة جاءت على الترتيب. ﴿**وما أنتم**﴾ في محل رفع اسم ما. له متعلق بما بعده. ﴿**بخازنين**﴾ خبر ما جر بالحرف الزائد. ﴿**وإنا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لنحن**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**نحيى**﴾ فعل مضارع. والفاعل نحن.

وجملة نحيى خبر نحن. وجملة لنحن نحيى في محل رفع خبرُ إنّ. ﴿**ونميت**﴾ معطوف على نحيى. ﴿**ونحن الوارثون**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر

معطوفة على لنحن نحيى ونميت. ﴿**ولقد علمنا المستقدمين**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**منكم**﴾ متعلق بالمستقدمين. ﴿**ولقد علمنا المستأخرين**﴾ عطف على ولقد علمنا المستقدمين منكم. ﴿**وإن ربك**﴾ إن واسمها. والواو للعطف. ﴿**هو**﴾ ضمير فصل. ﴿**يحشرهم**﴾ فعل مضارع. والضمير المتصل به مفعول. والفاعل ضمير يعود على ربك. وجملة يحشرهم في محل رفع خبر إنّ. ﴿**إنه**﴾ إن واسمها. ﴿**حكيم عليم**﴾ خبرَانِ لإنّ. ﴿**ولقد خلقنا الإنسان**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**من صلصال**﴾ متعلق بخلقنا. ﴿**من حمإ**﴾ بيان لصلصال. ﴿**مسنون**﴾ نعت لحمإ.

﴿**والجان**﴾ منصوب بفعل مقدر. يفسره ﴿**خلقناه**﴾ من باب الاشتغال. ﴿**من قبل**﴾ متعلق بخلقناه. ﴿**من نار**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**السموم**﴾ مضاف إلى نار. ﴿**وإذ**﴾ ظرف متعلق بفعل أمر مقدر. ﴿**قال ربك**﴾ فعل وفاعل. والجملة مضاف إلى الظرف. للملائكة متعلق بقال. ﴿**إني**﴾ إنّ واسمها. ﴿**خالق**﴾ خبر إنّ. ﴿**بشرا**﴾ مفعول باسم الفاعل. ﴿**من صلصال من حمإ مسنون**﴾ متعلق بخالق. ﴿**فإذا سويته**﴾ جملة شرطية مفرعة على ما قبلها. ﴿**ونفخت**﴾ معطوف على سويته. ﴿**فيه من روحي**﴾ متعلقان بنفخت. ﴿**فقعوا**﴾ جواب الشرط. ﴿**له**﴾ متعلق به. ﴿**ساجدين**﴾ حال من واو الجماعة.

﴿**فسجد الملائكة**﴾ فعل وفاعل مرتب على ماقبله. ﴿**كلهم أجمعون**﴾ توكيد يعود على توكيد. ﴿**إلا إبليس**﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿**أبى**﴾ فعل ماضي. والفاعل ضمير يعود على إبليس. والجملة بيانية. ﴿**أن يكون**﴾ اسم يكون ضمير يعود على إبليس. ﴿**مع الساجدين**﴾ متعلق بمحذوف خبر يكون وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر متعلق بأبى أي: أبى من كونه داخلا مع الساجدين. ﴿**قال**﴾ الفاعل ضمير يعود على الله تعالى. ﴿**يا إبليس**﴾ منادى مبني على الضم في محل نصب. ﴿**ما**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. لك متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**ألا تكون مع الساجدين**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بنفي منفي بلا.

والمعنى: أي شئ كائن لك في عدم كونك مع الساجدين؟ .﴿**قال**﴾ الفاعل ضمير يعود على إبليس. ﴿**لم أكن**﴾ مجزوم بلم. واسم أكن ضمير المتكلم. وهو

إبليس. ﴿**لأسجد**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بمحذوف خبر أكن. والتقدير: لم أكن مهيئا للسجود. ﴿**لبشر**﴾ متعلق بأسجد. ﴿**خلقته**﴾ فعل وفاعل ومفعول. والجملة نعت لبشر. ﴿**من صلصال من حمإ مسنون**﴾ مثل سابقتها. ﴿**قال**﴾ الفاعل ضمير يعود على الله تعالى. ﴿**فاخرج**﴾ فعل أمر مرتب على ما قبله. ﴿**منها**﴾ متعلق باخرج. ﴿**فإنك**﴾ إن واسمها. ﴿**رجيم**﴾ خبرها. والفاء للتفريع. ﴿**وإن عليك**﴾ متعلق بمحذوف خبرُ إنّ مقدم ﴿**اللعنة**﴾ اسمها مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها ﴿**إلى يوم**﴾ متعلق بخبر إن ﴿**الدين مضاف إلى يوم**.

﴿**قال**﴾ إبليس. ﴿**رب**﴾ منادى حذف منه ياء النداء. وياء المتكلم تخفيفا. ﴿**فأنظرنى**﴾ فعل دعاء. والفاء للتفريع ﴿**إلى يوم**﴾ متعلق بأنظرنى. ﴿**يبعثون**﴾ فعل وفاعل مبنى للمجهول. وواو الجماعة نائب الفاعل. والجملة في محل جر مضافة إلى يوم. ﴿**قال**﴾ الله تعالى: ﴿**فإنك**﴾ إن واسمها. والفاء للتفريع. ﴿**من المنظرين**﴾ متعلق بمحذوف خبرُ إنّ. ﴿**إلى يوم**﴾ متعلق بالمنظرين. ﴿**الوقت**﴾ مضاف إلى يوم. ﴿**المعلوم**﴾ نعت للوقت. ﴿**قال**﴾ رب تقدم إعراب مثلها. ﴿**بما**﴾ متعلق بما بعد، ﴿**أغويتنى**﴾ فعل وفاعل ومفعول. والجملة صلة ما. ﴿**لأزيننّ**﴾ اللام للقسم. والفعل مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد. والفاعل ضمير المتكلم. وهو إبليس. ﴿**لهم في الأرض**﴾ متعلقان بلأزيننّ.

﴿**ولأغوينهم**﴾ معطوف على الفعل قبله. ﴿**أجمعين**﴾ توكيد للضمير المنصوب. والمعنى: لأزينن للناس الكفر والمعاصى ولأغوينهم أجمعين بسبب الإغواء الذى أغويتنى. ﴿**إلا عبادك**﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿**منهم**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**المخلصين**﴾ نعت لعبادك. ﴿**قال**﴾ الله تعالى: ﴿**هذا**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**صراط**﴾ خبره. ﴿**علىّ**﴾ متعلق بمحذوف نعت لصراط. ﴿**مستقيم**﴾ نعت ثان لصراط. ﴿**إن عبادى**﴾ إنّ واسمها. ﴿**ليس لك**﴾ متعلق بمحذوف خبر ليس. ﴿**سلطان**﴾ اسم ليس. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بسلطان. ﴿**إلا من**﴾ في محل نصب مستثنى بإلاّ. ﴿**اتبعك**﴾ صلة من. ﴿**من الغاوين**﴾ متعلق باتبعك. ﴿**وإن جهنم**﴾ إن واسمها. ﴿**لموعدهم**﴾ خبرُها. واللام لتوكيد الخبر. ﴿**أجمعين**﴾ توكيد للضمير المجرور. ﴿**لها**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم.

﴿**سبعة**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**أبواب**﴾ مضاف إلى سبعة. وجملة لها سبعة أبواب مستأنفة. ﴿**لكل باب**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف حال من جزء. ﴿**جزء**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**مقسوم**﴾ نعت لجزء. ﴿**إنّ المتقين**﴾ إنّ واسمها. ﴿**فى جنات**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**وعيون**﴾ معطوف على جنات. ﴿**ادخلوها**﴾ فعل أمر والواو فاعل والضمير المتصل بالفعل في محل نصب مفعول. وجملة ادخلوها مقول القول مقدر. ﴿**بسلام**﴾ متعلق بادخلوها. ﴿**آمنين**﴾ حال من واو الجماعة. ﴿**ونزعنا**﴾ فعل وفاعل. معطوف على قوله: إن المتقين في جنات وعيون. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول بنزعنا. ﴿**فى صدورهم**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما .﴿**من غل**﴾ بيان لما.

﴿**إخوانا**﴾ منصوب على حال من ضمير المتقين. ﴿**على سرر**﴾ متعلق بمحذوف حال كذلك. ﴿**متقابلين**﴾ حال بعد حال. ﴿**لا يمسهم**﴾ فعل مضارع منفى بلا. ﴿**فيها**﴾ متعلق به. نصبٌ فاعل. ﴿**وما**﴾ بمعنى ليس. ﴿**هم**﴾ اسم ما. ﴿**منها**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**بمخرجين**﴾ خبر ما جُرَّ بالحرف الزائد. والجملة معطوفة على قوله: لا يمسهم فيها نصب. ﴿**نبّئ**﴾ فعل أمر. ﴿**عبادى**﴾ مفعول نبّئ. ﴿**أنّى**﴾ أنّ واسمها. ﴿**أنا**﴾ ضمير فصل. ﴿**الغفور الرحيم**﴾ خبرَانِ لأنّ وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مُقدر. ﴿**وأن عذابى هو العذاب الأليم**﴾ معطوف على أنى أنا الغفور الرحيم. وهو مثله في الإعراب.

﴿**ونبئهم**﴾ معطوف على نبئ عبادى. ﴿**عن ضيف**﴾ متعلق بفعل الأمر. ﴿**إبراهيم**﴾ مضاف إلى ضيف مجرور بالفتحة. ﴿**إذْ دَخلوا**﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف... وهو متعلق بفعل مقدر. ﴿**عليه**﴾ متعلق بدخلوا. ﴿**فقالوا**﴾ مرتب على دخلوا. ﴿**سلاما**﴾ مفعول مطلق بفعل مقدر. ﴿**قال**﴾ إبراهيم. ﴿**إنا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**منكم**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**وجلون**﴾ خبرُ إنّ مرفوع بالواو .﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**لاتوجل**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية. والفاعل ضمير المخاطب. ﴿**إنا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**نبشرك**﴾ فعل مضارع. والضمير المتصل مفعول به. والفاعل نحن. وجملة نبشرك خبر إنّ. ﴿**بغلام**﴾ متعلق بنبشرك. ﴿**عليم**﴾ نعت لغلام.

﴿**قال**﴾ إبراهيم. ﴿**أبشرتمون**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف

الاستفهام. ﴿**على أن مسنى الكبر**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بعلى متعلق بالفعل قبله. ﴿**فبم**﴾ الفاء للتعقيب. وما اسم استفهام دخل عليها حرف الجر فحذف ألفها. ﴿**تبشرونى**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**قالوا: بشرناك**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**بالحق**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**فلا تكن**﴾ مجزوم بلا. والفاء للتعقيب. واسم تكن ضمير المخاطب. ﴿**من القانطين**﴾ متعلق بمحذوف خبر تكن. ﴿**قال**﴾ إبراهيم ﴿**ومن**﴾ استفهام بمعنى النفى. ﴿**يقنط**﴾ فعل مضارع. ﴿**من رحمة**﴾ متعلق بيقنط. ﴿**ربه**﴾ مضاف إلى رحمة. ﴿**إلا الضالون**﴾ فاعل يقنط.

﴿**قال**﴾ إبراهيم. ﴿**فما**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. والفاء للترتيب. ﴿**خطبكم**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**أيها**﴾ منادى مبنى على الضم. ﴿**المرسلون**﴾ نعت لأى. ﴿**قالوا: إنا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أرسلنا**﴾ فعل ماضى مبنى للمجهول. وضمير المتكلمين نائب الفاعل. ﴿**إلى قوم**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**مجرمين**﴾ نعت لقوم. ﴿**إلا آل**﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿**لوط**﴾ مضاف إلى آل. ﴿**إنا**﴾ إن واسمها. ﴿**لمنجوهم**﴾ خبرّ إن مرفوع بالواو. والضمير فيه مضاف إليه. واللام لتوكيد الخبر. ﴿**أجمعين**﴾ توكيد للضمير المجرور. ﴿**إلا امرأته**﴾ مستثنى بإلا. ﴿**قدرنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إنها**﴾ إن واسمها.

﴿**لمن الغابرين**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. واللام مؤكدة. ﴿**فلما**﴾ الفاء للتفريع. ولما ظرف متضمن معنى الشرط. ﴿**جاء**﴾ فعل الشرط. ﴿**آل**﴾ مفعول به. ﴿**لوط**﴾ مضاف إلى آل. ﴿**المرسلون**﴾ فاعل جاء. ﴿**قال: إنكم**﴾ إن واسمها ﴿**قوم**﴾ خبرها. ﴿**منكرون**﴾ نعت لقوم. وجملة قال إنكم... جواب الشرط. وجملة إنكم... مقول القول قالوا: ﴿**بل**﴾ حرف إضراب. ﴿**جئناك**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**بما**﴾ متعلق بجئناك. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**فيه**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**يمترون**﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل نصب خبر كان.

﴿**وأتيناك بالحق**﴾ معطوف على جئناك بما... ﴿**وإنا لصادقون**﴾ إن واسمها وخبرها معطوفة على قوله: بل جئناك بما كانوا فيه يمترون. ﴿**فاسر**﴾ فعل أمر مفرع على ما قبله. ﴿**بأهلك**﴾ متعلق باسر. ﴿**بقطع**﴾ كذلك. ﴿**من الليل**﴾ متعلق بمحذوف نعت لقطع. واتبع معطوف على اسر. ﴿**أدبارهم**﴾ مفعول به. ﴿**ولا**

يلتفت منكم أحد﴾ جملة النهى معطوفة على جملة الأمر. ﴿**وامضوا﴾** معطوف على ما قبله ﴿**حيث﴾** ظرف مبنى على الضم في محل نصب متعلق بامضوا. ﴿**تؤمرون﴾** فعل مضارع مبنى للمجهول وواو الجماعة نائب الفاعل. والجملة في محل جر مضافة إلى حيث.

﴿**وقضينا﴾** فعل وفاعل. والواو للعطف. ﴿**إليه﴾** متعلق بقضينا. ﴿**ذلك﴾** في محل نصب مفعول قضينا. ﴿**الأمر﴾** عطف بيان. ﴿**أن دابر﴾** أن واسمها. ﴿**هؤلاء﴾** مبنى على الكسر في محل جر مضاف إلى دابر. ﴿**مقطوع﴾** خبر أنّ ﴿**مصبحين﴾** حال من هؤلاء. وجملة أن دابر هؤلاء تفسيرية. ﴿**وجاء أهل﴾** فعل وفاعل. والواو للعطف. ﴿**المدينة﴾** مضاف إلى أهل. ﴿**يستبشرون﴾** فعل وفاعل. والجملة حال من أهل. ﴿**قال﴾** لوط: ﴿**إن هؤلاء﴾** إنّ واسمها. ﴿**ضيفى﴾** خبرُ إنّ. مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم.

﴿**فلا تفضحونى﴾** فعل مضارع مجزوم بلا الناهية. وواو الجماعة فاعل. والنون للوقاية. وياء المتكلم في محل نصب مفعول حذفت تخفيفا. والفاء للتعقيب. ﴿**واتقوا الله ولا تخزونى﴾** معطوفان على ما قبلهما. ﴿**قالوا: أو لم ننهك﴾** الهمزة للاستفهام. والواو للعطف. ولم للنفى والجزم. وننهك مجزوم بحذف الألف. والفاعل نحن. والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**عن العالمين﴾** متعلق بننهك. ﴿**قال لوط: ﴿هؤلاء﴾** مبنى على الكسر في محل رفع مبتدأ.

﴿**بناتى﴾** خبر المبتدإ. مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم. ﴿**إن كنتم ﴿فاعلين﴾** الجملة من كان واسمها وخبرها فعل الشرط. وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله. ﴿**لعمرك﴾** صيغة قسم بعمر النبئ ﷺ مبتدأ. وخبره محذوف. أى: لعمرُك قسمى. ﴿**إنهم﴾** إنّ واسمها. ﴿**لفى سكرتهم﴾** متعلق بخبر إنّ: ﴿**يعمهون﴾** فعل وفاعل. وجملة إنهم جواب القسم. ﴿**فأخذتهم الصيحة﴾** فاعل أخذت. والجملة مرتبة على قوله: وقضينا إليه ذلك الأمر... والجمل التي بينهما معترضة. ﴿**مشرقين﴾**. حال من الضمير المنصوب.

﴿**فجعلنا﴾** فعل وفاعل. والفاء للتعقيب. ﴿**عاليها﴾** مفعول أول. ﴿**سافلها﴾** مفعول ثان. ﴿**وأمطرنا﴾** معطوف على جعلنا. ﴿**عليهم﴾** متعلق بأمطرنا. ﴿**حجارة﴾** مفعول به. ﴿**من سجيل﴾** متعلق بمحذوف نعت لحجارة. ﴿**إن في**

﴿ذلك﴾ متعلق بمحذوف خبر إن. **﴿لآيات﴾** اسم إنّ. **﴿للمتوسمين﴾** متعلق بآيات. **﴿وإنها﴾** إن واسمها. **﴿لبسبيل﴾** متعلق بمحذوف خبر إنّ. **﴿مقيم﴾** نعت لسبيل. **﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾** مثل إعراب إن في ذلك لآيات للمتوسمين. **﴿وإن﴾** مخففة من الثقيلة اسمها ضمير الشأن. **﴿كان أصحاب﴾** كان واسمها. **﴿الأيكة﴾** مضاف إلى أصحاب. **﴿لظالمين﴾** خبر كان. وجملة كان أصحاب الأيكة لظالمين في محل رفع خبرُ إن المخففة من الثقيلة.

﴿فانتقمنا﴾ مفرع على ما قبله. **﴿منهم﴾** متعلق بانتقمنا. **﴿وإنهما﴾** إن واسمها. **﴿لبإمام﴾** متعلق بمحذوف خبر إنّ. **﴿مبين﴾** نعت لإمام. **﴿ولقد كذب أصحابُ﴾** فعل وفاعل. **﴿الحجر﴾** مضاف إلى أصحاب. **﴿المرسلين﴾** مفعول به. **﴿وآتيناهم﴾** فعل وفاعل ومفعول. آياتنا مفعول ثان. **﴿فكانوا﴾** كان واسمها. **﴿عنها﴾** متعلق بما بعده: **﴿معرضين﴾** خبر كان. والجملة مرتبة على ما قبلها. **﴿وكانوا ينحتون﴾** الجملة من كان واسمها وخبرها معترضة. **﴿من الجبال﴾** متعلق بينحتون. **﴿بيوتا﴾** مفعول به. **﴿آمنين﴾** حال من ضمير الجماعة. **﴿فأخذتهم﴾** فعل ماضى مرتب على ماقبله. والضمير المتصل به مفعول. **﴿الصيحةُ﴾** فاعل.

﴿مصبحين﴾ حال من الضمير المنصوب. **﴿فما أغنى﴾** فعل ماضى دخل عليه حرف النفى وفاء التعقيب. **﴿عنهم﴾** متعلق بأغنى. **﴿ما﴾** في محل رفع فاعل أغنى. **﴿كانوا﴾** كان واسمها. **﴿يكسبون﴾** فعل وفاعل. والجملة في محل نصب خبر كان. وجملة كانوا يكسبون صلة ما. **﴿وما خلقنا السماوات﴾**، فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف النفى وواو العطف. **﴿والأرض﴾** معطوف على السماوات. وما كذلك. **﴿بينهما﴾** متعلق بمحذوف صلة ما. **﴿إلا بالحق﴾** متعلق بخلقنا. **﴿وإن الساعة﴾** إن واسمها والواو عاطفة. **﴿لآتيةٌ﴾** خبرُ إنّ. واللام لتوكيد الخبر. **﴿فاصفح﴾** فعل أمر. مفرع على ما قبله. **﴿الصفح﴾** مفعول مطلق. **﴿الجميل﴾** نعت له. **﴿إنّ ربّك﴾** إن واسمها. **﴿هو﴾** ضمير فصل. **﴿الخلاق﴾** العليم خبرَانِ لإنّ.

﴿ولقد آتيناك﴾ فعل وفاعل ومفعول. والواو للعطف. **﴿سبعا﴾** مفعول ثان. **﴿من المثانى﴾** متعلق بمحذوف نعت لسبع. **﴿والقرآن﴾** معطوف عليه. **﴿العظيم﴾** نعت القرآن. **﴿لاتمدن﴾** فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد. في

محل جزم بلا الناهية. والفاعل ضمير المخاطب. ﴿**عينيك**﴾ مفعول به. ﴿**إلى ما**﴾ متعلق بلاتمدن. ﴿**متعنا**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**به**﴾ متعلق به. ﴿**أزواجا**﴾ مفعول به. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لأزواج. ﴿**ولا تحزن**﴾ معطوف على النهى قبله. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**واخفض**﴾ فعل أمر معطوف على النهى. ﴿**جناحك**﴾ مفعول به. ﴿**للمؤمنين**﴾ متعلق باخفض. ﴿**وقل**﴾ معطوف كذلك.

﴿**إنى**﴾ إن واسمها. ﴿**أنا**﴾ ضمير فصل. ﴿**النذير**﴾ خبرُ إنّ. ﴿**المبين**﴾ نعت للنذير. ﴿**كما**﴾ الكاف في محل نصب نعت لمصدر محذوف. وما مصدرية. ﴿**أنزلنا**﴾ فعل وفاعل. وما وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بالكاف. ﴿**على المقتسمين**﴾ متعلق بأنزلنا. ﴿**الذين**﴾ نعت للمقتسمين مبنى على صورة جمع المذكر. . . في محل جر. ﴿**جعلوا القرآن**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**عضين**﴾ مفعول ثانٍ. وجملة جعلوا صلة الذين. ﴿**فوربك**﴾ صيغة قسم دخل عليها فاء التفريع. ﴿**لنسألنهم**﴾ فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد واللام واقع في جواب القسم. والضمير المتصل بالفعل مفعول. والفاعل نحن. ﴿**أجمعين**﴾ توكيد للضمير المنصوب. ﴿**عما**﴾ متعلق بنسألنّهم.

﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يعملون**﴾ فعل وفاعل. والجملة خبر كان. وجملة كانوا يعملون صلة ما. ﴿**فاصدع**﴾ فعل أمر تعقيب على ما قبله. ﴿**بما**﴾ متعلق باصدع. ﴿**تؤمر**﴾ فعل مضارع مبنى للمجهول. ونائب الفاعل ضمير المخاطب. ﴿**وأعرض**﴾ معطوف على اصدع. ﴿**عن المشركين**﴾ متعلق بأعرض. ﴿**إنا**﴾ إن واسمها. ﴿**كفيناك**﴾ فعل وفاعل ومفعول. والجملة خبر إنّ. ﴿**المستهزئين**﴾ مفعول ثان بكفيناك. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب نعت للمستهزئين. ﴿**يجعلون**﴾ صلة الذين. ﴿**مع**﴾ متعلق بيجعلون. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى الظرف. ﴿**إلها**﴾ مفعول به. ﴿**آخر**﴾ نعت لإله. ﴿**فسوف يعلمون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التسويف وفاء التفريع. ﴿**ولقد نعلم**﴾ عطف على جملة إنا كفيناك المستهزئين. ﴿**أنك**﴾ أن واسمها. ﴿**يضيق صدرك**﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل رفع خبرُ أن. ﴿**بما**﴾ متعلق بيضيق. ﴿**يقولون**﴾ صلة ما. ﴿**فسبح**﴾ مفرع على ما قبله. ﴿**بحمد**﴾ متعلق بسبح. ﴿**ربك**﴾ مضاف إلى حمد. ﴿**وكن**﴾ معطوف على سبح. ﴿**من**

الساجدين﴾ متعلق بمحذوف خبر كن. واسمها ضمير المخاطب. **﴿واعبد﴾** كذلك. **﴿ربك﴾** مفعول به. **﴿حتى يأتيك﴾** فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى. **﴿اليقين﴾** فاعل يأتي. وحتى جرت المصدر المؤول. أي: واعبد ربك إلى إتيان اليقين ـ النصر الحق.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿ألر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾: وجه تسمية هذه السورة بسورة الحجر أن اسم الحجر لم يذكر في غيرها. ووجه الربط بالسورة التي قبلها قوله: هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب... فقوله هنا: تلك آيات الكتاب وقرآن مبين إشارة إلى البلاغ الذى أنذر به الكافرون وذُكّر به أولوا الألباب المؤمنون... فاتفاق الانتهاء والابتداء فيه واضح. وابتداء كل منهما بالحروف الهجائية: أ ـ ل ـ ر. كذلك. والمقصد من هذه السورة التحدى بإعجاز هذا القرآن المؤلف من حروف العرب وفحوى كلامهم في خطبهم وأشعارهم ومحاوراتهم... فهو إنذار وتهديد وتوبيخ لهم حيث شغلهم المتاع وألْهَاهم الأمل عن تذكر ما في هذا الكتاب من حقائق ربما يعرفونها في زمن قريب عندما لا يجديهم هذا: **﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾**... فما عليك أيها الرسول إلا أن تتركهم وما هم فيه **﴿ذرْهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون...﴾** فأمرُهم هذا ليس بغريب ولا عجيب؛ لأن قرى كثيرة سارت في طريق الضلال مثلهم وجاءتهم الرسل بالكتب التي فيها هدايتهم فلم يهتدوا بها فحقّت عليهم الكلمة التي استأصلت شافتهم: **﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون...﴾** فلكل أمة رسول ولكل أمة كتاب ولكل أمة أجل... فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون... ساعة ولا يستقدمون.

﴿وقالوا ياأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾: هذه مقالتهم التي دلت على شدة كفرهم وتعنتهم وتكذيبهم بهذا الكتاب الذى جاءهم يحذرهم وينذرهم من مغبة ما هم فيه من ملذات وشهوات... فلم يلتفتوا إليه ولم يهتموا بما فيه... فقالوا ما قالوا وزادوا عليه: **﴿لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾**. والجملة هذه استدلال على ما اقتضته الجملة قبلها، باعتبار أن

المقصود منها تكذيب الرسول والمراد بالإتيان بالملائكة حضورهم عندهم ليخبرهم بصدقه... وعبارة إن كنت من الصادقين أقوى من عبارة إن كنت صادقا. أى من الناس الذين وَصْفهم الصدْق.

﴿ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين﴾: هذه الآية جاءت جواباً لقولهم... وردا لشبهاتهم ومقترحاتهم... وابتدئ في الجواب بإزالة شبهتهم إذ قالوا: لو ما تأتينا بالملائكة... أريد منه إزالة جهالتهم إذ سألوا نزول الملائكة علامة على التصديق... فأعلمهم أن نزول الملائكة لايكون إلا بالحق الذى يستحقون. وهو ما دل عليه قوله: وما كانوا إذاً منظرين! ..**﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**: استئناف ابتدائي لإبطال جزء من كلامهم المستهزئين به، إذ قالوا: ياأيها الذي نزّل عليه الذكر إنّك لمجنون، بعد أن عجل كشف شبهتهم في قولهم: لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين.

جاء نشر الجوابين على عكس لف المقالين، اهتماما بالابتداء برد المقال الثانى بما فيه من الشبهة بالتعجيز. والإفحام... ثم ثُنى العِنانُ إلى رد تعريضهم بالاستهزاء وسؤال رؤية الملائكة. وكان هذا الجواب من نوع القول بالموجب بتقرير إنزال الذكر على الرسول مجاراة لظاهر كلامهم. والمقصود الرد عليهم في استهزائهم... فأكد الخبر بإنّا مع ضمير الفصل، مع موافقته لما في الواقع... ثم زاد ذلك ارتقاء ونكاية لهم بأن منزل الذكر هو حافظه من كيد الأعداء. وشمل حفظُه الحفظَ من التلاشى... والحفظ من الزيادة والنقصان فيه... فقد يستر تواتره كتابة وحفظا من عهد الصحابة إلى يومنا هذا والقرآن مسموع ومقروء ومحفوظ.

رغم كثرة المحاولين للتغيير والتبديل كما هو مشاهد ملحوظ. وفى هذا مع النوبه بشأن القرآن إغاضة للكافرين بأن أمر هذا الدين سيتم وينتشر القرآنُ على مَرِّ الأزمان... فهذا الكلام من التعجيز والتحدى بمكان! ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين. وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون: هذه الآية والآية التي بعدها... وصلتا بالعطف على قوله: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** باعتبار أن تلك جواب عن استهزائهم في قولهم: ياأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون... فإن جملة إنا نحن نزلنا الذكر قول بموجب قولهم: يا أيها الذى نزل

عليه الذكر... وجملة ﴿**ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين**﴾ إبطال لاستهزائهم على طريقة التمثيل بنظرائهم من الأمم السالفة... وفي هذا التنظير تحقيق لكفرهم؛ لأن كفر أولئك السالفين مقرر عند الأمم ومتحدث به بينهم.

وفيه أيضا تعريض بوعيد أمثالهم. وإدْماج بالكناية عن تسلية الرسول ﷺ والتأكيد بلام القسم وقد لتحقيق سبق الإرسال من الله، مثل الإرسال الذى جحدوه واستعجبوه وكانوابه يستهزءون يدل على تكرر ذلك منهم وأنه سنتهم... فكان دلّت على أنه سجيّةٌ لهم. والمضارع دل على تكرره منهم. وتقديم المجرور على يستهزءون يفيد القصر للمبالغة... ﴿**كذلك نسلكه في قلوب المجرمين. لايؤمنون به وقد خلت سنة الاولين**﴾: فصل الكلام عما قبله فلم يعطف؛ لأنه مستأنف استئنافا بيانيا ناشئا عن جملة وإنا له لحافظون... فقد يخطر بالبال أن حفظ الذكر يقتضى أنه لا يكفر به من كفر... فأجيب بأن ذلك عقاب من الله لهم لإجرامهم... وتلقيهم الحق بالسخرية وعدم التدبر ..ولأجل ذلك اختير لهم وصف المجرمين... والتعبير بصيغة المضارع في نسلكه للدلالة على أن المقصود إسلاك في زمن الحال... وفيه تعريض بأن ذلك إعذار لهم ليحل بهم العذاب كما حل بمن قبلهم. والمشار إليه بقوله كذلك هو السلك المأخود من نسلكه.

والمعنى: مثل السلك الذى سنصفه نسلك الذكر في قلوب المجرمين. فإنهم يسمعونه ويفهمونه؛ إذ هو من كلامهم، ويدركون خصائصه؛ ولكنه لا يستقرُّ في عقولهم استقرار تصديق به؛ بل هم مكذبون به. وبهذا السلوك تقوم الحجة عليهم بتبليغ القرآن إليهم... فضمير نسلكه وبه عائدان إلى الذكر في قوله: إنا نحن نزلنا الذكر... وجملة لا يؤمنون به بيان للسلك المشبه به. وجملة وقد خلت سنة الأولين معترضة بين جملة لا يؤمنون به وجملة ولو فتحنا عليهم بابا من السماء... إلخ. والكلام تعريض بالتهديد بأن يحل بهم ما حل بالأمم الماضية معاملة للنضير بنضيره؛ لأن كون سنة الأولين مضت أمر معلوم غير مفيد ذكره. فكان الخبر مستعملا في لازمه بقرينة تعذر الجمل على أصل الخبرية. وإضافة السنة إلى الأولين باعتبار تعلقها بهم، وإنما هى سنة الله فيهم لأنها المقصود هنا. والإضافة لأدنى ملابسه.

﴿**ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت**

أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾: هذه الآية متصلة بالعطف على قوله: لا يؤمنون به... فهو كلام جامع لإبطال جميع معاذيرهم من قولهم: لو ما تأتينا بالملائكة... وقولهم إنك لمجنون، بأنهم لا يطلبون الدلالة على صدقه؛ لأن دلائل الصدق بيّنة، ولكنهم ينتحلون المعاذير المختلفة. وفى كلمتى الحصر ـ إنما سكرت... والإضراب ـ بل نحن... دلالة على أنهم يبتون القول بذلك، وأن ما يرونه لا حقيقة له، وإنما هو أمر خيل إليهم بالسحر. وفى إسميه جملة بل نحن قوم مسحورون دلالة على دوام مضمونها. وإيرادها بعد تسكير الأبصار لبيان إنكارهم لغير ما يرونه... فهم مصممون على تكذيب الرسول مهما جاءهم بما اقترحوا كما قال قوم فرعون لموسى: مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين.

﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم. إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾: لما جرى الكلام السابق في شأن تكذيب المشركين برسالة محمد ﷺ وما توركوا به في ذلك، وكان الأصل الأصيل الذى بنوا عليه صرح التكذيب أصلين: هما إبطال إلهية أصنامهم. وإثباته البعث، انبرى القرآن يبين لهم دلائل تفرد الله تعالى بالإلهية... فذكر الدلائل الواضحة من خلق السماوات والأرض... ثم أعقبها بدلائل إمكان البعث من خلق الحياة والموت وانقراض أمم وخلفها بأخرى... وصادف ذلك مناسبة ذكر فتح أبواب السماء في تصوير غلوائهم لعنادهم... فكان الانتقال إليه تخلصا بديها. وفيه ضرب من الاستدلال على مكابرتهم... فإنهم لو أرادوا الحق لكان لهم في دلالة ما هو منهم غنية عن تطلب خوارق العادات.

والخبر مستعمل في التذكير والاستدلال؛ لأن مدلول هذه الأخبار معلوم لديهم. وافتتح الكلام بلام القسم وحرف التحقيق تنزيلا للمخاطبين الذاهلين عن الاستدلال بذلك منزلة المتردد... فأكد لهم الكلام بمؤكدين. ومرجع التأكيد إلى تحقيق الاستدلال، وإلى الإلجاء إلى الإقرار بذلك. وأطلق البرج على بقعة معينة من سمت طائفة من النجوم. وسماها العرب بروجا ودارات على سبيل الاستعارة المجعولة سببا لوضع الاسم. وضبطوا هذه المنازل وجعلوها علامة على الفصول السنة الشمسية... فلذلك أقام القرآن الاستدلال بالبروج على عظيم قدرته وانفراده

بالخلق؛ لأنهم قد عرفوا دقائقها ونظامها الذى تهيأت به لأن تكون وسيلة ضبط المواقيت بحيث لا تُخلف ملاحظة راصدها. وما خلقها الله بتلك الحالة إلا ليجعلها صالحة لضبط المواقيت.

كما قال تعالى: لتعلموا عدد السنين والحساب... ثم ارتقى في الاستدلال بكون هذه البروج العظيمة الصنع قد جعلت بأشكال تقع موقع الحسن في النظار... فكانت زينة للناظرين يتمتعون بمشاهدتها في الليل... فكانت الفوائد منها عديدة. وأما قوله: وحفظناها من كل شيطان رجيم؛ فهو إدماج للتعليم في أثناء الاستدلال. وفيه التنويه بعصمة الوحى من أن يتطرقه الزيادة والنقص؛ بأن العوالم التي يصدر منها الوحى ويتنقل فيها محفوظة من العناصر الخبيثة... فهو مرتبط بقوله: . وإنا له لحافظون. لاستراق السمع سرقته. صيغ وزن الافتعال للتكلف. وأتبعه بمعنى تبعه. والهمزة زائدة مثل همزة أبان... فالشياطين والكهان محرومون من الاطلاع على الغيب مطرودون مرجومون بالشهب الدافعة الحارقة فلا مجال لعلم الغيب إلا من طريق الوحى الذى ختمت به رسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿**والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون**﴾.

﴿**وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين**﴾: انتقال من الاستدلال بالآيات السماوية إلى الاستدلال بالآيات الأرضية لمناسبة المضادة. والموزون مستعار للمقدر المضبوط. والمعائش كل ما يعيش به الإنسان من مأكل ومشرب... وهو معطوف على ما قبله داخل في حكم الشئ الموزون. ومن لستم له برازقين عطف على الضمير المجرور في لكم. وهى الموجودات التي تقتات من نبات الأرض ولا يعقلها الناس ومعنى لستم له برازقين نفى أن يكونوا رازقيه. والرَّزق مصدر رزق. بمعنى اطعم... والرِّزق القوت. ﴿**وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم**﴾: الخزائن تمثيل لصلوحية القدرة الإلهية لتكوين الأشياء النافعة... شبهت هيئة إيجاد الأشياء النافعة بهيئة إخراج المخزونات من الخزائن على طريقة التمثيلية المكنية. ورمز إلى الهيئة المشبه بها بما هو من لوازمها وهو الخزائن.

وقوله: وما ننزله إلا بقدر معلوم أطلق الإنزال على تمكين الناس من الأمور التي خلقها الله لنفعهم إطلاقا مجازيا... وهذا بيان لبالغ الحكمة. وهو اختصاص

كل بما قُدّر له. وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد ﴿**وأرسلنا الرياح لواقح**﴾: انتقال من الاستدلال بظواهر السماء وظواهر الأرض إلى الاستدلال بظواهر كرة الهواء الواقعة بين السماء والأرض. وذلك للاستدلال بفعل الرياح، والمنة بما فيها من الفوائد. والإرسال مجاز في نقل الشئ من مكان إلى مكان. ولواقح جمع لاقح. وهى الناقة الحبلى. واستعمل هنا استعارة للريح المشتملة على الرطوبة التي تكون سببا في نزول المطر، كما استعمل في ضدها العقيم... وفرع قوله: ﴿**فأنزلنا من السماء ماء على قوله**﴾: وأرسلنا الرياح لواقح.

و﴿**أسقيناكموه**﴾ بمعنى جعلناه لكم سقيا، فالهمزة فيه للجعل... وهو مرتب على ما قبله. وقوله: ﴿**وما أنتم له بخازنين**﴾ هو نفى لما أثبته لنفسه بقوله: وإن من شئ إلا عندنا خزائنه... فأنتم لستم بقادرين على إنشائه من السماء وخزنه في الأرض... بل نحن ننشئه ونخزنه ونفرقه على قدر الحاجة. ﴿**وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون**﴾: لما جرى ذكر إنزال المطر، وكان مما يسبق إلى الأذهان عند ذكر المطر إحياء الأرض به، ناسب أن يذكر بعده جنس الإحياء كله؛ لما فيه من غرض الاستدلال على الغافلين عن الوحدانيّة؛ ولأن فيه دليلا على إمكان البعث. والمقصود ذكر الإحياء. ولذلك قدم. وذكر الإماته للتكميل. والجملة عطف على جملة ولقد جعلنا في السماء بروجا للدلالة على القدرة وعموم التصرف. وضمير نحن ضمير فصل. دخلت عليه لام الابتداء. وأكد الخبر بإنّ واللام وضمير الفصل لتحقيقه.

وتنزيلا للمخاطبين في إشراكهم منزلة المنكرين للإحياء والإماتة. والمراد بالإحياء تكوين الموجودات التي فيها الحياة، وإحياؤها أيضا بعد فناء الأجسام. وقد أدمج في الاستدلال على تفرد الله تعالى بالتصرف إثبات البعث ودفع استبعاد وقوعه واستحالته. ولما كان المشركون منكرين نوع من الإحياء كان توكيد الخبر مستعملا في معنييه الحقيقى والتنزيلى. وجملة ونحن الوارثون عطف على جملة وإنا لنحن نحيى ونميت. ومعنى الإرث هنا البقاء بعد الموجودات تشبيها للبقاء بالإرث وهو أخذ ما يتركه الميت من أرض وغيرها.

﴿**ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين**﴾: لما ذكر الإحياء والإماتة، وكان الإحياء يذكر بالأحياء، وكانت الإماتة تذكر بالموات الماضين

تخلص من الاستدلال بالإحياء والإماتة على عظم القدرة إلى الاستدلال بلازم ذلك على عظم علم الله. وهو علمه بالأمم البائدة وعلم الأمم الحاضرة. . . فأريد بالمستقدمين الذين تقدموا الأحياء إلى الموت. . . فالتقدم فيه بمعنى المضى، وبالمستأخرين الذين تأخروا. وهم الباقون بعد انقراض غيرهم إلى أجل يأتى. والسين والتاء في الوصفين للتأكيد. . . وجملة ﴿**وإن ربك هو يحشرهم**﴾ نتيجة هذه الأدلة من قوله: وإنا لنحن نحيى ونميت. . . فإن الذى يحيى الحياة الأولى قادر على الحياة الثانية بالأوْلى. والذى قدر الموت ما قدره عبثا بعد أن أوجد الموجودات الا لتستقبلوا حياة أبدية. ولولا ذلك لقدر الدوام على الحياة الأولى.

وللإشارة إلى هذه المعنى من حكمة الإحياء والإماتة أتبعه بقوله: ﴿**إنه حكيم عليم**﴾ تعليلا لجملة وإن ربك هو يحشرهم؛ لأن شأن إنّ إذا جاءت في غير معنى الرد على المنكر أن تفيد معنى التعليل والربط بما قبلها. والحكيم الموصوف بالحكمة البالغة. . . والعليم الموصوف بالعلم العام الشامل البالغ غاية الدقة. . . فقد أكدت جملة وإن ربك. . . بحرف التوكيد وضمير الفصل لرد إنكارهم الشديد للحشر. وقد أسند الحشر إلى الله بعنوان كونه رب محمد تنويها بشأن النبئ؛ لأنهم كذبوه في الخبر عن البعث. . . ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون**﴾: تكملة لإقامة الدليل على انفراده تعالى بخلق أجناس العوالم وما فيها. . . ومنه يتخلص إلى التذكير بعداوة الشيطان للبشر، ليأخذوا حذرهم منه، ويحاسبوا أنفسهم على ما يخامرها من وسواسه بما يرديهم. . . جاء بمناسبة ذكر الإحياء والإماتة. . . فإن أهم الإحياء هو إيجاد النوع الانسانى. . . ففى هذا الخبر استدلال على عظيم القدرة والحكمة وعلى إمكان البعث، وموعظة وذكرى. . . والمراد بالإنسان آدم.

والمقصود من ذكر الأشياء التي خلق منها آدم التنبيه على عجيب صنع الله تعالى؛ إذ أخرج من هذه الأشياء المهينة التي لا تصلح أن تكون سببا للحياة نوعا هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحياة. . . وتوكيد الجملة بلام القسم وبحرف قد لزيادة التحقيق تنبيها على أهمية هذا الخلق، وأنه بهذه الصفة. وعطف جملة ﴿**والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم**﴾ إدماج وتمهيد إلى بيان نشأة العداوة بين بنى آدم وإبليس وجنده. . . وأكدت جملة والجان خلقناه بصيغة الاشتعال التي هى

تقوية للفعل بتقدير نظيره المحذوف... ولما فيها من الاهتمام بالإجمال ثم التفصيل لمثل الغرض الذى أكدت به جملة ولقد خلقنا الانسان... إلخ.

فهذه الحرارة المفرطة التي خلق منها الجان أبعد ما تكون أن يكون منها خلقا عاقلا مكلفا بالأوامر والنواهى يعلم الخير من الشر والإيمان والكفر... ويدرك حقيقة الأشياء ليستدر بها على فضليته وخبريته كما صرح بذلك إبليسُ نفسُه... ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبَىٰ أن يكون مع الساجدين**﴾: عطف قصة على قصة... وإذ معمول لفعل اذكر... وقد تقدم الكلام في نظائره في سورة البقرة وفى سورة الأعراف. والملائكة خلق من خلق الله من عالم الغيب لا يُعْلَمُ إلا من طريق الوحى إلى الرسول.

وقد فهم الملائكة حقيقة هذا الإنسان بما قص الله عليهم من وصفه وعمله من قوله وفعله... بالمعنى الذى عبر عنه في القرآن بالعبارة الجامعة لذلك المعنى. وليس لنا مصدر عن علمنا بالملائكة إلا ما جاء عن طريق القرآن الكريم. وإنما ذكر للملائكة المادة التي خلق منها البشر ليعلموا أن شرف الموجودات بمزاياها لا بمادة تركيبها... وإسناد النفخ وإضافة الروح إلى ضمير اسم الله تنويه بهذا المخلوق. ومعنى فقعوا له ساجدين. خروا له ساجدين وهذا تمثيل لتعظيم يناسب أحوال الملائكة وأشكالهم تقدير البديع الصنع والصلاحية لمختلف الأحوال الدال على تمام علم الله وعظيم قدرته.

وقوله: فسجد الملائكة كلهم أجمعون عنوان على طاعة الملائكة. وكلهم أجمعون تأكيد على تأكيد. وقوله إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين بيان لقوله في سورة البقرة ،، واستكبر ،،؛ لأنه أبى أن يسجد وأن يساوى الملائكة في الرضى بالسجود... فدل هذا على أنه عصى وأنه ترفع عن متابعة غيره. ﴿**قال ياإبليس مالك أن لاتكون مع الساجدين**﴾: هذا استفهام توبيخ وتقريع من الله تعالى. ﴿**قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون**﴾: جاء رد إبليس بصيغة لم أكن لأسجد وهو أبلغ وأشد في النفى من لا أسجد؛ لأنه نص قاطع في الجحود.

وقوله لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون تأييد لإبايته من السجود بأن المخلوق من ذلك الطين حقير ذميم ليستأهل السجود. **﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم﴾**: تفريع على جوابه المنبئ عن كفره وعدم تأهله للبقاء في الرتبة الشريفة... فالفاء في قوله: فإنك رجيم دالة على سبب إخراجه من رتبة الملائكة. وإن مؤذنة بالتعليل. والرجيم المطرود. وهو كناية عن الحقارة... **﴿وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾**: كلمة عليك تدل على التمكين والثبات الذى لايمكن لمن كان تحته التملص والانفكاك. وجُعل يوم الدين غاية للعين استعمالا في معنى الدوام.

﴿قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون﴾: خاطب الله بصفة الربوبية تخضّعا وحثّا على الإجابة. والفاء في فأنظرنى فاء التفريع. **﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾**: ورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعاً لهم في ذلك دليل على أنه إخبار بالإنضار المقدر لهم أزلا، لاإنشاء لإنضار خاص به وقع إجابة لدعائه. وعبر عن يوم البعث بيوم الوقت المعلوم تفننا، تفاديا من إعادة اللفظ، قضاء لحق حسن النظم. وربطت مقولات هذه الأقوال بالفاء لأن كل قول منها أثاره الكلام الذى قبله فتفرع عنه.

﴿قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين. إلاعبادك منهم المخلصين﴾: الباء في بما أغويتنى للسببية. واللام في لأزينن لام قسم محذوف، مراد بها التأكيد. وهو القسم المصرح به في قوله: قال: فبعزتك لأغوينهم أجمعين. في سورة ص. وجاء كلام إبليس هنا مؤكدا بعدة تأكيدات كما هو معلوم من سياق الكلام... **﴿قال هذا صراط على مستقيم إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين. وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾**: هذا آخر ما حصل من الحوار بين الله تعالى وبين إبليس اللعين... من قوله: قال: يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين... إلى هنا... والإشارة في هذا إلى ما يؤخذ من سياق قوله: إن عبادى ليس لك عليهم سلطان.

والصراط مستعار للعمل الذى يقصد منه عامله فائدة. شبه بالطريق الموصل إلى المكان المطلوب وصوله إليه. ومستقيم نعت لصراط. واستعيرت الاستقامة

لملازمة الحالة الكاملة. وعلى مستعملة في الوجوب المجازى. وهو الفعل الدائم الذى لا يتخلف. والمعنى أن الله وضع سنة في نفوس البشر أن الشيطان لا يتسلط إلا على من كان غاويا. وإطلاق الغاوين من باب إطلاق اسم الفاعل على الحصول في المستقبل بالقرينة... فمعنى الغاوى هنا من كان مستعداً للغواية... وقوله: وإن جهنم لموعدهم أجمعين تذييل مقرر لمضمون ما سبقه من الوعيد اللاحق لإبليس ومن تبعه من الغاوين.

وجملة ﴿**لها سبعة أبواب**﴾ مستأنفة لوصف حال جهنم وأبوابها لإعداد الداخلين بحيث لا تضيق عن دخولهم. وجملة ﴿**لكل باب منهم جزء مقسوم**﴾ صفة لأبواب... وضمير منهم عائد لمن اتبعك من الغاوين. ﴿**إن المتقين في جنات وعيون**﴾: استئناف ابتدائي. انتقال من وعيد المجرمين إلى بشارة المتقين على عادة القرآن في التفنن في التوضيح والبيان. وجملة ﴿**ادخلوها**﴾ معمولة لقول محذوف أى: تقول لهم الملائكة هذا القول. والباء في ﴿**بسلام**﴾ للمصاحبة والسلام التحية. ﴿**وآمنين**﴾ حال لازمة.

وجملة ﴿**ونزعنا ما في صدورهم من غل**﴾ موصولة بالعطف على قوله إن المتقين في جنات... ﴿**واخواناً**﴾ على معنى التشبيه... ﴿**على سرر متقابلين**﴾: زيادة في التنعم... ﴿**لايمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين**﴾: ضمان لبقائهم في الخلود الدائم والنعيم المقيم. ﴿**نَبِّئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم**﴾: هذه الآية جاءت مستأنفة استئنافا ابتدائيا. تمهيدا لما يذكر بعدها من نبإ إبراهيم ولوط... وما حل بقوم لوط ومدين وثمود... فهى مرتبطة بقوله: وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم... وابتداء الكلام بفعل الإنباء لتشويق السامعين إلى ما بعده... وقدم الأمر بإعلام الناس بمغفرة الله وعذابه ابتداء بالموعظة الأصلية قبل الموعظة بجزئيات حوادث الانتقام من المعاندين، وإنجاء من بينهم من المؤمنين؛ لأن ذلك دائر بين أثر الغفران وبين أثر العذاب.

وقدمت المغفرة على العذاب لسبق رحمته غضبه. وضمير أنا وضمير هو ضَمِيرَا فصل يُفِيَدانِ تأكيد الخبر. ﴿**ونبئهم عن ضيف إبراهيم. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون**﴾: هذا العطف مع اتّحاد الفعل المعطوف بالفعل

معطوف عليه في الصيغة دليل على أن المقصود الإنباء بكلا الأمرين لمناسبة ذكر القصة أنها من مظاهر رحمته تعالى، وعذابه... وضيف إبراهيم الملائكة الذين تشكلوا بشكل أناس غرباء مارين ببيته. وتقدمت القصة في سورة هود وجملة قال: إنا منكم وجلون جاءت مفصولة بدون عطف؛ لأنها جواب عن جملة قالوا سلاما.

وقد طوى ذكر رده السلام عليهم إيجازا لظهوره... وقد جمع في هذه الآية متفرق كلام الملائكة... فاقتصر على مجاوبتهم إياه عن قولهم إنا منكم وجلون... فنهاية الجواب هو لا توجل. وأما جملة إنا نبشرك... فهى استئناف كلام آخر بعد أن قدم إليهم القرى وحضرت امرأته فبشروه بحضرتها كما فصل في سورة هود. ﴿**قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون؟! قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون**﴾: الاستفهام في أبشرتمونى للتعجب. وعلى بمعنى مع. دالة على شدة اقتران البشارة بمسِّ الكِبَرِ إيّاه.

وأكد هذا التعجب بالاستفهام الثانى بقوله: فبم تبشرونى؟ استفهام تعجب نزل الأمر العجيب المعلوم منزلة الأمر غير المعلوم. قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين: كلام الملائكة هذا ردٌّ لتعجب إبراهيم بقوله: فبم تبشرون إبطالاً لما اقتضاه هذا الاستفهام. ثم نهوه عن اسْتِبْعَادِ ذلك بأنه استبعاد رحمة القدير... فاستبعاد ذلك يفضى إلى القنوط من رحمة الله. فقالوا: فلا تكن من القانطين. وقد ذكرته الموعظة مقاما نسيه فقال: ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون. وهو استفهام إنكار في معنى النفى... فاستثنى منه إلا الضالون... فمراد إبراهيم نفى القنوط عن نفسه على أبلغ وجه. أى: ليس بى قنوط من رحمة ربى وإنما الذى أقول لبيان منافاة حالى لفيضان تلك النعمة الجليلة علىّ. وفى التعرض لوصف الربوبية والرحمة مالا يخفى من الجزالة.

ولم تكن هذه المحاورة من الملائكة مع إبراهيم خاصة بل مع امراته أيضا حسبما ذكر في سورة هود. ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بما ذكر هناك... كما أنه لم يذكر هذه هناك اكتفاء بما ذكر ههنا. ﴿**قال فما خطبكم أيها المرسلون؟ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين**﴾: حكاية هذا الحوار بين إبراهيم والملائكة ـ عليهم السلام؛ لأنه يجمع بين فضل إبراهيم وبين موعظة قريش بما حل ببعض الأمم

المكذبين. وانتقل إبراهيم إلى سؤالهم عن سبب نزولهم إلى الأرض؛ لأنه يعلم أن الملائكة لا ينزلون إلا لأمر عظيم.

وفى قوله: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إيجازُ حَذْفٍ. وتقدير الكلام: إنا أرسلنا إلى لوط لأجل قوم مجرمين ودل على ذلك الاستثناء في ﴿**إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين. . .**﴾ فعلم من هذا أن إرسال الملائكة لأجل إهلاك قوم لوط المجرمين. . . فالاستثناء في إلا آل لوط منقطع؛ لأنهم غير مجرمين وجملة إنا لمنجوهم أجمعين استئناف بيانى لبيان الإجمال الذى فهم من الاستثناء. واستثناء ﴿**إلا امرأته قدّرنا إنها لمن الغابرين**﴾ متصل؛ لأنها من آل لوط. وجملة إنها لمن الغابرين مستأنفة. وإنّ معلقة لفعل قدرنا عن العمل في مفعوله. وأصل الكلام قدرنا غبورها. والغبور يطلق على الذهاب. ويطلق على البقاء.

والمراد هنا أنها بقيت مع المجرمين فذهبت معهم ﴿**فلما جاء آل لوط المرسلون. قال إنكم قوم منكرون**﴾: تفريع على حكاية قصتهم مع إبراهيم. . . وقد طوى ما هو معلوم من خروج الملائكة من عند إبراهيم. . . والتقدير: ففارقوه وذهبوا إلى لوط. . . فلما جاءوا لوطا. . . وعبر بآل لوط؛ لأنهم نزلوا في منزله بين أهله. . . فجاءوا آلَهُ وإن كان المقصود بالخطاب والمجئ هو لوط. وتولى لوط تلقيهم كما هو شأن كبير المنزل. ولكنه وجدهم في شكل غير معروف. . . فقال لهم: إنكم قوم منكرون. وقد أجابوه بما يزيل ذلك؛ إذ ﴿**قالوا: بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون. . .**﴾ فهو إضراب عن قول لوط إنكم قوم منكرون، وإبطالا لما ظنه من كونهم من البشر الذين لم يعرفهم. . . فخاف منهم. أو خاف عليهم. . . فالمراد بما كانوا فيه يمترون العذاب. . . والمراد بالحق الخبر الحق.

والفرق بين جئناك وأتيناك: أن جئناك يكون بالشئ المحسوس. وأتينا يكون بالأمر المعقول. فالباء في جئناك بما للتعدية. وأتيناك بالحق للملابسة. وجملة وإنا لصادقون تأكيد إثر تأكيد. ﴿**فاسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون**﴾: شروع في ترتيب مبادئ النجاة. . . فأمروه بأن يخرج بأهله المستثنين من العذاب آخر الليل قبل الفجر. . . وأن يجعل أهله قدامه ويكون من خلفهم. . . فيكون كالحائل بينهم وبين العذاب. . . وأن لا يلتفت أحد

منهم إلى الوراء. وهو حث على سرعة السير الذى لا يحتمل مجرد الالتفات. وأن يسارعوا إلى المكان الذى أمروا بالانتقال إليه... فلم يعينه النص فلا التفات لما قيل فيه من الروايات... ﴿**وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين**﴾: هذه الآية موصولة بالعطف على ما قبلها... وضمن قضينا معنى أوحينا فعدى بإلى. وذلك الأمر فيه إبهام للتهويل.

وفى البعد باسم الإشارة للتعظيم... وأن دابر هؤلاء مقطوع جملة مفسّرة لذلك الأمر. وهى المناسبة للفعل المضمّن، وهو أوحينا... فصار تقدير: وقضينا الأمر وأوحينا اليه: أنّ دابرَ هؤلاء مقطوع... فنظم الكلام هذا النظم البديع الوافر المعنى بما في قوله: ذلك الأمر، من الإبهام والتعظيم. وقطع دابر هؤلاء: إزالة آخِرِ شخْصٍ من المشار اليهم بالشخوص المعينين بالحضور المشاهدين للملائكة المرسلين... فهو كناية عن استئصالهم كلهم أجمعين. وعيّن الوقت وحدده بقوله: مصبحين ﴿**وجاء أهل المدينة يستبشرون**﴾: عطف جزء من قصة قوم لوط. وهو الجزء الأهم فيها... ومجئ أهل المدينة إلى لوط ومحاورته معهم كان قبل أن يعلم أنهم ملائكة. ولو علم ذلك لما أشفق مما عزم عليه أهل المدينة لمّا علم بما عزموا عليه بعد مجادلتهم معه. والعطف هنا جاء بالواو فهى لا تفيد ترتيب معطوفها.

وصيغ يستبشرون بصيغة المضارع لإفادة التجدد مبالغة في الفرح. ﴿**قال إنّ هؤلاء ضيفى فلا تفضحونِ. واتقوا الله ولا تخزونِ**﴾: ذكّرهم بالوازع الدينى وإن كانوا كفار استقصاء للدعوة التي جاء بها... وبالوازع العرفى في قوله: إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون... ثم زاده تأكيدا بعد قوله: واتقوا الله... فقال ولا تخزونى. وقد صرح به في سورة هود فقال: فاتقوا الله ولاتخزونى في ضيفى... ﴿**قالوا: أولم ننهك عن العالمين**﴾؟: الواو في أولم ننهك عطف على كلام لوط... جارٍ على طريقة العطف على كلام الغير.. والاستفهام إنكارى. والمعطوف هو الإنكار. والعالمين الناس.

وتعدية النهى إلى ذات العالمين على تقدير مضاف دل عليه المقام. أى: ألم ننهك عن حماية الناس؟... وفى هذا الكلام من الوقاحة والعجرفة والتكبر حيث واجهوا رسول الله بهذا الكلام الدال على الإهانة وعدم المبالاة... ولكنّ لوطا

عليه السلام لازال معهم على الجد والنصح كما كان معهم من قبل هذا الكلام. . . فقال لهم: ﴿**هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين. . .**﴾ يعنى: نساء القوم فإن نبئ كل أمة بمنزلة أبيهم. . . فهو المشرع والشاهد عليهم والمتصرف في شؤونهم. . . وقد تقدم نظيره في سورة هود بقوله: هؤلاء بناتى هن أطهر لكم. . . وجملة ﴿**لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون**﴾ معترضة بين أجزاء القصة للعبرة فعدم جدوى الموعظة فيمن يكون في سَكْرَةِ هَوَاهُ. . . فالمخاطب بها محمد ﷺ من قِبَلِ الله تعالى والجملة جاءت مؤكدة بالقسم بحياة الرسول، وإنّ، واللام. وتقديم الجار والمجرور. وإضافة السكرة إليهم.

ويعمهون المفيد لتجدد الضلال والحيرة والضياع. . . وأطلقت السكرة على الضلال هنا تشبيها لغلبة دواعى الهوى على دواعى الهدى بذهاب العقل وغشيته. وفى هذا الكلام نورية تظهر للمتأمل في سياق الكلام أولا وآخرا. . . فهو تعريض لقريش التي أنكرت وفسقت وأشركت وظهر فيها كل ما كان في الأمم من فسق وفجور! . . . ﴿**فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل**﴾: تعقيب على ما تقدم من أفعال وأقوال قوم لوط. . . فهم الآن في خبر كان. . . ولم يبق إلا من كان مثلهم في كل مكان وزمان: ﴿**إن في ذلك لآيات للمتوسمين. وإنها لبسبيل مقيم**﴾.

﴿**إن في ذلك لآية للمؤمنين**﴾: ثلاث آياتٍ جاءت تقريرا وتحذيرا وتذكيرا لكل من يعتبرُ ويتذكّر. . . ففيها من الآيات آية نزول الملائكة. . . وبشارة إبراهيم، ونصر لوط. . . وإنجائه وأهله. . . وإهلاك قومه وامرأته. . . وآية عماية أهل الضلالة عن ذلائل الإنابة. . . وآية غضب الله على المسترسلين في عصيان الرسل من السابقين واللاحقين. ﴿**وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين. فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين**﴾: عطف قصة على قصة لما في كلتيهما من الموعظة. . . وذكر هاتين القصتين المعطوفتين تكميل وإدماج. إذ لا علاقة بينهما وبين ما قبلهما من قصة إبراهيم والملائكة.

وخص بالذكر أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر لأنهم مثل قوم لوط في نوع العذاب الذى أهلكهم. . . وضمير إنهما لقرية لوط وأيكة قوم شعيب، والإمام: الطريق الواضح؛ لأنه يأتم به السائر. والمبين: البيّن. ﴿**ولقد كذب أصحاب**

الحجر المرسلين﴾: جمعت قصص هؤلاء الأمم الثلاث: قوم لوط. وأصحاب الأيكة. وأصحاب الحجر، في نسق لتماثل حال العذاب الذى سُلِّط عليها. وهو عذاب الصيحة والرجفة والصاعقة. وأصحاب الحجر هم ثمود. والحجر: المكان المحجور. أو البناء المبنى من الحجر في السهول. والمنحوت في الجبال. يجعلون له طبقات... وتعريف المرسلين للجنس.

وجملة ﴿**وكانوا ينحتون...**﴾ معترضة... و ﴿**آمنين**﴾ حال مقدرة. ﴿**فأخذتهم الصيحة مصبحين**﴾: الفاء للتعقيب والسببية. ومصبحين داخلين في وقت الصباح. ﴿**فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون**﴾: الفاء لترتيب عدم الإغناء الخاص بوقت نزول العذاب حسبما كانوا يرجونه من وثاقة البناء التي عنوا بتحصينها وتحسينها كما دل عليه فعل كانوا... وصيغة المضارع في يكسبون لدلالتها على التكرُّر والتجدُّد المكنَّى به عن إتقان الصنعة. وبذلك كان موقع الموصول والصلة أبلغ من موقع لفظ بيوتهم مَثلاً. ليدل على أن الذى لم يغن عنهم شئ متخذ للإغناء ومن شأنه ذلك... ﴿**وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم**﴾: موقع الواو في صدر هذه الجملة بديع... فهذه الجملة صالحة لأن تكون تذييلا لقصص الأمم المعذبة ببيان أن ما أصابهم قد استحقوه... فهو من عدل الله بالجزاء على الأعمال بما يناسبها. ولأن تكون تصديرا للجملة التي بعدها. وهى جملة وإن الساعة لآتية... فعلى الأول تكون الواو اعتراضية أو حالية وعلى الثانى عاطفةٌ جملة على جملة، وخبرا على خبر. على أنه قد يكون العطف في الحالين لجعلها مستقلة بإفادة مضمونها لأهميته، مع كونها مكملة لغيرها. وإنما أكسبها هذا الموقع البديع نظم الجمل المعجز، والتنقل من غرض إلى غرض بما بينها من المناسبة.

وتشمل السماوات والأرض وما بينهما أصناف المخلوقات من حيوان وجماد... فشمل الأمم التي على الأرض وما حل بها... وتشمل الملائكة الموكلين بإنزال العذاب... وشمل الحوادث الكونية التي حلت بالأمم من الزلازل والصواعق والكسف... والباء في إلا بالحق للملابسة... والحق هنا: هو إجراء أحوال المخلوقات على نظام ملائم للحكمة والمناسبة في الخير والشر. والكمال

والنقص والسمو والخفض في كل نوع بما يليق بماهيته وحقيقته وما يصلحه وما يَصْلُحُ هُوَ لَه بحسب ما يقتضيه النظام العام لا بحسب الأميال والشهوات... وموقع جملة وإن الساعة لآتية في كلام يجعلها بمنزلة نتيجة الاستدلال... فساعة إنفاذ الحق آتية لا محالة... فلا يريبك ما تراه من سلامة مكذبيك وإمهالهم... فالمقصود من هذا تسلية النبئ على ما لقيه من أذى المشركين وتكذيبهم واستمرارهم على ذلك إلى أمد معلوم.

وفى إمهال الله تعالى المشركين... ثم في إنجائهم من عذاب الاستئصال حكمة تحقق بها مراد الله من بقاء هذا الدين وانتشاره في العالم بتبليغ العرب إياه وحمله إلى الأمم. والمراد بالساعة ساعة البعث يوم القيامة وذلك الذى افتتحت به السورة. وذلك انتقال من تهديدهم ووعيدهم بعذاب الدنيا إلى تهديدهم بعذاب الآخرة. وتفريع فاصفح الصفح الجميل على قوله: وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق باعتبار المعنى الكنائى له. وهو أن الجزاء على أعمالهم موكول إلى الله تعالى... فلذلك أمر نبيئه بالإعراض عن أذاهم وسوء تلقيهم للدعوة.

والصفح هنا: مستعمل في لازمه وهو عدم الحزن والغضب من صنيع أعداء الدين. وحذف متعلق الصفح لظهوره... ثم إن في هذه الآية ضربا من ردِّ العجز على الصدر؛ إذ كان من وقع الاستدلال على المكذبين بالبعث بخلق السماوات والأرض عند قوله: ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون. ولقد جعلنا في السماء بروجا... الآيات. وختمت بآية وإنا لنحن نحيى ونميتُ ونحن الوارثون... إلى قوله: وإن ربك هو يحشرهم... وانتقل هنالك إلى التذكير بخلق آدم، وما فيه من العبر... ثم إلى سوق قصص الأمم التي عقبت عصور الخلقة الأولى... فآن الأوان للعود إلى حيث افترق طريق النظم حيث ذكر خلق السماوات والأرض على البعث بقوله: وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق الآيات... فجاءت على وزن قوله: ولقد جعلنا في السماء بروجا الخ الآيات فإن ذلك خلق بديع.

وزيد هنا أن ذلك خُلِق بالحق. وكان قوله تعالى: وإن الساعة لآتية فذلكة لقوله تعالى: وإنا لنحن نحيى ونميت... إلى قوله: وإن ربك هو يحشرهم إنه

حكيم عليم. فعاد سياق الكلام إلى حيث فارق مهيعه. ولذلك تخلص إلى ذكر القرآن بقوله: ولقد آتيناك سبعا من المثانى. . . الناظر إلى قوله تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون. وجملة إن ربك هو الخلاق العليم في موقع التعليل للأمر بالصفح عنهم ومناسبته لقوله تعالى: وإن الساعة لآتية ظاهرة. وفى وصفه بالخلاق العليم إيماء إلى بشارة النبئ ـ صلى الله عليه وسلم .. فالعدول إلى إن ربك دون إن الله للإشارة إلى أن الذى هو ربه ومدبر أمره لا يأمره إلا بما فيه صلاحه ولا يقدّر إلا ما فيه خيره.

﴿**ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم**﴾: الآية معطوفة على الآيات السابقة عطف الغرض على الغرض، والقصة على القصة. وهذا افتتاح غرض من التنويه بالقرآن والتحقير لعيش المشركين. وأوثر فعل آتيناك دون أنزلنا؛ لأن الإعطاء أظهر في الإكرام. . . والسبع المثانى الفاتحة كما هو المشهور. وعطف القرآن على السبع من عطف الكل على الجزء لقصد التعميم. وأجرى وصف العظيم على القرآن تنويها به. ﴿**لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين وقل إني أنا النذير المبين**﴾: وجه هذا الكلام بما فيه من نهى وأمر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. تسلية له عما يجده من إعراض قريش بسبب قوتهم وغناهم. . . فالنهى كناية عن قلة الاكثرات. . . بهم، عما تسمع منهم من توعد وتهديد. . . والأمر كناية عن الرفق بالمؤمنين. وخفض الجناح تمثيل للرفق والتواضع بحال الطائر الذى يريد النزول عن علوٍّ. . . ففى ضمن هذه التمثيلية استعارة مكنية. والجناح نحيل.

وقد شاعت هذه التمثيلية حتى صارت كالمثل في التواضع واللين. في المعاملة. وجملة وقل إنى أنا النذير المبين عطف على جملة ولا تحزن عليهم. . . فالمقول لهم هذا القول هم المتحدث عنهم بالضمائر السابقة في قوله: . . . منهم. . . وعليهم. . . فهذا القول مراد منه المتاركة. . . فما علىّ إلاّ إنذارُكم. والقصر المستفاد من ضمير الفصل، وإنما، ويعرف الجزأين قصر قلب. ﴿**كما أنزلنا على المقتسمين. الذين جعلوا القرآن عضين**﴾: هذا تخلص من تسلية النبئ صلى الله عليه وسلم إلى تهديد المتشككين في القرآن المتلاعبين بألفاظه ومعانيه. والسياق أجمل المراد من المقتسمين إجمالا بينه بوصفهم بالصلة. وهى الذين

جعلوا القرآن عضين والسياق هنا لم يعين المقتسمين بأسمائهم. وإنما وصفهم بجعلهم القرآن أجزاء مفرقة مبعثرة. كل واحد من المقتسمين جزءا وتمسك به ليظهر به على خصمه... ﴿**فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون**﴾: الفاء للتفريع والمفرع عليه القسم وجوابه.

والمقصود بالقسم تأكيد الخبر. ووصف الرب مضافا إلى ضمير النبئ إيماء إلى أن في السؤال المقسم عليه حظا من التنويه به. وهو سؤال الله المكذبين عن تكذيبهم وتلاعبهم بالقرآن سؤالَ ربٍّ يغضب لرسوله... والسؤال مستعمل في لازم معناه. وهو عقاب المسؤول... ﴿**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين**﴾: تفريع على ما تقدم من جميع ما في السورة من دلائل ووعد ووعيد وأوامر ونواه... فهم المكلف بتبليغها للناس جِهَاراً نَهَاراً. ولا تخشى من أحد ولا يقفنّ في طريقك أحد فالله معك والله يعصمك من الناس: ﴿**إنا كفيناك المستهزئين...**﴾ فهذه الآية من أعظم الآيات التي توّهت بالرسول ﷺ ورفعت قدره على جميع البشر، وأعلنت ذكره في كل زمان ومكان... وحذرت الناس من الاستهزاء أو النيل من قدْره، والحط من دعوته... فأنذرت كل من يستهزئ بالوعيد الشديد الذى ما بعده في التهديد من مزيد: إن شانئك هو الأبتر!... ﴿**الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون**﴾: وعيد شامل لكل من أشرك مع الله معبودا غيره من أى كائن كان... فهذا ترسيخ لدعوة الرسول وتأييد لهذا الدين الذى حفظ الله كتابه من التغيير والتبديل والتحريف والتأويل... ﴿**ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون... فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾: لما كان الوعيد مؤذنا بإمهالهم قليلا؛ لما دل عليه حرف التسويف في قوله: فسوف يعلمون... طمأن الله نبيئه بأنه مطلع على تخرّجه من أذاهم وبهتانهم من أقوال الشرك وأقوال الاستهزاء... فأمره بالثبات والتفويض إلى ربه؛ لأن الحكمة في إمهالهم؛ ولذلك افتتحت الجملة بلام القسم وحرف التحقيق.

وضيقُ الصدر: مجاز عن كدر النفس. وفرع على جملة ولقد نعلم... أمْرَه بتسبيح الله تعالى وتنزيهه عما يقول المشركون من نسبة الشريك... والأمر في وكن من الساجدين. واعبد ربك: مستعملان في طلب الدوام. ومن الساجدين

أبلغ في الاتصاف بالسجود من ساجد. . . وقوله حتى يأتيك اليقين ختام بديع دل على النصر والتأييد. ودل على نهاية أعدائه في يوم قريب غير بعيد. وهو ما تحقق بعد الهجرة من الفتح والنصر العظيم. . . فقد جاء مثل هذا المعنى في هذا النصر والتأييد: إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**ألر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين**﴾: في هذا التوجيه يبرز محور هذه السورة الأول المصير المخوف الذى ينتظر الكافرين المكذبين. . . وحول هذا المحور يدور السياق في عدة جولات، متنوعة الموضوع والمجال، ترجع إلى ذلك المحور الأصيل. سواء في ذلك القصة. ومشاهد الكون. ومشاهد القيامة. والتوجيهات والتعقيبات التي تسبق القصص وتتخلله وتعقب عليه. وإذا كان جو سورة الرعد يذكر بجو سورة الأنعام. . . فإن جو هذه السورة ـ الحجر ـ يذكر بجو سورة الأعراف. ـ وابتداؤها كان الإنذار، وسياقها كله جاء مصداقا للإنذار ـ فهنا كذلك في سورة الحجر يتشابه البدء والسياق، مع اختلاف في الطعم والمذاق. إن الإنذار في مطلع سورة الأعراف صريح: . . . كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين. . . والآية الرابعة فيها تقول: وكم من قرية أهلكناها. فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون. . . ثم ترد فيها قصة آدم وإبليس ويتابعها السياق حتى تنتهى الحياة الدنيا. ويعودَ الجميع إلى ربهم. . . فيجدُوا مصداق النذير. . . ويلى القصة عرض لبعض مشاهد الكون: السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، والرياح والسحاب والماء والثمرات. . . ويلى ذلك قصص قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى. وكلها تصدق النذير. . . وهنا في سورة الحجر يجيء الإنذار كذلك في مطلعها، ولكن ملفّعاً بظِلّ من التهويل والغموض. . . ﴿**ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين. ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون**﴾.

﴿**وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم. ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون. . .**﴾ ثم يعرض السياق بعض مشاهد الكون: السماء وما فيها من بروج، والأرض الممدودة الرواسى الراسخة، والنبت الموزون، والرياح اللواقح

الماء والسقيا والحياة والموت والحشر للجميع... يلى ذلك قصة آدم وإبليس، منتهية بمصير أتباعه ومصير المؤمنين... ومن ثَمّ لمحات من قصص إبراهيم ولوط وشعيب وصالح منظور فيها إلى مصائر المكذبين... فالمحور في السورة واحد، ولكن شخصية كل منهما متميزة؛ وإيقاعهما يتشابه ولا يتماثل، على عادة القرآن الكريم في تناوله لموضوعاته الموحدة، بطرق شتى، تختلف وتتشابه، ولكنها لا تتكرر أبدا ولا تتماثل وابتدأت السورة بالحروف: أ ـ ل ـ ر... فهذه الأحرف نظائرها هى الكتاب... وهى القرآن... هذه الأحرف التي في متناول الجميع. هى تلك الآيات العالية الأفق البعيدة المتناول... المعجزة التنسيق... هذه الأحرف التي لا مدلول لها في ذاتها هى القرآن الواضح الكاشف المبين.

فإذا كان قوم يكفرون بآيات الكتاب المعجز. ويكذبون بهذا القرآن المبين... فسيأتى يوم يودون فيه لو كانوا غير ما كانوا. ويتمنّون فيه لو آمنوا واستقاموا: رُبما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين... ربما... ولكن حيث لا ينفع التمنى ولا تجدى الودادة. ربما. وفيها التهديد الخفى والاستهزاء الملفوف. وفيها كذلك الحث على انتهاز الفرصة المعروضة للإسلام قبل أن تضيع... فعمرالمرء قصير وأيامه تذهب به سريعة المسير. والناس يذهبون واحد بعد واحد إلى هذا المصير... فيأتى اليوم الذى يودون فيه لو كانوا مسلمين؛ فما ينفعهم يومئذ أنهم يودون.

وتهديد آخر ملفوف: ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون... ذرهم فيما هم فيه من حياة حيوانية محضة للأكل والمتاع. لا تأمل فيها ولا تدبر ولا استطلاع. ذرهم في تلك الدوامة: الأمل ينهى والمطالع تغر والعمر يمضى والفرصة تضيع ذرهم فلا تشغل نفسك بهؤلاء الهالكين. الذين ضلوا في متاعة الأمل والغَرور... يلوح لهم ويشغلهم بالأطماع. ويُمْلِى لهم... فيحسبون أن أجلهم ممدود... وأنهم محصلون ما يطمعون لا يردهم عنه راد. ولا يمنعهم منه مانع. وأن ليس وراءهم حسيب. وأنهم ناجون في النهاية بما ينالون مما يطمعون. وصورة الأمل الملهى صورة إنسانية حية... فالأمل البراق ما يزال يخايل لهذا الإنسان، وهو يجرى وراءه، وينشغل به، ويستغرق فيه... حتى يجاوز المنطقة المأمونة؛ وحتى يغفل عن الله؛ وعن القدر؛ وعن الأجل؛ وحتى ينسى أن هنالك

واجباً، وأن هنالك محظورا... بل حتى لينسى إلها؛ وأن هنالك موتا؛ وأن هنالك نشورا.

وهذا هو الأمل القاتل الذى يُؤمر الرسول أن يدعهم له... فسوف يعلمون، حيث لا ينفع العلم بعد فوات الأوان!... وهو أمر فيه تهديد لهم. وفيه كذلك لمسة عنيفة لعلهم يَصْحَوْنَ من الأمل الخادع الذى يلهيهم عن المصير المحتوم. وإن سنة الله الماضية لا تتخلف. وهلاك الأمم مرهون بأجلها الذى قدره الله لها معلق بسلوكها الذى تنفذ به حكمة الله ومشيئته: وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم. ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون... فلا يغرنهم تخلف العذاب عنهم فترة من الوقت... فإنما هى سنة الله تمضى في طريقها المعلوم. ولسوف يعلمون.

وذلك الكتاب المعلوم والأجل المقسوم يمنحه الله للقرى والأمم؛ لتعلم. وعلى حسب العمل يكون الأجل... فإذا هى آمنت وأحسنت وأصلحت وعدلت مدّ الله في أجلها... حتى تنحرف عن هذه الأسس كلها، ولا تبقى فيها بقية من خير يُرجى... فعند ئذٍ تبلغ أجلها، وينتهى وجودها إما إطلاقا بالهَلاك والدثور. وإما وقتيا بالضعف والانزواء والضمور... وقد يقال: إن أمما لا تؤمن ولا تحسن ولا تصلح ولا تعدل، وهى مع ذلك قوية ثرية باقية. وهذا وهم... فلا بد من بقية من خير في هذه الأمم... ولو كان هو خير الخلافة في الأرض بعمارتها. وخير العدل في حدوده الضيقة بين أبنائها. وخير الإصلاح المادى والإحسان المحدود بحدودها... فعلى هذه البقية من الخير تعيش حتى تستنفدها... فلا تبقى فيها من الخير بقية... ثم تنتهى حتما.

إن سنة الله لا تتخلف. ولكل أمة أجل مرتب على عملها... ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون. ويحكى السياق سوء أدبهم مع الرسول ﷺ وقد جاء بالكتاب والقرآن المبين. يوقظهم من الأمل الملهى. ويذكّرهم بسنة الله... فإذا هم يسخرون منه ويتوقحون: **﴿وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين...﴾** وتبدو السخرية في ندائهم: يا أيها الذى نزل عليه الذكر... فهم ينكرون الوحى والرسالة... ولكنّهم يتهكّمون على الرسول الكريم بهذا الذى يقولون... ويبدو سوءُ الأدب في وصفهم للرسول

الأمين: إنك لمجنون... جزاء على دعوته لهم بالقرآن المبين. وهم يتمحّكون فيطلبون الملائكة مصدِّقين: لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين.

وطلبُ نزول الملائكة يتكرر، في هذه السورة وفى غيرها... مع الرسول ومع غيره من رسل قبله. وهو ظاهرة من ظواهر الجهل بقيمة هذا الكائن الإنسانى الذي كرّمه الله فجعل النبوءة في جنسه ممثلة في أفراده الممتازين المختارين. والرد على ذلك التهكم وتلك الوقاحة وهذا الجهل هو ذكر القاعدة التي تشهد بها مصارع السالفين: أن الملائكة لا تنزل على الرسول إلا لهلاك المكذبين من قومه حين ينتهى الأجل المعلوم. وعندئذ فلا إمهال ولا تأجيل: ﴿**ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين**...﴾ فهل هو ما يريدون وما يتطلبون؟!. ثم يردهم السياق إلى الهدى والتدبر... إن الله لا ينزل الملائكة إلا بالحق؛ ليحققوه وينفذوه.

والحق عند التكذيب هو الهلاك... فهم يستحقونه فيحق عليهم فهو حق تنزل به الملائكة لتنفذه بلا تأخير. وقد أراد الله لهم خيرا مما يريدون بأنفسهم... فنزل لهم الذكر يتدبرونه ويهتدون به. وهو خيرٌ لهم من تنزيل الملائكة بالحق الأخير: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**...﴾ فخير لهم أن يقبلوا عليه... فهو باق محفوظ لا يندثر ولا يتبدل، ولا يلتبس بالباطل ولا يمسه التخريف. وهو يقودهم إلى الحق برعاية الله وحفظه؛ إن كانوا يريدون الحق. وإن كانوا يطلبون الملائكة للتثبيت... إن الله لا يريد أن ينزل عليهم الملائكة؛ لأنه أراد بهم الخير... فنزل لهم الذكر المحفوظ. لا ملائكة الهلاك والتدمير.

ويعزى الله سبحانه نبيئه ـ صلى الله عليه وسلم ـ... فيخبره أنه ليس بدعا من الرسل الذين لقوا الاستهزاء والتكذيب... فهكذا المكذبون دائما في عنادهم الذميم: ﴿**ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين. وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون**﴾. وعلى هذا النحو الذى تلقى به المكذبون أتباعُ الرسل ما جاءهم به رسلهم يتلقى المكذبون المجرمون من أتباعك ما جئتهم به. وعلى هذا النحو نجريه في قلوبهم التي لا تتدبر ولا تحسن الاستقبال: ﴿**كذلك نسلكه في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين**﴾ نسلكه في قلوبهم مكذباً بما فيه، مستهزأً به؛ لأن هذه القلوب لا تحسن أن تتلقاه إلا على هذا النحو. سواء في

هذا الجيل. أم الأجيال الخالية... فالمكذبون أمة واحدة من طينة واحدة... وقد خلت سنة الأولين. وليس الذى ينقصهم هو توافر دلائل الإيمان فهم معاندون مكابرون مهما تأتهم من آية بينة فهم في عنادهم ومكابرتهم سادرون.

وهنا يرسم السياق نموذجاً للمعابرة المرذولة والعناد البغيض: ﴿**ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون. لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون...**﴾ ويكفى تصورهم يصعدون في السماء من باب فتح لهم فيها. يصعدون بأجسامهم، ويرون الباب المفتوح أمامهم، ويحسون حركة الصعود ويرون دلائلها... ثم هم بعد ذلك يكابرون فيقولون: لا. لا. ليست هذه حقيقة... إنما أَحدٌ سكر أبصارَناَ وخدّرها... فهى لاترى... إنما تتخيل... بل نحن قوم مسحورون... سَحَرناَ سَاحِرُ!.. فكل ما نراه وما نحِسّهُ وما نتحركه تهيؤات مسحور!. يكفى تصورهم على هذا النحو لتبْدُو المكابرة السمحة ويتجلى العناد المزرى. ويتأكد ألاَّ جَدْوَى من الجدل مع هؤلاء. ويثبت أن ليس الذى ينقصهم هو دلائل الايمان. وليس الذى يمنعهم أن الملائكة لا تنزل... فصعودهم هم أشد دلالة وألصق بهم من نزول الملائكة. إنما هم قوم مكابرون. مكابرون بلا حياء وبلا تحرج وبلا مبالاة بالحق الواضح المكشوف... إنه نموذج بشرى للمكابرة. يرسمه التعبير مثيراً لشعور الاشمئزاز والتحقير. وتنتهى الجولة الأولى من **التوجيه الأول**. وهى متضمنة بيان سنة الله في الرسالة والإيمان بها والتكذيب... وموقف الرسل من المكذبين الذين لاتنفع فيهم موعظة ولا يرهبهم وعيد ولا تهديد!..

التوجيه الثاني: ﴿**ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم. إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين**﴾: فيه تعرض الجولة الثانية وفيها بعض آيات الله في الكون... وقد قُدّرت بحكمة. وآيات الله في الوحى وقد حفظ من قلبيس إبليس... وفى النهاية مرجع كل حى إليه في الوقت المقدر المعلوم. في هذا يبدأ الخط الأول في اللوحة العريضة: لوحة الكون العجيب الذى ينطق بأثار اليد المبدعة. ويشهد بالإعجاز أكثر مما يشهد نزول الملائكة. ويكشف عن دقة التنظيم والتقدير. كما يكشف عن عظمة القدرة على هذا الخلق الكبير. والبروج قد تكون هى النجوم والكواكب بضخامتها... وقد

تكون هي منازل النجوم والكواكب التي تنتقل فيها في مدارها. . . وهي في كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة. وشاهدة بالدقة.

وشاهدة بالإبداع الجميل: وزيناها للناظرين. . . وهى لفتة هنا إلى جمال الكون ـ وبخاصة تلك السماء ـ تشِي بأن الجمال غاية مقصودة في خلق هذا الكون فليست الضخامة وحْدَها. وليست الدقة وحدها. . . إنما هو الجمال الذى ينتظم المظاهر جميعا. وينشأ من تناسقها جميعا. . . وإن نظرة مبصرة إلى السماء في الليلة الحالكة، وقد انتشرت فيها الكواكب والنجوم، توصوص بنورها، ثم يبدو كأنها تخبو، ريثما تنتقل العين لتلبي دعوة من نجم بعيد. . . ونظرة مثلها في الليلة القمرية والبدر حالم، والكون من حوله مهموم، كأنما يمسك أنفاسه لا يوقظ الحالم السعيد.

إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك، حقيقة الجمال الكونى، وعمق هذا الجمال في تكوينه؛ ولإدراك معنى هذه اللفتة العجيبة: وزيناها للناظرين، ومع الزينة الحفظ والطهارة: وحفظناها من كل شيطان رجيم. . . فلا ينالها ولا يدنسها. ولا ينفث فيها من شره وغوايته. . . فالشيطان موكل بهذه الأرض وحدها. وبالغاوين من أبناء آدم فيها. أما السماء ـ وهى رمز للسمو والارتفاع ـ فهو مطرود عنها مطارد لا ينالها ولا يدنسها. إلا محاولة منه تردّ كلّما حاولها: إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين. . . وما الشيطان؟ وكيف يحاول استراق السمع؟ وأى شئ يسترق؟. . . كل هذه غيب من غيب الله، لا سبيل لنا إليه إلا من خلال النصوص ولاجدوى في الخوض فيه؛ لأنه لا يزيد شيئا في العقيدة؛ ولا يثمر إلا انشغال العقل البشرى بما ليس من اختصاصه، وبما يعطله عن عمله الحقيقى في هذه الحياة. . . ثم لا يضيف إدراكا جديد الحقيقة جديدة. . . فلنعلم أن لا سبيل في السماء لشيطان، وأن هذا الجمال الباهر فيها محفوظ، وأن ما ترمز إليه من سمو وعلوّ مصون لا يناله دنس ولا رجس، ولا يَخْطَر فيه شيطان، وإلاّ طورد فصرّ وحيل بينه وبين ما يريد.

ولا ننسى جمال الحركة في المشهد في رسم البرج الثابت، والشيطان الصاعد، والشهاب المنقض. فهي من جمال التصوير في هذا الكتاب الجميل. والخط الثانى في اللوحة العريضة الهائلة. هو خط الأرض المحدودة أمام

النظر... المبسوطة للخطو والسير... وما فيها من رواسى... وما فيها من نبت وأرزاق للناس ولغيرهم من الأحياء: ﴿**والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين...**﴾ إن ظل الضخامة واضح في السياق... فالإشارة في السماء إلى البروج الضخمة - تبدو ضخامتها حتى في جرس كلمة البروج.

وحتى الشهاب المتحرك وُصف بأنه مبين... والإشارة في الأرض إلى الرواسى - ويتجسم ثقلها في التعبير بقوله: وألقينا فيها رواسى... وإلى النبات موصوف بأنه موزون... وهى كلمة ذات ثقل... وإن كان معناها أن كل نبت في هذه الأرض في خلقه دقة وإحكام وتقدير... ويشترك في ظل التضخيم جمع معايش، وتنكيرها؛ وكذلك ومن لستم له برازقين... من كل ما في الأرض من أحياء على وجه الإجمال والإبهام... فكلها تخلع ظل الضخامة الذى يخلل المشهد المرسوم.

والآية الكونية هنا تتجاوز الآفاق إلى الأنفس... فهذه الأرض المحدودة للنظر والخطو وهذه الرواسى الملقاة في الأرض، تصاحبها الإشارة إلى النبت الموزون ومنه إلى المعايش التي جعلها الله للناس في هذه الأرض. وهو الأرزاق المؤهلة للعيش والحياة فيها. وهى كثيرة شتى يجملها السياق هنا ويهبها؛ لتلتقى ظل الضخامة... جعلنا لكم فيها معايش... وجعلنا لكم كذلك من لستم له برازقين... فهم يعيشون على أرزاق الله التي جعلها لهم في الأرض... وما أنتم إلا أمة من هذه الأمم التي لا تحصى... أمة لا ترزق سواها... إنما الله يرزقها ويرزق سواها... ثم يتفضل عليها فيجعل لمنفعتها ومتاعها وخدمتها أمما أخرى تعيش من رزق الله، ولا تكلفها شيئا.

هذه الأرزاق - ككل شئ - مقدرة في علم الله تابعة لأمره ومشيئته، يصرفها حيث يشاء وكما يريد، في الوقت الذى يريده حسب سنته التي ارتضاها، وأجراها في الناس والأرزاق: ﴿**وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم...**﴾ فما من مخلوق يقدر على شيء أو يملك شيئا... إنما خزائن كل شيء: مصادره وموارده عند الله. في علاه. ينزله على الخلق في عوالمهم بقدر معلوم... فليس من شئ ينزل جزافا. وليس من شئ يتم اعتباطا. ومما يرسله

الله بقدر معلوم الرياح والماء: ﴿**وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين**. . .﴾ أرسلنا الرياح لواقح بالماء. . . كما تلقح الناقة بالنتاج. . . فأنزلنا من السماء ماء مما حملت الرياح. . . فأسقيناكموه فعشتم به. وما أنتم له بخازنين. فما من خزائنكم جاء إنما جاء من خزائن الله ونزل منها بقدر معلوم.

والرياح تنطلق وفق عوامل فلكية وجوية، وتحمل الماء وفقا لهذه العوامل؛ وتسقط الماء كذلك بحسبها. ولكن من الذى قدر هذا كله من الأساس؟ لقد قدره الخالق ووضع الناموس الكلى الذى تنشأ عنه هذه العوامل والظواهر: وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ونلحظ في التعبير أنه يرد كل حركة إلى الله. . . حتى شرب الماء. . . فأسقيناكموه. . . فالمقصود أننا جعلنا خلقتكم تطلب الماء، وجعلنا الماء صالحا لحاجتكم، وقدرنا هذا وذاك. . . ولكن التعبير يجئ على هذا النحو لتنسيق الجوِّ كلِّه. ورجع الأمر كله إلى الله حتى في حركة تناول الماء للشراب. لأن الجو جو تعليق كل شئ في هذا الكون بإرادة الله المباشرة. سنة الله هنا في حركات الأفلاك كسنته هناك في حركات الأنفس تضمن المقطع الأول سنته في المكذبين. . . وتضمن المقطع الثانى سنته في السماوات والأرض وفى الرياح والماء والاستقاء. وكله من سنة الله التي لا تحيد. وهذه وتلك موصولتان بالحق الكبير الذى خلق الله به السماوات والأرض والناس والأشياء سواء، ثم يتم السياقُ رجْعَ كل شئ إلى الله. . . فيرد إليه الحياة والموت، والأحياء والأموات والبعث والنشور: ﴿**وإنا لنحن نُحيى ونميت ونحن الوارثون**﴾.

﴿**ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين. وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم**. . .﴾ وهنا يلتقى المقطع الثانى بالمقطع الأول. فهناك قال: وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم. ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون. . . وهنا يقرر أن الحياة والموت بيد الله وأن الله هو الوارث بعد الحياة، وأنه هو يعلم من كتب عليهم أن يستقدموا فيتوفوا ومن كتب عليهم أن يؤجّلُوا فيستأخروا في الوفاة، وأنه هو الذى يحشرهم في النهاية وإليه المصير. ونلاحظ في هذا المقطع وفى الذى قبله تناسقا في حركة المشهد: في تنزيل

الذكر... وتنزيل الملائكة... وتنزيل الرجوم للشياطين... وتنزيل الماء من السماء... ثم في المجال الذى يحيط بالأحداث والمعانى... وهو مجال الكون الكبير السماء والبروج والشهب. والأرض والرواسى والنبات. والرياح والمطر... فلما ضرب مثلا للمكابرة جعل موضوعه العروج من الأرض إلى السماء خلال باب منها مفتوحٍ في ذات المجال المعروض... وذلك من بدائع التصوير في هذا الكتاب العجيب!..

التوجيه الثالث: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون. والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ في هذا التوجيه الجولة الثالثة، وهى تعرض قصة البشرية وأصل الهدى والغواية في تركيبها وأسبابها الأصلية ومصير الغاوين في النهاية والمهتدين... ولقد صادفنا هذه القصة معروضة مرتين من قبل. في سورة البقرة، وفى سورة الأعراف. ولكن مساقها في كل مرة كان لأداء غرض خاص، في معرض خاص، في جو خاص.

ومن ثَمّ اختلفت الحلقات التي تعرض منها في كل موضع، واختلفت طريقة الأداء، واختلفت الظلال، واختلف الإيقاع مع المشاركة في بعض المقدمات والتعقيبات بقدر الاشتراك في الأهداف. تشابهت مقدمات القصة في السور الثلاث... ففى سورة البقرة سبقها في السياق: هو الذى خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شئ عليم... وفى سورة الأعراف سبقها: ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون... وهنا سبقها: والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون وجعلنا لكم فيها معايش من لستم له برازقين... ولكن السياق الذى وردت فيه القصة في كل سورة كان مختلف الوجهة والغرض... في البقرة كانت نقطة التركيز في السياق هى استخلاف آدم في الأرض التي خلق الله للناس ما فيها جميعا: وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل في الأرض خليفة... ومن ثم عرض من القصة أسرار هذا الاستخلاف الذى عجبت له الملائكة لما خفى عليهم سره :.. وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين.

قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال آدم أنبئهم

بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. . . ثم عرض حكاية سجود الملائكة، وإباء إبليس واستكباره. وسكنى آدم وزوجه الجنة وإزلال الشيطان لهما عنها وإخراجهما منها. . . ثم الهبوط إلى الأرض للخلافة فيها، بعد تزويده بهذه التجربة القاسية، واستغفاره وتوبة الله عليه. . . وعقب على القصة بدعوة بنى إسرائيل لذكر نعمة الله عليهم والوفاء بعهده معهم. . . فكان هذا متصلا باستخلاف أبيهم الأكبر في الأرض، وعهده معه، والتجربة القاسية لأبى البشر.

وفى الأعراف كانت نقطة التركيز في السياق هى الرحلة الطويلة من الجنة وإليها. . . وإبراز عداوة إبليس للإنسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها. . . حتى يعود الناس مرة أخرى إلى ساحة العرض الأولى. . . ففريق منهم يعودون إلى الجنة التي أخرج الشيطان أبويهم منها؛ لأنهم عادوه وخالفوه. وفريق ينتكس إلى النار؛ لأنه اتبع خطوات الشيطان العدو اللدود. . . ومن ثَمّ عرض السياق حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره، وطلبه من الله أن ينظره إلى يوم البعث؛ ليغوى أبناء آدم الذى من أجله طرد. . . ثم إسكان آدم وزوجه الجنة يأكلان من ثمرها كله إلا شجرة واحدة. . . فهى رمز المحظور الذى تبتلى به الإرادة والطاعة. . . ثم وسوسة الشيطان لهما بتوسع وتفصيل، وأكلهما من الشجرة وظهور سوآتها لهما. وعتاب الله لآدم وزوجه، وإهباطهم إلى الأرض جميعا للعمل في أرض المعركة الكبرى: قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون. . . ثم تابع السياق الرحلة كلها حتى يعود الجميع مرة أخرى وعرضهم في الساحة الكبرى مع التفصيل والحوار. . . ثم انتهى فريق إلى الجنة وفريق إلى النار: . . . ونادى أصحابُ النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين. . . فأسدل الستار.

فأما هنا في هذه السورة فإن نقطة التركيز. في السياق هى سر التكوين في آدم، وسر الهدى والضلال، وعواملهما الأصيلة في كيان الإنسان. . . ومن ثمّ نص ابتداء على خلق الله آدم من صلصال من حمإٍ مسنون ونفخه فيه من روحه المشرق الكريم. وخلق الشيطان من قبل من نار السموم. . . ثم عرض حكاية سجود

الملائكة وإباء إبليس استنكافا من السجود لبشر من صلصال من حمإٍ مسنون. وطرده ولعنته. وطلبه الإنظار إلى يوم البعث وإجابته. وزاد أن إبليس قرر على نفسه أن ليس له سلطان على عباد الله المخلصين. إنما سلطانه على من يدينون له ولا يدينون لله.

وانتهى بمصير هؤلاء وهؤلاء في غير حوار ولا عرض ولا تفصيل. تبعا لنقطة التركيز في السياق، وقد استوفت ببيان عنصرى الإنسان، وبيان مجال سلطة الشيطان... فلنمضى إلى مشاهد القصة في هذا المجال: ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حَمَإٍ مسنون. والجان خلقناه من قبل من نار السموم... وفى هذا الافتتاح يقرر اختلاف الطبيعتين بين الصلصال ـ وهو الطين اليابس الذى يصلصل عند نقره، المتخذ من الطين الرطب الآسن ـ والنار الموسومة بأنها شعواء سامة: نار السموم. وفيما بعد سنعلم أن طبيعة الإنسان قد دخل فيها عنصر جديد هو النفخة من روح الله، أما طبيعة الشيطان فبقيت من نار السموم **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمإٍ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾**.

﴿قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين؟ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون. قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾ وإذ قال ربك للملائكة... متى قال؟، وأين قال؟، فهذا غيب من الغيب فلا سبيل لكشفه إلا بنص قاطع... فأما خلق الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون والنفخ فيه من روح الله فكيف كان؟ فهو كذلك مالا ندرى كيفيته، ولا سبيل إلى تحديد هذه الكيفية بحال من الأحوال... فليكن النص هنا هو دليل الباحث المنصف... فلا تذهبن به الروايات والآراء والاحتمالات إلى متاهات من الأوهام والخرافات... فلنمض مع النص على الطريق القويم: **﴿قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون﴾**.

﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم...﴾ فهنا تتبدى خليقة الحقد وخليقة الشر والكفر القديم. لقد طلب إبليس من ربه النظرة إلى يوم البعث لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق العظيم، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكفّر

عن إثمه الجسيم، ولكن لينتقم من آدم وذريته انتفاخا واستكبارا على هذا المخلوق الكريم. ويمضي إبليس في وعيده وتهديده معلنا بهذا القسم العظيم: ﴿**قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين. . .**﴾ فبذلك حدد إبليس ساحة المعركة. إنها الأرض: لأزينن لهم في الأرض. . . وحدد عدته فيها إنه التزيين. تزيين القبيح وتجميله، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه.

وهكذا لايجترح الإنسان الشر إلا وعليه من الشيطان مسحة تزيّنه وتجمله وتظهره في غير حقيقته وردائه. . . فليفطن الناس إلى عدة الشيطان؛ وليحذروا كلما وجدوا في أمر تزيينا ،وكلما وجدوا من نفوسهم إليه ميلا واشتهاءً .ليحذروا فقد يكون الشيطان هناك .إلا أن يتصلوا بالله ويعبدوه حق عبادته ..فليس للشيطان. . . بشرطه هو على عباد الله المخلصين من سبيل: ﴿**إلا عبادك منهم المخلصين**﴾. والله يستخلص لنفسه من عباده من يخلص نفسه لله ،ويجردها له وحده ،ويعبده كأنه يراه ..فهذا الشرط الذى قرره إبليس اللعين قرره وهو يدرك أن لا سبيل إلى سواه ؛لأنه سنة الله فقال :﴿**هذا صراط على مستقيم .إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين..**﴾ هذا صراط .هذا ناموس .هذه سنة .

وهى السنة التي ارتضتها الإرادة قانونا وحكما في الهدى والضلال .إن عبادى المخلصين لى ليس لك عليهم سلطان .ولالك فيهم تأثير. ولا تملك أن تزين لهم ؛لأنك عنهم محصور .ولأنهم منك في حمى .ولأن مداخلك إلى نفوسهم مغلقة .وهم يعلقون أبصارهم بالله ؛ويدركون ناموسه بفطرتهم الواصلة إلى الله .إنما سلطانك على من اتبعك من الغاوين الضالين ..فهو استثناء مقطوع لأن الغاوين ليسوا جزءا من عباد الله المخلصين .إن الشيطان لا يتلقف إلاالشاردين كما يتلقف الذئب الشاردة من القطيع .فأما من يخلصون أنفسهم لله فالله لايتركهم للضياع ورحمة الله أوسع. ولوتخلفوا فإنهم يتوبون من قريب.

فأما العاقبة ـ عاقبة، فهى معلنة في الساحة منذ البدء: ﴿**وإن جهنم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم. . .**﴾ هذه الأبواب السبعة قد تكون لمجرد العدد. وقد تكون للتقرير الواقعى. لايغير هذا أو ذلك من الأمر شيئا. . . فهؤلاء الغاوون صنوف وأقسام، والغواية ألوان وأشكال وأحجام. . .

ولكل باب منهم جزء مقسوم بحسب ما يكونون وما يعملون: وينتهى المشهد وقد وصل السياق بالقصة إلى نقطة التركيز وموضع العبرة. ووضح كيف يسلك الشيطان طريقه إلى النفوس. وكيف يغلب عنصر الطين في الإنسان على عنصر النفخة. فأما من يتصل بالله ويحتفظ بنفخة روحه فلا سلطان عليه للشيطان وبمناسبة ذكر مصير الغاوين يذكر مصير المخلصين: ﴿**إن المتقين في جنات وعيون. ادخلوها بسلام آمنين**﴾.

﴿**ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين. لايمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين**﴾. والمتقون هم الذين يرقبون الله ويقون أنفسهم عذابه وأسبابه. ولعل العيون في الجنات تقابل في المشهد تلك الأبواب في جهنم. وهم يدخلون الجنات بسلام آمنين في مقابل الخوف والفزع هناك. ونزعنا ما في صدورهم من غل في مقابل الحقد الذى يغلى به صدر إبليس فيما سلف من السياق. لايمسهم فيها نصب ولايخافون منها خروجا. جزاء ما خافوا في الأرض واتقوا. . . فاستحقوا المقام المطمئن الآمن في جوار الله الكريم. . .

التوجيه الرابع: ﴿**نبّىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم. ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه. . .**﴾: في هذا التوجيه عرض للجولة الرابعة تعرض فيها مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالح. . . متضمنة نماذج من رحمة الله لعباده المخلصين وعذابه لمن اتبع اللعين من الغاوين الضالين. يجئ هذا الأمر للرسول بعد ذكر جزاء الغاوين وجزاء المتقين في سياق السورة. والمناسبة بينهما ظاهرة في السياق. ويقدم الله نبأ الغفران والرحمة على نبإ العذاب. جريا على الأصل الذى ارتضته مشيئته فقد كتب على نفسه الرحمة. . . ثم تجئ قصة إبراهيم مع الملائكة المرسلين إلى قوم لوط. . . وقد وردت هذه الحلقة من قصة إبراهيم وقصة لوط في مواضع متعددة بأشكال متنوعة تناسب السياق الذى وردت فيه.

ووردت قصة لوط وحده في مواضع أخرى. وقد مرت بنا حلقة من قصة لوط في الأعراف، وحلقة من قصة إبراهيم ولوط في هود. . . فأما في الأولى فقد تضمنت استنكار لوط لما يأتيه قومه من الفاحشة، وجواب قومه: أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون. . . وإنجاؤه هو وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين.

وذلك دون ذكر لمجئ الملائكة إليه وائتمار قومه بهم. وأما في الثانية فقد جاءت قصة الملائكة مع إبراهيم ولوط مع اختلاف في طريقة العرض... فهناك تفصيل في الجزء الخاص بإبراهيم وتبشيره وامرأته قائمة، وجداله مع الملائكة عن لوط وقومه. وهو مالم يذكر هنا. وكذلك يختلف ترتيب الحوادث في القسم الخاص بلوط في السورتين... ففى سورة هود لم يكشف عن طبيعة الملائكة إلا بعد أن جاءه قومه يهرعون إليه، وهو يرجوهم في ضيفه فلا يقبلون رجاءه... حتى ضاق بهم ذرعا، وقال قولته الأسيفة: لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد.

وأما هنا فقدم الكشف عن طبيعة الملائكة منذ اللحظة الأولى، وأخر حكاية القوم وائتمارهم بضيف لوط؛ لأن المقصود هنا ليس هوالقصة بترتيبها الذى وقعت به. ولكن تصديق النذير، وأن الملائكة حين ينزلون فإن القوم لا يُنظرون ولا يمهلون. ﴿**ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل**﴾ فلم يذكر هنا سبب قوله. ولم يذكر أنه جاءهم بعجل حنيذ... فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة... كما جاء في سورة هود. ذلك أن المجال هنا هو مجال تصديق الرحمة التي ينبئ الله بها عباده على لسان رسوله، لا مجال تفصيلات قصة إبراهيم.

﴿**قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم...**﴾ وهكذا عجلوا له البشرى، وجعل بها السياق دون تفصيل. كذلك يثبت هنا رد إبراهيم ولا يُدخل امرأته وحوارها في هذه الحلقة ﴿**قال أبشرتموني على أن مسنى الكبر فبم تبشرون...**﴾ فقد استبعد إبراهيم في أول الأمر أن يرزق بولد وقد مسه الكبر. وزوجته كذلك عجوز عقيم، كما جاء في مجال آخر... فردته الملائكة إلى اليقين: ﴿**قالوا: بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين**﴾. اليائسين فآب إبراهيم سريعا، ونفى عن نفسه القنوط من رحمة الله: ﴿**قال: ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون...**﴾ وبرزت كلمة الرحمة، في حكاية قول إبراهيم تنسيقاً مع المقدمة في هذا السياق وبرزت معها الحقيقة الكلية أنه لا يقتطعن رحمة ربه إلا الضالون، الضالون عن طريق الله الذين لا يستروحون روحه ولا يحسون رحمته، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته فأنا القلب الندى بالإيمان، المتصل بالرحمان، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد. ومهما ادلهمت حوله الخطوب. ومهما غام الجواب

وتلبّد. وغاب وجه الأمل في ظلام الحاضر... فإن رحمة الله قريب من القلوب المؤمنين المهتدين.

وهنا ـ وقد اطمأن إبراهيم إلى الملائكة، وثابت نفسه واطمأنت للبشرى ـ راح يستطلع سبب مجيئهم وغايته: ﴿**قال: فما خطبكم أيها المرسلون؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين. إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين**﴾ ولا يعرض السياق بجدال إبراهيم عن لوط وقومه هنا كما عرض له في سورة هود بل يصل إخبار الملائكة له بالنبإ كله. ذلك أنه يصدق رحمة الله بلوط وأهله. وعذابه به لامرأته وقومه. وينتهى بذلك دورهم مع إبراهيم، ويمضون لعملهم مع قوم لوط... ﴿**فلما جاء آل لوط المرسلون**﴾.

﴿**قال: إنكم قوم منكرون**﴾. وهكذا يعجل السياق إخبارهم للوط بأنهم الملائكة، جاءوه بما كان قومه يمترون فيه من أخذهم بذنوبهم وإهلاكهم جزاء ما يرتكبون. تصديقا لعذاب الله. وتوكيدا لوقوع العذاب حين تنزل الملائكة بلا إبطاء. قال: إنكم قوم منكرون... قالها. ضيِّقَ النفس بهم، وهو يعرف قومه، ويعرف ماذا سيحاولون بأضيافه هؤلاء، وهو بين قومه غريب، وهم فجرة فاحشون... إنكم قوم منكرون أن تجيئوا إلى هذه القرية وأهلها مشهورون بما يفعلون مع أمثالكم حين يجيئون، ﴿**قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون. وأتيناك بالحق وإنا لصادقون**﴾... وهذه التوكيدات كلها تصور لنا جزع لوط وكربه.

وهو في حيرة بين واجبه لضيفه وضعفه عن حمايتهم في وجه قومه. فجاءه التوكيد بعد التوكيد لإدخال الطمأنينة عليه قبل إلقاء التعليمات إليه: ﴿**فاسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيت تؤمرون...**﴾ والسري سير الليل .والقطع من الليل جزؤه. وقد كان الأمر للوط أن يسير بقومه في الليل قبل الصبح، وأن يكون هو في مؤخرتهم يتفقدهم ولا يدع أحدا منهم يتخلف أو يتلكأ أو يتلفت إلى الديار على عادة المهاجرين الذين يتنازعهم الشوق إلى ما خلفوا من ديارهم... فيتلفتون إليها ويتلكأون. وكان الموعد هو الصبح والصبح قريب: ﴿**وقضينا إليه ذلك الأمر: أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين...**﴾ وأطلعناه على ذلك الأمر الخطير: أن آخر هؤلاء القوم مقطوع في الصباح. وإذا انقطع آخرهم فقد انقطع أولهم.

والتعبير على هذا النحو يصور النهاية الشاملة التي لا تبقى أحدا... فلا بد من الحرص واليقظة كى لا يتخلف أحد ولا يتلفت... فيصيبه ما يصيب أهل المدينة المتخلفين... قدم السياق هذه الواقعة في القصة؛ لأنها الأنسب لموضوع السورة كله... ثم أكمل ما حدث من قوم لوط قبلها. لقد تسامعوا بأن في بيت لوط شبانا صباح الوجوه ـ قيل دلتهم امرأته عليهم ـ ففرحوا بأن هناك صيْداً: ﴿**وجاء أهل المدينة يستبشرون...**﴾ والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة الذى وصل إليه القوم في الدنس والفجور في الفاحشة الشاذة المريضة. يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة يستبشرون بالعثور على شُبّانٍ يعتدون عليهم جهرة وعلانية... فهذه العلانية الفاضحة في طلب هذا المنكر ـ فوق المنكر ذاته ـ شئ بشع لا يكاد الخيال يمثل وقوعه لولا أنه وقع... فقد يشذ فرد مريض فيتوارى شذوذه، ويتخفى بمرضه، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء وهو يخجل أن يطلع عليه الناس.

وإن الفطرة السليمة لتختفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية... بل حين تكون شرعية... وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك... بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها، ويتجمهرون لتحصيلها، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها. إنها حالة من الارتكاس معدومة النظير. فأما لوط فوقف مكروبا يحاول أن يدفع عن ضيفه وعن شرفه. وقف يستثير النخوة الآدميّة فيهم، ويستجيش وجدان التقوى لله. وإنه ليعلم أنهم لا يتقون الله، ويعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم تعد فيها نخوة ولا شعور إنسانى يُسْتَجَاشُ: ﴿**قال: إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون...**﴾ وبدلا من أن يثير هذا في نفوسهم رواسب المروءة والحياء إذ هم يتبجحون فيؤنبون لوطا على استضافة أحد من الرجال كأنما هو الجانى الذى هيأ لهم أسباب الجريمة ودفعهم إليها وهم لا يملكون له دفاعا!.

﴿**قالوا: أو لم ننهك عن العالمين؟...**﴾ ويمضى لوط في محاولته يلوح لهم باتجاه الفطرة السليمة إلى الجنس الآخر. إلى الإناث اللواتى جعلهن الله لتلبية هذا الدافع العميق في نظام الحياة؛ ليكوّن النسل الذى تمتد به الحياة. وجعل تلبية هذا الدافع معهن موضع اللذة السليمة المريحة للجنسين معا ـ في الحالات الطبيعية ـ

ليكُونَ هذا ضمانا لامتداد الحياة، بدافع من الرغبة الشخصية العميقة... يمضى لوط في محاولته هذه: ﴿**قال: هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين...**﴾ ولوط النبئ لا يعرض بناته على هؤلاء الفجار ليأخذوهن سفاحا... إنما هو يلوّح لهم بالطريق الطبيعى الذى ترضاه الفطرة السليمة؛ لينبه فيهم هذه الفطرة.

وهو يعلم أنهم إن ثابوا إليها فلن يطلبوا النساء سفاحا... فهو مجرد هتاف للفطرة السليمة في نفوسهم، لعلها تستيقظ على هذا العرض الذى هُمْ عنه معرضون. وبينما هذا المشهد معروض: القوم في سعارهم المريض يستبشرون ويتلمظون... ولوط يدافعهم ويستثير نخوتهم ويستجيش وجدانهم، ويحرك دواعى الفطرة السليمة فيهم، وهم في سعارهم مندفعون... بينما المشهد البشع معروض على هذا النحو المثير يلتفت السياق بالخطاب لمن أُنزِلَ عليه هذا الكتاب، ولمن يسمع هذا الخطاب الكلام على طريقة العرب في كلامهم بالقسم: ﴿**لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون...**﴾ لتصوير حالتهم الأصلية الدائمة التي لا يرجى معها أن يفيقوا ولا أن يسمعوا هواتف النخوة والتقوى والفطرة السليمة... ثم تكون الخاتمة.

وتحق عليهم كلمة الله: ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين. وإذا نحن أمام مشهد الدمار والخراب، والخسف والهلاك والانقلاب... فهو المناسب لتلك الطبائع المقلوبة التي تستحق هذا العذاب .: ﴿**فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل**﴾ وقد خسف بقرى قوم لوط بظاهرة تشبه ظاهرة الزلازل والبراكين بالحجار الملتهبة المتناثرة فصارت القرى نارا بعد أن كانت أرضا من تراب. وكانت قرى قوم لوط تقع في طريق مطروق بين الحجاز والشام يمر عليها الناس. وهذا المكان يعرف الآن ببحيرة لوط. وفى هذا المكان البحر الميت المعروف... ففى هذا عظات لمن يتفرس ويتأمل، ويجد العبرة في مصارع الغابرين.

وإن كانت الآيات لا تنفع إلا القلوب المؤمنة المتفتحة المستعدة للتلقى والتدبر واليقين: ﴿**إن في ذلك لآيات للمتوسمين. وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين...**﴾ كذلك كان الحال مع قوم شعيب ـ أصحاب الأيكة ـ ومع قوم صالح ـ أصحاب الحجر .: ﴿**وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين. فانتقمنا منهم**

وإنهما لبإمام مبين. ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين. وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين. وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين. فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون...﴾ وقد فصل القرآن قصة شعيب مع قومه: أهل مدين وأصحاب الأيكة في مواضع أخرى فأما هنا فيشير إشارة إلى ظلمهم، وإلى مصرعهم، تصديقا لنبإ العذاب... ولإهلاك القرى بعد انقضاء الأجل الذى أوعد به الكتاب... ومدين والأيكة كانتا بالقرب من قرى قوم لوط. والإشارة الواردة هنا ـ وإنهما لبإمام مبين ـ قد تعنى مدين والأيكة فهما في طريق واضح غير مندثر. وقد تعنى قرية قوم لوط السالفة الذكر وقرية شعيب جمعهما لأنهما في طريق واحد بين الحجاز والشام. ووقوع القرى الدائرة على الطريق المطروق أدعى إلى العبرة... فهى شاهد حاضر يراه الرائح والغادى.

والحياة تجرى من حولها وهى داثرة هابية كأن لم تكن يوما عامرة غامرة... والحياة لا تحفلها وهى ماضية في الطريق. أما أصحاب الحجر فهم قوم صالح. والحجر تقع بين الحجاز والشام إلى وادى القرى. وهى ظاهرة إلى اليوم فقد نحتوها في الصخر في ذلك الزمان البعيد، مما يدل على القوة والأيد والحضارة .: ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين... وهم لم يكذبوا سوى رسولهم صالح. ولكنّ صالحا ليس إلا ممثلا للرسل أجمعين... فلما كذبه قومه قيل: إنهم كذبوا المرسلين. توحيدا للرسالة وللرسل وللمكذبين. في كل أعصار التاريخ، وفى كل جوانب الأرض، على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام.

وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين... وآية صالح كانت الناقة. ولكن الآيات في هذا الكون كثير... والآيات في هذه الأنفس كثير... وكلها معروضة للأنظار والأفكار... وليست الخارقة التي جاءهم بها صالح هى وحدها الآية التي آتاهم الله... وقد أعرضوا عن آيات الله كلها... ولم يفتحوا لها عينا ولا قلبا، ولم يستشعرها فيهم عقل ولا ضمير. وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين. فأخذتهم الصيحة مصبحين. فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون: هذه اللمحة الخاطفة من الأمن في البيوت الحصينة في صلب الجبال إلى الصيحة تأخذهم فلا تبقى لهم مما جمعوا ومما كسبوا ومما بنوا ومما نحتوا شيئا يغنى عنهم ويدفع الهلاك

الخاطف... هذه اللمحة تلمس القلب البشرى لمسة عنيفة... فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر مما يأمن قوم بيوتهم منحوتة في صلب الصخور.

وما يبلغ الاطمئنان بالناس في وقت أشد من اطمئنانهم في وقت الصباح المشرق الوديع... وهاهم أولاء قوم صالح تأخذهم الصيحة مصبحين وهم في ديارهم الحصينة آمنون... فإذا كل شئ ذاهب! وإذا كل وقاية ضائعة! وإذا كل حصين موهون... فما شئ من هذا كله بواقيهم من الصيحة... وهى فرقعة ريح... أو قرقعة صاعقة... تلحقهم فتهلكهم في جوف الصخر المتين! وهكذا تنتهى تلك الحلقات الخاطفة من القصص في السورة. محققة سنة الله في أخذ المكذبين عند انقضاء الأجل المعلوم... فتتناسق نهاية هذا الشوط مع نهايات الأشواط الثلاثة السابقة في تحقيق سنة الله التي لا تتخلف ولا تحيد. وبهذا تنتهى جولة الوعيد والتهديد ويأتى دور النصر والتأييد.

التوجيه الخامس: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم﴾: في هذا التوجيه الجولة الخامسة والأخيرة، وهى تكشف عن الحق الكامن في خلق السماوات والأرض، المتلبس بالساعة وما بعدها من ثواب وعقاب... المتصل بدعوة الرسول ﷺ فهو الحق الأكبر الشامل للكون كله وللبدء والمصير. تلك السنن العامة التي لا تتخلف، والتى تحكم الكون والحياة، وتحكم الجماعات والرسالات، وتحكم الهدى والضلال / وتحكم المصائر والحساب والجزاء. والتى انتهى كل مقطع من مقاطع السورة بتصديق سنة منها، أو عرض نماذج منه في شتى هذه المجالات... تلك السنن شاهدة على الحكمة المكنونة في كل خلق من خلق الله. وعلى الحق الأصيل الذى تقوم عليه طبيعة هذا الخلق.

ومن ثَمّ يعقب السياق في ختام السورة ببيان هذا الحق الأكبر، الذى يتجلى في طبيعة خلق السماوات والأرض وما بينهما. وطبيعة الساعة الآتية لا ريب فيها... وطبيعة الدعوة التي يحملها الرسول، وقد حملها الرسل قبله. ويجمع بينها كلها في نطاق الحق الأكبر الذى يربطها ويتجلى فيها؛ ويشير إلى أن ذلك الحق متلبس بالخلق؛ صادر عن أن الله هو الخالق لهذا الوجود: إن ربك هو الخلاق العليم... فلْيمِض الحق الأكبر في طريقه. ولتمض الدعوة المستندة إلى

الحق الأكبر في طريقها. وليمض الداعية إلى الحق لا يبالى المشركين المستهزئين... فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين. إنا كفيناك المستهزئين. وسنة الله ماضية في طريقها لا تتخلف. والحق الأكبر من ورائها متلبسا بالدعوة وبالساعة وبخلق السماوات والأرض ولكل ما في الوجود الصادر من الخلاق العليم.

إنها لفتة ضخمة تختم بها السورة. لفتة إلى الحق الأكبر الذى يقوم به هذا الوجود. إن هذا التعقيب بتقرير الحق الذى تقوم به السماوات والأرض، والذى كان به خلْقُهما وما بينهما، لتعقيب عظيم الدلالة عميق المعنى، عجيب التعبير... فماذا يشير إليه هذا القول: وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق؟ إنه يوحى بأن الحق عميق في تصميم هذا الوجود. عميق في تكوينه. عميق في تدبيره. عميق في مصير هذا الوجود وما فيه من فيه... عميق في تصميم هذا الوجود فهو لم يخلق عبثا، ولم يكن جزافا، ولم يتلبس بتصميمه الأصيل خداع ولا زيف ولا باطل. والباطل طارئ عليه ليس عنصرا من عناصر تصميمه. عميق في تكوينه. فقوامه من العناصر التي يتألف منها حق، لا وهم ولا خداع.

والنواميس التي تحكم هذه العناصر وتؤلف بينها حق لا يتزعزع ولا يضطرب ولا يتبدل ولا يتلبس به هوى أو خلل أو اختلاف. عميق في تدبيره. فبالحق يُدبّر ويُصرّف وفق تلك النواميس الصحيحة العادلة التي لا تتبع هوى ولا نزوة، إنما تتبع الحق والعدل. عميق في مصيره. فكل نتيجة تتم وفق تلك النواميس الثابتة العادلة. وكل تغيير يقع في السماوات والأرض وما بينهما يتم بالحق وللحق. وكل جزاء يترتب يتبع سنة الله التي لا تحابى. ومن هنا يتصل الحق الذى خلق الله به السماوات والأرض وما بينهما بالساعة الآتية فهى آتية لا تتخلف. وهى جزء من الحق الذى قام به الوجود.

فهى في ذاتها حقيقة، وقد جاءت لتحق الحق... فاصفح الصفح الجميل... فلا تشغل نفسك بالحقد والحنق... فالحق لابد أن يُحق: إن ربك هو الخلاق العليم... الذى خلق. ويعلم ما خلق ومن خلق والخلق كله من إبداعه. فلابد أن يكون أصيلا فيه. ولابد أن ينتهى كل شئ فيه إلى الحق الذى منه بدأ وقام عليه. فهو فيه أصيل وما عداه باطل وزيف طارئ يذهب. فلا يبقى

إلا ذلك الحق الكبير الشامل المستقر في ضمير الوجود. يتصل بهذا الحق الكبير تلك الرسالة التي جاء بها الرسول وذلك القرآن الذى أوتيه: ﴿**ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم**﴾. فهذا القرآن من عناصر ذلك الحق وهو يكشف سنن الخالق ويوجه القلوب إليها.

ويكشف آياته في الأنفس والآفاق. ويستجيش القلوب لإدراكها. ويكشف أسباب الهدى والضلال، ومصير الحق والباطل، والخير والشر، والصلاح والطلاح. فهو من مادة ذلك الحق، ومن وسائل كشفه وتبيانه وهو أصيل أصالة ذلك الحق الذى خُلِقَتْ به السماواتُ والأرضُ. ثابت ثبوت نواميس الوجود. مرتبط بتلك النواميس. وليس أمرا عارضا، ولا ذاهبا. إنما يبقى مؤثرا في توجيه الحياة وتصريفها وتحويلها... مهما يكذب المكذبون ويستهزئ المستهزئون ويحاول المبطلون، الذين يعتمدون على الباطل، وهو عنصر طارئ زائل في هذا الوجود.

ومن ثمّ فإن من أوتى هذه المثانى وهذا القرآن العظيم المستمد من الحق الأكبر. المتصل بالحق الأكبر... لا يمتد بصره ولا تتحرك نفسه لشئ زائل في هذه الأرض من أعراضها الزوائل. ولا يحفل مصير أهل الضلال ولا يهمه شأنهم في كثير ولا قليل. إنما يمضى في طريقه مع الحق الأصيل: ﴿**لاتمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين. وقل إنى أنا النذير المبين...**﴾ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم... والعين لا تمتدّ. إنما يمتد البصر. ولكن التعبير التصويرى يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع... وهى صورة طريفة حين يتصورها المتخيل.

والمعنى وراء ذلك ألاّ يحفل الرسول ذلك المتاع الذى آتاه الله لبعض الناس رجالا ونساءً امتحاناً وابتلاءً... ولا يلقى إليه نظرة اهتمام، أو نظرة استجمال، أو نظرة تمنٍّ... فهو شئ زائل وشئ باطل. ومعه هو الحق الباقى من المثانى والقرآن العظيم. وليس المقصود هو أن يقنع المحرومون بحرمانهم، ويدعوا المتمتعين لمتاعهم، حين تختل الموازين الاجتماعية وينقسم المجتمع إلى محرومين ظلما ومتمتعين بغيا؛ فالإسلام الذي يقوم على الحق، ويقرر أن الحق هو قوام هذا الوجود لا يرضى الظلم أصلا. إنما هو معنى خاص في هذا السياق.

للموازنة بين الحق الكبير والعطاء الذى مع الرسول. والمتاع الصغير الذى يتألق بالبريق وهو ضئيل في طريقه إلى توجيه الرسول ﷺ إلى إهمال القوم المتمتعين، والعناية بالمؤمنين... فهؤلاء هم أتباع الحق الذى جاء به، والذى تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما.

وأولئك هم أتباع الباطل الزائل الطارئ على صميم الوجود. ولا تحزن عليهم... ولا تهتم لمصيرهم السيئ الذى تعلم أن عدل الله يقتضيه؛ وأن الحق في الساعة يقتضيه. ودعهم لمصيرهم الحق. واخفض جناحك للمؤمنين... فالتعبير عن اللين والمودة والعطف بخفض الجناح تعبير تصويرى. وقل إنى أنا النذير المبين. فذلك هو طريق الدعوة الأصيل. ويفرد الإنذار هنا دون التبشير؛ لأنه الأليق بقوم يكذبون ويستهزئون. ويتمتعون ذلك المتاع البراق، ولا يستيقظون منه لتدبر الحق الذى تقوم عليه الدعوة، وتقوم عليه الساعة، ويقوم عليه الكون الكبير... فهم يتلاعبون بالقرآن: يتقاسمونه، ويجعلونه أجزاء مفرقة متناثرة.

يقول فيه كل فريق حسب رأيه ونحدته... فبعضهم يقول سحر. وبعضهم يقول شعر. وبعضهم يقول كهانة. وبعضهم يقول أساطير الأولين: ﴿**كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين...**﴾ وكما اقتسم المشركون في القرآن اقتسم من أتى من بعدهم من الفرق والشيع الخارجين عن منهج القرآن الذى يجمع ولا يفرق، ويوصل ولا يلفق... فهؤلاء وأولئك خرجوا عن منهج الحق. وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون... ﴿**فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون**﴾. وما وراء السؤال معروف... وحين يصل السياق إلى هذا الحد يتجه بالخطاب إلى الرسول ﷺ أن يمضى في طريقه يجهر بما أمره الله أن يبلغه. لا يقعده عن الجهر والمضى شرك مشرك، ولا استهزاء منافق... فسيعلمون مصيرهم حين تنتصر عليهم، وتنتصر دعوتك وتعم المعمورة كلها. شرقها وغربها جنوبها وشمالها... فما عليك إلا أن تمضى في طريقك المرسوم: ﴿**إنا كفيناك المستهزئين...**﴾ فدعوتك مؤيّدة بالنصر. وكلمتك مسموعة في كل قطر.

وما تسمعه وتراه الآن من المشركين والمستهزئين سحابة صيف عن قريب تنذثر: ﴿**ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون... فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾. هذا هو الوعد الحق... فاصبر إن

وعد الله حق وعد النصر المؤزر... ﴿**فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا... فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب**﴾ ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا**﴾. هذه السورة: سورة الفتح والنصر كانت آخر سورة نزلت من القرآن. وسورة أخرى كانت من أوائل ما نزل من القرآن تبشر الرسول بالخير الكثير الذى وعده إياه في الدنيا والآخرة: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر**﴾. وكل هذه الآيات وغيرها من المثانى والقرآن العظيم تُبشِّر وتُنذر وتحرّض وتحذّر: تبشر المؤمنين بالنصر والتأييد. وتنذر الكافرين والمنافقين وتحذرهم من مغبة هذا الوعيد بالتهديد الشديد. وهو آت. قريب غير بعيد: ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين. ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون. ﴿**إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد...**﴾

2 ـ تبشير المؤمنين بالنعم،
وتحذير الكافرين من النقم



النص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

* أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (1)
يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (2) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا
هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6)
وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ
الْأَنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ
وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8)
وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ
لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ
لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ

لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن
كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿11﴾
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ
وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ
يَعۡقِلُونَ ﴿12﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿13﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي
سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ
حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ
وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿14﴾
* وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا
لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿15﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿16﴾
أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿17﴾
وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿18﴾
وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿19﴾ وَٱلَّذِينَ
تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿20﴾
أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿21﴾
إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم
مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿22﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ

وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿23﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم
مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿24﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ
كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ
أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿25﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ
مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿26﴾
ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ
ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿27﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ
بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿28﴾
فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿29﴾
۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ
لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ
وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿30﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ
كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿31﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ
يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿32﴾

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ
رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿33﴾
فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿34﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا
مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا
مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿35﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا
فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ
فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ
فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿36﴾
إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ
وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿37﴾ * وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ
لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿38﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ
ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿39﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ
إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿40﴾

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (47) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (50)

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿**أتى أمر الله**﴾: أمر الله هنا: وعده ووعيده الذى لا بد أن يأتى. ﴿**فلا تستعجلوه**﴾: الاستعجال: طلب تعجيل حصول شئ. ﴿**سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾: تنزه وتقدس عن إشراكهم. ﴿**ينزل الملائكة بالروح على من يشاء من عباده**﴾: المراد بالملائكة هنا جبريل. والروح الوحى. ومنه القرآن المعبر عنه بقوله: وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا. وأمر الله: شأنه الخاص به. قل: الروح من أمر ربى. ومن يشاء من عباده: الرسل الموحى إليهم ﴿**أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون**﴾: الأمر الذى نزل به الملائكة أن أنذروا الكافرين والمشركين بعذاب الدنيا والآخرة فليتقوا ما بصرهم... ﴿**خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون**﴾: تقدم معنى خلق السماوات والأرض بالحق.

﴿**خلق الإنسان من نطفة**﴾: الإنسان هنا غير آدم وحواء وعيسى. والنطفة: ماء الرجل المتخلق منه الولد. وأصل النطفة: الماء الصافى. والخصيم: من صيغ المبالغة. بمعنى كثير الخصام. منطق مجادل عن نفسه مبين لحجته لقن بها ﴿**والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون**﴾: الأنعام: الإبل والبقر والضأن والمعز. والدفء: اسم لما يتدفأ به من اللباس والغطاء والخباء: من أصواف وأوبار وأشعار ﴿**ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون**﴾: الجمال: حسن المنظر وزينة المظهر. والإراحة: فعل الرواح وهو الرجوع بها إلى المراح. والسروح: الظهور بها إلى المراعى. ﴿**وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس**﴾: والحمل: الرفع فوق الظهور.

والأثقال: الأحمال الثقال التي فوق ظهور الإبل. وأصلها كل ما يثقل حمله. والشق: المشقة والصعوبة والكلفة. وأصله مأخوذ من الشق الذى هو الصدع والمكسور النصف؛ كأنه يذهب نصف القوة لما يناله من الجهد. ﴿**والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة**﴾: ثلاثة أصناف مقابل الأنعام وهى الخيل والبغال والحمير وهى معروفة بهذا الاسم لجميع العرب حتى هذا الوقت ﴿**وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر**﴾: القصد: مصدر بمعنى الفاعل. يقال: سبيل قصد وفاض وهو

الطريق المستقيم. والجائر: المائل عن القصد المنحرف. ﴿**هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون**﴾: الشراب: اسم للمشروب. وهو المائع الذى تشتفه الشفتان وتبلغه إلى الحلق فيبلع دون مضغ.

والشجر: يطلق على النبات ذى الساق الصلبة. ويطلق على مطلق العشب والكلإ تغليبا. والإسامة: إطلاق الإبل للمرعى. ﴿**ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون**﴾: مفردات هذه الآية واضحة وكذلك هذه الآية: ﴿**وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾. ﴿**وما ذرأ لكم في الأرض متخلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون**﴾: الذرء: الخلق بالتناسل والتوالد بالحمل والتفريخ. والألوان: جمع لون. وهو كيفية لسطوح الأجسام مدركة بالبصر. تنشأ من امتزاج بعض العناصر بالسطح بأصل الخلقة. أو بصبغها بعنصر ذى لون معروف. وتنشأ من اختلاط عنصرين فأكثر ألوان غير متناهية.

﴿**وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا**﴾: اللحم الطرى: لحم السمك. والطرى: ضد اليابس. والمصدر الطراوة. وفعله طرُو. ﴿**وتستخرجوا منه حلية تلبسونها**﴾: الحلية ما يتحلى به الناس. ويتخذونه للزينة مثل اللؤلؤ والمرجان واللبس جعل الثوب والعمامة والمصوع على الجسد. يقال: لبس التاج ولبس الخاتم ولبس القميص، ﴿**وترى الفلك مواخر فيه**﴾: مخرت السفينة جرت فهى ماخر والجمع مواخر. والمخر: شق الماء. وصوت السفينة ﴿**ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾: الابتغاء من فضل الله التجارة تنقلها السفن من مكان إلى مكان ﴿**وألقى في الأرض رواسى أن تميد بكم**﴾: أصل الإلقاء رمى شئ على الأرض. وإطلاقه على وضع السبل والعلامات تغليب.

ورواسٍ: جمع راسية وهو وصف من الرسوّ وهو الثبات والتمكن في المكان. والميد: التحرك والاضطراب. ﴿**وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون**﴾: منافع الأنهار كثيرة... والسبل: الطرق... والعلامات: الأمارات. والتعريف في النجم تعريف الجنس. والمقصود منه النجوم التي تعارفها الناسُ للاهتداء بها في الليل: في ظلمات البر والبحر. ﴿**أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون**﴾؟: استفهام إنكارى على من سوى بين الخالق والمخلوق. وفرع

على إنكار التسوية استفهام عن عدم التذكر. ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾: كلام جامع للتنبيه على وفرة نعم الله على الناس بحيث لا يستطيع عدها العادون.

﴿**إن الله غفور رحيم**﴾. ﴿**والله يعلم ما تسرون وما تعلنون**﴾: تذكير بهذه الأوصاف من قرب الغفران وكثرة الرحمة وشمول العلم ﴿**والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون**﴾. ﴿**أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون**﴾: المقصود من هذه الآية التصريح بما استفيد ضمنا مما قبلها. وهو نفى الخالقية ونفى العلم عن الأصنام. ﴿**إلهكم إله واحد**﴾: نتيجة حاصل المحاجة الماضية. والمعنى قد ثبت بما تقدم إبطال إلهية غير الله. فثبت أن لكم إلهاً واحداً لا شريك له... ﴿**فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون**﴾: تفريع على قوله: إلهكم إله واحد. ومعنى قلوبهم منكره جاحدة بما هو واقع.

﴿**لاجرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون**﴾: لاجرم: لابُدَّ. لا محالة. ولا شك في ذلك ﴿**وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين**﴾: ماذا كلمة مركبة من ما الاستفهامية واسم الإشارة. ويقع بعدها فعل هو صلة لموصول محذوف ناب عنه اسم الإشارة. والمعنى: ما هذا الذى أنزل؟. والأساطير: جمع أسطار الذى هو جمع سطر. أو هو جمع أسطورة باعتبار أنها قصة مكتوبة ﴿**ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألاساء ما يزرون**﴾: الأوزار حقيقتها الأثقال جمع وِزْر على وزن حمل. وهو الثقل. واستعمل في الجُرم والذنب... ﴿**قد مكر الذين من قبلهم**﴾: المكر: إلحاق الضر بالغير في صورة تمويه بالنصح والنفع.

والمراد بالذين من قبلهم: الأمم السابقة. ﴿**فأتى الله بنيانهم من القواعد**﴾: القواعد: الأسس والأساطين التي تجعل عمدا للبناء. ﴿**فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون**﴾: الخرور السقوط والهوى. والسقف غطاء الفراغ الذى بين جدران البيت. وهو معروف ﴿**ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقونى فيهم**﴾: الخزى: الإهانة والذل والمشاقة: المشادّة في الخصومة. ﴿**قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين**﴾: الذين أوتوا العلم: هم الذين آتاهم الله علم الحقائق من الرسل والأنبياء، والمؤمنين. والسوء عذاب النار. الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم

فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء: ﴿**الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم**﴾ بالشرك وهم من جمعت فيهم أوصاف الكفر فيما تقدم. وإلقاء السلم: الخضوع والاستسلام. وهو قولهم ﴿**ما كنا نعمل من سوء**﴾. والسوء هنا: الشر الذى جرهم إلى عذاب النار.

﴿**بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون**﴾: هذا رد لقولهم: ما كنا نعمل من سوء... فكلمة بلى نفى النفى. ونفى النفى إثبات. ﴿**فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين**﴾: مفردات هذه الآية ظاهرة. ﴿**وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا**﴾: الذين اتقوْا هم المؤمنون. قالوا خيراً: أنزل ربنا خيرا. ﴿**للذين أحسنوا**﴾: هم المؤمنون المتقون... ﴿**فى هذه الدنيا حسنة**﴾: حياة طيبة سليمة من الأكدار والأخطار... ﴿**ولدار الآخرة خير**﴾: لما فيها من النعيم المقيم... ﴿**ولنعم دار المتقين...**﴾ ﴿**جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار...**﴾ ﴿**لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزى الله المتقين**﴾: تلك عقبى الذين اتقوا. وعقبى الكافرين النار.

﴿**الذين تتوفاهم الملائكة طيبين**﴾: هذا مقابل قوله: الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم... فما قيل في مقابله يقال فيه. والطيّب بزنة فيعل. وهو مبالغة في الاتصاف بالطيب. وأصل الطيب: حسن الرائحة. ويطلق على محاسن الأخلاق وكمال النفس. فتوصف به المحسوسات والمعانى... فقوله تعالى هنا طيبين يجمع كل هذه المعانى. ﴿**يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾ تأنيس وتكريم لهؤلاء الطيبين. ﴿**هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك**﴾: ما ينظر هؤلاء المكذبون شيئا إلا أمرين: إتيان الملائكة لقبض أرواحهم. أو إتيان أمر الله باستئصالهم جميعا: ﴿**كذلك كذب الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ ﴿**فأصابهم سيآت ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون...**﴾ فمثل هذا التكذيب الذى حصل من قومك يا محمد حصل من المكذبين من الأمم السابقة فهلكوا جميعا بعذاب الاستئصال.

﴿**وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ كذلك كذب الذين من قبلهم**﴾: بمثل هذا الاحتجاج يحتج المشركون، يتساوى في هذا السابقون واللاحقون والمقصود من ذكره هنا عرض

فنّ من فنون كفر أهل مكة قاصدين بذلك إقحام الرسول وتكذيبه فيما يدعوهم إليه من التوحيد وترك ما هم عليه من الإشراك. وقد فرع على ذلك قطع المحاجة معهم وإعلامهم أن الرسل ما عليهم إلا البلاغ: **﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين...﴾** فليس الرسل بمكلفين بإكراه الناس على الإيمان... حتى تسلك معهم التحكك بهم والإغاظة لهم بهذه الحجج السخيفة.

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾: هذا الكلام تكملة لإبطال شبهة المشركين... وبيان لمضمون جملة فهل على الرسول إلا البلاغ المبين. والمعنى: أن الله بيَّنَ للأمم على ألسنة الرسل أنه يأمرهم بعبادته واجتناب عبادة الأصنام فمن كل أمة أقوام هداهم الله فصدقوا وآمنوا ومنهم أقوام تمكنت منهم الضلالة... فهلكوا... ومن سار في الأرض رأى دلائل استئصالهم: **﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين...﴾** فهؤلاء المكذبون من قومك سائرون على طريق من كان قبلهم من المكذبين فلا ينفع فيهم النصح والحرص على هدايتهم: **﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين...﴾** فذرهم وما يفترون... ومن مفترياتهم ما يقولون مقسمين بجهد الإيمان منكرين: **﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾**.

فرد الله عليهم أبلغ رد بقوله الحق: **﴿بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون...﴾** ثم بين الحكمة من بعث الناس بعد الموت: **﴿ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين...﴾** ثم أتى بالدليل القاطع على إمكان البعث: **﴿إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾**. والبعث شئ داخل تحت الإرادة المطلقة... فهو ممكن ووقوعه حق دخل تحت الخبر الصادق. **﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾**: الذين هاجروا الهجرة الأولى وكانت إلى الحبشة... ثم بعدها صارت الهجرة إلى المدينة بعد بيعة العقبة. وأصل الهجرة في اللغة: الترك. يقال: هجر المكان وهاجره. فالمهاجرة هنا ترك ديار الكفر إلى ديار الأمان.

ومهاجرة المسلمين مكة نتيجة الظلم والاضطهاد الناشئ من زعماء قريش.

والله وعد المهاجرين في الله التبوئة الحسنة في الدنيا. . . والأجر العظيم الأكبر في الأخرى. لو كان يعلم الناس هذا الوعد الحق لتسابقوا إلى الهجرة. ولكن لا بُدّ مع الإيمان مَن صَبْرٍ وتوكُّلٍ. ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر**﴾: رد على إنكار المشركين بعث رسول من البشر. والمأمورون بالسؤال هنا هم المنكرون دعوة محمد ﷺ وأهل الذكر هم أهل الكتب السابقة. والبينات والزبر: الواضحة بالأدلة، والمكتوبة: المفصلة.

والزبر: الكتب التي كتب فيها ما أوحى إلى الرسل. مفرده زبور. مثل: زبور داوود ـ عليه السلام. ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾: الذكر: الكلام الذى شأنه أن يُذكر. والمراد به القرآن. والتبيين إيضاح المعنى بالقول والفعل. والتعريف في الناس للعموم. ولعلهم يتفكرون فيما تُبيّن لهم من معانى القرآن، فيتنفعوا بهديه ويأخذوا حذرهم من تهديده. . . ﴿**أفأمن الذين مكروا السيآت أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون**﴾: الذين مكروا السيآت هم المشركون. والخسف: زلزال شديد تنشق به الأرض فتحدث بانشقاقها هوة عظيمة تسقط فيها الديار والناس. ثم تنغلق الأرض على ما دخل فيها.

والعذاب هنا: يعم كل ما فيه تأليم يستمر زمنا. ومن حيث لا يشعرون يأتيهم من مكان لا يترقبون أن يأتيهم منه ضرٌّ. ﴿**أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين**﴾: التقلب: السعى في شؤون الحياة. . . وأصله الحركة إقبالا وإدبارا. ﴿**أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم**﴾: التخوف في اللغة يأتى مصدر تخوف القاصر بمعنى خاف. ومصدر تخوف المتعدى بمعنى تنقص. فللآية معنيان: إما أن يكون المعنى يأخذهم وهم في حالة توقع نزول العذاب. وإما أن يكون المعنى يأخذهم في حالة تنقص من الأموال والأنفس بالجدب والموتان. ﴿**أو لم يروا إلى ما خلق الله من شئ يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون**﴾: التفيؤ: تفعل من فاء الظل فيئا عاد بعد أن أزاله ضوء الشمس. واليمين والشمائل: الجهات المختلفة.

وسجُداً لله: خضوعا لأمر الله. وهم داخرون خاضعون منقادون. . . ﴿**ولله**

يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون﴾: السجود هنا الطاعة والخضوع والانقياد. وما في السماوات وما في الأرض جميع المخلوقات غير الكفار من الجن والإنس. من دابة على مختلف أنواعها. والملائكة على مختلف منازلهم. وهم لا يستكبرون عن عبادته. **﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾**: الفوقية في قوله: من فوقهم فوقية تصرف ومِلك وشرف: كقوله تعالى: وهو القاهر فوق عباده فهم تحت التصرف لا يخالفون أمر الله.

مبحث الإعراب

﴿أتى﴾ فعل ماضى. **﴿أمرُ﴾** فاعل. **﴿الله﴾** مضاف إلى أمر. **﴿فلا﴾** الفاء للتفريع. ولا ناَهية جازمة. **﴿تستعجلوه﴾** فعل وفاعل ومفعول. **﴿سبحانه﴾** مفعول مطلق منصوب بالفتحة. والضمير فيه مضاف إليه. **﴿وتعالى﴾** فعل ماضى. والفاعل ضمير يعود على الله. وهو معطوف على ما قبله. أى: تنزه وتقدس. **﴿عما﴾** متعلق بما قبله. **﴿يشركون﴾** فعل وفاعل. والجملة صلة ما. أو ما دخلت عليه في تأويل مصدر. أى: عن إشراكهم. ينزل فعل مضارع. والفاعل ضمير يعود على الله. **﴿الملائكة﴾** مفعول به. **﴿بالروح من أمره على من﴾** متعلقات بينزل. **﴿يشاء﴾** فعل مضارع. والفاعل ضمير يعود على الله. والجملة صلة من.

﴿من عباده﴾ بيان لمن. **﴿أنْ﴾** حرف تفسير. **﴿أنذروا﴾** فعل أمر. وفاعله ضمير الجماعة. والجملة مفسرة لا محل لها من الإعراب. **﴿أنه﴾** أن واسمها. **﴿لا إله﴾** لا واسمها. **﴿إلا أنا﴾** بدل من خبر لا المقدر. وجملة لا إله إلا أنا في محل رفع خبر وأنْ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر متعلق بأنذروا. **﴿فاتقون﴾** فعل أمر دخل عليه حرف التفريع. والنون للوقاية: وياء المتكلم المحذوفة للتخفيف في محل نصب مفعول باتقوا. **﴿خلق﴾** فعل ماضى والفاعل ضمير يعود على الله. **﴿السماوات﴾** مفعول به. . **﴿والأرض﴾** معطوف عليه. **﴿بالحق﴾**. متعلق بخلق. **﴿تعالى﴾** مثل نظيره السابق. **﴿عما يشركون﴾** تقدم إعراب نظيره. **﴿خلق الإنسان﴾** مثل خلق السماوات.

﴿من نطْفة﴾ متعلق بخلق. **﴿فإذا﴾** الفاء للتعقيب. وإذا فجائية. **﴿هو﴾** في

محل رفع مبتدأ. ﴿**خصيم مبين**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**والأنعام**﴾ مفعول بفعل مقدر معطوف على ما قبلها. ﴿**خلقها**﴾ تأكيد لخلق المقدر. والضمير فيه مفعول به يعود على الأنعام. ﴿**لكم**﴾ متعلق بخلقها. ﴿**فيها**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**دفء**﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة في محل نصب حال من ضمير الأنعام. ﴿**ومنافع**﴾ معطوف على دفء ﴿**ومنها**﴾ متعلق بما بعده: ﴿**تأكلون**﴾ فعل وفاعل. وهو معطوف على دفء. ﴿**ولكم فيها**﴾ متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿**جمال**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**حين**﴾ منصوب على الظرفية متعلق بالخبر كذلك. ﴿**تريحون**﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل مضافة إلى الظرف.

﴿**وحين تسرحون**﴾ معطوف على حين تريحون. ﴿**وتحمل**﴾ فعل مضارع. والفاعل ضمير يعود على الأنعام. ﴿**أثقالكم**﴾ مفعول به. ﴿**إلى بلدٍ**﴾ متعلق بتحمل. ﴿**لم تكونوا**﴾ تكون واسمها دخل عليها حرف النفى الجازم. ﴿**بالِغِيهِ**﴾ خبر تكون منصوب بالياء. والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إلا**﴾ أداة استثناء. ﴿**بشق**﴾ متعلق ببالغيه. ﴿**الأنفس**﴾ مضاف إلى شق. ﴿**إنّ ربكم**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لرءوف**﴾ رحيم خبرَانِ لإِنّ. واللام لتوكيد الخبر. والجملة تعليل. ﴿**والخيل**﴾ معطوف على الأنعام. ﴿**والبغال والحمير**﴾ معطوفان على الخيل. ﴿**لتركبوها**﴾ فعل وفاعل ومفعول. واللام للتعليل جر المصدر المنسبك مع أن المقدرة بعده. والتقدير: خلق الخيل والبغال والحمير لركوبكم إياها. ﴿**وزينةً**﴾ مفعول لأجله. وهو عطفُ عِلّة على عِلة.

﴿**ويخلق**﴾ فعل مضارع. والفاعل ضمير يعود على الله. والواو للعطف. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول يخلق. ﴿**لا تعلمون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفى. والجملة صلة ما. وجملة ويخلق معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿**وعلى الله**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**قصد**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**السبيل**﴾ مضاف إلى قصد. ومنها ﴿**جائر**﴾ مثلها في الإعراب. والجملتان معترضتان كذلك. ﴿**ولو**﴾ حرف امتناع لامتناع متضمن معنى الشرط. ﴿**شاء**﴾ فعل الشرط. ﴿**لهداكم**﴾ جوابه. ﴿**أجمعين**﴾ توكيد للضمير المنصوب في هداكم. والجملة تذييل لا محل لها من الإعراب. ﴿**هو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذى**﴾ في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**أنزل**﴾ فعل ماضى. وفاعله ضمير يعود على ما عاد عليه

ضمير هو. وهو الله تعالى. وجملة أنزل صلة الذى. ﴿**من السماء**﴾ متعلق بأنزل.

﴿**ماءً**﴾ مفعول أنزل. ﴿**لكم**﴾ متعلق بشراب. ﴿**منه**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿**شراب**﴾ مبتدأ مؤخر. والجملة في محل نصب نعت لماء. ﴿**ومنه شجر**﴾ معطوف على منه شراب. ﴿**فيه**﴾ متعلق بما بعده: ﴿**تسيمون**﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل رفع نعت لشجر. ﴿**ينبت**﴾ فعل مضارع. ﴿**لكم به**﴾ متعلقان بينبت. ﴿**الزرع**﴾ مفعول ينبت. والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**والزيتون والنخيل والأعناب**﴾ معطوفات على الزرع. ﴿**ومن كل**﴾ متعلق بينبت. وهو معطوف على الزرع. ﴿**الثمرات**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**إن في ذلك**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ مقدم. ﴿**لآيةً**﴾ اسمها مؤخر. ﴿**لقوم**﴾ متعلق بآية. ﴿**يتفكرون**﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل جر نعت لقوم.

﴿**وسخر**﴾ معطوف على أنزل. ﴿**لكم**﴾ متعلق بسخر. ﴿**الليل**﴾ مفعول به. ﴿**والنهار والشمس والقمر والنجوم**﴾ معطوفات على الليل. ﴿**مسخرات**﴾ حال من الكل. ﴿**بأمره**﴾ متعلق بمسخرات. ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾ مثل إعراب إن في ذلك لآية. ﴿**وما**﴾ في محل نصب عطف على الليل .﴿**ذرأ**﴾ فعل ماضٍ والفاعل ضمير يعود على الله. والجملة صلة ﴿**لكم في الأرض**﴾ متعلقان بذرأ. ﴿**مختلفا**﴾ حال من ما. ﴿**ألوانه**﴾ فاعل باسم الفاعل .مختلفا. ﴿**إن في ذلك لآية لقوم يذكرون**﴾ سبق إعراب مثلها. ﴿**وهو الذى سخر البحر مثل هو الذى أنزل. . .**﴾ ﴿**لتأكلوا**﴾ تعليل لسخر. ﴿**منه**﴾ متعلق به. ﴿**لحما**﴾ مفعول به. ﴿**طريا**﴾ نعت له.

﴿**وتستخرجوا**﴾ معطوف على لتأكلوا. ﴿**منه**﴾ متعلق به. ﴿**حلية**﴾ مفعول به. ﴿**تلبسونها**﴾ فعل وفاعل ومفعول. والجملة في محل نصب نعت لحلية. ﴿**وترى**﴾ فعل مضارع. والفاعل ضمير المخاطب. ﴿**الفلك**﴾ مفعول به. ﴿**مواخر**﴾ حال من الفلك. ﴿**فيه**﴾ متعلق بمواخر. ﴿**ولتبتغوا**﴾ معطوف على تستخرجوا. ﴿**من فضله**﴾ متعلق بتبتغوا. ﴿**ولعلكم تشكرون**﴾ الجملة من لعل واسمها وخبرها معطوفة على بقية العلل. ﴿**وألقى**﴾ فعل ماضى والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**فى الأرض**﴾ متعلق بألقى. ﴿**رواسى**﴾ مفعول به. وجملة وألقى معطوفة على ما قبلها ﴿**أن تميد**﴾ فعل مضارع منصوب بأن. والفاعل ضمير يعود على الأرض.

﴿**بكم**﴾ متعلق بتميد. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منفى بلا مقدر فيه لام التعليل.

والتقدير: ألقى الله في الأرض رواسى لعدم الاضطراب والميد بكم. ﴿**وأنهاراً**﴾ معطوف على رواسى. ﴿**وسبلا**﴾ كذلك. ﴿**لعلكم تهتدون**﴾ تقدم إعراب مثلها. وهى جملة معترضة هنا. ﴿**وعلامات**﴾ معطوفة على قوله: وأنهارا. ﴿**وبالنجم**﴾ متعلق بجملة الخبر بعدها. ﴿**هم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**يهتدون**﴾ فعل وفاعل. والجملة خبر. ﴿**أفمن**﴾ الهمزة للاستفهام. والفاء للتعقيب ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**يخلق**﴾ فعل مضارع والفاعل ضمير يعود على من. والجملة صلة من. ﴿**كمن**﴾ الكاف في محل رفع خبر مَن. ومن في محل جر بالكاف.

﴿**لايخلق**﴾ فعل مضارع منفى بلا. والجملة صلة مَن. ﴿**أفلا**﴾ الهمزة للاستفهام. والفاء للتفريع. ولا للنفى. ﴿**تذكرون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**وإن تعدوا**﴾ جملة شرطية معطوفة على جملة أفمن يخلق... إلخ. ﴿**نعمة**﴾ مفعول به. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى نعمة. ﴿**لاتحصوها**﴾ جواب الشرط. ﴿**إن الله**﴾ إن واسمها. ﴿**لغفور رحيم**﴾ خبَرَانِ لإنّ. وجملة إن الله... تعليل. ﴿**والله**﴾ مبتدأ. وجملة ﴿**يعلم**﴾ خبره. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**تسرون**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**وما تعلنون**﴾ معطوف على ما تسرون. ﴿**والذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**تدعون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**من دون**﴾ متعلق بتدعون. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى دون.

﴿**لايخلقون شيئا**﴾ فعل وفاعل ومفعول، دخل عليه حرف النفى. والجملة في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**وهم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**يخلقون**﴾ الجملة من الفعل ونائب الفاعل في محل رفع خبر المبتدإ. وهو معطوف على جملة لايخلقون. ﴿**أمواتٌ**﴾ خبر لمبتدإ مقدر؛ والتقدير: هم أموات. ﴿**غيرُ**﴾ نعت لأموات. ﴿**أحياء**﴾ مضاف إلى غير. وجملة والذين تدعون... وجملة والله يعلم... معطوفة على جملة أفمن يخلق كمن لا يخلق... ﴿**وما يشعرون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفى وواو العطف. ﴿**أيان**﴾ منصوب على الظرفية متعلق بيشعرون. ﴿**يبعثون**﴾ جملة الفعل ونائب الفاعل في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿**إلهُكم**﴾ مبتدأ. ﴿**إلهٌ**﴾ خبره. ﴿**واحد**﴾ نعت له.

﴿**فالذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. والفاء للتفريع. ﴿**لايؤمنون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفى. والجملة صلة الذى. ﴿**بالآخرة**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**قلوبُهم**﴾ مبتدأ. ﴿**منكرة**﴾ خبره. وجملة قلوبهم منكرة في محل رفع خبر فالذين. . . ﴿**وهم مستكبرون**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر معطوفة على قلوبهم منكرة. ﴿**لا**﴾ نافية للجنس تعمل عمل إنّ. ﴿**جرم**﴾ اسم لا مبنى على الفتح في محل نصب. ﴿**أنّ الله**﴾ أن واسمها. وجملة ﴿**يعلم**﴾ خبرها. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**يسرون**﴾ صلة ما. ﴿**وما يعلنون**﴾ معطوف على ما يسرون. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر متعلق بجرم؛ والتقدير: لا شك في علم الله السر الذى يسرونه والعلن الذى يعلنونه. . . ﴿**إنه لا يحب**﴾ إن واسمها وخبرها تعليل. ﴿**المستكبرين**﴾ مفعول به. ﴿**وإذا**﴾ ظرف مضمن معنى الشرط.

﴿**قيل**﴾ فعل ماضٍ مبنى للمجهول. ﴿**لهم**﴾ متعلق به. ﴿**ماذا**﴾ كلمة مركبة من ما الاستفهامية واسم الإشارة. ويقع بعدها فعل هو صلة لموصُولٍ محذوفٍ ناب عنه اسم الإشارة. والمعنى: ما هذا الذى أنزل؟. ما في محل رفع مبتدأ. وذا في محل رفع خبره. و﴿**أنزل**﴾ صله ذا. ﴿**ربكم**﴾ فاعل أنزل. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أساطير**﴾ خبر لمبتدإ مقدر. والتقدير: هو أساطير. ﴿**الأولين**﴾ مضاف إلى أساطير. والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**ليحملوا أوزارهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. واللام لام العاقبة. ﴿**كاملة**﴾ حال من أوزارهم. ﴿**يوم**﴾ متعلق بقوله: ليحملوا. ﴿**القيامة**﴾ مضاف إلى يوم. ﴿**ومن أوزار**﴾ معطوف على ليحملوا أوزارهم. ﴿**الذين**﴾ في محل جر مضاف إلى أوزار. ﴿**يضلونهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**بغير**﴾ متعلق بمحذوف حال من الضمير المرفوع. ﴿**علم**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**ألا**﴾ حرف استفتاح.

﴿**ساء**﴾ فعل ماضٍ. ﴿**ما**﴾ في محل رفع فاعل ساء. ﴿**يزرون**﴾ فعل وفاعل صلة ما. وجملة ألا ساء ما يزرون تذييل. ﴿**قد مكر الذين**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التحقيق. ﴿**من قبلهم**﴾ متعلق بمحذوف صلة الذين. ﴿**فأتى الله بنيانهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخلت عليه فاء التعقيب. ﴿**من القواعد**﴾ متعلق بأتى. ﴿**فخر**﴾ مرتب على أتى. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بخبر. ﴿**السقفُ**﴾ فاعل. ﴿**من**

فوقهم﴾ بيان وتوكيد لقوله: فخر عليهم السقف. **﴿وأتاهم العذاب﴾** فعل وفاعل معطوف على قوله: فأتى الله بنيانهم... **﴿من حيث﴾** متعلق بأتاهم. **﴿لا يشعرون﴾** فعل وفاعل دخل عليه حرف النفى. والجملة في محل جر مضافة إلى حيث. **﴿ثم﴾** حرف عطف يفيد الترتيب والتراخى. **﴿يوم﴾** متعلق بيخزيهم. **﴿القيامة﴾** مضاف إلى يوم. **﴿يخزيهم﴾** فعل مضارع والفاعل ضمير يعود على الله. والضمير المتصل بالفعل مفعول.

﴿ويقول﴾ معطوف على يخزيهم. **﴿أين﴾** اسم استفهام مبنى على الفتح في محل رفع خبر مقدم. **﴿شركائى﴾** مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم. وياء المتكلم في محل جر بالإضافة. وحركت بالفتحة تخفيفا. **﴿الذين﴾** في محل رفع نعت لشركاء. **﴿كنتم﴾** كان واسمها. **﴿تشاقونى﴾** فعل وفاعل ومفعول والجملة في محل نصب خبر كان. **﴿فيهم﴾** متعلق بتشاقونى. وجملة كنتم تشاقونى فيهم صلة الموصول. وجملة أين شركائى الذين كنتم تشاقونى فيهم في محل نصب مقول القول. **﴿قال الذين﴾** فعل وفاعل. **﴿أوتوا﴾** فعل ونائب فاعل. **﴿العلم﴾** مفعول به.

وجملة أوتوا العلم صلة الموصول. **﴿إن الخزى﴾** إنّ واسمها. **﴿اليوم﴾** متعلق بالخزى. **﴿والسوء﴾** معطوف عليه. **﴿على الكافرين﴾** متعلق بمحذوف خبر إنّ. وجملة إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين في محل نصب مقول القول. **﴿الذين﴾** في محل رفع خبر لمبتدإ مقدر. والتقدير: هم الذين، **﴿تتوفاهم﴾** فعل مضارع. والضمير المتصل به مفعول. **﴿الملائكة﴾** فاعل. **﴿ظالمى﴾** حال من الذين. وجملة تتوفاهم... صلة الذين. **﴿أنفسهم﴾** مضاف إلى ظالمى. **﴿فألقوا السلم﴾** فعل وفاعل ومفعول. والفاء للتعقيب. **﴿ما﴾** حرف نفى. **﴿كنا﴾** كان واسمها. **﴿نعمل﴾** فعل مضارع. والفاعل ضمير المتكلمين. **﴿من سوء﴾** مفعول جر بحرف الجر الزائد.

وجملة نعمل في محل نصب خبر كان. وجملة ما كنا نعمل من سوء بيان لقوله: فألقوا السلم... **﴿بلى إن الله عليم بما كنتم تعلمون﴾** الجملة من إن واسمها وخبرها ردٌّ لقولهم: ما كنا نعمل من سوء. **﴿فادخلوا﴾** فعل أمر دخل عليه حرف التعقيب. **﴿أبوابَ﴾** مفعول به. **﴿جهنم﴾** مضاف إلى أبواب مجرور بالفتحة

للعلمية، والتأنيث. ﴿**خالدين**﴾ حال من ضمير الجماعة. ﴿**فيها**﴾ متعلق بخالدين ﴿**فَلبئس**﴾: الفاء للتعقيب واللام للقسم. بئس: فعل ماضٍ. ﴿**مثوى**﴾ فاعل بئس. ﴿**المتكبرين**﴾ مضاف إلى مثوى. ﴿**وقيل للذين**﴾ معطوفة على الجمل التي قبلها. ﴿**اتقوا**﴾ صلة الذين. ﴿**ماذا أنزل ربكم**﴾؟ تقدم إعراب مثلها. . . ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**خيرا**﴾ مفعول بفعل مقدر.

والتقدير: أنزل ربنا خيراً. ﴿**للذين**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**أحسنوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**فى هذه**﴾ متعلق بأحسنوا. ﴿**الدنيا**﴾ عطف بيانُ ﴿**حسنةٌ**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**ولدارُ**﴾ مبتدأ. واللام القسم والواو للعطف. ﴿**الآخرة**﴾ مضاف إلى دار. ﴿**خيرٌ**﴾ خبر المبتدأ ﴿**ولنعم دار**﴾ فعل وفاعل دخل عليها لام القسم وحرف العطف. ﴿**المتقين**﴾ مضاف إلى دار. ﴿**جناتُ**﴾ خبر لمبتدإ مقدر. ﴿**عدن**﴾ مضاف إلى جنات. ﴿**يدخلونها**﴾ فعل وفاعل ومفعول. والجملة حال من المتقين. ﴿**تجرى**﴾ فعل مضارع. ﴿**من تحتها**﴾ متعلق به. ﴿**الأنهار**﴾ فاعل. والجملة نعت لجنات. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**فيها**﴾ متعلق بما بعده. . . ﴿**ما**﴾ في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿**يشاءون**﴾ فعل وفاعل صلة ما.

والجملة حال من ضمير الرفع في يدخلونها. ﴿**كذلك**﴾ الكاف في محل نصب نعت لمصدر مقدر. ذلك في محل جر بالكاف. ﴿**يجزى الله المتقين**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب نعت للمتقين. ﴿**تتوفاهم**﴾ فعل مضارع. والضمير المتصل به مفعول. ﴿**الملائكة**﴾ فاعل. ﴿**طيبين**﴾ حال من الضمير المفعول. ﴿**يقولون**﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل نصب حال من الملائكة. ﴿**سلام**﴾ مبتدأ. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بمحذوف خبره. والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**ادخلوا**﴾ فعل أمر. وواو الجماعة فاعل. ﴿**الجنة**﴾ مفعول. ﴿**بما**﴾ متعلق بادخلوا. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**تعملون**﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل نصب خبر كان. وجملة كنتم تعملون صلة ما. ﴿**هل**﴾ حرف استفهام متضمن معنى النفى.

﴿**ينظرون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء ﴿**أن تأتيهم**﴾ فعل مضارع منصوب بأن. والضمير المتصل به مفعول. ﴿**الملائكة**﴾ فاعل. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب بدلا من المفعول المقدر. والتقدير: ما ينظرون

شيئا إلا إتيانُ الملائكة إياهم. ﴿**أو يأتى أمر**﴾ معطوف على أن تاتيهم الملائكة. ﴿**ربك**﴾ مضاف إلى أمر. ﴿**كذلك**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**فعل الذين**﴾ فعل وفاعل. ﴿**من قبلهم**﴾ متعلق بمحذوف صلة الذين. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف. وما للنفى. ﴿**ظلمهم**﴾ فعل ماضٍ. والضمير المتصل مفعول. ﴿**الله**﴾ فاعل. ﴿**ولكن**﴾ استدراك وعطف. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**أنفسهم**﴾ مفعول ﴿**يظلمون**﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل نصب خبر كان.

﴿**فأصابهم**﴾ فعل ماضٍ دخل عليه حرف التفريع. ﴿**سيآتُ**﴾ فاعل ﴿**ما**﴾ في محل جر مضاف إلى سيآت. ﴿**عملوا**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**وحاق**﴾ فعل ماضٍ معطوف على فأصابهم. ﴿**بهم**﴾ متعلق بحاق. ﴿**ما**﴾ في محل رفع فاعل حاق. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**به**﴾ متعلق بكانوا؛ لأن الباء سببية وليست للتعدية: ﴿**يستهزئون**﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل نصب خبر كان. وجملة كانوا يستهزئون صلة ما. ﴿**وقال الذين**﴾ فعل وفاعل. والواو للعطف. ﴿**أشركوا**﴾ صلة الذين. ﴿**لو**﴾ حرف امتناع لامتناع متضمن معنى الشرط. ﴿**شاء الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ما عبدنا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفى. ﴿**من دونه**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**من شئ**﴾ مجرور بمن الزائدة مفعول عبدنا. ﴿**نحن**﴾ ضمير فصل. ﴿**ولا آباؤنا**﴾ معطوف على ضمير المتكلمين المرفوع.

﴿**ولا حرمنا من دونه من شئ**﴾ معطوف على ما عبدنا من دونه من شئ. وجملة ما عبدنا جواب الشرط. ﴿**كذلك**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**فعل الذين**﴾ فعل وفاعل. ﴿**من قبلهم**﴾ متعلق بمحذوف صلة الذين. ﴿**فهل**﴾ استفهام بمعنى النفى. والفاء للتفريع. ﴿**على الرسل**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**إلا البلاغ**﴾ بدل من المبتدإ المقدر؛ والتقدير: ما على الرسل شئ إلا البلاغُ. ﴿**المبينُ**﴾ نعت للبلاغ. ﴿**ولقد بعثنا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التحقيق ولام القسم وواو العطف. ﴿**فى كل**﴾ متعلق ببعثنا. ﴿**أمة**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**رسولا**﴾ مفعول به. ﴿**أن اعبدوا الله**﴾ فعل وفاعل ومفعول. والجملة مفسَّرة بأنْ. ﴿**واجتنبوا الطاغوت**﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوفة على أن اعبدوا الله. ﴿**فمنهم**﴾ الفاء فاء الفصيحة. ومنهم تبعيضية مبتدأ. ﴿**من**﴾ في محل رفع خبر. ﴿**هدى الله**﴾ فعل وفاعل صلة من.

﴿**ومنهم من حقت عليه الضلالة**﴾ إعرابها مثل إعراب المعطوف عليها.

﴿**فسيروا**﴾ فعل أمر والفاعل ضمير لجملته. والفاء للتفريع. ﴿**فى الأرض**﴾ متعلق بسيروا. ﴿**فانظروا**﴾ مرتب على فسيروا. ﴿**كيف**﴾ في محل نصب خبر كان مقدم. ﴿**كان عاقبة**﴾ كان واسمها. ﴿**المكذبين**﴾ مضاف إلى عاقبة، ﴿**إن تحرص**﴾ فعل مضارع مجزوم بإن الشرطية. والفاعل ضمير المخاطب يعود على النبئ ﷺ ﴿**على هداهم**﴾ متعلق بتحرص. ﴿**فإن الله**﴾ إن واسمها والفاء رابطة لجواب الشرط. ﴿**لا يُهدى**﴾ فعل مضارع مبنى للمجهول دخل عليه حرف النفى. ﴿**من**﴾ في محل رفع نائب الفاعل. ﴿**يضل**﴾ فعل مضارع. والفاعل ضمير يعود على الله. والجملة صلة من.

وجملة لا يهدى في محل رفع خبر إنّ. ﴿**ومالهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم وما نافية. والواو للعطف. ﴿**من ناصرين**﴾ مبتدأ مؤخر جُرَّ بحرف الجر الزائد. ﴿**وأقسموا**﴾ فعل وفاعل، والواو للعطف. ﴿**بالله**﴾ متعلق بأقسموا. ﴿**جهد**﴾ منصوب على حال من الواو. ﴿**أيمانهم**﴾ مضاف إلى جهد. ﴿**لا يبعث الله من يموت**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف النفى والجملة عطف بيان لأقسموا. ﴿**بلى**﴾ تقدم معناه. ﴿**وعدا عليه حقا**﴾ وعدا مفعول مطلق عليه متعلق بمحذوف نعت لوعد. حقا نعت ثان له. ﴿**ولكن أكثر**﴾ لكنّ واسمها. والواو للعطف. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى أكثر. ﴿**لايعلمون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفى. والجملة في محل رفع خبر لكنّ. ﴿**ليبين**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل. والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**لهم**﴾ متعلق بيبين. ﴿**الذى**﴾ في محل نصب مفعول يبين.

﴿**يختلفون**﴾ فعل وفاعل صلة الذى. ﴿**فيه**﴾ متعلق بيختلفون. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بمضمون قوله: وعدا عليه حقا. والمعنى جعل البعث حقا لتبيين الذى يختلفون فيه، ﴿**وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين**﴾ معطوف عليه وهو مثله في الإعراب. أى: وليعلم الذين كفروا بإظهار كذبهم... ﴿**إنما**﴾ كافة ومكفوفة، ﴿**قولنا**﴾ مبتدأ. ﴿**لشئ**﴾ متعلق به. ﴿**أن نقول**﴾ فعل مضارع منصوب بأن. والفاعل نحن وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع خبر المبتدإ. ﴿**له**﴾ متعلق بنقول. ﴿**كن**﴾ فعل أمر. والفاعل الشئ المخاطب. والجملة مقول القول. ﴿**فيكون**﴾ مرتب على قوله: كن وكان تامة تكتفى بمرفوعها.

وجملة إذا أردناه شرطية تحقق المراد. ﴿**والذين**﴾ في محل رفع مبتدأ ﴿**هاجروا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**فى الله**﴾ متعلق بهاجروا ﴿**من بعد**﴾ كذلك. ﴿**ما**﴾ في محل جر مضاف إلى بعد. ﴿**ظلموا**﴾ فعل ونائب فاعل صلة ما. ﴿**لنبوئنهم**﴾ فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد. والفاعل نحن. والضمير المتصل بالفعل مفعول. واللام للقسم. ﴿**فى الدنيا**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**حسنة**﴾ نعت لمفعول مطلق مقدر؛ والتقدير: لنبوئنهم في الدنيا تبوئة حسنة وجملة لنبوئنهم في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**ولأجر**﴾ مبتدأ. ﴿**الآخرة**﴾ مضاف إلى أجر. ﴿**أكبر**﴾ خبر المبتدإ. وجملة ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ شرطية حذف جوابها. جاءت معترضة بين الصفة وموصوفها. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع نعت للذين هاجروا. ﴿**صبروا**﴾ صلة الذين. ﴿**وعلى ربهم**﴾ متعلق بما بعده: ﴿**يتوكلون**﴾ فعل وفاعل.

والجملة نعت ثان للذين هاجروا جاء معطوفا على الذين صبروا. ﴿**وما أرسلنا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفى وواو العطف. ﴿**من قبلك**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**إلا رجالا**﴾ بدل من المفعول المقدر. ﴿**يوحى**﴾ فعل مضارع مبنى للمجهول. ﴿**إليهم**﴾ متعلق بيوحى. وجملة يوحى إليهم في محل نصب نعت لرجال. ﴿**فاسألوا أهل**﴾ فعل وفاعل ومفعول. والجملة مرتبة على ما قبلها. ﴿**الذكر**﴾ مضاف إلى أهل. ﴿**إن كنتم لا تعلمون**﴾ جملة من كان واسمها وخبرها شرطية حذف جوابها. ﴿**بالبينات**﴾ متعلق بمحذوف صفة لرجالا. ﴿**والزبر**﴾ معطوف على البينات.

﴿**وأنزلنا**﴾ فعل وفاعل والواو للعطف. ﴿**إليك**﴾ متعلق بأنزلنا. ﴿**الذكر**﴾ مفعول به. ﴿**لتبين**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل. وتقدم مثله في قوله: ليبين لهم... ﴿**للناس**﴾ متعلق بتبين ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به، ﴿**نزل إليهم**﴾ مثل يوحى إليهم. وجملة نزل إليهم صلة ما. ﴿**ولعلهم**﴾ لعل واسمها. والواو للعطف. ﴿**يتفكرون**﴾ فعل وفاعل. والجملة في محل رفع خبر لعل. ﴿**أفأمن الذين**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التعقيب وهمزة الاستفهام. ﴿**مكروا السيآت**﴾ فعل وفاعل ومفعول صلة الذين. ﴿**أن يخسف الله**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه أن الناصبة المصدرية. وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب

مفعول بأمن. ﴿**بهم**﴾ متعلق بيخسف. ﴿**الأرض**﴾ مفعول به. ﴿**أو يأتيهم**﴾ معطوف على يخسف. والضمير المتصل بالفعل مفعول. ﴿**العذاب**﴾ فاعل. ﴿**من حيث**﴾ متعلق بيأتيهم.

﴿**لا يشعرون**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف النفى وجملة لا يشعرون في محل جر مضافة إلى حيث. ﴿**أو يأخذهم**﴾ معطوف على يأتيهم العذاب، ﴿**فى تقلبهم**﴾ متعلق بيأخذهم. ﴿**فماهم**﴾ ما واسمها. والفاء للتعقيب. ﴿**بمعجزين**﴾ خبر ما. جُرَّ بحرف الجر الزائد لفظا، ونصب محلا. ﴿**أو يأخذهم على تخوف**﴾ معطوف على أو يأخذهم في تقلبهم وهو مثله في الإعراب. ﴿**فإن ربكم**﴾ إن واسمها دخل عليها فاء التفريع. ﴿**لرءوف رحيم**﴾ خبران لأنّ. والجملة تعليل. ﴿**أو لم يروا**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه لم الجازمة، وواو العطف، وهمزة الاستفهام. ﴿**إلى ما**﴾ متعلق بيروا ﴿**خلق الله**﴾ صلة ما. ﴿**من شئ**﴾ بيان لما. ﴿**يتفيأ ظلاله**﴾ فعل وفاعل. وجملة يتفيأ ظلاله في محل جر نعت لشئ. ﴿**عن اليمين**﴾ متعلق بيتفيأ. ﴿**والشمائل**﴾ معطوف على اليمين.

﴿**سجدا**﴾ حال من الضمير في ظلاله عائدٌ على شئ. ﴿**لله**﴾ متعلق بسجدا. ﴿**وهم داخرون**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر معطوفة على سجدا. وهى حال مثلها. ﴿**ولله**﴾ الواو للعطف. ولله متعلق بيسجد. ﴿**ما**﴾ في محل رفع فاعل يسجد. ﴿**فى السماوات**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿**وما في الأرض**﴾ معطوفة على ما في السماوات. ﴿**من دابة**﴾ بيان لما. ﴿**والملائكة**﴾ معطوف على ما في السماوات. ﴿**وهم**﴾ مبتدأ وجملة ﴿**لا يستكبرون**﴾. خبر المبتدإ. ﴿**يخافون ربهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**من فوقهم**﴾ متعلق بيخافون. والجملة بيانية ﴿**ويفعلون**﴾ معطوف على يخافون. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**يؤمرون**﴾ الجملة من الفعل ونائب الفاعل صلة ما.

مبحث الاسلوب البلاغي

ربط هذه السوره بما قبلها ظاهر ..ففي آخر سورة الحجر واعبد ربك حتى يأتيك اليقين، وفي أول سورة النحل ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه...**﴾ فصدرت السورة بالوعيد المصوغ في صورة الخبر بأن قد حل ذلك المتوعد به... فجيء

بالماضي المراد به المستقبل المحقق الوقوع، بقرينه تفريع ﴿**فلا تستعجلوه**﴾، لأن النهي عن استعجال حلول ذلك الأمر يقتضي أنه لما يحل بعد ..وفي التعبير عنه بأمر الله إبهام يفيد تهويله وتعظيمه لإضافته لمن لا يعظم عليه شئ ..وقد عبر عنه تارات بوعد الله ..ومرات بأجل الله ..ونحو ذلك . والخطاب للمشركين ابتداء .ولما كان استعجالهم ذلك من نتائج إشراكهم المستتبع لنسبة الله مالا يليق به من العجز والاحتياج إلى الغير واعتقاد أن أحدا يحجزه عن إنجاز وعده وإمضاء وعيده. . . وقد قالوا في تضاعيفه: إن صح مجئ العذاب فالأصنام تخلصنا عنه بشفاعتها، رُدَّ ذلك فقيل بطريق الاستئناف: سبحانه وتعالى عما يشركون؛ لأنّ هذه الجملة هى المقصودة بالوعيد.

إن الوعيد والزجر إنما كانا لأجل إبطال الإشراك. . . فكانت جملة أتى أمر الله كالمقدمة، وجملة ﴿**سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ كالقصد. ﴿**ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده. أن أنذروا أنه لاإله إلا أنا فاتقون**﴾: من أعظم النعم بعثة الرسل إلى الأمم. . . ففى الآية بيان للشريعة المنزلة من عند الله بواسطة الملائكة. وقد أحاطت هذه الآية بالشريعة كلها. . . فجملة أنه لاإله إلا أنا تنبيه على ما يرجع من الشريعة إلى إصلاح الاعتقاد. وهو الأمر بكمال القوة العقلية. وجملة فاتقون تنبيه على الاجتناب والامتثال اللذين هما منتهى كمال القوة العملية. . . ﴿**خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون**﴾: من الوحى المنزل إلى الخلق المفصل. وهو يفصل النعم أولا بأول. . . فأول هذه النعم خلق السماوات والأرض وما فيهما من الدلائل والحكم. . . فهذا هو الدليل العقلى على التوحيد بعدما دلل عليه بالوحى المنزل في الكتاب المجيد. . . ثم بعدما نبه على صنعه الكلى المنطوى على تفاصيل مخلوقاته شرع ما فيه من خلائقه. . . فبدأ بفعله المتعلق بالأنفس فقال: ﴿**خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين. . .**﴾ والاستدلال بخلق السماوات والأرض أكبر من سائر الأدلة وأجمع؛ لأنها محوية لهما، ولأنهما من أعظم الموجودات. . . فلذلك ابتدأ بهما، ولكن ما فيه من إجمال المحويات أن يعقب بالاستدلال بأصناف الخلق والمخلوقات. . . فثنى بخلق الإنسان وأطواره.

وهو أعجب الموجودات المشاهدة. . . ثم بخلق الحيوان وأحواله؛ لأنه يجمع

الأنواع التي تلى الإنسان في إتقان الصنع مع ما في أنواعها من المِنَنِ... ثم يخلق ما به حياة الإنسان والحيوان وهو الماء والنبات... ثم يخلق أسباب الأزمنة والفصول والمواقيت... ثم يخلق المعادن الأرضية. وانتقل إلى الاستدلال بخلق البحار... ثم بخلق الجبال والأنهار والطرقات وعلامات الاهتداء في السير. وقد ذكر للاعتبار بخلق الإنسان ثلاثة اعتبارات: جنسه المعلوم بماهيته وخواصه من الحيوانية والناطقية وحسن القوام، وبقية أحوال كونه. ومبدأ خلقه وهو النطفة التي هى أمهن شئ نشأ منها أشرف نوع. ومنتهى ما شرفه به وهو العقل. وذلك في جملتين وشبه جملة: خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين!. والخصيم من صيغ المبالغة.

ومبين زيادة بيان لخصيم والإتيان بحرف إذا المفاجأة استعارة تبعية: استعير الحرف الدال على معنى المفاجأة لمعنى ترتب الشئ على غير ما يظن أن يترتب عليه. وإقحام حرف المفاجأة جعل الكلام مُفهِماً أمرين: التعجب من تطور الإنسان من أمهن حالة إلى أبدع حالة. وهى حالة الخصومة والإبانة الناشئتين عن التفكير والتعقل. والدلالة على كفرانه النعمة وصوفه ما أنعم به عليه في عصيان المنعم عليه... فالجملة في حد ذاتها تنويه، وبضميمة حرف المفاجأة أدمجت مع التنويه التعجيب. **﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم﴾**: استدلال بخلق الأنعام وما فيها من منافع للإنسان بعد الاستدلال بخلق الإنسان نفسه زيادة عليه في الامتنان ولهذا نَجِدُ في الكلام التفاتا من الغيبة إلى الخطاب. وفيه تأكيد لقصد تقوية الحكم حيث جعل الكلام من باب الاشتغال اهتماما بما في الأنعام من الفوائد... فيكون الكلام امتنانا على المخاطبين وتعريضا بهم.

فإنهم كفروا نعمة الله بخلقها. وخص الدفء بالذكر من بين عموم المنافع للعناية به. وعطف منافع على دفء من عطف العام على الخاص. ثم عطف الأكل منها لأنه من ذواتها لا من ثمراتها وتقديم المجرور في قوله: ومنها تأكلون للاهتمام. والإتيان بالمضارع في تأكلون، لأن ذلك من الأعمال المتكررة. وكذلك الإتيان بالمضارع في قوله: حين تريحون وحين تسرحون... ففى تكررها تكرر

النعمة. وضمير وتحمل أثقالكم عائد إلى بعض الأنعام بالقرينة. وهي الجمال التي يزداد بها الجمال وقد أفاد وتحمل أثقالكم معنى تحملكم وتبلغكم بطريقة الكناية القريبة من التصريح. وجملة لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس صفة لبلد. وهى مفيدة معنى البعد.

وجملة إن ربكم لرءوف رحيم تعليل لما سبق من خلق الأنعام وفائدتها للناس. ﴿**والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة**﴾: القول في مناط الاستدلال وما بعده من الامتنان والعبرة في كل كالقول فيما تقدم... وقد اقتصر على منة الركوب في هذه الأنواع الثلاثة ولم يذكر الحمل عليها؛ لأنهم لم يكونوا يستعملونها للسفر في التجارة. وهذا واقع موقع الامتنان، فكان مقتصرا على ما ينتفع به المخاطبون الأولون في عادتهم. ومن الإعجاز العلمى في القرآن قوله: ﴿**ويخلق ما لا تعلمون...**﴾ فهذه الجملة من معجزات القرآن الغيبية، وأنها إيماء إلى أن الله سيلهم البشر اختراع مراكب هى أجدى عليهم مما ذكر من الخيل والبغال والحمير. وهى شاحنات النقل البرية والبحرية والجوية مما كانت لم تخطر على بال المفسرين الأوائل.

فكل هذه مخلوقات نشأت في عصور متتابعة لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كل منها. وإلهام الله الناس لاختراعها هو ملحق بخلق الله... فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم وبما تدرجوا في سلم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها فهى بذلك مخلوقة لله تعالى؛ لأن الكل من نعمته. ﴿**وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين**﴾: هذه الآية معترضة، اقتضت اعتراضها مناسبةُ الامتنان بنعمة تيسير الأسفار بالرواحل والخيل والبغال والحمير... فلما ذكرت نعمة تيسير السبيل الموصلة إلى المقاصد الجثمانية ارتقى إلى التذكير بسبيل الوصول إلى المقاصد الروحانية. وهو سبيل الهدى... فكان تعهد الله بهذه السبيل نعمة أعظم من تيسير المسالك الجسمانية؛ لأن سبيل الهدى تحصل به السعادة الأبدية، وهذه السبيل هى موهبة العقل الإنسانى الفارق بين الحق والباطل وإرسال الرسل لدعوة الناس إلى الحق. وتذكيرهم بما يغفلون عنه.

وإرشادهم إلى مالا تصل إليه عقولهم، أو تصل إليه بمشقة على خطر من

التورط في بنيات الطريق. ويزيد هذه المناسبة بيانا أنه لما شرحت دلائل التوحيد ناسب التنبيه على أن ذلك طريق للهدى وإزالة للعذر، وأن من بين الطرق التي يسلكها الناس طريق ضلال وجور. . . ولم يضف الطريق الجائر إلى الله؛ لأن سبيل الضلال اخترعها أهل الضلالة اختراعا لا يشهد له العقل الذى فطر الله الناس عليه، وقد نهى الله الناس عن سلوكها. وجملة ولو شاء لهداكم أجمعين تذييل. **﴿هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون﴾**: استئناف لذكر دليل آخر من مظاهر بديع خلق الله تعالى. أدمج فيه امتنان بما يأتى به ذلك الماء العجيب من المنافع للناس من نعمة الشرب ونعمة الطعام للحيوان الذى به قوام حياة الناس وللناس أنفسهم. وصيغة تعريف المسند إليه والمسند أفادت الحصر.

وهذا قصر على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأن المخاطبين لاينكرون ذلك، ولا يدّعون له شريكا في ذلك، ولكنهم لما عبدوا أصناما لم تنعم عليهم بذلك، كان حالهم حال من يدّعى أن الأصنام أنعمت عليهم بهذه النعم فنزلوا منزلة من يدّعى الشركة لله في الخلق. . . فكان القصر إفراد تَخْرِيجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وذكر في الماء منّتيْنِ: الشراب منه. والإنبات للشجر والزرع. . . وجملة لكم منه شراب صفة لماء. ولكم متعلق بشراب قدم عليه للاهتمام. ومنه خبر مقدم كذلك وتقديمه سوغ أن يكون المبتدأ نكرة.

ومن الدقائق البلاغية الإتيان بحرف «فى» الظرفية، في قوله: وفيه تسيمون. فالإسامة فيه تكون بالأكل منه والأكل مما تحته من العشب **﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات﴾**: بيان وتفصيل للنعم الفائضة عليهم من الأرض بطريق الاستئناف. وإيثار صيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار، ولأنه سنته الجارية على مر الدهور. وهذا الترتيب في أنواع النبات يلفت النظر لما في كل نوع من الفوائد. وعطف ومن كل الثمرات على ما تقدمه ليفيد أن الثمرات تختلف باختلاف الأرض والجو.. وجملة **﴿إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾**: تذييل. ونيطت دلالة هذه بوصف التفكير؛ لأنها دلالة خفية لحصولها بالتدريج. وهو تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بما في ذلك من دلالة على تفرد الله بالإلهية بأنهم قوم لا يتفكرون.

﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾: آيات أخرى على دقيق صنع الله تعالى وعلمه ممزوجة بامتنان. وهذا انتقال للاستدلال بإتقان الصنع على وحدانية الصانع وعلمه. وإدماج بين الاستدلال والامتنان. ونيطت الدلالات بوصف العقل؛ لأن أصل العقل كافٍ في الاستدلال بها على الوحدانية والقدرة. إذ هي دلائل بينة واضحة حاصلة بالمشاهدة كل يوم وليلة. وجمع الآيات هنا لما في الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم المسخرات من الدلائل والعبر عند الإنسان العاقل. **﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون﴾**: دلالة مفردة مستقلة نتجت عن دلالة ما في الأرض السابقة لما في هذه الدلالة من لفت النظر إلى الألوان المختلفة في النبات.

ونيط الاستدلال باختلاف الألوان بوصف التذكر؛ لأنه استدلال يحصل بمجرد تذكر الألوان المختلفة؛ إذ هي مشهورة. **﴿وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾**: القول في هذا الاستدلال وإدماج الامتنان فيه كالقول فيما سبق. وهذا شروع في تعداد النعم المتعلقة بالبحر إثر تفصيل النعم المتعلقة بالبر حيوانا ونباتا... ونعم البحر كثيرة: أكل اللحم الطرى الشهىّ. واستخراج اللؤلؤ والمرجان لتصاغ منه الزينة والحلىّ... ومخر البواخر فيه جالبة للناس الخير الوفى... وابتغاء فضل الله من الرزق الهنىّ والعيش الرخى ولعلكم تشكرون فتعترفون بفضل الله الواحد القوىّ! .**﴿وألقى في الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾** انتقال إلى الاستدلال والامتنان بِمَا على سطح الأرض من المخلوقات العظيمة التي في وجودها لطف بالإنسان. وهذه المخلوقات لما كانت مجعولة كالتكملة للأرض، وموضوعة على ظاهر سطحها عبّر عن خلقها ووضعها بالإلقاء الذى هو رمى شئ على الأرض. وإلقاء الجبال الراسيات والأنهار الجاريات والسبل الواضحات والعلامات الثابتات والنجوم الهاديات لِمَنْ أعظم الدلائل وأوضح البراهين على وحدة الخالق الذى خلق كل هذه المخلوقات: **﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾؟؟!!.**

وجملة **﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾** موصولة بالعطف على قوله: أفمن

يخلق كمن لايخلق. . . فهى كالتكملة لها؛ لأنها نتيجة لما تضمنته تلك الأدلة من الامتنان. . . وهى بمنزلة التذييل للامتنان؛ لأن فيها عموما يشمل النعم المذكورة وغيرها. وهذا كلام جامع للتنبيه على وفرة نعم الله تعالى على الناس بحيث لا يستطيع عدَّها العادّون. وإذا كانت كذلك فقد حصل التنبيه إلى كثرتها بمعرفة أصولها وما يحويها من العوالم. وفى هذا إيماء إلى الاستكثار من الشكر على مجمل النعم. وتعريض بفظاعة كفرِ مَنْ كفروا بهذا المُنْعِم. وتغليظ التهديد لهم. . . وجملة **﴿إن الله لغفور رحيم﴾** استئناف عقب به تغلَيظُ الكفر والتهديد عليه تنبيها على تمكينهم من تدارك أمرهم بأن يقلعوا عن الشرك ويتأهبوا للشكر بما يطيقون. على عادة القرآن من تعقيب الزواجر بالرغائب؛ كى لا يقنط المسرفون.

وقد خولف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم؛ إذ وقع هناك: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار؛ لأن تلك جاءت في سياق وعيد وتهديد عقب قوله: ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كُفرا. . . فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله. وأما هذه الآية فقد جاءت خطابا للفريقين كما كانت النعم المعدودة عليهم منتفعا بها كلاهما. . . ثم كان من اللطائف أن قوبل الوصفان اللذان في آية سورة إبراهيم: لظلوم كفار، بوصفين هنا: لغفور رحيم. إشارة إلى أن تلك النعم كانت سببا لظلوم الإنسان وكفره، وهى سبب لغفران الله ورحمته. والأمر في ذلك منوط بعمل الإنسان.

﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾: وصلت هذه الآية بالعطف على جملة أفمن يخلق كمن لا يخلق. . . فبعد أن أثبت أن الله منفرد بصفة الخلق دون غيره بالأدلة العديدة. . . ثم باستنتاج ذلك بقوله: أفمن يخلق كمن لا يخلق انتقل هنا إلى إثبات أنه منفرد بعموم العلم. ولم يُقدم لهذا الخبر استدلال، ولا عقب بالدليل، لأنه مما دلت عليه أدلة الانفراد بالخلق لأن خالق أجزاء الإنسان الظاهرة والباطنة يجب له أن يكون عالما بدقائق حركات تلك الأجزاء. وهى بين ظاهر وخفى. . . فلذلك قال: والله يعلم ما تسرون وما تعلنون. والمخاطب هنا هم المخاطبون بقوله: أفلا تذكرون. وفيه تعريض بالتهديد والوعيد بأن الله محاسبهم على كفرهم. وفيه إعلام بأن أصنامهم بخلاف ذلك، كما دل عليه تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى؛ فإنه يفيد القصر لرد دعوى الشركة.

﴿**والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون**﴾: المقصود من هذه الآية التصريح؛ بما استفيد ضمنا مما قبلها. وهو نفى الخالقية ونفى العلم عن الأصنام... فالخبر الأول، وهو جملة لا يخلقون شيئا استفيد من جملة: أفمن يخلق كمن لا يخلق. وعطف وهم يخلقون ارتقاء في الاستدلال على انتفاء إلهيتها. والخبر الثانى وهو جملة أموات غير أحياء تصريح بما استفيد من جملة: والله يعلم ما تسرون وما تعلنون، بطريقة نفى الشئ بنفى ملزومه. وهى طريقة الكناية التي هى كذكر الشئ بدليله... فنفى الحياة عن الأصنام في قوله: غير أحياء يستلزم نفى العلم عنها، لأنّ الحياة شرط في قبول العلم. ولأن نفى أن يكونوا يعلمون ما هو من أحوالهم يستلزم انتفاء أن يعلموا أحوال غيرهم بدلالة فحوى الخطاب. ومن كان هكذا فهو غير إله.

وأُسند يُخلقون إلى النائب لظهور الفاعل من المقام... وجملة غير أحياء تأكيد لمضمون جملة أموات؛ للدلالة على عراقة وصف الموت فيهم... وجملة وما يشعرون أيان يبعثون إدماج لإثبات البعث عقب الكلام على إثبات الوحدانية لله تعالى. وتمهيد لوجه التلازم بين إنكار البعث وبين إنكار التوحيد في قوله فيما يأتى: فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون... فالظاهر من هذا التوجيه أن ضميرى يشعرون، ويبعثون، عائدان إلى الكفار على طريق الالتفات.

والمقصود من نفى شعورهم بالبعث تهديدهم بأن البعث الذى أنكروه واقع، وأنهم لا يدرون متى يبغتهم. ﴿**إلهكم إله واحد**﴾: استئناف نتيجة لحاصل المحاجة الماضية... فقد ثبت بما تقدم إبطال إلهية غير الله، فثبت أن لكم إلها واحدا لا شريك له. ولكون ما مضى كافيا في إبطال إنكارهم الوحدانية عريت الجملة عن المؤكد، تنزيلا لحال المشركين بعدما سمعوا من الأدلة منزلة من لا يظن به أنه يتردد في ذلك. وتفرع عليه الإخبار بجملة ﴿**فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة...**﴾ وهو تفريع الإخبار عن الإخبار... والتعبير عن المشركين بالموصول وصلته، والذين لا يؤمنون لأنهم قد عُرفوا بمضمون الصلة واشتهروا بها اشتهارا لَمْزٍ وتنقيصٍ عند المؤمنين، وللإيماء إلى أن لهذه الصلة ارتباطا باستمرارهم على العناد؛ لأن انتفاء إيمانهم بالبعث والحساب قد جرأهم على نبذ

دعوة الإسلام ظِهْرِيّاً فلم يتوقعوا مؤاخذة على نبذها، على تقدير أنها حق فينظروا في دلائل أحقيتها مع أنهم يؤمنون بالله، ولكنهم لا يؤمنون بأنه أعد للناس يوم جزاءٍ على أعمالهم.

ومعنى قلوبهم منكرة: جاحدة بما هو واقع. استعمل الإنكار في جحد الأمر الواقع لأنه ضد الإقرار، فحذف متعلق منكرة لدلالة المقام عليه وعبر بالجملة الاسمية: للدلالة على أن الإنكار ثابت لهم دائم لاستمرارهم على الإنكار بعدما تبين من الأدلة... وكذلك جملة ﴿**وهم مستكبرون**﴾ بنيت على الاسمية للدلالة على تمكن الاستكبار منهم. وجملة ﴿**لا جرم أن الله يعلم...**﴾ معترضة بين الجملتين المتعاطفتين... وجملة ﴿**أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون**﴾ خبر مستعمل كناية عن الوعيد... فلذلك عقّب بجملة ﴿**إنه لا يحب المستكبرين**﴾ الواقعة موقع التعليل والتذييل لها.

والتعريف في المستكبرين للاستغراق؛ لأن شأن التذييل العموم. ويشمل هؤلاء المتحدث عنهم فيكون إثبات العقاب لهم كإثبات الشئ بدليله. ﴿**وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين**﴾: الآية موصولة بالعطف على جملة قلوبهم منكرة... وإذا ظرف متضمن معنى الشرط. وهذا الشرط يؤذن بتكرر هذين القولين... وسؤال السائلين لطلب الخبر عن المنزل من الله يدل على أن سؤالهم سؤال مسترشد عن دعْوَى بلَغَتْهُم وشاع خبرُها في بلاد العرب. وأما الجواب فهو جواب بليغ تضمن بيان نوع هذا الكلام.

وإبطال أن يكون منزلا من عند الله... واللام في قوله: ﴿**ليحملوا أوزارهم**﴾ تعليل لفعل قالوا... وهي غاية وليست بعلة... فاللام مستعملة مجازا في العاقبة. وحمْلُ الأوزار تمثيل لحالة وقوعهم في تبعات جرائمهم بحالة حامل الثقل لا يستطيع تَفَصِّياً منه فلما شبه الإثم بالثقل فأطلق عليه الوزر شبّه التورط في تبعاته بحمل الثقل على طريقة التخييلية، وحصل من الاستعارتين المفرقتين استعارة تمثيلية للهيئة كلها. وهذا من أبدع التمثيل: أن تكون الاستعارة التمثيلية صالحة للتفريق إلى عدة تشابيه أو استعارات. ووصف الأوزار بكاملة تحقيقا لوفائها وشدة ثقلها... ومع هذا يحملون بعض أوزار الذين يضلونهم... وفائدة التقييد بغير علم الإشعار بأن تضليلهم لا يروج عند ذى لب. وإنما يتبعهم الأغبياء والجهلة.

والتنبيه على أن جهلهم ذلك لا يكون عذرا؛ إذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المحق الحقيق بالاتباع وبين المبطل. وجملة ﴿**ألاَ سَاءَ ما يزرون**﴾ تذييل. افتتح بحرف التنبيه اهتماما بما تضمنه، ﴿**قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون**﴾: لما ذكر عاقبة إضلالهم وصدهم السائلين عن القرآن والإسلام في الآخرة. أتبع بالتهديد بأن يقع لهم ما وقع فيه أمثالهم في الدنيا من الخزى والعذاب مع التأييس من أن يبلغوا بصنعهم ذلك مبلغ مرادهم، وأنهم خائبون في صنعهم كما خاب من قبلهم الذين مكروا برسلهم ولما كان جوابهم السائلين عن القرآن بقولهم هو أساطير الأولين مُظْهِرِينَه بمظهر النصيحة والإرشاد وهم يريدون الاستبقاء على كفرهم، سمى ذلك مكرا بالمؤمنين.

ومعنى قوله تعالى: فأتى الله بنيانهم من القواعد تمثيل لحالات استئصال الأمم... فالبنيان هنا مستعار للقوة والعزة والمنعة وعُلُوِّ الْقَدَرِ وإطلاق البناء على مثل هذا وارد في فصيح الكلام. والقواعد الأسس والأساطين التي تجعل عمد للبناء يقام عليها السقف. وهو تخييل. وفعل خَرَّ مستعار لزوال ما به المنعة. والسقف هنا مستعار لما استعير له البناء. ومن فوقهم تأكيد لجملة فخر عليهم السقف. ومن مجموع هذه الاستعارات تتركب الاستعارة التمثيلية. وهى تشبيه هيئة القوم الذين مكروا في المنعة فأخذهم الله بسرعة وأزال تلك العزة بهيئة قوم أقاموا بنيانا عظيماً ذَا دعائِم وآووا إليه فاستأصله الله من قواعده فخر سقف البناء دفعة على أصحابه فهلكوا جميعا... فهذا من أبدع التمثيلية؛ لأنها تنحلّ إلى عدة استعارات.

وجملة وأتاهم العذاب عطف على جملة فأتى الله بنيانهم من القواعد. وأل في العذاب للعهد فهى مفيدة مضمون قوله: من فوقهم مع زيادة قوله: من حيث لا يشعرون. فاعتبار هذه الزيادة وردت معطوفة لحصول المغايرة، وإلاّ فَإنّ شأن المؤكدة أن لا تعطف. ﴿**ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقونى فيهم**﴾: وصل الكلام بما قبله بالعطف على قوله: ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة... فهو وعيد لهم... وهذا تكملة له. وضمير الجميع في يخزيهم عائد إلى ما عاد إليه الضمير المجرور باللام في وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم. وذلك عائد إلى الذين لا يؤمنون بالآخرة.

وثم للترتيب الرتبى. فإن خزى الآخرة أعظم من استئصال نعيم الدنيا. وتقديم الظرف للاهتمام بيوم القيامة. والاستفهام عن المكان مستعمل في التهكم. وإضافة الشركاء إلى ضمير اسم الله زيادة في التوبيخ... والموصول من قوله: الذين كنتم تشاقونى فيهم للتنبيه على ضلالهم وخطئهم في ادعاء المشاركة... **﴿قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين﴾**: فصلت هذه الجملة عما قبلها فلم تعطف؛ لأنها جملة ابتدائية حكت قول أفاضل الخلائق حين يسمعون قَوْلَ الله تعالى: أين شركائي الذين كنتم تشاقونى فيهم. وجيء بجملة قال الذين أوتوا العلم غير معطوفة أيضا؛ لأنها واقعة موقع الجواب لقوله: أين شركائى للتنبيه على أن الذين أوتوا العلم ابتدروا الجواب لمَّا وَجَمَ المشركون فلم يحيروا جوابا. فأجاب الذين أوتوا العلم جوابا جامعا لنفى أن يكون الشركاء المزعومون مغنين عن الذين أشركوا شيئا، وأن الخزى والسوء أحاط بالكافرين. والتعبير بالمضى لتحقيق وقوع القول.

والذين أوتوا العلم هم الذين آتاهم الله علم الحقائق من الرسل والأنبياء والمؤمنين. وتأكيد المقول بحرف التأكيد، وبصيغة القصر والإتيان بحرف الاستعلاء، الدال على تمكن الخزى والسوء منهم يفيد معنى التعجب مِنْ هَوْلِ مَا أُعِدَّ لَهُمْ. **﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾**: هذا كلام مستأنف. والذين تتوفاهم الملائكة هم الذين ذكروا في السابق... والمقصود من هذه الصلة وصف حالة الذين يموتون على الشرك. فبعد أن ذكر حال حلول العذاب بمن حل بهم الاستئصال وما يحل بهم يوم القيامة ذكرت حالة وفاتهم التي هى بين حالى الدنيا والآخرة. وظلم النفس: الشرك. والإلقاء: مستعار إلى إظهار المقترن بمذلة. شبه بإلقاء السلاح على الأرض.

وجملة ما كنا نعمل من سوء مقول قول محذوف دل عليه ألقوا السلم... وجملة بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون جواب الملائكة لهم، تكذيبا لقولهم: ما كنا نعمل من سوء. وقد جعلوا علم الله بما كانوا يعملون كناية عن تكذيبهم في قولهم... وتقريع **﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾** على إبطال نفيهم عمل السوء ظَاهِرٌ. وجملة **﴿فلبئس مثوى المتكبرين﴾** تذييل... **﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم**

قالوا خيرا﴾: لما افتتحت صفة سيآت الكافرين وعواقبها بأنهم إذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين. . . جاءت هنا مقابلة حالهم بحال حسنات المؤمنين وحسن عواقبها. . . فافتتح ذلك بمقابل ما افتتحت به قصة الكافرين. . . فجاء التنظير بين القصتين في أبدع نظم. وهذه الجملة معطوفة على الجمل التي قبلها. وهى معترضة في خلال أحوال المشركين استطرادا. ولم تقترن هذه الجملة بأداة الشرط كما قرنت مقابلتها بها.

فإن قولهم: أساطير الأولين، لما كان كذبا اختلقوه كان مظنة أن يقلع عنه قائلُه وأن يرعوى إلى الحق وأن لا يجمع عليه القائلون قُرِنَ بأداة الشرط المقتضية تكرر ذلك للدلالة على إصرارهم على الكفر. بخلاف ما هنا فإن الصدق مظنّةُ استمرار قائله عليه فليس بحاجة إلى التنبيه على تكرره منه. والمعنى: أن المؤمنين سئلوا عن القرآن ومَنْ جاء به فأرْشدوا السائلين ولم يترددوا في الكشف عن حقيقة القرآن بأوجز بيان وأجمعه. وهو كلمة خيرا، المنصوبة؛ فإن لفظها شامل لكل خير في الدنيا وكل خير في الآخرة. ونصبها دال على أنهم جعلوها معمولة لأنزل الواقع في سؤال السائلين فدل النصب على أنهم مصدقون بأن القرآن منزل من عند الله.

وهذا الوجه: المخالفة بين الرفع في جواب المشركين حين قيل لهم: ماذا أنزل ربكم قالوا أساطيرُ الأولين بالرفع وبين النصب في كلام المؤمنين حين قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا بالنصب. **﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين﴾**: هذه الآية مستأنفة استئنافا ابتدائيا. وهى من كلام الله تعالى. والذين أحسنوا: هم المتقون. . . فهو من الإظهار في مقام الإضمار توصلا بالإتيان بالموصول إلى الإيماء إلى وجه بناء الخبر. وحسنة الدنيا هى الحياة الطيبة. . . وخير الآخرة هو النعيم الدائم. **﴿جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزى الله المتقين﴾**: هذه الآية بيان وتوضيح لقوله: ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين.

وهذا مقابل قوله في ضدهم «فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين» **﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾**: هذا مقابل قوله في أضدادهم الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى

أنفسهم... فما قيل في مقابله يقال فيه. ﴿**هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك**﴾: استئناف بيانى ناشئ عن جملة قد مكر الذين من قبلهم. فهى تثير سؤال من يسأل عن إبان حلول العذاب على هؤلاء كما حل بالذين. من قبلهم... فقيل: ما ينظرون إلا أحد أمرين: مجيء الملائكة لقبض أرواحهم أو أن يأتى أمر الله... والاستفهام إنكارى في معنى النفى.

وجملة ﴿**كذلك كذب الذين من قبلهم**﴾ تنظير بأحوال الأمم الماضية تحقيقا للغرضين. وهذا تحذيرٌ لهم. وجملة ﴿**وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ معترضة بين جملة كذلك كذب الذين من قبلهم وجملة ﴿**فأصابهم سيآت ما عملوا**﴾. ووجه هذا الاعتراض أن التعرض إلى ما فعله الذين من قبلهم يشير إلى ما كان من عاقبتهم، وهو استئصالهم فعقب بقوله: وما ظلمهم الله... ولما كان هذا الاعتراض مشتملا على أنهم ظلموا أنفسهم صار تفريع فأصابهم سيآت ما عملوا عليه أو على ما قبله.

وهو أسلوب من نظم الكلام عزيز... ففى تغيير الأسلوب المتعارف تشويق إلى الخبر، وتهويل له بأنه ظلم أنفسهم، وأن الله لم يظلمهم... فيترقب السامع خبرا مُفْظِعاً، وهو. فأصابهم سيآتُ ما عملوا... ﴿**وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين**﴾: عطف قصة على قصة بحكاية حال من أحوال شبهاتهم ومكابرتهم، وباب من أبواب تكذيبهم وذلك أنهم كانوا يحاولون إفحام الرسول بأنه يقول إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون. وأنه القادر عليهم وعلى آلهتهم، وأنه لا يرضى أن يعبد ما سواه، وأنه ينهاهم عن البحيرة والسائبة... فحسبوا أنهم خصموا النبئ وحاجُّوه فقالوا له: لو شاء الله أن لا نعبد أصناماً ما أقدرنا على عبادتها... ولو شاء أن لا نحرم ما حرمنا لما أقرنا عليه... وهذا ردَّهُ الله عليهم بتنظير أعمالهم بأعمال الأمم الذين أهلكهم الله... فلو كان الله يرضى بما عملوه لما عاقبهم بالاستئصال... ثم بقطع المحاجة بقوله: فهل على الرسل إلا البلاغ المبين.

والمقصود أنهم فعلوا كما فعل من قبلهم... فكانت عاقبتهم مثل عاقبتهم... فلو كان فعلهم مرضيا لله لما أهلكهم... فهلاّ استدلوا بهلاكهم على

أن الله غير راضٍ بفعلهم. . . فإن دلالة الانتقام أظهر من دلالة الإملاء والإمهال؛ لأن دلالة الانتقام وجودية، ودلالة الإمهال عدمية. وجملة فهل على الرسل إلا البلاغ المبين تذييل مقرر لما تضمنته المحاجَّة. . . فأفادت ماهو أعم من المردود.

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾: هذا تكملة لإبطال شبهة المشركين إبطالا بطريقة التفصيل بعد الإجمال لزيادة تقرير الحجة. . . فهى بيان لمضمون جملة فهل على الرسل إلا البلاغ المبين وجملة **﴿فمنهم من هدى الله. . .﴾** إلخ. بيان لمضمون جملة كذلك فعل الذين من قبلهم. . . وأُسندت هداية بعضهم إلى الله مع أنه أمر جميعهم بالهدى تنبيها للمشركين على إزالة شبهتهم في قولهم: لوشاء الله ما عبدنا من دونه من شئ بأن الله بين لهم الهدى. . . فاهتداء المهتدين بسبب بيانه. . . فهو الهادى لهم. والتعبير في جانب الضلالة بلفظ حقت عليهم دون إسناد الإضلال إلى الله إشارة إلى أن الله لما نهاهم عن الضلالة فقد كان تصميمهم عليها إبقاء لضلالتهم السابقة. . . ثم فرع على ذلك الأمر بالسير في الأرض لينظروا آثار الأمم فيروا منها آثار استئصال مخالف لأحوال الفناء المعتاد، ولذلك كان الاستدلال بها متوقفا على السير في الأرض. ولو كان المراد مطلق الفناء لأمرهم بمشاهدة المقابر وذكر السلف الأوائل: فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة تكذيبهم.

﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يُهْدَى من يضل﴾: استئناف بيانى؛ لأن تقسيم كل أمة ضالة إلى مهتد منها وباق على الضلال يثير سؤالا في نفس الرسول عن حال هذه الأمة: أهو جار على حال الأمم التي قبلها. أو أن الله يهديهم جميعا؟. وذلك من حرصهم على خيرهم ورأفته بهم. . . فأعلمه الله أنه مع حرصه على هداهم فإنهم سيبقى منهم فريق على ضلاله. وفى الآية لطيفتان: الأولى التعريض بالثناء على النبئ. . . في حرصه على خيرهم مع ما لقيه منهم من الأذى الذى شأنه أن يثير الحنَقَ في نفس من يلحقه الأذى. واللطيفة الثانية الإيماء إلى أن غالب الأمة سيكونون مهتدين. . . والأسلوب في قوله: فإن الله لايُهدى من يضل، أسلوب الإسناد السيئ.

والتقدير: فإن الله لا يُهدى المضلَّلُ منه. ومعنى **﴿وما لهم من ناصرين﴾** ما لهم ناصر ينجيهم من العذاب. . . فكما أنهم ليس لهم منقذ من الضلال ما لهم

ناصر من العذاب. ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت**﴾: انتقال لحكاية مقالة أخرى من تشنيع مقالاتهم في كفرهم. واستدلال من أدلة تكذيبهم الرسول فيما يخبر به إظهاراً لِدعْوته في مظهر المُحال. والقسم على نفى البعث أرادوا به الدلالة على يقينهم بانتفائه. والعدول عن الموتى إلى من يموت لقصد إيذان الصلة بتعليل نفى البعث.

فإن الصلة أقوى دلالة على التعليل من دلالة المشتق على علّيّة الاشتقاق... فهم جعلوا الاضمحلال منافيا لإعادة الحياة. ﴿**بلى وعدا عليه حَقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾: بلى حرف لإبطال النفى في الخبر... ووعدا مؤكّد لما دل عليه حرف الإبطال من حصول البعث بعد الموت. وعليه حقا صفتان لوعدا. ففى الكلام استعارة مكنيّة. شبه الوعد الذى وعده الله بمحض إرادته واختياره بالحق الواجب عليه ورمز له بحرف الاستعلاء. والاستدراك ناشئ عن جعله وعدا على الله حقا... ﴿**ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين**﴾: هذه الآية تعليل لقوله: وعدا عليه حقا، لقصد بيان حكمة جعله وعدا لازما لا يختلف فهو حق يبين للناس الشيء الذي يختلفون فيه من الحق والباطل... وعطف على هذه الحكمة العامة حكمة فرعية خاصة بالمردود عليهم هنا. وهى حصول العلم للذين كفروا بأنهم كانوا كاذبين فيما اخترعوه من الشرك وتحريم الأشياء وإنكار البعث.

وفى حصول علمهم بذلك يوم البعث مثار للندامة والتحسُّر على ما فرط منهم من إنكاره. ﴿**إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون**﴾: هذه الآية متصلة بجملة «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» لبيان أن جهلهم بمدى قدرة الله هو الذى جرّأهم على إنكار البعث واستحالته عندهم. فهى بيان للآية التي قبلها ولذلك فُصِلَت. وأفادت ﴿**إنّما**﴾ قصرا. هو قصر وقوع التكوين على صدور الأمر به. وهو قصر قلب لإبطال اعتقاد المشركين تعذر إحياء الموتى... ﴿**والذين هاجروا في الله مَنْ بعدِما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون**﴾. لما ثبتت حكمة البعث بأنها تبيين الذى اختلف فيه الناس من هدى وضلالة، ومن ذلك أن يتبين أن الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين يعلم منه أنه يتبيّن بالبعث أن الذين آمنوا كانوا صادقين بدلالة المضادة. وأنهم مثابون ومُكرَمون... فلما عُلِمَ ذلك من السياق وقع التصريح به في هذه الآية.

وأدمج مع ذلك وعدهم بحسن العاقبة في الدنيا مقابلة وعيد الكافرين بسوء العاقبة فيها. . . فالجملة معطوفة على جملة وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين. والتبوئة: الإسكان. وأطلقت هنا على الجزاء بالحسنى على المهاجرة بطريق المضادة للمهاجرة. وفى الجمع بين هاجروا ولنبوئنهم محسن الطباق. ثم أعقب هذا الوعد بالوعد العظيم المقصود وهو قوله: ولأجر الآخرة أكبر. وجملة لو كانوا يعلمون معترضة. وهى استئناف بيانى ناشئ عن جملة الوعد كلها. . . و﴿**الذين صبروا**﴾ صفة للذين هاجروا.

والتعبير في جانب الصبر بالمضى، وفى جانب التوكل بالمضارع إيماء إلى أن صبرهم قد آذن بالانقضاء لانقضاء أسبابه، وأن الله قد جعل لهم فرجا بالهجرة الواقعة والهجرة المتوقعة. . . فهذه إشارة لهم. وأن التوكل ديدنهم؛ لأنهم يستقبلون أعمالاً جليلة تتم لهم بالتوكل على الله في أمورهم فهم يكررونه. وفى هذه إشارة بضمان النجاح. وتقديم المجرور في قوله: ﴿**وعلى ربهم يتوكلون**﴾ للقصر. . ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر**﴾: كانت الآيات السابقة جارية على حكاية تكذيب المشركين نبوءة (محمد) وإنكارهم أنه مرسل من عند الله وأن القرآن وحي الله إليه، ابتداء من قوله: وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ...الخ، ورد مزاعمهم الباطلة بالأدلة القارعة لهم متخللا بما أدمج في أثنائه من معان أخرى تتعلق بذلك، فعاد هنا إلى إبطال شبهتهم في إنكار نبوءته من أنه بشر لا يليق بأن يكون سفيراً بين الله والناس إبطالا بقياس التمثيل بالرسل السابقين الذين لاتنكر قريش رسالتهم. . . وقد غير أسلوب نظر الكلام هنا بتوجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ بعد أن كان جاريا على أسلوب الغيبة .، تأْنيساً للنبى؛ لأن فيما مضى من الكلام آنفا حكاية تكذيبهم إياه تصريحا وتعريضا. . . فأقبل الله على الرسول بالخطاب لما في هذا الكلام من تنويه منزلته بأنه في منزلة الرسل الأولين. . . وفى هذا الخطاب تعريض بالمشركين. . . وصيغة القصر لقلب اعتقاد المشركين. . . وفى قوله تعالى: إن كنتم لا تعلمون إيماء إلى أنهم يعلمون ذلك، ولكنهم قصدوا المكابرة والتمويه لتضليل الدهماء. . . فلذلك جئ في الشرط بحرف إنْ التي ترد في الشرط المظنون عدم وجوده. . . وجملة فاسألوا أهل الذكر. . معترضة بين جملة وما أرسلنا وبين قوله: بالبينات والزبر.

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾: لما اتضحت الحجة بشواهد التاريخ الذى لا ينكر ذكرت النتيجة المقصودة. وهو أن ما أنزل إلى محمد إنما هو ذكر وليس أساطير الأولين... وفى الاقتصار على إنزال الذكر عقب قوله: بالبينات والزبر إيماء إلى أن الكتاب المنزل على (محمد) هو بينة وزبورٌ معاً. وذلك من مزايا القرآن حيث اجتمعت فيه المعجزة والشريعة بخلاف الكتب السابقة. وإسناد التبيين إلى الرسول باعتبار أنه المبلغ للناس هذا البيان... وعطف لعلهم يتفكرون حكمة أخرى من حكم إنزال القرآن، وهى تهيئة تفكر الناس فيه.

﴿أفأمن الذين مكروا السيآت أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾: بعد أن ذكرت مساويهم ومكائدهم، وبعد تهديدهم بعذاب يوم القيامة تصريحا وبعذاب الدنيا تعريضا فرع على ذلك تهديدهم الصريح بعذاب الدنيا بطريق استفهام التعجيب من استرسالهم في المعاندة غير مقدرين أن يقع ما يهددهم به الله على لسان رسوله فلا يقلعون عن تدبير المكر بالنبئ... فكانت حالهم في استرسالهم كحال من هم آمنون بأس الله. فالاستفهام مستعمل في التعجيب المشرب بالتوبيخ. **﴿أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين﴾**: الأخذ هنا مستعار للإهلاك.

وهذا قسيم قوله: أن يأتيهم العذاب... وتفريع فما هم بمعجزين اعتراض. **﴿أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم﴾**: وهذا تقسيم ثالث لإتيان العذاب. وتفرع فإن ربكم. على الجمل الماضية تفريع العلة على المعلل. والتعليل هنا لما فهم من مجموع المذكورات في الآية من أنه تعالى قادر على تعجيل هلاكهم، وأنه أمهلهم حتى نسوا بأس الله فصاروا كالآمنين منه بحيث يستفهم عنهم: أهم آمنون من ذلك أم لا؟! **﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شئ يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون﴾**: بعد أن نهضت براهين انفراده تعالى بالخلق بما ذكر من تعداد مخلوقاته العظيمة جاء الانتقال إلى دلالة من حال الأجسام التي على الأرض كلها مشعرة بخضوعها لله تعالى خضوعا مقارنا لوجودها وتقبلها آناً فآناً... علم بذلك مَنْ عَلِمَه وجهِلَه مَنْ جَهِلَهُ. وأنبأ عنه لسان الحال بالنسبة لما لا علم له. وهو ما خلق الله عليه النظام الأرضى خلقاً

ينطق لسان حاله بالعبودية لله تعالى. وذلك في أشد الأعراض ملازمة للذوات ومطابقة لأشكالها. وهو الظل.

والجملة معطوفة على الجمل التي قبلها. عطف القصة على القصة. ومن شئ بيان للإبهام الذى في ما الموصولة وإنما كان بيانا باعتبار ما جرى عليه من الوصف بجملة يتفيأ ظلاله... وتفيؤ الظلال تنقلها من جهات بعد شروق الشمس وبعد زوالها. وسجّداً لله قَيْدٌ للتفيؤ. وجملة وهم داخرون: في موضع الحال من الضمير في ظلاله؛ لأنه في معنى الجمع لرجوعه إلى ما خلق الله من شئ. وجمع بصيغة الجمع الخاصة بالعقلاء تغليبا لأنّ في جملة الخلائق العقلاء وهم الجنس الأهم. **﴿ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾**: لما ذكر في الآية السابقة السجود القسرى ذكر بعده هنا سجودا آخر بعضه اختيار، وفى بعضه شبه اختيار. وتقديم المجرور على فعله مؤذن بالحَصْر... ومن دابة بيان لما في الأرض، والملائكة بيان لما في السماوات. وهم لايستكبرون. ويخافون. ويفعلون ما يؤمرون أحوال للملائكة وبيان لوظائفهم ومراتبهم. ولهذا استحب للقارئ أن يسجد لله مثل هؤلاء...

خلاصة المعنى العام وما فيه من التوجيهات والأحكام:

التوجيه الأول: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾: في هذا التوجيه إنذار وتحذير للكافرين من أن أمر الله واقع لا محالة... فليس لأحد أن يشك فيه... أو يطلبه استعجالا لوقوعه... أو يستهزئ به استبعادا لحصوله... فهو وعْدُ الله ووعْدُ الله حق لا يتخلف: **﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾** لقد كان مشركوا مكة يستعجلون الرسول أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة. وكلما امتد بهم الأجل ولم ينزل بهم العذاب زادوا استعجالا، وزادوا استهزاء، وزادوا استهتارا؛ وحسبوا أن محمدا يخوفهم ما لا وجود له ولا حقيقة، ليؤمنوا له ويستسلموا. ولم يدركوا حكمة الله في إمهالهم ورحمته في إنظارهم. ولم يحاولوا تدبر آياته في الكون وآياته في القرآن. هذه الآيات التي تخاطب العقول والقلوب خيرا من خطابها بالعذاب؛ والتى تليق بالإنسان الذى كرّمه الله بالعقل والشعور، وحرية الإرادة والتفكير... فجاء مطلع السورة حاسما

جازما: أتى أمر الله... يوحى بصدور الأمر وتوجه الإرادة.

وهذا يكفى لتحقيقه في الموعد الذى قدره الله لوقوعه... فلا تستعجلوه... فإن سنة الله تمضى وفق مشيئته، لا يقدمها استعجال. ولا يؤخرها رجاء... فأمر الله بالعذاب أو بالساعة قد قضى وانتهى. أما وقوعه ونفاذه فسيكون في حينه المقدر، لا يستقدم ساعة ولا يتأخّر. وهذه الصيغة الحاسمة الجازمة ذات وقع في النفس مهما تتماسك أو تكابر، وذلك فوق مطابقتها لحقيقة الواقع... فأمر الله لابدّ واقع، ومجرد قضائه يُعدّ في حكم نفاذه ويتحقق به وجوده. فلا مبالغة في الصيغة ولا مجانبة للحقيقة، في الوقت الذى تؤدى غايتها من التأثر العميق في الشعور.

فأما ماهم عليه من شرك بالله الواحد وتصورات مستمدة من هذا الشرك فقد تنزه الله عنه وتعالى: سبحانه وتعالى عما يشركون. بكل صوره وأشكاله الناشئة عن هبوط في التصور والتفكير. أتى أمر الله المنزه عن الشرك المتعالى عما يشركون. الله الذى لا يدع الناس إلى ضلالهم وأوهامهم، إنما هو ينزل عليهم ما يحييهم وينجّيهم: ﴿**ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده**﴾. وهذا أُولَى نِعَمِه وكُبْراها... فهو لا ينزل من السماء ماء يحيى الأرض والأجسام وحدها ـ كما سيجئ ـ إنما ينزل الملائكة بالروح من أمره.

والتعبير بالروح ظله ومعناه. فهو حياة ومبعث حياة: حياة في النفوس وفى الضمائر... وفى العقول وفى المشاعر... وحياة في المجتمع تحفظه من الفساد والتحلل والانهيار. وهو أول ما ينزله الله من ملكوته للناس، وأول النعم التي يَمُنُّ اللهُ بها على العباد. تنزل به الملائكة أطهر خلق الله على المختارين من عباده الأنبئاء ـ خلاصته وفحواه: ﴿**أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون**﴾. إنها الوحدانية في الألوهية. روح العقيدة. وحياة النفس. ومفرق الطريق بين الاتجاه المحيى والاتجاه المدمّر. فالنفس التي لا توحد المعبود نفس حائرة هالكة تتجاذبها السبل وتتخايل لها الأوهام، وتمزقها التصورات المتناقضة، وتتناوشها الوساوس... فلا تنطلق مجتمعة لهدف من الأهداف!.

والتعبير بالروح يشمل هذه المعانى كلها، ويشير إليها في مطلع السورة المشتملة على شتى النعم... فيصدر بها نعمه جميعا! وهى النعمة الكبرى التي لا

قيمة لغيرها بدونها، ولا تحس النفس البشرية الانتفاع بنعم الأرض كلها إن لم توهب نعمة العقيدة التي تحييها، ويُفرد الإنذار هنا فيجعله فحوى الوحى والرسالة؛ لأن معظم سياق السورة يدور حول المكذبين والمشركين والجاحدين لنعمة الله... والمُحَرِّمينَ ما أحله الله... والمناقضين لعهد الله... والمرتدين عن الإيمان... فمن هذا كله يكون إظهار الإنذار أليق في هذا السياق. وتكون الدعوة إلى التقوى والحذر والخوف أولى في هذا المقام.

ثم يأخذ في عرض الآيات. آيات الخلق الدالة على وحدانية الخالق وآيات النعمة الدالة على وحدانية المنعم. فمن هذين ثبتت وحدة الرب ووحدة الإله. وهو يعرضها هنا فوجا فوجا... ومجموعة مجموعة... بادئا بخلق السماوات والأرض وخلق الإنسان: ﴿**خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون. خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين...**﴾ خلق السماوات والأرض بالحق... الحق قوام خلقهما. والحق قوام تدبيرهما. والحق عنصر أصيل في تصريفهما وتصريف من فيهما وما فيهما... فما شئ من ذلك كله عبث ولا جزاف إنما كل شئ قائم على الحق ومتلبس به ومفض له وصائر في النهاية إليه... تعالى عما يشركون... تعالى عن شركهم... وتعالى عما يشركون به من خلق الله الذى خلق السماوات والأرض وخلق من فيهما وما فيهما... فليس أحد وليس شئ شريكا له.

وهو الخالق الواحد بلا شريك. خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين... فيالها من نقلة ضخمة بين المبدإ والمصير. بين النطفة الساذجة والإنسان المخاصم المجادل، الذى يخاصم خالقه فيكفر به ويجادل في وجوده، أو في وحدانيته. وليس بين مبدئه من نطفة وصيرورته إلى الجدل والخصومة فارق ولا مهلة. فهكذا يصوره التعبير، ويختصر المسافة بين المبدإ والمصير؛ لتبدو المفارقة كاملة والنقلة بعيدة. ويقف الإنسان بين مشهدين وعهدين متواجهين: مشهد النطفة المهينة الساذجة، ومشهد الإنسان الخصيم المبين. وهو إيجاز مقصود في التصوير.

وفى هذا المجال الواسع ـ مجال الكون: السماوات والأرض ـ الذى يقف فيه الإنسان، يأخذ السياق في استعراض خلق الله الذى سخره للإنسان، ويبدأ

بالأنعام: **﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون...﴾** وفى بيئة كالبيئة التي نزل فيها القرآن أوّلَ مرّةٍ. وأشباهها كثير. في هذه البيئة تبرز نعمة الأنعام التي لا حياة بدونها لبنى الإنسان. والأنعام المتعارف عليها في الجزيرة كانت هى الإبل والبقر والضأن والمعز... أما الخيل والبغال والحمير فللركوب والزينة ولا تؤكل. والقرآن حين يعرض هذه النعمة هنا ينبه إلى ما فيها من تلبية لضرورات البشر وتلبية لأشواقهم كذلك ففى الأنعام دفء من الجلود والأصواف والأوبار والأشعار، ومنافع في هذه وفى اللبن واللحم وما إليها. ومنها تأكلون لحما ولبنا وسمنا.

وفى حمل الأثقال إلى البلد البعيد لا يبلغونه إلا بشق الأنفس. وفيها كذلك جمال عند الإراحة في المساء وعند السرح في الصباح. جمال الاستمتاع بمنظرها فارهة رائعة صحيحة سمينة. وأهل الريف يدركون هذا المعنى بأعماق نفوسهم ومشاعرهم أكثر مما يدركه أهل المدينة. وفى الخيل والبغال والحمير تلبية للضرورة في الركوب. وتلبية لحاسة الجمال في الزينة... وهذه اللفتة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة... فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة. وليست النعمة هى مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب؛ بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات. تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنسانى المرتفع على ميل الحيوان... إن ربكم لرءوف رحيم: يعقب بها على جمال الأثقال إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس توجيها إلى ما في خلق الأنعام من نعمة، وما في هذه النعمة من رحمة ويخلق ما لاتعلمون: يعقب بها على خلق الأنعام للأكل والحمل والجمال، وخلق الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة... ليظل المجال مفتوحا في التصور البشرى لتقبِّلُ أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة... فلا يغلق تصورهم عن خارج حدود البيئة وخارج حدود الزمان الذى يظلهم.

فوراء الموجود في كل زمان ومكان صور أخرى، يريد الله للناس أن يتوقعوها فيتسع تصورهم وإدراكهم. ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد أو حين

تُكْشَفُ فلا يعادوها ولا يجمدوا دون استخدامها والانتفاع بها. ولا يقولوا: إنما استخدَم آباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها. وإنما نص القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ما عداها! إن الإسلام عقيدة مفتوحة مَرِنَةٌ قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها، ومقدرات الحياة كلها. ومن ثَمَّ يهيّئُ القرآنُ الأذهانَ والقلوب لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة، ويتمخض عنه العلم، ويتمخض عنه المستقبل.

استقباله بالوجدان الدينى المتفتح وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان وستجد وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان. والقرآن يهيئ لها القلوب والأذهان بلا جمود ولا تَحجُّر... ويخلق مالا تعلمون... وفى معرض النقل والحمل والركوب والسير في الأرض لبلوغ غايات محسوسة، يُدخل السياق غاياتٍ معنويةً، وسيرا معنويا، وطرقا معنوية... فثَمّةُ الطريقُ إلى الله. وهو طريق قاصد مستقيم لا يلتوي ولا يتجاوز الغاية. وَثَمّةَ طرقٌ أخرى لا توصل ولا تهدي... فأما الطريق إلى الله فقد كتب على نفسه كشفها وبيانها: بآياته في الكون وبرسله إلى الناس. ﴿**وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين**...﴾ والسبيل القاصد هو الطريق المستقيم الذى لا يلتوي كأنه يقصد قصد إلى غايته فلا يحيد عنها والسبيل الجائر هو السبيل المنحرف المجاوز للغاية لا يوصل إليها، أو لا يقف عندها!. ولو شاء لهداكم أجمعين... ولكنه شاء أن يخلق الإنسان مستعدا للهدى والضلال، وأن يدع لإرادته اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال... فكان منهم من يسلك السبيل القاصد، ومنهم من يسلك السبيل الجائر. وكلاهما لا يخرج على مشيئة الله التي قضت بأن تدع الإنسان حرية الاختيار.

والفوج الثاني من آيات الخلق والنعمة: ﴿**هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون**...﴾ والماء ينزل من السماء وفق النواميس التي خلقها الله في هذا الكون، والتى تدير بركاته، وتنشئ نتائجها وفق إرادة الخالق وتدبيره. وهذا الماء يذكر هنا نعمة من نعم الله ﴿**لكم منه شراب**...﴾ فهى خصوصية الشراب التي تَبْرُزُ في هذا المجال. ثم خصوصية

المرعى ﴿**ومنه شجر فيه تسيمون**. . .﴾ فهى المراعى التي تربى فيها السوائم. ذلك بمناسبة ذكر الأنعام قبلها وتنسيقا للجو العام بين المراعى والأنعام. . . ثم الزروع التي يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من أشجار الثمار. . . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون: في تدبير الله لهذا الكون، ونواميسه المواتية لحياة البشر، وما كان الإنسان ليستطيع الحياة على هذا الكوكب لو لم تكن نواميس الكون مواتية لحياته، موافقة لفطرته، ملبّية لحاجاته. وما هو بالمصادفة العابرة أن يخلق الإنسان في هذا الكوكب الأرضى، وأن تكون النسب بين هذا الكوكب وغيره من النجوم والكواكب هى هذه النسب وأن تكون الظواهر الجوية والفلكية على ما هى عليه ممكّنة للإنسان من الحياة، ملبية هكذا لحاجاته على النحو الذي نراه. والذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير.

وهم الذين يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر وما ينشئه على الأرض من حياة وشجر وزرع وثمر، وبين النواميس العليا للوجود ودلالتها على الخالق وعلى وحدانية ذاته ووحدانية إرادته ووحدانية تدبيره. . . أما الغافلون فيمرون على مثل هذه الآية في الصباح والمساء، في الصيف والشتاء، فلا توقظ تطلّعهم، ولا تثير استطلاعهم، ولا تستجيش ضمائرهم إلى البحث عن صاحب هذا النظام الفريد العجيب!.. والفوج الثالث من أفواج الآيات: ﴿**وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**. . .﴾ ومن مظاهر التدبير في الخلق وظواهر النعمة على البشر في آن: الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم. . . فكلها مما يلبى حاجة الإنسان في الأرض.

وهي لم تخلق له ولكنها مسخرة لمنفعته. . . فظاهرة الليل والنهار ذات أثر حاسم في حياة هذا المخلوق البشرى. ومن شاء فليتصور نهاراً بلا ليلٍ، أو ليلاً بِلاَ نهارٍ. . . ثم يتصور مع هذا حياة الإنسان والحيوان والنبات في هذه الأرض كيف تكون. كذلك الشمس والقمر، وعلاقتهما بالحياة على الكوكب الأرضى، وعلاقة الحياة بهما في أصلها وفى نموها. . . والنجوم مسخرات بأمره للإنسان ولغير الإنسان مما يعلم الله. . . وكل أولئك طرف من حكمة التدبير، وتناسق النواميس في الكون كُله يدركه أصحاب العقول التي تتدبر وتعقل وتدرك ما وراء الظواهر من سنن وقوانين. إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون.

والفوج الرابع من أفواج النعمة فيما خلق الله للإنسان. ﴿**وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون**. . .﴾ وما خلق في الأرض وما أودع فيها للبشر من مختلف المعادن التي تقوم بها حياتهم في بعض الجهات وفي بعض الأزمان. ونظرة إلى هذه الذخائر المخبوءة في الأرض، المودعة للناس حتى يبلغوا رشدهم يوما بعد يوم، ويستخرجوا كنوزهم في حينها ووقت الحاجة إليها. وكلما قيل: إن كنزا منها قد نفد أعقبه كنز آخر غنى من رزق الله المدخر للعباد. . . ﴿**إن في ذلك لآية لقوم يذكرون**﴾ ولا ينسون أن يد القدرة هى التي خبأت لهم هذه الكنوز.

والفوج الخامس من أفواج الخلق والإنعام في البحر الملح الذى لا يُشرب ولا يسقى، ولكنه يشتمل على صنوف من آلاء الله على الإنسان: ﴿**وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**. . .﴾ ونعمة البحر وأحيائه تلبى كذلك ضرورات الإنسان وأشواقه. . . فمنه اللحم الطرى من السمك وغيره للطعام وإلى جواره الحلية من اللؤلؤ ومن المرجان وغيرهما من الأصداف والقواقع التي يتحلى بها أقوام ما يزالون حتى الآن.

والتعبير كذلك عن الفلك يشى بتلبية حاسة الجمال؛ لا بمجرد الركوب والانتقال: وترى الفلك مواخر فيه. . . فهى لفتة إلى الرؤية وروعتها: رؤية الفلك مواخر، تشق الماء وتفرق العباب. . . ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام التوجيه القرآنى العالى إلى الجمال في مظاهر الكون بجانب الضرورة والحاجة؛ لنتملى هذا الجمال ونستمتع به، ولا نحبس أنفسنا داخل حدود الضرورات والحاجات. كذلك يوجهنا السياق ـ أمام مشهد البحر والفلك تشق عبابه ـ إلى ابتغاء فضل الله، وإلى شكره على ما سخر من الطعام والزينة والجمال في ذلك الملح الأجاج: ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون.

والفوج الأخير في هذا المقطع من السورة: ﴿**وألقى في الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون. وعلامات بالنجم هم يهتدون**. . .﴾ فالجبال الرواسى تختلف عن الكثبان المتحركة المتنقلة. فتخفى معالم الطريق التي يحتاج إليها الإنسان في سيره وتنقلاته من مكان إلى مكان. فبالجبال يهتدى

الإنسان فلا تميد به فيتيه في فَيَافِي الضلال والتيهان... ففى الجبال كذلك تكون منابع الأنهار حيث مساقط الأمطار. والسبل ذات علاقة بالجبال والأنهار وإلى جوار ذلك معالم الطرق التي يهتدى بها السالكون في الأرض من جبال ومرتفعات ومنفرجات، وفى السماء من النجم الذى يهدى السالكين في البر والبحر عندما تنطمس المعالم في الليل فلا يجد السائر أمامه إلا النجوم.

التوجيه الثاني: ﴿**أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون**﴾: في هذا التوجيه تذكير الناس بحقيقة القياس وعندما ينتهى استعراض آيات الخلق، وآيات النعمة، وآيات التدبير في هذا المقطع من السورة يعقب السياق عليه ما سبق هذا الاستعراض من أجله... فقد ساقه في صدد قضيّة التوحيد وتنزيه الله سبحانه وتعالى عما يشركون. وهو تعقيب يجئ في أوانه، والنفس متهيئة للإقرار بمضمونه: أفمن يخلق كمن لا يخلق؟... فهل هناك إلا جواب واحد: لا، وكلاّ: أفيجوز أن يسوى إنسان في حسه وتقديره بين من يخلق ذلك الخلق كله ومن لا يخلق لا كبيرا ولا صغيرا!. أفلا تذكرون!؟.. فما يحتاج الأمر إلى أكثر من التذكر. فيتضح الأمر ويتحلى اليقين.

ولقد استعرض ألوانا من النعمة فهو يعقب عليها: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾، فضلا على أن تشكروها. وأكثر النعم لا يدريها الإنسان؛ لأنه يألفها فلا يشعر بها إلاّ حين يفتقدها... فهذا تركيب جسده وظائفه متى يشعر بما فيه من إنعام إلا حين يدركه المرض فيحس بالاختلال؟ إنما يسعه غفران الله للتقصير، ورحمته بالإنسان الضعيف: ﴿**إن الله لغفور رحيم**﴾. والخالق يعلم ما خلق. يعلم الخافى والظاهر: ﴿**والله يعلم ما تسرون وما تعلنون**﴾... والخالق يسوونه في حسهم وتقديرهم بتلك الآلهة المدّعاة وهم لا يخلقون شيئا ولا يعلمون شيئا؛ بل إنهم لأموات غير قابلين للحياة على الإطلاق: ﴿**والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون**﴾.

والإشارة هنا إلى البعث وموعده فيها تقرير أن الخالق لا بد أن يعلم موعد البعث؛ لأن البعث تكملة للخلق وعنده يستوفى الأحياء جزاءهم على ما قدموا... فالآلهة التي لا تعلم متى يبعث عبادها هى آلهة لا تستحق التأليه... بل هى سخرية الساخرين. فالخالق يبعث مخاليقه ويعلم متى يبعثهم على التحقيق... ثم

يجمع السياق بين الإيمان بوحدة الله والإيمان بالآخرة... بل يجعل إحداهما دالة على الأخرى لارتباط عبادة الله الواحد بعقيدة البعث والجزاء... فبالآخرة تتم حكمة الخالق الواحد ويتجلى عدله في الجزاء: ﴿**إلهكم إله واحد**...﴾ فكل ما سيق في السورة من آيات الخلق، وآيات النعمة وآيات العلم، يؤدى إلى هذه الحقيقة الكبيرة البارزة، الواضحة الآثار في نواميس الكون وتناسقها وتعاونها... فالذين لا يسلمون بهذه الحقيقة ولا يؤمنون بالآخرة ـ وهى فرع عن الاعتقاد بوحدانية الخالق وحكمته وعدله ـ هؤلاء لا تنقصهم الآيات ولا تنقصهم البراهين... إنما تكمن العلة في كيانهم وفى طباعهم.

إن قلوبهم منكرة جاحدة لا تقر بما ترى من الآيات. وهم مستكبرون لا يريدون التسليم بالبراهين والاستسلام لله والرسول... فالعلة أصيلة والداء كامن في الطباع والقلوب: ﴿**فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون**﴾. فالله الذى خلقهم يعلم ذلك منهم... فهو يعلم ما يسرون وما يعلنون. يعلمه دون شك ولا ريب ويكرهه فيهم: ﴿**إنه لا يحب المستكبرين**...﴾ فالقلب المستكبر لا يرجى له أن يقتنع أو يسلّم. ومن ثم فهم مكروهون من الله لاستكبارهم الذى يعلمه من يعلم حقيقة أمرهم ويعلم ما يسرون وما يعلنون. ﴿**وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين**﴾: هؤلاء المستكبرون ذوو القلوب المنكرة التي لا تقتنع ولا تستجيب، إذا سئلوا: ماذا أنزل ربكم؟ لم يجيبوا الجواب الطبيعى المباشر، فيتلوا شيئا من القرآن أو يلخصوا فحواه... فيكونوا أمناء في النقل، ولو لم يعتقدوه.

إنما هم يعدلون عن الجواب الأمين فيقولون: أساطير الأولين! والأساطير هى الحكايات الوهمية الحافلة بالخرافة... وهكذا يصفون هذا القرآن الذى يعالج النفوس والعقول، ويعالج أوضاع الحياة وسلوك الناس وعلاقات المجتمع وأحوال البشر في الماضى والحاضر والمستقبل. هكذا يصفونه لما يحويه من قصص الأولين. وهكذا يؤدّى بهم ذلك الإنكار والاستهتار إلى حمل ذنوبهم وشطرا من ذنوب الذين يضلونهم بهذا القول، ويصدونهم عن القرآن والإيمان، وهم جاهلون به لا يعلمون حقيقته... ويصور التعبيرِ هذه الذنوب أحمالا ذات ثقل ـ وساءت أحمالاً واثقالاً ـ فهي توقر النفوس كما توقر الأجمالُ الظهور وهي تثقل القلوب كما تثقل الأحمال العواتق.

وهى تتعب وتشقى كما تتعب الأثقال حامليها، بل هى أدهى وأنكى... فقد كانت حرب دعاية منظمة يديرها المشركون في مكّة وقت التنزيل... ويديرها أمثالهم في كل زمان ومكان ومن المستكبرين الذين لا يريدون الخضوع للحق والبرهان... فهؤلاء المتكبرون من المشركين ليسوا أول من ينكر. وليسوا أول من يمكر... والسياق يعرض عليهم نهاية الماكرين من قبلهم، ومصيرهم يوم القيامة... بل مصيرهم منذ مفارقة أرواحهم لأجسادهم حتى يلقوا في الآخرة جزاءهم.

يعرض عليهم هذا كله في مشاهد مصورة على طريقة القرآن المأثورة: **﴿قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون...﴾** والتعبير يصور هذا المكر في صورة بناء ذى قواعد وأركان وسقف إشارة إلى دقته وإحكامه ومتانته وضخامته... ولكن هذا كله لم يقف أمام قوة الله وتدبيره: فأتى الله بنيانهم من القواعد فَخَرّ عليهم السقف من فوقهم. وهو مشهد للتدمير الكامل الشامل... يطبق عليهم من فوقهم... فينطبق عليهم ويدفنهم... وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون فإذا البناء الذى بنوه وأحكموه واعتمدوا على الاحتماء فيه... فإذا هو مقبرتهم التي تحويهم، ومهلكتهم التي تأخذهم من فوقهم ومن أسفل منهم.

وهو الذى اتخذوه للحماية ولم يفكروا أن يأتيهم الخطر من جهته!. إنه مشهد كامل للدمار والهلاك. ويا للسخرية من مكر الماكرين وتدبير المدبرين الذين يقفون لدعوة الله ويحسبون مكرهم لا يُرد... وتدبيرهم لا يخيب!!.. والله من ورائهم محيط!. وهو مشهد مكرر قَبْلَ قريش وبعدها... ودعوة الله ماضية في طريقها مهما يمكر الماكرون... ومهما يدبر المدبرون... وبين الحين والحين يتلفت الناس فيذكرون ذلك المشهد المؤثر الذى رسمه القرآن الكريم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخَرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون هذا في الدنيا وفى واقع الأرض... **﴿ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقونى فيهم...﴾** فيرتسم مشهد القيامة يقف فيه هؤلاء المستكبرون الماكرون موقف الخزى، وقد انتهى عهد الاستكبار والمكر... وجاءوا إلى صاحب الخلق والأمر... يسألهم سؤال التبكيت والتأنيب: أين شركائى الذين

كنتم تشاقونى فيهم. أين شركائى الذين كنتم تخاصمون من أجلهم الرسول والمؤمنين. وتجادلون فيهم المقرين الموحدين. ويسكت القوم من الخزى، لتنطلق ألسنةُ الذين أوتوا العلم من الملائكة والرسل والمؤمنين. وقد أذن الله لهم أن يكونوا في هذا اليوم متكلمين ظاهرين: ﴿**قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين**. . .﴾ إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين. . . ﴿**الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم**. . .﴾ فيعود السياق بهم خطوة قبل خطوة القيامة.

يعود بهم إلى ساعة الاحتضار، والملائكة تتوفاهم ظالمين لأنفسهم بما حرموها من الإيمان واليقين، وبما أوردوها موارد الهلاك، وبما قادوها في النهاية إلى النار والعذاب. ويرسم مشهدهم في ساعة الاحتضار، وهم قريبوا عهد بالأرض وما لهم فيها من كذب ومكر وكيد: ﴿**فألقوا السلم ماكنا نعمل من سوء**. . .﴾ فألقوا السلم هؤلاء المستكبرون فإذا هم مستسلمون لا يهمون بنزاع أو خصام. إنما يلقون السلم ويعرضون الاستسلام!. ثم يكذبون ـ ولعله طرف من مكرهم في الدنيا ـ فيقولون مستسلمين: ما كنا نعمل من سوء! وهو مشهد مَخْزٍ، وموقف مهين لأولئك المستكبرين! ويجيئهم الجواب: بلى، من العليم بما كان منهم: ﴿**إن الله عليم بما كنتم تعملون**. . .﴾ فلا سبيل إلى الكذب والمغالطة والتمويه. ويجيئهم الجزاء جزاء المتكبرين: ﴿**فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين**﴾.

وعلى الجانب الآخر. . . الذين اتقوا. . . يقابلون المنكرين المستكبرين في المبدأ والمصير: ﴿**وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا**. . .﴾ إن المتقين يدركون أن الخير هو قوام هذه الدعوة وقوام ما أنزل ربهم من أمر ونهى وتوجيه وتشريع. . . فيلخصون الأمر كله في كلمة: قالوا: خيرا. . . ثم يفصلون هذا الخير حسبما علموا مما أنزل الله: ﴿**للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة**. . .﴾ حياة حسنة ومتعة حسنة ومكانة حسنة. . . ﴿**ولدار الآخرة خير**﴾ من هذه الدار الدنيا، ﴿**ولنعم دار المتقين**﴾. ثم يفصل ما أجمل عن هذه الدار فإذا هى ﴿**جنات عدن**﴾ للإقامة. ﴿**تجرى من تحتها الأنهار**﴾ رخاء وبهجة. . . ﴿**لهم فيها ما يشاءون**. . .﴾ فلا حِرْمان ولاكدّ، ولا حدود للرزق كما هى الحياة الدنيا. . . ﴿**كذلك يجزى الله المتقين**. . .﴾ ثم يعود السياق خطوة بالمتقين كما عاد من

قبلهم خطوة بالمستكبرين... فإذا هم في مشهد الاحتضار. وهو مشهد هيّن ليّن كريم: ﴿**الذين تتوفاهم الملائكة طيبين**﴾: طيبة نفوسهم بلقاء الله، معافين من الكرب وعذاب الموت: ﴿**يقولون سلام عليكم**﴾: طمأنة لقلوبهم وترحيبا بقدومهم... ﴿**ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾: تعجيلا لهم بالبشرى وهم على أعتاب الآخرة، جزاء وفاقا بما كانوا يعملون. وفى ظل هذا المشهد بِشَقَّيْهِ: مشهد الاحتضار ومشهد البعث... يعقب السياق بسؤال عن المشركين من قريش: ماذا ينتظرون؟ أينتظرون الملائكة فتتوفاهم؟ أم ينتظرون أمر الله فيبعثهم... وهذا ما ينتظرهم عند الوفاة وما ينتظرهم يوم يبعثهم الله! أو ليس في مصير المكذبين قبلهم وقد شهدوه ممثلا في ذينك المشهدين عبرة وغناء: ﴿**هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾.

﴿**فأصابهم سيآت ما عملوا وحاق بهم ما كانوا يستهزئون...**﴾ وعجيب أمر الناس... فإنهم يرون ما حل بمن قبلهم ممن يسلكون طريقهم... ثم يظلون سادرين في الطريق غير منصورين أن ما أصاب غيرهم يمكن أن يصيبهم، وغير مدركين أن سنة الله تمضى وفق ناموس مرسوم، وأن المقدمات تعطى دائما نتائجها، وأن الأعمال تلقى دائما جزاءها، وأن سنة الله لن تحابيهم ولن تتوقف إزاءهم ولن تحيد عن طريقهم... وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون... فقد آتاهم الله حرية التدبير والتفكر والاختيار، وعرض عليهم آياته في الآفاق وفى أنفسهم، وحذرهم العاقبة، ووكلهم إلى عملهم وإلى سنته الجارية... فما ظلمهم الله في مصيرهم المحتوم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون... فما قسا عليهم في عقوبة... إنما قست عليهم سيآت أعمالهم... فقد أصيبوا بنتائجها وجرارها: فأصابهم سيآت ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون... ولهذا التعبير وأمثاله دلالة فإنهم لا يعاقبون بشئ خارج عن ثمرة أعمالهم الذاتية.

وإنهم ليصابون بحرائر سلوكهم التلقائية. وهم ينتكسون إلى أدنى من رتبة البشرية بما يعملون فيجازون بما هو أدنى من رتبة البشرية في دركات المقام المهين والعذاب الأليم. ومقولة جديدة من مقولات المشركين عن علة شركهم وملابساته: ﴿**وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا**

حرمنا من دونه من شئ. . .﴾ فهم يحيلون شركهم وعبادتهم آلهة من دون الله هم وآباؤهم، وأوهام الوثنية التي يزاولونها من تحريمهم لبعض الذبائح وبعض الأطعمة على أنفسهم بغير شريعة من الله. إنهم يحيلون من هذا لمنعهم من فعله. وهذا وهم وخطأ في فهم معنى المشيئة الإلهية.

وتجريد الإنسان من أهم خصائصه التي وهبها له الله لاستخدامها في الحياة. فالله سبحانه لا يريد لعباده الشرك. ولا يرضى لهم أن يحرموا ما أحله لهم من الطيبات. وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها في شرائعه على ألسنة الرسل الذين كلفوا التبليغ وحده فقاموا به وأدوه. . . **﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين. ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت. . .﴾** فهذا أمره وهذه إرادته لعباده. والله تعالى لا يأمر الناس بأمر يعلم أنه منعهم خلقه من القدرة عليه، أو دفعهم قسراً إلى مخالفته. وآية عدم رضاه عن مخالفة أمره هذا ما أخذ به المكذبين: **﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**.

إنما شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى والضلال، وأن يدع مشيئتهم حرة في اختيار أيّ الطريقين ومنحهم بعد ذلك العقل يرجحون به أحد الاتجاهين، بعدما بث في الكون من آيات الهدى ما يلمس العين والأذن والحس والقلب والعقل حيثما اتجهت آناء الليل وأطراف النهار. . . ثم شاءت رحمة الله بعباده بعد هذا كله ألا يدعهم لهذا العقل وحده، فوضع لهذا العقل ميزانا ثابتا في شرائعه التي جاءت بها رسله. يثوب إليه العقل كلما غم عليه الأمر، ليتأكد من صواب تقديره أو خطئه عن طريق الميزان الثابت الذى لا تعصف به الأهواء.

ولم يجعل الرسل جبارين يلوون أعناق الناس إلى الإيمان. . . ولكن مبلغين ليس عليهم إلا البلاغ. يأمرون بعبادة الله وحده واجتناب كل ما عداه من وثنية وهوى وشهوة وسلطانٍ. . . فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة: فريق استجاب. . . وفريق شرد في طريق الضلال. . . فكلاهما لم يخرج على مشيئة الله وكلاهما لم يستقره الله على هدى أو ضلال. . . إنما سلك طريقه الذى شاءت إرادة الله أن تجعل إرادته حرَّةً في سلوكه، بعدما زودته بمعالم الطريق في نفسه وفى الآفاق. كذلك ينفى القرآن الكريم بهذا النص وهم الإجبار الذى لوح به المشركون، والذى يستند إليه كثير من العصاة والمنحرفين.

والعقيدة الإسلامية عقيدة ناصعة واضحة في هذه النقطة... فالله يأمر عباده بالخير وينهاهم عن الشر ويعاقب المذنبين أحيانا في الدنيا عقوبات ظاهرة يتضح فيها غضبه عليهم... فلا مجال بعد هذا لأن يقال: إن إرادة الله تتدخل لترغمهم على الانحراف. ثم يعاقبهم عليه الله! إنما هم متروكون لاختيار طريقهم. وهذه هى إرادة الله. وكل ما يصدر عنهم من خير أو شر. من هدى ومن ضلال يتم وفق مشيئة الله على هذا المعنى... ومن ثم يعقب على هذا بخطاب إلى الرسول يقرر سُنّة الله في الهدى والضلال: ﴿**إن تحرص على هداهم فإن الله لا يُهدى من يضل**﴾. فليس الهدى أو الضلال يحرص الرسول على هدى القوم أو عدم حرصه... فوظيفته البلاغ. أما الهدى أو الضلال فيمضى وفق سنّةٍ، وهذه السنة لا تتخلف ولا تتغير عواقبها... فمن أضله الله لا يُهدى منه أحد... فلا يجد الضال هاديا يهديه؛ لأن الله أضله... ولأن لله سننا تعطى نتائجها... وهكذا شاء والله فعال لما يشاء... ﴿**وما لهم من ناصرين**﴾: ليس لهم من دون الله أي نصير!..

التوجيه الثالث: ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت**﴾: في هذا التوجيه بيان وتوضيح لمقولتهم التي أظهروا فيها كفرهم بهذا القول الصريح. الواضح الذى لا يحتاج إلى توضيح أكثر من هذا التوضيح... فهؤلاء المشركون من قريش أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت... فهم يقرون بوجود الله ولكنهم ينفون عنه بعث الموتى من القبور... يرون هذا البعث أمرا عسيرا بعد الموت والبلى وتفرق الأشلاء والذرات. وغفلوا عن معجزة الحياة الأولى وغفلوا عن الله وقدرته التي لا تقاس بتصورات البشر... وغفلوا كذلك عن حكمة الله في البعث. وهذه الدنيا لا يبلغ أمر فيها تمامه... فالناس يختلفون حول الحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر. وقد لا يفصل بينهم فيما يختلفون فيه في هذه الأرض، لأن إرادة الله شاءت أن يمتد ببعضهم الأجل، وألاّ يحل بهم عذابه الفاصل في هذه الدار. حتى يتم الجزاء في الآخرة ويبلغ كل أمر تمامه هنالك.

والسياق يرد على تلك المقولة الكافرة، ويكشف ما يحيط بها في نفوس القوم من شبهات... فيبدأ بالتقرير: ﴿**بلى وعدا عليه حقا**﴾. ومتى وعد الله فقد كان ما

وعد به لايتخلف بحال من الأحوال. . . ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ حقيقة وعد الله. وللأمر حكمته: ﴿**ليبين لهم الذين يختلفون فيه، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين**﴾ مما ادعوا أنهم على الهدى. وفيما زعموا من كذب الرسل. ومن نفى الآخرة. وفيما كانوا فيه من اعتقاد ومن فساد. والأمر بعد ذلك هين: ﴿**إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون. . .**﴾ والبعث شئ من هذه الأشياء، يتم حالما تتوجه إليه الإرادة دون إبطاء.

وهنا يعرض في الجانب المقابل للمتكبرين الجاحدين، لمحة عن المؤمنين المصدقين الذين يحملهم يقينهم في الله والآخرة على هجر الديار والأموال في الله وفى سبيل الله: ﴿**والذين هاجروا في الله من بعدما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون. . .**﴾ فهؤلاء الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم، وتعروا عما يملكون وما يحبون، وضحوا بدارهم وقرب عشيرتهم والحبيب من ذكرياتهم هؤلاء يرجون في الآخرة عوضا عن كل ما خلفوا وكل ما تركوا. وقد عانوا الظلم وفارقوه. . . فإذا كانوا قد خسروا الديار فلنسكننهم خيرا مما فقدوا. . . ولأجر الآخرة أكبر لو كان الناس يعلمون هؤلاء الذين صبروا واحتملوا ما احتملوا. . . وعلى ربهم يتوكلون لا يشركون به أحدا في الاعتماد والتوجيه والتكلان. . . ثم يعود السياق إلى بيان وظيفة الرسول التي أشار إليها عند الرد على مقولة المشركين عن إرادة الله الشرك لهم ولآبائهم.

يعود إليها لبيان وظيفة الرسول الأخير، وما معه من الذكر الأخير. وذلك تمهيدا لإنذار المكذبين به ما يتهددهم من هذا التكذيب: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى إليهم. . .**﴾ فلم نرسل ملائكة ولم نرسل خلقا آخر. . . رجالا مختارين يوحى إليهم كما أوحى إليك. ووكل إليهم التبليغ كما وكل إليك. . . ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾. أرسلناهم بالبينات والشرائع كما ﴿**أنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾. ويختم هذا الدرس الذى بدأه بالإشارة إلى الذين يستكبرون ويمكرون. . . ينتهى بلمسة وجدانية بعد لمسة: أولاهما التخويف من مكر الله الذى لا يأمنه أحد في ساعة من ليل أو نهار.

والثانية لمشاركة هذا الوجود في عبادة الله وتسبيحه. . . فليس إلا الإنسان

وهو الذى يستكبر ويمكر... فكل ما حوله يَحْمَدُ ويسبح: ﴿**أفأمن الذين مكروا السيآت أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون. أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين. أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم**﴾. أعجب العجب في هؤلاء البشر أن يد الله تعمل من حولهم، وتأخذ بعضهم أخذ عزيز مقتدر فلا يغنى عنهم مكرهم وتدبيرهم، ولا تدفع عنهم قوتهم وعلمهم ومالهم. وبعد ذلك يظل الذين يمكرون يمكرون، ويظل الناجون آمنين لا يتوقعون أن يؤخذوا كما أخذ من قبلهم ومن حولهم، ولا يخشون أن تمتد إليهم يد الله في صحوهم أو في منامهم، في غفلتهم أو في استيقاظهم.

والقرآن الكريم يلمس وجدانهم من هذا الجانب ليثير حساسيتهم للخطر المتوقع الذى لا يغفل عنه إلا الخاسرون: أفأمن الذين مكروا السيآت أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون... أو يأخذهم وهو يتقلبون في البلاد. من بلد إلى بلد للتجارة والسياحة. فماهم بمعجزين لله، ولا يبعد عليهم مكانهم في حال أو ترحال... أو يأخذهم على تخوف، فإن يقظتهم وتوقعهم لا يرد يد الله عنهم فهو قادر على أخذهم وهم متأهبون قدرته على أخذهم وهم لا يشعرون... ولكن الله رءوف رحيم. ذلك والكون من حولهم بنوامسه وظواهره يوحى بالإيمان، ويوحى بالخشوع: ﴿**أو لم يروا إلى ما خلق الله من شئ يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون...**﴾ فمشهد الظلال تمتد وتتراجع، تثبت وتتماءَل مشهد موح لمن يفتح قلبه، ويوقظ حسه، ويتجاوب مع الكون حوله.

والسياق القرآنى يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله بالسجود ـ وهو أقصى مظاهر الخضوع ـ ويوجه إلى حركة الظلال المتفيئة... وهى حركة لطيفة خفية ذات دبيب في المشاعر وئيد عميق. ويرسم المخلوقات داخرة: خاضعة خاشعة طائعة. ويضم إليها ما في السماوات وما في الأرض ويضيف إلى الحشد الكوني الملائكة، فإذا هو مشهد عجيب من الأشياء والظلال والدواب ومعهم الملائكة، في مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود، لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يخالفون عن أمره. والمنكرون المستكبرون من بني الإنسان وحدهم شواذ في هذا المقام العجيب... ﴿**ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم**

لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾: وبهذا المشهد يختم الدرس الذي بدأ بالإشارة إلى المنكرين المستكبرين؛ ليفردهم في النهاية بالإنكار والاستكبار في مشهد الوجود.